مدن الملح - الأخدود

رواية

عبد الرحمن منيف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر


رواية
مدن الملح
الأخدود

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً موكيالي . بيروت . ص . ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثانية ١٩٨٦

عبد الرحمن منيف

رواية

مدن الملح

الأخدود

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

صمم الغلاف : ضياء العزاوي

بدت موران في تلك الايام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل ، وكأنها لا تنتظر شيئاً ، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً او بقية من ترقب ، وترى في هذا السكون حذراً مخادعاً ، اذ لا بد ان ينتهي فجأة وكأنه لم يكن ، ولذلك ، ودون اتفاق او تدبير ، شارك الجميع في هذا الصمت ، وجعلوا لحركتهم البطيئة الموزونة طابعاً من الخفاء المشوب بالتآمر ، وبالغوا في ذلك اشد المبالغة ، لان خطأ اياً كان سببه او مصدره لا بد ان يعكر الكثير، وقد يخلق صعوبات ليس من السهل معالجتها .

فوفاة السلطان خريبط التي بدت بنظر الكثيرين مفاجئة ومذهلة ، او كأنها كارثة من كوارث الزمن لا يمكن ردها او احتمالها ، كانت في الحقيقة منتظرة ، بل ومتوقعة بين يوم وآخر ، بعد ان انتشرت اخبار مرض السلطان ، ثم العمى الذي اصابه ، وتلك الاشاعات التي بدأت تتسرب عن خرفه . لقد استبطأ بعض الناس الوفاة ، واستغرب غيرهم انها لم تقع في وقت سابق ، أما بعد ان وصل الدكتورصبحي المحملجي الى موران ، وما رافق وصوله من ضجة وهمس وتساؤل ، وتلك الحركة النشيطة بين قصر الروض وصيدلية البكري ، فقد تأكد الكثيرون ان الوفاة اصبحت وشيكة تماماً ، خاصة بعد أن نُقل اليهم ما قاله حمود الكايد الذي يعمل في الصيدلية ، فقد ذكر لأثنين من أقاربه ، جاءا للتو من الرحيبة طلباً لعلاج ينقذ ابن الشيخ محيسن الذي « ملأت الديدان جوفه وطلعت من اذانه » واكدا ان بذور اليقطين التي التهمها الصبي تكفي لاطعام حصان ابن سنتين ، لكنها لم تفده . ذكر حمود للرجلين ، وهو

شبه واجم ، ولا يسمع ما يقولانه ان « العود يقضي الليلة . . وابعد تقدير باكر » . وقد تأكد له ذلك من مجيء الدكتور صبحي مرتين الى الصيدلية، وما رافق مجيئه من اهتمام وحركة ، اضافة الى عدد المرافقين والحرس، وقد لجأ هؤلاء الى اخراج جميع الذين كانوا في الصيدلية لكي « يصفى بال الدختور وما يغلط » . وصادق البكري ، صاحب الصيدلية ، الذي لا يسمح عادة لاحد ان يتجاوز مسافة معينة ، او الاقتراب من الواجهات الزجاجية، والذي لم يسمح لحمود نفسه بالدخول الى غرفة تركيب الادوية ، الا بعد ان مرت فترة طويلة على استخدامه ، وبعد أن راقبه بعين ذئب، وتأكد من كل شيء ، افسح صادق البكري المجال لا شعورياً ، وامتدت يده تدعو الداخلين ان يتقدموا الى ما وراء الواجهة الزجاجية . ثم قضى مع الطبيب وقتاً غير قصير في غرفة تركيب الادوية . وطوال الوقت الذي استغرقه وجود الطبيب في الصيدلية بدا الاستاذ صادق خائفاً مسلوباً ، مما ادى الى وقوع عدة اخطاء ، آخرها سقوط زجاجة زرقاء كبيرة وتحطمها ، وقد سبب له هذا خجلاً وكدراً فتصبب منه العرق وهو يعتذر . أما بعد ان خرج الدكتور صبحي فقد رافقه الاستاذ صادق ، متقدماً المرافقين والحرس ، وظل واقفاً عند باب الصيدلية ، حتى بعد ان غابت السيارات وانعطفت نحو اليمين .

حمود الكايد وهو يساعد في اعادة ترتيب الادوية حاول ان يحزر الحالات والامراض التي تستعمل تلك الادوية في علاجها ، لكنه لم يتوصل الى تحديد يطمئن اليه ، وان كان قد قدّر خطورة المرض وخطورة وضع المريض . أما حين بدأ معلمه باعداد فاتورة تختلف عن اية فاتورة سابقة ، اذ كتب في وسطها بخط واضح معتنى به : «القصر»، فلم يبق شك أن الدواء يعني السلطان بالذات، فلما مال حمود عليه وسأله بهمس :

ـ عمي . . من هو المريض ؟

فوجىء الاستاذ صادق بالسؤال ، وقد اخرجه من تأمله وانشغاله ؛ مد شفته السفلى ، وقال دون ان ينظر اليه :

ـ اهتم بشغلك ، يا ابني ، وما عليك من غيره !

لم يكن حمود بحاجة لان يسأل، ولم تكن عادة معلمه ان يجيبه بهذه الطريقة ، اذ لو صبر وانتظر دقيقة اخرى لجاءه الجواب ، لان ابا بكري لا يستطيع ان يحتفظ بالسر اكثر مما يحتمل الاحتفاظ بالشهيق او الزفير في صدره ، خاصة وان جميع من في السوق توقفوا واطالوا النظر الى الصيدلية ، وراقبوا باهتمام دخول الدكتور صبحي ومعه مرافقو الامير خزعل وحرسه الخاص ، وما تولد نتيجة ذلك من خوف واهتمام . أما حين خرج صوت ابو بكري بطيئاً حزيناً :

- الله يشفيه ويطول عمره . . .

فان هذا الجواب جعل حمود واثقاً متأكداً من استنتاجه . قال للرجلين اللذين دخلا من جديد من اجل اخذ العلاج :

- الحقوا وليدكم، يا جماعة الخير، قبل ما ياكله الدود .

واضاف بعد قليل بهمس وهو ينحني قليلاً لكي لا يسمعه غيرهما :

- ما اظنهم يلحقون العود!

اضطرب الرجلان قليلاً وتلفتا ، أما وهو يخرج معهما ، فقد قال بوضوح شديد :

- الدواء اللي اخذوه ماله فايدة غير كركرة المصارين . . .

تطلع الى السماء وهو يضيف كأنه يكلم نفسه :

- والعود اذا عاش اليوم يودع عقبه . . وتشوفون !

تأخر الرجلان في موران ، ومع كل ساعة تمر تتزايد الاخبار حول الانهيار الكامل في صحة السلطان ، ومع تزايد الاخبار تختلف الروايات ويكثر الرواة ، حتى ان ما ذكره الرجلان ، نقلاً عن حمود الكايد ، لم يعد يعني شيئاً في وقت لاحق ، لان الكثيرين افترشوا الارض ، غير بعيد عن قصر الروض ، وراقبوا كل داخل وكل خارج ، واهتموا باصغر الحركات واكثرها خفاء ، بل وتحدثوا في بعض الامور بصوت عالٍ . أما صيدلية البكري التي ظلت موضع اهتمام ومراقبة ، لان ادوية جديدة جيء بها من المستودع ، ولان صادق وحمود تعاونا

بهمة كبيرة من اجل تنظيف غرفة تركيب الادوية ، وتم نقل اشياء من هذه الغرفة الى مكان امين وبعيد عن الانظار ! وقد كانت هذه الاجراءات ضرورية للغاية ، لان ما توقعه صادق البكري قد حصل ، اذ عاد الدكتور صبحي الى الصيدلية من جديد ، وبعد ان راجع بعناية كبيرة صنوف الادوية ، وتطلع الى الكتاب الذي استخرجه الاستاذ صادق من درج الطاولة الخلفية التي يجلس وراءها في ساعات الراحة او اثناء استقبال احد الاطباء . بعد ان قام الاثنان بهذه المراجعة ، ولم يجد الطبيب الدواء الذي يريده اضطر الى تركيبه ؛ وفي مرة ثانية واخيرة جاء الطبيب في الليل المتأخر ، بصحبة صادق ، وعلى ضوء مصباح يدوي واعواد الثقاب تم تناول زجاجة كبيرة زرقاء ، نقلت بسرعة الى القصر . لكن كل شيء كان متأخراً وغير مجدٍ .

ففي صباح اليوم الثالث صدر عن قصر الروض البلاغ التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » صدق الله العظيم .

واعلنت وفاة السلطان خريبط .

بهذه الطريقة جاءت نهاية السلطان خريبط ، وهكـذا اعلن عنها . ومـع ذلك فان الحزن امتزج بالانتظار ، وسرعة الدفن ترافقت مع سرعة الاستعداد لتنصيب الامير خزعل ومبايعته ، لان الخوف كان كبيراً ان يختلف الاخوة بعد وفاة السلطان ، خاصة وان احاديث كثيرة بدأت تنتشر في الأيام الأخيرة حول الوصية ، وما يحتمل إن يكون قد طرأ عليها من تعديل، وهذا ما جعل موران تعيش حالة من الخوف والترقب .

أما الدكتور صبحـي الذي زار موران عدة مرات من قبل ، ولم يلفت نظر الكثيرين، وكانت تلك الزيارات جميعها بدعوة من الامير خزعل ، فقد ظهر في هـذه الزيـارة شخصاً مختلفـاً ، بل وخـطيراً ، لان العيون كلها كانت تراقبـه وتتابعه ، ولان حياة السلطان كانت بين يديه . حتى محمد عيد الذي ظـل في حران خلال هذه الفترة ، والـذي لم يتبادل مـع الدكتـور ، بعد عـودته ، الا كلمات قليلة ، ما لبث ان فاض في الحديث عن الساعات الأخيرة للسلطان ، فقص كيف انه تحسن وعادت اليه صحته نتيجة الادوية وطريقة المعـالجة التي اتبعها الدكتور صبحـي ، لكن الاطباء الذين تناوبوا على معالجته من قبل ، والاخطاء التي ارتكبوها لم تترك لـه الفرصة! ومع ذلـك فقد قضى السلطان براحة ودون آلام ، وفي الصحوة الأخيرة ، والتي سبقت الوفاة بساعة كاملة ، طلب من الدكتور اعادة قراءة الـوصية ، وقـد ورد التأكيـد فيها ثـلاث مرات أن يكون بعده الامير خزعل سلطاناً، بعد ان قام الدكتور بقراءة الوصية، وقد طغـت اثناء قراءتها حالة من الحزن الشديد، وانهمرت دموع الكثيرين دون

رغبة منهم او دون ارادة ، ختمها السلطان بخاتمه ، ووقّع الدكتور صبحي الوصية بصفته شاهداً ومحرراً .

هكذا روى محمد عيد قصة مرض السلطان وموته ، لكن ما لبث ان اخذ يعدل فيها ويضيف اليها مرة بعد اخرى ، فانتشرت في حران روايات كثيرة عن كيفية موت السلطان ، وما يحتمل ان يكون قد حصل خلال الساعات الأخيرة .

وموران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت ، لم ترتح ولم تفهم لماذا غادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث . كان يفترض ان يبقى ، ان يقف الى جانب الامير خزعل ، بحكم الصلات والمودة التي تربطهما ، وان يتصرف بطريقة مختلفة عن الاغراب ، وتلك الوفود التي كانت تصل موران فتقضي يوماً او بعض يوم ، لتقدم العزاء ، ثم تعود من حيث اتت .

حين غادر الدكتور صبحي موران بشكل مفاجىء قال عدد من رجال الامير خزعل : « الرجل عمته الفلوس ، وهذه الفلوس راح تذبحه في يوم من الأيام» ولم تفهم هذه الاشارة ما اذا كانت تعني الاموال التي يحتمل ان يكون قد حصل عليها نتيجة قيامه بمعالجة السلطان خريبط ، او حرصه على العودة المبكرة الى حران ليتابع اعماله هناك . أما زيد الهريدي الذي ظل واقفاً الى جانب سيارة الدكتور ، وتحدث معه لفترة غير قصيرة ، فلم يسمع تماماً ما قاله الرجال ، وحين سأله مساعدوه وبطريقة لا تخلو من التعريض، عن سفر الدكتور ، فقد ابتسم وهز رأسه -أسفاً، لان احداً لا يعرف ولا يقدّر ! أما حين عاد الدكتور في صبيحة اليوم السابع ، ومعه وفد كبير من حران ، فقد بدا انساناً مختلفاً لكل من رآه : فالملابس الافرنجية التي كانت تميزه ، من قبل ، عن الكثيرين حوله، وكان يحرص على اختيارها بالوان زاهية، ويحرص اكثر على نظافتها واناقتها ، تخلى عنها لاول مرة في هذه الزيارة ، بل وبدا مثل دمية في الملابس العربية التي غرق فيها، وكانت فضفاضة واسعة ، ولا يحسن كيف يألفها او يتعود عليها ، خاصة اثناء السير، وكاد يعثر ويقع اكثر من مرة . أما اللحية التي تركها تنمو وتكبر خلال الأيام الماضية ، فلم تصبح ، بعد ، لحية مطمئنة مستوية مثل اللحى الكثيرة التي للآخرين حوله ، وليست مجرد ذقن طالت ولم تجد الوقت لان تُحلق . كانت تحت الغترة الحمراء والبيضاء تشبه

الظلال الحادة القائمة، او تشبه لحية رجل هارب ، خاصة وان الشعر في وجهه قد طال على شكل بقع صغيرة غير منتظمة .

كان لوصول الدكتور على رأس وفد كبير من حران وقع غير عادي ، والذين قالوا اول الامر انه حمل معه كميات كبيرة من الفلوس وسافر بها الى حران ، خوف ان تسرق هنا او تضيع ، رفضوا ان يصدقوا عودته ، بل انكروا ان يكون هو نفسه ذلك المجهول الذي يتعثر في ثيابه كالمطهِّر . أما حين قربه الامير خزعل ، مع اثنين من اهل حران ، وهمس في اذنه بضع كلمات ، هز الدكتور رأسه عدة مرات دلالة الفهم والموافقة ، والتفت اكثر من مرة ، كأنه يبحث عن شيء او احد، فبدت صفحة وجهه واضحة ، فقد تأكد الذين شكّوا في الامر ان الذي يرونه غير بعيد عنهم هو الطبيب نفسه . أما ما تلا ذلك ، وخلال الأيام اللاحقة ، حين بقي الدكتور في موران ، وظل مرتدياً الملابس العربية ، والتي اخذت في هذا الطور نسقاً اكثر انتظاماً ، وبدت اكثر ملاءمة له، ثم ذلك التشذيب وتلك العناية اللذين ادخلهما على لحيته ، فاصبحت قصيرة مقصوصة فاحمة السواد ، في وجه شديد البياض والحمرة ، فبدا انيقاً اناقة مفرطة . . عندما اخذت الاحوال هذا المنحى تشاءم الكثيرون وقدروا ان اموراً خطيرة ستجري، وان عهداً جديداً قد بدأ .

قال فرحان المدلول الذي يصب القهوة للامير ، وقد تلّفت عدة مرات قبل ان يتكلم ، وكان الحديث يجري عن الدكتور صبحي :

ـ اصبروا يا جماعة الخير ، طولوا بالكم . . قصر الروض شاف قبله كثيرين، لكن ما بقى منهم احد !

واضاف بعد قليل ، وكأنه يتذكر :

ـ وحدر رجلينا عظام كثيرين منهم !

أما لماذا نظر الرجال الى الدكتور هذه النظرة ، ولماذا ظنوا به الظنون فان عدداً منهم يتذكر زيارة الامير خزعل الى حران، وكيف ان هذا « العفريت » دخل الى قلب الامير خلال ساعات، وليس خلال أيام ، كما لم يحسن الى واحد منهم ، رغم انهم في خدمته منذ سنوات . ويتذكر اخرون السيارة

الخضراء التي كان يفترض ان ترسل الى امير المنطقة الوسطى، وقد قيل ذلك همساً ، بعد وصول السيارات الثلاث والعشرين ، لكن فجأة غيّرت تلك السيارة وجهتها وارسلت الى الدكتور صبحي ، في الوقت الذي اعتقد الكثيرون انهم اولى بها منه ، او ظنوا انها ستكون من نصيبهم . ورغم ان تلك الهدية لم يعد الامير خزعل يتذكرها ، بل وبدت صغيرة ازاء الهدايا التي قدمت للدكتور في وقت لاحق ، فان تلك السيارة بالذات خلقت حسداً في قلوب الكثيرين، وزاد هذا الحسد وتأكد بعد الزيارة الثانية التي قام بها الدكتور الى موران .

فلم يكد شهر ينقضي على الزيارة الثانية حتى وصل الى موران شاب لا يمكن تقديره عمره بدقة: مربوع القامة او اميل قليلاً الى القصر، له شاربان سوداوان كثيفان ، في وجه ابيض مشرب بحمرة ، وكان ذلك الشاب كلفاً بشاربيه ، لان الابهام والسبابة في يده اليمنى اخذا شكلاً لا يغيره ، فهما مفتوحان فتحة صغيرة ، وكأنها تدل على مقياس ثابت ، او كأنها طريق الى باطن اليد ، وكان لا يكف عن تمرير الاصبعين لينظم الشاربين .

هذا الشاب الذي وصل الى موران دون ان يتوقعه احد ، والذي اثار اسمه مقداراً من الاستغراب والسخرية ، حين قدم نفسه في قصر الروض ، وجرت اتصالات عديدة بين الحرس والمشرفين على القصر ، وقيل ان اسمه قدم الى السلطان ايضاً ، ولما انكر الجميع معرفته ، ولم يعرف بوضوح من طلبه او لاي امر جاء ، ارسل الى دار الامارة ، ومن دار الامارة ، وبعد اتصالات عديدة مرتابة ، ارسل مطيع شخاشيرو الى قصر الامير خزعل .

بعد انتظار وحيرة ، ولما ذكر للامير ان الشاب وصل بناء لطلب الدكتور صبحي المحملجي ، وقد طلب منه ان يصل الى موران بسرعة ، وان قرابة تجمع الاثنين ، بدا الامير راضياً مرتاحاً ، لكن مع ذلك ظلت المهمة التي يمكن ان يقوم بها مطيع غير واضحة او غير محددة ، اذ رغم ما اكده الدكتور من ضرورة ان يكون للامير سكرتير شخصي ، وان هذا السكرتير يمكن ان يقوم نيابة عن سموه باعمال كثيرة، فان هذه المهمات ، التي بدت مغرية وهامة حين عرضها الدكتور ، واكد ان لديه رجلاً خلق من اجلها ، اذ يستطيع القيام

بها واخرى غيرها ، ولم يوضح ذلك ، لكنه ابتسم ! تبدو هذه المهمات الآن مختلطة غير واضحة . قال الامير وهو ينظر الى الشاب ، ولئلا يخطىء في تحديد ما يجب ان يعمله :

ـ استرح هالحين ، يا وليدي ، وبعدين شوف الخويا واعمل اللي الله يقدّرك عليه !

لم يفهم مطيع معنى محدداً لهذه الكلمات ، أما الآخرون فقد فهموا ، بل وتأكدوا ان هذا الغريب جاء لكي يزاحمهم ، ليخلق لهم المشاكل ، فلذلك ظلت النظرة اليه مليئة بالتوجس والخوف ، واحس كل واحد انه يرى او يواجه خصماً او يمكن ان يكون كذلك في يوم من الأيام ، مما دفع الجميع لان يراقبوا ، ويدققوا ، ولان يغرقوا في الصمت حين يجيء او حين يسأل ، بحجة انهم « لا يفهمون ما يقول » ! ومطيع الذي لم يكن في عجلة من امره ، تحمل الصمت والحرب الخفية دون ان تصدر عنه كلمة احتجاج واحدة ، بل وبالغ في الامر ، فكان يبدو هادئاً ، مرتاحاً ، وشاكراً لكل تصرف ولكل نظرة ، حتى الاصوات التي كانت تصدر عن بعض الحرس والخدم ـ وبايعاز من رؤسائهم بكل تأكيد ـ حين يمر بابهامه والسبابة على شاربيه ، وكانت تولّد الضحك والسخرية ، ما كان يسمعها ، او لا يعتبرها موجهة اليه !

ظلت الامور هكذا وقتاً غير قصير ، أما حين طلب مطيع شخاشيرو من سمو الامير ان يسمح له القيام بجولة في انحاء السلطنة ، لكي يتعرف على طبيعتها ومناخها ، وليكون اقدر على مواجهة الصحافة والزوار ، كما اشار في تبرير هذه الجولة ، فقد رأى فيها سموه حكمة كبيرة ، وهمة لا تعرف التعب ، فوافق على الفور . والحقيقة ان مطيع كان يريد ان يصل الى حران ، ان يلتقي بخاله الدكتور صبحي ، لكي يبحث لنفسه عن عمل عنده ، او ليدبر امره بعد أن جاء به من «الفيّ والميّ إلى هذه الصحراء الملعونة» خاصة وأن طموحه يتجاوز كثيراً « هذه الجلسات الميتة التي تروى فيها القصة الواحدة مائة مرة ، باصوات عالية وحركات بلهاء ، دون ان تعني شيئاً ابداً . . » .

الزيارة الثالثة التي قام بها الدكتور صبحي الى موران يتذكرها الكثيرون

في قصر الروض ، فخلالها تشرف وحظي بمقابلة السلطان وتغدى على مائدته وتبادل معه اطراف الحديث ؛ وفي هذه الزيارة تحدد بشكل كامل ونهائي وضع مطيع شخاشيرو، الذي كان برفقة الدكتور ، وقد بدا خلال الزيارة ، ثم في الفترة اللاحقة ، وحتى وقت متأخر ، في منتهى الرضا والثقة بـالنفس ، وقام بدوره على احسن وجه، كما كان السلطان خزعل يقول ويؤكد ، حين يجـري الحديث عن كفاءة الاستـاذ مطيـع والدور الخـطير الذي يقـوم به والخـدمات الكبرى التي قدمها للسلطنة وللسلطان بالذات .

الـوقائـع التي رافقت المرحلة الاولى من اقـامة مـطيـع في مـوران غـابت وتراجعت في ذاكرة الكثيرين ، حتى القرابة التي تجمعه بـالحكيم لا تعني شيئاً مهماً ، ما دام الحكيم بعيداً في حران ، أما بعد ان جاء ليستقر ويبقى فقد بدأت تستيقظ المخاوف والشكوك .

الآن ومطيع مـرتبك امـام الضيوف الثـلاثة الـذين استدعـاهم الى قصر الغـدير ، لا يعـرف كيف يبدأ الحـديث ، قال لكي يفسر حـزنـه عـلى وفـاة السلطان :

ـ كان اباً لنا جميعاً . كان يعطف على الصغير والكبير . . . .

توقف قليلاً ثم اضاف بلوعة :

ـ اتذكره قبـل وفاتـه باسبـوع واحد : كـان رحمه الله يستمـع الى القرآن والدموع تتساقط من عينيه ، كانت تتساقط على خديه وعلى لحيته ، ولم يمد يده الكريمة ليمسحها !

وتنفس بعمق وحسرة ثم تابع :

ـ خسارته كبيرة ، اكبر من ان تعوض، لكن علينا ان نصبر وننتـظر اليوم الذي نلحق به الى جنات الخلد !

الزوار الثلاثة يصدقون ولا يصدقون الكلام الذي يسمعونه ، ومع ذلك كانوا متأكدين ان الكلام الذي يحتفظ به غير ما يقوله الآن ، وان ما يقلقه غير وفاة السلطان ، لكنهم ظلوا صامتين .

بعد ان طال الصمت المشبع بالتذكر تابع بارتباك :

ـ ما زالت رغبة الدكتور صبحي البقاء في حران. كلنا حاولنا معه ان ينتقل ، ان يجيء الى هنا ، لكنه يقول : تعودت على حران ، ارتبطت بالناس هناك ، ومستشفى الشفاء هي الوحيدة في حران ، فكيف اترك المرضى ولمن اتركهم ؟

وهز رأسه باسى واضح :

ـ ولولا رغبة السلطان والحاحه لا يمكن لقوة في الارض ان تقنعه على تغيير رأيه !

بدا الحديث للرجال الثلاثة غريباً ، فاذا كانوا قد سمعوا بالدكتور صبحي او رأوه ، واذا كانوا قد سمعوا بالجهود التي بذلها لمعالجة السلطان او لقتله ، فانهم الآن لا يفهمون لماذا استدعاهم السكرتير الشخصي للسلطان خزعل ولماذا يحدّثهم عن الدكتور صبحي ، قال شمران العتيبي . . .

ـ اذا كان يبغي حران فخلّه بحران .

رد مطيع باستنكار وتساؤل :

ـ ورغبة صاحب الجلالة السلطان ؟

ـ هنا الاجزخانات واجدة والدخاترة كثر . . . حران ما بها شي ، خلّه بحران .

ورغبة صاحب الجلالة يا ابو نمر ؟

ـ واهل حران . . ما هم جماعتنا ورعية السلطان ؟

ـ ولكن السلطان يريده هنا .

رد شمران بسخرية غير ظاهرة :

ـ على خيرة الله . . . اللي يريده السلطان يصير !

وخيم الصمت من جديد . كان الطرفان يدركان ان هذا الكلام تمهيد لما سيأتي بعده ، او أنه تمرين قبل ان يقال الشيء الجدي او الشيء المطلوب . قال فهيد العليان ليغيّر الجو او ليعطيه اتجاهاً جديداً :

ـ اذا ما وقع المطر مرة او مرتين من هالحين الى رمضان اظن ان الناس كلها راح تشرّق او تموت . .

قال ابو نمـــر بسخرية مبطنة :

ـ وكل الله يا رجّال . . بجيّة طويل العمر الخير كله يجي !

قال مطيع ، وقد احس ان الامور بدأت تفلت منه :

ـ كل شيء بارادة الله ، يا جماعة الخير ، واظن ان الأيام القادمـة ستكون ايام خير .

ولم ينتظر جواباً او تعليقاً ، اضاف بلهجة جديدة :

ـ يـا جماعـة الخير صـاحب الجلالـة السلطان كلفني ان اقابلكم وله طلب عندكم . . .

نظروا اليه ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً ، وظلوا صامتين منتظرين :

ـ جلالته يريد ان يكون الدكتور صبحي قريباً منه ، وان تكون المستشفى الجديدة غير بعيدة . . . والارض غـرب قصر الغديـر للشيخ شمـران ، هذه الارض نريدها ، واي مبلغ تريده يا ابو نمـر ندفعه !

توقف لحظة ، غيّر جلسته ، التفت قليلاً ثم اضاف :

ـ والارض بين الحاووز والسوق ، او ذيك بين السور وعطفة الدليعي نريد نعمر بها مستشفى ، اكبر مستشفى في موران ، تداوي كل الامراض ويدخلها كل الناس . . . فما قول الرجال ؟

بعد مفاوضات لم تطل ، تخللهـا الضغط والاغراء ، وتـدخل في احـدى

مراحلها قائد الشرطة وجيء بولدين من اولاد شمران وأُفهما ان الامر لا يحتمل الرفض او العناد ، لان هذه رغبة السلطان ذاته ، وهكذا انتهى الامر بان اشترى الدكتور صبحـي الارض غـرب قصر الغديـر وتلك الواقعـة بين الحاووز والسوق ، وقـد تحددت قيمـة هذه الاراضي من قبـل لجنة من ثـلاثة اشخـاص ، سمّي احد اعضـائها الـدكتور صبحـي وسمّى قـائد الشـرطـة الآخر، أما الثالث فقد سماه فهيد العليان بالنسبة لارضه، أما شمران العتيبي فظل على عناده ، مما دفع احد اصدقائه لأن يكون في اللجنـة و « الا الارض راحت بدون ثمن ويلزم ابو نمـر ان يـدفع من كيسـه ثمن الكوشـان وتحديـد الارض » . وبـانتهاء هـذه العملية اضـطر الدكتـور صبحـي الى العـودة الى حران «لأن الحكومة قررت شراء مستشفى الشفاء ، ولا بد ان ازور المرضى وأطمئن على صحتهم واوصي الاطباء والذين سيحلون مكاني بهم، وعليّ ان اقوم بواجب وداع الامير هناك والاصدقاء الكثيرين الذين اعتز بصداقتهم » .

لم تطل اقامة الدكتور صبحـي في حران ، عاد ومعه محمد عيد واثنان من اقربائه، كانا قد وصلا الى حران قبل بضعة شهور . كما لم يتردد في احضـار عائلته الى موران خلال الشهور الاولى . أما الارض التي اشتراها غرب قصر الغدير فقد احاطها بالاسلاك ، تمهيداً لاقامة منزل عليها ، وجنح به الخيال ، خـلال لحظة اشـراق ، فـاطلق على المنـزل الذي سيبنيـه اسم « قصر الحير » واصدقاؤه الذين استغربوا التسمية ، واعتبروها شططاً او امراً مبكراً للغاية ، ما لبثوا ان وجدوا الأمر طريفاً ، فحرّفوا الاسم قليلاً فاصبح « قصر الحور » ، دون ان يدركوا ما سوف يكون عليه في المستقبل . أما شمران العتيبي ، حين بلغته التسمية التي اطلقها الحكيم على الارض التي كانت له ، فقد ابتسم بغيظ وسماها اسماً من عنده: قصر الاير، وهذا الاسم الأخير، الذي لا يكتب ولا يتردد أمام الغرباء والنساء، كان الأكثر انتشاراً وتداولاً، حتى قيل إنه بلغ السلطان، فاكتفى بأن نظر في وجوه الذين حوله وابتسم! أما الدكتور الذي لم تكن تخفى عليه خافية، كما يقولون، فإنه لم ينزعج ولم يغضب. قال ذات يوم لمحمد عيد، الذي حاول أن يقنعه، بأساليب ملتوية وبدائية، الاستغناء عن الاسم، بحجة أن البيوت في موران وحران ومدن أخرى كثيرة، لا تطلق عليها أية أسماء. . قال له وهو يكز على أسنانه:

ـ اسمع يا ابني وتعلّم : الحكيم جـاء الى هذا المكـان ليغير كـل شيء : العقول والناس . . وحتى الاسماء ، ومن يعش ير !

هـذا التصميم الذي كـان يميـز مـواقف الحكيم ، ويجعله شـديـد الثقـة

بنفسه ، غير مبالٍ باقوال الناس ، اهتز قليلاً وهو يصل الى موران لكي يستقر فيها ، فهذه المدينة التي لا تشبه اياً من المدن الاخرى ، والتي تغرق في صحراء بعيدة منسية ، وتلك المياه التي تشوبها الملوحة وغير قليل من المرار ، ما كان يتصور انها ستكون البلدة التي يستطيع ان يعيش فيها ، فاصابه الاضطراب ، وعاوده الارق وما يشبه المرض ، كما حصل له تماماً خلال اقامته الاولى في حران . وبدأ يتذكر من جديد ما قاله لمطيع قبل اكثر من عام ، حين جاءه الى حران متذمراً شاكياً . وتذكر ايضاً الكلمات الكبيرة مع الضحكة ، وهو يحاول ان يقنع محمد بمرافقته الى موران . قال لمحمد عيد :

ـ اسمع يا محمد . . أنت مثل ابني غزوان او اغلى ، والوقت اللي قضيته وإياك اكثر من الوقت اللي قضيته مع اولادي . . .

وضحك ضحكة صغيرة مشوبة بالذكرى واكمل :

ـ وانا ادرى منك يا محمد ، والمثل يقول اكبر منك بيوم اعلم منك بسنة ، فاريدك ان تكون معي في موران ، وما راح تكون الا راضي ومروّق اربع وعشرين قيراط !

واسترسل الحكيم وهو يحدثه عن موران ، اية مدينة كبيرة ومنظمة هي ، واناسها اي بشر هم . انها لا تشبه حران التي اصبحت مأوى لقطاع الطرق واللصوص والمهربين ، ولكل من لا يجد عملاً ، وليست مثل رأس بدره او العوالي او مدن اخرى كثيرة . ويتذكر الحكيم انه قال في نهاية حديثه :

ـ وبعدما تصل الى هناك وتستقر راح تحسد نفسك على السعادة والنعيم وتقول : يا ضيعة حياتنا في حران !

لم يكن محمد عيد بحاجة الى هذه الاسباب كلها ، ولم يكن متردداً بالقدر الذي أفترضه الحكيم ، ولكي لا يبدو متسرعاً او تابعاً سأل عن عدد سكان موران وعن مناخها ، وتساءل ما اذا كان الحكيم سيفتح مستشفى هناك مثل مستشفى الشفاء او اكبر منها ؛ والحكيم الذي اجاب اجابات سريعة غامضة ، كان يحاول الا يشغل نفسه بهموم وافكار لم يحن اوانها بعد . قال لمحمد عيد الذي كان مشغولاً بلّف قطعة سلاح اهديت للحكيم من قبل امير حران :

ـ المشكلة الوحيدة ، يا عيدو ، اننا يجب ان نتعود على ملابس هؤلاء البجم !

توقف محمد عيد ، نظر الى الحكيم ، الذي تخفف من اكثر ملابسه ، وقال له وهو يبتسم :

ـ الحقيقة يا حكيم ان لا احد يفرقك عنهم . .

واتسعت ابتسامته حتى اصبحت اقرب الى الضحك وهو يضيف :

ـ الا اذا حكيت !

تذكر الحكيم هذا ، وتذكر اشياء اخرى كثيرة وهو يذرع الشرفة : يوم وصل الى حران ، ثم يوم اصبح رجلاً مهماً فيها ، وكيف بدأ يثبت اقدامه «ويمد جذوره» كما يجب ان يقول ، ثم كيف ساهم في انشاء المدينة واقام المستشفى ، وتذكر المبلغ الذي تبرع به لبناء المسجد الكبير، ثم كيف اصبح عضواً في غرفة التجارة . أما الابنية الكبيرة التي قامت في السوق خلال السنوات الأخيرة ، فلم يكن مجرد شريك فيها ، كان احد ثلاثة شركاء كبار ، وقد كان له رأي حاسم في التعديلات الكثيرة التي جرت على المخططات ، ثم التعديلات التي جرت اثناء التنفيذ .

ليس هذا فقط ، كان في حران الشخص الذي يتطلع اليه الكثيرون باعجاب ، ويفاخرون بكل شيء يعمله . كانت افكاره وكلماته تنتقل من مكان الى آخر ، حتى النكات التي رواها للامير ، او لبعض اصدقائه ، اصبحت تروى . صحيح انها كانت تتغير قليلاً ، وكان ينزعج ، بعض الاحيان ، حين تنقل اليه بشكلها الجديد المحرف ، او لان الآخرين لا يروونها بنفس الحيوية التي يرويها بها ، لكنه ، مع ذلك ، كان يسر في اعماقه . هكذا كان في حران ، وهذه نظرة الناس اليه ، وقد تأكدت اهميته حين قرر ان يغادر حران ، اذ ما كاد يبلغ الامير انه سيكون مضطراً للمغادرة الى موران، حتى ضرب الامير على جبينه وصرخ :

ـ ولمن تركتنا يا ابو غزوان ؟

ولما اوضح له ـ ويتذكر انه كان ينظر الى الارض وهو يتحدث ، لئلا يحزن

الامير اكثر ـ قال الامير بلوعة ظاهرة ودون مجاملة من اي نوع :

ـ والله يا أبو غزوان حران وانت غايب عنها بسفر ظلمة وما تنراد، فكيف وانت راحل؟

وبعد قليل وقد اصبحت لهجته مستسلمة :

ـ لكن اذا كانت هذه اوامر جلالته فاوامر جلالته على العين والراس .

وزفر الامير بحرقة وتابع :

ـ وظني اني ما أتاخر وراك . . يا ابو غزوان !

هنا ، في موران ، يمكن ان يجد المال ، ويمكن ان يعيش ، لكن الناس هنا نوع آخر ، انهم اقرب ما يكونون الى حيوانات الصحراء : مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة ، جلودهم سميكة ، واعماقهم بعيدة لا تدرك . حتى ضحكاتهم تبدو قصيرة خائفة ، أما اذا خلوا لانفسهم فانهم لا يوفرون احداً او شيئاً . انهم يقضمون حتى جلودهم . لماذا جاء اليهم ؟ الكي يقدّم لهم لحمه يأكلونه في الليل والنهار ؟ حتى يملأ لياليهم الطويلة الفارغة ؟

هكذا فكر وهو يستعرض حياته الماضية ، وحين شعر بالندم وبالحنين الى ايام خلت قال لنفسه بنوع من التحدي : « الرجال هم الذين يخلقون الاماكن ، وهم الذين يتركون بصماتهم عليها ، اذا اشتعلت عقولهم وقلوبهم بهمّ عظيم ؛ أما اذا اصبحوا يبحثون عن الماء والظل والحياة السهلة فانهم سيمضون مثل الحشرات دون ان يخلفوا اثراً » .

ويتذكر الحكيم ، وهو يذرع الشرفة الواسعة ، في الدار التي اتخذها سكناً له قريباً من قصر الروض ، وكانت عادته ان يرفع يديه حتى الكتفين حين يتنفس، حسب الطريقة التي تعلمها عندما كان طالباً، وهذه هي الطريقة الصحية ، وقد علّم الاولاد عليها..يتذكر الحكيم انه قال بصوت عالٍ وهو يبتسم من بين اسنانه :

ـ انا وموران . . وهذا الزمان !

وضحك بفرح لان كلامه كان شعراً خالصاً !

موران في تلك السنين التي اعقبت منتصف القرن ، لا تزال بعيدة منسية : لم تبلغ المدينة وان تجاوزت القرية ، فهي اقرب الى البلدات الكثيرة المنتشرة على طرق التجارة او في الواحات الكبيرة . الناس يعيشون حياة متواضعة ، اقرب الى الخشونة . يتوارثون اباً عن جد نظرة بسيطة الى الحياة - والموت ، ولانهم لا يؤملون الكثير من الحياة ، ولا يخافون الموت ، فانهم خلال السنين التي يقضونها على الارض يكدحون لانتزاع اللقمة ، ومع ان اللقمة صعبة او بعيدة اغلب الاحيان ، فقد كانوا ، مع ذلك ، يجدون وقتاً طويلاً يصرفونه لتأمل ما حولهم ، ويلهون انفسهم بحفظ الشعر وأيات القرآن وقصص الاقدمين . وفي ليالي الصيف الطويلة يجدون ارواحهم ترحل الى ما وراء الحياة والموت ، وعيونهم تجوب السماء تحدد مواقع النجوم ومسارها ، او تقرأ في الرياح علائم الغبار والمصائب والجراد .

ولان موران في ذلك الموقع النائي المعزول ، فلا احد يصلها الا اذا كان يقصدها، لذلك الف الناس بعضهم بعضاً، وعرفوا القرابات والعلاقات، وصارت جزءاً من حياتهم . فاذا جاء الغريب لا يمكنه ان يخترق القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا ، واذا استطاع فبعد وقت طويل وبكثير من المعاناة القاسية المجهدة . واهل موران الذين رأوا عدداً من الغرباء ، جاءوا او مروا ، كانوا ، اغلب الاحيان ، لا يبدون قلقاً او خوفاً ، ففي داخل تلك الشرنقة التي تحمي وتدفىء، وفي ظل تلك العلاقات الصلبة الراسخة، يعرفون كيف يحمون أنفسهم، وكيف يجب أن تكون ردود أفعالهم تجاه كل ما

يحصل حولهم ، لانهم على ثقة ان هؤلاء الغرباء لا يمتلكون الصبر ، ولا يعرفون الدروب الخفية الى دواخل البشر والصحراء ، ولذلك فان اقامتهم لن تطول . أما الذين جاءوا بهدف الاستقرار ، فما يلبث القلق ان يخامرهم ، ثم يبدأ الخوف يفتك بهم ، حتى اذا جاءت تلك الأيام اللافحة المثقلة بالغبار والحرارة، تصل أرواحهم إلى حلوقهم عندها إما أن يستسلموا أو أن يرحلوا . فالذين لا يمتلكون غير هذا المكان ، ويمتلئون اصراراً على البقاء ، يتحولون شيئاً فشيئاً الى نمط من الناس لا يختلف عن اهل موران ، بالنظرة ، بالسلوك ، بملامح الوجوه ، وبتلك الرغبة التي تولّد القوة على التحمل والاستمرار . أما الذين اكل الحنين قلوبهم وعقولهم ، ولسعت ملوحة المياه ومرارتها السنتهم ، وشعروا انهم محاصرون ، وقد اقترب منهم الموت ولا بد ان يدركهم ، فعندئذٍ ، وفي ليلة من ليالي الصيف ، ومع قافلة او رعية جمال ، يرحلون ، دون ان يقولوا ، ودون ان يفطن لهم احد ، وبرحيلهم تنقطع اخبارهم ، ويغيبون تماماً ، حتى انه لم يصادف ان عاد غريب الى موران ، بعد ان يكون قد تركها .

هكذا كانت موران عبر مئات السنين. صحيح انها كبرت واتسعت في بعض الفترات ، ثم تراجعت وصغرت في فترات اخرى ، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن ، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة .

انها مدينة عجيبة . حتى القصص التي ترويها الجدات للصغار تمتلىء بالجن والعفاريت ، وتمتلىء بالاصوات الخفية والبروق ، فيحار الصغار والكبار من هذه المدينة ، ويتلفتون حولهم ، ويغلفون خوفهم وانتظارهم بالصمت

أما الذين حكموا موران وما حولها فكانوا يخافون هذه المدينة اكثر مما يحبونها ، وكانوا دائماً يتوقعون ان تنشق الارض فجأة وتأتي على كل شيء ، وهذا التوقع الذي ملأ الحكام منذ ان وجدت موران ، وان لم يدركوا له سبباً واعياً ، ملأهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً : ان يعيشوا ليومهم ، ان لا ينتظروا الغد ، لان الغد ، اغلب الاحيان ، لا يأتي . هذه الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى مهل جعلت موران دائمة التوقع ، تنتظر ولا تمل من

الانتـظار ، وكانت عيـون النـاس لا تفـارق قصر السلطان، ايـا كـان هـذا السلطان .

واذا كـان لكل مـدينة مـزاجها وطـريقتها في التعبـير ، وتمتـلىء في بعض اللحظات بالاشواق او المخاوف، فان موت السلطان خريبط جعل موران في حالة اقرب ما تكون الى الانتظار والتوقع ، والناس فيها ينتظرون او يتوقعـون شيئاً ، لكنهم لو سئلوا اي شيء ينتظرون او يتوقعون فانهم لا يملكون جواباً .

قال شمران العتيبي ، حين بلغته وفـاة السلطان ، وكان حـوله ثـلاثة من ابنائه وبعض الأقرباء والاصدقاء :

ـ الله ياما شاف قصر الروض قبله ؛ لكن كلهم راحوا . وإذا الله أعطانا عمر بعد نشوف ، وإذا قضينا ومضينا اللي يجي بعدنا يشوف ويسولف .

وبعض الناس الذين سمعوا منذ وقت طويل ما قالـه منجم مغربي التقى بالامير خزعل في احدى سفراته ، حين كان ولياً للعهد ، وقيل انه نبهه لشيء واحد : ان لا يسكن في قصر ابيه ، لان هذا القصر سيكون قصراً مشؤوماً على من يأتي بعد السلطان الحالي ؛ ولما خاف الامير وسأله عن معنى ذلك ، قال له المنجم : « قلت لك ما يكفي وما يجب أن يقال . . فاحذر ! » .

هـذه القصة التي رواهـا واحد من خـدم الامير بتكتم شـديد قبـل سنين تذكرها بعض الناس ، لكنهم لم يتوقفوا عندها ، ولم يكونوا متحمسين لروايتها او اعادتها ، الشخص الـوحيد الـذي لم ينسَ يومـاً واحداً هـو الامير ذاتـه ، ولذلك حين بقي في قصره ، وحين بدأت موران تتجه الى قصر الغدير ، بعد ان كـانت لا تعرف الا قصر الـروض ، فان بعض النـاس تذكـر القصـة من جديد، ودخل الخوف قلوب الكثيرين ، لكنهم تغلبوا على الخوف بالانتظار .

هكذا كانت موران منذ ان وجدت في هذا المكان من الارض ؛ أما حين وصلها الحكيم اول مرة فقد وجدها مجموعة من البيوت الطينية المتلاصقة ، وما عدا قصر الروض ، اي قصر السلطان خـريبط ودار الامارة ، لا يمكن تمييـز البيوت بعضها من بعض . حتى قصر الغدير ، قصر ولي العهد ، رغم اتساعه ، قياساً للبيـوت التي حـولـه ، لم يكن أكـثر من بيت من بيــوت مـوران ، لبســاطته

وانخفاضه . كانت في جانب منه المضافة الواسعة ، وامامها فسحة كبيرة ، زُرع طرف منها ببعض النباتات والخضرة ، وبعد هذه الفسحة ، وفي جانب تحت اشجار النخيل ، باب يؤدي الى القصر الداخلي . والقصر الداخلي قُسّم بدوره الى اجنحة عديدة ، كانت تفصل بينها اسوار عالية ، وقد نظم بهذا الشكل لاعتبارات متعلقة بزوجات الامير ، ثم لاسباب الحماية، بحيث تتوافر امكانية الدفاع عنه اذا هوجم .

احياء موران متعرجة متداخلة . الشوارع ضيقة وتعج بالاتربة والاطفال والذباب. الاسواق التي تبدأ من اطراف الاحياء ، ثم تتجه وتمتد نحو الشرق والشمال، تصل الى قرب قصر الروض من ناحية ، والى مسافة غير بعيدة عن سوق الحلال من ناحية ثانية ، والبيوت تتخلل الدكاكين وتحتل جزءاً كبيراً من السوق .

ولان سكان موران من البدو ، حتى الذين استقروا وتحضروا ، فأنهم لم يتخلوا عن بداوتهم: كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها، وكانت الخيام الى جانب الغرف الطينية ، والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة، التي حفرت فيها المواقد، وجُهّزت . وغير بعيد ، في الجانب الآخر من الساحات ، المطابخ . أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيوت فقد اعدت لذبح الخراف، ولذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت الى اللون البني المقشور .

تشاءم الحكيم الى اقصى حد وهو يرى هذه البلدة ، وبدت له حران اجمل منها واكثر تنظيماً ..وظل رأيه كذلك حتى لما جاء ليسكن ويستقر . واذ كان يعزي نفسه او يحاول اقناع الآخرين ، فقد ظل يؤكد على شيئين اثنين : انها العاصمة ، ولا بد ان تتغير وتتفوق على المدن الاخرى بسرعة ، ثم انها مدينة كبيرة ، ,اكبر من حران ، وعدد سكانها يعادل ثلاث او اربع مرات المدن الاخرى .

وما عدا حي السفان الذي كان في اقصى غرب المدينة ، والذي يختلف عن الاحياء الاخرى ، اذ كانت بيوته جديدة واكثر نظافة وعناية ، فان موران

كانت تقبض النفس وتولد في القلب حزناً مبهماً ، لانها لا تزال تغرق في عتمة القرون ، ولانها متوارية لا تذكر .

حتى بعد ان بدأ النفط يتدفق ، واخذت تصل البواخر الى حران كل يوم ، لتحمل آلاف الاطنان كل ساعة ، لم تحس موران بذلك الا احساساً غامضاً ، اذ ظلت دائماً تنتظر مطراً لا يأتي ، وقوافل كثيراً ما ضلت طريقها ، كما استمرت تبعث بابنائها مع كل قافلة ومع كل رعية ابل ، علّهم يرجعون في فترة لاحقة مع شيء من قمح وقماش ، او لعلهم يرسلون القمح والقماش او بعض الدراهم من حيث هم مقيمون . وموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع ، الا حين يستبد العطش او يزيد عن حد معين ، وحين ينهكها الجوع فلا تقوى على احتماله اكثر من ذلك ، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت فتقتل نفسها وتقتل غيرها الى ان تجد توازناً بينها وبين ما حولها .

أما حين وضع الحكيم يده على الارض غرب الغدير ، وتلك القريبة من الحاووز ، فقد قال شمران كلمة استقرت في قلوب الكثيرين وعقولهم :

ـ موران ما كانت ابد جنة عدن . . وما اظنها تصير ، وهذون اللقامين ، واللي فاتحين حلوقهم ما يشبعهم الا التراب ، وبينا وبينهم خف وصافر وصنعة كافر . . ونشوف .

ومثلما كان الحكيم مشغولاً في حران ، وليس لديه الوقت الكافي ليسمع ما يقوله الناس او ليرد عليه ، فقد كان عنده الشيء الكثير ليفعله هنا . صحيح أن موران ليست حران ، والبشر هنا غير البشر هناك، لكن اصراره على أن يبقى ، ان يتكيف ، جعله لا يقترب من القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا ، وانما يتجه الى المسارب التي عرفها واختبرها من قبل . ولذلك ركز كل جهده على الصخرة القوية، كما كان يقول لنفسه . على السلطان بالذات . . .

كل وقته من اجل السلطان ، وكل خبرته وذكائه في خدمة صاحب الجلالة المفدى ، فقد كان واثقاً ان كسب قلب السلطان كسب كل شيء . وكان اقوى الجميع .

قال لجلالته في الأيام الاولى ، وفي لحظة تخيرها جيداً :

ـ اسمح لي يا جلالة السلطان ان اقـول ما يجب ان يقـال : انت سلطان السلاطين ، وانت هبة الله للعالمين . بمجيئك الخير جاء بعد العذاب والانتظار وبعد ذل السؤال .

موران كانت نسياً منسياً ، كانت مكاناً قصياً ، لا يأتيها الا ضال هارب ولا يبقى فيهـا الا قوي محـارب . أما بعـد ان جئت وجاء الخـير ، وبعـد ان امسكت بالرمل فتحول الى ذهب ، فلا بد ان تفعل الكثير ، أن تجعل الارض غير الارضَ والبشر غير البشر ، ونحن ، يا جلالة السلطان ، خدم بين يديك تأمر فنطيع ، ترغب فنستجيب » .

اعجب السلطان بهذه الديباجة ، وهزه الانفعال ، وضحـك كما يصهـل حصان فبانت اسنانه الكبيرة ، ونظر بتحديد من وراء نظارتيه ليكتشف ما اذا كان الحكيم يعني الكلمات التي قالها ام يسخر منه، فلما رآه جاداً منفعلاً، بل اقرب الى الحزن ، رد عليه :

ـ وكل الله يا حكيم ، وانشاء الله ما يصير الا الخير .

ـ يا سيدي ومـولاي : انت تعرف اكـثر من اي انسان : النفط في هـذه الارض منـذ آلاف السنين ، في مكـانه لم يتحـرك ، الى ان جـاء المغفـور لـه والدكم ، وبعد ان خبر القريب وَالبعيد ، وبعد ان سـأل وتأكـد واستقصى ، قال لهم : ابدأوا على مشيئة الله !

توقف ، تنفس بصعوبة ، واضاف :

ـ كان يمكن ان يبقى النفط في باطن الأرض، يا صاحب الجلالة، مئـات السنين ، آلاف السنين ، لكن العناية الالهية ، الرضا ، وذلك التوفيق من الله سبحانه وتعالى قال كن فكان . والآن ، اكثر من اي وقت ، وهنـا ، اكثر من اي مكان ، يا صاحب الجلالة ، يمكن ان تحولوا موران الى جنة على الارض ، ويمكن ان تحكموا القريب والبعيد .

كـان لوصـول عائلة الـدكتور صبحـي الى مـوران ضجة كبيـرة واهتمام اكبر ، فمحمد عيد الذي حدد اكثر من موعد لاحتمال وصول العـائلة ، ثم عاد واكد ان اشغالاً طارئة اخرت وصولها ، افاض كثيراً في الحـديث عن كل فرد من افرادها : ذكر الاسماء والاعمار وحدّد صفات كل فرد وشكله ، واكد ان اثنين من الاولاد الثلاثة ، بالذكاء والشبه ، اقرب الى الحكيم . أما الابن الاوسط والبنت الصغيرة فقد جاءا لاخوالهم ، واشار ، عرضاً ، الى ان عائلة الحايك كانت ولا تزال مضرب المثل بجمـال رجالهـا ونسائهـا ، وقد فُهم ان زوجة الدكتور هي سليلة هذه العائلة .

انتشرت الاخبار والاحاديث بسرعة وتداولها الناس في حي السفان والمنزه والاحياء المجاورة ، ورافق ذلك انشغال محمد عيد وحركته الزائدة ، من اجل تـرتيب البيت واعداده عـلى احسن وجه ، ولقـد استعـان بـاثنتـين من خـدم القصر ، وكلف رضوان ، سائق الطبيب ، ان يأتي بزوجته ايضاً . ولم يتردد هو والسائق في ان يشاركا ، لكن الحركة المنفعلة ، الاقرب الى الاضطراب وعدم المعرفة ، والتي رافقتها الضحكات المكتـومة التي كـانت تصدر عن النسـوة ، وهن يـراقبن محمد عيـد ، اخرّت العمـل كثيـراً وجعلت الجميـع يتحـركـون كالعميان . صحيح ان الاخطاء التي وقعت كانت هيّنة ويمكن تجاوزها ، لكن محمد عيد كان حانقاً متشدداً . وقـد اضطر في وقت من الاوقـات ، وقبل ان ينتهي العمل ، الى صرف النسـوة ، وان يتولى كـل شيء بنفسه ، لان ذلـك « ابرد للراس » كما قال لرضوان.

في اليوم الأخير قبل وصول العائلة ، وحين القى الدكتور صبحي نظرة على الشرفة ، وقد نثر فيها محمد عيد عدداً من تنكات الزرع ، ابدى دهشته واعجابه ، وحين سأله من اين اتي بالزرع اجاب وهو يبتسم ابتسامة ظافرة :

ـ برسم الاعارة والتأجير . . يا حكيم . .

ولما ظل وجه الحكيم متسائلاً تابع محمد عيد بلهجة جديدة :

ـ قلنا لرشدي اللحام : كم يوم ونرجعها لك ، وقد كبرت شبراً ، فقط لنستقبل ام غزوان ، لان البيت الخالي من عرق اخضر لا تزوره الملائكة .

الاشارة اللاسلكية التي وصلت الى دار الامارة ، حددت نهائياً موعد وصول العائلة . كانت الاشارة كما يلي : « باب الرجا يخاطبكم . المرجو تبليغ الدكتور صبحي المحملجي بطرفكم ان العائلة الكريمة غادرتنا متوجهة الى موران الجميع بصحة جيدة . الوصول الى طرفكم غداً ، الاثنين ، بين العصر والمغرب بمشيئة الله . اتخذوا ما يلزم وابلغونا الجواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قف » .

بعد تمنّع خجول وتردد لم يطل وافق الحكيم على ان يستخدم محمد عيد السيارة البيضاء المكشوفة في استقبال العائلة ، وهذه السيارة كان الحكيم قد اشتراها في السنة الأخيرة من اقامته في حران ، او بكلمات ادق : استوفاها مقابل دين كان له على السلامي ، لقاء علاجه واقامته في المستشفى . ورغم ان الحكيم استخدم هذه السيارة مرات في حران ، الا انه بدا متردداً هنا . أما وهو يوافق الآن فقد كانت حجة محمد عيد قوية دامغة : « اولاً السيارة كبيرة ، ويمكن ان ينتقل اليها الاولاد ؛ ثانياً ، رضوان يخربط بين يده اليمنى ويده اليسار ، وانا المفروض ان ادلهم على الطريق » . وبعد قليل اضاف بأسى : « واولها وآخرها ، يا حكيم ، يجب ان نستعمل هذه السيارة اليوم او بكرة قبل ما ياكلها الصدأ في الكراج » .

كان واضحاً من اشارات عديدة وغير مباشرة ان الحكيم لن يكون في الاستقبال عند وادي الرها، الحدود الشرقية لموران ، فقد اعتبر ان اقدامه على مثل هذه الخطوة سيفسر بالخفة ولا يتناسب مع موقعه الجديد ونظرة الناس

اليه . ومحمد عيد الذي ادرك بغريزته هذه النقطة اراد ان يمتحنها . سأل بخبث :

ـ اية ساعة تفضلون ان نغادر يا حكيم ؟

ـ وصولهم سيكون بين العصر والمغرب ، والاحسن ان تكون هناك حوالي العصر .

ـ وانت يا حكيم ؟

وضحك ضحكة صغيرة قبل ان يجيب :

ـ انا بانتظاركم . . هنا .

ـ راح ياخذ الاولاد على خاطرهم يا حكيم !

ـ بسيطة ، نرضيهم ، لا تخف .

واذا كانت عادة محمد عيد أن يكون اساسياً في تحضير الأكل، وان لا يكتفي بمجرد الاشراف، بعد ان استخدم الحكيم طباخاً هندياً، ونقله معه من حران ، فانه هذا اليوم لم يفكر بالأكل ولم يقترب منه ، اذ بعد ان اشترك مع رضوان في تنظيف السيارة ، طلب منه ، وبصيغة الأمر ، ان يخرجا بسرعة لتجربتها ، وقد فعل هذا اول مرة عند الضحى ، وبمجرد ان خرج الحكيم متوجهاً الى القصر ، والمرة الاخرى ، قبل الظهر بقليل ، ووصل في المرة الثانية الى وادي الرها ، كي يكون متأكداً من قوة السيارة وليعرف كم يحتمل الطريق على وجه محقق ، وقد راودته فكرة ان يبقى هناك وان ينتظر، لكن نظرة رضوان التي كانت تحمل اكثر من الاستغراب ، جعلته يعدل عن الفكرة . ومع ذلك اكتفى من الغداء بلقمات قليلة ، وانتهى في الوقت الذي كان رضوان لا يزال يفكر بصحن اخر ، وكانت عيناه تطوفان وتنظران الى الاواني العديدة، والتي بدت اكثر من اي يوم سابق . أما حين سمع صوت محمد عيد يستحثه للاسراع فقد اهتز رأسه اسفاً وحقداً !

اقتراح محمد عيد استخدام السيارة البيضاء المكشوفة كان اقتراحاً مصيباً ، وقيامه بتجربتها خلق من الاهتمام اضعاف ما حصل خلال الأيام السابقة ،

فأطفال حي السفان والمنزه واطفال احياء اخرى ، ثم الرجال الذين شاهدوا السيارة وابدوا اعجابهم وتساءلوا ، واخيراً النسوة اللواتي لم يستطعن البقاء بمعزل عما يجري ، فخرجت الكثيرات ، وفي اوقات عديدة ، بحجة البحث عن الاولاد او اعادتهم ، خلق هؤلاء وغيرهم اهتماماً لم يخف على الحكيم حين عاد من القصر ، واذ ابدى استغرابه اول الأمر ، لان عدداً من الرجال توقفوا حين مرّ ، والاطفال ركضوا وراء السيارة ، فانه لاول مرة منذ ان وصل الى موران يشاهد بعض النسوة عند ابواب البيوت . قال لنفسه دون ان يخفي سروره « الملعون لازم يعمل من كل شغلة جرصة ، ولازم يفضحنا بين الناس » أما حين سأل ابا عبد الله عن الساعة التي خرج فيها محمد عيد فقد اجابه :

ـ بعد المؤذن ما خلص من قولة الله اكبر إلا حرّك ومشى .

بعد المغرب وقبل العشاء ، ومع نسمات طرية منعشة ، وصلت العائلة الى وادي الرها . كان الاستقبال سريعاً مضطرباً ، وفضلت ام غزوان ان يبقى الاولاد معها في نفس السيارة ، لكن غزوان في اللحظة الأخيرة قرر ان ينتقل الى السيارة البيضاء المكشوفة . ولما لم تعترض امه فقد حاول اخواه ان يفعلا مثله، لكن الصرخة الحادة الآمرة جعلت كل شيء ينتهي بسرعة ، مما ولدّ في قلب محمد عيد وضعاً نفسياً افضل ، اذ ربما استطاع الوصول الى موران قبل العشاء. قبل أن تخلو الشوارع ويغيب الناس. وإذا كان قد لام السائق لتأخره، واحس ان الفترة الواقعة بين الغروب ووصول سيارتهم هي اطول فترة تمر عليه منذ سنين طويلة، فقد أمل وتوقع ان يكون الاستقبال في حي المنزه لائقاً ومؤثراً بحيث يعوّض ويتدارك ما لم يستطعه هنا !

السيارتان وهما تنهبان الارض في موران لكي تصلا الى اقصى مكان في جهة الغرب ، الى حي السفان ، كانتا تمران في ظلام لا تشقه الا انوار خابية متباعدة ، وفي سكون لا يقطعه غير نباح الكلاب . أما بعض المارة الذين القت السيارتان اضواءهما عليهم فقد كانوا من الافواج الأخيرة العائدة ، او اولئك الذين يقصدون اقرباءهم واصدقاءهم للسهر .

بدت موران ، في عيني محمد عيد ، كابية ، غافية ، مملوءة بالبلادة، وهو

يقطعها من شرقها الى غربها ، ولم يستطع ان يخفي انفعاله ، اثناء الاجابة عن اسئلة غزوان ، اذ كان الشاب ، يسأل عن نوع السيارة ، ومتى اشتراها ابوه ، وكم حصان قوتها . كان محمد يجيب بسرعة ودون اهتمام ، لان الافكار التي راودته بان يجتاز شوارع موران الرئيسية ببطء ، لكي يراه الناس ، خاصة وانه سأل رضوان بما يشبه البراءة وهم متوجهون الى وادي الرها ما اذا كان الشارع القبلي اطول ام شارع الروض ، وما اذا كان الناس في القبلي بعد العصر وعند الغروب اكثر او اقل ، ورضوان الـذي اجاب بتبسط ودون ان ينتبـه لما اراده محمد عيد ، كان يعرف طـرقاً لا يغيـرها ، ولا يـدري ان كانت هـذه الطرق اطول من غيرهـا ام اقصر . حتى الحكيم حين يـطلب منه ان يلتفت يميناً او يساراً ، في اطار اكتشاف المدينة والتعرف عليها ، وكان رضـوان يستجيب له استجابات مباشرة فورية ، لكن لا يلبث ان ينسـاها ويعـود الى الشوارع التي يعرفها وتعود عليها .

رغم ان محمد عيد امتلأ بالاحباط وخيبة الأمـل ، فقد ظـل يراوده امـل وحيد : ان يكون الاستقبـال امام البيت ، ومن سكـان الحي الذين انتـظروا وتوقعوا لائقاً وكبيراً .

ما عدا ثلاثة من الصبية ، وذلك الاعمى الذي لا يفارق بـداية شـارع السفـان ، لم يكن هناك احـد . حتى ابو عبـد الله اجهد نفسـه ، لكي يبـدو نشيطاً ، وقد تحرك هنا وهناك ، وسلم على الاولاد اكثر من مرة، كان يتحرك مثل الشبح . أما الحكيم الذي ظل في الشرفـة اول الأمر ، وكـانت ابتسامته كبيـرة ، ولا يكف عن ترديـد كلمات محـدودة وبصوت عالٍ، فلم يستـطع الانتظار او البقاء في مكانه ، كـما حرّض نفسـه ، لكي يختبر عواطفه، فقـد تدحرج بسرعة عندما سمع صوت غزوان ينادي : بابا. . بابا. . وغزوان ذاته ما لبث ان شعر بالهبوط حين رأى اباه بذلك الشكل الغريب ، فـاللحية التي تظهر وتغيب في تعاقب النور والظلمة ، نتيجة الحركة واللهفة ، وتلك الملابس الفضفاضة الغريبة ، جعلته يتردد . يضـاف الى ذلك الاصـوات التي تتزاحم وتختلط . ثم ذلك الانشغال المبالغ به لإنـزال الحقائب والاغراض ، ومعـرفة دروب البيت وكيفية الدخول والخروج ، كل هذه الامور ولّدت اضطراباً زائداً

وحركة عمياء . أما حين اصبح الحكيم وسط الجمع واختلطت دموعه بالقبل والضحكات والحركة الزائدة ، فقد بدا مثل طفل كبير ، وبدأ ايضاً غير قادر على التصرف. كان محمد عيد على بعد خطوتين أو ثلاث يراقب، يتابع ، وقد هزته دموع الحكيم وطريقته في السؤال والحركة . أما رضوان وابو عبد الله فقد ظلا بعيدين وكانا ينظران ولا ينظران . قال محمد عيد لنفسه وقد امتلأ قلبه بحزن شفيف « الانسان دون اهله وفي غير بلده مثل السمكة خارج الماء » .

ويتذكر الجوار في شارع السفان ان اصوات الضحك وبعض النداءات ظلت تسمع الى وقت متأخر من الليل ، ويتذكر ابو عبد الله ورضوان ، اعتماداً على احاديث محمد عيد المتكررة ، ان اولاد الحكيم اربعة ، أما حين حسبوا الاولاد فقد كانوا خمسة ، فتطلع الواحد في الآخر وتساءلا ، اما في صباح اليوم التالي ، فنظرا الى محمد عيد وابتسما !

بـدت مـوران في عيني وداد ، وهي تنـظر اليهـا من الشبـاك في الصبـاح الباكر ، مدينة منفّرة ، فالبيوت متلاصقة ، واطئة ، متتابعة وكـأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء ، واشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة ، عارية ، او اقرب الى العري ، حتى أنسام الفجر ، رغم طراوتها ، كانت جافة ومثقلة برائحة الغبار . نظرت الى هذه اللوحة وزفرت من اعماقها . أما وهي تشرب القهوة مع زوجها على الشرفة ، وقبل ان يستيقظ الاولاد ، فقد كانت تشعـر بالـراحة والـرضا والقلق والخـوف معاً . كـانت مشـاعـرهـا مختلطة ، مضطربة ، واقرب الى التشوش ، وبين رشفة واخرى كانت تنظر اليه ، تريد ان تراه في ضوء النهار .

في الليلة الفائتة ، وهي تنام الى جانبه ، كانت لحيته ـ وقد قصها وعطرها اكـثر من مرة في ذلـك اليوم ـ تضـايقها وتنفـرها ، حتى انها لم تصـدق خلال النظرات الاولى ، وهي تراه بهذا الشكل بعد غياب طويل . وفي الليل ، قالت له بدلع كادت تنسـاه لفرط مـا ابتعدت ايـامه : « صبـوحي . . شو سـويت بحالك ؟ انا زعلانة منك » ولما شدها اليه في محاولة لان يترك جسده يجيب ، ابتعدت قليلاً ، تابعت بنفس الهمس : « هاللحية ما حلوة ، كبّرتك وغيرت وجهـك » ، كادت تقـول جعلتـه بشعـاً ، لكن اختـارت تلك الكلمـة لئـلا تجرحه ، وحين اهتز جسده كله في ضحكة ، ارادها قوية ولها رنين ، رداً على كلامها تـابعت : « حتى الاولاد ما عـرفوك ، وسلمى سـألتني : مامـا ، هذا الحجـي مين هو » الآن ، في اضواء الصباح الاولى ، بعد ليلة لم يناما خلالهـا

الا نوم الكراكي ، تشعر ان لكل شيء طعماً جديداً ، خاصة بالنسبة اليها . فبعد هذه الرحلة الطويلة ، وهذه الليلة الاطول منها ، تحاول اكتشاف الرجل الذي عاشت معه سنيناً عديدة . انها تعرفه ولا تعرفه ، تراه غريباً ومألوفاً في آن واحد . لم تغيره اللحية فقط ، فصلعته اتسعت ايضاً وبدا لون البشرة متفاوتاً ، لكن ظلت لعينيه تلك النظرة التي هي مزيج من الثقة بالنفس والقلق ، الشهوة والخوف. وإذا تجنب، اغلب الوقت ، ان تلتقي عيناه بعينيها ، وتشاغل ، وسألها ما اذا كان الاولاد قد ناموا براحة ، وهل لا يزالون نياماً ، فقد لاحظ من النظرة الاولى انها مثلما كانت قبل سنتين : لم تكبر ، لم يتعبها السفر ، وتلك اللحظات البراقة المجنونة التي تعرف كيف توصله اليها اكتشفها من جديد ، حتى وهي بين المزح والجد تشد اللحية ، تداعبها ، كان راضياً وكان يريدها ان تفعل هكذا .

قال رداً على سؤال لم تسأله ، ولكنه قرأه في عينيها اللتين حدّقتا الى دائرة واسعة ، وكأنها تكتشف المدينة مرة اخرى :

ـ انشاء الله ما تنتهي السنة يا وداد الا ويكون بيتنا كمل .

ـ انشاء الله .

ـ وذاك البيت شكل آخر . . . ما هو بيت . . قصر .

قالت وهي تضحك من الفرح والخوف معاً :

ـ الظاهر ان العيشة طابت لك في هذي البلاد . . . وكأنك ما رايد ترجع !

رد بعصبية مكتومة :

ـ هذي البلاد احسن من غيرها يا بنت الحلال . . .

واضاف بعد قليل بلهجة مختلفة :

ـ وبكرة اذا تعرفت تتعودي .

قالت في محاولة هجوم خفية :

ـ كل ما اتمناه ، يا ابو غزوان ، ان اكون الى جانبك ، ان اساعدك ، لكن انا خائفة على الاولاد .

رد وهو يقهقه :

ـ اتركي الاولاد عليّ يا وداد . . . انا مسؤول .

ونهض . تقدم نحو حافة الشرفة . ظلت في مكانها ، لكنها تابعته ، قال لها دون ان يلتفت :

ـ تعالي يا وداد .

ولما وقفت الى جانبه اشار بيده :

ـ هذا البناء العالي ، مقابلنا ، قصر الروض ، قصر المرحوم السلطان السابق. الى يمينه نخلات ، بعد النخلات بحوالى اربعمائة متر ، خمسمائة متر، بيتنا.

ابتسم ، وبعد قليل تابع كأنه يحدث نفسه :

ـ ولو الواحد صعد الى السطح الثاني يمكن يميز موقعه بشكل احسن .

ولم يتركها تتكلم:

ـ وانشاء الله ، بعدكم يوم نمرّ ونشوف الارض وكل شيء .

قالت بنوع من التسليم :

ـ الله يقسم اللي فيه الخير .

ما كان لوداد ان تسلّم بهذه السهولة ، او ان تقول مثل هذه الكلمة ، لو انها لم تسمع حركة خلفها . التفتت ، كانت سلمى اللاثغة ، ذات الضفائر الذهبية ، التي تعرف كيف تدخل الى القلب ، هي التي اتت . لم تتذكر سؤالها لامها في الليلة الفائتة عن الرجل ذي اللحية ، هجمت عليه ، تعلقت برقبته ، زحفت على صدره ، ومدت يدها الصغيرة الى لحيته ثم سحبتها بسرعة وبقوة رد الفعل . سلمى التي وصلت الى موران في ذلك اليوم ، اوائل الصيف ، والتي سألت مئات المرات : « متى نصل » وكانت تريد الوصول

اسرع من البرق ، وبعد ان نامت وصحت في هذا الطريق الصحراوي الطويل مرات كثيرة ، والتي نظرت بلهفة اول الامر ثم زهقت وبدأت تكلم لعبتها، سلمى ذاتها سألت اباها: بابا. . متى.نرجع الى بيتنا ، ولما داعبها وقال لها : هذا بيتنا ، وطلب اليها ان تتحمل وتنتظر ، تحملت وانتظرت ، وكان في ذلك قدر غامض ملعون هو الذي اعطى لحياتها ذلك المعنى الذي لم تدركه ، وذلك النغم الحافل الصاخب ، حتى بصمته !

بعدها جاء الجميع . جاءت اول الامر نادية : بين الصبا والشباب : نحيفة ، ليست طويلة وليست قصيرة ، عيناها عسليتان كبيرتان وتضحكان دائماً ، تعرف كيف تتصرف، كيف تجامل . قالت له وداد في الليلة الفائتة ، بعد ان ذهب الاولاد للنوم ، ان نادية ، بنت اختها ، كانت تساعدها ، وانها ، « بعد ان تركت المدرسة ، الوحيدة التي تلائم غزوان . . ويجب ان نربيها على ايدينا » . والحكيم الذي سمع ولم يعلق بدا له الامر مبكراً ، وان غزوان اصغر من ان يفكر في الزواج . الآن وهي تأتي ، وهي تضحك مثل عصفورة صغيرة ، وهي تحمل فناجين القهوة الفارغة وتسأل ما اذا كان « عمو » يريد فنجاناً آخر ، او يريد كأساً من الماء ، وحين يرد عليها شاكراً ومعتذراً ، تضحك بخجل ، وتسأله من جديد ان كان يتذكرها لانها تتذكره جيداً ، وجواب الحكيم المتقن الواثق ، انه يتذكرها تماماً ، وانها لم تتغير خلال هاتين السنتين ، يحرض الاثنين على مراجعة سريعة ، وهذا التحريض ينصّب كله على الجسد ، فقبل سنتين لم تكن واثقة هكذا ، ولم تنظر الى الرجال هكذا ، ولم تحس في اعماقها حركة خفية جامحة مثلما تحسها الآن ، أما هو فلم يرها قبل سنتين بثديين تكورا وكبرا هكذا، ولم ير أردافاً اكتنزت وبرزت بهذا القدر. حتى الضحكة التي كانت صغيرة خجولة قبل سنتين فإنها الآن شيء آخر!

وجاء كمال وحامد معاً . كانا كبيرين وصغيرين في نفس الوقت . كانت لهما اسرارهما الخاصة ، وطريقتهما في الكلام ، وكانت لهما النغمة ذاتها في الرفض والقبول . وعندما سألهما ان كانت موران جميلة ويريدان ان يعيشا فيها ، فقد اختلطت الاجابتان معاً ، لكن فهم ان اياً منهما لا يريد ان يبقى . قال في محاولة لان يلقي درساً يتذكره الاولاد لفترة طويلة ، خاصة وقد رأى

غزوان قادماً واقترب كثيراً :

ـ الوطن ليس الارض او البشر ، الوطن ، من خلال التجربة ، هو المال ، والانسان محل ما يُرزق يلزق ، لان الواحد عندما يكون غنياً يكون قوياً ، وكل مكان هو فيه وطنه . . . . وبكرة الحياة تعلمكم !

انتظر غزوان الى ان انتهى ابوه من كلامه ، ظل واقفاً بأدب ظاهر يستمع ، ينظر الى الوجوه ، ينظر الى ابيه بحب يمازجه الاعجاب ، فلما انتهى قال بصوت اراده واضحاً :

ـ صباح الخير بابا .

والحكيم اذ كان حائراً منذ وقت طويل ، لأنه يحب اولاده حباً متساوياً ، فان غزوان ، « هذا الملعون يسحره » ولذلك يحبه اكثر من الآخرين . كان يفسر الأمر في البداية انه الولد البكر ، وفي وقت لاحق بدا اقرب الى رأي اخته خيرية التي كانت تؤكد ان « غزوان مثل أبيه بكل شيء . فولة ومقسومة ، بس واحد كبير وواحد صغير » أما خلال زيارة الحكيم الأخيرة فقد بدا له غزوان رجلاً قبل الاوان : كان يحب جلسات الكبار واحاديثهم ، وكان يتصرف مثل اب : يوجه الى اخوته الاوامر ، يخاف منه اخوته ، ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظرة الاخوة الى بعضهم ؛ حتى الجوار ، كما قيل للدكتور ، ينظرون اليه « مثل رجل صغير » ! وكان لا يتردد في ان يفعل كما يفعل الكبار . الآن والحكيم ينظر اليه في ضوء النهار فوجىء ان شاربيه طرّا وصوته اخشوشن فاصبح كالرجال ، حتى نظرته تبدو اكثر جرأة وتحديداً مما كانت عليه من قبل . قال الحكيم لنفسه « الولد سر ابيه » وشعر انه يحب غزوان وينظر اليه بشكل خاص . قال بصوت استعراضي :

ـ تعال . . . تعال يا ابني .

ومن نظرة اخلى كمال الكرسي الذي كان يجلس عليه الى جانب ابيه ، ولما جلس غزوان ظل صامتاً ومطرقاً . قال ابوه بمودة ظاهرة :

ـ ها يا غزوان احكِ لي كيف كانت السفرة . . وكيف تركتم الناس هناك ؟

ـ كل شيء كان ممتاز يا بابا ، والناس هناك ، كلهم . . كلهم قالوا لي : امانة سلّم على بابا .

واهتزت اعطاف الحكيم وهو يضحك بلذة .

ـ وشو كمان يا غزوان ؟

ـ الحكي كثير يا بابا . . بس لا اعرف كيف ابدأ !

وشعر الحكيم بثقة اكبر وهو ينظر الى ابنه ، نقل عينيه في وجوه الآخرين ، وبعد قليل سأل :

ـ ودراستكم . . . كيف كانت الدراسة ؟

قالت وداد بحسرة :

ـ انا خايفة عليهم من ناحية الدراسة . هناك كانت دراستهم ممتازة . يخزي العين . .

قال الحكيم بثقة :

ـ يا ام غزوان . . انا ما بعثت وراكم الا بعد ان درست كل صغيرة وكل كبيرة ، وتأكدت بنفسي . . .

ودون ان يفسح المجال اضاف بلهجة فخمة :

ـ المدرسة الخاصة في موران موجودة ، ومستواها ومناهجها مثل بيروت ، احسن من بيروت ، وما راح يتغير شيء على الاولاد .

سأل كمال بمكر .

ـ والاولاد والبنات مع بعض ؟

نظر اليه غزوان نظرة تأنيب . قالت الام بتورية :

ـ موران ما هي بيروت ، ولا تفتح نفسك كثير.

قال حامد مازحاً وكانت كلماته تتعثر :

ـ كمال قال لي ما راح يتجوز من هون !

ردت الام بخشونة مبالغ فيها ، وكانت تريد ان يسمع زوجها :

ـ يلزملكم قطع لسان ، لان الواحد منكم بعده ما فقس من البيضة ويحكي كلام اكبر منه !

وتغيرت نبرة صوتها :

ـ واذا كنتم هناك فلتوا ، وكان ابوكم بعيد ، من اليوم ، اي خطأ ، اي كلمة راح الواحد يتكسر راسه .

قال الحكيم ليصلح الموقف :

ـ طوّلي بالك يا ام غزوان ، الشباب صاروا كبار وصاروا يقدروا مسؤولياتهم ويعرفوا اللي بيجوز واللي ما يجوز . . وبعدين لكل حادث حديث!

ما كاد الاسبوع الاول يمر علـى وصول العائلة، حتى استأذن الحكيم ، بكثير من التواضع والخجل، ان يوافق صاحب الجـلالة عـلى ان تقوم حـرمه بزيارة خاصة للماجدة زوجة السلطان ، لتقدم احترامها ولتكون في الخدمة . واذ اجـاب السلطان، بكلمات سـريعة مـرتبكة ، أن الأمـر لا يحتاج الى هـذه المـوافقة ، ولان نسـاء القصر ، بمن فيهن حرمـه ، لم يتعودن عـلى مثل هـذه المراسيم ، فقد خـطا الحكيم خطوة اضـافية اذ طلب من جـلالته ان يتفضـل بتخصيص دقيقة واحدة فقط من وقته لكي يقوم غزوان بتقبيل يديه . وغزوان الذي اصرّ منذ اليوم الثاني على ان يرافق اباه « لمرة واحدة . . . » ويزور القصر ويعـرف اين يجلس ابوه وكيف يعمـل ، رافقه مـرة ثانيـة ، والآن وصـاحب الجلالة السلطان يهز رأسه ويقول ان « ابنك مثل اولادنا يا دكتور واهلاً وسهلاً ولازم نتعرف عليه » يغمز الحكيم مليحان حاجب السلطان ، لكي ينادي على غزوان ويقول موضحاً ومعتذراً :

ـ خير البر عاجله يا صاحب الجلالة ، وغزوان جاء معي اليوم ليقوم بهذا الواجب .

ومثل القصص التي تروى عن الاولاد الاذكياء الذين تتـاح لهم الفرصـة لمقابلة الملوك والرؤساء، كيف يتكلمون وكيف يتصـرفون ، فقـد حفظ غزوان الدرس كله ، فما كاد يدخل بثيابه العربية البيضاء الانيقة ، ووجهه الاحمـر ،

من الصحة والخجل ، حتى قال بصوت استعراضي عالٍ لا يتحمله المكان ولا العدد القليل من الرجال الموجودين :

ـ السلام عليكم .

واحنى رأسه اكثر من مرة للسلطان تعبيراً عن الاحترام الشديد، ثم نظر ناحية اليمين واحنى رأسه، وكذلك فعل ناحية اليسار، لكن الانحناءتين كانتا اقل واسرع مما فعل وهو يحيي السلطان . ما كاد يفرغ من هذه الحركات التمثيلية حتى تقدم نحو السلطان وقبّل يده .

أُخذ السلطان بحركات الفتى ، قال له بكثير من الود :

ـ تعال . . تعالى يا وليدي ، تقّرب مني .

ومثل الفتاة الخجولة نظر غزوان نحو ابيه يستشيره ما إذا المكان الذي اشار اليه السلطان اكبر منه ام لا ، فلما جاءت كلمات الحكيم الواثقة :

ـ اجلس حيث امر صاحب الجلالة .

جلس غزوان ، نظره الى الارض ويداه متشابكتان عند صدره . أما حين سأله السلطان عن احواله ودراسته فقد بدا خجولاً وهو يجيب بنفس الكلمات والتعابير التي لقنه اياها ابوه خلال الأيام الماضية ، ولما سأله من جديد ما اذا كان يريد ان يصبح طبيباً مثل ابيه ام يفضل عملاً آخر ، رفع رأسه لاول مرة ، نظر الى ابيه ، ثم نظر الى السلطان ، وقال بصوت واثق مع ابتسامة :

ـ العمل الذي تريدونه سأقوم به يا صاحب الجلالة !

ضحك السلطان ضحكة مجلجلة وهز رأسه دلالة الاعجاب وقال مخاطباً الحكيم :

ـ نِعْم الخلف لنعم السلف .

وظل الحكيم مطرقاً فلم ينظر في وجوه الذين حوله ، وبدا اكثر من ذلك محرجاً ، وكأنه فوجىء . وبعد ان مر بعض الوقت رفع عينيه الى غزوان ،

وقال له بحزم ، لكن دون غضب: الزيارة انتهت ويجب ان تنهض وتخرج . والصبي الذي تحرك اكثر من مرة ، دون ان يعرف كيف يستأذن ، ووقف ثم جلس ، تطلع مجدداً الى ابيه وكأنه يلومه أنه لم يوضح له كيف يجب ان يتصرف ، قال الحكيم :

ـ والآن . يا صاحب الجلالة ، هل تأذنون لخادمكم بالانصراف ؟

والسلطان الذي لم يتعود ، بعد ، على هذه الطريقة في الخطاب ، بدا له ان الحكيم يبالغ ، رد بارتباك :

ـ انشاء الله نشوف المحروس مرات ومرات !

بعد بضعة ايام قامت زوجة الحكيم بزيارة لجناح النساء في القصر . وقد اصطحبت معها سلمى . ورغم الجهد الكبير الذي بذلته لاستعادة بعض الكلمات التي حرص الحكيم على ان يرددها امامها ، وطلب اليها ان تحفظها وتستعملها ، فقد احست انها غير قادرة على ان تلوي لسانها كما يفعل هو ، ولذلك ، وخلال اللحظات الاولى ، لم تتردد في ان تكون كما هي ، لانها اذا اصبحت موضع سخرية ، منذ البداية ، فلن تستطيع شيئاً في وقت لاحق ، ولانها قالت لنفسها «الافضل أن يضحكن من لهجتي من ان يضحكن عليّ». وإذ فوجئت بنساء القصر ، ولم تستطع ان تحدد بالضبط ايتها زوجة السلطان ، فان بعض ما قيل فاتها ، او لم تستطع ان تفهمه على وجه مؤكد . ومع ذلك استطاعت ان تميّز الاميرات من الخادمات ، ليس فقط من الملابس ، وانما من طريقة التعامل والنظر ايضاً . واستطاعت ان تفهم الكثير مما سألنها عنه . كانت الاسئلة مركزّة حول الحكيم بالدرجة الاولى. سألنها ما إذا تزوجته قبل ان يصبح حكيماً ام بعد ذلك ، وهل هو قادر على معالجة كل الامراض . وسألنها ايضاً، مع ابتسامات غير بريئة ، ما اذا كان يعالج النساء وكيف « يكشف » عليهن ، وهل يكون عادة معهن بمفرده ام يكون احد معه . وزوجة الحكيم التي اجابت عن هذه الاسئلة دون تحرج ولم تخف شيئاً، لم تدر ان كانت ابتساماتهن والنظرات التي تبادلنها نتيجة المعلومات التي ذكرتها ام بسبب لهجتها . ومع ذلك شعرت بالسرور والرضا وهي تتحدث ، واحست انها يمكن ان تكون قريبة من هاته النسوة ، وان تصبح محبوبة !

أما سلمى التي بدت كاللعبة ، بضفائرها الذهبية وملابسها الانيقة ، فقد لفتت نظر الجميع من الوهلة الاولى بحركاتها واسئلتها . كانت اول الأمر كالقطة الخائفة ، تربض الى جانب امها ، لكن بمرور الوقت بدأت تنقل نظراتها في وجوه النسوة وتتطلع الى كل ما حولها ، وقد ردت على الابتسامات بخجل في البداية ثم ما لبثت ان تجرأت ، أما حين قامت احدى النساء وغابت فترة قصيرة ثم جاءت بسلسلة ذهبية وطلبت من سلمى ان تقترب ، فلما تمنّعت دفعتها امها وشجعتها فتقدمت بتهيب اقرب الى الخوف . وحين وضعت تلك المرأة السلسلة في رقبتها وقبلتها احست الصغيرة بالفرح والطمأنينة ولم تمانع في ان تجلس لبعض الوقت إلى جانبها وان تنظر اليها بين فترة واخرى .

وداد وهي تحدث زوجها عن الزيارة لم تستطع ان تنقل اليه صورة واضحة ، اذ اضافة الى عدم وجود موضوع يشكّل محوراً للحديث ، فقد كانت تعطي للنساء صفات او وضعيات مبهمة للغاية ، كأن تقول المرأة الكبيرة . وتلك الاصغر منها ، وهذه التي كانت تجلس ناحية اليمين ، والثالثة عن يسارها . هذه الطريقة في نقل ما جرى خلقت لدى الحكيم تشويشاً اضافياً . كان يريدها ان تحدّثه عن زوجة السلطان بالذات : عن جمالها وعمرها ، ما تحب وما تكره ، واي نوع من النساء هي ، لكنها لم تكن متأكدة . وتلك الاوصاف العامة المتداخلة جعلت الصورة تهتز وتضطرب ، أما الاسئلة التي تناولته بالذات فقد مرت عليها زوجته بشكل عارض ، ولم تذكر الا اقل الاشياء . وحين أطلعته على السلسلة الذهبية التي أعطيت للصغيرة ، والتي خلعتها من رقبتها وهما في السيارة « خوف ان تضيع . . وستكون لك عندما تكبرين » هكذا قالت لها ، ووضعتها فور عودتها في تلك العلبة التي تضع فيها حليها واشياءها الثمينة ، حين اطلعت الحكيم على الهدية بدا مسروراً للغاية . قلّب السلسلة عدة مرات وارتسمت على وجهه علامات التفكير . قال في لحظة اشراق :

ـ انا واثق تماماً ان المرأة التي قدمت الهدية هي بالتأكيد زوجة السلطان !

وحين ابدت زوجته دهشتها واستغرابها ، قال وكأنه لم يلاحظ :

ـ العادة في هذه البلاد ان « الكبير » هو الذي يقدم الهدية ، ولا يمكن

لاحد اقل منه او اصغر ان يتجاوزه ويفعل ذلك

ـ ولكنها لم تكن تجلس في الوسط!

ـ انهم يحبون ان يكونوا قريبين من الضيف .

ـ وامرأة ثانية ، اكبر منها ، ويسمونها امي زهوة ، كانت تنظر الى الجميع وتراقب الجميع ، وكانت اية واحدة لا تتكلم قبل ان تنظر اليها وتستأذنها .

ومن جديد بدأ الحكيم يستوضح ويدقق ، لكنه ركز اسئلته حول المرأة الكبيرة بالذات . ماذا قالت وكيف تصرفت ، واصرّ وهو يسألها من جديد ان يعرف كيف نظرت اليها !

في صباح اليوم التالي ، وسلمى تدور حوله ، تداعبه ، تنشد له بعض الاشعار والاغاني التي حفظتها ، قال لنفسه وهو ينظر اليها « انتِ وغزوان ولدتم في نفس البرج : برج الدلو ، وبرج ابوكم ما هو بعيد عنكم » .

وغرق الحكيم في افكار واحلام كثيرة ، لكنها كانت مضطربة متداخلة ، وحين جاء ابو عبد الله بقهوته المرة قال له الحكيم وكان يبتسم :

ـ اذا الشيء اللي ببالي صار ، يا ابو عبد الله ، راح اعطيك اكرامية اكبر من معاشك !

ومثّل الحكيم دوراً كاملاً وهو يشرب القهوة ، وبدا واثقاً متأكداً وهو يهز الفنجان الثالث والأخير ، دون ان ينظر الى ابي عبد الله الا نظرة صغيرة خاطفة ، تماماً كما يفعل السلطان حين ينظر الى فرحان .

قال الحكيم لنفسه وهو يصعد السيارة « برج الجدي او الدلو يحوّل الرمل الى ذهب وانشا الله املي ما يخيب ! » .

وداد الحايك ، او « ام الاولاد » ، كما يحب الحكيم ان يسميها ، ليست سليلة عائلة عريقة كما يطلق عليها محمد عيد ، فهي البنت الأخيرة لوجدي الحايك ، ذلك الرجل الذي تعب من كثرة التنقل بين المهن والاماكن ، الى ان استقر في طرابلس . وفي طرابلس ، حيث بدأ الدكتور صبحي ممارسة المهنة ، وعن طريق امه ، الشديدة التدين ، والتي تعتبر ان الزواج ستر ، وان من يريد اختيار فتاة للزواج يجب ان ينظر ، قبل الجمال والمال ، الى امها ، كيف تعامل اباها ، وهل تخاف الله وتميز بين الحلال والحرام .

عن طريق امه تزوج الحكيم بنت وجدي الحايك ، وكان الاب ، في تلك الفترة ، قد استقر على مهنة جديدة : قسام شرعي ، وهذه المهنة التي استهوته تماماً ، جعلته لا يتحدث الا عن الموت والموتى : كيف خطف الموت البشر وابقى الثروة ، لكي يختلف عليها الاحياء ، ولولاه لامات الناس بعضهم بعضاً ، وان الموتى ذهبوا الى الباري باكفانهم ، ولا يمكن تمييز الواحد من الآخر او التفريق بينهم .

كانت وداد تسمع هذه القصص في الليل والنهار ، وتولدت لديها نتيجة ذلك كراهية لهذا البيت الذي لا تدور فيه الا قصص الموت والموتى . أما حين جاءت ام الحكيم تختبر ثم تخطب ، فقد مثّلت معها وداد دوراً كاملاً ، واجتازت بنهايته الاختبار ، فما كادت تقترب منها ام الحكيم لتتأكد من رائحتها حتى اعطتها نفسها ، وقبل ان تطلب منها القهوة اقترحت على امها ان تصنعها

بنفسها . أما حين نظرت ام صبحي ، في لحظة غياب وداد وامها ، تحت الفراش فقد تأكدت ان « نظافة الجماعة مثل البلور او مثل نظافة الجامع » .
بعد ان اطمأنت العجوز لكل شيء جرى الحديث عن الخطبة . . ثم الزواج .

والحكيم الذي رأى الفتاة ، وقد اعجب بالضفيرة الطويلة والبشرة البيضاء ، وكانت وداد تختلف عن الأخريات بطريقتها في التصرف ، لم يتردد كثيراً في الموافقة على رأي امه ، وان كانت مهنة الاب قد سببت له نوعاً من المضايقة . لكن وجدي الحايك الذي ظل بعيداً في المرحلة الاولى ، حين كانت تجري المفاوضات وتدبر الامور ، ما لبث ان ظهر ، لكن ظهوره الناعم المتقن ، وطريقته في الكلام والتصرف ، تركا نوعاً من الراحة في نفس الحكيم ، حتى أنه لم يحس انه امام رجل مهنته تقسيم المواريث . ووجدي الحايك الذي ذكر عرضاً المهنة ، اشار بطريقة لا تخلو من الذكاء والمكر ، ان هذه المهنة لا تختلف عن غيرها ، وانه يمارسها لأنها اقل ازعاجاً من مهن أخرى ، وأنها تماماً مثل مهنة النجار أو مهنة الحلاق ، وكاد يقول ومهنة الطبيب ايضاً ، لكن الابتسامة الصغيرة والعبارة العامة التي استعملها اوضحت ما يريد دون كلمات .

ولكي لا يواجه الطبيب احراجاً ، وربما اساءة لفهم مهنته بالذات ، فقد غيّر مكان سكناه ، وتكتم على امر الزواج فترة من الزمن ، بل واخذ يفكر بترك طرابلس الى مكان تتوافر فيه فرص اكبر ، وهذا ما حمله الى حلب . وفي حلب كون لنفسه اسماً ومنزلة ، وبعدها انتقل الى دمشق فبيروت ، الى ان صار طبيباً لبعثة الحج ، وبعدها طبيباً في حران .

وداد التي كانت امام شبح الموت الذي تخافه وتهرب منه باستمرار ، لان « رائحة الموتى عالقة بثياب ابي ، وجو الآخرة لا يفارق امي » لم تتردد في ان توافق الحكيم على الانتقال من مكان الى آخر . أما حين رافق بعثة الحج اول مرة ، وعاد وذكر أنه لم يتوصل الى نتيجة بالنسبة «لأملاك العائلة» لأن الوقت كان قصيراً « وهؤلاء الحجاج المسنون لا يرتاحون ولا يتركون احداً يرتاح » ويجب ان يعود مرة اخرى لمتابعة بحث الاملاك « ولان هذه البلاد لها مستقبل ، ويمكن للانسان ان يصبح غنياً بين يوم وليلة ، اذا كان فهيماً وشاطراً » .

اعتبرت وداد ان فكرة من هذا النوع لا تزال مبكرة ، ولا تقتضي خلافاً بشأنها مع زوجها ، ولم تظن ان الحكيم قرر السفر والمغادرة .

في السنة التالية ، وحين تقرر ان يرافق بعثة الحج ايضاً ، وقبل اسابيع من موعد السفر ، ولكي لا يترك لنفسه او لغيره الاعتراض او المناقشة ، قام بتصفية العيادة وتحويل الزبائن . وفي الأيام الأخيرة ، حين كانت وداد تعد له ملابسه والاشياء التي يحتاجها ، قال لها ان اقامته ، هذه المرة ، ستكون طويلة ، وقد يبعث وراءها لكي تلتحق به ، ولذلك ترك لها مبلغاً كبيراً ، اكبر من اية مرة سابقة « أما البيت فاتركيه وخيريه تتولى بعدك كل شيء » . ووداد التي تعودت على الموافقة ، وتعودت اكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون ان يقول لماذا، لم تعترض هذه المرة ايضاً ، خاصة وان احتمال ان يراجع الحكيم افكاره وقراراته احتمال لا يزال قائماً . أما بعد ان استقر في حران ، وجاء عدة مرات في زيارات قصيرة ، وحدثها عن هذه المدينة التي تعج بالحياة والمال والمستقبل ، وقال لها ان عيادته السابقة في حلب لا تتعدى ان تكون غرفة حراسة في المستشفى الكبير الذي بناه في حران ، وأنه بدأ الآن بتحقيق الافكار والاحلام التي ملأت رأسه ، فكانت تحاول ان تصدقه ، وان كان يكفيها ان تبقى حيث هي ، وان يأتي الحكيم بين فترة واخرى ، وان يرسل من المال ما يكفي للانفاق على البيت والاولاد .

قضى الحكيم سنوات في حران ، بعيداً عن زوجته واولاده ، لا يأتيهم الا مرة في السنة ، وبعض الاحيان مرتين ، لكن لا يبقى الا اسابيع قليلة ، يكون خلالها مشغولاً بتأمين الادوية والمعدات والممرضين ، وبعض الاحيان الاطباء ، ويبحث مع الكثيرين في مشاريع وافكار لا تمت الى مهنته باية صلة ، ثم بعد ذلك وبسرعة يبرم عقوداً وينجز مشاريع لا يعرف احد طبيعتها وحجمها ، او كيف ستدار ومن سيديرها . فاذا سألته وداد يجيب بكلمات قليلة تزيد عقوده ومشاريعه غموضاً . أما املاك العائلة التي كانت السبب في رحيله اول الامر، فلم يعد يتطرق اليها. أما حين سألته ذات مرة، فقد نظر اليها باستغراب كأنه يحاول ان يتذكر ، فلما دارت عيناه وعرف عما تسأله ابتسم ابتسامة كبيرة واجاب :

ـ المسألة فيها أمل كبير . . كل ما تحتاجه الملاحقة والوقت !

ولم يضف شيئاً آخر، ولم تسأل هي مرة اخرى .

خلال هذه السنوات لم يتغير الحكيم وحده ، تغيرت وداد ايضاً . فالنظرة المسالمة الى كل ما حولها ، وتلك الطاعة التي كانت تميز سلوكها ، وتصرفاتها ، والفلسفة التي حاول الحكيم ان يزرعها في وجدانها خلال السنوات الاولى من زواجهما، تغيرت كلها . لم يجر التغير سريعاً او دفعة واحدة ، كما لم يجر نتيجة تدبير واع او لسبب محدد .

كانت تريد ان تهرب من الموت ، ووافقت ان تكون بـذلك الشكـل مع الحكيم ، لانه كان يملأ البيت وكل ما حولها ، ولانها لم تجد شيئاً آخر ولم تكن تعرف احداً غيره . الآن والحكيم يبتعد ويبتعد ، وحين يأتي في تلك السفرات القصيرة ويغرق في مشـاريع جـديـدة ، وجـدت وداد ان الحياة التي تحيـاها صورة اخرى من صور الموت الذي هربت منه .

كانت الأيام والاسابيع التي يقضيها الى جانبهـا تشعرهـا بالـرضا ، لكن تحس انها بحاجة الى اكثر من ذلك ، فالمال الذي يشير اليه اشارات سريعة وغير مباشرة لا يمكن ان يكون مالاً حقيقياً، اذا لم تتلمسه بيديها ، اذا لم يتحول الى شيء يمكن ان تستمتـع به في كـل لحظة، والاهميـة الاضـافيـة التي صـارت لـزوجها : هنـاك ، في حران ، تلك المـدينة المجهـولة والتي لا تعني لهـا شيئاً محدداً ، لا تمثل اهمية بالنسبة لها ما دامت بعيدة منسية لا يتذكرها الا كما يتذكر الادوية والأمراض والموت . أما الاولاد الذين كانوا يكبرون كل يوم ، وكـان يريدهم على شاكلته او نسخاً اخرى منه، فلم يعودوا يرونه الا فترات قصيرة، فحين يكون موجوداً لا يكونون ، وحين يعودون من مدارسهم يكون قد غرق في مشاريع ومناقشات غامضة مع اناس لا تعرف كيف استخرجهم كالساحر، فجاءوا لزيارته مرة او مرتين ثم لم تعد تراهم بعد ذلك .

وجسدها كان هماً بالنسبة اليها . فالحكيم الذي اشتعل وكاد يحترق قبـل ان يتزوجها ، وقد احست ذلك من نظراته ، ومن تلك الرجفة التي كانت تميّز شفته السفلى ، كان هذا الجسد طوفـاناً عـلـى كـل شـيء خـلال السنـوات

الاولى من زواجهـا ، واذ احست بعد تلك السنـين ان الحكيم جرفتـه افكار وهموم لم تستطع ان تفهمـــها تماماً ، فقد فسـرت الامر بـالتعب والانشغال ، وكانت متأكدة انه سينتفض مرة اخرى، كما ينتفض الديك في شمس يوم ربيعي بعـد رذاذ خفيف، لكي يعوض الأيـام التي فاتتهـا ،لكن والحكيم يغرق اكثر فاكثر ، ثم يسافر ويغيب فترات طويلة ، فان هذا الجسد الذي حـاولت بكل طريقة ان تخضعه ، ان تروضه ، مرة بالرضا واخرى بـالغضب ، كان يتمـرد عليها ، يصرخ ويطالب ، خاصة في اواخر الليل وعند الفجر ، ويظل مستقيظاً متحفزاً كأنه ينتظر بعد لحظات دقات يعرفها لكي ينتفض وينقضّ ولكي يعطي ايضاً !

الرجل الأول الذي عرفته بعده جاء به الحكيم نفسه . لم يكن ذلك الفتى الذي يسكن مقابل بيتهم في طرابلس ، والذي كان يروق لها ان تراقبه ساعات وساعات من وراء ستارة نصف مسدلة ، وهو يدرس ، وهو ينزع ثيابه ، وهو يقوم بتمارين رياضية . كانت تشتهيه ، كانت زفراتها حارقة حين ترى صدره العاري . وترتبك حين تراه في الشارع . ذهب ذلك الشاب دون ان تقول له كلمة واحدة ، رغم أن طيفه لم يفارقها ، فقد كانت متأكدة انها ستلتقي به في يوم من الأيام وستقول له كم كانت تحبه وكيف كانت تراقبه وتشتهيه!

الرجل الذي جاء به زوجها ، قبل سفره الى حران بثلاثة ايام ، كان طبيباً مثله ، او بالاحرى كان الطبيب الذي سيّحل مكانه في العيادة . جاء الى البيت لكي يتكلم مع الحكيم « كلمتين على رواق » ولكي يتفاهما بصورة نهائية ، ووداد التي قدمت القهوة وجلست قليلاً ، فقد نظرت نظرة عابرة الى الطبيب الشاب ، احست انه اكثر خجلاً من الرجال الذين في مثل عمره ، او يمارسون مهنة مثل مهنته، ووجدت شبهاً أقرب إلى التطابق بينه وبين ممثل مصري احبته ذات يوم ، كادت تقول له ذلك ، لكن الخجل او ربما التهيب الذي احست به تجاه رجل تراه لاول مرة ، منعها .

أما بعد ذلك ، وحين ذهبت الى العيادة ، نتيجة آلام كانت تحسها في جسدها كله ، وقد تم هذا بعد سفر الحكيم ببضعة شهور ، وبعد ان قام الدكتور عماد القباني بفحصها فحصاً دقيقاً ، اكد لها ان ما تشكو منه عارض طارىء ، واعطاها دواءً مهدئاً ، وجدت ان هذه الآلام تعاودها مرة بعد أخرى ،

وانها تحس بالراحة او ما يقارب الشفاء بمجرد ان تلامس يداه جسدهـا ، واذا كانت قد كذبت عليه اكثر من مرة، وزعمت انها تناولت الدواء ، فلم تكن تشعر انها بحاجة الى الدواء قدر حاجتها اليه .

في المرة الرابعة ، وقبل ان يفحصها ، قالت له انها لا تعرف كيف يأتيها الالم وكيف يغادرها ، واكدّت ان ما تشكو منه لا علاقة لـه بالمرض ، قالت ذلك ونظرت اليه بطريقة معينة ، ولم يكن عماد بحاجة الى كلمات اضافية لكي يفهم . أما حين طلب اليها ان تنزع ملابسها لكي يقوم بفحصها ، فقد اصبحت خلال ثوان ، وقبل ان تصل طاولة الفحص ، مثل عصفور يرتجف . كانت خائفة ومنتشية ، تملكتها حالة اقرب ما تكون الى الحمى . كانت تحس ان في داخلها قوة اكبر منها ، قوة جامحة ، هائجة ، واشبه ما تكون بالريح ، وخلال ثوان قليلة ، دون ان تدرك ودون ان تخطط ، وجدت نفسها تتعلق برقبته ، تحتضنه . واذ لم يستغرب ، وسيطر على عواطفه ، بان اعطى لوضعه مظهراً اقرب ما يكون الى الاستجابة الحذرة ، فقد داعبها ونظر الى اعماق عينيها وكأنه يقرأ فيهما موافقة أخيرة ، فلما تأكداتفق معها على الليلة ذاتها .

بعد الليلة الاولى ، وبعد كل ليلة تلتها ، كانت وداد تحس ان في داخلها انساناً آخر هو الذي يفعل كل شيء . واذا كانت قد بكت على صدره في المرة الاولى كما تبكي الطفلة الصغيرة ، ولم تستطع ان تنظر الى عينيه ، ولم تستمر في الاستجابة الى مداعباته ، فقد اصبحت بعد تلك الليلة امرأة من نوع مختلف : اصبحت حائرة . كانت تقرر بحزم يصل حدود الغضب ان لا تكرر هذه الخطيئة . وكانت تعاقب نفسها . لكن ما تكاد فترة تمضي ويلتهب جسدها من جديد ، وتتلاعب فيه تلك القوى الخفية ، تقوده وتسيّره ، حتى تنسى كل الكلمات التي قالتها ، والوعود التي قطعتها ، وتندفع نحوه بقوة اكبر .

استمرت الامور هكذا شهوراً طويلة ، وقد خصصت كل ذكائها وجنونها لكي تصل اليه دون ان يحس ودون ان يدري احد ، وكانت دائماً تجد الوسيلة الى ذلك . ورغم ان للآخرين ، خاصة النساء اللواتي يعرفنها ، عيوناً خفية ترى دون ان تنظر ، وتعرف من رائحة الاشياء والظلال ، فان وداد التي تحس في عيون النساء حولها تساؤلات اقرب الى الاتهام ، وتحس ان هذه العيون

تجلدها ، فقد حرصت اكثر من قبل على ان تتوارى ، ان تهرب . فاذا توارت او هربت لفترة اطول من ان يحتملها عماد ، كان دائماً يجد الطريقة التي يصل اليها : اجرة العيادة ، الضرائب المترتبة على البناء، فواتير الماء والكهرباء القديمة . اضافة الى ضرورة المرور على البيت لتفقد الاولاد والتأكد من وضعهم الصحي ، كما اوصاه الحكيم قبل سفره، كانت هذه اسباباً كافية، فان لم تكن وجد غيرها، وفي كل مرة تحاول الهرب يلتقطها ، ويعيد اليها جسدها او احساسها بهذا الجسد ، ورغم محاولات المقاومة كانت دائماً تقع ، وبعد كل مرة تعاودها الاحزان ومشاعر الضآلة ومعاداة الجسد ، لكنها مستمرة ، قوية الاستجابة ، لا تعرف حداً او نهاية .

واذا كان قد عذبها منذ البداية انها لم تخطط لهذا الذي حصل، فان ما يعذبها اكثر هو شعورها ان الدكتور عماد ضحية ، وانها هي التي اقتحمت عزلته وارغمته ، وهذا الشعور الذي اخذت تنساه ، او تغيّبه في زوايا الذاكرة ، خاصة وهي ترى لهفة ضحيتها ،وتوسلاته، وذلك التضاؤل الذي يصل حدود التلاشي امام جبروتها الذي يزيد ويفيض مرة بعد أخرى، شهراً بعد آخر ، فقد جاء الوقت لكي تضع بنفسها حداً لكل شيء ، اذ ما كاد يشعرها انه قرر الزواج ، وان الوضع الجديد يفرض عليهما انقطاعاً لفترة من الزمن ، وطريقة جديدة في اللقاء والعلاقة ، حتى قررت قراراً لم تتراجع عنه ابداً . استمعت اليه بعيون مفتوحة ، وكأنها تتابع باهتمام كل كلمة يقولها ، ولما انتهى ، ولم تعرف متى انتهى، حتى ابتسمت ابتسامة ظافرة وقالت كلمة ظل يتذكرها سنوات طويلة :

ـ انا التي اردت في الماضي . . وانت الذي تريد الآن ، ودائماً الكلمة الأخيرة للرجال . .

ولم تودعه ، ولم تقل له كلمة بعد ذلك ، حتى لما جاء بعد عدة شهور حاملاً حقيبته الطبية ليقوم بفحص الاولاد ، طلبت من خيرية ، اخت الحكيم ، ان تستقبله وان تقدّم اليه القهوة . ولما جاء مرة اخرى . . اثناء زيارة من زيارات الحكيم ، لم تقابله . ادّعت وتظاهرت بالمرض ، وقالت لزوجها ان الصداع يحصد رأسها ولا تستطيع مجرد الوقوف . .

وغاب الدكتور عماد القباني من حياتها، رغم انها ظلا يعيشان في نفس المدينة لعدة سنوات لاحقة .

بعد ان استوعبت وداد الدرس ، واعتبرت ان ما وقع زلة كانت اقوى منها ، وحصلت رغم ارادتها ، توجهت بكل قوى جسدها وعقلها نحو الاولاد . والحكيم الذي كان يعتبر ان الاولاد امتداده على هذه الارض ، وسوف يحملون ، جيلاً بعد جيل اسم العائلة وملامحها وتقاليدها ، لم يدرك ان اللحظة الخاطفة التي كوّنت كل واحد من هؤلاء الاولاد ، لا تعني شيئاً ازاء التراكم غير النهائي الذي حصل منذ تلك اللحظة ، والذي لا يزال يحصل ، ويبقى كذلك حتى اللحظات الأخيرة . ولذلك فان ما يعتبره امتداداً غير قابل للمراجعة ، او حسب تعبيره ، سجله الذي لا يمحى ولا يزول ، مجرد رغبة او مجرد وهم لا يصدقه غيره ، وانه سيتلاشى حالما يغيب او يبتعد ، وهذا ما حصل فعلاً . أما ما تفترضه خيرية من الشبه، خاصة بين غزوان وأبيه، وما يتراءى كذلك للحكيم في لحظات نشوته فانه لا يتعدى الطيف .

وجسدها ؟ هذا الذي يعوي ، يغضب ويتحدى ، ولا يكف عن المطالبة، كيف تحاوره ؟ سوف تروضه ، ولن تتردد في ان تذله اذا اقتضى الأمر . وهذا ما حصل خلال الفترة الواقعة بين زواج عماد القباني ومجيء راتب الفتال .

اذ بمقدار ما كان يبدو راتب الفتال بنظر الحكيم شاباً ضائعاً افسده الميراث المبكر ، خاصة بعد ان قضى بضع سنوات بين الاسكندرية ومرسيليا ، بحجة الدراسة في فترة والتجارة في فترة لاحقة ، فقد عاد من هذه الرحلات ، بعد ان انفق قسماً كبيراً من المال الذي ورثه ، ولم يحصل على اية شهادة ، لكن حصل في المقابل على تجربة في الحياة واتقن اكثر من لغة اجنبية .

أما القرابة التي تجمع بين راتب والحكيم فكانت موضع شك ، او بالاحرى غير مؤكدة ، لان الحكيم لم يكن سعيداً بها . وكان يحاول ان ينفيها ، او في احسن الاحوال لا يعترف بها بوضوح .

ظلت الامور هكذا فترة من الزمن ، وراتب الذي لم يكن مهتماً باثبات

هذه القرابة أو نفيها، وظل يبدل إقامته وعلاقاته مع تبدل الأعمال التي يشرع فيها ثم يصيبه الملل فيتركها ، الى ان جاءه الحكيم ذات يوم ، وكان قد استقر في حران ، ليعرض عليه صفقة العمر كما سماها . كان الحكيم بحاجة الى مكتب للاستيراد والتصدير ، وبحاجة إلى رجل يتقن اللغات وسافر في العالم وتعرف على البشر ، وقبل كل شيء « واحد من عظام الرقبة » كما قال ، واكد اكثر من مرة ، في محاولة لان يثبت بطريقة غير مباشرة القرابة القوية التي تربطه براتب .

ما كان مثل هذا الاقتراح ليخطر ببال الحكيم لو لم يذّكره به مطيع . وراتب الذي رأى في هذا الاقتراح آفاقاً واسعة وهامة، وكان في مرحلة يحاول ان يجد مشترياً لعقار عرضه للبيع ، ولا يجد هذا المشتري ، وبدأ يواجه صعوبات مالية . . في هذه الفترة جاء الحكيم وجاء الاقتراح، واتفق الاثنان دون صعوبة ، الشرط الوحيد الذي اصر عليه راتب « ان لا أقيم في موران او حران ، وأن أبقى «عصفوراً طياراً» والحكيم كان يريد هذه الصيغة بالذات .

بهذه الطريقة تم الاتفاق على تأسيس الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل في بيروت، وانشيء لها ثلاثة فروع : واحد في حران، والفرعان الآخران في نيويورك ومرسيليا . وفي اطار استكمال بحث التفاصيل والاجراءات تمت عدة زيارات بين الاثنين، ولان القرابة كانت الاساس في قيام الشركة، فقد كانت وداد موجودة دائماً . ومنذ الزيارة الاولى استعادت بحدة ذكريات المرات القليلة السابقة التي التقت براتب . مرة في حفلة زواج زينة بنت اخت الحكيم ، ومرة ثانية أثناء استقبال الحاج وهيب شخاشيرو لما عاد من الحج . ومرة ثالثة عند خيرية اخت الحكيم . في كل المرات كانت وداد تحس ان اول ما تفعله عينا هذا الشاب، العابث الواثق، ان تعريها من ثيابها . كانت نظراته، بعد ان تستقر في عنقها بطريقة معينة ، تزحف فتجتاز جسدها من الرقبة حتى بطني الساقين . وفي لحظات قليلة تحس ان هذا الزحف الهادىء البطيء يتحول فجأة الى اكتساح يحرق كل شيء . كانت تخاف من هذه النظرات وتحبها . كانت تهرب منها ولكن تحس انها تحاصرها تماماً ، فلا تلبث ان تستسلم اليها بلذة وكأن عدداً غير محدود من الايدي يداعب كل خلية في

جسدها . كادت في لحظة من اللحظات ان تقول ذلك للحكيم، لكن لم تجد في نفسها الجرأة ، ولم تجد ضرورة ايضاً . وحين غاب راتب وقامت تلك القطيعة غير المعلنة ، غابت معه نظراته ، وتلك الشهوة اللافحة .

الآن وهو يعود ، ووداد تسمع ما يقوله الرجلان ، وهي تحمل الاطباق والكؤوس، وهي تعد المائدة، وهي تتحرك هنا وهناك، تحس ان ثيابها تتطاير من فوق جسدها. كانت الثياب تتساقط، قطعة بعد اخرى ، بهدوء مرة وبعنف مرة اخرى ، لتصبح عارية ، عارية تماماً ، فما تكاد تضع الاطباق على الطاولة وتتحرر يداها حتى تضعهما على خصرها ثم تنزلهما قليلاً قليلاً لكي تثبت الثياب ، تشدها الى جسدها ، وحين تلتقي نظراته بنظراتها يتدفق الدم الى رأسها كأنه الشلال ، يعاود الصعود الى منابعه الاولى ، فترتبك ، لا تعرف كيف تتحرك ، او الى اين تذهب او ماذا تفعل ، فالعيون التي تزحم طريقها وتحاصرها تجعلها عصبية جامحة . وعندما يتكلم معها راتب ، وهم جلوس حول المائدة، تجد ان طريقته تختلف عن طريقة الحكيم . يعرف كيف ينتقي الكلمات ، كيف يقولها ، ويعرف كيف يبتسم ، ويعرف اكثر من اي شيء آخر كيف ينظر اليها . ان نظراته ، عبر طاولة الطعام ، بروق لا تتوقف الا لكي تبدأ من جديد ، ومع لهيبها الكاوي يضيء جسدها كله ، يصبح شديد الدفء ، شديد النداوة وابيض كالحليب . وفي الليل المتأخر ، بعد ان يتفق الرجلان على جميع التفاصيل وتأوي الى النوم ، تحس انَ جسد الحكيم ، وهو يستلقي الى جانبها ، رخو مترهل ، واشبه ما يكون بجسد الحامل . أما حين تتقلب على الجمر الذي في داخلها ، فانها لا تحتمله ولا تقوى عليه فاذا لفح جسدها نفس الحكيم ، اللاهث المتقطع ، فلا تعرف هل يبدأ الآن او انه قد انتهى !

قبل ان ينتهي الاسبوع الثالث سافر الحكيم . وانْ يتردد راتب على بيت الحكيم لكي يستفسر عن وصول بعض الاوراق ، ولكي يبحث بعض التفاصيل فذلك لا يثير شبهة او تساؤلاً . انه واحد من العائلة ، واثناء وجود الحكيم رآهما الكثيرون معاً، وسمع الكثيرون ايضاً ان شركة جديدة قد قامت ، وهذه الشركة ليست لهما وحدهما ، انها للعائلة، للمعارف ، ولكل

من يـريد ان يعمـل . وراتب الـذي تحـرك ودار ، وسـافـر سفـرات قصيـرة لاستكمال بعض الأمور، ويحث مع الكثيرين عن احتمالات للتعاون، كان يتصرف بتلقائية ، دون خوف او عقد ، حتى اثناء زياراته لبيت الحكيم وتكون بعـض القريبات او مع الاولاد ، ويجد ان الوقت اصبح مناسباً ، لا يتردد في ان يخوض في شؤون الشركة، وفيما يجب ان يُعمل . وخلال هذه الزيـارات التي تتكرر في اوقات مختلفة من الليل والنهار ، تتشابك الخيوط ، تضيق الحلقـة ، حتى اذا جـاء في احـدى الليـالي ، وبعـد ان انهى الاولاد واجبـاتهم وذهبـوا لينامو ، نظر اليها نظرة اخترقتها تماماً، قالت لها كل شيء .

هذه المرة لم تذنب وداد ، لم تبحث عن خطيئة ، فجأة وجدت نفسها بين فكي الذئب . حاولت بعقلها ان تقول لا ، ان ترفض، لكن جسدهـا كان اقوى منها . كان جسدها متجبراً طاغياً. والحكيم الـذي عجز عن فهم هـذا الجسـد او عن تـرويضـه ، افلت منـه . وعـلى نفس الفـراش ، وعـلى نفس الوسائد، وان تغيّرت مواضعها ، اكتشفت وداد ، لا بل وتأكـدت ان الموت الذي حاربته طويلاً كان يطوقها من كل ناحيـة ، ولا بد ان يفتـرسها ان هي اذعنت واستسلمت له . الآن راتب ينفض هذا الجسد ، يغير دورته الدموية ، يبعث فيه الحياة من جديد ؛ قالت له في الليلة ذاتها ، وقد بدت متعبة اكثر من اية مرة سابقة :

ـ الآن ولدت من جديد !

واستمـرت هذه الـولادة وكبرت مـا دامت الشركـة الشرقيـة لـلاستيـراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر . أما بعد ان انتقل الحكيم الى مـوران ، وبعد ان اضافت الشركة للمواد التي تتعامل بها مواد البناء والخشب ، فقد اصبحت اكثر الليالي الواقعة بين آذار وبداية الصيف حرائق مجنونة يفتك لهيبها بكل خلية ميتة او يمكن ان تموت في جسد وداد . ولما اقتربت ايام الرحيل الى موران كانت تجد ان راتب ليس مفيداً لانجاز بعض المهام فقط ، بل الرجل الوحيد الذي يمكن ان يساعدها في الاعمال التي تحتاج الى قوة الرجال وعضلاتهم ! ولذلك اصبح وجوده في البيت، في اغلب الأوقات، امراً مألوفـاً لا بل ضـروري ، وعندما يتعذر على الاثنين ان يكونـا في الفراش ، كـان الواحـد منهما يـداعب

الآخـر ، بالكلمـات ، بالنـظرات ، وبالايـدي ايضاً ، وكثيـراً ما يغـرقان في الضحك ، يضحكان على نفسيهما لانهما تحولا هكذا الى طفلين كبيرين شقيين لا يعرفان كيف يتصرفان او ماذا يريدان .

وفي الليلة الأخيرة بكت وداد مثل طفلة ، بكت لانها فرحت وعاشت بهذا المقدار ، وبكت ندماً ، وبكت شوقاً ، وبكت لان دبيب الموت بدأ يتسلل اليها مرة اخرى . وحين حاولت ان تفسر ، بررت بكاءها امام الصغار والكبار انها تغادر المدينة وتغادرهم ، ولا تعرف متى تعود ومتى تلقاهم مرة اخرى .

أمـا راتب الذي رأى الفـرح واستمتع بـه ، والذي رأى الـدمـوع ورأى الحزن ، فلم يجد سبباً كافياً لتفسير هذه الدموع كلها ، وهذا الحزن كله ، لكنه تظاهر بـالحزن ايضـاً ، ليجعل لنهـاية مـرحلة من حياتـه جلالاً يتـذكره فتـرة طويلة .

منذ وصلت عائلة الحكيم الى موران وحي السفان والاحياء المجاورة لا تجد حديثاً امتع من الحديث عن « الشوام » ، فهناك الكثير الذي يمكن ان يروى، عن الصغار والكبار ، عن الرجال والنساء . كيف يتكلمون ، كيف يلبسون، وماذا فعلوا هذا اليوم او في ايام سابقة . ومحمد عيد الذي ساهم ، بطريقته ، في خلق هذا الاهتمام ، نتيجة القصص التي رواها ، ونتيجة الحركة الدائبة والانتقال المستمر من مكان الى آخر ، هو ذاته كان موضوعاً لاحاديث كثيرة يرويها الناس .

والحكيم الذي لبى دعوتين او ثلاثاً وجُهّت اليه من قبل الجوار ، اعتذر عن تلبية اية دعوة بعد ذلك ، بحجة انشغاله في القصر ، ثم بسبب وضعه الصحّي ، كما اشاع محمد عيد . أما حين وصلت العائلة ، وأبديت رغبات بدعوتها ، فكان الجواب الذي يرد به ابو عبد الله او رضوان واحداً لا يتغير : «السيدة مريضة. والأولاد يأكلون في المدرسة». أما عندما شوهدت زوجة الحكيم ، في الاسبوع الأول لوصولها الى موران ، برفقته ومعهما الاولاد ، وقد ذهبوا جميعاً للتفرج على الارض التي سيقوم عليها بناء الدار، وكانت المرأة مكشوفة الوجه ، تتكلم وتضحك ، وقد رآها بعض الصبية ، وتحدثت عرضاً الى اثنين منهم ، فقد اثارت من الاهتمام والاستغراب الكثير ، لكن ما اثار الاستغراب اكثر تلك الفتاة الشديدة الفتنة بشعرها الذي كان يتطاير حين تركض ، او حين تلاعب الصغار . هذه الفتاة لفتت النظر بسرعة ، ولم يبق احد الا وتحدث عنها . صحيح ان الصغار الذين كانوا يحومون حول الاسلاك

هم اول من نقل الاخبار ، لكن من هم اكبر منهم سناً ، ثم الرجال بعد ذلك ، تحدثوا في الامر ، وقدر الجميع ان الفتاة هي البنت البكر للحكيم .

أما بعد ذلك ، وحين بدأ الكثيرون يراقبون العائلة ، ويتقصون حركاتها واخبارها ، وعرفوا ان الفتاة ليست بنتاً للحكيم ، وانما هي قريبة له ، فقد اختلطت الافكار بالرغبات بالاحلام ، لكنهم ظلوا في شك ، وظلوا في شوق ، ولم يتوقفوا عن التساؤل والانتظار. وبعض الذين عرفوا محمد عيد وسألوه من اين اتى الحكيم وماذا سيعمل ، وتجرأ غيرهم وسأل عن العائلة ، عدد افرادها واسمائهم، فان احداً لم يجرؤ ان يسأل عن هذه الفتاة بالذات، وان ظل هذا السؤال يتردد في الصدور وعلى الشفاه ، لكنه لم يطرح ، وكأن طرحه اثم لا يقوى احد على اقترافه . حتى عبد الله ورضوان ، اللذان تبادلا الابتسام والتساؤل الصامت ، حين عدا اولاد الحكيم ، ليلة وصولهم ، وتبين لهما انهم يزيدون واحداً عما ذكره محمد عيد، لم يجرؤ اي منهما ، وحتى وقت متأخر ، ان يسأل ، خاصة وان الفتاة ملأت البيت بحركتها النشيطة وبحيويتها .

لما بلغ شمران العتيبي خبر وصول عائلة الحكيم، وان في عداد العائلة فتاة لا يعرف ان كانت بنته او مجرد قريبته ، قال بسخرية :

ـ لا تختلفوا يا جماعة الخير ، بنته او مرته ، قولوا بنت مطوط وما اظنكّم الا صابيين .

حتى ابناء الحكيم ، خاصة الصغار ، الذين كان يفترض ان يصبحوا جزءاً من حيّ السفان ، وان يندمجوا بجو الاطفال وان يلعبوا معهم ، لم يفعلوا . كانوا اذا تخطوا الباب قليلاً ، يقفون خائفين او اقرب الى الجفلة وهم يتابعون الاولاد يلعبون ، أما اذا طلب منهم المشاركة فكانوا ينظرون في وجوه بعضهم ويبتسمون . . ثم يتراجعون . واطفال حي السفان الذين بالغوا ، اول الامر ، في الاهتمام ، وتوقفوا وحاولوا ، ما لبثوا ان نسوا او تناسوا « الشوام » ، لكن ظلت نادية ، التي تطل بين فترة واخرى ، وتطلب من الصغار الدخول ، لا تُنسى . اذ ما تكاد تطل برأسها ، ما يكاد يراها احد ،

حتى يخيّم الصمت . كان الصغار يصمتون قبل الكبار ، وكانوا ينقلون اخبارها بسرعة : متى خرجت ، كم توقفت ، ماذا فعلت . واذا لم تكن تشعر ان خروجها او مناداتها على الصغار يثير تساؤلاً من اي نوع ، وكانت تتصرف بعفوية ظاهرة، فقد قال لها الحكيم ذات يوم :

ـ اتركي الأولاد، إذا خرجوا إلى الشارع، يا نادية، لا تخرجي وراءهم.

وحين ابدت استغرابها ولم تفهم مايعنيه ، اضاف :

ـ ابو عبد الله موصىّ ان يدّبر امرهم .

وضحك الحكيم ضحكة صغيرة وتغيرت لهجته :

ـ وموران ، يا بنتي ، ما هي مثل بلادنا ، واخلاق الناس هنا وعاداتهم غير اخلاقنا وعاداتنا !

نظرت اليه ، سمعت وهزت رأسها ، لكن لم تعرف بماذا اخطأت ولماذا يعاتبها الحكيم ، أما حين شرحت لها خالتها ان للناس في موران ألسنة طويلة ، وانهم لا يوفرون أحداً، وان محمد عيد سمع همساً لم يرتح اليه ، وهو الذي نبّه الحكيم ، فقد ابتسمت وفهمت !

العلاقات التي قامت بين الحكيم وآخرين في موران محدودة ومدروسة ، فقد حرص ، منذ البداية ، ان تبقى علاقاته العائلية ضيقة الى اقصى حد ، « ابرد للراس » هكذا قال ، ولذلك ظلت محصورة بعدد من العائلات الاجنبية ، من ضمنها عائلة خبير الماني للمياه ، وكانت هذه العائلات تتبادل الزيارات ، وان تكن زيارات متباعدة ، وكان اولاد الحكيم يذهبون الى بيوت هؤلاء المعارف للقاء اولادهم او يستقبلونهم في بيتهم .

واهل موران الذين تعودوا حياة من نوع آخر ، وبشراً من نوع مختلف ، ابدوا استغرابهم وتساءلوا كيف يمكن ان يعيش هؤلاء الناس هكذا ، والى متى يتحملون ان يبقوا بعيدين ومعزولين . واذا كانوا قد سمعوا ان زوجة الحكيم مريضة ، فلا تستطيع الاستجابة الى دعوة او القيام بزيارة ، فقد رأوها مرة بعد اخرى تخرج في السيارة وتذهب الى القصر . ثم رأوها تقيم ولائم لأناس

غرباء، فازداد استغرابهم، فنظر بعضهم الى بعض وابتسموا !

اكثر من ذلك تعمد الحكيم ان لا يترك اي مجال ، او اية فرصة لعلاقة من اي نوع ، اذ كان يصل الى البيت في اوقات مختلفة ، ولا يتوقف عند الباب ، ولا ينظر حواليه ، وتعمد اكثر من ذلك الا يتلفت لكي لا تلتقي نظراته باحد من المارة او باحد من الجوار . وقد حرص ايضاً ان يصلي الجمعة في جامع بعيد عن حي السفان . واهل الحي الذين فسروا سلوك الحكيم وتصرفاته بالكبر والعجرفة، رد عليهم محمد عيد بالوقت المناسب، ودون ان يسأله احد . كان يشير الى الغرفة الجنوبية في بيت الحكيم :

ـ الى الفجر ، الى اذان الصبح ، لا ينام .

ويضيف بعد قليل وهو يبتسم :

ـ وضوء تلك الغرفة لا ينطفىء لحظة واحدة . .

ويترك للذين يستمعون ان يتأملوا، ان يستوعبوا ما قاله فيتابع :

ـ رجل لا يعرف الراحة ، فاذا اراد ان يستريح يغرق في الكتب والمجلدات ، كل مجلد الف صفحة ، الفين صفحة ، ولولا ان ام غزوان تقول له ارحم نفسك لواصل الليل بالنهار .

وبعد ان ينظر الذين يحدثهم الى بيت الحكيم ، او الى الجهة التي يفترض أنه فيها ، يقول كأنه يحدّث نفسه :

ـ مخّ . . مخ يفلق الصخر !

أما عن العلاقة بين الحكيم والسلطان فان محمد عيد لا يذكر اية تفاصيل ، بناء للتوصيات المشددة التي كررها الحكيم يوماً بعد آخر في الفترة الاولى ، ولذلك يكتفي باشارات ، غالباً ما تبدو واضحة بدلالتها ومعناها ، بل دائماً اشد وضوحاً من الكلمات :

ـ لولا رغبة صاحب الجلالة ، ولولا الصداقة والمودة بينهما التي تبلغ حد الاخوة او اكثر ، لما رأيتم الحكيم في موران .

فاذا حاول احد ان يستفسر عن هذه العلاقة كيف بدأت ومتى، يضحك

محمد عيد ضحكة لا يمكن ان تفسر أبداً، ويعلّق :

ـ كيف بدأت ؟ متى بدأت ؟ لو تكلمت لما كان للكلام نهاية !

أما متى يفتتح الحكيم عيادة او مستشفى ، وهل سيستقبل، في وقت قريب ، الناس ويعالجهم ، فان الاجابة التي يرد بها محمد عيد ، بعد انتظار وبشيء من الخوف، تجعل الكثيرين في حيرة :

ـ اذا بقي للحكيم وقت !

والحكيم الذي يغرق اكثر فأكثر في جو من المشاغل الجديدة والهموم ، وتطول فترات وجوده في القصر ، او يسافر مع السلطان في جولات ورحلات ، اخذت لقاءاته بمحمد عيد تتباعد وتختلف عن السابق ، واخذت اهتماماته تتشتت وتتغير بين فترة واخرى . ومحمد عيد الذي كان يعرف ما الذي يجب ان يعمله وكيف ، يجد نفسه الآن « مثل ام العروس لا فاضي ولا مشغول » .

اما الافكار التي تحدث عنها الحكيم، خلال الفترة الاولى من اقامتهما في موران ، وقبل ذلك في حران ، فما لبث ان نسيها، او شغلته امور اخرى عنها .

سأل الحكيم ذات مرة ، وكان قصر الخير على وشك الانتهاء، وقد انشغل به محمد عيد كثيراً ، ما اذا كان سيفتتح عيادة او مستشفى في موران ، ولما صمت الحكيم فترة طويلة ، وكأنه لم يسمع السؤال ، او ليس لديه جواب عنه ، قال محمد عيد بتعريض :

ـ والله يا حكيم كانت احوالنا في حران ، احسن بألف مرة !

ولما نظر اليه الحكيم واستفسر بعينيه تابع :

ـ ما ترك لك الهّم لقمة هنّية او نومة رضيّة !

وبعد قليل :

ـ ولا احد يعرف النتيجة .

وحين اندفع الحكيم يتكلم، واوضح له ان العمل في موران رغم

صعوبته ، ستكون له نتائج كبيرة ، وان التعب الذي يعاني منه الآن مؤقت ولا بد ان يخف او ينتهي خلال فترة قريبة ، قال كأنه يحدث نفسه :

ـ الله يسمع منك يا حكيم ، لكن محسوبك رأيه غير رأي .

ـ غير رأي ؟

ـ قصدي . . . .

وبدا انه غير قادر على ان يقول كل شيء ، ربما نتيجة الخجل او الحيرة . سأله الحكيم بمكر :

ـ غيّرتك موران يا ابو الشباب . . ها ؟

ـ لا . . . ولكن . شايف حالي لا للخل ولا للخردل . . . وطول نهاري اخصيّ عجول !

ادرك الحكيم سبب الشكوى . صمت قليلاً ، ثم قال وهو يبتسم :

ـ اسمع يا محمد . . . صحيح ان الوضع اختلف علينا : في حران الواحد منا ما كان عنده الوقت حتى يحك رأسه : عمليات ، معالجات ، ابر . . وغيره وغيره ، لكن زمن حران راح وانتهى ، وفي موران حالياً اكثر من خمسين طبيب ، ولذلك لازم نكون بمستوى الوضع الجديد!

انتهت المناقشة دون ان يتوصلا الى نتيجة ، لكن بدا انهما تفاهما ، او على الاقل اتفقا على تأجيل المناقشة !

والحكيم الذي يحس ، منذ زمن طويل ، انه بحاجة الى محمد عيد ، وهذه الحاجة محددة وواضحة ، خلال الفترات السابقة كلها ، ولم يكن احدهما يفكر او يتصور انه قادر على أن يترك الآخر ، فقد اختلف الوضع الآن ، ومن الصعب اعادته الى ما كان عليه ، ومن الصعب ايضاً ان يتخلى محمد عيد عن كونه « مساعد الدكتور المحملجي » وكان يفخر بهذه الصفة ويصر عليها ، أما ما تعنيه الآن فلا يستطيع احد انْ يحددها او ان يعطيها معنى واضحاً .

قال له الحكيم ، بعد شهور من المناقشة التي جرت بينهما ، أنه يجد مناسباً له ان يعمل مع فهمي الحجار في توزيع الادوية ، ليشغل نفسه . بدا

الاستغراب على وجه محمد عيد ، وكأنه تلقى اهانة ، سأل الحكيم ، وبدت لهجته رخوة اقرب الى السخرية :

ـ وانت ، يا حكيم ، صرفت النظر عن الطب ؟

ـ الطب مثل ما كنا نمارسه أنتهى يا ابني . الآن ، كل شهر ، كل شهرين ، اكشف على صاحب الجلالة ، واذا كان بحاجة الى شيء فالى حبة اسبرين او حبة مقوى . . هذا كل شيء !

كان يمكن لكلام من هذا النوع ان يحمل محمد عيد على اتخاذ اصعب القرارات ، وقد لا يتردد في ان يخلف كل شيء وراءه ويمشي ، لكن الذي منعه ، الذي جعله ينسى ، ويتصرف وكأن لا مشكلة هناك ابداً ، شيء لم يستطيع ان يبوح به لاحد .

لم يكن الامير خزعل الابن الاكبر او الأول للسلطان خريبط ، فقد جاء قبله ولدان ماتا في الشهور الاولى ، وجاء ثالث ، منصور ، وعاش حتى بلغ السابعة عشرة من العمر ، لكن في معركة الرحيبة الكبيرة قتل ، وقد خلّف مقتله حزناً في قلب السلطان لم ينسه ابداً ، اذ ظل يحرص على ان يكنى بابي منصور ، بل وكان يستمتع بهذا الاسم . ونتيجة حزن السلطان، او ربما لاسباب اخرى ، سرت عدوى الحزن الى آخرين كثيرين ، ولم يقتصر على اخوان واخوات منصور من امه ، اذ ظلوا يتذكرونه لسنين طويلة لاحقة ، ثم تحول هذا الحزن الى كراهية ، خاصة وأن كل يوم يمرّ يقرّب السلطان خطوة جديدة نحو القبر ، ويقرب الامير خزعل خطوة نحو العرش .

صحيح ان الامير خزعل لم يفكر ولم يعّد نفسه في البداية لان يحل مكان ابيه ، او مكان اخيه منصور ، وربما كان في اعماقه يحس ان اخوة آخرين اكثر كفاءة منه او اكثر استعداداً ، لكن فجأة وجد نفسه ولياً للعهد ، وبمرور الأيام نسي انه اصغر من منصور ، او انه لا يريد ان يكون سلطاناً ، خاصة وان اخواله يحملون في قلوبهم ضغائن لا تخفى على السلطان خريبط ، لانه حرمهم من ملك كانوا يطمحون ويحاولون الوصول اليه ؛ تناسى هؤلاء الاخوال الضغائن فجأة فهجروا عزلتهم وابتعادهم وجاءوا الى موران مرة أخرى .

في موران ، وبهدوء وبصمت ، التفوا حول ولي العهد ، وظلوا ينتظرون

نهاية السلطان ، فلما جاءت هذه النهاية ، ورافقها اللغط وبعض المخاوف ، وقد صدر هذا ، في البداية ، عن نساء قصر الروض ، خاصة ام منصور واخواته ، فقد تأكد الجميع ان اموراً خطيرة لا بد وان تقع ، وفي وقت غير بعيد . لكن السلطان الجديد ورجاله تظاهروا انهم لم يسمعوا شيئاً مما قالته النسوة ، وما تناقله الخدم ، أما اصرار السلطان على ان يبقى في قصر الغدير فكان حيطة ونتيجة لما قاله له ذلك المنجم قبل سنوات !

وبدهاء وتكتم شديدين بدأت تتكون حاشية جديدة وصيغة للحكم تختلف عن السابق . والسلطان خزعل الذي خاف وتحسب في بداية الأمر ، لان اخوته الذين بايعوه ، وقالوا كلمات كبيرة للتعبير عن فرحتهم وتأييدهم ، ما لبثوا ان صمتوا او ابتعدوا، وبدأ بعضهم ينظر اليه بطريقة مختلفة عن السابق . حين رأى السلطان ذلك لجأ الى المال يغدقه دون تردد وبلا حساب ، خاصة وأن كرمه الذي كانت تحده في السابق نظرات ابيه او زجره ، وبعض الاحيان امتناع امين الخزانة عن تلبية طلباته ، بحجة ان الاموال المودعة لديه قد نفدت ، هذا الكرم ما لبث ان فاض بلا حدود ودون موانع او حجج ، بعد ان اخذت اموال كبيرة تتدفق الى الخزينة ، نتيجة زيادة تصدير النفط . ولذلك ، فان الاخوة الذين فكروا ان يكونوا شركاء في السلطة ، اذا تعذر عليهم ان يكونوا مكان السلطان ، بدأوا يغرقون في المال ، ووجدوا فيه لذة وقوة لم يكتشفوها من قبل .

غرق اخوة السلطان في المال ، باختلاف متفاوت ، عدا ثلاثة : فنر ومشعان وتركي. أما فنر، وكان وحيداً لامه، وقد نشأ في عزلة أبعدته عن اخوته ، وكان ميالاً الى الصمت والتأمل ، فقد بايع وابتعد . لازم اول الامر ، منازل اخواله ، في عين فضة ، ثم بعد بضعة شهور استأذن اخاه السلطان بالسفر الى سويسرا واميركا للعلاج ، اذ كان يشكو من الصفراء ، وغالباً ما يبدو مريضاً او متعباً . أما مشعان وتركي ، وهما من ام واحدة ، وكانت هذه الام من قبيلة هذيل القوية الكبيرة ، فقد كانا ، مثل الامير خزعل، يعدان نفسيهما لان يكونا شيئاً هاماً ، حتى اثناء حياة والدهما، لان

امهما كانت تتمتع بمنزلة خاصة ، وكان السلطان يؤثرها ويعاملها بطريقة مختلفة عن الكثير من زوجاته ، ولقد حاولت ، وحاول اخوتها ايضاً ان تكون السلطة ، وان يكون الملك « بعد عمر طويل » مناصفة بين الامير خزعل واخويه مشعان وتركي ، « لان خزعل لا يدبرها ، وهذا الملك الذي تجّمع بالدم والذكاء وسهر الليالي لا يمكن ان يترك ليضيع » . والسلطان خريبط الذي يسمع ولا يجيب ، والذي يبدو مقتنعاً وغير مقتنع ، لا يعطي كلمة او رأياً ما دام قوياً وحاكماً . كان يعتبر ان الوقت ما زال مبكراً ، وليس من المناسب ان يخاض في مثل هذه الموضوعات . أما حين جاءته الوفاة، وبحضور عدد من اخوانه واولاده والمستشارين ، ولكي لا يختلف الاخوة فقد قرّر السلطان ان يكون خزعل سلطاناً بعده . وهكذا اعتبر مشعان وتركي ، ومعهما امهما ، اعتبر الثلاثة ان السلطان تخلى عنهم ، ولذلك انهارت كل الآمال التي تشبثوا بها أو انتظروها، ودون تردد كبير، وبعد أن تمت مبايعة السلطان الجديد ، انسحب الاخوان ، رابط مشعان في قصره قرب موران ، أما تركي فقد قال انه ذاهب للقنص وان سفرته ستطول ، وقد لا يعود قبل بضعة شهور .

كان السلطان خزعل يريد مثل هذه القرارات وتلك السفرات ، فاذا كان قد خاف او تحسب في لياليه الطويلة وهو يستعد لان يحل محل ابيه ، فأكثر ثلاثة اخوة تتراءى له وجوههم ، واثاروا في نفسه الحذر الذي وصل حدود الخوف ، هم هؤلاء ، وخاصة فنر .

كان الامير فنر يليه عمراً، وكان ابوه يحبه حباً خاصاً ، ربما للشبه الذي بينهما، او لتلك المداومة على حضور مجلسه . اضافة الى ما يتمتع به من زهدٍ ورغبة في التقشف ، سواء من حيث الأكل والملابس ، او حتى رغبة الكلام . الآن وفنر يعلن عن رغبته في السفر ، للعلاج ، وقد يعود او لا يعود ، واذا عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب ، فقد شعر السلطان بالراحة ، وفي محاولة للتعبير عن حرصه ومحبته بعث اليه بمبلغ كبير ، اكبر من اي مبلغ يمنحه لأخ ، او دفعة واحدة ، لكن فنر اعاده في اليوم التالي الى امين الخزانة ، وطلب ان لا يبّلغ السلطان بذلك ، ويتذكر الذين كانوا الى جانب السلطان وهو يودع فنر انه

قال له بنوع من الحزن :

ـ صحتك يا مبارك ، يا اخوي ، اغلى علينا من عيونّا ، وهالحين المهم ان تروح وترجع بالسلامة .

وحين هزّ فنر رأسه ، وهو يحاول الابتسام ، اضاف السلطان :

ـ وحنا اعطينا التعليمات للجماعة في كل مكان راح تكون به ، ولا تبخل على نفسك يا خوي .

وهكذا سافر فنر وغاب غيبة طويلة .

وبغياب الاخوة الثلاثة شعر السلطان بالراحة . لقد خلا له الجو اخيراً ، فبدا واثقاً قوياً ، بل واقرب الى السعادة . فلما تدفقت الاموال ، واخذت تزيد يوماً بعد آخر ، اصبح شعوره بالثقة والقوة يزداد ، فنشر الاموال بسخاء بين ايدي الكثيرين ، وزيدت المخصصات التي تمنح لكل فرد من العائلة ، حتى للاطفال منذ لحظة ميلادهم . أما نساء قصر الروض اللواتي تحدثن في البداية بصوت مسموع ، واشركن الخدم والمربيات في حديث وفاة السلطان ، والشكوك التي ثارت حول ذلك ، فما لبثن ان نسين الأمر ، او لم يعدن الى تذكره ، فاذا تذكرنه اصبح حديثهن عنه همساً اقرب الى الخفاء .

والسلطان الذي تحسب في البداية ، واضطر الى قضاء الساعات الطويلة كل يوم يستقبل ويتحدث ، او يسمع للذين يتحدثون ، واضطر اكثر من ذلك لزيارة المناطق كلها ، حتى البعيدة ، وان يتفقد المشاريع التي تنفذ وان يسأل المهندسين وامراء المناطق عن المراحل التي وصلتها هذه المشاريع ، وما اذا كانوا بحاجة الى اعتمادات اضافية او الى مساعدات من اي نوع ، فقد اصبح الآن اقل ميلاً للسفر او لان يشغل نفسه بهذه الامور ، خاصة وقد تكونت في القصر مجموعة من الادارات تهتم وتتابع اغنت السلطان عن القيام بهذه الامور شخصياً .

قال الحكيم للسلطان ، ذات يوم ، وهما في الشرفة يطلان على الابنية الجديدة لقصر الغدير :

ـ اتذكر ، يا صاحب الجلالة ، ان الامير خالد المشاري ، اثناء بناء دار

الامارة في حران ، كان يتفقد البناء كل يوم ، ويدق على الجدران ويطلب زيادة الاسمنت ، وكان نائبه يملأ البراميل !

وضحك بسخرية وهو يستعيد تلك الصورة ، وبعد قليل اضاف :

ـ الكبار للكبيرات ، يا صاحب الجلالة ، او كما قال فيلسوف الماني شغل الدنيا وملأ الاسماع : العظيمات للعظام اما الاشياء الصغيرة فلحثالات البشر .

« امي زهوة » او الشيخة ، شخصية خطيرة في موران ، وهي كذلك بنظر الناس جميعاً ، ربما لانها اقوى من في قصر الروض . يتحدث عنها الصبية ويجاريهم الصغار ، نقلاً عن امهاتهم او عمن هم اكبر سناً ، او كما يصورها لهم خيالهم .

امرأة لكن ليست مثل اي من النساء : تتحرك مثل شبح ، تأتي وتذهب دون ان يحس بها احد ، كثيرة الصمت ، لكن اذا تكلمت لاذعة وبعض الاحيان سليطة . لونها بلون الارض الرطبة ، او مثل عتمة اول المساء . عيناها كعيني بقرة: كبيرتان ، جاحظتان وتضيئان في الليل كالقناديل . انفها حاد معقوف كمنقار صقر. الوجنتان بارزتان مكورتان وكأنهما تلال صغيرة في وجه شديد التيقظ والصرامة . لا تعتبر قصيرة ، رغم انحنائها بتقدم العمر ، ورغم تقصير عصاها مرتين متواليتين . يداها طويلتان مثل يدي قرد، وقدماها عريضتان كخفي بعير .

لا يحكى عن ماضيها الا القليل ، ولذلك لا يعرف على وجه مؤكد ما اذا كانت متزوجة او انها ظلت عزباء طوال حياتها ، لان احداً لم يتكلم عن هذا الامر ، ولم يسمع ان لها بنتاً او ولداً ، ومع ذلك فهي ام الجميع . هكذا يناديها الصغار والكبار . أما الخدم والغرباء والرجال المسنون فانهم يسمونها الشيخة .

ومثلما الحقيقة تمتزج بالخيال ، والمبالغة تطغى على الدقة في معرفة حياتها الماضية ، فان الخوف يلعب دوراً في الحديث عنها الآن . فاي حديث يجري

بين اثنين يجري همساً او قصيراً ، وكثيراً ما ينقطع فجأة ، اذ قد تأتي ، وقد يسمع واحد من الذين ينقلون اليها ، وعندئذٍ لا يسلم احد من عقابها .

وكما لا يعرف شيء عن ماضيها، فان صلة القرابة التي تربطها بالسلطان غير واضحة واقرب الى التقدير . يقول بعضهم انها عمة السلطان خزعل . وذكر غيرهم انها مجرد قريبة او مربية. ومع ذلك فان منزلتها في القصر ، وعند السلطان خريبط بالذات ، تفوق منزلة اية امرأة ، بل تفوق اي انسان . وقيل ايضاً ان تأثيرها عليه لا يوازيه اي تأثير . وقد فُسّر الامر في وقت من الاوقات انها كانت تملك ثروة كبيرة جداً ، وقيل كنوزاً ذهبية ، وقد اعطتها كلها للسلطان حين كان فقيراً محتاجاً ، وحين كان يبحث عمن يسلفه لطعام جنده ، الذين كادوا ينقلبون عليه ويتركونه . وقد حفظ لها السلطان هذا الجميل بعد ان تغيرت الظروف .

ناشد الدبلان الذي كان يصب القهوة للسلطان خريبط ، ثم اعفي من هذه المهمة ، بعد ان تقدم بالعمر ، واصبحت يداه ترتجفان ، لكنه ظل في القصر ينتقل من مكان الى آخر، يجيب الذين يسألونه عن الشيخة باصبعه وعينيه ، طالباً منهم السكوت ، فاذا الحّوا عليه ، وكان مطمئناً لهم وواثقاً ، يلتفت اكثر من مرة بحذر ثم يهمس ، وكأنه يكلّم نفسه :

ـ والله . . . والله لو كان عندها لحيمة ، بطول الاصبع ، ما كان غيرها صار السلطان!

ويشير باصبعه الى القدر الذي يعنيه ، ثم يلتفت مرة اخرى ، ويتابع :

ـ وهي بدون ذاك راكبة ومخيّلة ! .

فاذا حاولوا ان يعرفوا اكثر يرد بخوف :

ـ اتركونا من هذه السالفة يا جماعة الخير ، لان من طاول اطول منه تعب ، والشيخة تسمع من سفر سنة ، وابن الحرام سرور ما يشبع الا بمخالبه .

لهذه الاسباب ، او لغيرها ، امتلأ قصر الروض بحضورها وجبروتها ،

وكانت خلالها تملأ غرف القصر وردهاته . واذا كانت عادة البدو الا يذكروا النساء الا ذكراً سريعاً عابراً ، فان الشيخة كسرت هذه العادة واحتلت في ذاكرة الرجال واحاديثهم حيّزاً كبيراً : كيف حاربت مع خريبط وابلت في الحرب اكثر مما يبلي الرجال ؛ وكيف تنكرت بملابس فارس في موقعة الرحيبة الكبيرة ، ولم يكشف امرها الا بعد انتهاء تلك الموقعة . أما الاحاديث التي تتناول ذكاءها والنصائح التي قدمتها في اوقات صعبة ، فقد تجاوزت الاساطير وكانت اقرب الى الخيال .

هكذا كان حضورها بين الرجال، أما بين النساء فانها تولّد الرهبة، بل تولد خوفاً لا يستطعن اخفاءه او التستر عليه . كن يسكتن اذا جاءت ، ويتذرعن باية حجة لمغادرة المكان، وكنّ يستجبن لاي طلب تطلبه، وينظرن بتحسب مشوب بالخوف الى كل ما تقوله او تفعله . فان خرجت او غفت يتنفسن الصعداء ، وكأن احمالاً ثقيلة رفعت عن اكتافهن ، لكن هذه الراحة لا تدوم طويلاً ، لان امي زهوة لا تنام مثلما ينام الناس او في الاوقات التي ينامون فيها ، اذ كانت تكتفي بتلك الغفوات الصغيرة التي تسترقها خلال النهار، خاصة بعد الظهر ، او اول المساء . أما ان تأوي الى الفراش وتنام نوماً طويلاً متصلاً ، كما يفعل الآخرون ، فلم يذكر احد انها فعلت ذلك . ويبالغ الخدم فيقولون ان فراشها يظل على حاله اياماً عديدة لانها لم تنم فيه ولم تمسسه .

ويمكن ان تروى اشياء كثيرة عنها ايضاً ، فاكلها غير أكل الآخرين ، وثوبها هو ذات الثوب لا تغيّره ولا تخلعه . وحركتها ، وهي تدب على عصاها الملبن ، ثقيلة وخفيفة في آن واحد ، أما الكلمات التي تقولها فانها اوامر قصيرة قلما تتغير .

لها جناح في القسم الشرقي من القصر ، لكن قلما تقيم فيه ، لان كل مكان في القصر هو لها . ولا تتردد، بعض الاحيان ، في المرور قريباً من ديوان الرجال ، الأمر الذي لا تفعله اية امرأة غيرها ، وحين تمر تلقي نظرة فاحصة مكتشفة ، اكثر من ذلك قد تقول كلمة او اثنتين، على شكل تحية او سؤال ، والرجال الذين لا يطيلون النظر اليها ، خشية او احتراماً ، يواصلون احاديثهم ، لكن يشوبها في تلك اللحظات شيء من حذر ، فيلتفتون اكثر من

مرة ليتأكدوا انها ابتعدت ثم يعاودون ما كانوا فيه.

الذين يحبون الشيخة يروون الكثير عن الروح الرحيمة التي تملأ قلبها : كيف توزع الصدقات على الفقراء ، وكيف تدفع الآخرين لان يفعلوا ذلك ايضاً ، أما غيباتها القصيرة عن قصر الروض فلكي تقوم بزيارات الاحسان . كانت لا تترك بيتاً فقيراً الا وتزوره ، وكانت تحمل معها في هذه الزيارات المال او كميات من القماش والطحين ، وتفعل ذلك مرتين او اكثر في السنة . أما الايتام الذين رعتهم ، النساء اللواتي زوجتهن ، والمساجين الذين اطلقت سراحهم ، فان عددهم كبير . تروى هذه الاحاديث بتأكيد جازم ، لكن دون ان يستطيع احد الزعم انه رآها تدخل بيتاً او تدق باباً ، وكانوا يعللون الأمر « ان الشيخة ، تكره الصدقة التي تعلن عن نفسها او تلك التي تتظاهر وتدّعي » . ولذلك فان مثل تلك الزيارات تتم في اوقات لا يقدرها احد ، تتم في الليل المتأخر او في ساعات الصباح الاولى ، ولا تعرف الا بعد وقوعها بوقت طويل !

أما الذين يرون فيها امرأة من نوع آخر ، فانهم متأكدون انها شريرة قاتلة ، وانها تمارس السحر ، مثلما تشرب الماء ، ولا تتردد في ان تفعل اي شيء لشفاء حقدها على كل من حولها . ولاثبات ذلك يروون قصصاً كثيرة عما فعلته : قتلت كثيرين ، منهم سلمان ، عم السلطان خريبط ، بان دست السم في طعامه ، لانه كان منافساً خطراً يخشى منه . واوعزت لعبدها سرور ان يقتل ابنه جسّام لانه امتنع ، وقيل تأخر ، عن مبايعة خريبط وتأييده . وهي نفسها مارست ، ولا تزال ، الواناً من السحر ، اذ تستعمل انواعاً من البخور والماء المسحور، إضافة إلى كميات من الأدوية والعقاقير تصنعها بنفسها بطريقة خفية . وقد لجأت الى هذا السحر مرات كثيرة لتزويج خريبط امرأة بعد أخرى. ويؤكد الكثيرون انه في فترة من الزمن كان يتزوج امرأة كل ليلة ، « ليكون له ذرية نوح واسباط يعقوب » ، كما كانت تقول . ويؤكد هؤلاء وغيرهم ان عدداً من نساء القصر ، خاصة زوجات السلطان، متن في ظروف غامضة للغاية ، وكان ذلك بسببها ، اذ كانت ، في ايام معينة ، تدور عليهن ووراءها عبدة سوداء تحمل قدراً فيه ماء مسحور ، وتحمل هي كمية من الملح

فاذا نظرت الى واحدة منهن ثلاث مرات ونظرت الى القدر ورشت قليلاً من الملح ، فلا بد ان يحصل لهذه المرأة مكروه ، وقد تموت .

من ينظر اليها الآن يلمح في وجهها صلابة اقرب الى العداء ، خاصة وهي تدقق بنظرات مرتابة مكتشفة ؛ وقد تولدت ، نتيجة ذلك ، قناعة عند الكثيرين انها تعرف ما يدور في الرؤوس ، وانها تحزر ما فعله ، او ما يريد ان يفعله ، اي إنسان . وفي وقت متأخر ، وبعد ان تقدم بها العمر ، وثقل سمعها ، اصبحت تسمع بعينيها ، ولم يكتشف ذلك الا صدفة .

في الشهور الأخيرة من حياة السلطان خريبط ، وقبل ان يمرض مرض الموت ، اصبحت الشيخة اكثر من اية فترة سابقة ، امرأة لا تطاق ، ويبدو انها احست بغريزتها قرب الاجل ، احست بذلك بشكل واضح ، وان لم يقل لها احد ذلك او لم تقله لاحد ، لكن تلك الحركة المرتابة ، وذلك الهيجان الذي يبلغ حد الطيش ولدا حالة من التوتر في قصر الروض لم يشهد لها مثيلاً حتى في الأيام الاولى لقيام سلطنة موران ، فامتلأ الجميع باحساس غامض ، لكنه قوي ، ان شيئاً ما لا بد ان يحصل . لأنها في حالات اقل من هذه بكثير ، ولم تتعد التنبيه او التدقيق وكأنها تبحث عن شيء ، او تحاول استحضار الأرواح ، وقعت تلك الزعازع التي هزت القصر من اركانه وكادت تقضي على جميع من فيه . الآن وهي لا تكتفي بالحركة الهائجة ، ولا بتلك الشتائم توزعها على كل من يعترض طريقها او يصادفها ، ثم ذلك التدقيق المتهم القاسي، ليس في الوجوه فقط، وانما في زوايا القصر ايضا، فقد سيطر على الجميع نوع من الترقب اقرب الى الخوف . حتى السلطان خريبط الذي لاحظ الامر، امتلأ باحساس غامض ان نهايته قد قربت. أما ما تلا ذلك من خلوات بينهما ، وكانت تتكرر وتطول ، وقيل انها حاولت ان تغيّر وان تفرض أشياء لم تخطر ببال احد ، فقد فسرها الكثيرون انها مجرد محاولة من السلطان لانتزاع ذلك العفريت الذي دخل فيها ، وسبّب لها هذه الحالة من الهياج والتوتر والغضب ، وان تلك الخلوات الطويلة لم تكن اكثر من محاولة لاسترضائها والاستماع الى هذا الهذر الذي يصدر عنها ، وكل ما عدا ذلك توقع لا يستند الى اي اساس .

بعد اسابيع من ذلك الهياج مرض السلطان بشكل مفاجيء ، فايقن الجميع انه لا بد راحل . وفُسرت الخلوات التي جرت بين الاثنين ، بان الشيخة ، وقد ادركت قرب نهاية السلطان ، تريد سلطاناً غير خزعل ، وانها بذلت جهداً الى ان اخذت وعداً . أما عندما اخذ المرض وتيرة سريعة متصاعدة ، بما في ذلك حالة الهذيان التي سيطرت على السلطان ، ثم العمى الذي اصابه ، فقد حال ذلك دون الوصول الى ما كانت تريد . حتى الخلوات القليلة التي تمت، او التي أصرت ان تتم بينها وبين السلطان، اثناء المرض الشديد ، وقد طلبت من الجميع الخروج بصيغة اقرب الى الأمر، واستغلت ايضاً نوم الآخرين او انشغالهم ، فرقدت الى جانب فراشه وحدها . في هذه الخلوات لم تستطع ان تصل الى النتيجة التي كانت تريدها . وهذا ما يفسر الاشاعات التي راجت خلال الأيام الاولى لموت السلطان ، من ان موته لم يكن طبيعياً، وربما قتل ولم يمت !

لا احد في قصر الروض يجرؤ على ان يقول ذلك بصوت عالٍ ، أما في قصر الغدير ، والذي كان بعيداً بعض الشيء ، ولم تصله الشيخة الا مرات قليلة خلال السنوات الماضية كلها ، فقد وجد من قال ان الخرف اصاب العجوز ، وانها تهذر ، ولذلك سكت كل من في القصر على الاشاعات وكأنها لم تكن ، وساد تقدير انها لا بد ان تنتهي كما بدأت ، أما اذا وجد من يرد عليها ، او حتى لينفيها ، فسوف يجر ذلك الى نتائج من الصعب التحكم بها ، او معرفة نتائجها . لم يكتف قصر الغدير بذلك ، اذ ما كادت مراسم الحزن تنتهي ويرحل آخر المعزين ، حتى قام السلطان خزعل بزيارة الشيخة في جناحها ، وقبّل يدها ورأسها على مرأى من الكثيرين . ولم تمض ايام على هذه الزيارة ، والخلوة التي اعقبتها ، حتى رحلت الشيخة وعدد من نساء قصر الروض الى قصر الغدير .

الذين عرفوا الشيخة فيما مضى من الزمان ويرونها الآن يجدون شبهاً في الملامح ، لكن ما عدا ذلك ، فان المرأة تغيرت ، تغيرت كثيراً ، اي انها لم تعد تلك التي كانت في يوم من الأيام . صحيح ان الخوف لم يزايل قلوب النسوة، والرجال لم يتخلوا عن حذرهم ، وربما خشيتهم ، من النظرات المتسائلة

المتهمة ، ومن الكلمات القاسية التي لا تتردد في ان تطلقها ، لكن مع ذلك فان الهيجان الذي اشتد بها في الشهور الأخيرة ارهقها واستنزفها، فلم تعد قادرة حتى على ان تهش الذباب عن وجهها ، وقيل ان الحزن الذي غشيها اثناء مرض السلطان ثم موته غيّرها ، كما يحصل دائماً للذين تستبد بهم شؤون الدنيا فينسون الموت ، ولذلك يسرفون في الشهوة او في جمع المال ، او يسرفون في ايذاء الآخرين، ثم فجأة يكتشفون ان هذا الذي غرقوا فيه لهو ولا يعني شيئاً ازاء الحقيقة الاخرى : الموت ، إن هذا الموت اكثر حقيقة واشد قرباً من « الحقائق » الهشة التي كانت تملؤهم وتأسرهم ، وهكذا يرتّدون ارتداداً قوياً سريعاً ، ويتغيرون بين يوم وآخر ازاء هذا الاكتشاف .

وقال غير هؤلاء ان « العجيزة » مثلما قتلت سلمان وابنه جسام وآخرين في فترة سابقة ، خوفاً على السلطان خريبط ، فانها الآن تهيّىء نفسها، وتهيّىء ادوات السحر والسم ، وتهيّىء سرور ايضاً، لكي تبدأ من جديد ، وهذا ما جعلها توافق ، دون تردد ودون تأخير ، على الانتقال الى قصر الغدير . فاذا جاءت الأيام الدافئة ، وكما تخرج الحيات بعد سبات الشتاء الطويل ، فلا بد ان تبدأ ، ويختم هؤلاء كلامهم بان يقولوا « وستمتلىء موران ، مرة اخرى ، بالاخبار والمصائب » .

وفي محاولة لاسترضائها ، او على الاقل لكسب سكوتها ، وبنفس الطريقة التي اتبعها السلطان في مواجهة منافسيه ، ومن يطلب ودهم ، أغدق عليها ، فالجناح الجنوبي من قصر الغدير ، وكان كبيراً واسعاً، خصص لها ، كما كلفت ثلاث من الخادمات ان يكن بين يديها وان يلازمنها . واحيطت بجو من الحفاوة والاهتمام ، لكن بدا لكل من رأى ان الامر لا يتعدى الالهاء ، تماماً كما يُلهى الطفل بلعبة !

ورث السلطان خزعل عن ابيه صفتين : طـول القامـة وحب النساء . . وورث السلطنة ايضاً . فقامته الطويلة الضخمة كانت تثير الاستغراب اكثر مما توحي بالمهابة، خاصة اذا عبّرت عنها تلك الضحكة المجلجلة، وذلك الصوت الكثيف المبّطن ، والذي يبدو لاول وهلة وكأنه صادر من اعماق الصدر ، على شكل طبقات سميكة متتابعة ، او على شكل موجات تدفع بعضها بعضاً . فاذا هدأ وامتدت يده لتمسد اللحية تبرز اصـابع عقـداء طويلة ومـدببة ، وكـأنها سواعد طفل . أما الاسنان ، وسط الوجه ، فأكـثر ما تبـدو شبهاً بـدرجٍ او بحائط متشقق ، لكثرة ما نهشت من اللحم ولفرط ما مر عليها المسواك .

ورث السلطان هذا الطول وهذه الضخامة من ابيه واخـواله معـاً ، لان اخوته غير الاشقاء ، يختلفون عنه ، ويختلفون فيما بينهم ، تبعـاً لما ورثـوه عن اخوالهم . كان الامير خزعل اطول اخوته حتى الاشقاء ، واكثرهم ضخامة . وخلال فترة الصبا والشباب ، ولكي لا يصبح جسده عبئـاً عليه ، استهـوته الرياضة الخشنة القاسية ، لكن بدل ان تصقله وتجعله اكثر تناسقاً حوّلته الى قوة عاتية . كان يأكل مثل جمل . كان ، بمفرده ، يأكل خروفاً ابن عام ، ويشرب ثلاث طاسات من اللبن . أما اذا وضع قربة الماء على فمه فلا يردها الا رخوة يخض فيها الماء ، ويندفع من جهة الى اخرى . رهانات الأكل والشراب التي برع فيها خلال رحلاته الصحراوية ، كانت تغضب اباه حين تصله اكـثر مما تسعده . أما رهانات القوة ، اذ كان يستطيع ان يبـطح الحصان ، وان يـوقع البعير ، فكانت تسرّ السلطان ، لكن دون ان يظهر هذا السرور .

ظل هكذا خلال فترة الصبا والشباب الأول . أما بعد ان اكتشف متعة المرأة فلم يستبدلها باية متعة اخرى ، ولم يراهن على غيرها . والسلطان خريبط الذي اراد من المرأة اولاداً واسباطاً ذرية له ، واراد انتساباً وعلاقات مع القبائل ، تقوي مركزه وتقيه غوائل الزمان ، جاء ابنه خلافاً له ، اذ لم يفكر بهذه الامور ، او لم يفكر بها على هذا النحو . كان يريد المرأة ذاتها ، ويريد المتعة نفسها ، وكان جسده والقوة في هذا الجسد ما يحركه ويدفعه لان يبحث وان يجرب .

لما جرى معه اول حديث عن الزواج، وكان عمره تسعة عشر عاماً ، كان خائفاً او كارهاً لهذه التجربة ، وتمنى لو يؤجلها بضع سنين اخرى ، لكن كلمات ابيه السلطان كانت من الوضوح والجزم بحيث لم تترك له مجالاً . قال له :

ـ نريد . . من اصلابنا . . اولاداً يحكمون ويرسمون الى قيام الساعة ، ويجب ان يكون لك ولد !

ويتذكر خزعل ان اباه اضاف وهو يضحك :

ـ وانا . . . يا وليدي ، تزوجت وبنيت وجاني اولاد وكنت اصغر منك !

أما حين اقترح عليه ان يتزوج ابنة عمه هذلة ، وكانت في مثل عمره ، والتزم الصمت ، لم يجب بالنفي او القبول، فقد اعتبر ذلك موافقة ، وكادت الامور تسير في هذا الاتجاه ، لكن امي زهوة، الشيخة ، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج ، قالت بوضوح شديد : « لن يكون » . والسلطان خريبط الذي اعتكر مزاجه لمعارضتها ، وكان يبذل جهداً موصولاً وواضحاً من اجل التقرب من اخيه تركي ، ويعتبر ان هذا الزواج مناسبة لتصفية القلوب ، كما يقولون ، فقد عبر عن استيائه لرفض الشيخة ولمعارضتها . أما خزعل فاعتبر ان من شأن الخلاف ان يطول وان يتطور، وهذا يجعله في حلٍّ لفترة من الزمن على الأقل . ونساء القصر اللواتي سمعن بالخبر ، ثم سمعن ، بعد ذلك ، بمعارضة امي زهوة ، فقد توقعن اشياء كثيرة ، اقلها خلافاً بينها وبين السلطان ، ولا بد ان يؤدي هذا الخلاف الى تراجع احد الطرفين ، وربما

الشيخة بالذات ، وبذلك يتخلص من هذا الكابوس ، او يستطعن ان ينظرن اليها نظراً مستقيماً محدداً متساوياً ، لكن الامور سارت عكس ذلك تماماً .

فالشيخة التي كانت تحب تركي حباً خاصاً ، وتؤثره على الآخرين ، لم تُفْهم معارضتها ، او بالأحرى فهمت بشكل خاطىء : كيف موّهت واستطاعت اخفاء عواطفها ، او تمويهها بهذا القدر. وإذا كان موقفها من تركي ، ومن ابنته هذلة، بهذا الشكل، فكيف يمكن ان يكون موقفها ، او كيف تكون عواطفها ، تجاه الآخرين ؟

والسلطان الذي كان يعتبر الزواج مناسبة، تماماً كالموت ، لدفن قضايا كثيرة والبدء من جديد ، وانه يمكن ان يبني جسوراً ويقيم علاقات ، وجد في هذه المعارضة اموراً خافية عليه، وربما لأول مرة يشك بالشيخة ، ويعتبرها اكثر دهاء وخبثاً مما قدر ، او ان اللعبة التي لعبتها معه بدأت تلعبها مع الآخرين .

بعد ايام من هذا الرفض وهذه المعارضة ، وبعد ان زال الغضب ، سألها :

ـ كل شيء بوقته ، يا زهوة ، زين . . .

فلما تطلعت اليه مستفسرة تابع :

ـ تركي يوم الرحيبة كان غير موجود، ويوم الجمرة كان الاول والتالي. وانتِ نسيت الرحيبة وما عدت تذكرين الا الجمرة . صحيح ؟

فلما هزت رأسها ، دلالة الايجاب ، اضاف :

ـ وبين الرحيبة والجمرة ثلاث سنين او تزيد . . صحيح ؟ \

وهزت رأسها مرة اخرى .

وقلتِ ان الجمرة ما كانت لو ان الرحيبة ما صارت . صحيح ؟

وهزت رأسها .

ـ وانت قلت ان جماعة الجمرة اولهم خبّر تواليهم : اذا هذا اليوم فاتكم لا تدّوروا غير يوم . . روحوا ديرة ثانية، وشوفوا قوم غير قوم . صحيح ؟

ردت بغضب :

ـ يا ابو منصور . . ذاك يوم وهذا يوم .

رد وهو يزمجر :

ـ وشنهو اللي صار واللي جرى ؟

ـ يا ابو منصور . .

وضحكت بسخرية ثم اضافت :

ـ اتريد الصدق او تريد غيره ؟

ـ يا زهوة . . يا شيخة . . .

ردت بغضب :

ـ يا مبارك انت اللي خلّفته ما يتخلّف . .

نظر اليها وصمت ، تابعت :

ـ خزعل ، يا طويل العمر ، ما تحمله مرّية ، ما تحمله نثية . وهذلة اذا عاشت اليوم تموت ثاني يوم ، يذبحها ، ولازم تعرف !

انتفض السلطان، وكأنه كان نائماً فاستيقظ . نظر اليها بتساؤل اقرب الى الاستغرب .

تابعت :

ـ يا مبارك ، البنّية مثل القصبة ما تحمل هذا الجمل ، وتركي اخوي ، وبناته بناتي ، وهذلة ربيتها على يدي ، واذا كنت تريد موتها اوافق !

فهم السلطان ، فهم اخيراً ، فضحك ، وهو يهز رأسه دلالة الاستغراب ان امراً مثل هذا يفوته ، ولذلك وافق ان تكون امرأة اخرى ، غير هذلة ، الزوجة الاولى لخزعل .

وبعد أيام قلائل وُجدت الزوجة المناسبة : عدلة ، ابنة خاله . قوية ، متينة ، رغم قصرها ، واشبه ما تكون بالقربة، فبدا اكثر رضا وموافقة . لم يبد

حماسة كبيرة ، لكنه ضحك ، وربما قدر بطريقة معينة ان عدلة اكثر ملاءمة من غيرها !

أما بعد الليلة الاولى ، ثم كل الليالي التي تلتها ، فلم يتوقف الامير خزعل عن البحث والتنقيب . كان يبحث لمعرفة سر الحياة والكون ، والمتمثل في هذا الشوق العارم ، وفي هذا التجدد الدائم ، والذي لا يعرف التوقف او الانتهاء ، للمرأة .

كان الأكل بالنسبة له في وقت من الاوقات متعة لا تعدلها متعة اخرى ، لكن ما يكاد يشبع حتى ينفر من منظر الطعام ، فيطلب ان يرفع على عجل . وفي وقت لاحق اصبحت الرياضة تأسره وتسرقه فينسى كل ما عداها ، لكن ما يكاد يتعب حتى يشتهي النوم ويغرق فيه ، فاذا نام لم يوقظه الطوب ، كما يقول مرافقوه ، خاصة زيد الهريدي . واستبدت به في اوقات اخرى هوايات مختلفة : تربية الخيل ، القنص ، حب القصيد، لكن اياً من هذه الهوايات لم يستمر طويلاً .

واذا كانت الشيخة قد تظاهرت ، مثل جميع نساء القصر، بالفرح لزواج الامير خزعل ، فقد كانت شديدة الخوف ان تنتهي ليلة العرس على غير ما تريد . ويتذكر الذين كانوا حولها انها ظلت تدور ، مثل قط مربوط ، لا لتتأكد من شيء يراود العجائز في مثل هذه الليالي ، خاصة اتجاه فتاة كعدلة ، تتفجَر قوة وشبقاً ، وانما لتطمئن انها لا تزال حية، وانها احتملت . وفي وقت متأخر من الليل ، حين جاءت امها فرحة ضاحكة ، فلم يبق احد الا وسمع الشيخة تقول : « اذا مرت هذه الليلة ما بعدها ليلة » .

ان ذلك جزء من تاريخ لا يتذكره الا القليلون ، لان بعد عدلة كرت مجموعة كبيرة من النساء . فالامير الذي كان خجلاً ، وربما خائفاً ، من علاقته بالمرأة ، هذا العالم الذي يستهويه ويخافه، منذ ان كان طفلاً ، وجد نفسه يغرق فيه ، ولا يستطيع ان يبتعد عنه ليلة واحدة . لاحظ ذلك ، اول الامر القريبون منه ، لكنه لم يغب ايضاً عن الشيخة . واذا كان الخوف قد لازمها في الزواج الثاني ثم في الزواج الذي يليه، وتدخلت بشكل مباشر في اختيار من

تصلح زوجة للامير ، فقد اكتشفت بعد ذلك ان القضية مختلفة ، لكنها ، مع ذلك، اوصت اللواتي بحثن له عن زوجات جديدات ان « تكون المرأة مثل القربة : لينة لكن قوية ، بكبر الناقة وبخفة القطة ، والا اذا برك فوقها ما قامت » .

وتتابعت النسوة واحدة بعد الاخرى ضمن هذه المواصفات ، مع اختلاف يسير ، لان الزمن اضاف مواصفات جديدة . فما افترضته الشيخة قوة البدن ، شيئاً من السمنة ، مع عظم الردفين ، ليكون الحوض واسعاً فيتحمل اولاً ثم يحمل بعد ذلك ما لبث ان اخذ بالتغير .

تغير اول مرة حين تخير الامير بنفسه فتاة سوداء صغيرة . كانت مثل القطة او مثل نجوم الليل حين تضحك، اذ يضيء كل شيء فيها ، وكأن اسنانها تشّع نوراً ابيض وهاجاً يغسلها من اخمص قدميها حتى قمة رأسها ، وربما هذه الضحكة بالذات هي التي لفتت نظر الامير واغرته بها ، فنسي حجمها الصغير وعمرها الذي لم يكن يزيد على الاربع عشرة سنة . وحين طلب من زوجته الاولى ، عدلة ، ان تجهزها ، لانه سيبني بها « الليلة وابعد تقدير الليلة اللي بعدها»، وكانت قد انتقلت الى عدلة مسألة تزويجه مرة بعد اخرى ، فقد ابدت استغرابها ، فعضت على شفتها تحذيراً ، اما لصغر الفتاة او لوضاعة نسبها ، لكن الضحكة التي هدرت من فم الامير لم تترك لها مجالاً .

كانت ليلة من ليالي قصر الغدير مشهورة، فقد قدرت عدلة بالذات ان الفتاة لا بد مائتة، فهي اصغر واضعف من ان تحتمل . واذا كان من حق نساء اخريات ان يخمّن او ان يفترضن احتمالات معينة ، فان عدلة كانت على يقين راسخ ، وبدا لها ان اية كلمات او نصائح تسديها للفتاة لن تجدي . وقد بذلت من جديد محاولات عديدة لتحمله على تغيير رأيه ، او ان يؤجل الأمر بضعة شهور على الاقل ، لكنه لم يسمع .

في وقت متأخر ، وعدلة تحاول ان تنفي معرفتها باسباب موت الفتاة ، قالت :

ـ قلت لها : اغسلي زين هناك . . وافركي ، وافتحي رجليك وصميّهم قدر

ما تقدرين : مية مرة ، ميتين مرة: وقلت لها حطّي زيت هناك ، وبعد الغسيل حطّيه ، وان جاك اعطيه روحك واهربي، اعطيه واسحبي ، واذا طبّ فوقك فكي وصّكي ، وعسى ان الله يساعدك .

وتتغير لهجتها وتتابع :

ـ وبقيت في الحجرة القريبة ، ما بيننا الا الحائط . كانت المسكينة خايفة . وقلت يقتلها ، او الخوف يقتلها ، واكثر من مرة قلت لروحي: يا عدلة لا تخافي ، وكلي الله . . . وادخلي ، ولما مرّ الوقت ، وخفت ، ولما سمعت الصوت ، وكان صوتها مثل صوت البّس اذا طاحت به رِجل . قلت : طلعت روحها ، قتلها ، لكن رب العالمين ساعدها وخلصها ، ولما دخلت كانت ترجف وغارقة بدمها وبدموعها ، وكانت تبكي وتضحك . سألتها : ما بك خلاف يا بلّية ؟ ردت وقالت ما ادري يا عمتي » .

بعد ذلك ، وقد تغيرت خيارات الامير ، قالت الشيخة باستغراب « أمنا حواء ، طلّعت آدم من الجنة ، وحريم اليوم راح يجرن امة الثقلين الى الجحيم . وما عاد ينحزر عليهن » .

لما اصبح الامير خزعل سلطاناً كانت المرأة السادسة عشرة قد مرت من تحته ، وكان لا يزال يبحث عن هذا السر الالهي في العلاقة بين الرجل والمرأة . كان يقضي الساعات الطويلة ، ليس فقط في التفكير ، وانما ايضاً في النظر لاكتشاف جسد المرأة . ان هذا الجسد يثيره لدرجة الغرابة ، والاثارة لم يكن لها شكل واحد ، ان كل شيء في المرأة يثيره . فرمانة الكتف ليست فقط مكان التقاء الساعد بالجسد ، وليست هذا التكور الذي يستقطب منذ اللحظة الاولى النظر ، انها اكثر من ذلك . فاذا ارتفع الساعد ، اذا ارتفع الساعدان ، فان عالماً من اللذة ينفجر دفعة واحدة ، ولا يمكن مقاومته . كان يريد ان يتابع رحلة الجسد في كل جزء منه ، ان يتوقف ، ان يلمس باصابعه ، بيده كلها ، ان يشم رائحته ، وكان يلذ له ايضاً ان ينهش ، لكن ما يكاد يبدأ رحلة الاكتشاف حتى يتكهرب ، تصيبه رعشة تخضه تماماً ، تخرجه من تأملاته ، يضطرب ، فتختلط اعضاؤه ببعضها ، تصبح اصابعه وشفتاه غير اصابعه وغير

شفتيه ، وتصبح راحتا يديه راحلة في هذه السهول والهضاب لكن لا يعرف كيف او الى اين .

كان يريد ان يتوقف عند الساعدين ، ان يمسك تلك البطات الصغيرة ، من الجانب السفلي، ان يتأملهما ليري كيف تدغدغانه بهذا المقدار . . عندما تلتفان حوله ، لكن ما يكاد يمد اصبعه بخوف اول الامر ، ثم يمد راحته ويطبطب على تلك البطات الصغيرة حتى يحس ان دمه التهب ، فيضع رأسه كله تحت الساعد ، ينظر اليه من اسفل ، يتأمله ، يجد ان هناك شيئاً جديداً لم يره ولم يكتشفه من قبل .

فاذا انتقل من رمانة الكتف الى الصدر فانه يرتجف ، يفقد سيطرته على نفسه ، يحس انه عاد ، مرة اخرى ، طفلاً صغيراً ويريد ان يرتمي على هذا الصدر ، ان يلتحم به ، وان يظل هناك الى الابد ، انه يحب الصدر الى درجة لا يقوى على تركه . يحب الارتفاع والصلابة والمنح المستمر ، يحب ذلك الشيء الذي لا يعرفه . لطالما حلم ان يعود طفلاً صغيراً ، وان يظل مرتمياً على الصدر ، وان يغفو فوقه . أما عندما ينهش الحلمة باسنانة الكبيرة ، وتموء الانثى تحته خائفة ان يقضمها ، فكثيراً ما قال لنفسه او قال لها : « الحوير ما تضره رمحة امه » . وينزلق ، ينزلق بسرعة ، ليستقر هناك . وهناك كان يذوب ، يتجدد ، يخور ، يلهث ، يقفز كارنب ، يستقر كحجر ، كان لا يصدق ان شيئاً مثل هذا يمكن ان يقع ، وانه هكذا مثل النبع لا يتوقف ولا ينتهي .

ظلت عدلة الاحب اليه من النساء ، ومهما ابتعد عنها كان يعود اليها ، وحتى عندما تولت امر تزويجه امرأة بعد اخرى ، كانت تفعل ذلك بلذة ، لانها كانت تعرف انه سيعود اليها . لقد حصل هذا في كل المرات . قد يغيب فترة اطول مما تتوقع ، لكنه دائماً يعود ، بشوق واندفاع يعود ، مع ذلك الطيش الذي يشبه طيش الأيام الاولى . كان يسميها ، دون ان يدري احد، الشيخة ، وحين تعضّ على شفتها ، خوفاً وتحذيراً . ينظر اليها ، يرد وهو يقهقه :

ـ والله ما غيرك شيخة !

في فترة معينة ، وقد لاحظ السلطان خريبط غيبات طويلة لابنـه ، وجاء من ينقل اليه انه سلّم امره لعدلة تزّوجه وتـطلب منه ان يـطلق هذه المـرأة او تلك ، قال كلمة نقلها عنه بعض اولاده . قال :

ـ ادّب ولدك ولو زعلت امه .

وبعد قليل اضاف وهو يتنهد :

ـ اذا اخطينا واخذنا من العجـاريم ما نسلّمهم روسنا، وابد مـا نتركهم يحكمون ويرسمون .

وفي تلك الفترة بالذات بدأ فنر يكثر البقاء في ديوان ابيه ، بل ولا يكاد يتركه . وبدأ يتردد ، همساً ، وبتكتم شديد ، ان السلطان يعتمد كثيراً على فنر وانه يحبه اكـثر من اخوتـه الآخرين ، وقـد يجعله سلطاناً بعـده . وفنر الـذي يتظاهر انه لم يسمع ولم يلاحظ ، يبالغ في الصمت والزهد والانتظار ، أما حين جاء من يقترح عليه ان يتزوج امرأة جديدة، فقد رد ببسـاطة ، لكن بخبث ايضاً :

ـ هذه الأيام واحدة ما ينقدر عليها !

ولا يـدري ابداً مـاذا فعلت الشيخة في تلك الأيـام او مـا الـذي قـالتـه للسلطان ، لكن بدأت تتردد ، همساً ، اشياء كثيـرة ، وظلت موران تتـرقب وتنتظر ، وقال كثيرون : لن ننتظر طويلاً !

بعد ان استقر الحكيم في موران ، وسُمّي مستشاراً للسلطان الجديد ، واصبح لا يفارق مجلسه ، وبعد ان توثقت العلاقات بينه وبين زيد الهريدي اكثر من قبل ، بدأ يحس بهم ملأ عقله وقلبه، اذ كان يشعر ان عليه اعادة تشييد سلطنة موران من جديد !

وكالهام مفاجىء ، خطر له ان من جملة الاشياء التي يحتاجها السلطان حلاقاً خاصاً ، ربما احس ذلك من الحركة العصبية التي كان يعاودها السلطان بين فترة واخرى ، حين يتلمس رأسه او يثبت عقاله ؛ وربما من خلال ما لاحظه مرة من ان احد الشاربين اطول قليلاً من الآخر . . . . واعرض . ودون تحضير او تفكير سابق ، وفي لحظة « الاشراق » . هكذا يطلق الحكيم على الحالة النفسية المواتية ، اقترح اهمية وضرورة وجود حلاق خاص للسلطان . واضاف بلهجة اقرب الى الانفعال :

ـ نعم ، يا صاحب الجلالة . . . ان ذلك ضروري الى اقصى حد ، لان مظهر صاحب الجلالة السلطان لا يعنيه وحده ، انه يعني كل الناس ، باعتباره رمزاً وقدوة ، ولذلك يجب ان يكون هذا الحلاق موثوقاً ، اميناً ، كتوماً ، ويجب ان يكون ايضاً معلماً في الحلاقة !

والسلطان الذي داخله الشك فتلمس رأسه وعدل عقاله اكثر من مرة ، تطلع الى الحكيم بطرف عينه ليتأكد من الكلمات التي سمعها ، وحين بدت له

ملامح الحكيم جادة ، وناس رأسه عدة مرات ، كما لو انه يفكر او يتذكر ، قال وكأنه يوجه الكلام الى رجل آخر :

ـ عبّيد . . يحسّنا ويكفي يا حكيم ، والحسان مرة كل شهر . . كل شهرين .

ـ هذا ما يجب ان يتغير ، يا صاحب الجلالة ، لان جلالتكم تستقبلون الرؤساء والأمراء كل يوم ، ولان حلاق السلطان ليس رجلاً عادياً ، كما ان الادوات التي يستعملها يجب ان تكون تحت اشراف طبي مباشر . . . لئلا . . .

والتفت الحكيم اكثر من مرة ليتأكد انه لا احد يسمعه :

ـ وما دمت ، يا صاحب الجلالة ، اخترتني طبيباً وتثق بما اوصي به ، ارى ان يكون لكم حلاق خاص بكم .

اعتبر الحكيم صمت السلطان موافقة ، وما كاد يغادر القصر ، وقد شغلته هذه القضية بالذات ، حتى قال لمحمد عيد بلهجة ابوية :

ـ اسمع يا محمد . . . عندي قضية لا يمكن ان اكلف بها احداً غيرك : اريدك ، من هذه اللحظة ، ان تجد لي حلاقاً ، احسن حلاق في موران كلها ، لانه سيكون لصاحب الجلالة .

ومحمد عيد الذي فوجىء بالطلب ، فاستدارت عيناه وبدا مدهوشاً ، وكان يتوقع ان يسمع من الحكيم اي شيء الا هذا ، ما لبث ان شد قبضته وضرب الهواء ، وهو لا يفعل هذا عادة الا اذا تطابقت الفكرة مع الحل تطابقاً كاملاً ، ولان هذه العادة ارتبطت بحدث معين حصل اثناء الفترة الاولى من اقامته في حران ، اذ ما كاد يحاول مرة اعادة تركيب باب غرفة سكن الحكيم ، بعد ان دهن اطاره ، وكان الحكيم يساعده ولا يفلح ، حتى قال كلمة اصبحت بينهما رمزاً : قال يشرح له : « تماماً فوق بعض يا حكيم ، انثى وذكر » وقد اعجب الحكيم بهذا التعبير واصبح يردده!

الآن وهو يخبط الهواء بقبضته ويردد دون حرج . وبما يشبه الظفر :

ـ جبتها . . والله جابها ، يا حكيم . . انثى . . وذكر .

والحكيم الذي بدا مسروراً وضحك مثل طفل ، كان في عجلة لان يعرف ، سأل بلهفة :

ـ انا اعرفه ؟ شفته ؟

ـ خلص يا حكيم . . مثل ما قلت لك : انثى وذكر !

وبهدوء لم يتعوده اخذ محمد عيد يشرح للحكيم ان اخاه بدري حلاق لم ينجب الشرقان الادنى والاوسط مثله . كان حلاقاً في اللفيف الأجنبي ، واصبح حلاق الكومندان شفاليه . ثم ذهب الى الاسكندرية وقبرص ، الى ان اصبحت الحلاقة بالنسبة له اكثر من مهنة : انها فن وهواية .

اصيب الحكيم بخيبة امل وهو يستمع اليه ، اذ ما كان يتصور ان البلاهة تبلغ بمحمد عيد هذا الحد ، فيقترح ان يأتي بحلاق من طرابلس . الا ان لهفة محمد وتعبيرات وجهه ويديه، ولان الحلاق الوحيد الذي تعرف عليه الحكيم في موران ، يثرثر ويجرح اكثر مما يحلق ، أما ذلك اليمني في حران « فان وجهه ينشّف البحر ، ولا يضحك للرغيف السخن » فقد بدا له ان الأمر يستحق التفكير ويتطلب الحذر ، كما عنت له فجأة فكرة خطرة : ماذا لو اخترنا حلاقاً لا نعرفه وتصرف هذا الحلاق بطريقة جنونية ؟ قال لمحمد عيد وهو ينظر الى عينيه بتحديد :

ـ الواحد اللي تعرفه احسن من اللي تتعرف عليه ، واخوك قريبنا ، فاذا جاء وعرف كيف يدخل الى قلب السلطان فحظنا من السماء .

وبهدوء مبالغ فيه طلب من محمد عيد ان يجلس ويعطيه فكرة دقيقة عن اخيه بدري ، عن عمره واي نوع من الرجال هو ، وهل يمكن اعتباره الشخص الذي يناسب السلطان .

سمع الحكيم بعض ما قاله محمد عيد ، ولم يسمع بعضه الآخر، لانه سرح في افكار بعيدة ومتضاربة ، أما حين اكد له ان اخاه يمكن ان يكون في موران خلال اسبوع واحد فقد قال الحكيم بانفعال ظاهر:

ـ ابعث وراءه فوراً . . واذا جاء اليوم احسن من بكره .

في نهاية الاسبوع الثالث وصل بدري المدلل ، ابو مصباح ، الاخ الشقيق لمحمد عيد ، الى موران .

لا يظن من يراه لاول مرة أنه حلاق. قد يظنه مديراً لمدرسة ، او ضابطاً متقاعداً . ومن يدقق في وجهه ويرى سالفيه الطويلين وشاربيه الرفيعين المقصوصين بعناية يظنه ممثلاً مسرحياً . أما اذا تحدث فيمكن ان يكون اي شيء الا حلاقاً . والحكيم الذي رآه في اليوم التالي لوصوله ، تفاءل منذ اللحظة الاولى ، فان يكون اسمه ابا مصباح ، كما قدمه محمد عيد منذ البداية ، وحتى قبل وصوله ، نقطة ايجابية لمصلحته . فالشبه بين الاسمين ، او التقارب ، اشعر الحكيم بنوع من الاعتزاز . أما حين بدأ يتكلم فقد كبر كثيراً في عيني الحكيم ، حتى لظن خلال لحظات ان في الامر سراً لا يفهمه . ولما بدأ يفيض بثقة وزهو ، والحكيم ينقل نظراته بين الوجهين في محاولة لاكتشاف شبه من اي نوع ولا يجده ، فقد فهم السر في محبته الكبيرة لمحمد عيد ، ومن اين استمد هذه القدرة على الحديث المتقن والكلمة الآسرة . قال له بنوع من المكر :

ـ استرح كم يوم يا ابو مصباح . . تعرف على موران وعلى الناس وبعدها انشاء الله ما يصير الا الخير .

لم يحدثه عن العمل الكبير والخطير الذي هيأه له ، ولم يشر من قريب او من بعيد الى السلطان . ومحمد عيد الذي قضى الليلة الماضية ساهراً يشرح لاخيه لماذا اراده ان يأتي بهذه السرعة، واي مستقبل ينتظره، وكيف سيصبح غنياً بين عشية وضحاها ، كما اشار اشارة سريعة الى احتمال ان تنتقل العائلة جميعها الى موران وتستقر فيها ، فوجىء واستغرب ان الحكيم اتخذ هذا الموقف المتحفظ ، وكان يتمنى ، ليكبر في عيني اخيه ، لو ان الحكيم تصرف بشكل آخر . قال لنفسه وقد وقف الحكيم اعلاناً عن انتهاء الزيارة : لو كان غير اخي لاخذني جانباً وقال لي نفس الكلمات : « دبّره . تكفل به وبس يقشّر جيبه وتعال » ، وضحك وهو يقول لاخيه :

ـ وصلت متأخراً ، يا ابو مصباح . وبعدك ما شفت موران ، لازم تشوفها وتشوف كل شيء فيها !

وانتظر بدري المدلل اربعة وثلاثين يوماً، وكاد يحزم حقيبته اكثر من مرة خلال هذه الفترة ويعود من حيث اتى ، الا ان « الرسائل » الايجابية المطمئنة التي كان يأتي بها محمد عيد بين يوم وآخر ، وكلها تؤكد « قرب الفرج » ، كانت تجعله متردداً ، وتحمله على تأجيل السفر مرة بعد اخرى . قال لمحمد عيد في احدى الليالي ، وبعد « رسالة » مشجعة جديدة :

ـ صحيح مثل ما قالوا : جدي لعب بعقل تيس ، وانت من شهر تلعب بعقلي ، وانا مصدق ، بس اسمع . . وضحك بصوت عالٍ واضاف :

ـ عليّ الطلاق بالثلاثة انه اذا مرت الاربعين وما صار شي ، لا انت ولا معلمك ولا احد على وجه الارض يربطني بهذه الديرة الزفت .

وتغيرت نبرة صوته :

ـ يا اخي ، يا حبيبي ، النفسا بعد الاربعين تحبل ، والميت بعد الاربعين يصير عظام ، وانا حدي الاربعين !

ـ طّول بالك يا ابو مصباح ، اليوم ، اليوم بالذات ، الحكيم قال لي ان كل شيء خلص وانتهى على خير .

ـ خلص ما خلص هذا هو ، خلي سلطانكم يدّور على حلاق غيري !

ـ لا ترفس النعمة يا ابو مصباح ، ومثل هذه الشغلة ما تحصل كل يوم .

ـ والله يا سيدي عيشة الفي والمي اللي كنت عايشها ، احسن من كل مورانكم وحرانكم .

ـ اصبر بعد كم يوم .

ـ طيب ، بسيطة ، لكن للصبر حدود .

في ليلتين متتابعتين التقى الحكيم ببدري المدلل ومحمد عيد، ومن حديث الى آخر افهم الاثنين معاً ان السلطان ظل متردداً خلال الفترة الماضية ، رغم الجهود التي بذلها من اجل اقناعه ، واذ وافق الآن موافقة مبدئية فبناء على الحاحه ، وستكون الفترة الاولى تجريبية ، وعلى ضوء نتائجها سوف يتحدد كل شيء ، « أما الاشراف والعلاقة فانهما مرتبطان بي وعلى كفالتي » .

ورغم ان بدري لم يرتح لهذا الكلام وكاد يعلن اعتذاره ويعود من حيث اتى ، الا ان لباقة الحكيم وانتقاله من موضوع الى آخر ، ثم ذلك الود الذي فاض فجأة جعل كل شيء ينتهي نهاية ايجابية .

وفي الليلة الثالثة استدعي بدري المدلل الى القصر لمقابلة الحكيم في مكتبه ، فلما دخل عليه وجد عنده شخصاً آخر ، ويبدو ان هذا الشخص كان مكلفاً بان يقول الكلمة الاخيرة ، ورغم انه لم يوجه اليه سؤالاً ولم يتكلم ، الا ان عينيه لم تفارقا بدري ؛ كانت عيناه تحصدانه، وكانتا اقرب الى العداء ، أما عندما نهض الحكيم ، ايذاناً بانتهاء الزيارة ، فقد قال الكلمة الفصل ، بعدِ ان نظر الى هذا الرجل :

ـ غداً صباحاً ، الساعة ١٢ عربي ، تجهّز نفسك ، لان سيارة القصر ستمر عليك . ومن الغد تباشر .

حين يتذكر ابو مصباح الأيام الاربعة والثلاثين التي قضاها في موران متردداً حائراً ، بل اميل الى العودة من حيث اتى ، يشعر ان خطأ مثل هذا لو حصل لما امكن اصلاحه ، وان محمد عيد كان على صواب كامل ، اذ لولا الحاحه واصراره لاخذت الامور شكلاً آخر . أما الكلمة التي يرددها محمد عيد في لحظات المداعبة وتذكر ما حصل ، ولا تغضب اخاه ، فقد كانت الكلمة ذاتها التي قالها اخوه لنفسه « جدي لعب بعقل تيس » . لان ما تلا ذلك اليوم ، وحتى سنوات كثيرة لاحقة ، كان نتيجة ذلك الموقف .

فالسلطان الذي بدا حذراً مرتاباً خلال الأيام الاولى وهو يسلّم رأسه لشخص لم يره ولم يعرفه من قبل ، والذي حرص على وجود الطبيب ومطيع واثنين من رجاله الى جانبه ، وحاول ان يبدو مرتاحاً ، بل وتظاهر بالمرح ـ وقد استغل الحكيم لحظات الاشراق، واقترح على السلطان تعديلات طفيفة في قص شعره ولحيته ، وقد تقبلها السلطان ، بعد ان قام ابو مصباح ، بكثير من التهذيب والكياسة ، بتأييدها ـ هذا الحذر ما لبث ان تراجع ، واصبح بدري المدلل واحداً من المقربين ، بل من الملازمين ، للسلطان .

الى فترة قصيرة سابقة لم يكن السلطان يبدي اهتماماً بمظهره وشكله ، بل كـان اقرب الى الفـوضى والبساطـة ، وكان يؤثـر اشياء اخـرى على المـلابس والمظاهر ، لكن ما لبث ان تغير وأخذ بالحالة الجديدة .

يتذكر الحكيم ان دعوته الى موران اول مرة لم تكن « بـريئة » ، فـالحفاوة التي استقبل بها ، والعناية التي وجهّت اليه ، ثم محاولات الامير خزعـل كسر التهيب بسرعة ، جعلته ، بداية الامر ، متـردداً في تفسير هـذا كله ، ورغم ان الامـير لم يتطرق ، آنـذاك ، الى الاحتمـال الـذي قـدّره الحكيم ، فـان زيـد الهريدي تولى الامر نيابة عنه ، اذ لم تكد تمضي بضعة ايام على وجود الحكيم في مـوران ، حتى تعمد زيـد ان يكون معـه وحيداً في احـدى الليـالي ، ومن حديث الى آخر ، وفي لحظة انفعال لم يعرف زيد كيف يسيـطر عليها ، طلب منه ان يؤمّن له مجموعة من الادوية « المقوية » . ولما حاول الحكيم ، بمكر ، ان يستفسر حول الاوجاع او الامراض التي تتطلب هذه « المقويات » ، قال زيـد وهو يدير وجهه الى الناحية الثانية ويشير بيده :

ـ الخـوايا بحـران علّمونـا بكـل شيء ، وانت تعـرف زين الـلي يلزم يـا حكيـم !

وتعمّـد الحكيم ان يكون رده ضحكـة مجلجلة ، وبعد فتـرة قـال كلمـة واحـدة :

ـ بسيطة !

هذه الذكرى مجرد بداية بعيدة ، لان ما تلاها كان اوضح منها واقوى . فزيد الذي جاء الى حران بعد مرور اقل من شهرين على هذه الزيارة ، وبدا اكثر جرأة ولهفة مما كان في موران ، اشار اشارات غير مباشرة ، لكنها مفهومة ، ان المقويات التي يريدها مرة اخرى ، وبكميات اكبر من السابق ، لا تخصه فقط وانما تخص اناساً آخرين ، وضحك ضحكة ذات مغزى وفهم الحكيم بشكل جيد .

بعد ذلك سارت الامور بشكل افضل واكثر ووضوحاً . ففي زيارة الحكيم الثانية الى موران ، والتي امتدت اسبوعين كاملين ، وهذه المدة الطويلة كانت نتيجة اصرار الامير نفسه ، والذي بدا محرجاً ، بل واقرب الى الخجل ، من الأيام الاولى ، في هذه الزيارة ، تعمد الحكيم في لحظة مناسبة ان يسأل زيداً بتورية ناعمة وذكية عن صحته ، وحين رد عليه انها جيدة وضحك بلذة وصخب تشجع الحكيم وقال مازحاً :

ـ هذه واحدة من الف !

ورغم ان الامير لم يظهر اهتمامه ، اذ تطلع الى اكثر من ناحية ، الا ان اعصابه كلها انشدت وتوترت ، وكان يود في اعماقه لو ان الحكيم يسترسل ويقول كل شيء ، وفي محاولة لان يستفزه ويدفعه الى الكلام توجه الى زيد :

ـ العمر له احكامه يا زيد وظني ان البني آدم اذا كبر تفرغ عظامه .

رد زيد بمكر :

ـ بعدنا شباب ، يا طويل العمر ، والبني آدم يتصلح مثل السيارة .

ـ لكن السيارة حديد يا ابن الحلال .

ـ والبني آدم . . كل شيء فيه يصير مثل الحديد . . اقوى من الحديد ، يا طويل العمر !

ولم يترك زيد الفرصة تفلت ، تطلع الى الحكيم وسأله :

ـ ما قولك يا ابو غزوان ؟

ويتذكر الحكيم انه لجأ الى اساليب متعددة ، واتى بامثلة كثيرة ومتنوعة

لاثبات مدى التقدم الطبي ، خاصة في مجال تعزيز قدرة الانسان واطالة عمره ، وان الاطباء في المانيا والنمسا ، وفي اميركا ايضاً ، توصلوا الى اكتشاف ادوية يمكن ان تجعل الانسان في حالة شباب دائم ، واشار بسرعة الى انه قرّر زيارة المراكز الطبية الكبرى في اوروبا واميركا خلال فترة قادمة ، لكي يطّلع على المكتشفات الحديثة ويتأكد من نتائجها وفعاليتها .

والامير الذي كان يتابع باهتمام ويهز رأسه دلالة الاعجاب ، كان بحاجة الى حلول سريعة ، قال لزيد ، لكنه يريد ان يسمع الحكيم :

ـ خمّس وسدّس يا زيد وعش بالأمل الى حين ما يرجع الحكيم من اوروبا واميركا !

ولم ينتظر الحكيم ، التفت الى زيد وطلب اليه ان يأمر باحضار حقيبته السوداء الصغيرة والحقيبة الطبية . وخلال دقائق قليلة استخرج من الحقيبتين كمية وافرة من الادوية ، نظمها على شكل مجموعات ، وبهدوء وصبر بدأ يشرح كيفية الاستعمال والمقادير والمواعيد ، كان يشرح للامير خزعل اكثر مما يتوجه بالحديث الى زيد ، والامير الذي بدا مسروراً منفعلاً قال لزيد بما يشبه الأمر :

ـ كل شيء اكتبه يا زيد أحسن ما تتيه عليك!

في هذه الزيارة تحددت وترسخت صفة الحكيم ، لان الامير لم يكتف باسئلة اضافية عن الادوية ، ومقارنتها بغيرها ، اذ طلب من الحكيم ان يفحصه بدقة ، وان يعطيه توجيهات لكي يكون وضعه الصحي على احسن ما يرام . وقد قام الحكيم بكل ما طلب منه ، وابدى عناية كبيرة اثناء الفحص وبعده ، واكد ان صاحب السمو في حالةصحية جيدة للغاية ، « وان قلبه مثل قلب شاب في العشرين » واشار اخيراً الى ان سموه اذا خفف وزنه قليلاً فسوف يجعله ذلك في وضع افضل من كل الوجوه . . وضحك !

هذا الذي يتذكره الحكيم الآن جزء من ماضٍ يغيب ويبتعد ، فالامير الذي بدا خجولاً او محرجاً ما لبث ان تغّير ، وقد ساعده الحكيم كثيراً على ذلك ، وجاءه بأمثلة عديدة من التاريخ والسنة ، خاصة تاريخ الملوك

والعظماء ، واكد له ان قدرة الانسان هي التي تحدد في النهاية كل شيء ، وذكر عرضاً ان الملوك الاقدمين اذا كانوا قد اعتمدوا على الطب الشعبي والوصفات البسيطة ، مثل العسل ، واللوز ولحم الحمام ومرقه ، فان التقدم الذي احرزه الطب قدّم خدمات ووصفات لا حدود لها ؛ ويجب ان يستفاد منها . بعد هذه الزيارة ، وبشكل منظم ، بدأت تصل الى قصر الغدير كميات تزداد وتتنوع من الادوية الجديدة ، وكانت ترفق بارشادات واضحة من قبل الدكتور المحملجي ، مع تمنياته بقضاء اوقات ممتعة !

الآن ، والحكيم يصل الى موران ويقيم فيها ، يشعر ان واجباته ومسؤولياته تزداد وتكبر ، فهو ليس مسؤولاً عن صحة السلطان فقط ، يجب ان يبذل كل ما يستطيعه من اجل مساعدته وتسهيل مهمته ، ويجب ان يشعر الناس جميعاً القاصي منهم والداني ، الكبير والصغير ، ان السلطان الجديد ليس مثل اي سلطان قبله ، وليس مثل اي سلطان غيره .

هذه المهمة تشغل الحكيم الآن ، وتجعله في حركة دائمة وتفكير متصل فتزيد مخاوفه واضطرابه ، خاصة وانه لم يألف موران بعد ، وليس متأكداً من الناس حوله . أما بعد ان وصلت زوجته واولاده ، وبعد ان اصبح مطيع ليس مجرد قريب او مساعد يمكن الاعتماد عليه فقط ، وانما صديق ايضاً ، فقد اصبح في وضع نفسي افضل . قال لمطيع في احدى الليالي ، وهما في المنطقة الوسطى يرافقان السلطان في احدى جولاته :

ـ يا خالي ـ هكذا يخاطب الحكيم ابن اخته ـ اليوم غير الامس ، واذا كنت قد بقيت وحيداً في الفترة الماضية ، وكان السلطان اميراً فقط ، فالحال اختلف اليوم . . .

وزفر مهموماً وحاول ان يجمع افكاره ويركزها :

ـ اسمع يا مطيع ، انت كبير وعقلك راجح ، ولا تحتاج الى من يعلمك ، لكن ، كما تقول الحكمة : عقلان اكبر من عقل ، ورجلان اقوى من رجل ، واليوم انا وانت وانشاء الله لا يفرقنا الا الموت .

استراح قليلاً ثم اضاف بنبرة جديدة :

ـ مهمتنا صعبة ، صعبة جداً ، يا مطيع ، يا خالي ، وحسادنا الذين لا وجود لهم الآن ، قد يظهرون غداً ، وقد يظهر لنا اعداء ايضاً ، ولذلك يجب ان نستعد .

وابتسم وسرح مع الذكريات ، ثم عاد مرة اخرى :

ـ كانت عادتي، منذ زمن طويل ، ان اقرأ التاريخ وأتعلم . اليوم لازم نطبق ما تعلمناه .

وتغيرت لهجته :

ـ انا لست مغروراً ، كما اني لست وحدي . انا وانت وكم واحد من جماعتنا ، اذا تفاهمنا وصفت قلوبنا ، يمكن ان نغيّر وجه المنطقة !

تنحنح وهز رأسه ثم اضاف :

ـ يمكن تتذكر قصة المرأة الانكليزية اللي اسست مملكة من العدم، وجاءت بملك مهزوم وتوجته على رأس كل الملوك المتنافسين والمنتظرين . كانت اجنبية ووحيدة .

تنفس بعمق وبعد قليل :

ـ نحن وضعنا اسهل بكثير : السلطان اعطانا مفاتيحه كلها ، الظاهر منها والباطن ، ويجب ان نستعمل هذه المفاتيح . أما اذا ضاعت منا ، اذا سرقها احد ، اذا لم نعرف كيف نستعملها فاللوم يقع علينا وحدنا !

كان مطيع يستمع الى خاله باهتمام ، ويفهم كل كلمة يقولها ، لكنه يجد ان الكلمات بمجموعها لا تعني شيئاً محدداً ، ولا تشكل نسقاً واحداً . ماذا يريد خاله ؟ وما هو المطلوب منه بالذات ؟ صحيح انه اكتسب رضا السلطان خلال الفترة الماضية ، واصبح شخصاً لا يستغنى عنه ، فقد سافر عدة سفرات لشراء حاجات كثيرة كان القصر بحاجة اليها ، كما حمل رسائل عديدة ، الا انه الآن لا يعرف ما يجب ان يفعل . كان عليه ان يتشاور مع خاله باستمرار ، ان يسأله ، ان يستمع اليه . الآن وخاله يصل الى موران ، ويلتقيان كل يوم ،

ويتحدثان في امور كثيرة ، يجد ان الكلمات التي يسمعها تعني اكثر مما فعل ، وتعني شيئاً آخر .

في هذه الجولة ، في لقاء الناس ، في كلام خاله الكبير والغامض ، يحس بثقة اكبر ويشعر انه ليس وحيداً . قال لخاله في لحظة انفعال :

ـ كان من الواجب ان تكون في موران من زمان يا خالي .

ـ كل شيء باوانه احسن . . يا خالي .

ـ ومع ذلك لا اتصور اننا تأخرنا .

ـ بالعكس . . هذا هو الوقت المناسب .

وضحك الحكيم بحزن واضاف :

ـ اذا عرفنا كيف نشتغل . .

. . . ومن الامور التي شغلت الحكيم ايضاً ، ومنذ وقت مبكر ، ان يكون الى جانب السلطان شخص كفؤ وموثوق يتولى مهمات « الأمن والسلامة » ، هكذا يطلق على الجهاز السري الذي يفكر فيه ؛ واذ فكر باشخاص عديدين ، وخطرت له اسماء اخرى ، فلم يكن بعد متأكداً من الشخص المناسب ، « لان اهل موران مثل الجوزة لا تعرف ما في داخلها حتى تفتحها » ولان مهمة هذا الشخص ليست فقط معرفة ما يقوله الناس وما يفكرون فيه ، بل تتجاوز ذلك الى معرفة كل شيء عن الامراء : ماذا قالوا ، اين كانوا ، ماذا فعلوا ، ومن هم اصدقاؤهم ، وماذا يقول لهم هؤلاء الاصدقاء ، اي بكلمة اخرى : معرفة ومتابعة ادق الاشياء واكثرها سرية . والحكيم الذي عرف عدداً من هؤلاء الامراء ، ويتذكر كيف نظروا اليه في البداية ، او كيف تصرفوا معه ، يدرك مدى حساسية المهمة التي يفكر فيها ، لان الامراء ، دون ان يتحرش بهم احد ، نزقون وعدائيون ويبحثون عن الشر ، كما يقول الحكيم لنفسه ، ويمكن للواحد منهم ان يذبح الرجل دون ان يرف له جفن ، او كما يشرب الماء . فاذا عرفوا ان هناك عيوناً تراقبهم ، تحصي خطواتهم وتحركاتهم ، وتعرف اين ذهبوا او ماذا فعلوا ، فعندئذٍ ستكون لديهم كل المبررات لان يكونوا في منتهى القسوة والشراسة . ولذلك استبعد الحكيم الاسماء واحداً بعد آخر ، واستبعد بشكل خاص كل واحد من غير اهل البلاد .

في حران كان محمد عيد عيناً له واذناً . كان ينقل له كل ما يسمع وكل ما يقوله الناس . هنا في موران تبدو المسألة مختلفة تماماً ، واكثر تعقيداً ، أما حين

طلب من محمد عيد ان ينقل اليه ما يدور من اخبار واحداث ، وان يبقى على صلة بالناس فقد ضحك ورد عليه مازحاً :

ـ الواحد منهم ، يا حكيم ، مثل الاخرس ، لا تأخذ منه لاحق ولا باطل ، واذا تكلم لا تفهم ماذا يقول . . وفي الأخير اذا فهمت يسألك عن : الحلال والمطر والسوق ، «أباعر ابن السعد وصلت» « وطرش ابن عثمان ضاعت وهلكت »وتعال احزر وفسر من ابن السعد ومن ابن عثمان ، وما هي الأباعر وما هو الطرش !

والحكيم الذي حاول ان يشرح لمحمد عيد ان ما يطلبه منه شيئاً آخر غير الجمال والغنم ، وان لهجة الناس ليست الى هذه الدرجة من الغموض والتعقيد ، الا ان محمداً بدا غير متحمس ، قال للحكيم لينهي المناقشة :

ـ واذا سمعت اي شيء يا حكيم لمن ساقوله اذا لم اقله لك ؟

ورغم محاولات الشرح والتوضيح الا ان الطرفين كانا متأكدين ان ما يفكر فيه الواحد يختلف عما يريده الآخر . ولهذا اخذ تفكير الحكيم نسقاً آخر ، وبدأ يبحث عن الرجل الذي يجب ان يتولى هذه المهمة .

قال الحكيم للسلطان في احدى الليالي :

ـ . . . يا صاحب الجلالة ، يقول المثل : الباب الذي يأتيك منه الريح سده واسترح . ونحن الآن في عالم يموج حولنا بالاضطرابات والفوضى . صحيح ان الامن ، ولله الحمد، يعم انحاء السلطنة ، والناس في رضى وقناعة، لكن هذه الرياح التي تهب من اركان الارض الاربعة ـ واصرّ متعمداً ان يستعمل هذا التعبير ـ لا بد ان تصل الينا ، ولا بد ان يتلقفها مخدوع او طامع ، خاصة وان السلطنة ، بما انعم الله عليها، اصبحت هدفاً للاطماع من قبل الفقراء المحيطين بها ولولا حكمة جلالتكم ومحبة الناس لكم لكان الحال غير هذا الحال .

استراح قليلاً ، راقب بعناية تأثير ما قاله على السلطان ، فلما وجده بعيداً سارحاً اضاف بلهجة مختلفة :

ـ انا متأكد ، يا صاحب الجلالة ان وجود شخص موثوق ، على رأس

جهاز تابع لجلالتكم مباشرة ستكون له فائدة كبيرة . . على الأقل في المستقبل . فقبل ان يتآمر اثنان ، وقبل ان تطلق اول رصاصة تكونون قد عرفتم كل شيء .

وضحك الحكيم قليلاً ، عدل جلسته ليتابع ، الا ان السلطان سأله بارتياب :

- تاريك سامع شي . . . او تعرف شي يا حكيم ؟

- ابداً ابداً يا صاحب الجلالة . .

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته :

- ولا اظن ان احداً في السلطنة كلها يفكر الآن بشيء رديء ، لكن يجب ان تكون ، يا صاحب الجلالة ، على معرفة تامة بما يدور بين اي اثنين ، ويجب ان تسمع حتى دبيب النملة ، خاصة وان الافكار الهدامة والحركات المتطرفة حولنا تنتشر انتشار النار في الهشيم . صحيح ان الفقر وعدم الرضا وسوء الحكام ، هي الاسباب الاساسية في انتشار هذه الحركات ، لكن الى جانب هذه الاسباب هناك دول تتآمر، وافكار ملحدة تريد الوصول الى بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا ، فلذلك يجب ان نحتاط لها وان نمنع وصولها ، فاذا وصلت نعرف كيف نقاومها ونقضي عليها في المهد ، وهذه هي مهمة الجهاز الذي اقترحه عليكم .

راقت الفكرة للسلطان ، بدت له مفيدة وضرورية : قال وهو ينظر الى البعيد :

- والله اللي تقوله صحيح ، يا حكيم ، ولازم نسويه .

وبعد قليل :

- ويمن تشور علينا يا ابو غزوان ؟

- اعطني فرصة لافكر ، يا صاحب الجلالة ، واذا استنسبتم شخصاً فعلى مشيئة الله .

وفي محاولة لان يصل الى نتيجة نهائية :

ـ لدينا في العلوم الطبية ، يا صاحب الجلالة ، نوعان : الطب الوقائي والطب العلاجي ، مهمة الطب الوقائي ان يمنع المرض قبل وقوعه ، او قبل انتشاره ، وهذا النوع من الطب له بداية وليس له نهاية ، يبدأ من الوراثة وينتهي الى كل عامل يؤثر على الصحة ، من حيث التغذية ومنع العدوى والتلقيح وغير ذلك . أما الطب العلاجي فان الطبيب يواجه حالة المرض القائمة ويبذل اقصى جهد من اجل شفاء المريض : بالادوية ، بالجراحة ، بالعزل ولا يخفى عليكم ، يا صاحب الجلالة ، ان الفرق كبير بين منع وقوع المرض وبين التصدي لمعالجته بعد وقوعه .

وتنفس ملء صدره ، بعد ان رفع يديه قليلاً ، ثم اضاف :

ـ وجهاز الشرطة والتحريات عندنا ، يا طويل العمر ، جهاز كفؤ قدير ، وهذه شهادة لله ، لكن هذا الجهاز يشبه تماماً الطب العلاجي ، اي انه لا يتحرك الّا بعد وقوع الجريمة ، ليعرف من هو المجرم وكيف وقعت الجريمة. المطلوب الآن هو ، اضافة الى الطب العلاجي ، وجود الطب الوقائي .

ضحك السلطان وبدا مسروراً جداً ، وخرجت كلماته من حنجرته :

ـ مثل ما قلت ، يا ابو غزوان ، قبل ما تقع المصيبة توقّها ، وتحزّم للواوي بحزام اسد .

وظل هذا الهاجس ينام ويقوم مع الحكيم ، يستعرض الاسماء اسماً بعد آخر ، ولم يستبعد حتى بدري المدلل، «لأن هذا الخبيث الذي بدأ برأس السلطان وصل لاكثر الرؤوس ، ومع الوشوشة وقص اللحى يمكن ان يصل لما في العقول والخصى» لكن عاد واستبعده ايضاً : « رأسماله كله انه حلاق ، لسانه شبر ، ومثل ما يسمع يحكي ، وبدل ما ينفعنا يمكن يضرنا ويخّرب بيتنا » .

وفكر بالامير راكان . صحيح انه يحتاج الى جهد ، لكنْ اذا تدوزن وضبط ستكون يده طايلة. ومع ذلك فهو صاحب مزاج ، فجأة قد يذهب إلى مزرعته. وهناك ما عنده الّا قال ابو هريرة وقال ابن عباس ، واذا اراد ان يستريح يبلّش «بالفية ابن مالك والثعالبي» واضاف بعد قليل وهو يتذكر: «والمشكلة انه من

ام والسلطان من ام ثانية ، ويمكن يكون عنده حسابات واحد مثلي لا يعرفها »
« أما الامير ميزر فكل جماعته من رجال السوق والتجار ، ولا تتعدى سوالفهم : كم صار ثمن الارض الفلانية ، ومن اشترى الارض الفلانية . والرجل بطنه كبيرة وما هو فاضي لشغلة من هذا النوع » .

ولم ينسَ الحكيم، وهو يستعرض الاسماء ، مطيع وجعفر والحجار ، لكنه قال وهو يصرف النظر عن هذه الاسماء : « الله خلق لكل واحد منهم هماً يشغله » .

وكاد بعد بضعة اسابيع ان يطوي الموضوع لانه اذا لم يذّكر السلطان به فان السلطان لن يتذكره ، خاصة وقد وجد صعوبة في اختيار الشخص المناسب . ولا يعرف كيف خطرت له فكرة ان يكون هو نفسه المسؤول عن جهاز من هذا النوع . تصور نفسه في غرفة نصف مظلمة ، ملحقة بديوان السلطان مباشرة ، ولديه عشرات التلفونات ، وهذه التلفونات ترن بين لحظة واخرى ، وتأتيه الاخبار من الجهات الاربع ، فيسمع ويوجه وينقل الى السلطان ما يراه ضرورياً ومهماً ، ولديه عشرات المساعدين ، ولكل واحد من هؤلاء مهمة محددة ، وكل شيء يتم في الليل، في السر، وفكر ان يعطي مساعديه اسماء سرية ، او ان يعطيهم ارقاماً . وحاول ان يتذكر بعض الكتب التي قرأها منذ وقت مبكر حول الاعمال العظيمة والخطيرة التي وقعت اثناء الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وكيف كانت الاجهزة السرية تلعب الدور الرئيسي في توجيه الزعماء ، في قيادة الحرب ، لكنه لم يتذكر صوراً محددة او اسماء كبيرة ، قال لنفسه بنوع من خيبة الأمل « يا ابو غزوان لو فكرت بهذا العمل قبل عشر او خمس عشرة سنة وانصرفت اليه لكانت له نتائج . . . أما الآن » وفي محاولة لان يكبح شعور عدم اللياقة او القدرة الذي احس به للحظة قال وهو يضحك « وهذه الاجهزة اصبحت بخدمتك يا ابو غزوان . . كل المعلومات وكل الجهود ستصب في حضنك ، ويجب ان تكون قديراً وقوياً وتعرف كيف تتصرف » !

بعد الكثير من الانتظار والتفكير والسؤال توصل الحكيم الى قرار : « قبل فترة طويلة قلت لمطيع ان امرأة ، نعم امرأة ، واجنبية ، لا تحسن العربية ،

ولا تعرف احداً ، استطاعت انَ تقيم مملكة من لا شيء ، وانت يا صبحي ، يا ابو غزوان ، تعجز عن اختيار رجل ليكون رئيساً لجهاز الأمن والسلامة الخاصة ؟ » ودون تردد اقترح على السلطان :

ـ يا صاحب الجلالة توصلت الى اقتراح يرضيكم . توصلت الى الرجل المناسب .

ـ من ؟

ـ حمّاد المطوع .

ـ حماد المطوع . . ؟ ابن ابراهيم او ابن صالح المطوع ؟

ـ ابن صالح المطوع يا صاحب الجلالة .

ـ انا اعرفه ؟ شفته ؟

ـ يوم الخميس الماضي كان بالديوان ، يا صاحب الجلالة ، وهو اللي رد الاعمى وقال له راجع دار الامارة . .

ـ اي نعم . . اي نعم . . تذكرته .

ـ ومن اللي اشار عليك ؟

وضحك الحكيم قبل ان يجيب :

ـ والله ، يا صاحب الجلالة ، قلبي هو اللي اشار عليّ .

قهقه السلطان وهز رأسه عدة مرات ، ثم قال :

ـ اذا كان شور القلب ، يا حكيم ، فالقلب ما يكذب وما يخطىء !

قال الحكيم وهو يتنهد :

ـ يا صاحب الجلالة : العمل الذي سيقوم به صعب وسهل ، وهذا العمل بالذات يحتاج ، بالدرجة الاولى ، الى الثقة ، الى الامانة ، وحماد كفؤ وصغير السن ، وتعرف ، يا طويل العمر ، ان عائلة المطوع عائلة ميسورة ، ولذلك يمكن ان يربى في ظل جلالتكم ، ويكون اكثر الناس اخلاصاً .

ـ وكم عمره . . ابن المطوع ؟

ـ حوالى الثلاثين . . يا صاحب الجلالة .

ـ ما هو صغّير على هذا العمل ؟

ـ الصغير الذي يربىٰ في ظلال جلالتكم احسن من الكبير الـذي ربي في اماكن اخرى .

ـ ودارس ؟

ـ درس الى العـاشر . . ثم استلم رزق اهله ، وهو الآن كـل شيء لآل المطوع .

قال السلطان في محاولة لئلا يحسم الأمر :

ـ الله كريم ، خلنا نسأل ونفكر ، يا ابو غزوان ، وانشاء الله ما يصير الا الخير !

قبل بضعة شهـور من مغادرة الحكيم لحـران وصلها شخصـان : حسني كـركر وسعيـد الاسطة ، اخـوان من نـاحيـة الام . حسني طـويـل ، ابيـض البشرة، ضامر، وسعيد مربوع، أميل إلى القصر، أو هكذا يبدو نتيجة السمنة ، اضافة الى قليل من السمرة ، بالمقارنة مع اخيه . لا احد يقدر انهما اخوان ، واذا قيل ذلك لا يصّدق لاول وهلة ، أما اذا كان احدهما موجوداً ، او كلاهما ، وذكر الامر ، وهز اي منهما رأسـه دلالة المـوافقة والتـأكيد ، فـان مظاهر الاستغراب والدهشة تظهر واضحة على وجوه الذين يسمعون ذلك اول مرّة .

لا يقتصر الاختلاف على تباين الملامـح او اختلاف الكنيـة ، فان مـزاج الاثنين شديد التباين ايضاً . فحسني يبدو متسامحاً اقرب الى الطيبة والتدين ، أما سعيد فرجل عملي ، كما يصف نفسه ، ولذلـك من السهل التعـامل معـه رغم سخريته، ورغم النزق الذي يميز تصرفاته في ساعات الغضب ، كما انه لا يتردد في ان يفعل اي شيء . وربما هذه الطبيعة بالذات هي التي ادت الى ان تلحق بالاثنين الخسارة تلو الخسارة . ممـا اضطرهمـا لان يتركـا الشام في وقت مبكر ، وان يفتتحا محلاً تجارياً في عمان . اذ بعد زيارة خاطفة قـام بها حسني لهذه المدينة ، ودراسة السـوق فيها ، مستفيـداً من علاقـات كانت لـه ببعض معارفه الذين سبقوه الى هناك ، تأكـد ان الامكانيـة كبيرة لان يبـدءآ عملاً ، خاصة وان عملهما في دمشق قد تعثر وواجه صعوبات لم يستـطيعا تجـاوزها ، وهكذا استقرا في عمان .

هذا التاريخ الضارب في القدم والعتمة والاختلاف لا يمكن لاحد ان يتأكد منه او ان ينفيه ، لان الروايات حول ذلك كثيرة ومختلفة اشد الاختلاف ، حتى ان اياً من الاثنين يروي الواقعة الواحدة بطريقة تختلف مرة عن اخرى ، وتختلف عما يرويه الآخر . أما السبب الذي دعا الاخوين لان يتركا عمان فانه الافلاس ، اذ بعد ان افتتحا محلاً تجارياً يختلف عن اي محل غيره ، بتنوع الحاجات التي يعرضها والخدمات التي يقدمها او يقوم بها ، وبعد ان حققا نجاحاً ملحوظاً خلال فترة قصيرة ، وقد لفت هذا النجاح نظر الكثيرين واثار تساؤلاتهم واستغرابهم ، تمادى سعيد فبدأ بمضاربات عقارية ترافقت مع عقود على كميات من السكر المهرب ، وقيل ايضاً الاتجار بالمخدرات ، وقد ادى هذا . . او ربما غيره ، الى الافلاس ، ويبدو ان حسني احتاط للامر قبل وقوعه ، اذ نقل الجزء الاكبر من الاراضي والعقارات التي كانت باسمهما ، او باسم احدهما ، الى اسماء اقارب ، خاصة من النساء ، بحيث انه عندما حُجز على المحّل التجاري ، في محاولة لاستيفاء الديون ، تنازل بعض الدائنين عن حقوقهم ، لانهم لم يجدوا شيئاً يختلفون عليه ، او ان الشيء الموجود لا يستحق الاختلاف !

الافلاس . . او ادعاء الافلاس هو الذي دفعهما لان يغادرا عمان ، على الأقل لفترة تكفي لان ينسى الناس . ولما كانت لسعيد علاقات تجارية باشخاص في حران ، خاصة من خلال صفقات السكر المهرب ، فقد بدت له هذه المدينة المحطة الاساسية ، وربما الهدف ايضاً . وفي محاولة لان يقنع حسني بمرافقته وموافقته ، اكد له ان « قريبنا ، الدكتور صبحي المحملجي ، شخص يده طايلة ، لانه مع الجماعة هناك طيزين بلباس واحد ، ولا بد ان يحملنا بعيونه» ولان حسني لم يكن يملك الرفض او القدرة على العناد فقد وافق .

حين جاءا الى حران ، ولثلاثة ايام متوالية ، في العيادة والمستشفى ، كان جواب محمد عيد واحداً او متقارباً : « الطبيب في غرفة العمليات والعملية طويلة » « الطبيب طلب الى قصر الامارة لحالة مستعجلة » ولذلك ، ونتيجة هذا الموقف وهذه الاجابات ، كان يفترض ان يتصرف سعيد . وسعيد اذا بدأ ، اذا غضب ، من الصعب ان يصمت او ان يتسامح . فما هو الا يوم او

يـومان حتى اصبحت مهمـة محمـد عيـد ان يبحث بنفسـه عن الـرجلين وان يدبرهما، كما أكد عليه الحكيم أكثر من مرة، وبحزم يقرب حد الأمر، لأن «هذا المجنون، يعني سعيد، لا يعرف الناس ولا يمكن أن ينحزر عليه كيف سيتصرف ! » ورغم ان القرابة في الاساس ، وان كانت بعيدة ، هي بين الحكيم وحسني ، الا ان الـذين سمعوا كـلام سعيد وتعليقـاته ، ظنـوا ، بل وكانوا متأكدين ، ان القرابة التي يتحدث عنها الـرجل هي بينـه وبين الحكيم شخصياً .

أما في دعوة الغداء التي اقامها لهما الحكيم في اليوم الخامس لوصولهـما الى حران ، وفي محاولة لاصلاح الخطأ الذي تسبب به محمد عيد ، فقد وجـه كل اهتمامه وعنايته الى سعيد ، وكان حريصاً على الا يخرج من عنده الا راضياً . وفي محاولة لئلا يتورط معه ايضاً ، ويوافقه عـلى المشروعـات التي يعرضهـا ، وكـان يطلب تنفيـذها عـلى وجه الاستعجـال ، ولكي لا يبدو رفضـه سريعـاً قـاطعاً ، ويؤدي ذلـك ، من جديـد ، الى هيجان هـذا المجنون ، فقـد اثنى الحكيم على الافكار والاقتراحات التي عرضت ، لكن طلب ان تُـدرس بعناية وان « نجد شركاء من اهل البلد » والى ان يتم ذلك كلف كلاً منهـما باعمـال تتعلق بالمستشفى او بالعقارات التي يملكها في حران «وبعد ما نخضّهم تعرف الزبدة من الشنينة » .

ابدى محمد عيد استغرابـه ، بل امتعـاضه ، لان الحكيم خـاف من هذا « الصايع » ، يعني سعيد الاسطه ، « ولو ترك لي تأديبه لما تجرأ هو او تجرأ غيره عـلى ان يتطاول عـلى اكبـر راس في حـران » يعني الحكيم . والحكيم الـذي ابتسم ، قال كأنه يحدّث نفسه :

ـ داروا سفهاءكم ، هكذا جاء في القول الكريم .

تطلع بامعان الى محمد عيد ثم تابع :

ـ واولها وآخرها الجماعة قرايب .

ولان محمد عيد كان لا يزال تحت تأثير الانفعال ، وأُعتبر انه المسؤول عن الخطأ ، رد بحدة :

ـ بعض الاقاب عقارب ، يا حكيم ، ولا تغلط !

ـ غلط ما حصل ، وخسارة ما راح نخسر ، واولها وآخرها الرجال وافعالها .

بعد اربعة شهور وبضعة ايام كانت عودة الحكيم من موران لاصطحاب وفد حران من اجل تقديم العزاء بالفقيد الراحل ، وقد تعمد ان يرافقه سعيد الاسطه وحسني كركر ، كدليل على الحزن وعلى مدى تأثر العائلة بهذا المصاب ، ولكي يتيح لهما الفرصة لان يطلعا ويعرفا موران بشكل مباشر ، وامكانية ان يستقرا فيها معه ، وخلال هذه الزيارة ابدى عناية خاصة بهما ، وقدّمهما الى الكثيرين كاقرباء اولاً ، وكتجار جملة كبار ، ليس في الاردن فقط بل وفي سورية ومصر ولبنان ايضاً . وسعيد الذي بدا مسروراً وأُخذ بجو الحفاوة والاهتمام ، ما لبث ان بدأ يتصرف كتاجر كبير فعلاً ، اذ بعد ان طلب باصرار والحاح ان يرافقه واحد من رجال القصر ويعّرفه على تجار موران الكبار ، اصبح يذهب بمفرده الى السوق ، ويقضي هناك ساعات كل يوم ، وخلال ذلك يسأل ويدقق ، يساوم ويتعرف ، الى ان بات متأكداً من كل شيء ، واصبح واثقاً انه اذا بدأ عملاً جديداً في موران فلن يخيب هذه المرة ، ولن يكون مصيره مثلما كان الأمر في الشام وعمان . ولقد بلغ به الانفعال درجة أنه فضّل البقاء في موران ، على أنْ يعود حسني وحده مع الحكيم إلى حران لتصفية الأعمال هناك ، وأنه سينتظرهما في موران . لكن نظرات الحكيم وابتساماته ، ثم تلك الاشارات بعدم امكانية الاستغناء عن خدماته في حران « لانه يعرف كل شيء وقادر على كل شيء » جعلته يوافق على مرافقتهما ، على ان يعود في اقرب فرصة !

الوقت الذي وصل فيه الحكيم الى موران ، ومعه تلك الحاشية الكبيرة ، المؤلفة من محمد عيد وسعيد الاسطة وحسني كركر ، اضافة الى طباخ وخادم وحارسين ، يعتبر الوقت الذهبي لموران ، او هكذا يحب ان يصفه . يقول ذلك بكثير من المرح ، ويضيف وقد تغيرت معالم وجهه تماماً :

ـ الله ، جلّت قدرته ، فتح ابواب السماء على هذا الشعب الطيب الفقير ، فبعد انتظار طويل ، اطول من انتظار يعقوب لابنه يوسف، وبعد ان كان الناس يأكلون الجراد والتمر وخبز الشعير، ويموتون من سوء التغذية والطواعين ، قال لهم الكريم : كفاكم جوعاً وعذاباً ، يا عبادي الصابرين ، فقد رأفت بكم، وانا حين ارأف واجود افعل ذلك بلا حدود، واذا كنت قد بلوتكم فيما مضى من الزمان بالجوع والحكام الظالمين ، فاني اليوم ارفع عنكم الكرب وعذاب الدنيا لاحاسبكم في الآخرة، امنحكم اليوم سلطاناً ليس كالسلاطين ، وافتح له خزائن الارض اجمعين !

ويتيه الحكيم في اماكن بعيدة ، فاذا عاد تتغير نبرة صوته :

ـ لو جاء الانسان الى موران قبل سنين لما استطاع ان يعيش، لما وجد فيها ما يعوض التعب والشقاء : لا شغل ، لا مال ، لا بشر !

ويبتسم بحزن ثم يتابع :

ـ ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكاناً او شيئاً ؛ سوف يكون الناس اكثر من التراب ، وأشره من الذباب !

وينهي حديثه لنفسه او لبعض خلصائه بان يقول : ويشدد على الكلمات :

ـ اليوم هو اليوم المناسب ، هذا هو العصر الذهبي لموران !

وفي اقل من ستة شهور قامت في موران ، وفي شارع العون بالذات ، شركتان : « الشركة العالمية للاستيراد والتصدير » وتتولى بشكل خاص استيراد المواد الغذائية ، ويملكها عبد العزيز الغامدي وسعيد الاسطة وشركاؤهما، والثانية « شركة الحصان لمواد البناء » ويملكها محمد الحصان وحسني كركر وشركاؤهما الأولى في بداية الشارع، مقابل الميدان، وتمتد على مساحة ثلاث أو أربع دكاكين، وقد خصص جزء من المكان لعرض المواد التي تتعامل بها الشركة، إذ صُفّت أكياس السكر والطحين والعدس وصناديق الشاي، إضافة إلى أعداد كبيرة من المعلبات، وخصص جزء آخر للمكاتب، أما الجزء الأمامي فكان عبارة عن ردهة كبيرة لاستقبال الموزعين وتجار الجملة وكبار التجار.

شريك سعيد الاسطة ، عبد العزيز الغامدي ، بدأ راعياً للغنم في صباه الأول ثم في بداية شبابه ، ولما اشتد عوده اصبح راعياً للجمال ، وظل كذلك بضع سنين ، سافر خلالها مرات عديدة الى شرقي الاردن وفلسطين ، ووصل مرة الى مصر، ومرة الى حوران ، وخلال هذه الفترة اصبح راعياً ومالكاً ايضاً ، اذ له في الرعية رأسان ، ثم بعد عدة سنين اصبح شريكاً بالنصف في رعية يبلغ عدد رؤوسها اثنين وثلاثين.

وعندما قامت العلاقة بينه وبين سعيد الاسطة في الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ، كان عائداً لتوه من الكويت ، وكان يملك ثلاث سيارات حمل ، اضافة الى تجارة في الصوف والجلود ، والصدفة المحضة هي التي جمعته بسعيد اولاً ثم بالحكيم بعد ذلك ، ويبدو ان الرجل تعب من السفر واراد ان يستقر ، فلما أُقترح عليه ان يكون شريكاً في شركة المواد الغذائية لم يتردد طويلاً ، باع سيارتين من السيارات الثلاث ، وحصلت الشركة على قرض من الدولة ، اضافة الى تسهيلات مصرفية ، وبدأ العمل : عبد العزيز الغامدي له الثلث برأسماله وعمله ، وسعيد الاسطة له الثلث بالقرض والتسهيلات ، اضافة الى

العمل والخبرة . أما راتب الفتال ، « المورد » والضامن لدى الشركات الاجنبية في الخارج فله الثلث الأخير .

الثلث الأول لعبد العزيز وحده ، أما الثلثان الآخران فينقسمان الى ارباع : الحكيم له الربع ، لانه الكفيل لدى المصارف ، ولانه « أمّن » العمل والسمعة ، ولراتب الربع لانه « المورد » والصلة مع الشركات ، أما الاخوان ، حسني وسعيد ، فلكل منهما الربع للعمل والخبرة .

وسعيد الذي وافق بسرور على هذه الشراكة وعلى هذه النسبة ، ولم يبد اي تحفظ ، قال لحسني ، الذي قدّم بعض الملاحظات ، وتساءل عن دور الحكيم وراتب ، قال له وهو يضربه على كتفه :

ـ اضحك بعبك ، لان الوحيدين الذين دفعوا المال هم عبد العزيز الغامدي والحصان ، ونحن كلنا شركاء مضاربين ، اذا جاء الربح نتقاسمه ، واذا وقعت الخسارة ، تقع براس المسخوطين .

واذ وافق حسني على هذا التفسير ، لم يزايله الشعور بالغبن ، لان « الحكيم يربح على البارد المستريح ، لا دفع ولا راح يحمل الحديد والخشب ، وربحه يجي الى حضنه ، وراتب الفتال ، وهو قاعد على طيزه ، بالفي والمي ، فقط يكتب الى الشركات : وردوا لحسابنا مائة طن من الاسمنت وعشرين متر من الخشب . . . والشركات تورد وهو يقبض ! » .

أما عندما سارت الامور بذاك الشكل ، فبدأ البيع والشراء اكثر مما قدر اي واحد من الشركاء ، فقد نسي الجميع القسمة ، بل وبدوا مسرورين مشغولين بالعمل والنتائج .

وفي دعوة العشاء التي اقامها الحكيم احتفالاً بقيام هذه الشراكة ، وانتهاء علاقته المباشرة ، مع تأكيدات لا تلبث تتزايد على ضرورة ان يعتمد الانسان على نفسه ، قال بفخامة ، موجهاً الحديث الى كل واحد منهم :

ـ اليوم ما بقى لاحد حجة . واذا كان الناس ، في اماكن اخرى ، يحارون فيما يجب ان يعملوا ، لعدم وجود الاعمال ، فانهم هنا يحارون ايضاً ، لكنهم يحارون في اي عمل يعملون ، لكثرة الاعمال وتنوعها !

وبعد قليل خرج صوته خاشعاً :

ـ وكما في القول الكريم : لا اخاف على امتي من الفقر وانما اخاف عليها من قلة التدبير .

واستعاد نبرته الاولى :

ـ الحكيم، بعد اليوم، يا جماعة، في التجارة، يفتح الله، يوك، لا تسألوه ولا تشغلوه ، لان عنده الف هم ، وباله ما هو فاضي ، فتولوا شؤونكم بأنفسكم .

حاول حسني ، بأساليب شتى ، ان تبقى للحكيم صلة ، وان يستشار ويؤخذ رأيه بكل القضايا ، لكن ما لبث ان تراجع وهدأ ازاء امتناع الحكيم ، بحجة عدم وجود الوقت لديه ، وازاء صخب اخيه الذي لا ينفك يزداد ويقوى ، مؤكداً « ان كل دقيقة من وقت الحكيم تعادل تجارة الارض كلها، فالرجل مكلف من اكبر راس في البلد ، ان يكون مسؤولاً عن كل شيء ، وما اعقلنا اذا الواحد منا كل دقيقة وكل ساعة حامل حاله خري مري ورايح عند الحكيم ، ويا حكيم : العدس ؛ يا حكيم البصل والمعكرونة ؛ ويا حكيم السردين ، السعر اليوم كذا والبارح كذا . . . نبيع ام نشتري ؟ » .

وضحك سعيد بصخب ثم اضاف :

ـ خليك يا ابو تيسير اعقل من هيك، واترك الرجل بمشاغله وهمومه .

وهكذا تم الاتفاق على ان تترك اكثر الامور لحسني وسعيد يتدبرانها ، أما راتب فسوف يأتي بين فترة واخرى بزيارات طويلة ، واثناء وجوده ، واذا اقتضى الأمر يمكن للحكيم أن يحضر بعض المداولات، ومن المفيد أخذ رأيه في القضايا الكبرى!

قال سعيد لشريكه في تفسير لافتة النيون الكبيرة التي وضعها باسم الشركة في اعلى البناء :

ـ الناس عليها الظاهر ، يا ابو الحميدي ، ولذلك فالمظهر شيء مهم ، خاصة بالنسبة للمواد الغذائية ، لان العين هي التي تأكل ، كما يقولون . فاذا

صرفنا كم قرش زيادة على تنظيم الشركة ، فالربح لنا في النهاية ، لان التجارة هي فن الاخذ والعطاء ، فاذا مرّ الواحد وشاف وجوه موران في الشركة تتبايع وتشتري ، ما يقدر يروح لمكان ثاني .

يستريح سعيد قليلاً ، ينظر الى عيني عبد العزيز الغامدي ويقول له بانفعال :

ـ يا شيخ عبد العزيز ، يا ابو الحميدي ، من اليوم وطالع التجارة في موران غير تجارة امس واللي قبله، والشركة العالمية غير الخشش الهايفة اللي حولنا ، فاذا بدأنا بقوة اكلنا السوق وفرضنا اللي نريده، أما اذا بدأنا عرجان ، نقدم رجل ونوخر الثانية . . ترى ما لنا خبزة في السوق.

فاذا رأى بعض التردد في عيني شريكه يغير لهجته :

ـ اسألني انا يا ابو الحميدي . انا لفيت الدنيا كلها على كعبي ، شفت وتعلمت . شفت الناس كيف تشتغل وكيف تتصرف . والمسألة اولها وآخرها : شطارة ومظهر واعلان . الشطارة تخلي الانسان يفتح عينه في اللبن ، يعرف متى يبيع ومتى يشتري ، وهي الهام من الله سبحانه وتعالى . والمظهر . . كل الناس تؤخذ بالمظهر ، يسيطر عليها ، وياما ناس غنيوا بمظهرهم وشطارتهم . أما الاعلان ، يا ابو الحميدي ، خاصة في هذه الأيام ، فانه اقوى الاسلحة واهمها ، ولازم ذكر الشركة العالمية ما يقف ولا يهدأ ، ولازم تتذكره الناس حتى في الحلم والمنام !

ويتفق الشريكان وتقوم الشركة كما يريدها سعيد الاسطة : كبيرة ، في قلب المدينة . أما الردهة التي كان يفترض ان تبقى لعمليات البيع والشراء ، على ان يحتل ابو الحميدي مكاناً في صدر المكاتب الداخلية ، وان لا يشغل نفسه بالعمليات المباشرة ، فلم تلبث هذه الردهة ان تغيرت عما صممه واراده سعيد ، اذ نقل اليها ابو الحميدي طاولته ووضعها في الصدر ، مقابل الباب مباشرة ، لانه يريد ان يرى كل شيء وان يرى كل الناس ، ولان الغرفة الداخلية التي خصصت له في بداية الأمر ، « مثل القبر ، تحصر الصدر ، ولا بد ان يصير البني آدم فيها بعد شهر او شهرين اخرس او مجنون » .

ورغم الملاحظات التي قدمت في البداية ، حول ضخامة التكاليف وعدم ضرورتها ، « لان موران ليست بيروت او مرسليا » ، كما قال راتب ، فان النتائج التي حققتها الشركة في الشهور الاولى جعلت الجميع يقتنعون بصواب وجهة نظر سعيد ، وبالغوا في لوم انفسهم لعدم معرفتهم في الامور التجارية . وسعيد الذي لمس النتائج والتقدير لم تعد موران تسعه : « مثل ما قلت لكم : موران اليوم غير موران الأمس ، والتجارة ما هي لعب اولاد ، فاذا كان الناس في الماضي تاجروا، ربحوا وخسروا، فاليوم غير شكل، ما يقدر على التجارة ، على الربح دون الخسارة ، الا من رضع من صدر لبوة » . .

فرح الحكيم كثيراً، كذلك راتب ، أما حسني الذي اكتفى بدكان ، رغم اتساعها وارتفاع سقفها ، وكانت اقرب الى المستودع او الخان ، فقد تشاءم من النتائج التي حققها اخوه . « اعرفه مثل ما اعرف راحة يدي : خبّاص ، وراسه ما يحمل ، اذا ربحت معه قضية يظل يعيد ويكرر الى ان ما يبقى منها شيء ، وبعدها لازم يبدأ من الصفر » . هذه الافكار والملاحظات التي تدور في رأس حسني يقولها بكثير من الهدوء واللباقة ، لكن سعيد يصّم اذنيه ولا يلتفت ، اذ لا بد ان يفعل ما يفكر فيه ، وهو وحده الشيء المقنع والصحيح .

محمد عيد ينظر ، يسمع ، يتابع ، لكن لا يفهم كيف يفكر الناس او كيف ينظرون الى الامور ، « فالصايع » او « المنفاخ » ، كما كان يطلق على سعيد الاسطة ، رجل مظاهر وصوت عالٍ ، لا يستطيع ان يعمل شيئاً ، وانه « آخذ الدنيا زعبرة » ومع ذلك لا يسمع في موران الا الحديث عن الاخوين ، او عن الاسطة والكريكير ، كما اصبح يطلق عليهما ، وانهما حرقا السوق ولم يبق لاحد شيء ، وانهما وحدهما اللذان يفهمان بالتجارة والسوق واسعار الاراضي ، ولا بد ان يصبحا اكبر الاغنياء في موران ، ولا بد وان يأكلا الاخضر واليابس . واذا كان محمد عيد قد لام نفسه انه لا يعرف البشر ، و « وان الناس مخابر وليس مظاهر » فقد قال لنفسه بنوع من التعزية : « المسألة اولها وآخرها : اخلاق ، والمال ليس كل شيء في هذه الدنيا » .

وسعيد نفسه الذي بدا غير واثق ، او غير متأكد . اول الامر ، « لان

المال هو كل شيء في هذه الدنيا » وهو لا يملك الا شطارته وعقله ، ويجب ان يشق طريقه مهما كلفه ذلك من مشقة وصعوبات ، ما لبث ان اصبح شخصاً آخر : « المال يا جماعة الخير ، يروح ويجي ، أما الشيء الثابت، الشيء الباقي فهو هذا » ويدق على صدغه ، ليقول انه يعني العقل . ولذلك ما كاد يحقق تلك الارباح ، وما كاد يسمع المديح الذي يقال له حتى يستعيد الثقة ويبلغ حد الزهو « عادة الجماعة في التجارة ان الواحد منهم يتاجر بخروف او جمل . واكثر شيء يبيع شوال او اثنين من الطحين ، ولانهم بدون عمل ولا يشغلهم شيء ، فشطارتهم كلها في المساومة ، يظل الواحد منهم يفاصل حتى يطّلع روح الثاني ، ولان الانسان اعصاب ، لا يحتمل ، فلا بد ان يسلّم ، وبهذه الطريقة يربح الواحد كم قرش ويخسر الثاني كم قرش .... هذه هي التجارة برأيهم». ويهز رأسه دلالة الأسف والإنكار، وبعد أن يستعيد ذكرياته يتابع : « أما ان يغامر الواحد منهم ، ان يقطع قلب الطرف المقابل له ، ان يربح كل شيء او ان يخسر كل شيء ، فهذا شيء لا يعرفونه ولا يقدرون عليه ! » .

حتى ابو الحميدي الذي كان في البداية خائفاً مرتاباً ، وكان ينظر الى هذه الحركة الحافلة التي تجري حوله بكثير من الشك ، والذي نقل طاولته من الغرفة الداخلية الى صدر الردهة منذ الأيام الاولى ، ليرى بعينه ويسمع ويراقب ، دون رغبة في ان يتدخل، تاركاً المفاوضات لسعيد ، حتى ابو الحميدي ما لبث ان أُخذ بالحركة وسُرّ الى اقصى حد بالنتائج والارباح التي بدأت تتحقق ، فزال عنه الخوف ، وبدأت تراوده نفسه ان يتدخل ، ان يشارك ، وما لبث ان تخلى تدريجياً عن الصمت ، بل واخذ يتقمص شخصية سعيد ذاتها : « بضاعتنا غير بضاعة السوق يا جماعة الخير، هذه البضاعة توصية، جاءت من آخر الدنيا على اسمنا ولحسابنا ، ولكل انسان عين ونظر وخله يمايز »ويتناول بقبضة يده كمشة من القهوة ، يشمها ، يقلبها ، ثم يتركها تتسرب من بين اصابعه الى الكيس الذي تناولها منه « دوروا السوق كله ما تلقون حبة واحدة من هذه القهوة ، ذهب ، احسن من الذهب ، والله يسلم اليد اللى زرعتها واليد اللي قطفتها ، والله ييسر لمن باعها ولمن يشتريها » وبعد ان تستقر هذه النغمة في عقول الذين يساومون يضيف بطريقة سعيد ذاتها « يا جماعة الخير هذه

البضاعة كلها صنف اول ، صنف ممتاز ، والجماعة ، وكلاؤنا في الخارج ، بعثوها لنا مساطر ، ويمكن بعد كم شهر ما ينوجد منها شوال واحد » .

ويراقب سعيد من بعيد التحول الذي بدأ يفعل فعله في سلوك عبد العزيز الغامدي وكلامه ، وحتى شكله ، فيحس بفرح لا يقوى على كتمانه . يحس انه كان بحاجة الى هذه التجربة بالذات ، ليظهر براعته وكفاءته . « موران غير الشام وعمان . الناس هنا بسطاء وعندهم رغبة لان يتعلموا ، ويمكن للانسان ، هنا، ان يفلح البلد من اولها الى آخرها . هناك الناس بناديق ، العن من ابليس ، ولا تعرف الواحد منهم يضحك معك او يضحك عليك » . واذ يرى ابا الحميدي قد تغير هكذا ، تشتعل في نفسه الرغبات ، وتتوالد الافكار والمشاريع في رأسه اسرع مما تتوقد النجوم في السماء « الشغل في البلد اكثر من الهم على القلب ، بس الواحد يحتاج الى بشر ، بشر مثل الناس والعالم ، تعرف كيف تشتغل ، وتعرف كيف تتحرك » .

أما حسني الذي كان في اقصى السوق ، من الناحية الثانية ، يجلس وراء طاولة ، صنعها بنفسه من دفوف ومورينات ، بين اكياس الاسمنت واكداس البلاط ، وغير بعيد عن القضبان الحديدية التي تكومت فوق بعضها حتى قاربت السقف ، يسمع ما يفعله سعيد وما يتناقله الناس في السوق، فتختلط افكاره وعواطفه ، فلا يعرف أيفرح من اجله ويطمئن ام تعاوده المخاوف القديمة ؟ واذا كانت البداية هكذا فهل ستجري الامور بعد ذلك على نفس الوتيرة ؟ كان لا يستطيع ان يصل الى اجابة واضحة مؤكدة ، خاصة وهو يتذكر ايامهما في الشام وعمان ، وفجأة يرتفع صوته بالدعاء : « ربي يسر ولا تعسّر ، ربي يسر ولا تعسّر ، ربي اتمم علينا بخير» أما حين يلتقيان ، وحين يبدأ سعيد بالحديث عن المشاريع التي يفكر فيها ، وانه لن ينتظر طويلاً حتى يشرع بتنفيذها ، فكان يخرج صوت حسني اقرب الى التأنيب :

ـ اركز شوية يا سعيد ، خل الارض تسخن تحتك . تعرف على الناس والبلد اولاً . .

ويعد قليل :

ـ أما ان تأخذها عبطة ، تركض هون وهناك ، وتحط يدك في الف مشروع ومشـروع ، فيمكن تطلع منها كلها زلط ملط . . وتخرّب بيتنا كلنا .

ويرد سعيد بثقة :

ـ انـا اخـوك يـا ابـو تيسـير ، والآ لافلح البلد فـلاحــة ، وحتى النملة لاحلبها ، قوِ قلبك ولا تخف . . يا رجل .

ـ كل شيء بوقته حلو ، يا سعيد .

ـ هذا هو الوقت يا ابو تيسير ، فاذا ما بدأنا واشتغلنا راحت علينا ، يجي غيرنا ويلهفها منا .

قبل ان تنقضي السنة الثانية كان سعيد قد اسس شركتين جديدتين ، ومع شركاء جدد ، الاولى لاستيراد السجاد والاثاث ، والثانية للادوات المنزلية . وراتب الذي ابدى شكه في رواج مثل هذه السلع « لان موران ليست بيروت او مرسيليا » ولان الناس لم يتعودوا بعد على هذه الكماليات ، فقد وافق على مشاركة رمزية فقط ، تاركاً ما تبقى لسعيد وحده او ان يتقاسمه مع شركائه الجدد . أما حسني فلم يرفض المشاركة فقط ، اعتبر ان سعيد سيورط الجميع ، وسوف يجر عليهم الخراب والافلاس حتى بالنسبة « للاعمال اللي طلّعت روحنا الى ان وقفت على رجليها » . أما الحكيم فلم يتدخل . ولما سئل بالحاح من قبل حسني ، وطلب اليه ان يبدي رأياً ، اكتفى بان قال :

ـ اهل مكة ادرى بشعابها . . وانتم ادرى بوضع السوق .

لم يلتفت سعيد للمعارضة والرفض ، فقد مضى قدماً في اختيار الاماكن وتجهيزها ، ووافق بعد تردد ظاهر ، ان يكون عبد العزيز الغامدي شريكاً في « شركة السجاد الشرقية » أما « شركة النيل للادوات المنزلية » فانها لا تحتمل شركاء كثيرين ، كما اوضح ، ولان اثنين ، احدهما لبناني ، سيتوليان امرها ، وانهما وحدهما يعرفان بهذه الأمور .

أما كيف خطرت هذه الافكار لسعيد ، فانه نفسه لا يستطيع الاجابة بشكل واضح ، بل وتختلط البدايات مع المراحل اللاحقة ، فلا يعرف ان كان قد فكر بمثل هذه المشاريع او عنّت له فجأة . وهل اقترحها عليه احد او

التقطها من افواه الناس في السوق . قال لتبرير هذه المشاريع :

ـ ما دمنا نبيع القهوة والشاي ، ونبيع الرز والسكر ، وجميع المواد التموينية ، فهذه الاشياء للاكل وليست للفرجة ، ولا بد ان يأكلها الناس ، ولذلك يجب ان نؤمن لهم الادوات .

ويضحك بفرح لهذه البداية المنطقية ، والتي اقنعته قبل ان تقنع الآخرين ، فيتابع :

ـ طبيعي مثل ما يحتاج الناس الى الأكل يحتاجون الى الادوات .

وحين يصرخ حسني :

ـ كبّر عقلك يا سعيد ، البني آدم يأكل ثلاث مرات في اليوم ، وبعمره كله لا يشتري الا طنجرة واحدة وسجادة واحدة .

وتتغير نبرة صوته ، تصبح حزينة :

ـ هذا اذا اشترى !

ـ وهناك بشر بعمرها ما عمرت بيت .

هكذا يرد ساخراً ، وبعد قليل :

ـ وعلى هذا القياس كان اكبر جنون ان يفتح الواحد محلاً لبيع مواد البناء .

ـ ولكن الناس تبني ، ونحن لا نلحق في تلبية الطلبات .

ـ والناس يأكلون ويشربون !

ـ لكن لا يشترون الطناجر .

ـ ما دامت الفلوس وصلت لا يديهم راح يشترون .

ولم يتفقا على شركة النيل . أما الاعتراضات على الشركة الشرقية للسجاد فكانت اكبر ، خاصة حين لمعت تلك الفكرة في رأس سعيد وهو يؤكد على اهمية تأسيس مثل هذه الشركة ، قال ليحسم المناقشة :

ـ يا جماعة . . كبروا عقولكم ، فكروا للمستقبل .

واضاف بعد قليل بفرح يخاطب نفسه : « عقولهم مثل عقول العصافير ، لا يفكرون الا في اليوم ، ونحن اذا اخذنا فقط تعهد فرش قصر السلطان الجديد فهذا وحده يكفي ، يطمرنا بالفلوس الى آذاننا » ولم يصل معهم الى نتيجة .

كان تأسيس هاتين الشركتين بداية اضطراب وخلاف بين الاخوين ، اذ بالإضافة إلى رفض حسني المشاركة، فسعيد، لم يتوقف يوماً واحداً عن المغامرة والتغير . كان يشعر بلذة فائقة وهو يغامر ويتغير ، وينتقل من مكان الى آخر ، من شغل الى آخر ، وقد وجد في موران وفي المال بين يديه فرصاً جديدة لان يفعل ما عجز عن فعله في اماكن اخرى او في اوقات اخرى . فالبيت الصغير الذي استأجراه اول وصولهما الى موران ، ليس فقط صغيراً ويجب ان ينتقلا الى بيت اوسع منه ، وانما يريد ان يستأجر قصراً في حيّ السفان ، وحسني حين يتطلع الى اخيه مستغرباً او غير مصدق ، ويظن ان الأمر لا يعدو ان يكون دعابة من الدعابات الكثيرة التي تستهويه ويتفنن في القيام بها ، يرد بسخرية :

- نحن بموران اليوم ، يا ابو تيسير . . وحالنا فوق الريح !

- واذا ما دامت هذه الحال ؟

- يا سيدي ، لا تخف ، تدوم .

- اذا جاريناك راح نصفّي على البلاط !

- الاصعب من الفقر الخوف من الفقر يا ابو تيسير .

- يا سيدي كفانا تجارب !

واخيراً وجدا حلاً، فالبيت الذي بناه محمد الحصان ، عرضه عليهما فاستأجراه، وكان غير بعيد عن حي السفان. أما طريقة الحياة الباذخة التي اخذت تستهوي سعيد في هذه المرحلة فقد خلقت عاملاً جديداً للنزاع . فحسني بتلك الملابس الخلقة التي يرتديها طوال النهار ، وضرورة ان يحمل او يساعد في الدكان ، وما يترتب على ذلك من الغبار والتعب ، وبالتالي ذلك

المزاج السوداوي الاقرب الى الحدة والتوتر ، كان يقابله سعيد بملابسه الانيقة ، وذلك المظهر النظيف البراق ، يضاف الى ذلك ان شريك كل منهما له مزايا مناقضة تماماً للآخر، فعبدالعزيز الغامدي يعتبر أن الشراكة لا تكتمل ولا تكون حقيقية الا اذا شارك بكل شيء مشاركة مباشرة ، بل واخذ يبالغ من اجل ان يتولى العمل بنفسه . أما الحصان فلم يحاول ان يمد يده ، وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في المقهى المجاور ، والمرات التي حاول فيها حسني ان يشركه في العمل ، ان يجعله يبقى في المحل ، كان يجيبه بصوت رخو مع ابتسامة تظهر اسنانه الكبيرة :

ـ البركة فيك يا ابو تيسير ، انت تكفي وتوفي !

فاذا تطلع بلوم او عتاب ، يضيف :

ـ ـ والغلط بهذي البلايا يكسر الظهر ، خاصة بحساب الاثمان والاعشار ، مشيراً الى الخطأ الذي وقع فيه اول عهدهما بالعمل ، وكاد يرتب ضرراً كبيراً لولا ان تدراكه حسني في اللحظة الأخيرة ، وطلب منه ان يترك له وحده مسألة المحاسبة ، لانه يعرف بالدوبية ويجري اية عملية حسابية ، مهما كانت كبيرة ومعقدة ، بسرعة البرق .

كان من الممكن لهذه الامور والخلافات ان تحل وتنتهي ، او ان لا تأخذ هذه الاهمية لولا الطيش الاقرب الى السفه الذي ركب سعيد في هذه الفترة . فقد توصل الى معادلة اكيدة : الكرم هو وحده الذي يثبت ويحدد حجمه التجاري ، فاذا كان قد بدا متردداً في اظهار كرمه خلال الفترة الماضية ، متذرعاً بصغر البيت وعدم وجود من يساعد في اعداد الطعام ، فقد حلت هاتان الصعوبتان حين انتقل الى بيت الحصان ووجد طباخاً .

تحّمل حسني الدعوات الاولى بصعوبة وعلى مضض ، اعتبرها رداً لدعوات سابقة او لضرورات العمل ، أما عندما اخذت تتكرر وتتقارب ، ويرافقها السهر مع لعب الورق والصخب ، فقد اخذت تثيره وتخرجه عن طوره ، طلب من سعيد ان يختصر هذه الدعوات ، ان يجعلها في اوقات

متباعدة ، وان تكون ظهراً« لكي ننام ونستريح بعدما هدّنا عمل النهار » .
وسعيد الذي يسمع ولا يسمع لا يغيّر عاداته ولا يستجيب لاي طلب غير ما يمليه عليه عقله ورغباته .

اتسمت العلاقة بين الحكيم وسعيد ، منذ البداية ، بطابع الخشية ، وكانت خشية متبادلة ، وان ظل الاثنان يتستران عليها ، بل وكانا يتظاهران بعكسها تماماً ، خاصة امام الآخرين . ونتيجة هذا الموقف تولدت لدى الذين يعرفون الاثنين قناعة ان العلاقة التي تربطها وثيقة جداً ، وانها خاصة . حتى مطيع الذي لا يخفي سراً على خاله ، والذي اشار عليه في قضايا ومشاريع عديدة ، وبادر الحكيم الى الموافقة عليها ، لم يجرؤ ان يقول رأيه كاملاً بسعيد . وفي المرات القليلة التي اشار اليه عرضا ، وعلى شكل تساؤل او ارتياب ، وجد ان للحكيم موقفاً مغايراً . ومحمد عيد الذي حاول التعريض به في البداية ما لبث ان تركه ، او بالاحرى نسيه في خضم المشاغل والهموم التي لا تتوقف في موران .

كان الحكيم يرى في سعيد شعلة من الذكاء والنشاط والحركة ، « فاذا فهمناه وساعدناه يستفيد ونستفيد » هكذا يقول ، وهو يهز رأسه . أما اذا خلا لنفسه فانه يراه بشكل مختلف : « حربوق ، ابن حرام ، يسرق الكحل من العين ، ولانه مكار يأخذ الواحد للعين ويرجعه عطشان ، ومع ذلك ان يكون معك ، وانت مفتح عينك مثل الفنجان احسن من ان يأخذه غيرك » .

هكذا يراه الحكيم ، فاذا اضيف الى ذلك ما يقوله حسني عن اخيه ، انه خباص ومغامر ، ويمكن ان يورط ، فان الحكيم شديد الحذر دائم اليقظة ، ولانه يريد ان يستفيد من الجوانب التي تعنيه ، دون غيرها ، فقد كان دائم التنبيه على راتب ان يراقب ، ان يحاسب ، وان لا يترك الصغيرة او الكبيرة ؛

وكـان يستعين ايضـاً ، وباشكـال مختلفة ، ببعض العيـون ، ليتقصى اخبـاره ولمراقبته .

رأي سعيد بالحكيم لا يختلف كثيراً ، فاذا كان يتحدث عنه امام الآخرين فانه يقول :

ـ الحكيم بالطب علم ، وما بحاجـة الى شهادة احـد . والحكيم بالـدين صاحب دين وكثير الافضال . وفي السياسة مفتي وصاحب طـريقة ويقـدر ان يفك المعدوم من المشنقة .

يصمت لحظة ثم يضيف :

ـ أما القضايا الاخرى فلا يُعلى عـليه .

ولا يخفى ما في هذه الكلمات الكبيرة العامة من مبالغة ، او بالاحرى لا تعني شئيـاً محدداً ، وربمـا تضمنت معنى السخريـة ، لكن طـريقـة سعيـد في الكلام ، تلك الطريقة الجادة المليئة بالتوقير لا تترك مجالاً للشك او للتأويل .

أما رأيه الحقيقي ، كما يلخصه لنفسه، فانه بسيط وواضح « ليس هناك قوة على وجه الارض تقنعني ان الرجل بريء او نظيف . بالعكس ، نصـاب ومحتال كبير ، له حاسة شم مثل الكلاب ، يعرف ، حتى بالنسبة للمريض ، وين حاط فلوسه ، وهو يعاينه ، وهو يكتب الوصفة ، يتطلع الى جيب المريض المسكين ، يدوخ الفلوس ، فاذا تناولها ، ودون ان ينظر اليها ، يعرف المخّمسة من غيرها . . وبعد كل فضـايحه . وبعـد ما اكـل الاخضر واليابس جـاء الى موران وبلّش يلهط . وهذا ما هو كلام قيل عن قال ، انا شفت بعيني ! » .

وبعد ان يضحك سعيد ، ويخرج صوته ، من الغيظ ، على شكل صفير ، يضيف محدثاً نفسه : « وانا ، لهفته عليّ لسواد عيوني ؟ اخي حسني اقـرب له مني ، لكن لا يطيقه ، يصرخ في وجهه . وانا : « يا ابو شكيب ، انت اخونا وانت حبيبنا ، وقبل ما تصل الى حران كنت اصلي بالليل والنهار ، وادعي لربي ان يبعث لي واحداً مثلك » . كذاب اشر ، لا صلاة يصلي ، ولا بحـاجة الى واحد مثلي ، بحاجة للفلوس ، بده المال ، وتصورني قط من خشب اصيد وما آكـل ، او مثل دجـاجة تبيض الـذهب ، قال لنفسـه نضحك عليـه بكلمتين يتـزحلق . فشر . ازحلقه وازحلق اجـداد اجداده ، شفت اذكى منـه بـالف

مرة ، لكن انا الآن ما لي ريش ، بحاجة له ولامثاله ، أما اذا ريّشت ، اذا صار عندي كم قرش ، لا هو ولا غيره يمكن ان يستغلني او يضحك عليّ . . والزمان بينا » .

فاذا اراد سعيد ان يسخر اكثر ، ان يقول رأيه بالحكيم ، وما يكاد يتذكر العبارات والكلمات التي يكررها لنفسه ، حتى تصبح ابتسامته اقرب الى القهقهة : « معلوف مثل الخنزير ، ملمّع مثل البزاقة . صحته عال العال، لا فتاق ولا فقر دم ، بالعكس الدم يتفزر من خدوده ، لكن عند الفلوس تذبحه ما تنزل منه قطرة دم . امزح معه بكل شيء الا بالفلوس . اذا دفع عنك فنجان قهوة يسخن ، اذا سلم عليك عد اصابعك . وكل من يقول غير هذا الكلام لا يعرفه او منافق . الفلوس دينه ومعبوده . والصلاة والصوم وكل العبادات فخاخ ومصايد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس » .

ويهز رأسه عدة مرات ويتابع :

« لكن . . والله . . . والله لا عبّده العجل ، لأحرق قلبه مثل ما حرق قلوب الناس » .

هكذا يرى كل منهما الآخر ، وهكذا يتظاهران ، خاصة امام الناس ، أما وجه بوجه اذا التقيا فيبدأ الحكيم :

ـ اهلاً . . اهلاً ابو شكيب .

وبعد ان يسلّم عليه بحرارة ومودة :

ـ خبرّني : كيف صحتك ؟

ولا ينتظر الجواب :

ـ وجهك مورّد وخدودك متفحّة ، وشايف همتك عال العال . . .

ويضحك ، وبعد قليل :

ـ لازم ندق على الخشب !

كل هذا قبل ان يجلس سعيد . فاذا حاول ان يختار مكاناً بعيداً ، مكاناً مقابلاً للحكيم فيرتفع الصوت:

ـ تعال ، يا رجل ، قرّب ، لاني مشتاق لك وصار لي مدة ما شفتك !

ويستجيب سعيد بكثير من المودة والبساطة ، انه يلعب معه اللعبة ذاتها ، وبنفس الكفاءة . وقبل ان يبدأ اي حديث جدي يعاود الحكيم :

ـ انشاء الله مرتاح ومرّوق ؟ وانشاء الله صحتك وصحة الاهل بخير ومرتاحين ؟

هكذا تبدأ الحوارات ، اغلب الاحيان ، وهكذا دائماً تجري . وسعيد الذي يحس بهذه المعاملة الخاصة ، وان تظاهر بالتواضع ، يعرف كيف يرد :

ـ اذا رضيتم عنا ، اذا نظركم علينا ، يا حكيم ، فنحن بالف نعمة من الله .

ويبتسم الحكيم وهو يتفرس في وجهه، ليبّين ما اذا كان يعني هذا الكلام ، فيبدو وجه سعيد شديد البراءة ، وفي محاولة لان يغير مجرى الحديث قليلاً يضيف :

ـ ولولا مشاغلكم الكثيرة ، يا حكيم ، كان بين يوم والثاني ثقلنا دمنا ومرينا وشربنا القهوة جميع .

ويستعمل كلمة « جميع » المورانية ليدلل للحكيم انه بدأ يتقن اللهجة ، فيرد الحكيم بسرعة .

ـ استغفر الله ، استغفر الله ، في اي وقت اهلاً وسهلاً .

ـ انشاء الله بعد ان نرتب امورنا وتمشي اشغالنا يصير عندنا وقت ونلتقي اكثر .

ـ الله كريم يا ابو شكيب .

ويزفر الحكيم ويهز رأسه ثم يضيف :

ـ الواحد لا يعرف كيف وقته يطير .

ـ فعلاً !

ـ لكن،مع ذلك،لازم نلتقي اكثر،لان العمر يخلص والشغل ما يخلص .

ـ والله صحيح يا حكيم ، نحن البارحة وصلنا موران ، لكن لـو حسبنا نلاقي ان صار لنا عمر ، صار لنا مدة طويلة !

فاذا انجزا هذه المقدمات ، او ما يشابهها ، بدآ في الحديث الذي اجتمعا من اجله .

لقد تكرر هذا عشرات المرات ، بحيث تأكد كل منهما من مشاعـر الآخر وفهمه جيداً ، لكن لا زال كل منهما بحاجة الى الآخر ، فالحكيم الذي فوجىء بكفـاءة سعيد والنتـائـج التي حققهـا ، من حيث النشـاط والاربـاح ، ودقـة الحسابات ايضاً ، جعلته اكثر تفاؤلاً وليس اكثر ثقة ، أما مشاريع التوسع التي اقترحها ، من حيث اضافة مواد جديدة ، او فتح فروع في عدة مدن ، فبعد ان عـرضت جيداً ، ودرست بعنـاية من قبـل راتب والحكيم على انفـراد ، وافقا عليها ، ثم شرعا باتخاذ الخطوات ، خطوة بعد اخرى .

* * *

كانت اللقاءات تتم ، اغلب الاحيـان ، في بيت الحكيم . وكان الحكيم يحرص على عدم وجود آخرين ، خاصة من رجال القصر ، وهذا الحرص مبعثه امران : الا يعرف القصر شيئاً عن نشاطـاته ، والثـائي الا تكون لاحـد غيره علاقة بالقصر. وقد تأكد سعيد من هذا، فقد صدف أن طلب منه أكثر من مرة ان يمر عليه في المكتب ، لامور عاجلة ، رفض الحكيم باصرار واضح ، وهذا ما لفت نظره في بداية الأمر ، أما بعد ذلك ، وحين طلب منه ان يعرّفه عـلى احد في القصر ، « لمعرفـة حاجـات القصر وامكانيـات ان نتعهدهـا » فقد رد الحكيم بسخرية وغموض :

ـ اسمح لنا بهذه يا ابو شكيب !

وحـين حاول سعيـد ان يستفسر ، ان يفهم مـا وراء هـذا المـوقف ، رد الحكيم بشيء من التعالي :

ـ الجماعة ، في القصر ، يعرفون اننا نعمل في القضايا الكبرى ، أما اذا بدأنا معهم بالبزر والقضامة، وكيلو سكـر وكيلو رز راح ننزل من عيـونهم ، ونصير لا للخل ولا للخردل .

ولما اصر سعيد ان تعهدات القصر كبيرة ، من حيث الحجم والارباح ، وان السوق كله يتحدث عن هذا الموضوع، فقد رد الحكيم من جديد وهو يطبطب على كفّ سعيد ، ويريده ان يطوي الموضوع :

ـ مثل ما قلت لك يا ابو شكيب: اسمح لنا بهذه الشغلة .

ورغم ان سعيد طوى الموضوع ، مع الحكيم على الأقل ، الا انه لم يفهم حقيقة الموقف ، لكن حين جاء ذات يوم الى بيت الحكيم ، بناء على موعد سابق ، فقد التقى به محمد عيد على بعد خطوات من البيت وابلغه ان الحكيم اضطر للخروج، مع ان ثلاث سيارات تابعة للقصر، وفيها عدد من الحرس والمرافقين، كانت تقف على الباب . وكانت جميع الدلائل تشير بوضوح الى ان الحكيم موجود ، وانه يستقبل عدداً من رجالات القصر في بيته !

حتى مطيع ، « الاخنب » ، كما يسميه سعيد ، لانه يتكلم من انفه ، والذي ابدى عواطف سخية ، حين التقوا في حران ، وظل وحسني معه اسبوعاً كاملا اثناء احدى زياراته ، بدا في موران انساناً آخر ، اذ ما عدا لقاءات المجاملة ، والتي تمت في بيت الحكيم ، فقد غاب تماماً ، وكان من الواضح انه يتهرب ، لا يريد ان تكون له بهما علاقة . وعندما حاول سعيد مرة بكثير من المكر ، ان يبحث معه حاجات القصر وامكانية ان يساعدهم او يعرّفهم على احد فقد تطلع اليه باستغراب ثم رد :

ـ الله يخليك يا سعيد ، قضاياكم ومشاكلكم لا تدخلني فيها .

قال ذلك بحزم . وحين ابدى سعيد استغرابه لهذا الموقف ولهذا الرد ، تابع :

ـ انا بالاساس ، لا علاقة لي باشغالكم ، ولا اعرف هذه الاشغال ، ولذلك اذا كنت عايز اي شيء من القصر اتصل بالحكيم !

تأكد سعيد ، بعد مواقف وملاحظات من هذا النوع ، ان الحكيم لا يريد منه ان يقترب من القصر ، الا تكون له علاقة ، اية علاقة . وتأكد اكثر ان الحكيم يريد ان يشاركهم في أعمالهم، ويصرّ الا يقتربوا من اعماله ، الا يشاركوه . ولذلك امتلأ اصراراً ان يغزو الحكيم في قلعته، لكن من ابواب

خلفية، من ابواب لا يعرفها ولا يستطيع ان يمنع احداً من دخولها ، وهذا ما دعاه لان يبحث عن آخرين، وهذا ما دعاه لان يستعين بالغامدي وغيره.

أما حين بدأ الحكيم ، بتكتم وخفاء ، يشتري الأراضي ، وقد عرف سعيد من اصدقاء في السوق ، فقد قدّر اهتمامات الحكيم في هذه الفترة ، رغم انه لم يشر الى الأمر من قريب او من بعيد . ولئلا يلفت نظر الحكيم ، او يشعره ، فقد تولى ، ذات ليلة ، الرد على اخيه ، عندما استشار هذا الأخير الحكيم ، ما اذا كان من المناسب ان يفكر الانسان بشراء قطعة ارض او اثنتين ، كما اشار عليه الحصان ، بهدف البيع والشراء او بهدف البناء ، خاصة وان علاقته بهذا الجو اصبحت وثيقة ، واصبح على دراية .

قال سعيد بسخرية :

ـ اترك السالفة يا رجال ، جماعة السوق تقول : حرام ان الواحد يحط فلوسه في الرمل !

قال ذلك بلهجة مورانية فخمة وهو يتطلع الى الحكيم ، الذي احمرت وجنتاه وارتجفتا ارتجافاً عصبياً ، وهذه العادة تلازمه ـ وقد لاحظها سعيد منذ لقائهما الأول ـ حين يواجه مأزقاً او حين يشكل عليه امر من الامور . فلما التقت نظراتهما خلال تلك اللحظة الخاطفة تابع ليخلق طمأنينة مصطنعة :

ـ ومع ذلك سوالف اهل السوق كثيرة، وما ينعرف صدقها من كذبها .

وكلما حاول الحكيم أن يتثبت من تقدير معين، من قناعة معينة، يتصرف سعيد بطريقة تزعزع هذا التقدير، وتهدم هذه القناعة ، فيحار الحكيم اكثر في فهم او تقدير هذا الانسان.، اذ بمقدار ما يبدو مهذباً ذكياً ، وبعض الاحيان بسيطاً ، فانه ، في احيان اخرى، كالثعلب بحركاته وطريقة تفكيره . حتى الافكار عن العمل التي بلورها الحكيم نتيجة مناقشة الآخرين ، او نتيجة الاطلاع على تقارير ودراسات أعدّت للقصر ، يجد ان لدى سعيد افكاراً مشابهة . صحيح انه يطرحها بشكل بدائي ، وبعض الاحيان يفتقر الى الوضوح والدقة لكنه « وضع يده على الجرح » ، كما يحب الحكيم ان يقول ، ويضيف لنفسه « ملعون ، خلاصة للحس الشعبي ، والذكاء » .

وتزداد الامور تشابكاً ما ازدادت القضايا والمشاريع ، فسعيد الذي كان في بيت صغير، وكان متواضعاً في حياته ومصاريفه . مـا لبث ان انتقل الى بيت اكبر ، كما واشترى سيارة فخمة ، اضافة الى سعة في العيش والتصرف ، بحيث ينفق ما حصل عليه من ارباح خلال فترة قصيرة . واذ يبدي الحكيم دهشته ويعاتبه، فكان الرد جاهزاً :

ـ الفلوس ، يا حكيم . مثل الماء الجاري، لا يمكن لاحد ان يمسكها ، لانها لا بـد وان تفلت، والاحسن ان تفلت بـرضـاي من ان تفلت بـرضـا غيري ، وان يستمتع بها الانسان احسن من ان يستمتع بها غيره .

ولما حاول الحكيم ان يشرح اهمية ان يحرص الانسان ، وان يصرف بمقدار ، وان يقتصد رد سعيد وهو يتحول من الابتسام الى الضحك :

ـ الله يخليك يا حكيم ، الانسان في هذه الحياة يعيش مرة واحدة ، والقرش الابيض اذا ما فاد وبسط في الحياة ، في الدنيا ، ما راح يفيد بعدها ، لان الانسان اذا مات راحت عليه .

ولما نظر اليه حسني بنوع من اللوم رد مازحاً :

ـ يا ابو تيسير . . كل واحد بعقله رضي بفلوسه ما رضي ، انا بفلوسي راضي ، وبعدين ، يا سيدي ، الفلوس وسخ الدنيا ، وما في احد مات واخذ معه اي شيء .

واكتشف الحكيم صفة جديدة في هذا الانسان : « المال لا يعني لـه شيئاً هاماً » ، ولذلك يجب الا يخاف منه او ان يتوجس . اكثر من ذلك يبدو له ان سعيد بحاجة الى الثقة والفهم اكثر مما هو بحاجة الى المال ، لان المال بالنسبة له لا يتعدى ان يكون مظهراً للقوة والوجاهة .

لو ان حماد ولد وعاش في مكان غير موران ، او في وقت غير هذا الوقت ، لاصبح قائداً عسكرياً او رساماً ، وربما صار رئيساً لعصابة من مائة شخص ، او ربما مات او قتل وهو في العشرين !

فالتجارة التي كانت لآل المطوع ، والتي لا تتوقف قوافلها عبر البادية طوال السنة ، حاملة الطحين والرز والاقمشة ، لم تكن تغريه او تشده . أما الأراضي التي كانت للعائلة فانها تنتشر في امكنة عديدة ، وتغطي مساحات لا يعرفها حتى اصحابها ، لكن هذه الاراضي لا قيمة لها ، ولا تتعدى ان تكون حظائر للابل والغنم ، او متروكة هكذا ، لانها لا تزرع ، وبعيدة ، بعض الشيء ، عن المدن . وقد تم شراؤها او وضع اليد عليها في وقت مبكر ، لتكون مراعيَ او حظائر. ولانها كذلك لم تغر احداً من آل المطوع لان يهتم بها ، خاصة واحدا مثل حماد . أما ان يصبح مثل عمه شداد، صاحب خيول ومضافة ، فلم تستهوه هذه الهواية طويلاً ، بعد ان جاءت السيارات وتنوعت ، واصبحت خيول العصر الجديد . ولهذا فان الخيول التي جلبها من مصر ، وتعب في تربيتها والعناية بها ، خلال فترة معينة ، ما لبثت ان انتقلت الى عمه شداد ، فقد باعها حماد لعمه دون ربح ودون اسفٍ ايضاً . حتى المدرسة التي اغرت اقرباء له واصدقاء ، وكان من السهل ان تفتح له مجالاً ، غادرها بعد معارك انتهت بالضرب والاذى ، وكانت مشهورة في موران .

أما لماذا يمكن ان يكون قائداً عسكرياً او رساماً ، فبسبب تلك النزعة الجامحة التي تميزه للسيطرة ، او لاعادة تشكيل العالم وتنظيمه . وهذه النزعة

بمقدار ما لفتت اليه النظر ، منذ وقت مبكر ، فقد اقلقت المسنين في العائلة ، وادت الى تباين الاجتهادات بينهم في كيفية التعامل معه . فابوه اعتبر ان التجارة « واللعب بالمال » لا بدّ ان يُغّيره ، لكن لا احتمل التجارة ولا اغراه المال . أما الأسفار التي قام بها مرافقاً القوافل ، فكان يعود منها ليؤكد الصفات الاساسية التي تنام في دمه اكثر مما ساعدته على ابراز الصفات الجديدة المكتسبة . وكان ينفق في اسابيع ما تعب في تحصيله خلال شهور .

عمه شداد كان له رأي آخر ، « اذا المال ما فاده ، والخيل ، هذه العرايس اللي تربط الملائكة ، وفيها بركة الدنيا والآخرة ، ما حنّنته ، ظل علينا شي واحد » ويضحك بقهقهة ثم يضيف : « بنت الحلال . . وهذه لا بد تتعبه وتربطه ، وياما قبله كثيرين داخوا بالنسوان وانسدحوا »

ولذلك تزوج حماد وهو في العشرين ، واكتفى بواحدة حتى بلغ الثلاثين ، لكنه لم يتغير الا كما تتغير الشجرة : كبر ، امتد ، جاءه اولاد ، لكنه ظل كما كان . وآل المطوع الذين يحرصون على اولادهم بمقدار حرصهم على اموالهم ، صبروا وتحملوا . أما مفلح ، كبير العائلة ، والذي ضعف سمعه ، فلم يفهم قصة حماد الا بعد فترة وبصعوبة ، اذ صاح في اذنه حفيده مطلق عدة مرات ، وهو الوحيد القادر على ابلاغه الرسائل ، فلما سمع قال وهو يبتسم :

- اتركوه . . يا جماعة الخير ، لأن الحبة تدور تدور وترجع للرحى .

ثم بدأ يهذي وحده :

- قبله ، آل المطوع ، كلهم مثله ، الى ان يتعبوا ، وبعد ما يجربون اللي يصير واللي ما يصير ترجع لهم عقولهم ؛ واذا الواحد لاواهم يتعب وتتعب يده ، وما يسلّمون الا برضاهم . قبله جده ، وقبل جده ابو جده ، كلهم زمروا بهذي القصبة الى ان انتفخت اوداجهم ، ركضوا الى ان تعبوا ، وبعدها بركوا وجاء بعدهم غيرهم .

وتطلع الى الوجوه حوله ، هز رأسه وتابع :

- وبهذي الأيام كل العباد مثل حماد : بعران وهاجّه ، والله يستر !

وهكذا ترك . لم يلح عليه ابوه اكثر مما فعل ، ولم يطلب منه ما طلبه من

الآخرين ، وهو بمقدار قلق اقربائه وحيرتهم كان قلقاً حائراً . فاذا تفاءلت امه ونقلت لابيه انه اصبح راغباً في العمل والتجارة ، ولا بد ان يصبح مثله ، كان لا يتأخر حتى يكذبها . واذا تفاءل اعمامه ونظر اليه الواحد منهم نظرة جديدة، لأنه يتحدث في امور تتجاوز التجارة وموران وعمل كل يوم، لا يتأخر حتى يبلغهم انه لم يجمع مالاً ولم يفكر بعمل ، ويتابع بعض الاحيان باستهتار :

ـ الدنيا ما هي بس عمل وتجارة .

في احدى زيارات راتب الى موران ، جرى الحديث عرضاً حول هموم الحكيم ، ولا يعرف سعيد كيف لمعت في رأسه . فعبد العزيز الذي حدّث سعيد عن آل المطوع ، عن تجارتهم والاراضي التي لهم ، وعن القرابة ، من ناحية النساء ، بالسلطان ، وحدثه عن صديقه التائه حماد ، فقد بدا له ان بالامكان ان يلعب اللعبة .

أما بعد ان تمت صفقة الارض في مدخل موران الجنوبي ، وتوثقت العلاقات بين حماد والحكيم ، بطريقة اقرب الى السحر ، فقد اخذت الامور مجرى آخر .

فالحكيم الذي عرف بتحرياته الخاصة ان آل المطوع يملكون قسماً كبيراً من اراضي موران ، وانهم لا يقدرون قيمة هذه الاراضي ، لانهم غارقون في التجارة، وراكضون وراء الابل والغنم ، ادرك ، بما يملك من حواس ، ان الفرصة مؤاتية لشراء مساحات من هذه الاراضي ، خاصة في بعض المناطق البعيدة ، وفي منطقة الحصيبة بالذات التي لا تلفت نظر احد في الوقت الحاضر ، وهذه البداية لا تتعدى الاختبار ، ولا تتعدى بناء العلاقة مع عنصر من عناصر العائلة .

أما الامراء ميزر وراكان وملحم ، وقد علموا قبل الآخرين ، ان الاراضي شرق الرها ستكون خلال سنوات قليلة ، بالغة الأهمية، مرتفعة السعر ، لان وزارة الخارجية ، اشترت قسماً من هذه الأراضي، وستبني عليها مقرها، وان اقتراحاً قدم للسلطان ببناء مراكز السفارات وبيوت السفراء في نفس المنطقة ،

فقد قدروا ان شراء الاراضي هناك يجعل الانسان غُنياً لولد الولـد ، كما قـال الامـير ميزر للحكيم ، والحكيم الـذي وافقه ، كـان ينتـظر ، ولـذلـك وافق بحماس كبير .

وحماد الذي « يمون » على عمه سلمان ، اقنعه ان هذه الارض لا تعادل شيئاً ، ويمكن أن تبقى هكذا مئات السنين . فاذا جاء من يشتريها ، فان المال يتحرك في التجارة ، في الحلال ، ولا بد ان يتضاعف خلال سنة، واقصى حد خلال سنتين ، أما « الارض فإنها تبقى في مكانها ، لا تتحرك ولا تعطي مالاً » خاصة وان المبلغ الذي اقترحه الحكيم كان مغرياً ويدفع فوراً .

وبهذه الطريقـة تمت صفقة الارض ، وتم معهـا وصول حمـاد الى مكتب الـدكتور صبحي المحملجي ، عـلى ان يتـولى وكـالـة مسؤوليـة جهـاز الأمن والسلامة .

لم تكن الارض تعني حماد الا بقدر مـا تقربـه لما يحلم بـه ، رغم ان هذا الحلم كان غائماً مشوشاً الى اقصى حد ، فقـد كان يبحث عن تجـربة جـديدة اقرب الى المغامرة ، ولا يعرف لماذا تصور او افترض انه اذا اقترب من القصر يمكن ان يحقق هذه المغامرة .



الآن ، وقد وصل حماد الى القصر ، الى غرفة لا تبعد كثيراً عن السلطان ، في نفس الجناح الذي يحتله الحكيم ومطيع ، بدا له انه يطل على العالم كله من نقطة عالية مشرفة ، وانه يرى ما لا يراه غيره . واذا كان الحكيم راوده بعض الخوف خلال المرحلة الاولى «ان لا يستطيع حماد تدبير المسألة» وصرف معه ، بالتعاون مع بعض الاميركيين المقيمين ، وبعض الذين جاءوا لمهمات محددة ، وقتاً طويلاً اولاً في اختيار العناصر ، ثم في تحديد مهمات الجهاز وطريقة عمله وعلاقاته ، فان السرعة التي اثبت فيها حماد قدرته وكفاءاته لفتت نظر الحكيم وجعلته مسروراً اشد السرور ، وقد عبّر عن ذلك في احد لقاءاته مع السلطان ، حين جرى الحديث عن جهاز الامن والسلامة . قال لجلالته وهو يفرك يديه سروراً :

ـ آل المطوع يا صاحب الجلالة ما هم بس بالتجارة او بالخيل ، حماد سبقهم كلهم ، واليوم ، يا طويل العمر ، عندك جهاز يعرف دبيب النملة في الظلمة .

والسلطان الذي بدا فرحاً منشرح الصدر علق ضاحكاً :

ـ وبنات آل المطوع مزيونات يا حكيم !

هز الحكيم رأسه وكأنه فوجىء بهذا الاكتشاف ، ثم قال :

ـ مثل ما تقول ، يا طويل العمر ، مع اني ، والشهادة لله ، ما شفت اية واحدة منهن ، لكن من يتمعن بحماد من يرى شكله وملامح وجهه لا بد وان

يفترض ان نساء العائلة جميلات .

ولم ينتظر الحكيم طويلاً ، لا لكي يفهم معنى هذه الاشارة ، وانما ليتفق مع حماد على ضرورة ان تـُزّف احدى بنات العائلة الى السلطان ، لتجديد علاقات القرابة القائمة ولتقويتها ايضاً . وهذا ما تم فعلاً بعد ثلاثة شهور من استلام حماد لمنصبه الجديد ، ولم يكن ذلك بمثابة تجديد العلاقات او تقويتها فقط ، وانما كان انطلاقاً لآفاق جديدة وكبيرة .

فحماد الذي بدت له فكرة الاقتراب من القصر مغامرة فيها من الطرافة بقدر ما فيها من الامكانية لارتياد عالم جديد ، يتجاوز التجارة وهذه المساومات الكئيبة التي كان يجد اباه غارقاً فيها ، بدأ يكتشف انه يسير في الاتجاه الذي يحب ، صحيح انه لا يعرف الى اين او متى سيصل ، لكن القوة التي بدأ يحس بها ، والمعلومات التي تصب بين يديه كل يوم ، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة في موران ، وفي قصر السلطان بالذات ، وما يجري في السلطنة كلها ، هذا الاكتشاف جعله يوماً بعد آخر يتساءل ويفكر ويحلم ، وجعله يتحول شيئاً فشيئاً الى انسان مختلف .

صحيح ان الامور لم تجر بسرعة ، او وفق رؤية محددة ، لكن ذلك الاضطراب الاقرب الى التهيب الذي سيطر عليه في البداية ، بدأ يزول تدريجياً ، ثم اخذ مساراً جديداً . فبدل ان ينتقل بنفسه الى العالم والناس ليكتشف ويتعرف ، اصبح العالم والناس ينتقُلان اليه ، من خلال التقارير ، او من الذين يزورنه لينقلوا اليه ما سمعوا وما رأوا . ومن خلال التلفونات التي لا تتوقف حوله عن الرنين . ليس هذا فقط ، فالصوت العالي الذي كان يميزه في الماضي ، ولكي يخفي خجله بالدرجة الاولى ، اصبح الآن همساً او اقرب الى الهمس . أما التدخل فيما يجري ، ودائماً كان له دور ، فاصبح لا يتطلب اكثر من كلمة او اشارة ، لكي تسير الامور كما يطلب او كما يشتهي ، وغالباً ما تكون هذه الكلمة عبر الهاتف ، او من خلال المرؤوسين .

في بداية العمل ، لم يكن حماد يقدم على تصرف او يخطو اية خطوة الا اذا استشار الحكيم، وهذه الصيغة في العمل ولدت الفة كبيرة بين الرجلين ،

واشعرت الحكيم باهمية متزايدة ، حتى الفكرة التي راودته في مرحلة معينة ان يتولى بنفسه مسؤولية هذا الجهاز ثم عدل عنها لانها لا تلائم عمره وموقعه ، تبين له ان الصيغة الجديدة اكثر ملاءمة . يكفي ان يمرّ عليه حماد صباح كلّ يوم ، عند وصوله الى القصر ، ويقضي معه نصف ساعة ، ليطلعه على التقارير التي وردته ، وليتلقى توجيهاته ، وهو ، من خلال هذه الصيغة ، يستطيع ان يشرف ويوجه ، ويستطيع ايضاً ان يبقى مسيطراً على هذا الجهاز الذي بدأت تتضح اهميته يوماً بعد آخر .

أما الاجتماع الدوري بالسلطان صباح كل سبت ، والذي جرى في الاسابيع الاولى دون ان يتكلم حماد الا اقل الكلمات ، وتولى الحكيم نفسه نقل المعلومات ، ثم قام « بتقدير الموقف » كما سمّي الوضع العام في السلطنة ، كان حماد خلال هذه الاجتماعات شديد الجفلة بل اقرب الى الخوف ، تمنى في اعماقه لو يستمر الحكيم القيام بهذه المهمة ، وتمنى الا يُسأل من قبل السلطان عن اي امر من الامور . أما في وقت لاحق فقد اصبح اقل تهيباً ، واصبح يشارك في تقديم التقرير الاسبوعي ، لكن ظل « تقدير الموقف » من اختصاص الحكيم .

الحكيم باستمرار يأتي بافكار وعناصر لا تخطر ببال حماد ، اذ لا يكتفي بالحديث عن الامور التي جرت ، او عن المعلومات الواردة في التقارير ، لا بد ان يتحدث عن الوضع في المنطقة : الاخطار التي تحيط بالسلطنة ، العناصر الخطرة التي يمكن ان تتسرب من هنا وهناك . كان حماد يشعر بزهوٍ ان الحكيم يمتلك هذه الرؤية ، وقادر على ان يتحدث في اصعب الامور واخطرها . وكان يشعر بفخر انه يعمل مع رجل بهذا المستوى . والحكيم الذي يلاحظ الاعجاب ، يفيض ، يأتي بامور اضافية ، بامثلة من التاريخ ، أما السلطان الذي يبقى ، اغلب الاحيان ، صامتاً ، يستمع ، يهز رأسه ، فقد لاحظ حماد الشرود على وجهه عدة مرات . اكثر من ذلك كان يراه ، يتيه في امكنة او امور بعيدة اثناء حديث الحكيم . وحين يوشك الاجتماع على الانتهاء ، يتغير السلطان ، يصبح اكثر مرحاً واكثر رغبة في احاديث مختلفة ، وخلال الدقائق الأخيرة ، والى ان يغادر ، وغالباً ما يبقى الحكيم في حضرة السلطان يصبح

الجو مريحاً منعشاً، وداثماً كان الحكيم يتولى خلق هذا الجو .

وبدأت تتغير ايضاً علاقات حماد بالكثيرين ، فبعد ان كانت احدى هواياته ان يتجول في موران بسيارته المكشوفة ، ولا يتردد في الوقوف عدة مرات في السوق ، يخرج ويسلّم ويسأل ، وكانت له مجموعة من الاصدقاء على شاكلته ، بدأ في هذه الفترة شخصاً مختلفاً : استبدل سيارته باخرى اكبر واكثر رصانة ، سواء من حيث شكلها او لونها ، ولم يعد يشاهد في السوق الا بين فترة وأخرى، وكانت هذه الفترات متباعدة، حتى ظن الكثيرون أنه سافر أما الاصدقاء الذين استمروا على علاقة به فلم يعرفوا نوع العمل الذي اسند اليه في القصر ، كما لم يبح هو بذلك . فاذا سئل يجيب بكثير من الايجاز والغموض ، انه يعمل في دائرة مستشار السلطان ، ولا يضيف شيئاً آخر . حتى عمه شداد الذي وصله في هذه الفترة حصان اسود ، قيل انه اجمل خيول موران ، وكان فخوراً به ، عندما سأله اي عمل يعمل في القصر ، رد عليه حماد بجدٍ مبالغ فيه :

ـ مع مستشار السلطان . . يا عم !

ـ يشور عليك ام تشور عليه يا ابن أخي ؟

هكذا تساءل شداد المطوع بمرح ، ثم تابع :

ـ واذا عندك او عنده شور بالحمداني اللي جانا فقولوا ، واذا ما عندكم تعالوا شوفوه حتى تشوروا على طويل العمر بخيلنا او خيله !

وقد فهم الذين سمعوا هذا الكلام ان شداد مستعد لبيع الحصان الى القصر، الى السلطان بالذات، اذا دفع ثمناً كبيراً ، لانه افضل من خيول القصر جميعاً .

أما ابوه الذي لم يعرف ايفرح ام يحزن لان ابنه انتقل من السوق الى القصر ، فقد قال امام عدد من أصدقائه المقربين :

ـ سالفة الحكومة يا جماعة الخير ما لها تالي ، واذا كان بالتجارة تسعة يربحون وواحد يخسر ، فعند الحكومة تسعة يخسرون وواحد يربح .

وزفر بحرقة والم ثم اضاف :

ـ وعسى ما يكون حمادنا من الخاسرين .

كبير العائلة ، مفلح المطوع ، والذي ضعف سمعه اكثر من قبل ، بدأ حفيده مطلق يستعمل محقاناً كبيراً لابلاغه الرسائل المهمة ، فهم الرسالة الجديدة خطأ ، او هكذا اراد ان يفهمها ، فقد هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم ، ثم علّق :

ـ قلت لكم : حماد ابن صالح ، وصالح ابن راشد ، وراشد ابن جيهم ، وكل واحد منهم كانت براسه سالفة ، صالح لما مات ابوه كان ابن عشر ، وكان افقر من ذيب بفلاة ، لكن انتم اليوم تشوفون . راشد ناطح الكبار ، الى ان اتعبهم ، لاواهم وكاد يكسرهم ، لكن بين يوم وليلة عشق ، عشق العجمية ، والله اعلم انهم ارسلوها ، فترك الحرب ولحق العشق ، وبعدها صار اللي صار . وسالفة الجد الأول ، جيهم كلكم تعرفونها .

قال هذا كله وهو مغمض العينين ، يحاول ان يتذكر ، فلما فتحهما اضاف :

ـ ومن يوم ما فتحت عيني على الدنيا ووعيت كنت اقول : من آل المطوع لا بد ويجي يوم ، يجي ولد وينتقم لجيهم ، وهذا حماد ، اللي قلتم عليه فلاني وتركاني ، صار سلطان ، وراح يسوي اللي ما يصير !

تطلع اليه الذين يستمعون ونظر بعضهم في وجوه بعض ، وبدل ان يقهقهوا ، كما كانوا يفعلون دائماً ، حين يسألونه عن موضوع ، فيجيب عن موضوع آخر ، اخذوا ينظرون بخوف وتساؤل ، مع لوم ورجاء ان يقوم مطلق فوراً بابلاغه الرسالة بشكل دقيق ، فلما فعل مطلق ذلك ، وان كان بصوت اقوى وعبارات متباعدة وواضحة ، تطلع اليه باستغراب ، ثم قال كلمات لم تفهم ابداً :

ـ ادري . . ادري يا وليدي . . حماد في القصر !

أما الاقرباء الآخرون والاصدقاء والمعارف فقد فهم كل واحد منهم الامر

كما يشاء ، وتصور حماد بشكل مختلف عن الآخر، خاصة وان الامور بمجيء السلطان خزعل تغيرت تماما، أخذت مجرى مختلفاً عما كانت عليه من قبل . وهذا التغير او الاختلاف لم يقتصر على استبدال بعض الرجال ، او غياب بعض الامراء أولاد خريبط ، وانما امتد ليشمل كل شيء في السلطنة ، بدءاً من تسمية الاولاد وانتهاء بكيفية مناداة السلطان او الحديث معه!

ومع ذلك ، فان حماد الذي بدأ يفهم مهمته اكثر من السابق ، وبدأ يتكيف معها ، شعر ان موران التي كان يعرفها ، والحياة التي كان يعيشها ، وحتى البشر الذين كان يعرفهم او سمع بهم ، شيئاً آخر ، ويجب ان يتصرف ويعمل ضمن هذه المعرفة الجديدة .

خلال السنة الثانية ، وفي ذكرى عيد الجلوس ، بدت الصورة شديدة الوضوح : السلطان يستقبل الامراء والشيوخ وكبار التجار ، الذين جاءوا للتهنئة، وقد بدا في صحة جيدة للغاية، بعد ان نقص وزنه قليلاً، بل وتراءى لكثيرين انه اصغر سناً مما كان قبل سنة او سنتين ، وربما ساعد على هذا الانطباع انه استبدل النظارات القديمة ، العريضة الاطار ، باخرى جديدة ، اظهرت عينيه الواسعتين الضاحكتين . أما الملابس التي كان يرتديها فقد كانت زاهية . وهي وحدها التي تليق له، بعد ان تخفف من تلك الالوان الرمادية التي كانت تستهويه في السنوات الماضية . واللحية الصغيرة لم يطرأ عليها الا تعديل بسيط لا يكاد يلحظ ، فقد تركها الحلاق الخاص لجلالته تزحف قليلاً الى الأعلى ، بحيث تملأ بعض الفجوات التي كانت تظهر سابقاً في اسفل الحنك ، مقابل هذا قصّرها قليلاً ، وقد فعل ذلك « لكي لا يبدو وجه جلالته مستطيلاً اكثر مما ينبغي » ، كما اشار الحكيم ، بعد ان رأى كاريكاتيراً لجلالته في مجلة مصرية ، وكان اقرب ما يكون الى وجه حصان !

كان السلطان ، وهو يستقبل المهنئين ، واقفاً ، مسروراً ، بل وبدا منفعلاً في بعض اللحظات ، وهو يعانق اخوته واحداً بعد آخر ، وهو يستقبل وفود المدن والمناطق . أما عندما وصل وفد حران ، وكان وفداً كبيراً ، وقد اصرّ مدير المدرسة على ان يلقي قصيدة في حضرة صاحب الجلالة ، ولاقت القصيدة استحساناً ظاهراً ، فان المفاجأة الكبيرة التي حملها الوفد كانت عبارة عن حجة حصان حمداني مكتوبة بماء الذهب ، أما الحصان ذاته فقد عرض عصر اليوم

نفسه امام السلطان اولاً ، ثم امام عدد كبير من الضيوف والذين سمعوا عنه من ابناء موران وجاءوا لرؤيته ، بعد ذلك .

لم يشك السلطان لحظة واحدة ان مفاجأة من هذا النوع كان الحكيم وراءها ، ولذلك ، وتعبيراً عن الثقة والمودة ، انعم عليه في الليلة ذاتها بلقب شيخ وسماه المستشار الأول لجلالته .

بدا الحكيم راضياً واثقاً ، ومما زاد في تأكيد هذه الحالة ان الاراضي التي اشتراها لم تلفت النظر الا قليلاً ، ولتبرير شرائها قيل ان بعض الامراء سيقيمون عليها ملاعب رياضية وساحات لسباق الخيل والابل ، وان بعضها سيقام عليه مساكن للقبائل التي تقصد موران ، اضافة الى المدارس والمستشفيات .

ومما زاد في تأكيد هذه الحالة أيضاً، ان زيارات راتب الى موران اخذت تتكرر وتتقارب، وأشار، عرضاً، إلى أنه يفكر بالانتقال إلى موران خلال فترة سنة او سنتين ، للاستقرار فيها، خاصة وان العمل يسير سيراً حثيثاً منتظماً، كما خطط له ، رغم اللغط الذي ينقله محمد عيد عن سعيد، وما يتحدث به الناس في السوق. ومما زاد من ترجيح احتمال مثل هذا الاخبار السارة التي زفّها راتب للحكيم حول تأسيس شركة جديدة للمقاولات ، مهمتها بناء الطرق وتوريد الابنية الجاهزة . واشار الى ان مستقبل هذه الشركة هام للغاية ، ليس في السلطنة وحدها، وانما في البلدان المجاورة أيضاً، ولذلك يجب ان تنشأ لها فروع محلية بسرعة، وقبل ان يصل المنافسون ، خاصة وان الجميع في بيروت واماكن عديدة، لا يتحدثون الا عن الاشغال الكبيرة في موران ومدن السلطنة الاخرى، وان الكثيرين يبحثون عن « مفاتيح » !

والحكيم الذي يصر على معرفة احتمالات المستقبل ، وكيف سيسير العمل ، هنا او في الخارج ، ولضرورة مناقشة كافة التفاصيل ، يصر على استضافة راتب في بيته ، لان موران تفتقر الى فندق لائق ، « وليكون عندنا الوقت الكافي للعمل » . ويحاول بكل الوسائل تزيين فكرة الاقامة الى جانبه . وراتب الذي يبدو متردداً ، بل اقرب الى التمنع ، « لئلا اغيّر نظام البيت او

اضايق احداً » يجد نفسه مضطراً للموافقة نتيجة الحاح الحكيم !

ويعزو الحكيم التطور الذي حصل في حياة راتب وسلوكه الى الجهد الذي بذله شخصياً في ذلك ، فالمناقشات التي جرت في بداية تأسيس الشركة ، ثم الزيارات التي قام بها الى موران ، والتي تتخللها القصص ، وكلها بهدف اعطاء النموذج والمثل ، او تلخيص الحكمة وتكثيفها . هذه الامور ، اضافة الى النتائج العملية ، ساهمت في التحول الكبير . فهذا الشاب الطائش قبل سنوات ، اصبح انساناً آخر . يقول الحكيم في تبرير ذلك : « اكثر الناس مروا في حياة الطيش ، والمسألة مسألة عمر » ويضيف بعد قليل وهو يبتسم : « عمر وتربية » .

ومما كان يزيد في سرور الحكيم التغيير الذي كان يحدثه راتب في البيت خلال زياراته ، فالهدايا الكثيرة التي يحملها ، والقصص التي يرويها ، ومشاريع الاسفار التي يخطط لها في الفترة القادمة ، كلها تولد حيوية وصخباً. واكثر ما يظهر ذلك على وداد .

أما حين تبدأ وداد ، مثل طفلة صغيرة ، تقفز وتضحك ، وهي تضع معظم الملابس على صدرها ، في محاولة لتتأكد من مدى ملاءمة مقايسيها او الوانها ، او تختبر رد الفعل عند الآخرين ، فلا بد ان يعيد راتب نفس القصة :

ـ احترت بالنسبة للقياس ، لكن وانا اشتري رأيت امرأة تشبه ام غزوان ، قلت لصاحب المحل : بقياس هذه الست !

وترد وداد بعتب :

ـ المرة الأخيرة، لما نزلنا على الحمرا ، كنت معنا وشفتني لما اشتريت .

ـ لكن ما تذكرت النمرة يا ام غزوان !

ـ وانشاء الله راح تنسى . . المرة القادمة ؟

ويضحكون جميعاً ، فاذا هدأت الضحكات يعلق الحكيم :

ـ هذه الاغراض تفتح مخزن احسن من كل مخازن موران . . .

وتتغير لهجته :

ـ ولا تنسي الجماعة ، يا ام غزوان !

ويشير باصبعه قاصداً القصر ، فترد وهي لا تعرف كيف تخفي فرحها :

ـ طبعاً . . . طبعاً ، شو بدي البس . . وامتى ؟!

ويخيم الرضا على الجميع ؛ يصبح الحكيم اكثر تفاؤلاً ، ويعاود اتصالاته بالكثيرين ، بعد ان انقطع عنهم فترة طويلة ، لانه لم يكن بحالة نفسية تساعده على التبسط ، ويستغرب سلوكه ويتساءل لماذا كان قاسياً او بعيداً بهذا المقدار . واذ يجد ان ضرورات العمل فرضت عليه هذا الانقطاع ، ثم ان حساسية المركز الذي يشغله في القصر اضطرته الى ذلك ، فانه يلوم نفسه ، ويقرر ان يكون انساناً مختلفاً في الفترات اللاحقة .

واذا كان الآخرون يلاحظون التغير الذي يطرأ على الحكيم فغالباً ما يعزونه الى المصاعب والهموم التي يواجهها .

يقول محمد عيد دون ان يسأله احد :

ـ اليد الواحدة لا تصفق يا جماعة ، والمسكين حامل الدنيا على كتفه !

وتتغير نبرة صوته :

ـ لما كنا في حران ، كنت آخذ عنه كتف ، أما هنا . . .

كانت كلماته تعني استخفافاً وانتقاصاً من هؤلاء الذين يحيطون بالحكيم ، وكانت تعني تحريضاً ايضاً ، لكن الحكيم يتظاهر انه لا يسمع ، بل وكثيراً ما حاول تغيير الحديث . يسأله عن أخيه، ويبتسم ، ليؤكد له انه لا ينسى احداً خاصة بعد ان اصبح بدري مهماً ، وانتقل الى القصر الذي يقيم فيه السلطان ذاته ، وما لبث ان اصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، للخدمات التي يستطيع ان يقدمها ، ولتعلق الصغار والكبار به ، ولقدرته غير المحدودة على رواية القصص والاحاديث والنكات ، فاصبح اولاد السلطان لا يتركونه ابداً ، وقد زيد راتبه مرتين خلال سنة ، عدا عن الاكراميات ، وبدأ يفكر باحضار زوجته واولاده الى موران .

محمد عيد لا يعرف في اية حالة هو ، يفرح بعض الأيام الى درجة الطرب ، ويستبد به الحزن في ايام اخرى الى درجة البكاء . يحار في اي الامور اولى من غيرها بالمتابعة ، فلا يتابع اياً منها ، كما لا يجد فراغاً او متسعاً لسماع ما يتناقله الناس ، كما كان الحكيم يوصيه ويطلب منه . وفي فترة لاحقة اصبح شخصاً مختلفاً . صحيح ان التغير لم يظهر فجأة او دفعة واحدة ، لكن العين الفاحصة المدققة ، ومن يعرف محمد عيد قبل سنتين او ثلاث سنوات ، ومن يراه الآن ، يكتشف هذا التغير ويفاجأ به .

ووداد التي لم تطق موران ولم تتآلف معها ، بل ووقعت في المرض عدة مرات ايضاً ، وقد بذل الحكيم جهوداً كبيرة لمعالجتها ، وحار في اسباب المرض او كيف يتغلب عليه ، وان كانت ، غالباً ، ما تستعيد صحتها باعتدال الجو ، خاصة بحلول الخريف او الشتاء ، او خلال زيارة بعض الاقرباء ، فقد توصل الحكيم الى قناعة مؤكدة « ان مرض الحنين الى الوطن لم يفارقها يوماً واحداً ، وان كانت تحاول ان تتجاهله او ان تنساه » .

وخلال هذه الفترة توثقت علاقات وداد بنساء القصر وشغلت نفسها عن المرض ، او التغلب عليه ، كما اكد لها الحكيم ، وهو يحاول ان يشرح لها امكانية الانسان على التكيف . أما حين اقترحت عليه ان تقوم بزيارة الى دمشق وبيروت ، وقد حصل هذا بعد ايام قليلة من عيد الجلوس، واشارات الى ان زوجة السلطان اوصتها على عدد من القطع الذهبية ، وعلى بعض الحاجات الاخرى ، اضافة الى ضرورة تأمين ملابس للاولاد ، خاصة لغزوان وسلمى ، فقد وجد الحكيم ان زيارة من هذا النوع مفيدة من وجوه كثيرة . كما ان فترة الشهر ، وهي الفترة التي قد تقضيها في الزيارة ، كافية لتجهيز قصر الحير والانتقال اليه ، وكان الحكيم يريد ان يفاجئها بهذا الانتقال ، ولا بد ان تتغير كثيراً ، حالما تجد نفسها في وضع افضل . الخشية الوحيدة التي يخشاها من هذه السفرة « التعب الذي قد يزعجها ويؤثر على صحتها » ، أما حين اكدّت له انها لم تتعب في السفرة الماضية، وان تغيير الهواء سوف يعيد اليها شبابها وصحتها ، وضحكت بصوت عالٍ ، فلم يتردد في الموافقة .

وموران تغيرت ايضاً خلال هاتين السنتين . صحيح ان هذا التغير

بسيط ، او بالاحرى لم تتوضح معالمه تماماً ، لكنـه كان بمثابة اشـارة شديـدة الدلالة لما ستكونه في المستقبل . فالشوارع العـريضة التي شُقّت وسط المـدينة وعلى اطرافها ، ثم الاراضي التي الحقت بقصر الغدير ، والكميات الهائلة من مـواد البناء التي تـراكمت في الجهـة الجنـوبيـة ، وتلك الاعـداد الكبيـرة من المهندسين والفنيين ، اضافة الى مجموعة كبيرة من الخرائط والمصورات ، والتي بدأت تنتقل من مكان الى آخر ، من مكتب لآخر ، كل هذه الامور تدل على التغير الذي حصل ، وذلك الذي تنتظره موران .

في بداية الصيف خيم على قصر الحير جو مشحون من التوتر والانتظار ، اقرب الى الحزن ، فقد تقرر ان يغادر غزوان الى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته هناك ، على ان يقضي اسبوعاً او اثنين قبل السفر مع العائلة في المصيف . وهذا القرار الذي اتخذه الحكيم بنوع من الحزم الظاهر، وحاول ان يضفي عليه البساطة المبالغ فيها ، كان يخفي وراءه مرارة لا حدود لها . فالحكيم يرى في غزوان شبابه وخليفته ، ويريده ان يبقى قريباً منه لكي يكتشف كل تجاربه في هذه الحياة ويطلعه عليها ، وكان يريده ايضاً ان يبقى قريباً من الاجواء الكبيرة والرجال العظام ، لان ذلك سيفتح له طريق المستقبل ، ويساعده على الوصول بسرعة اكبر .

في لحظة صعبة ، لكنها ضرورية ، وتشبه العملية التي تجري للمريض ، اتخذ الحكيم قراره بالموافقة على السفر ، رغم ما عاناه من صعوبة ومرارة ، واعلنه، وغزوان الذي كان يحلم بالسفر الى اميركا ليل نهار، شعر بالرهبة او ما يشبه الخوف حين اعلن ابوه هذه الموافقة : انه لاول مرة يترك العائلة والى مكان بعيد لدرجة ان اياً من افراد العائلة ، او الاقارب ، لم يصل اليه من قبل .

ايام عديدة من الاستعداد والتوتر ، ومع اقتراب يوم السفر يزيد الانفعال . أما عندما رتب الحكيم زيارة لابنه من اجل وداع السلطان ، وتمت هذه الزيارة ، فقد شعر بمرارة الفقد وصعوبته اكثر من اي وقت سابق . وعندما قرر جلالته ان تكون دراسة غزوان وتكاليف سفره واقامته هدية منه ،

فلم يتمالك الحكيم نفسه من اخفاء دمعة سقطت من عينيه دون ارادة .

ومما زاد في مشاعر الفقد والمرارة ان الحكيم لا يستطيع ان يرافق العائلة الى المصيف هذا العام . لان الاعباء تتزايد ومهمات كثيرة تنتظره ، كما ان العجرمي الذي سافر للحج وطالت سفرته، وكاد الحكيم ينساه ، رجع مجنوناً اكثر من السابق ، واصبح تحريضه وهجومه لا يتوقفان يوماً واحداً ، الأمر الذي جعل الحكيم متردداً ثم خائفاً . ولم ينتظر طويلاً لكي يصرف النظر عن فكرة السفر نهائياً ، قال لنفسه بنوع من التعزية : « من الحماقة ان يترك الانسان بناءً بناه بعرقه وسهر الليالي ، لكي يهدمه الآخرون . أما بعد ان أطمئن فيمكن ان اذهب الى اقصى مكان في الدنيا دون خوف ، وعند ذاك سيكون لدي وقت للاصطياف والاستجمام والكتابة ايضاً » .

في اليوم الأخير قبل السفر ، ود الحكيم لو يرابط في البيت ، وان يكتب مجموعة من الوصايا لكي تكون هادياً ومرشداً لغزوان في غربته ، ان يقول له اشياء كثيرة ، كيف يجب ان يتصرف ويفكر ويعيش ، واي اصدقاء يجب ان يرتبط بهم ، لكنه لم يجد في نفسه القدرة او الميل في مثل هذه الساعة ، ولذلك تظاهر بالانشغال ، وكأنه يواصل عملاً يومياً ، وبالغ اكثر من ذلك ، اذ تأخر ظهراً اكثر مما تعود ، أما عند العصر ، لحظة انكسار الشمس وبداية الرحلة ، فقد انتحى الحكيم بابنه ، وبطريقة حزينة ، لكنها فخمة ، قال له ، وخرجت كلماته مضطربة :

ـ لا اريد ان اوصيك يا غزوان ، اصبحت رجلاً وتعرف كيف تتصرف ، واذا كان للعائلة امل فقد وضعته فيك ، وصاحب الجلالة الذي تكفل بمصاريف دراستك ونفقاتك كلها لن ينساك ، ومع ذلك فهذا المبلغ ـ ودفع اليه مظروفاً مغلقاً ـ قد تحتاج اليه وقد يساعدك على نوائب الزمن !

وقبّله ثلاث قبلات كما قبّل أخوته ، ووقف عند الباب فترة اطول مما تعود، ظل واقفاً الى ان غابت السيارة عن ناظريه .

غزوان الذي ظل متماسكاً ، قوياً ، وتكلم كرجل ، وسلم على ابي عبد الله ومازحه ، وكذلك فعل مع محمد عيد ، لم يقو على ان ينتظر طويلاً

ليعـرف المبلغ في الظرف المغلق ، فما كادت مـوران تصبـح وراءه حتى فض المغلف ، وبمهارة وسرعة عرف انه الف دولار ، وكانت مع المبلغ رسالة ، قرأ فيها :

« فلذة كبدي . . . غزوان .

هذه اول رسالة اكتبها اليك ، سوف تتذكر هذه الرسالة فترة طويلة ، وقد تحـدّث اولادك عنها . لا ادري لمـاذا اتصورك وقـد اصبحت بعيـداً ، بعيـداً جداً ، حتى قبل ان تسافر ، اشعر بمرارة فراقك ، واشعـر اكثر من ذلـك اننا تسرعنا ، انا وانت ، في اتخاذ هـذا القرار ، لكن مثلما فعلت اشيـاء كثيرة في حياتي ولم اندم عليها ، احس ان هذا القرار سيكون من جملتها . انا اثق بك ثقتي بنفسي ، واعتمد عليك كما اعتمد على رجل كبير وواعٍ ، فارجو الا تخيب ثقتي ، وان تكون عمادي واعتمادي الآن وفي المستقبل .

بودي لو اكتب اليك الكثير الكثير في هذه الرسالة ، لكن اشعر ان قلبي لا يسعفني ولا يـطاوعني الآن . سوف اكتب اليـك في المستقبل بكـل تـأكيـد ، وسوف تكون افكاري اكثر صفـاء ووضوحـاً ، ولا بد ان تكـون رسائلنـا من الكثـرة والطول بحيث يحـدّث الواحـد منا الآخـر عن كل شيء يفكـر فيه او يتمناه . أما الآن وانت تسافر فاريد ان اقول لك بضع كلمات :

اهتم ، يا ولدي ، بصحتك ، فالصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى ، وانا الـذي افنيت حياتي في معـالجـة المرضى وتخفيف آلامهم ، اعرف ، اكثر من اي انسان آخر ، معنى المرض . ولذلك لا تتهاون أبـداً في الاهتمام بصحتك . وقد يكون زائداً ان اذكرّك بان الـدفء والغـذاء الجيد والنوم المبكر والرياضة المعتدلة ، كلها من العناصر الاساسية التي تجعل صحة الانسان جيدة ، فاحرص عليها بعقل واعتدال .

واهتم ، يـا ولدي ، بـالدراسـة ، فالأيـام التي نعيش فيها تعتمـد عـلى التحصيل العلمي ، لان هذا التحصيل سيمكنك من مواجهة اعبـاء المستقبل وتحصيل المال ، فالانسان دون العلم ودون المال لا يساوي شيئـاً ، مهما كـان اصله وعائلته .

واوصيك ، يا ولدي ، ان تختار اصدقاءك بعناية كبيرة ، وان تجرب الانسان مائة مرة قبل ان تمنحه ثقتك ،وحتى الثقة لا تمنحه اياها دفعة واحدة ، ولا حاجة لان اوصيك ان الاصدقاء ، في هذه الحياة ، قلة قليلة . يمكن ان يكون لك معارف كثيرون ، لكن الاصدقاء شيء صعب المنال ، فانتبه كثيراً لهذه النقطة واعتمد على تجارب الآخرين لئلا تدفع ثمن تجاربك .

واوصيك . يا ولدي ، ان تقتصد في مصاريف الحياة ، لان القرش الابيض ينقذ في اليوم الاسود . والحياة ، بصورة عامة ، قاهرة غدارة ، لا تطمئن الى اليوم وتنسى الغد ، ولا تضع مالك كله في سلة واحدة ، ولا تستدن ابداً ، واذا اضطررت ان تدين فاعط القليل واكتب بينك وبين من يستدين منك ، ولا تخجل ولا تغضب ، وحاول ، يا ولدي العزيز ، ان تبتعد عن المحرمات من المأكل والمشرب ، وابتعد ، خصوصاً ، عن النساء ، واذكر ربك في الصباح والعشية ، واذكر والديك ، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً .

حبيبي وقرة عيني غزوان

اكتب اليك هذه الرسالة وقلبي يعصره الالم ، ويتفطر من الحزن واللوعة ، وكأني اكتب وصيتي الأخيرة ، لكن يجب ان تفهم قلب الوالد ، وان تتذكر كم تحملنا وتعذبنا انا والوالدة حتى اصبحت رجلاً هكذا ، فلا تنسَ ، والى ان نلتقي مرة اخرى ، وارجو ان يكتب الله لنا ذلك قريباً ، اكتب الينا كثيراً ، لان الكتابة ، كما يقولون نصف المشاهدة .

ولك من والدك المحب المشتاق كل الخير والبركة والتحيات .

والدك

وسافر غزوان ، وبدأ الحكيم ينتظر

وقبل اسابيع قليلة من سفر عائلة الحكيم ، لتبقى هناك الصيف كله ، سافر مطيع ايضاً ، لكن قبل ان ينقضي الصيف عاد ومعه عروسه ، وقد رافق عودته الكثير من الحفاوة والدعوات . وتفضل السلطان ، كتعبير عن المودة ، فاهدى اليه سيارة جديدة ، واهدى لزوجته عقداً من الماس قُدّر تقديرات مختلفة ، لكن اتفق الجميع على انه هدية ثمينة . وبدا مطيع في هذه الفترة

انيساً ودوداً اكثر من الفترات السابقة ، وكان يطفح بالنشاط والمرح .

وخلال نفس الفترة سافر ابو مصباح ، لكن سفرته لم تطل ، او كما قال: «مشوار الطريق، لان صاحب الجلالة لم يأذن لي باكثر من ذلك». عاد ومعه زوجته وبناته الثلاث وابنه مصباح ، وعاد ايضاً بمجموعة من الطيور : ببغاء ، وعدد من الحساسين والكناريات ، وبعدد كبير من الالعاب ، ولم يعرف ما اذا كانت هذه الالعاب لابنه مصباح ام هدايا حملها لاناس آخرين . لكن الشيء المؤكد ان بدري الحلاق، هكذا اصبح اسمه الجديد ، بدا في حالة من الاشراق والسرور الى درجة ان الكثيرين الذين لم يروه من قبل او لم يعرفوا المزايا التي يتمتع بها اكتشفوا فيه انساناً خارقاً .

ومحمد عيد الذي رفض السفر ، او مجرد الحديث في الموضوع ، بالرغم من الحاح اخيه واقتراح زوجة الحكيم ، لانه لا يستطيع « ان يترك الحكيم وحده » ، والذي حاول ان يشغل نفسه بامور كثيرة ، كان قد فكر فيها من قبل واستعدّ لها، فما لبث ان وقع مريضاً في الأيام التالية ، ورغم ان الحكيم بذل جهداً كبيراً في فحصه ، واحاله الى اثنين من الاطباء ، الذين يعتمد عليهم في موران ، واجرى له تحليلات كثيرة ومعقدة ، الا انه لم يشخّص المرض ، ولم يستطع ان يصف له الا ادوية مهدئة ، وما كاد محمد عيد يرى هذه الادوية حتى قال للحكيم ، وهو يضحك من الالم والسخرية معاً :

ـ هذه ما هي كافية يا حكيم . . لازم لـي ابرة كمان .

وشاركه الحكيم الضحك ، لكنه قال وهو ينظر الى البعيد :

ـ ما عليك يا رجل . . . جرب هذه الادوية وعلى مسؤوليتي !

الببغاء وعصافير الحب التي حملها معه بدري المذلل في سفرته الأخيرة ، وجاء بها الى موران ، لانه لم يجد لها حلاً او مكاناً آخر ، شغلت القصر ، شغلت الصغار والكبار ، وخلقت من الاهتمام والضجة الكثير . وقد فُتن بها ابناء السلطان ، وبشكل خاص الاثنان الصغيران ، وطلبا الاحتفاظ بها . وابو مصباح الذي وافق دون تردد، رغم تعلق ابنه بهذه الطيور ، كان يتوقع لها نهاية سريعة ، « لان هذه الطيور تعودت على الفي والمي ، ولا يمكن ان تتعود على جو آخر ، وجو موران اذا وافقها اليوم يقتلها ثاني يوم ، وان تموت عند غيرنا احسن من ان تموت عندنا » هكذا قال لزوجته في محاولة توضيح سرعة موافقته على اهداء الطيور . الخشية الوحيدة التي جعلته متردداً في اهداء الببغاء تلك الكلمات غير اللائقة التي تعلمتها « الشيبة » كما كان يطلق عليها ، ولذلك اخرّ ارسالها لعدة ايام ، وبذل جهداً خارقاً في ان يعلمها كلمات جديدة بدل تلك التي تعرفها . لكن ما ان يزداد الحاحه في تلقينها « عاش السلطان . . عاش . . عاش » حتى يصفعه جوابها « يضرب هالكسم » فاذا حاول اكثر ترد عليه : « اخرس » . واخيراً لم يجد مفراً اما ان يبقى « الشيبة » في البيت او ان يهديها هكذا، ولان اولاد السلطان لم ينتظروا ولم يصبروا ، فقد قال لزيد الهريدي في محاولة لان يشرح موقفه :

ـ اولاد طويل العمر طلبوا الببغاء . . .

وبعد قليل :

ـ روحي اعطيها لهم، لكن اخاف من هذا الطير ان يسوي مشكلة .

ـ وكل الله يا رجل .

ـ يا ابو عمران . . هذا الطير غير مؤدب !

ـ غير مؤدب .

ـ لسانه فلتان .

وضحك زيد ضحكة صاخبة . تابع ابو مصباح :

ـ وبكرة اذا صار ما صار تقولون ابو مصباح .

ـ ويش يقول ؟

ـ يقول الزايدة والناقصة .

ـ لا . . . بالله عليك، ويش يقول .

ـ انا مالي علاقة ، اسأله واسمع جوابه !

ـ هاته وما عليك .

ـ بشرط . . .

ـ ما هو الشرط ؟

ـ ان صاحب الجلالة لا يعرف ولا يسمع . .

ـ وكل الله يا رجل . . . وتتصور ان البني آدم يحط عقله بعقل طير ؟

ـ اذا اخذت الموضوع على كفالتك ومسؤوليتك انا موافق .

ـ خلص . . ما عليك !

وانتقلت الطيور الى القصر ، الى جناح السلطان . واذ لم تلفت نظر صاحب الجلالة او ينتبه اليها خلال الأيام الأولى، فقد اصبحت تسلية لذيذة له في وقت لاحق . لكن لم يدر بهذه التسلية الا القليلون . اصبح صاحب الجلالة شديد الشغف بطيور الحب : يراقبها باهتمام ، يقضي ساعات وهو ينظر اليها كيف تتعانق، كيف تزق بعضها ، كيف تتشابك بمناقيرها وتتلوى .

كان يشجّعها ويحرضها ، وقد اطلق عليها اسماء من عنده ، وكان لا يتردد في ان يظهر بهجته حين يراها تقفز وتغرد . أما الببغاء التي بدت له شديدة الطرافة ، وتجنب في البداية ان يوجه اليها أية كلمات ، خوف ان ترد عليه كما ترد على الآخرين ، فلم ينتظر طويلاً حتى مازحها . لكنه فعل ذلك حين كان وحيداً ، ومرة او مرتين امام عدد محدود جداً من الاقارب ، وكانت مع الضحكة المجلجلة التي تصدر عن حنجرته الكبيرة الخشنة ، تصدر كلمات أقرب الى الشتيمة:

ـ الله يخزيك يا بومة البين !

وابو مصباح الذي تجنب في البداية الاشارة الى هذه الطيور ، خاصة الببغاء ، ما لبث ان فاض في الحديث حين سأله السلطان ذات مرة ، وابدى استعداده ان يؤمن للقصر مجموعة كبيرة ورائعة من الطيور النادرة ، الغريبة والجميلة ، وكانت استجابة السلطان سريعة ومتحمسة . فما ان انقضت بضعة شهور حتى اقيم جناح خاص في القصر ، وامتلأت الاقفاص الكبيرة بانواع متعددة من الطيور الصغيرة الملونة ، أما الببغاوات الافريقية الثلاث التي جيء بها فلم يُستطع ان يُفسّر صمتها او عزوفها عن تكلم اية كلمة ، قيل اول الأمر انها صغيرة السن ، ولن تمضي فترة الا وتتعلم ، وقيل بعد ذلك انها لن تتعلم ابداً اذا كثر المعلمون وتعددت الكلمات واساليب التعليم ، وقيل في وقت متأخر عندما مات واحد من الثلاث انها طيور مسنة ، ولا بد مائتة بين يوم وآخر ، ولذلك لا فائدة ترجى من محاولة تعليمها . والسلطان الذي سمع ما قيل ، وقد فكر في لحظات تجليه لو يصرف بعض الوقت ويهتم باحد الطيور الثلاثة ويعلمه ، لكن لم يلبث ان نسي الموضوع ، وان لم ينسَ الاهتمام المنتشي بعصافير الحب بشكل خاص ، وان يقضي ساعات كل يوم يراقبها ، ولم يتردد في ابداء اعجابه بها امام الآخرين .

تشاءم الحكيم ، الى حد التطير ، من دخول هذه المخلوفات الى القصر ، والى انشغال الجميع بها . أما الاوصاف التي بدأت تطلق عليها ، وسحب هذه الاسماء والاوصاف على البشر او العكس ، وما يرافق ذلك من النقاشات

الحامية والاسئلة والضحك والغضب ، فقد جعلت الحكيم اقرب الى الحدة والعصبية .

قال لمحمد عيد مازحاً :

ـ الله لا يعطيه العافية اخوك ، سوّى لنا عصفورية عن جد ، والجماعة كان ناقصهم عصفور حتى يطيروا . الافندي جاء وجاب لهم الف ، وتعالى هدّيهم وتفاهم معهم .

واضاف بعد قليل بمرارة ساخرة :

ـ صارت شغلتنا : طار الحمام . . . هدا الحمام . . والله يستر .

ومع طيران العصافير وتغريدها التمعت في ذهن الحكيم فكرة ، لا بل افكار ، ولا يعرف لماذا سها عنها او نسيها ، ولا يعرف لماذا سبقه هذا الثرثار اليها .

قالت وداد لزوجها ، في محاولة لتفسير اصطحابها لنادية بعد سفر غزوان :

ـ البنت تعوّدت علينا . . .

وبعد قليل ، وهي تنظر الى البعيد :

ـ ويمكن يكون نـصيبها في هذا البلد .

زفر الحكيم قبل ان يعلق :

ـ من اول يوم قلت لك يا وداد : العمر غير متناسب ، والزواج مبكر على غزوان .

ـ الله يسلمه راح ، ولا احد يعرف ماذا سيحصل معه .

واضافت بعد قليل :

ـ والبنات يكبروا قبل الاولاد !

والحكيم الذي نظر الى نادية في اليوم التالي نظرة جديدة اكتشف انها كبرت في غفلة عنه ، بدت في عينيه امرأة ناضجة ، شهية ؛ وتلك الطفولة التي قرّبتها منه أول وصولها الى موران ، لا تظهر آثارها الآن ، انتهت ، حلت مكانها نظرة متفحصة اقرب الى الجرأة ، أما الجسد اللدن الاميل الى الصغر الذي كان يميزها في السابق ، فقد اكتنز واشتد . قال الحكيم لنفسه واطياف كثيرة تعبر مخيلته : « هواء موران يَلْقح وينضج الاشياء قبل اوانها ، خاصة الفتيات »

وحاول ان يتذكر نادية من جديد ، وحاول ان يجد نوعاً من الصلة بين

النضوج الذي اكتشفه فجأة وبين جو موران . قال بنوع من الحزن « في الطفولة وبداية الشباب تلعب بعض المراكز دور الاكتناز، عدا مركز واحد فقط ، والذي يلعب دور الاستقطاب ، لكن في مرحلة لاحقة يفاجأ الانسان ان المراكز جميعها كانت نشيطة ، وكانت تعدّ نفسها ، ولذلك تظهر بقوة، وهذا احد اسرار الحياة » .

العين التي اكتشفت سر الحياة وعبقرية الطبيعة قبل الحكيم بفترة طويلة ، لكن دون اعلان ، دون ضجة ، ودون نظريات ايضاً ، هي عين محمد عيد .

فمنذ اللحظة الاولى ، عند وادي الرها ، احس ان نادية تعنيه وحده ، وانها جاءت من اجله ، أما الكلام الذي سمعه عرضا من وداد ان نادية يمكن ان تكون ذات يوم زوجة لغزوان، فقد رفض ان يصدقه او ان يقبله ، فنادية « اكبر » من ان تكون زوجة « لشوال اللحم » كما كان يسميه سراً ، وغزوان اصغر من ان يكون زوجاً او رجلاً ، هكذا كان محمد عيد يقول لنفسه في ليالي موران الطويلة، وهو يتقلب على فراشه في محاولة لان يتغلب على هواجسه ، ولان ينام .

الآن ، وغزوان قد رحل ، ونادية ، بعد رحلة الصيف ، تبدو اكثر نضجاً وفتنة وقد لوحتها تلك السمرة الشفافة الحافلة، يشعر محمد عيد ان المرض الذي انهكه خلال الصيف ، كان سببه غياب نادية . لم يقل ذلك لاحد ، ولم يعترف به لنفسه اعترافاً كاملاً او كلياً . كان يشعر ان موران التي تحملّها ، تحمل حرها وبردها ، وتحمل البشر والحياة فيها، رغم الصعوبة ، مدينة لا تطاق : قاسية عاتية ، ولا يمكن ان يعاش فيها . .

بعد ان عادت نادية ، وفي هذه الظروف المواتية ، يشعر محمد انه اكثر حيوية وصحة من اية فترة سابقة ، وأنه قادر على عمل اي شيء ، دون خوف ودون تردد . حتى نظرته الى الحكيم ، في هذه الفترة ، تتسم بمقدار اكبر من الثقة ورغبة التفاهم . وإذ شعر انه اخطأ وكان قاسياً مع اخيه حين قال تلك الكلمات حول الزواج والمرأة ، لا يعرف هل يكلّف اخاه بان يتحدث مع الحكيم ام يتولى الأمر بنفسه . ولا يعرف هل يتحدث مع نادية ، ان يشير اليها

بشكل ما ، قبل ان يحدث الحكيم ، أم يطرق الباب فوراً .

انه يحترق، لكنه ذلك الاحتراق اللذيذ العذب، والذي يحرضه اكثر مما يعذبه، فيجعله يواصل الليل بالنهار فقط ليفكر أكثر بنادية، ليراهـا، ليحسها قريبة منه ، ولذلك تذوب امامه الصعوبات وتسقط الحواجز . يكفي ان يراها كل يوم ، ان يسمعها عندمـا تضحك ، يحس ان دمـاءه تركض في جسـده ، تخضه تماماً ، تجعله سعيداً الى اقصى حد ، ومن اجل ان تبقى نادية ضـاحكة لن يتـردد في ان يفعـل اي شيء . كـان يقـول لنفسـه ، في لحـظات ضعفـه القصوى : « سوف احملها في عيني ، سوف اجعلهـا تضحك دائـماً » ويتيه في افكار اقرب الى الحلم : « واذا لم ترد موران لن نبقى ، سوف نرحل . أما اذا احبت ان تنام حتى ساعة متأخرة ، كما تفعـل في بعض الأيام الآن فيمكن ان امشي على رؤوس اصابعي ، كالقطة ، ولن اجعلها تنزعـج او تفز . وحـتى الحبـل واتعابـه ، ساحـاول ان اجعله خفيفاً » . ويضحـك بصوت عـالٍ ثم يضيف : « طبيعي لن احمل عنها ، لكن سـاجعل الـطفل خفيفـاً كالـريشة : سـاتولى اعـداد الطعـام . وغسل المـلابس وعمـل كـل شيء ، فقـد لتكـون مرتاحة » .

هكذا كان يفكر وهكذا كان يحلم . ونادية التي ملأت بيت الحكيم بهذه الحيوية الفياضة المعدية، ترى محمد عيـد واحداً من النـاس الذين لا تعـرف كيف تتعامل معهم : نادته منذ البداية : عمو ، لكن بـطريقة بارعة ، وفيها الكثير من المكر . قـال لهـا وقـال لاولاد الحكيم جميعـاً : اذا اردتم ان نبقى اصدقاء ، كلمة عمو لا احبها ، اتركوها . وغزوان الذي رأى، منذ البداية ، ان هذه الكلمة ثقيلة ولا يحسن تلفظها ، كان الاول والاكثر حـرصاً عـلى ان يناديه باسمه ، أما سلمى التي لا تعرف غـير كلمة عمـو ، والتي خرجت عن التقليـد الذي اراده محمـد عيـد ولم يغضب ، ظلت تفعـل ذلـك وحتى وقت متأخر .

كان يحس ان لاسمه وقعاً لذيذاً منعشاً على شفاه نـادية . كـان ينظر الى عينيها بطريقة معينة ، واكثر من مرة سألته بكثير من البراءة الملعونة :

ـ لماذا تنظر اليّ بهذه الطريقة ؟

وحين يرتبك تضحك ولا تنتظر جواباً !

ووداد احست في وقت مبكر بنظرات محمد عيد وطريقة تعامله مع نادية ، لكنها كانت على ثقة ان نادية مجرد طفلة، طفلة صغيرة لا تدرك بعد عالم المرأة. واذا تصرفت بطريقة اوحت لمحمد عيد بشيء ما، فان هذا الشيء لا يتعدى اعجاب الرجل بخفة دم طفل او طريقته في التصرف والكلام . أما غير ذلك فلا يمكن ان يكون . هكذا كانت وداد تقول لنفسها . وزيادة في التأكيد يروق لها بين فترة واخرى ان تطلب من سلمى الوقوف الى جانب نادية لكي ترى فرق الطول بينهما ؛ وعندما تكتشف ان هذا الفرق يتقلص ويذوب قياساً لفترة سابقة ، وعندما تعيد حساب عمر سلمى تتأكد اكثر ان الامر لعب اولاد !

ونادية التي اتاحت لها موران فترات طويلة من الفراغ ، ثم ذلك اللفح الدافىء الذي لا يتوقف ولا يهدأ الا خلال شهور الشتاء ، والذي ينضج الأشياء والاجساد بهدوء وخفاء ، جعلها تحس مبكراً ان جسدها يستجيب لها ويطاوعها ، فالثديان اللذان كانت تخجل منهما وتحاول اخفاءهما في البداية ، وتبالغ بعض الاحيان في طريقة اختيارها للملابس ، خاصة القمصان ، وتصرّ على أن تلعب مثلما يفعل الذكور، بدأت تتغير، فالجسد اكتنز قليلاً وبدا أكثر تناسقاً ، واخذت ترقبه باهتمام كل يوم . والثديان كبرا وتكورا ، بل بدآ يشرّعان رأسيهما بتحدٍ اقرب الى الاستفزاز ، وهي بمقدار ما كانت تحاول اخفاءهما سابقاً فانها تحرص الآن على ان يكونا اول نقطة مضيئة في جسدها ، وان يكونا اول ما يُرى فيه . أما الملابس التي بدأت تختارها بعناية فلكي تُظهر مواضع القوة والتحدي في جسدها . فالتنورة التي تظل تعالجها ساعات وساعات ، عند الوركين او تحتهما قليلاً ، كانت تريدها اقدر ما تكون على اظهار الانسكاب الفاتن لدوائر الجسد . أما الشعر الذي حرصت على ان يبقى طويلاً ومرسلاً ، فقد تفننت كيف تتركه، جموحاً صاهلاً في كل وقت . كانت تعرف كيف تحرك رأسها ومتى ، وكانت ، بعض الاحيان ، تربطه بشرائط ملونة فتبدو مثل طفلة كبيرة . ووداد التي كانت تراقب بعين يقظة كيف تعبث نادية بشعرها ، كيف تربطه يوماً وتحله يوماً ، كانت تقول لها بطريقة ناصحة :

ـ يناسبك اكثر ان تربطيه مثل سلمى .

وتهز نادية رأسها دلالة الموافقة ، لكن تستمر بنفس الاهتمام والحرص على ما تعتبره مناسباً لها اكثر .

هـل كانت نـادية تعّـد نفسها لتكـون زوجة لغـزوان ؟ هـل هي مقتنعـة بذلك، وهل كان الامر جدياً ؟

حتى وداد لم تكن متأكدة ، واذا ذكرت الامر في البـداية ، حـين انتقلت نادية الى بيت الحكيم ، او حين سافرت مع العائلة الى موران ، فانها لم تعد الى ذكره . اكثر من ذلك بدأ غزوان يتصرف بطريقة فيها من العداء اكثر مما فيهـا من التحدي . ونـاديـة التي شغلتها الفكـرة في البدايـة ، لكن تصورتهـا ايضاً بطريقة غامضة ومؤجلـة، ما لبثت ان اعتبرت غزوان ليس الرجل الذي تفكر فيه ، او تتمناه زوجاً، رغم مظاهر الرجولة التي كـان يحـرص عليها الى درجة التقديس ، ويحاول ان يتصرف ويعمل كل ما من شأنه ان يجعله بنظر الآخرين رجلاً . فالمرات التي حاول استعمال آلة الحلاقة الخاصة بابيه ادت الى مجموعة من الجروح في وجهه اكثر مما ساعدت على اثبات شاربيه . أما البدلات الثلاثة التي اوصى له ابوه عليها عند حسان سنجر قبل سفره ، فقد اصّر ان تكون لكل بذلة صدرية . وعندما ابتسم حسان سنجر وشـاركه الحكيم الابتسـام ، واشار بسرعة الى ان الصدرية لا تناسب عمره ، « وانها دقة قديمة » لم يقتنع غزوان ، قال في محاولة للتبرير :

ـ والبلد اللي رايح لها ، يا بابا ، باردة جداً . . قريبة من القطب .

وطلب الحكيم من الخياط ان يوافق على الصداري ، وفي محاولة لان يدعم رجولة غزوان المبكرة قال :

ـ معه حق غزوان . البلد هناك يحتاج الى اكثر من صدرية !

بعد شهـر من اقامته في سان فرانسيسكو جاءت منه الرسالة التالية :

والدي العزيز

اقبل يديك الكريمتين ، راجياً الله عز وجل ان يجعلك وجميع افراد العائلة

في اتم صحة واحسن حال ، أما بعد ، فلا يسعني يا والدي العزيز الا ان ابشّرك بوصولي الى الولايات المتحدة الاميركية بصحة جيدة ، وقد كانت لمساعدة حسان الجوخدار ، صديق عمو راتب ، الذي سافر معي على نفس الطائرة فائدة كبيرة ، ورغم انه كان يريد البقاء اياماً في هيوستن ، الا انه اجّل ذلك الى حين العودة ، وبقي معي في سان فرانسيسكو ثلاثة ايام ، وبعد ان اطمأن على اوضاعي ودعني وسافر ، له مني كل شكر وتقدير .

والدي العزيز ، امي الحنونة .

الأيام الاولى ، بعيداً عنكم ، كانت صعبة ، ولهذا السبب اجلّت الكتابة اليكم اكثر من مرة ، لكي لا تأخذوا فكرة سيئة عن ابنكم غزوان . أما الآن ، وقد تعودت على المدينة والحياة ، وتعرفت على بعض العرب المقيمين ، اجد ان الحياة مريحة ، والدراسة ، رغم صعوبة اللغة واختلاف المنهاج ، اصبحت اسهل بالنسبة لي ، وسابذل جهداً كبيراً لكي انجز الصف التمهيدي ، وعندها سوف اكون حراً في اختيار الفرع .

في سان فرانسيسكو لا يوجد غيري سوى طالب آخر من السلطنة ، وقد فهمت ان اباه مقيم منذ سنوات في مصر ، وانه لم يزر موران منذ اكثر من سبع سنوات ، وعن طريقه حصلت على العنوان الجديد للسفارة ، وقد بعثت فوراً رسالة السيد السفير ، وضمنتها تحياتك الشخصية ، يا والدي العزيز ، ولم اشر الى الراتب الا بشكل عرضي للغاية ، فقد ذكرت لهم اني فتحت حساباً في بنك سيتي بنك ، وذكرت رقم الحساب ، وعلى فكرة ، يا والدي ، وضعت الالف دولار في حساب غير قابل للسحب الا بعد سنة ، وبهذه الطريقة ستدفع لي فائدة ، والجميع يفعلون ذلك هنا ، وامس بالضبط تلقيت من مساعد القنصل رسالة جوابية ابلغني ان السفارة تلقت التعليمات بابتعاثي على حساب جلالة السلطان وستقوم بتحويل راتبي الشهري على حسابي في البنك .

الطقس جيد ، رغم الامطار ، والكلية في بداية الفصل الدراسي القادم ستؤمن لي سكناً في الحي الجامعي ، وهذا السكن سيكون ارخص واقرب بحيث استغني عن المواصلات .

والدتي الحنونة

كم انا مشتاق لك والى اخوتي ، وقد تذكرت كثيراً الأكـل اللذيذ الـذي تحضرينه وانا آكل هنا لحماً نصف مشوي ، لكن ، مع ذلك اطمئني. اكتبي اليّ وقولي للجميع ان يكتبوا اليّ ، واعتبروا هـذه الرسـالة مـوجهة الى كـل واحد منكم .

في الختـام تقبل يـا والدي العزيز، ويـا والدتي الحنـونـة قبـلاتي الحـارة واشواقي . وسلموا لي على كمال وحامد وسلمى ونادية ، وعلى رضوان ومحمد عيد وابو عبد الله ، وكل الاهـل والاصحاب بـطرفكم واكتبوا اليّ وادعـوا لي بالتوفيق .

ولدكم المحب المشتاق

غزوان

ملاحظة :

رغم شوقي اليكم قد لا استـطيع المجيء خـلال الصيف القادم ، فقـد سمعت من بعض العـرب المقيمين ان كثيـراً من الـطلاب يعملون خـلال الصيف ، وهذا العمل بقصد التعرف واكتساب الخبرة اكثر مما هو لجمع المال . هذا ما افكر فيه ، وساكتب لكم . تحياتي .

بكت وداد والحكيم يقرأ الرسالة بتأنٍ وفخامة ، بكت بصمت ، وقد رآها الاولاد تبكي فخجلت وحاولت ان تضحك . فاختلطضحكهابدموعها وبدت مضحكة ، خاصة عندما قال الحكيم بطريقة استعراضية :

ـ الله يصلحك يا ام غزوان . . الولد راح من اجل العلم ، ما راح على الحرب .

ـ يا حبيبي ، يا غـزوان ، كيف تأكـل ، كيف تغسل مـلابسك ، كيف تنام ؟

ـ وعليه الصلاة والسلام قال : اطلبـوا العلم ولو في الصـين ، واميركـا صارت قريبة ، واذا لم يأت في الصيف انا وانت نزوره .

ـ هذا وعد ، لا تنس ، ولا تشغل نفسك بالف شغلة وشغلة في الصيف !

ـ لا خلص ، هذا وعد .

وضحك. والأولاد الذين نظر بعضهم في وجوه بعض، ابتسموا وتساءلوا وسافروا ، كانوا اقرب الى الانفعال، لكنهم ظلوا صامتين. أما نادية التي احست ان غزوان اصبح بعيداً . بعيداً جداً ، وانه لن يأتي في الصيف القادم ، فقد شعرت بحرية ، لكن شعرت بخوف ايضاً . صحيح انها لم تكن تميل اليه ، وتعتبره خشناً ، وقد لا يحبها ، لكنها الآن ، لا تعرف حقيقة عواطفها !

الوحيد الذي فرح فرحاً لم تشبه المخاوف والظنون هو محمد عيد ، فبعد ان ابلغه الحكيم ان غزوان يهديه السلام ويسأل عن احواله وصحته، حاول ان يعرف المزيد من اخباره ، لكن الحكيم اجمل الاجابة بكلمة واحدة : عال . . والحمد الله . ولذلك توجه محمد عيد الى الصغار ، قال لنفسه وهو لا يخفي ابتسامته : « خذوا اسرارهم من صغارهم » وعرف من الصغار كل ما ذكره غزوان في رسالته ، واضافوا الى ذلك صوراً وافكاراً زينها لهم خيالهم ، فبدا اكثر اطمئناناً وفرحاً ، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة عن السابق .

ما كان الحكيم ليتذكر رضائي ، او ليخطر بباله لو لم يره امامه ، اذ بعد ان ابتعدت ايام حران غاب الرجل وغابت صورته واخباره ، خاصة وان مخاوف الحكيم من منافسته او علاقاته كانت صغيرة وآنية . أما الآن وهو يراه من جديد ، وفي موران بالذات ، فقد تساءل ثم امتلأ بالهواجس .

أما بعد ان انفض الضيوف من حفلة العشاء التي أقامها الحكيم لرضائي ، فقد قال لنفسه « لو سافرت مع السلطان وجاء رضائي في غيابي لخرب الدنيا وأكل الاخضر واليابس » .

اثناء الزيارة الاولى ، ثم في حفلة العشاء ، تبادلا احاديث طريفة وشائقة لهما وللآخرين عن حران : كيف كانت وكيف هي الآن ، وعن الامير خالد وبيت الامارة . ورضائي الذي تحدث طويلاً عن مغامراته ، منذ ان وصل الى حران اول مرة ، وكيف ظل متردداً في المجيء اليها والاقامة فيها ، لأنها ليست مثل المدن الاخرى التي عرفها في اسفاره الكثيرة «حتى الهواء الذي يأتي عذباً منعشاً من ناحية الغرب والجنوب في معظم الاماكن التي عرفتها ، وحتى في البحر ، فانه في حران شيء آخر » أما عندما استعرض الاثنان محاولات التشجير التي قام بها الاميركان ، وغيرهم ، من اجل ان يكون في المدينة عرق اخضر ، وكيف ماتت الاشجار الواحدة بعد اخرى ، فالشجرة التي لم تمت من الجفاف ماتت بعد ذلك من الرائحة الخانقة ، او من تلك الغازات التي تتسرب من المصافي ، فقد اتفقا ان حران مدينة صعبة ، وان لا احد يستطيع الاقامة فيها الا اذا كان مضطراً !

أما حين استوضح الحكيم رضائي ما اذا كان يريـد الاقامـة في موران ام لا ، فقد اجابه بشيء من الغموض . قال انه جاء لدراسة امكانية تأسيس فرع لشركته ، ولمعرفة الناس والجو ، وسوف يقرر بعد ذلك ؛ وحين ابتسم الحكيم وهز رأسه دلالة الموافقة او التفكير ، اضاف رضائي في محاولة لان يتقدم خطوة الى الامام :

- يبقى جو موران ، رغم حرارته ، ارحم من حران !

وافقه الحكيم مجاملاً ، لكن مع ذلك ظل خائفاً ، اذ رغم ان الاثنين كانا اصدقاء حتى اللحظة الأخيرة في حـران ، وظل كـل منهما يهتم بـامور لا تعني الآخر، فان موران غير حران ، ولذلك بدا الاثنان متحفظين ، وكأن الواحد لا يريد ان يشاهد الآخر هنا ، أو لا يريد ان يتعاون معه .

بعد زيارات المجاملة غاب رضائي ، وبغيابه شعر الحكيم بالراحة ، قال لنفسه « مشكلة اقل . . احسن » . أما رضائي الذي يعرف متى يغيب ومـاذا يفعل ، فقد غاب فقط عن نظر الحكيم، لكنه لم يغادر موران خلال الصيف كله . أما كيف وصل الى الامير ميزر ومن عرّفه عليه وكيف قامت هذه الصلة الوثيقة بين الاثنين ، فقد ظلت سراً مغلقاً بالنسبـة للحكيم ، اكثر من ذلـك فوجيء بها تماماً .

ففي الأيام الاولى من الخريف وصلت الى قصر الروض سيارة روز رايس بلون اللوز اليابس ، كبيرة ، جميلة ، مجهزة بتلفون سيّار وطاولة مكتب . وكان مقعدها الخلفي متحركاً بحيث يمكن تحـويله الى سريـر ، اضافـة الى التبريـد وبوصلة تحدد اتجاه الكعبة .

كانت السيارة شيئاً انيقاً فخماً الى اقصى حد . وزيد الهريدي الذي استلم السيارة نيابة عن السلطان ، ابدى دهشـة بلغت حد العجب ، اثنـاء ما كـان يحرك الازرار في مسند المقعد الخلفـي . كان الزجاج الفاصل بين المقعدين يتحرك ، وكان المكتب يمتد مثل اللسان ، أما حين فتح جهاز التبريد الى اقصاه واستراح في المقعد الخلفي فقد سمعه اثنان كانا يجلسان امامه يقول « لا المانيا ولا شتاء جبل سمعان » .

مع السيارة رسالة صيغت بعناية تتضمن دعـوة رقيقة ان يتفضـل القصر بـايفاد احـد موظفيـه لافتتاح « معـرض الشرق للسيـارات » ، حيث سيكون الافتتاح يوم الاثنين ، العاشر من جماد الآخرة، السـاعة التـاسعة وارفقت بـالرسـالة ايضـاً مجموعـة من الكتـالـوجـات الجميلة الملونـة تضمنت صـوراً للسيارات ، وصورتين لرضائي واحدة امام باب المعرض والثانية وراء مكتبه في الداخل .

ولم ينسَ رضـائي ان يدعـو عدداً من رجـال القصر ، كان عـلى رأسهم صديقه الحكيم . تمت الدعوة برسالة قصيرة هذا نصها :

« الصديق العزيز الدكتور صبحي المحملجي المحترم ، ادامه الله .

ارجو ان تتقبلوا تحياتي الاخوية الصادقة، المشفـوعة بـاسمى التقديـر ، وبعد .

فقد توكلنا على الله ، وبتشجيع الاخوة والاصدقاء ، ونتيجة معاضدتكم الاخوية ، قررنا الاقامة في موران ، وتقديرا منا لمشاغلكم الكثيرة والهامة ، لم نحاول ان نثقل عليكم خلال الفترة الماضية . أما وقد استقر رأينا على افتتاح معرض لتجارة السيارات ، فانه لمن دواعي الشرف والسرور ان تشرفونا يـوم الافتتـاح ، العاشر من جمـاد الآخرة، السـاعة التـاسعـة . وبحضـوركم يتم سرورنا .

وتقبلوا ايها الصديق العزيز كل المودة والتقدير » .

اخوكم
محمد علي رضائي

حين استلم الحكيم الرسالة ، وسمع باللغط الذي يدور في القصر حول السيارة الجديدة التي وصلت ، قال بغيظ لم يخفه :

ـ ابن الحرام ماسوني . . لا يعطـي سره لاحد !

هل ما قام به رضائي سر الى الدرجة التي جعلت الحكيم يتصور ذلك ؟ هل تخفى وابتعد الى درجة ان احداً لم يره ولم يعرف ماذا يفعل ؟

صحيح ان العمل لم يتوقف خلال الصيف كله من اجل اعداد المعرض ، لكن الشكوك والتفسيرات حول المحل كانت كثيرة . اذ بعد ان اصبح رضائي وابن الدخيل شركاء ، وانتشر خبر الشراكة والشركة في السوق ، لم يعرف احد اي نوع من التجارة سيمارسه الاثنان ، فابن الدخيل الذي كان يتاجر بالسكر والطحين، واحياناً بالتمر ، لم يقدر احد ان يتحول الى تجارة السيارات ، أما رضائي ، فقد قيل عنه في البداية أنه صائغ، وقيل انه تاجر حرير وسجاد ، وعندما بدأت تصل السيارات ملفوفة بقماش سميك وتدخل مباشرة الى المستودع ، فقد تأكد الكثيرون ان الرجل يتاجر بالأثاث والاخشاب .

التفاوت الكبير والاختلاف البّين اللذان جعلا الناس يجتهدون ويختلفون حول التجارة التي سيمارسها الشريكان الجديدان ، كانا نتيجة النصيحة ، بل نتيجة الطلب الحازم الذي صدر عن الامير ميزر ، قال لرضائي ، وابن الدخيل يسمع :

ـ جماعتنا وحنّا ادرى بهم ، مثل السعادين ، ويش يسوي كبيرها كلها تسوي مثله ، ولذلك لا تقولوا شي ابداً ، وبعد ما يفتح المعرض وتصل السيارات ويشوفونها بعيونهم ، كل واحد يقول يا ليتني سويت قبلهم ، مثلهم .

رد ابن الدخيل وهو يهز رأسه مؤيداً :

ـ الصواب ما تقوله يا طويل العمر ، وجماعتنا قالوا من قبل : اذا نويت لا تعلّم بطاريك .

أما عندما وصل ثلاثة من المهندسين الأنكليز ، وانكبوا في الأيام الأخيرة ، قبل افتتاح المعرض ، على العمل ، وبدأت السيارات تخرج الواحدة بعد الاخرى ، وبعد دورة سريعة في موران ، تعود لتأخذ اماكنها في المعرض الكبير ، وراء الواجهات الزجاجية ، فقد ابدى الناس اعجابهم الشديد، ونظر بعضهم الى بعض ونظروا الى تخميناتهم او الى ما سمعوه حول الشركة الجديدة وابتسموا !

في يوم الافتتاح انتدب زيد الهريدي ممثلاً عن القصر ، وجاء هو والحكيم

في سيارة واحدة، مما خلق التباساً لدى الكثيرين ايهما ممثل السلطان ، أما بعد ان قُصّ الشريط الحريري ايذاناً بافتتاح المعرض ، فقد بدا المشهد رائعاً ، ليس في شارع الروض، او في السوق كله فقط وانما عمّ موران كلها. خاصة وان ابن الدخيل اقترح خروج السيارات كلها في جولة بموران ، وقد استجاب له رضائي بشيء من التردد ، لعدم وجود السواق ، لكن ابن الدخيل كان قد اعدّ للامر عدته ، مستعيناً بعدد من اولاده واقاربه . ويتذكر الكثيرون ذلك اليوم في موران عندما سارت خمس وعشرون سيارة انكليزية الصنع في الشوارع وقد فتحت ابواقها ، وامتلأت باعداد كبيرة من الرجال والصبية .

قال شمران العتيبي ، وقد سمع هذه الضجة من بعيد، ثم جاء من يخبره :

ـ تذكروا هذا اليوم زين يا اهل السوق ، لان له ما بعده ، تذكروه ولا تنسوه ، لان بعد هذا اليوم ما لكم خبز بخيلكم واباعركم !

وهذا ما وقع بالفعل ، وخلال فترة اقصر بكثير مما قدر شمران ، فبعد ان كانت الصقلاوية او الحمدانية عنواناً للثراء والوجاهة، وتُشترى الواحدة بمبالغ كبيرة ، وكذلك الابل الطيبة ، فقد تحوّل الناس بين عشية وضحاها . اصبحت السيارة شعار المرحلة ، واصبحت اهمية الشخص وموقعه يتحددان بالسيارة التي يركبها او بعدد السيارات التي يملكها .

قبل هذا التاريخ كان القصر وحده ، وعدد محدود جداً من الاغنياء ، هم الذين يوصون على السيارات من بيروت ، وحين تصل هذه السيارات، وقد قطعت الصحراء كلها ، لا تكون مغبرة فقط ، ومليئة بالاتربة والغبار ، بل وتكون قد تعبت واصبحت ، بمظهرها ، اقرب الى القدم . الآن ، والناس يرون السيارات ملفوفة بصناديق خشبية او مجللة بقماش سميك، وتأتي محمولة ، لتفك عنها صناديقها او شوادرها ، وتخرج وكأنها الاسماك التي غادرت المياه لتوها ، بلمعانها ونظافتها ، وتلك الرائحة الخاصة التي تميزها ، سواء من الداخل او الخارج ، عند ذاك لا يبقى احد في موران الا وتراوده نفسه بشكل ما ان يحصل على سيارة وباسرع وقت .

ورضائي الذي رفض ان يبيع من السيارات سوى تسعٍ ، « لان السيارات الباقية للعرض فقط ، ويمكن لاي مشترٍ ان يحدد النوع او العدد الذي يريد ويسجل ويدفع نصف المبلغ ، وبعد شهرين الى ثلاثة شهور يتم التسليم» وهذه الطريقة التي لم يألفها أهل موران أثارت من الاستياء والاستغراب الكثير ، حتى بالنسبة لابن الدخيل نفسه . فقد جاء عدد من المشترين وابدوا استعدادهم ان يدفعوا مبالغ تفوق بكثير ما يطلبه رضائي ثمناً للسيارة، على ان يتم التسيم فوراً . وازاء الرفض ، او عدم الرغبة بالمفاوضة حول اسعار اعلى ، تعرضت الشركة في ايامها الاولى لهزة كبيرة ، وكادت تنتهي «لأن المعرض لا يمكن ان يبقى فارغاً . . والناس لا تشتري سمكاً في البحر » هكذا قال رضائي ؛ أما ابن الدخيل فكان يصرخ « يا ابن الحلال ، الناس كلها شافت السيارات ، واللي ما شافها في المعرض يشوفها تدب في السوق ، ويدفعون فوق ما نطلب مرة ومرتين ، وبعدها نقولّهم : يا عباد الله هذه السيارات ما هي للبيع ؟ » ولم يحسم هذا الخلاف الا الامير ميزر ، فقد افتى بان تبقى في المعرض سيارة واحدة من كل نوع ، بغض النظر عن حجمها ومزاياها ، وان تباع الباقي . وهذا ما حصل بالفعل ، وهذا ما دعا رضائي لان يسافر على عجل ، للتعاقد على كميات كبيرة وانواع اخرى .

لم يستطع الحكيم ان يقدم ملاحظة حول السيارة ، والذي بلغ اعجاب السلطان بها حداً كبيراً ، سوى « ان لونها لا يناسب هذه البلاد ، اذ لو خرج جلالته للقنص ، او لو ذهب في رحلة صحراوية لا يمكن تمييز لونها عن لون الرمال » أما في قرارة نفسه فكان شديد الغيرة والغيظ معاً ، فهذه السيارة القوية ، المتقنة الصنع ، والمجهزة بهذه الاضافات التي لا تخطر ببال ، لم يرَ مثلها من قبل ، قال في نفسه « اذا كانت المسألة مسألة تجارة فموران كبيرة ، أما اذا قرّب من القصر واعتبر السيارة سنارة فوالله لا سركّنه الى آخر ما عمّر الله » . اكثر من ذلك لام الحكيم نفسه انه لم يفكر بتجارة السيارات بما هو كافٍ ، كما لم يلفت نظره الى ذلك احد .

الآن ورضائي يسافر ويعرف بسفره ، قال لمحمد عيد بما يشبه اللوم :

ـ الف مرة وصيتك ، يا محمد ، خل عيونك مفتوحة ، والشي الذي يصير

رأساً بلغني به .

ولما تساءلت عينا محمد عيد ، ثم جاءت كلماته :

ـ خير . . انشاء الله ؟

رد الحكيم بنزق :

ـ موران كلها انطبلت بمعرض سيارات رضائي . . وانا يا غافل لك الله ، وانت لا من تمك ولا من كمك ، لا كلمة ولا خبر !

رفع محمد عيد يديه في الهواء بيأس وقال ساخراً :

ـ يا ابو غزوان ، بموران كل يوم الف مشكلة ، وما احلاني موجع راسك بالصغيرة وبالكبيرة .

وبعد قليل اضاف بلهجة جادة :

ـ وعندك يا حكيم من المشاكل ما يكفيك ويزيد !

قال الحكيم وقد شعر بالرضا :

ـ قبل كم يوم رضائي سافر . . واريد منك ان تخبرني اول ما يرجع .

ـ تؤمر يا حكيم .

واذا كان الحكيم متشوقاً لان يراقب كل خطوة يخطوها رضائي ويعرف ما فعله او ما ينوي فعله، فقد كان يخاف من سفراته وغيابه اكثر مما يخاف من وجوده ، « لان هذا الابليس لا احد يحزر عليه » .

وجاءت اشغال طارئة صرفت الحكيم عن التفكير برضائي ، لكنه لم ينسه تماماً ، اذ كان يخطر بباله بين يوم وآخر ، ويتذكره لسبب او لآخر، وكان يستعد لاختيار طريقة مناسبة لكي يحاربه او على الاقل لكي يطوقه .

يفكر محمد عيد ، في لحظات معينة ، خاصة وهو يتقلب على فراشه ، ان يعترف ويبوح ، او على الاقل ان يلمّح ، لكن ما يكاد يصل الى هذه الدرجة من القناعة والقرار ، وحين يلتقي بنادية في اليوم التالي ، وهي تحوم كالفراشة ، حتى يرتبك ، يتغير ، وكثيراً ما اخذ وجهه شكلاً حازماً اقرب الى التجهم ، فيتنازل عن قراره ، تضيع منه الكلمات، او لا يراها تليق بها ، وفي احيان اخرى لا يقوى على ان يقولها ، فيتجاوزها ، او يستبدلها بغيرها ، يستبدلها بكلمات عادية لا تعني شيئاً !

الأيام تتعاقب ، فالاسابيع وتليها الشهور ، ولا يعرف ماذا يفعل او كيف يتصرف ، أما الآن والصيف يقترب ، ومع اولى النسمات الدافئة ، الاقرب الى اللفح ، ومع التفتح المتفجر الذي يسيطر على الكائنات كلها ، ويجعلها تتحرك بخصوبة اقرب الى العنف ، فقد تحركت فيه دفعة واحدة : الاحلام والرغبات والمخاوف . . وقرر ان يحسم امره نهائياً .

لقد انتظر ثلاث سنين كاملة ، بايامها ولياليها ، يتقلب على نار لا تهدأ ، احتمل العذاب والسهر ، واحتمل الانتظار . الآن يريد ان يضع حداً ، ان يتصرف . لم يعد قادراً على الانتظار اكثر مما فعل . ولم تعد نادية مجرد حلم يمكن ان يبدده بالخوف او التردد . انها الآن طوفان تطوقه وتغرقه ، ولا بد ان يلتحم بهذا الطوفان وان يغرق فيه .

ولانه لم يسافر طوال هذه السنين ، فهو الآن ، ولاول مرة ، يحس ان

الارض ذاتها تتحرك ، ولا بد ان يتحرك معها ، ان يسبقها . لقد اكلته حران ، جعلته اقرب الى الحجر . ولانها كانت مليئة بهذا القدر الهائل من الحركة ، وكان البشر فيها يتغيرون ويتكاثرون ويتحركون مثلما يتغير الهواء ويتحرك ، فقد كان يشعر ان قوته بان يبقى ثابتاً ، ان ينزرع كالنخلة في هذه الارض المتحركة الخطرة . وموران التي كانت هادئة غارقة في الصحراء والسكون ، خلال السنة الاولى ، ما لبثت عدوى حران ان اصابتها وادركتها ، فاخذت تركض وتجّد في الركض ، لكنه هذا الركض الابله ، والذي يشبه ركض المعوقين او سباق السكارى .

يريد ان يتحرك الآن ، ان يسافر ، يريد ان يبقى سائراً حتى نهاية الدنيا . فاذا كان الحظ قد عاكسه في الماضي وانشد الى هذه الصحراء ، فلم يغادرها ولم يسافر ، فقد سافر في احلامه الى اقاصي الارض ورأى عدداً لا حصر له من المدن ، وقد حان الوقت لان يراها بعينيه . لن يسافر سائحاً وحيداً ضائعاً ، وانما سيضع نادية وراءه على فرس ويطير ، او سيركب واياها سفينة ويجوب البحار كلها . سيدهشان للامكنة والمدن ، وقد لا يصدقان انهما موجودان فيها ، وربما لن يعودا الى هذه الصحراء الملعونة مرة اخرى ، وسيلومها ، وربما ستلومه ، وهما في ظل شجرة ، في مكان بعيد ، لانهما لم يصلا الى هنا من قبل !

واية افكار واحلام اخرى ملأت لياليه في تلك الفترة الواقعة بين نهاية الربيع وبداية الصيف ؟ اية اغاني غناها لنفسه ، واية احلام حلم بها في ظهيرات موران وتحت شمسها ؟ واية بدايات واية نهايات بدأها واستعادها مرات ومرات ، لكي ينتقي ادق الكلمات واروعها واسرعها من اجل ان يبدأ مع الحكيم ؟

ان استعادة اي من هذه اللحظات يبدو مستحيلاً ، فتدفق الحياة وخصبها ، وذلك الحنان الذي بدآ يغزل خيوطه مع زيادة الحرارة ، ثم ذلك الركض المجنون لتغيير ترتيب البيت من اجل استقبال الصيف ، جعله يؤجل يوماً بعد آخر مكاشفة الحكيم . كان ينتظر اللحظة الاكبر والاكثر خصوبة ، وهذه اللحظة ما تكاد تتهيأ حتى يقطعها شهاب او غيمة . فهموم الحكيم تزيد

يوماً بعد آخر ، وتأخر رسائل غزوان ، ثم ذلك الصراع الذي بدأ يملأ البيت نتيجة توعك وداد ، وهرب الطباخ الهندي ، والبحث عن طباخ جديد ، كلها اسباب كافية لتأجيل النطق بهذه الكلمة الرائعة !

حتى نادية التي بدت اكثر فتنة بدخول الصيف ، بدت اكثر رقة وحناناً ايضاً معه ، ولذلك ان لم يقل تلك الكلمة الرائعة اليوم ، فان اليوم التالي سيكون اكثر ملاءمة. ووداد مع التوعك اصبحت اكثر حدة وانعزالاً ، فان كانت مفيدة ، ويمكن ان تختصر الكثير من الوقت سابقاً ، فأنها الآن اقل الاشخاص ملاءمة لهذا الامر .

مرت ايام ، تبعتها اسابيع . الزمن يتمدد بلا نهاية ليصبح تماماً كالصحراء . شعور محمد عيد بالايام والاسابيع متفاوت اشد التفاوت . انها طويلة لدرجة لا يتصور لها اية نهاية ، وقصيرة كأنها البرق حين تكون نادية قريبة . كل يوم ، بل كل ساعة ، وهو ينتظر نادية ، تعادل ايامه الماضية كلها ، ليس في حران وموران فقط ، بل وتلك الأيام التي يتذكرها منذ ان انفتحت عيناه على هذه الحياة .

وموران التي كانت محتملة مقبولة خلال الفترة الماضية ، وامكن له ان يتقبل كل ما حصل فيها ، فانها الآن ، مع بداية الصيف ، وتغير النوء، تحاصره وتخنقه ، فيشعر ان روحه زحفت من اصابع قدميه ، في رحلة مدمرة مجنونة ، الى ان وصلت الى رقبته ، ولا بد ان يختنق في لحظة ما ، اذا لم يبادر الجميع الى انقاذه ، اذا لم تبادر نادية بالذات .

الهواء الذي ثقل وكاد يقف ، يثقل على صدره . الحرارة الكاوية التي ملأت ذرات الغبار جعلت كل شيء خشناً معادياً ، أما الاستعداد الخفي والبطيء للسفر فقد اصبح بمثابة تحدٍ مباشر له . ويقسم ان لا يؤجل الأمر اكثر من ذلك : « غداً ، مهما كانت الظروف لا بد ان اقول للحكيم الكلمة واسمع جوابها » . فاذا جاء الغد وتأجلت هذه الكلمة ، كان يقول لنفسه باحتقار وهو يضع رأسه على الوسادة « بق الحصوة، يا منظوم ، وخلصنا » وتجول الحصوة في روحه ، تعذبه ، تجلده ، لكنه ينسى كل شيء عندما يسمع صوتها ، عندما

يراها تتخطر امامه. أما حين تبتسم ، حين تزقزق بالضحكة ، فان روحه تضيء وتشتعل ، فينسى . ينسى كل شيء . تكفيه هذه اللحظة بالذات .انها لا تتحدث ولا تضحك الا من اجله ، لكي يسمع .وحين تنتقل من مكان الى آخر ، فانها لا تفعل ذلك الا لكي يراها .

الاستعداد يتزايد من اجل السفر ، وروحه تلوب ، يستبد به الضيق وما يشبه الخوف ، واذا كان قد احتمل المرض خلال الصيف الماضي ، فلا بد ان يقتله المرض في هذا الصيف لو سافروا دون ان يفعل شيئاً . أما اذا قال له الحكيم ان نادية لا تزال صغيرة ، ويمكن ان يخطبها الآن ، على ان يتزوج حين تبلغ الثامنة عشرة ، فقد يوافق ، لكنه سيؤكد للحكيم ان نادية اصبحت كبيرة تماماً ، وان البنات في موران يتزوجن قبل هذا السن « ماذا تظن يا حكيم ؟ البشر هنا مثل الثمر. انت تذكر ان التين والعنب عندنا ينضجان في اواخر الصيف . في موران قبل ان ينتهي الصيف لا تجد تينة على امها ؛ وكذلك البنات ، في الخامسة عشرة ، في السادسة عشرة تكون الواحدة جاهزة ، وفي الثامنة عشرة يكون عندها ولدان او ثلاثة » . فاذا اصر الحكيم على رأيه ، اذا عاند . . . « وانت يا حكيم . . عندما تزوجت ام غزوان كم كان عمرها ؟ لا يمكن ان ينكر ، لقد اطلعت بنفسي ، حين اعدوا جواز السفر ، على اعمارهم جميعاً ، وبحسبة بسيطة : كان عمر وداد عند الزواج ستة عشر عاماً » أما اذا قال : لا بد من سؤال امها وابيها فالجواب جاهز : « انت ابوها ، وامها ام غزوان ، ولا احد غيركم ، واذا لا بد من سؤال احد فأسألوها هي » .

ويتيه في افكاره واحلامه : « يمكن ان تصمت ، وقد تهز رأسها دلالة الموافقة ، أما اذا نظرت وابتسمت فانها لا تقول نعم فقط ، تقول : خذني ، خذني بسرعة . . واهرب » .

وما يغزله في الليل يبدده في النهار ، تماماً كما تفعل الساحرات ، حتى الكلمة الموجزة الواضحة التي قرر ان يقولها للحكيم في اية فرصة ، مهما كانت قصيرة ، كانت تضيع من ذاكرته ، حين ينظر اليه الحكيم ، في بعض الامسيات ويسأله :

ـ ها ، يا محمد ، شو اخبار الدنيا ؟

يتلفت اكثر من مرة قبل ان يجيب :

ـ عال العال ، يا حكيم ، واحسن من هيك ما راح يصير !

ـ والاخبار ، ما هي الاخبار ؟

ـ الجماعة الآن بطلوا السؤال عن المطر والطرش ، صاروا غارقين في اسعار الاراضي والعقارات والذهب والسيارات !

ـ هذا شي معروف . . ومفهوم .

ـ والله بالي ما هو فاضي . . يا حكيم !

ـ خير ، شو اللي شاغل بالك ؟

ـ خليها على الله يا حكيم !

ـ لا . . صحيح ، شو اللي شاغلك ؟

ويهم ان يتكلم ، ان يبّق الحصوة ، لكن يجد نفسه خائفاً ، متردداً ، وبعد ان يمتد بينهما الصمت يسأل الحكيم من جديد :

ـ نصف الالف خمسائة يا ابو الشباب ، وكّل الله . . وكل شي يهون .

قبل السفر بثلاثة ايام ، وقد تم الاتفاق ان تسافر وداد والاولاد الى لبنان ، « وان تقضي هناك اسبوعاً ، واقصى حد اسبوعين » وبعدها يلتحق بهم الحكيم ، لكي يذهبا معاً الى اميركا ، لزيارة غزوان .

في لحظة تخيرها محمد عيد جيداً ، وقد استعد لها واخذ دواء مهدئاً من ذاك الذي كان يصفه الحكيم في حالات التعب والارق والشعور بالكآبة ، وكانا في الحديقة وحدهما ، بعد ان أوى الاطفال الى النوم ، واستأذنت وداد ، واخذت معها نادية ، لكي تعدا الحقائب ، « لاننا في يوم السفر عندنا الف شغلة » .

في تلك الليلة ، تحت دالية العنب ، والى جانب البحيرة الصغيرة التي يروق للحكيم ان يكون مجلسه هناك كل ليلة ، وبعد احاديث متعددة ، قصيرة ، وبصوت اراده محمد عيد ثابتاً وقوياً ، قال للحكيم :

ـ عندي قضية ، يا حكيم ، ولازم احكيها معك . . .

تطلع اليه الحكيم باهتمام اقرب الى الدهشة ، واجاب :

ـ تفضل . . يا محمد .

ـ قضية خاصة ، شخصية ، يا حكيم .

ـ تفضل يا ابني .

ـ وأريدك . . تساعدني . .

وتلعثم صوته ، شعر بالخوف وبدأ يعرق ، ولم يستطع ان يتابع . والحكيم الذي قدّر دقة الموقف ، وفي محاولة لان يساعده على الكلام ضحك بصوت اقرب الى القهقهة ، وسأله :

ـ الله يصلحك ، يا محمد ، اذا كان في قضية ، وشخصية ، كان لازم تخبرني من زمان .

ـ القضية كلها بيدك ، يا حكيم .

ـ طيب ، نورني ، احكِ .

ـ نادية ، يا حكيم .

ـ نادية ؟ ما لها نادية ؟

ـ بدي اطلب يدها منك ، يا حكيم .

واصيب الحكيم بالجفلة . لم يتوقع هذا الأمر ، ولا يمكن ان يستجيب له ؛ ربما فكر بذلك منذ وقت بعيد وحسمه ، او لم يتصور ان محمد عيد يجرؤ على ان يطلب مثل هذا الطلب ، وبعد فترة قاسية من الصمت ، جاء صوت الحكيم رخواً محايداً :

ـ وهل تكلمت في الموضوع مع غيري ؟

ـ ابداً ، يا حكيم ، اقسم بشرفي .

ـ ونادية . . حكيتِ معها ؟

ـ ولا كلمة يا حكيم .

وعاد الصمت اثقل واقوى من قبل . تعلّقت روح محمد عيد بالكلمة التي سينطقها الحكيم ، هذه الكلمة يمكن ان تحييه او تقتله . اذا قال له نعم سيشعر انه اقوى واسعد انسان على هذه الارض ، سيحب الحكيم اكثر من نفسه ، ولن يتردد في ان يقّبل يده . أما اذا قال لا . . ودارت الارض بمحمد عيد . لم يتصور ان تصدر مثل هذه الكلمة عن رجل عاش واياه عمراً باكمله . كان يقول له انه مثل غزوان ، ولا بد ان يعبر الآن عن كل الحب والعشرة التي تكّونت خلال السنين . سمع صوتاً من داخل البيت ، كان صوت وداد تنادي على نادية . اجفل للحظة . تطلع حواليه اكثر من مرة . لكن عينيه لم تفارقا فم الحكيم . انه ينتظر حكم الحياة والموت ، ولانهما متقاربان الى هذه الدرجة ، ومتطابقان ايضاً ، فانهما وجهان لشيء واحد .

وجاء صوت الحكيم مرة أخرى، وكأنه صوت انسان آخر :

ـ نادية مخطوبة . . يا محمد !

ـ مخطوبة ؟ لمن ؟

ـ لابن الحلال !

ـ لغزوان ؟

ـ لا . . غزوان بعده صغير ، وما راح يتزوج قبل ما ينهي دراسته .

ـ من خطيبها . . اذن ؟

ـ مثل ما قلت لك . . ابن حلال !

ـ وليش انا لا اعرف ؟

ـ الحق عليك !

وضحك الحكيم بسخرية ثم اضاف :

ـ خطبها قبل فترة واحد ، وانشاء الله تتزوج قبل نهاية الصيف !

وزفر الحكيم زفرة طويلة، وتغيرت لهجته حتى بدا انساناً آخر :

ـ واحدة مثل نادية لا تناسبك يا محمد . . .

وبعد قليل وبصيغة ابوية :

ـ واذا كنت رايد ، يا ابني ، ام غزوان بعد كم يوم راح تسافر ، ويمكن تلاقي لك بنت درويشة وتتزوجها .

ـ شكراً يا حكيم ، انا ادبر نفسي .

ـ على كيفك يا ابني ، والله يقسم اللي فيه النصيب !

ولم ينم محمد عيد تلك الليلة . بكى على وسادته مثل طفل، وكان متأكداً أنه سيموت .

* * *

قبل ان تطلع شمس اليوم التالي كانت افكار كثيرة قد مرت برأس محمد عيد، أفكار كثيرة وخطرة، لكن لم يجرؤ أن ينفذ أياً منها. وعندما سمع أذان الفجر نهض . ظل جالساً في الزاوية يفكر ويحلم ويسافر ، ولم يفطن ان الشمس ارتفعت ذراعاً وان الحياة بدأت تدب من حوله . أما عندما ناده الحكيم ، وطلب منه ان يذهب الى مستودع عزمي الحجار ، وان يحضر بعض الادوية ، خاصة دواء الدوخة ، فلم يقو على ان ينظر الى وجه الحكيم . كان يشعر انه لو فعل فلا بد ان يرتكب جريمة او حماقة ، وحين قال له الحكيم بحياد وصلابة :

ـ ومرّ عليّ لاني عايزك بشغلة ثانية .

رد محمد عيد دون ان يرفع اليه عينيه :

ـ انا مشغول ، ودوّر على غيري ، يا حكيم !

ـ وراءك شيء ؟

ـ اي نعم .

ـ شو عندك ؟

ـ مسافر . . يا حكيم .

ـ مسافر ؟

ـ اي نعم . .

ـ كبّر عقلك يا ابني .

ـ قررت وخلص . . يا حكيم .

ـ طيب . . أجّل كل شيء الآن ، وعندما ارجع من القصر نشوف .

ـ لا تتعب نفسك يا حكيم . . . والفلوس اللي عندك سلمها لابو مصباح .

ـ كبّر عقلك ، ولا تغلط ، يا محمد .

ـ بسيطة ، بنشوف .

ـ لا بسيطة ولا شيء . . انتظرني للظهر .

ـ ما اظن يا حكيم ، لان الوقت اتأخر ، اتأخر كثيراً.

في وقت من الاوقات كانت حران مدينة الصيادين والمسافرين العائدين ، أما الآن فلم تعد مدينة لاحد ، اصبح الناس فيها بلا ملامح ، انهم كل الاجناس ولا جنس لهم . انهم كل البشر ولا انسان . اللغات الى جانب اللهجات والألوان والديانات . الاموال فيها وتحتها لا تشبه أية أموال أخرى ، ومع ذلك لا أحد غنياً أو يمكن أن يكون كذلك . كل من فيها يركض ، لكن لا احد يعرف الى اين او الى متى . تشبه خلية النحل وتشبه المقبرة . حتى التحية فيها لا تشبه التحية في اي مكان آخر ، اذ ما يكاد الرجل يلقي السلام حتى يتفرس في الوجوه التي تتطلع اليه ، وقد امتلأ خوفاً من ان يقع شيء ما بين السلام ورد السلام !

هكذا رآها محمد عيد وهو ينظر اليها من جديد . لقد عاش هنا سنوات عديدة . عاش البداية كلها . رأى الاحجار وهي تركب بعضها وترتفع لتصبح بنايات عالية ، ورأى الشوارع وهي تُشقّ لتصبح مسالك للبشر والدواب والسيارات ، ثم رأى الدكاكين والمطاعم وهي تتوالد مثل الفطر ، ورأى دار الامارة والقيادة ومستشفى الشفاء . أما الآن وهو يصلها لكي يستقر فيها مرة اخرى ، وعندما ينزل في فندق « زهرة الصحراء » ، ثم يتجول في الاسواق والاحياء ، فانه ينكر تماماً انه كان هنا . لا يعرف شيئاً ، لا يعرف احداً ، ولا شيء مثلما كان من قبل . حتى دار الامارة ، على التل الشمالي ، اصبحت الآن سجن حران المركزي . أما القيادة العامة التي كانت مقراً لجوهر فقد تحولت الى مخفر للشرطة .

مستشفى الشفاء ، المكان الذي قضى فيه معظم وقته حين كان في حران ، تحول الآن الى مستشفى الغرباء . أما عيادة الدكتور المحملجي فقد اصبحت مصبغة الشرق للتنظيف على البخار . ومكان مقهى الاصدقاء قامت عمارة البهلوان. أما شارع الراشدي فقد هدم القسم الأكبر منه ثم أعيد بناؤه من جديد . صحيح انه احتفظ بنفس الاسم ، لكن الكثيرين اطلقوا عليه اسماً آخر : السوق العتيق .

دار الامارة عند المطالع ، على طريق عجرة ، أما دار الامير فقد اصبحت في الناحية الثانية من المدينة ، فمنذ ان لم تعد حران سوى المصافي وميناء التحميل والدخان ، بنى الاميركيون مدينة جديدة الى الشرق ، على مسافة اثني عشر ميلاً وحملت هذه المدينة اسم المكان الذي شيدت عليه : راس الطواشي . وفي المدينة الجديدة قامت احياء التجار والاغنياء وكبار الموظفين ، غير بعيد عن الاحياء التي يسكنها الاميركيون ، وهناك اقيمت الدار الجديدة للامير .

أما الاحياء التي كانت على التلال الغربية ، وقد اطلق عليها في البداية « حران العرب » ، فقد تحولت شيئاً فشيئاً الى اسواق تجارية ، بعد ان هدمت واعيد بناؤها اكثر من مرة ، وتفرق اهل حران والناس الذين سكنوا هذه الاحياء في انحاء متعددة ، وراء التلال وقريباً من المحاجر. ومعسكر العمال الذي كان في ذاك المكان المتوسط بين حران الأميركان وحران العرب ، اصبح الآن مستودعاً كبيراً للآلات والمعدات ، وفي جانب منه تراكمت بقايا السيارات والاطارات القديمة والبراميل ، وقد حصل هذا نتيجة موت عدد من العمال اختناقاً ، بعد ان اخذت تتساقط فوق المعسكر الغازات المتولدة من المصافي . . . نقل العمال الى مكان بعيد ، بين حران ورأس الطواشي .

وما يقال عن هذه الأماكن يقال ايضاً عن كل الاماكن ، حتى الجامع الذي يفخر الحكيم انه تبرع بمبلغ كبير من اجل تشييده ، والذي ما زال في مكانه ، دب اليه الهرم ، وأصبح قبيحاً اميل الى السواد ، واحاطت به مجموعة من الابنية العالية ، وغطته طبقات من الدخان والغبار . ولما سأل محمد عيد عن فرن عبدو محمد ، وعن ابي كامل اللحام ، حاول الذين سألهم ان يتذكروا متى هدم الفرن والمجزرة ، لكنهم لم يكونوا متأكدين من اجاباتهم ، وبعضهم لم

يتذكر ابداً !

حتى المقبرة لم تبق في مكانها ، فبعد ان اعطى الامير الجديد ، عبد الله الشبلي ، اهل حران ومن لهم موتى في هذا المكان ، فرصة خمسة عشر يوماً ليرفعوا عظام موتاهم من هذه القبور ، جاءت الآلات ودرست ما بقي ومن تبقى ، ورغم ان ابن نفاع صرخ وشتم وبصق في وجوه سواق الالات ، لم يجد حلاً في النهاية سوى ان يركض مع عدد من الفقراء ليرفعوا عظام بعض الموتى قبل ان تدوسها وتمزقها الآلات . أما ابن نفاع ذاته فقد مات بعد ايام قليلة من « افتتاح » المقبرة الجديدة على طريق عجرة وتسويرها بسور عالٍ .

قال محمد عيد لنفسه وهو يتجول في الاسواق : « رائحتها لا تطاق ، تشبه رائحة الموتى » . وبدأ يتذكر من جديد : « لا تشبه اية مدينة اخرى ، ولا تشبه نفسها ، والناس فيها اجتمعوا بالصدفة، ولن يستمروا طويلاً ، تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالك » .

وحران بمقدار ضجة نهارها ، فانها في الليل ، في ظل اللهب الذي تبعثه المصفاة ، مدينة الاشباح والصمت ، اذ ما عدا صافرات البواخر وهدير المحركات ، التي تصلُ من ميناء التحميل ، والذي لا يبعد اكثر من ميلين ، يظن الانسان انها جزء من الصحراء التي تليها ، حتى الانوار المنبعثة من اعمدة الشوارع تبدو كابية لا ترى ، تحت وهج الكتلة البرتقالية المسودة التي تشكل سقفاً هائلاً للمدينة ولما حولها .

واذا كان محمد عيد قد احتمل اصياف حران سنيناً عديدة، فانه الآن ، وهو يصلها ، يشعر بالاختناق ، ليس من الحرارة وحدها ، وليس من الرطوبة وحدها ، وانما من ذلك الجو الثقيل المنتن ، الذي هو مزيج من كل الاشياء معاً : البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والاسماك الميتة واطارات السيارات المحروقة ، اضافة الى رائحة البشر ، فيصبح الجو عندئذٍ كريهاً لا يطاق . كانت حران في وقت سابق اكثر رحمة ، وكان بامكان الانسان ان يتعود عليها او ان يحتملها . الآن ، وفي ظل الحالة النفسية التي تسيطر عليه ، تصبح مدينة معادية ، قاهرة ، واشبه ما تكون بالقبر .

تذكره صالح الدباسي بصعوبة ، بعد ان زمّ عينيه فاصبحتا مغمضتين او مثل خيطين اسودين ثقيلين ، فسأله عن الحكيم وعن الاغوات الذين كانوا معه ، وهل ما زالوا يعملون في التجارة ام في شؤون اخرى . وبعد ان استمع الى الجواب ، سأله اذا كان الحكيم راغباً في بيع الاراضي غرب مستشفى الغرباء ، لانه مستعد لشرائها ودفع اي مبلغ يطلبه ثمناً لها .

أما حين طلب من صالح الدباسي ان يؤمن له عملاً في المستشفى ، باعتباره مسؤولاً عن التموين ، واصبح واحداً من النافذين والاغنياء في حران ، كما ذكر له الكثيرون ، فقد رد ببطء :

ـ واللي يشتغل عند الحضر ، عند الحكيم والاغوات ، ويش تفيده الشغيلات الصغيرة اللي عندنا ؟

وضحك بصخب كوسيلة اضافية للتعريض ، ولما ظل محمد عيد صامتاً ومنتظراً تابع صالح :

ـ راجعنا بعد اسبوعين او ثلاثة . . وعسى ان الله يقدرنا !

ترك مكتب صالح الدباسي وقد قرر ألا يراه مرة اخرى .

وفي الشوارع رأى اعداداً كبيرة من الفقراء والغرباء او الذين لا يعرف ماذا يمكن ان يعملوا ، ثم فوجيء بالشرطة تستوقف الناس ، وتدقق في اوراق الكثيرين ، لماذا جاءوا ومن اين جاءوا ، وكان على الكثيرين ان يزوروا مخفر الشرطة ، قرب دار الامارة ؛ ومن هناك كانت تجري عمليات التسفير كل يوم ، وكانت تجري عمليات السجن والضرب والسخرة ، ولا يعرف اية اشياء اخرى ، وسمع محمد عيد ان صالح الدباسي ذاته هو متعهد السجن ، اذ يورّد اليه المؤن ، وعلى سياراته او سيارات السيف كان يتم تسفير الذين لا كفلاء لهم او الذين لا يملكون اوراقاً او ضاعت منهم تلك الاوراق !

كل شيء يبدو جديداً وغريباً في نظره الآن . واستغرب اشد الاستغراب ان مثل هذه الامور جرت خلال فترة قصيرة من غيابه عن حران . واذا كان النفور قد دخل الى قلبه ، وشعر ان المدينة تطبق عليه ، فلم يكن يرى مفراً من البقاء والاقامة . سيجد عملاً ، وسيتعرف عليه الكثيرون بمجرد ان يستقر ،

وسوف يعيد صلاته بالذين يعرفهم . واذا كان صالح الدباسي قد بدا ساخراً ، بل اقرب الى العداء ، فان الآخرين لن يكونوا مثله « يبقى في الدنيا خير كثير ، وصالح من يومه مكروه ولا احد يحبه . . وهو لا يحب احداً » .

وفكر محمد عيد ان يبدأ عملاً جديداً ، فكر اول الامر بأطباء حران ، انه ليس مجرد باحث عن عمل ، او شخص بلا مواهب ، لقد عمل في الطب فترة اطول من جميع هؤلاء الاطباء ، ولولا انه ولد فقيراً ، ولم يستطع ان يواصل دراسته ، لاصبح طبيباً قبل الكثيرين ، ومع ذلك فانه يفهم في الطب اكثر مما يفهم معظم الاطباء . يعرف الاعراض والحالات ، يعرف المراحل والعلاجات ، أما الابرة فلا احد على وجه الكرة الارضية يحسن اعطاءها مثله ؛ ومع ذلك فهو الآن ، بنظر الكثيرين ، مجرد طالب عمل . الآخرون هم الذين يقررون كفاءته ومدى الحاجة اليه . يجب ان يكون بارعاً في عرض امكانياته ، وعليه ان يدق الابواب ، وان يرجو ، ولذلك لا داعي للسرعة او الندم .

لو كان في ظروف نفسية اخرى ، لو ان وضعه الآن مثلما كان سابقاً لما تردد في زيارة دار الامارة ورؤية الامير ذاته . لا يزال يتذكر تلك الساعات الصعبة حين طلب اليه ان يفحص الامير خالد المشاري ، يتذكر هيجانه وهذيانه وجنونه ، ويتذكر تلك النظرات المعادية التي كادت تفتك به . خلّصه مساعد الامير ورضائي . الآن ، لو زار دار الامارة لعرف الكثيرين ولعرفه الكثيرون . ان ثلاث سنوات لا تلغي ذاكرة البشر ولا تغيرهم، كما ان هذه المدة لا يمكن ان تجعلهم يتنكرون . لكنه لا يجد في نفسه الاستعداد او تلك القناعة . انه يختلف عن الآخرين ، ومع ذلك سيجد طريقه .

قالوا له ان الامير خالد المشاري ذهب وذهبت إخباره ، اذ بعد ان غادر حران لم يسمع احد عنه شيئاً ، وكذلك جوهر . وقد حل مكانه في الامارة نائبه ، الامير مشعل ، ولا يعرف محمد عيد لماذا لا يتذكر هذا الاسم لنائب الامير ، يتذكر انه ابو رشوان ، ويتذكر ان بعضهم كان يطلق عليه اسم البرميل . بقي الامير مشعل اميراً لحران فترة من الزمن ثم جاء بعده الامير

ضاري السهيل ، وظل اميراً سنة وبضعة شهور ، وخلفه عبـد الله المشهور ، لكن هذا لم يستمر طويلاً .

اذ بعد الاضراب الذي قام في المصافي وميناء التحميل ، وبعد عمليـات التخـريب التي جرت عـدة مرات في خط الانـابيب والمحـطات ، اعتبـر ابن المشهور مقصراً او متهاوناً ، وجاء عبد الله الشبلي .

وحران التي تغيرت مرات كثيرة خلال السنوات القليلة التي مرت عليها ، يبدو ان الامير الجديد جاء لكي يخلق لها مـلامح لا تتغـير . فالضـرائب التي فرضت على التجار والباعة ، وتبليط الارصفة ، اضافة الى نقل المقبرة ، ليست كـل شيء، فهناك اسبـاب اخـرى كـانت وراء هـذه الاجـراءات ووراء مجيئـه بالذات . واذا كان الكثيرون قد تحسبوا وخافوا ، فان محمد عيد لم يشعر بمثل هذه المشاعر ، وكان من الممكن ان يزوره لو انه كان في ظروف نفسية مختلفة .

* * *

ثلاثة اسابيع من التجول والتأمل والسؤال ، لعله يستطيع ان يمد جذوره من جديد في هذه الارض الصحراوية ويبدأ مرة اخرى .

زار مستشفى الغرباء ، مدعياً المرض ، لعله يجد احداً او امكانية للعودة اليه من جديد ، لكن بعد دقائق من الانتظار ، في الردهة الخارجية ، احس انه مريض فعلاً ، فانسحب دون ان يلفت نظر احد .

أما الدكتور الآغا ، صديق الحكيم وشريكه ، فقد استغرب عودة محمد عيد الى حران ، قال له بعد احاديث طويلة متشعبة :

ـ الناس في حران يداوون بطونهم وذكورهم ، وانت تعرف السبب ، أما اسنان الذهب والبدلات التي شغلتهم في البداية فقد اكتفوا وزهقوا .

قال هذا الكلام وهو يبتسم ويتذكر . . ثم اضاف :

ـ ومن يوم سفركم ، او بعده بشهرين ، ثلاثة ، طلقت العيادة وتفرغت لتجارة الاراضي . والله سبحانه وتعالى يسر وفتحها عليّ . ربح ارض يوفر عليّ شغل سنة بالعيادة ، دون وجع راس من ريحة البدو المنتنين .

وضحك بسخرية وتابع :

ـ لا . . هذه الشغلة بطلناها من زمان !

وتغيرت لهجته ، اصبحت جادة وحزينة :

ـ والحكيم . . بنظره البعيد ، حطّ يده على كم ارض مثل الذهب ،

احسن من الذهب ، ورأيي ان يظل نايم على هذي الاراضي .

وعاد الى لهجته الاولى :

ـ لك احك يا محمد ، كيف حال الحكيم بموران ؟ زنقل ؟ ريَّش ؟ صار فوق الريح ؟

ولم ينتظر ليسمع الجواب ، قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ سمعت انه ملْين ، صار تحت طيزه ملايين!

وحاول محمد ان يجيب ، ان يشارك ، لكن الأغا لم يسمع ولم يترك له فرصة ، ختم حديثه بحزن :

ـ . . . والله يصلحك جيت متأخر ، لاني ، انا نفسي ، افكر بعد كم شهر ان انقل شغلي الى موران ، موران تظل العاصمة ، والشغل هناك احسن من حران الف مرة ، خاصة في شراء الأراضي وبيعها !

وزار محمد عيد الكثيرين ايضاً . سألهم واستمع اليهم . واذا كان هؤلاء قد سألوا عن الحكيم وعن الاراضي والابنية التي له في حران ، وما اذا كان يريد بيعها ، فقد قدروا ان عودة محمد عيد مرتبطة بهذا الأمر بالذات . أما وهو يداور ويحاول التهرب من الاجابة الواضحة الدقيقة ، وبعد ان يسأل عن فرص العمل وماذا ينصح الاصدقاء والمعارف ، فان الكثيرين يبدو استغرابهم الذي يصل الى حدود الدهشة في أن يترك الانسان موران ويأتي الى حران او غيرها من المدن الاقل اهمية وشأناً !

كان كل واحد من الذين يسألهم يبذل جهده لكي يبعده عن مجال عمله : « جميع الاعمال افضل من هذا العمل . هذا العمل كله تعب وما منه ربح » ، ويسمع ويفكر وينتظر !

فكر ان يفتح مقهى ، وبدا له ان مشروعاً مثل هذا لا بد ان يدر ارباحاً كبيرة ، فحران التي امتلأت بالدكاكين والمطاعم والبنوك لا تجد مكاناً يستريح فيه الناس من الركض والتعب ، بعد عمليات المساومة والبيع والشراء . وحين سأل عن ابي اسعد الحلواني ومقهى الاصدقاء ، تذكر الكثيرون المكان ولم

يتذكروا الـرجل . ومـا ان واصل البحث والتفكـير في مقهى جديـد يقيمه في حران ، حتى اصطدم بالارقام الكبيرة التي يطلبها اصحاب الاراضي القـريبة من البحر ، او اصحاب الابنية الفسيحة القائمة وسط السوق ، ولم يتأخر كثيراً حتى صرف النظر عن المقهى . قال لنفسه : « حران اسطبل ، ويجب ان تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط ، وعندها يتركها البشر والدواب ، ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور » .

وفكر بمصبغة وهو يتمعن بعيادة الحكيم القديمة ، لكن الفكـرة لم تستهوه كثيراً . وفكر بتجارة الاراضي والبناء ، او ان يفتتح دكاناً صغيرة لممارسة مهنته الاولى والأصلية ، لكنه لم يلبث ان قال لنفسه وهو يبتسم : « في كل عيادة ، في كل مستشفى اكثر من حكيم ، واكثر من محمد عيـد ، واذا فلت زبون من الاول لا يمكن ان يفلت من الثاني ! » .

في بحثه وتأمله وانتظاره التقى بالشـرطة . تـأملوه ومروا اول مـرة ، لأنه بمنظره وهندامه يختلف عن هؤلاء الذين يطاردونهم ليقبضوا عليهم . وفي المرة الثانية نظروا اليه طويلاً وتكلموا فيما بينهم ومروا . وفي المرة الثالثة استوقفوه . بدا غير خائف ، وغير مستعد ايضاً للدخول معهم في مناقشات طويلة ، فطلب منه رئيس الدورية ، بأدب ، لكن بحزم ، ان يرافقهم الى مخفر الشرطة .

كانت وجوههم غريبة ، منفرة ، وكانوا يسألـون باتهـام : من اين جئت ولماذا جئت ؟ اين الاقامة والترخيص بالعمل ومن هو الكفيل ؟ واذ بدت هذه الاسئلة كريهة ، ولم يتوقع ان يتعرض لمثلها ، فقد كان مثل الآخرين : مجرد متهم ، وعليه ان يجيب عن كل سؤال ، وان يبرز كل الاوراق ، وأن يقول كل ما يعرف . كان يريد ان يقول لهم انه يعرف حران اكثر منهم وقبلهم ، وانـه بذل من اجل حران ما لم يبذله اي واحد منهم ، وانه حراني اكثر من اي واحد آخر ، لكنه لم يفعل ، بل لم يستغرب انهم لم يعرفوه ، لانه لا يعرف اياً منهم ، وبدا ، اكثر من ذلك ، انهم غير مستعدين لسماع هذا التاريخ او للتأكد منه .

وهو خارج من مخفر الشرطة تذكر جوهر وتذكر مفضي . قال لنفسه وهو يهز رأسه حزناً واسفـاً : « الله من هذه الـدنيا : انها دائـماً مع الـواقف ، مع القوي » واضاف بعد قليل بصوت حادٍ : « تفو » .

وكاد يستقر رأيه على ان يصبح تاجراً للخضرة والفواكه : « لا يكف الناس عن الاكل يوماً واحداً ، والخضرة الطازجة لا تنتظر ، يتخاطفها الناس ليبلّوا قلوبهم وليخلصوا من هذه العلب الكريهة».

وبغية الوصول الى صيغة عملية سريعة زار عدة ابنية كانت في مرحلة الانجاز ، وتخير محلاً مناسباً . « المحل واسع وعلى شارعين ، والى جانبه قبو كبير يمكن ان يكون مستودعاً » . ووافق بعد تفكير طويل ان يدفع مبلغاً ، وان بدا كبيراً ، كخلو « صحيح ان الخلو كبير ، لكنه رأسمال مجمد ، وبعد كم سنة ، اذا اراد الواحد ان يترك المحل يستعيد الخلو وفوقه كم قرش » .

لم يتوقف عند هذا الحد ، شط به الخيال وفكر ان يتعاقد مع سيارتين او ثلاث سيارات براد كبيرة ، ويرتب لها برنامجاً دقيقا من اجل ان تصل الخضرة نضرة ، وعلى دفعات تتناسب مع حاجة السوق . وقدر ان مشروعاً مثل هذا يتطلب ان يبرم عقداً سنوياً : « لئلا اكون تحت رحمة اصحاب السيارات او مزاج السواق ، لان الخضرة والفاكهة روحها ضيقة ، لا تتحمل ، ويمكن بين يوم والثاني اما ان يصبح الواحد صاحب ملايين او يصفي على البلاط » . وفكر ايضاً ان يذهب الى دمشق وصيدا وعمان ويبرم عقوداً للتوريد : « البضاعة صنف اول . الصندقة نظامية . الكميات تتحدد بشكل اجمالي ، على ان يجري تحديد الدفعات لكل سفرة بموجب منافستو يسلمه السائق الى المورد ويتسلم البضاعة بموجبه » . وقرر ان يطور العمل مرحلة بعد اخرى ، اذ سيكون في فترة لاحقة شريكاً في برادات النقل ، وسيكون مضطراً لاقامة برادات ارضية خاصة به في حران : « لان حران تأكل نفسها اذا لم تجد شيئاً تأكله ، والخضرة والفواكه مثل الجفن والعين اقل مزحة تقتلها او تخربها » .

ولكي لا يؤجل ولا يتردد مرّ على باعة الخضرة والفاكهة في حران ، تأمل الحاجات المعروضة بامعان ، سأل عن اسعار المفرد والجملة . سأل عن مصدر هذه الحاجات ومواعيد استلامها وكيف ، ولم يتردد احد الباعة في ان يتبسط معه ، قال له ان الخضرة التي تصل من استراليا ونيوزيلندا وكالفورنيا ارخص من تلك التي تصل من عجرة ، وان تلك التي تصل عن طريق البحر افضل من تلك التي تقطع الصحراء لتصل الى حران . أما عن الكميات التي تحتاجها

حران ، قياساً للكميات التي تصلها فعلياً ، فقد اعطى ذلك البائع ارقاماً مضطربة للغاية ، ثم قال انه لا يعرف. وحين سأله محمد عيد عن رأيه لو ان مكاناً جديداً وكبيراً يقوم في حران لاستيراد الخضرة والفواكه وتوزيعها ، رد الرجل وهو يتطلع في عيني محمد عيد بتحديد :

ـ اخي . . . بهذا البلد كل شغلة تمشي . . وكل شغلة لا تمشي ، هذا يعتمد . .

ولم يكمل جملته ، وبعد قليل اضاف ، وهو يبتسم ، وكأنه يكلم نفسه :

ـ المهم ان تعطي السهم باريها !

كانت آخر جولة قام بها محمد عيد يوم الخميس ؛ ورغم بعض الخوف والتردد ، قرر ان يبدأ يوم السبت . سيدفع الخلو والاجرة ، وسوف يبدأ « لاني اذا دفعت رجلي تصير بالفلقة . . ولازم اكون قدر الحمل . . . . ولازم انجح ! » .

* * *

يوم الجمعة ، منتصف الصيف .

استيقظ محمد عيد متأخراً هذا الصباح ، لانه تأخر في نومه ، ولان احلاماً اقرب الى الكوابيس ملأت ليلته الفائتة .

يتذكر وهو يتقلب على فراشه ، يحاول النوم شعر انه وحيد وحزين ، وشعر اكثر من ذلك انه مخدوع . واذ حاول ان يبعد صورة الحكيم عن مخيلته ، وقد صمم على ذلك بطريقة اقرب الى الحقد والاحتقار ، كانت هذه الصورة تطوقه من كل ناحية . تذكر اول مرة رأى فيها الحكيم ، وتذكر كلماته الأخيرة : « اذا اردت ، يا محمد ، ام غزوان ستلقى لك امرأة درويشة وتتزوج ! » . وتذكر رحيله معه من مكان الى آخر . ورغم انه في كل مرة يقبض على نفسه متلبساً بالتفكير بالحكيم ، كان يحاول ان يتوقف ، ان يمتنع عن ذلك ، أن يبعده بالقوة ، وكان ، في محاولة للنسيان ، يعد من الواحد الى المائة ، لكن ما يكاد يبدأ حتى يجد نفسه وقد سها عن الارقام وعاد الى الحكيم . . . . او عاد اليه الحكيم .

ونادية ، « اه من هذه الغزالة الفاتنة التي ربيتها بيدي » انه يشعر نحوها بعواطف متناقضة اشد التناقض ، فهو يحبها ويكرهها ، يريدها ولا يريدها ، ومع ذلك فانها غير مسؤولة ، وربما لا تدري حتى هذه الساعة . خصمه الوحيد الحكيم . هو الذي يقرر كل شيء ، لنفسه ونيابة عن الآخرين . حتى ما ادعاه من ان أحداً خطبها قبل فترة طويلة مجرد اكذوبة . لو ان شيئاً ابسط من هذا

واقل شأناً لعرفه . كانت لديه وسائل لا تحصى لان يعرف كل شيء . انها كذبة جديدة تضاف الى عشرات الاكاذيب التي سبقتها . ليس هذا فقط ، انه يعرف متى يكذب الحكيم وكيف . كان شريكه في اكثر اكاذيبه . قال لنفسه وهو يتقلب للمرة المائة في محاولة لان ينام : « ابن الكلب عملها معي ، ونسي اننا دفناه سوا » .

أما عندما غرق في النوم فقد هجمت عليه الكوابيس ، لاحقته مرة بعد اخرى . كان يرى نفسه محاصراً باعداد هائلة من الافاعي ، وحين يحاول الهرب منها تتلقفه هاوية سحيقة ، فيمسك باطراف الحجارة ، لكنها تتساقط ، وتسقط ، ومن هاوية الى اخرى ، فيصرخ ، يحاول التشبث باي شيء،لكن لا شيء . وحين يسقط على الارض الصخرية ويتحطم ، يسمع قهقهات بعض العجائز ، ومن بين دموعه ودمائه ينظر اليهن ، لكن لا تتحرك اية واحدة منهن لمساعدته ، فيصرخ للمرة الأخيرة قبل ان يموت ، وفجأة ينهض .

حين نهض وجد ان العرق قد غسله تماماً ، وان العطش يفتك بحلقه وجوفه . كان يحس بالتعب والاعياء ، ولا يستطيع الوصول الى كأس الماء ، وفي محاولة لان يبقي نفسه في ملكوت النوم ، ابقى عينيه مغمضتين ، واتجه الى حيث وضع الماء قبل ان ينام . اصطدم بطرف السرير . آلمته قصبة رجله اليسرى . هدر صوته مثل حيوان جريح :

ـ والله لالعن ابو المحملجي الاولاني !

يجلس على الارض ، يفرك القصبة في محاولة لأن يمتص الالم، تتفتح عيناه في الظلمة ، يرى اشباحاً ، يراها تتحرك ، يفرك رجله بيد وعينيه باليد الاخرى ، لعله ينقذ روحه التي يحسها تتبدد . الأشباح تغدو وتروح ، تقترب منه ، تطوقه ، يصرخ بصوت عال وحاد :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

ينهض فزعاً . يشعل الضوء . تغرق الغرفة في نور اصفر بهي . يتلفت في كل الانحاء ، يرى على الطاولة القريبة دورق الماء وكأساً نصف مليئة . يلتفت اكثر من مرة ليتأكد . غابت الأشباح وامتلأت الغرفة بالسكون . يهز رأسه

مرة ، يهز رأسه مرة اخرى . يقف. ما زالت ساقه تؤلمه . يتجه الى الطاولة ، يتناول كأس الماء ، يشرب . الماء ساخن اقرب الى البول ، وفيه طعم المرارة . يمسح حلقه ووجهه . يتجه الى النافذة المفتوحة ، يطل منها ، تمتلىء رئتاه برائحة حران العابقة . يتذكر الحكيم : « ابن القحبة . . لبس لحية ، صار مثل اي تيس ، لكن كذبته مصلعة مثل طيز السعدان ، واذا ضحك على اهل موران وخدعهم لا بد وان يصيدوه في يوم من الايام . . وعندها : جاءك الموت يا تارك الصلاة ! » .

وضرب حافة النافذة وقال بحقد :

ـ اذا ما نسيته أكون اخرا منه !

وبسرعة هجم على الضوء، أطفأه بعصبية وارتمى على السرير في محاولة لان ينام . الغرفة تغرق في الظلام . لكن النوم لا يأتيه . يتقلب ، يتقلب ، وطيف الحكيم يذهب ويعود . يبتسم بحزن ويحاول ان يتذكر نادية : « آه منها بنت الكلب ، مثل الزهرة ، رائحتها اطيب من الفل والياسمين ، خيارة صغيرة ، اطيب من الخيار . ريانة ، ناعمة ، وسمارها مثل القهوة بحليب . لأ . . احلى بالف مرة ، واذا ضحكت الدنيا كلها تضحك ، مثل العصافير تزقزق ، لكن ابن الكلب ، الحاخام ، حرمني منها ، لا يحب الا نفسه » . ولا يدري باية اشياء فكر وهو يحاول النوم .

لا يدري متى نام . آخر شيء فكر فيه بحزم اقرب الى الاهانة « اكون ألعن منه اذا فكرت فيه . . اللي فات مات ونحن رجال اليوم » .

قضى عند بائع الفول وقتاً اطول مما تعود . وبدل كأس واحد من الشاي شرب اثنين ، واعطى الصغير الذي جلب له الشاي قطعة نقد كبيرة . تجول على شاطىء البحر . تمعن بالمياه طويلا . تطلع باهتمام الى الوجوه التي مرت به . وفجأة عنَّ له ان يلقي نظرة اخيرة على « المحل » ، قرب ساحة السلطان خزعل .

لما وصل الى هناك كان المؤذن يذكّر . ترك الساحة ومشى نحو الدكان التي سيستأجرها . وجد هناك صاحب البناء ومعه ثلاثة من الرجال . حياهم

وابتسم . بعد لحظات واصل صاحب البناء حديثه مع الـرجال ، وتبـين انهم يجرون حسابات بخصوص العمل ومواد البناء . تركهم وانزلق الى الدكـان ، قاسها من جديد ، كان يفتح ساقيه بخطوات كبيرة على مسافة يعتبرها مساوية للمتر . وقف في اكثر من زاوية وتمعّـن . خرج من الباب الآخر ، والقى نظرة واسعة . تراجع قليلاً ووقف على الرصيف المقابل . في لحظة بدت له الدكان وقد امتلأت بالفاكهة والخضار . كانت الصناديق ترتاح بشكل مائل ، وتشع منها الفاكهة : تفاح غولدن ، ستاركن ، تفاح بلدي ، تفـاح زبداني حلو . . ومز ، والى جانبه انواع من العنب : بـزاز العنز ، حلواني ، زيني ، ابيض ، اسود ، أما التين فانه مثل عيون الاطفال ، لا احد يمسه ، لا احد يضع يـده عليه . وتصور انواعاً كثيرة من الخضار . لن يستطيع ان يلبي جميع الطلبـات وحده ، يجب ان يكون الى جانبه من يساعده . لا يكفي ان يكون عنده ولـد صغير ؛ الصغير يمكن ان يناول ، ان يحمل ، أما الميزان ، أما الحساب فيجب ان يراقبه بنفسه ، ولذلك يجب ان يستعين برجل يعرف كيف يتصرف وكيف يساعد . . . . « ويجب ان يكون أميناً ! » .

بدا راضياً ، لاول مرة يحس ان الحزن الذي ملأه منذ ان غادر موران يقل ويتراجع . وحين التفت وعبر الرصيف رأى صاحب البناء يقترب منه . سأله بحياد :

ـ عسى ان المحل عجبك . . ونويت ؟

ـ انشاء الله . . وغداً نوقع العقد .

ـ على خيرة الله .

واضاف بعد قليل :

ـ اذا ما وراك شي تفضل تقهوى عندنا . . . والبيت قريب !

لم يتردد محمد عيد في القبول . كان يريد ان يخلص من الصلاة ، وبدا له ان الرجل يريد ذلك . قال في محاولة لتأكيد تهذيبه :

ـ أستطيع أن أبقى ساعة ، لأني مدعو على الغداء.

ـ بسيطة !

واذا كان محمد عيد يعتبر ان الحكيم مثله ، وقد تأثر به كثيراً ، فان الفارق الوحيد ، او ربما الفروق القليلة التي ظلت تميزه عن الحكيم منذ فترة طويلة : الصلاة . كان يعتبر ان الدين هو المعاملة ، ولذلك لا يمكن ان يتظاهر ليقنع الآخرين فقط . اذا لم يقنع الله فلا فائدة . والحكيم الذي كان يحرص على المظاهر ، اكثر مما يحرص على اي شيء آخر ، جعله يحس بنوع من الرفض والمقاومة . ولهذا ، ومنذ ان كان في حران ، ثم بعد ذلك في موران ، كان يهرب من الاستجابة لطلبات الآخرين ، او ان يتظاهر مثلهم .

الآن ، وهو يتلقى دعوة القهوة . . . يوافق . وخلال الساعة التي سيقضيها تكون الصلاة قد انتهت ، وربما استطاع ايضاً ان يبحث مع صاحب البناء في أمور تتعلق بمستقبل العمل وما يتطلبه من مستلزمات اضافية .

خلال هذه الساعة ، وربما نتيجة رائحة البيت ، او لسبب آخر ، غامض ، كان محمد عيد يريد ان يخرج ، ان يهرب ، لا يعرف الى اين او لماذا . أما حين نظر الى ساعته ، وادرك صاحب البناء تعجله ، فقد قال في محاولة للتعبير عن المودة :

ـ وما عساك مسمّي البقالية ؟

نظر اليه محمد عيد باستغراب ، وكأنه لم يتوقع هذا السؤال ، تابع الرجل :

ـ الخويا في السوق ما تركوا لك اي اسم !

رد محمد عيد ضاحكاً :

ـ لا تخف . . . . راح أسمي البقالية : خذ غرضك وامشِ !

وضحكا معاً . . . وغادر محمد عيد .

* * *

حران في هذه الظهيرة ثقيلة مستبدة . الهواء ساكن لكنه خطر ، أما الصمت الذي زحم الابنية والشوارع فقد كان فاضحاً . لم تكن حران في يوم من الايام بهذا القدر من الارتياب وخداع النفس ، ولم تكن عارية وسوداء

هكذا . قال محمد عيد لنفسه وهو يحاول ان يسحب نفساً لكي لا يموت : « اللهم قوني واعطني الشجاعة على تحمل المكاره » .

في طريقه الى الساحة احب ان يمر بالقرب من دكانه . تذكر الاسم الذي اطلقه « خذ غرضك . . وامش » . حاول ان يبتسم ، لكنه وجد انه لا يستطيع . كانت في روحه بقايا حيرة ، وكان فمه شديد المرارة .

القى نظرة اخيرة ، لكن استمر حائراً . تطلع الى الارض والسماء فوجدهما قاسيتين ، وبعصبية اتجه مسرعاً الى ساحة السلطان خزعل ، حيث يطل الجامع الكبير .

فجأة احس بالخطر ، فالجموع التي كانت تخرج من الجامع ، والاعداد الكبيرة من الاطفال والصبية ، وغير بعيد عنهم النساء ، اوحت له بالخطورة ثم بالخوف . ماذا يمكن ان يكون ؟ لماذا لم يعرف من قبل ولماذا لم يسمع ؟

بصعوبة شق طريقه وسط الجموع والصمت ، وبصعوبة ايضاً رأى . رأى اثنين من البدو ينزلان من سيارة جيب ، الاول كبير السن والآخر بين الصبا والشباب . الكبير بعباءة ممزقة ومغبرة . قاسي الملامح ، اقرب إلى الخشب الجاف ، عاري الرأس ، حتى ليبدو مثل حيوان صحراوي ضعيف . كان يتلفت بعيون حائرة ، وبدا مذهولاً ، وقد ربطت يداه الى خلفه . أما الشاب فكان في ثوب ربما كان ابيض في يوم من الأيام ، لكنه بلي ونصل وتمزق عند الكم والصدر فظهرت يد الشاب عارية ، وظهر صدره مسمراً ضامراً وكأنه قفص لطيور خطرة . انزل الرجلان بخشونة وقسوة ، وكان حولهما عدد من رجال الامير والشرطة .

تجمع الناس في حلقة تشبه السوار . رجال الامير في حالة من الهياج اقرب الى التوحش . الكلام الذي يسمع همهمة غامضة ولا يفهم . لا احد يعرف او يدري ماذا سيكون . الجو يزداد حرارة وخطراً . الرجلان اللذان كانت ايديهما مربوطة الى الخلف تحل ويجبران على الجلوس . قال رجل من الجمع : « سرقوا . . ولا بد ان تقطع يد السارق » . رد آخر : « ليقولوا اي شيء سرقوا » . قال ثالث : « العين بالعين والسن بالسن » . قال آخر : « لم ار في

حياتي ابن آدم تقلع عينه » . قال آخر : « مساكين لا ذنب لهم » . قال آخر : « لا حول ولا قوة الا بالله . . وكل ابن آدم مسيّر لا مخيّر» . رد عليه رجل قصير: « إلا ابن آدم له عقل وعنده وجدان » . رد الرجل الأول : « لا حول ولا قوة الا بالله » . قال رجل آخر : « آخر ابن آدم خرقة ، ولا يفيده ذهب الارض » . قال رجل آخر : « اسكتوا يا جماعة الخير ، خلنا نشوف تالي هالمصيبة » . صرخ طفل في وسط الحلقة : « يوبه . . يا يوبه : العلقمي » . واشار الى احد رجال الامير . التفت العلقمي غاضباً وضرب عصاه في الهواء فأزت . قال رجل لم يتبين وجهه احد : « ابرياء براءة الذيب من دم يوسف » . صرخ احد رجال الامير : « الكلام ممنوع » . سأل محمد عيد ، بلسان مرتجف ، الرجل الذي بجانبه عن ذنب الرجلين وماذا سيفعل بهما . هز الرجل كتفيه ، انه لا يعرف ، ونظر الى محمد عيد باستغراب .

الشمس تنصب عمودية من السماء وكأنها اسلاك من نار . رجال الامير والشرطة يتحركون حركة عصبية عمياء . الرجلان يلتفتان الى الجموع بعيون مذهولة، وبنظرات سريعة وكأنهما يبحثان عن احد. ينظران، احدهما إلى الآخر، نظرة فيها معنى الصبر والتأسي ، لعل شيئاً ما يقع في اللحظة الاخيرة . الشفاه يابسة . والحلوق مليئة بالمرارة والغبار . حركة الجموع ثقيلة آلية ، والصمت يملأ الهواء .

تقدم رجل قصير ممتلىء ، تخطى سن الشباب ، يبدو قوياً واثقاً ، بل معادياً ، اسمر او اقرب الى السواد . تقدم بخطوات ثقيلة ، لكنها صلبة . كان بثوبه الابيض ، وحزام الرصاص الذي يطوقه من الكتف حتى اسفل الخصر ، أشبه بالدجاجة السمينة . كان لا ينظر الى شيء او الى احد ، وما عدا هزات يده بالسيف ، فقد كان خائفاً .

أجلس الرجلان على الارض بشكل جديد . اجلسا كما لو انهما يركعان وينويان السجود . اجلسا بصعوبة اول الأمر ، أما حين شدت ايديهم الى امام ثم ربطت بالأرجل ، فقد كانا في حالة تشبه من يستغفر ربه . قال الرجل المسن :

ـ اللي قالوا لكم يكذبون . . . واولاد حرام .

لم يجبه احد . تابع :

ـ خلوني اشوف الامير يا جماعة .

لم يجبه احد ، تابع بغضب :

ـ ودمي وخطيتي برقبتكم اليوم وكل يوم . . والى يوم القيامة .

قال الشاب بنزق :

ـ اذا كان اميركم فيه خير ، واذا كان سلطانكم فيه خير خله يعرف اللي سواها .

قال الرجل المسن :

ـ حنا مظلومين ، اولاد الحرام ظلمونا ، ودمنا برقاب القريب والبعيد .

قال الشاب :

ـ والله الألعن ابو الأميركان واللي حط اول حجر بحران .

قال الرجل المسن بغضب حزين :

ـ لا تخف يا حمد ، دمنا ما يضيع ، والدّية راس الكبير ، دمنا برقاب اللي يشوفون واللي يسمعون . . وتشوف .

وبطريقة فيها من المكر اكثر مما فيها من البراعة غمز رئيس المفرزة الجلاد ، وطلب من رجال الامير ، بحركات يده اكثر من الكلمات ، ان يبتعدوا ، وان ينتبهوا ، والجلاد ، الذي كان ينتظر الاشارة ، تحرك .

في ظل الصمت الذي رافق الأشارات ، وتلك الحركات المضطربة ، وفي لحظة انزلقت السماء بلهيبها وغضبها على الارض فخيم سكون ثقيل لزج ، حتى النفس الخافت المكتوم يمكن ان تلتقطه الاذن او تسمعه العين ، في لحظة الجنون والخوف هذه ، تقدم الجلاد . نظر بسرعة خارقة الى الجهتين ، لكنه لم يـر احداً او شيئاً ، وفي تلك اللحظة ، لا قبلها ولا بعدها ، اصبح وراء الرجلين . هز سيفه كما يهز عصا . تقدم خطوة بقدمه اليسرى . اصبح فوق الرجل المسن . نخزه بسيفه في مؤخرة الظهر عند العجز . كانت النخزة قوية

موجعة ، ارتفع جذع الرجل ، بدا منتصباً قوياً ، وامتدت رقبته اكثر مما كانت ، وفي لحظة ، هي لحظةالجنون والخوف ذاتها ، ومع ارتفاع العنق ، وبطريقة ماكرة خالية من الاتقان هوت ضربة السيف . كانت الرقبة صلبة ، قوية ، فقيرة ، مليئة بالعروق . واذا كان السيف قد حزّها فانه لم يقطعها . بدت شامخة ثقيلة قوية ، وبدا الجلاد حانقاً مستثاراً ، وبدون ان ينتظر هوى بالضربة الثانية على الرقبة . . فطار الرأس . تدحرج . ابتعد ثلاثة امتار عن الجسد ، وبتدحرجه انقلب . كانت العينان واللحية نحو السماء ، نحو الآخرين . كانت ترتجف ، تتحرك ، تتحرك ، وكان الجسد يتلوى ، يستطيل ، يتقلص ، يعلو ، يهبط ، يتحرك ، يتلوى مرة اخرى . أما الدماء التي نفرت كينبوع ، كنافورة ، فقد خضبت العباءة وثياب الجلاد ووصلت الى الشاب . صرخ الشاب وهو يحاول القيام ، ولم يعد يحسب اي حساب :

ـ خزعل والشبلي بمداسي يا اولاد الكلب .

كانت الكلمات تخرج مضطربة مسعورة ، واقرب الى اصوات حيوان ، ودون ان ينتظر الجلاد ، اخرج من وسطه خرقة لم يرها احد من قبل ، وبطريقة بارعة ، مسح السيف ، مسحة بسرعة ، والتفت الى هذه الجهة ، الى الجهة الاخرى ، وقد تطلع الى الوجوه هذه المرة ، وبدا شديد الخوف والاضطراب ، فلما لم يجد احداً يقترب منه ، نخز بنفس الطريقة اسفل الظهر ، فلما انتصب قوام الشاب ، وكان اشبه بانتصاب الراقص في لحظة العنفوان والنشوة ، او مثل فارس يهمّ بالانطلاق ، وبدت الرقبة طويلة ضامرة ، وكأنها رقبة طائر ، هوى بسيفه ، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد . تدحرج الرأس بعيداً بعيداً حتى اصبح قريباً من الناس ، وقد لامس ارجل اثنين او ثلاثة . كانت العينان حمراوين قانيتين، وكان اللسان ممدوداً طويلاً، فتراجع الكثيرون وذعروا . أما الجسد الذي كان ينوي ان ينهض فقد نهض الى قامة رجل قصير ، أو الى قامة طفل . . ثم هوى مرة اخرى وبدأ يرتعش .

الصمت . . . الصمت . . الصمت . . ثم الغضب .

دفع رجال الامير الناس . جمعوا بقايا الرجلين ، وخلال دقائق قليلة انتهى المشهد . لأول مرة ، في حياته ، شعر محمد عيد بالغضب ، وشعر

بالخوف والخزي ايضاً .

قال رئيس المفرزة وهو يرتجف ويسرع بركوب السيارة :

ـ وابن هذال يجي دوره .

ومن الكلمات القليلة عرف الناس ان الرجلين اللذين قبض عليهما في اليوم الفائت ، ابلغ عنهما احد الرعاة ، وقال انهما كانا مسؤولين ، مع آخرين ، عن نسف خط الانابيب ؛ وخلال ساعات قليلة قرر ابن الشبلي ان الرجلين يجب ان يقتلا ، اعترفا او لم يعترفا ، لان ابن هذال نفسه سوف يخاف ، وان رجاله سيخافون ، ومن اجل الامة والرعية ، كما قال واكد ، وكما طلب منه السلطان خزعل ، لا فرق بين مذنب او من يريد ان يكون مذنباً !

* * *

عند العصر كانت سيارة هودسن خضراء تقطع الطريق بين حران وعجرة . استأجر محمد عيد السيارة بمفرده . ورغم ان ابن السيف استغرب هذا السفر ، فقد استغرب اكثر ان محمد عيد لا يوافق على الانتظار او التأجيل لليوم التالي ، ولذلك كان متأكداً ان وراءه صفقة كبيرة . قال له وهو يودعه :

ـ الحكيم اخونا . سلّم عليه وقل له : الجماعة بحران يذكرونه بالخير .

هز محمد رأسه ولم يقل كلمة واحدة . كانت عيناه تجيبان او تحاولان الاجابة . أما قلبه فكان يمتلىء بمرارة لا حدود لها ، وكان يشعر انه مريض وعلى وشك الموت . حين تجاوزت السيارة المطالع ، وبدأ الطريق الصحراوي ، رأى المقبرة بسورها الرمادي المغبر ، ورأى رجالاً يستظلون بالسور . حاول ان يلتفت لينظر الى حران للمرة الأخيرة ، لكنه لم يستطع . نظر بسرعة ، وبطرف وجهه الى السائق ، رآه ساهماً اقرب الى الحزن . اراد ان يتكلم ، ان يسمع صوتاً غير الريح ، لكن لم يجد في نفسه القوة ، ولم يجد الرغبة . قال في نفسه : « نهاية حران وراء هذا السور ، والعاقل من يفلت » .

في السهل المنبسط غير النهائي كانت السيارة تسابق الريح والرمال ، وكان الهواء الساخن يلفح الوجوه ليصل الى اصابع الاقدام ، ثم يندفع مرة اخرى لينثر ذرات الغبار التي تشكل حاجزاً بين الاشياء كلها ، وهذا الحاجز يجعل

الرؤية والرغبة والفكر مختلطة الى درجة ان اي شيء يشبه اي شيء آخر . قال محمد عيد بطريقة فجة :

ـ حارة !

رد السائق بنفس الفجاجة :

ـ اي نعم حارة .

ـ انت من حران ؟

ـ لا .

ـ من اين ؟

ـ من ارض الله الواسعة !

ـ صحيح من اين ؟

ـ احزر .

ـ الشكل يقول انك من السلطنة . . أما اللهجة . .

ـ لو كنت من السلطنة لكان واحد غيري يسوق بك هالحين . .

وبعد قليل وبحزن :

ـ لو كنت من السلطنة لخرّبت الدنيا .

وبعد فترة صمت سأله السائق من جديد :

ـ كنت بحران اليوم الظهر ؟

ـ اي نعم .

ـ وشفت اللي صار ؟

ـ اي نعم .

ـ ولا اي ابن كلب قال كلمة ، ولا اي ابن كلب رفع رجل عن رجل ، والمساكين راحوا بكيسهم . الله يرحم المساكين .

وبعد ان زفر اضاف :

ـ لـو كان بحـران رجال ، لـو هذا الـلي صار صـار بمكان ثـاني لانقلبت الدنيا ، لكن الناس مثل الغنم ، يركضون ويصـرخون وآخـرتها يجي كم ابن حرام ويغفّون الاول والتالي .

وعـاد الصمت . الرمـال والغبار واشعـة الشمس . قال السـائق ليقـطع الصمت :

ـ تروح عجرة او ابعد منها ؟

ـ ابعد .

ـ ويـن . . انشاء الله ؟

ـ لا اعرف !

التفت اليه باستغراب ، تطلع اليه ثم هز رأسه وقلب شفتيه ، وعاد ليسأل من جديد :

ـ وليش ما تعرف ؟

ـ لان الارض كلها بعد اليوم خرا . . ومثل بعضها .

ـ تراك انت مثلي !

ـ كلنا مثل بعض يا ابن العم . . واذا كانت اليوم حران عقبـة كلها راح تصير مثل حران . الا . . .

وداس السائق اكثر على دواسة البنزين . . وخيم الصمت !

قبل ان تنقضي السنة الثالثة على وجود حماد في القصر حصلت تطورات كثيرة : من رئاسة جهاز الامن والسلامة وكالة الى رئيس فعلي ؛ ومن جناح في القصر الى بناء مستقل ؛ ومن الاقامة في موران الى التجول في العالم والاتصال بالمؤسسات المماثلة والصديقة .

فبعد زواج السلطان من عنود بنت راشد المطوع بسنتين وثلاثة شهور جاءه منها غلام ، واثر ذلك مباشرة سُمّي حماد رئيساً للجهاز ، وقد ابلغه الحكيم بالأمر قبل صدور الارادة السلطانية . قال له في لحظة تخيرها جيداً :

ـ بينك وبين السلطان ، يا حماد ، عشق ، يحبك مثل ابنه . .

وضحك ثم اضاف :

ـ ولا بد أن حظك من السماء . . أو أنك ساحره .

ولما ظل حماد صامتاً لا يعرف كيف يجيب تابع الحكيم :

ـ يا سيدي الف مبروك . . . . من اليوم انت رئيس جهاز الأمن والسلامة ، اصالة لا وكالة ، وهذه ارادة السلطان ، ولا بد ان تبّيض الوجه وتكون احسن من الأول .

ولم ينقض شهر على هذه التسمية حتى احتل حماد مبنى دار الامارة ، بعد ان تم تجديده واعداده ، لان دار الامارة انتقلت الى مبناها الجديد . وقد تم هذا الاجراء نتيجة توسع الجهاز ، والتحاق عدد من « الخبراء » ، جاءوا

خصيصاً من الولايات المتحدة والمانيا ، وقيل انهم لن يبقوا الا فترات محدودة ، عدا خمسة تم التعاقد معهم لمدة ثلاث سنوات . ومما عجّل في اتخاذ هذا الاجراء ايضاً وصول معدات خاصة بجهاز الامن والسلامة ، وكانت هذه المعدات الكبيرة تتطلب امكنة فسيحة ، وقيل ان المهندسين اقترحوا ان تكون بعيدة عن القصر ، لئلا « تشوش » على الاجهزة الخاصة الموجودة فيه .

رغم هذا الاجراء بقيت غرفة حماد في القصر بناء لرغبة الحكيم ، وقد عبر عن هذه الرغبة مازحاً :

ـ اولاً ما لنا قلب ان نتركك ، تعودنا عليك ، واذا مر يوم ما شفناك يحس الواحد منا ان شيئاً ينقصه ، واقدّر ان شعورك نحونا نفس الشعور .

وضحك ثم تابع :

ـ وثانياً : هذه الغرفة لها بركة ، لانها كانت الاساس والخميرة ، وانا شخصياً اشعر لوجودها بنوع من الامان ، واخيراً ، يا سيدي ، اضمن واستر لك وللعمل ان تكون في القصر .

وحماد الذي اعتبر الفكرة صائبة ، ولا بد ان يكون الحكيم قد فكر بها من قبل وليست وليدة اللحظة ، فقد قرر ، بينه وبين نفسه ، ان لا يتخلى عن الصفة السرية التي احتمى بها خلال الفترة الماضية . اكثر من ذلك بدت هذه الصفة تغريه ، أما لو انتقل كلياً وبصورة علنية فلا بد ان يواجه مصاعب او احراجات من نوع او آخر .

قال للحكيم وقد عبرت هذه الافكار رأسه :

ـ اللي تقوله يا ابو غزوان هو الصحيح ، ولولا المكاين والبلايا اللي جات والا هذا المكان ما مثله مكان .

أما مطيع الذي توثقت علاقاته بحماد الى اقصى حد ، واصبحا لا يفترقان الا نادراً ، وكان يسمع الحوار الذي يجري بين الاثنين . فقد تدخل :

ـ الغرفة في القصر اكثر من ضرورية : للاتصال ، لحفظ الاوراق الهامة ، للاجتماعات الطارئة . . .

ولأنه لم يكن هناك أي خلاف حول استمرار علاقة حماد بالقصر، بما في ذلك

الاجتماع الدوري ، فقد قال الحكيم بلهجة مرحة :

ـ غرفة حماد هي المصفاة ، لان كل المعلومات تصب فيها ، وفيها يتم تقدير الموقف ، ولذلك يمكن ان نسميها من الآن فصاعداً « غرفة تقدير الموقف » او . . .

والتمعت عيناه فجأة ، وتابع :

ـ لا . . الاحسن : غرفة العمليات . نعم احسن تسمية : غرفة العمليات ، كما يطلق على الغرف الهامة في الجيوش او في المستشفيات !

وضحك الثلاثة بمرح ووافقوا على هذه التسمية .

وقبل نهاية العام الثالث ايضاً اشترى الحكيم قسماً كبيراً من ارض الحصيبة . وكان حماد ، كما في المرة الاولى ، وسيطاً جيداً لاقناع عمه شداد ، الذي بدا مستغرباً ان يشتري عاقل او يفكر بشراء مثل تلك الارض ، قال لحماد بلهجة بين المزاح والجد :

ـ يا وّل ، يا حماد ، الحصيبة حفرة نفرة وظني ان ما احد يشتريها الا اذا بيها ذهب ، فاذا كان الذهب موجود خله لآل المطوع ، لعمك شداد ، احسن ما يجي واحد غريب ويأخذها ويأخذه .

ـ لو كان بيها ذهب ، يا عم ، ما سموها حصيبة !

ـ وهذا . . . مشاور السلطان ليش يبيها ؟
ـ يريد يبني فيها مستشفى .
ـ حتى يداوي أباعر ابن دهيش او حصينيات المعافير ؟

وضحك بصخب لأنه لا يوجد من يفكر ببناء مستشفى في ذلك المكان النائي ، وعاد إلى لهجته الأولى بين الجد والمزاح :

ـ يا ول ، يا حماد . . بيع ابيع ، للمشاور او لغيره ، اذا كان هناك من يشتري ، بس علّمني العلوم الزينة ، العلوم الصحيحة ، خويك عاقل او مجنون ؟

ولم ينتظر جواب حماد ، ضحك وقال كأنه يحدث نفسه :

ـ واذا كانت كل سوالفه مثل هذه السالفة ، واذا كان كل ما يشاور به السلطان مثل هذا الشور حنا بالف خير وحالنا باحسن حال ، والله يلعن ابو اللي ما يصدق !

وانتهى النقاش بان وافق شداد على بيع قسم من الارض ، لكن لم يبعها كلها « لاني اريد ابحّر بهذا المجنون واللي يسّويه اسويه ، اذا خسر اخسر معه ، واذا ربح يقولون ، ولو بعد الف سنة ، ان شداد ما اخذت عقله الخيل ، ويعرف متى يبيع ومتى يشري»!

وفي اطار هذه الفكرة ، وقبل ان تتم الموافقة النهائية على بيع الارض ، اشترط شداد « ان الارض تباع وفوقها حصان » وهكذا اشترى الحكيم . . حصاناً اهداه الى السلطان بمناسبة الذكرى الثالثة بعيد الجلوس على العرش.

وبعد ان اصبح حماد رئيساً للجهاز بشهور تقرر ان يسافر الى الولايات المتحدة ، لدورة تدريب مدتها ثلاثة شهور ، وان يصطحب معه ثلاثة عناصر للغاية ذاتها .

وفكرة السفر ، والى هذا المكان البعيد ، اقلقت حماد اكثر مما افرحته . يمكن أن يسافر إلى مصر، ويمكن أن يسافر إلى سورية أو العراق، أما أن يركب الطائرة ويعبر البحار ، ويواجه بشراً لم يرهم من قبل ولا يفهم لغتهم ، ثم ان يتحول ، مرة اخرى ، الى طالب ، وان يتلقى دروساً ، هو الذي لم يستطع ان يبقى ويواصل دراسته ، هذه الفكرة جعلته عصبياً وجعلت نومه قلقاً مليئاً بالاحلام المفزعة ، وكاد اكثر من مرة ان يطلب من الحكيم اعفاءه من هذا السفر . يمكن ان يختار العناصر التي ستسافر ، وقد يسافر في دورة لاحقة ، أما الآن ، وبحجة ضرورة وجوده على رأس الجهاز ، فانه يفضل ان يصرف النظر عن السفر ، لكن في الاجتماع الدوري التالي لابلاغه بالدورة ، فقد ذكر الحكيم للسلطان ان السفارة تلح على ضرورة الاسراع بايفاد رئيس جهاز الامن والسلامة « للاهمية » ، ولم يوضح الحكيم هذه الاهمية او ماذا تعني ، ولم يستطع حماد ان يعترض او ان يتذرع باية حجة .

ولمحاربة هواجسه ، وحتى الخوف الذي احس به ، بالغ في الاستعجال والاستعداد معاً ، لكي لا يترك لنفسه خياراً ، واختار العناصر الثلاثة التي

سترافقه في الرحلة ، بعد ان استشار الحكيم ، كما تم اختيار عنصر رابع للترجمة ، لكن لم « يوافق » على ارساله قبل ان ينضم للجهاز .

وقبل سفره ببضعة ايام وفّى بأول وعوده لعبد العزيز الغامدي (وشريكه سعيد الاسطه ، دون ان يذكر اسمه) فتعهدات القصر التي حارت بين عثمان الاصقى ، الذي كان خادماً عند السلطان خريبط ، وبين الاسطة عبد المجيد الذي كان كبير طباخي القصر ، هذه التعهدات التي ارتبكت واثارت من الاستياء أكثر مما اثارت من الشبهات ، تحولت بين يوم وليلة الى عبد العزيز الغامدي ، « لانه وحده الذي قدم تعهداً وكفيلاً بان تكون المواد التي سيقوم بتقديمها الى القصر جيدة وحسب المواصفات » .

هذه الهدية التي انتظرها سعيد بكثير من القلق واللهفة ، ولانها تأخرت اكثر مما قدر ، فقد اعتبر « ان حماد مثله مثل الآخرين ، لما وضع رجله بالقصر نسي اصحابه » أما عندما جاءه عبد العزيز حاملاً العقد موقعاً فقد ضحك بقهقهة عالية وقال :

ـ اول الغيث .

وبعد ان هدأ وقرأ العقد علّق :

ـ ظلمنا الرجل ، تصورته انه نسينا ، لكن اشهد بالله انه وفيّ .

رد عبد العزيز بفرح :

ـ الخير بالجايات يا ابو شكيب .

ـ الله كريم يا ابو الحميدي !

شداد المطوع الذي علم بسفر حماد قبل ثلاثة ايام من هذا السفر ، قال كلمة ظل الكثيرون يتذكرونها ، حتى بعد فترة طويلة ، قال :

ـ من الاجنبي والغريب ما يجي خير ابداً . وما دام ابن اخوي متحزم بذاك اللي ما يفرق بين الفرس والحصان ، ما ظني انه يفلح !

أما ابوه فقد حزن حزناً شديداً ، والكلمة الوحيدة الذي ظل يرددها دون تعب : « انا لله وانا اليه راجعون ، انا لله وانا اليه راجعون » .

انتقال حماد من القصر ولّد فراغاً لدى الحكيم يشبه الفراغ الذي يتولد من زواج الابنة ومغادرتها لبيت ابيها . ورغم ان غرفة حماد بقيت ، واطلقت عليها اسماء عديدة ، وكانت هذه الاسماء او التسميات بين الجد والهزل ، ومجالاً للمزاح ، الا ان حماد بقي في القصر خلال الاسابيع الاولى اللاحقة لانتقال الجهاز ، ثم اخذ يمّر ، بعد ذلك ، كل يوم ، لكي « يشرب القهوة مع الحكيم ومطيع ».ومع ذلك فان الشعور بالفراق ، او على الاقل البعد ، بدا كبيراً وفادحاً . فالحكيم تعود ان يستدعي مطيع او حماد مرات عديدة كل يوم ، لسبب او لآخر ، بحجة القهوة الجاهزة ، او للسؤال عن بيت من الشعر ، او للتأكد من واقعة تاريخية ، وبعض الاحيان للسؤال عن اسم مكان او شخص معين . وفي احيان اخرى لا يتردد في ان يمر على اي منهما ، بحجة انه تعب ويريد ان يستريح ، او لاي سبب آخر. وفي تلك الجلسات التي تطول ويتشعب فيها الحديث ويتناول كل شيء ، كان الحكيم يعتبرها رياضة عقلية ، بالاضافة الى اهميتها ، لانها عرّفته على موران اكثر مما تعرف عليها من خلال الكتب .

هذه العلاقة بدأت تأخذ منحى جديداً بانتقال حماد . صحيح ان الحكيم تصور ان غيابه مجرد اجازة او ما يشبه الاجازة ، لان الرجل لا يستطيع ان يغيب . هكذا قال لنفسه واضاف وهو يضحك : « حماد مثل الشرطي . . . اذا اخذ اجازة يجلس على باب المخفر». ومما اكد هذه القناعة ان حماد لم يغب عن القصر . ويبدو انه لا يستطيع الغياب ، فاذا لم يأت لقهوة الصباح ، وهي

التي يبدأ بها اليوم ، قبل ان يتوجه اي واحد منهم الى مكتبه ، وتتخللها احاديث عامة ونكت ، اضافة الى الحديث عن احلام الليلة السابقة ، واسعار الاراضي والاصدقاء الذين غابوا منذ فترة ، ثم ما جدّ في موران خلال الأيام الأخيرة ، اذ لم يجيء لقهوة الصباح ، فلا بد ان يأتي في وقت لاحق . واذا كان الحكيم قد راهن نفسه مرات كثيرة « ان لا بد ان يأتي في الصباح ، وقبل صلاة الظهر» ، فقد حصل عدة مرات وجاء بعد هذا الوقت ، بعده بقليل .

هكذا كانت العلاقة ، ولانها اخذت هذا النمط الصلب الذي بدا للحكيم انه غير قابل للتغير ، الا ان الامور بدأت تقلقه في المرحلة الجديدة ، بعد الانتقال . اصبح حماد يقضي وقتاً في مقره الجديد ، ثم لم تعد له مواعيد ثابتة للقهوة او للزيارة . صحيح انه يأتي ، وبعض الامسيات يقضي وقتاً طويلاً في القصر ، لكن اصبح مجيئه او انتظار مجيئه هاجساً يقلق الحكيم .

ومع ذلك ، ومثل اي شيء في هذه الحياة ، بدأ الحكيم يعوّد نفسه ثم ما لبث ان تعود ، واصبح يستعيض في حالات كثيرة عن اللقاء المباشر بالهاتف . كانا يتحدثان طويلاً ، وبعض الاحيان عدة مرات في اليوم . والاحاديث الهاتفية التي اخذت نمطاً لا يتغير ، اذ تبدأ بكثير من الرصانة ، وتتناول صلب مواضيع العمل ، فانها لا تلبث ان تميل شيئاً فشيئاً الى احاديث اخرى ، تماماً كما كان يحصل أثناء اللقاءات حول فنجان القهوة . وهكذا وجد الحكيم نفسه يخوض ، عبر الهاتف ، في اسعار الاراضي ومواد البناء . ولا يتردد ، بعض الاحيان ، في سؤال حماد عن ابن فلان الذي تزوج ابنة فلان ، وهل يعني هذا اجتماع ثروتين او تحالف عصبتين وماذا سيترتب على ذلك ، مالياً . . ويضيف وهو يضحك : وسياسياً !

وحماد الذي وجد في هذه الطريقة من الاتصال راحة ، واعتبرها تخفيفاً من اعباء كان يفترض ان يؤديها كل يوم ، لم يتأخر في ان يلجأ الى الهاتف ليعفي نفسه من هذا الواجب ، ومما ساعد على ذلك ان السلطان نفسه طلب مرات عديدة ، خلال الشهور الأخيرة ، إلغاء الاجتماع الاسبوعي المخصص للجهاز ولتقدير الموقف ، ورغم ان الحكيم اصرّ على ان يعقد الاجتماع ، كما لو ان السلطان موجود ، وتبادل مع حماد ومطيع المعلومات ، ثم قام بتقدير

الموقف ، فقد كان يعتبر « ان عادات مثل هذه تخلق التقاليد وان التقاليد هي التي تقيم الدولة في النهاية ، وهي التي ترسخها » لا يكتفي بذلك ، كان خلال هذا الاجتماع يبدو انساناً مختلفاً تماماً ، اذ اضافة الى الاوراق التي يحملها ، كان يدون الملاحظات عندما يتكلم اي من الاثنين الآخرين ، ويأخذ وجهه سمات جدية قاسية ، الأمر الذي لا يفعله في اية لقاءات اخرى . وبعض الاحيان ، وخاصة في غياب السلطان ، لا يتردد في استدعاء بعض الموظفين الكبار لسؤالهم عن بعض الامور او لاخذ رأيهم في القضايا المطروحة . « كل حسب اختصاصه ، او حسب مسؤولياته » كما يحاول ان يؤكد .

هذه الطريقة في العمل والتعامل لم تكن تثير اية ملاحظة في بداية الأمر ، لكن عندما توثقت العلاقات كثيراً بين حماد ومطيع ، واصبحت القضايا التي لا يخوضان فيها قليلة جداً ، وتتراجع يوماً بعد يوم ، قال مطيع في نهاية احد الاجتماعات الاسبوعية المخصصة لتقدير الموقف ، وبدا كلامه مواربا اقرب الى المزاح :

- من ينظر اليك ، يا ابو غزوان ، يظن ان صاحب الجلالة موجود بيننا !

ولما التفت اليه الحكيم مستغرباً ، تابع مطيع ضاحكاً :

- الله يخليك يا حكيم . . القضية ما تتحمل كل هذا الجد!

وضحك ثم اضاف :

- وانت نفسك بعد كم دقيقة تسأل عن زواج فلان وطلاق فلان !

ابتسم الحكيم ابتسامة مرحة وخرج صوته من صدره :

- يا ابني يا مطيع : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وانا منذ ايام الشباب ، ايام الدراسة ، ثم بعد ذلك ، كنت اعطي لكل شيء حقه . وهذا الدرس تعلمته منذ وقت طويل ، تعلمته من الالمان ، هم كانوا نموذجي . كانوا يشتغلون مثل الحمير ، ويأكلون مثل الوحوش ، ويمرحون كالاطفال ، أما الشعوب الاخرى فانها تخلط الجد بالهزل .

تـوقف ، هز رأســه عـدة مـرات ، عـبّ الهـواء بصـوت مسمـوع ، ثم اضاف :

ـ ومهمتنا نحن ان نبني دولة جديدة ، ان نخلق تقاليد وان نكون القدوة !

فاذا خلا مطيع بحماد فلا يتردد في ان يقول كلمة سريعة ظاهرها البراءة :

ـ يا اخي ، بعض الاحيان ، الحكيم يزيدهـــا ، حنبلي اكثر من اللازم ، ولا تعرف مزحه من جده .

وحماد الذي يسمع ، يراقب ، يتعـرف ، ويحاول اخيـراً ان يكتشف وان يربط الاحداث بعضها ببعض لكي يستنتج وليكون له ، في النهاية ، موقفه .

أما بعد أن سافر الى الولايات المتحدة، وغاب تلك الغيبة الطويلة، ثم بدأ يرسل الرسائل له ولمطيع، وقد قرأها الحكيم جميعها، فقد تأكد أن رأيه كان مصيباً، وأن زيارة من هذا النوع كانت ضرورية للغاية.

ارسل حماد للحكيم ثلاث رسائل ، ولمطيع اربعاً ، وهذه الرسائل تختلف بعضها عن بعض وتختلف حسب المرسل اليه .

بعث الى الحكيم اولى رسائله بعد سفره بعشرة أيام:

أتلانتاستي ـ ٢٤ نيسان الموافق ٧ صفر .

العم الكريم الدكتور صبحي المحملجي المحترم ، ادامه الله واعزه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد .

فنرجو الله سبحانه وتعالى ان تكونوا في اتم صحة واهـدأ بال ، وان يمّن عليكم بموفور الصحة والسلامة . فاذا سألتم عنا فنحن ولله الحمـد في احسن حال ولا ينقصنا الا رؤية وجوهكم الكريمة ، وعسى ان يحقق الله امنيتنا في وقت قريب . الاخوان بطرفنا يبعثون اليكم بتحياتهم الكثيرة المشتاقة ويسألون عن كل واحد بطرفكم ، وهـم ، ولله الحمد ، جميعاً بتمام الصحة والعافية .

الجماعة ، هنا ، اولونا اهتمامهم الكبير منذ ساعة وصولنا ، وقـد كلفوا جمـاعة بمـرافقتنا ، وامنـوا كل مـا يلزم لـراحتنـــا ، من حيث الأكل والمنـامـة

والمترجمين ، وعملوا لنا برامج لزيارة الديار الاميركية ، وانشاء الله بحال عودتنا نخبركم بالتفصيل .

فكرت ، ايها العم الكريم ، ان ابعث برسالة شكر لصاحب الجلالة السلطان ، وقد كتبت الرسالة فعلاً لكن خجلت من ارسالها ، ولذلك اعتمد عليكم في ان تقدموا شكري وعرفاني ، على ان اقوم بواجب الشكر فور عودتي لارض الوطن العزيز .

وفي الختام تقبلوا فائق اخلاصي وتقديري لشخصكم الكريم ولكل الاخوان معكم ، خاصة الاستاذ مطيع .

المخلص

خادمكم

حماد المطوع

أما رسالة مطيع فقد جاءت بعد رسالة الحكيم بثلاثة ايام ، وكانت كما يلي :

عزيزنا واخونا الاستاذ مطيع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد

فنرجو الله العلي القدير ان يجعلكم في اتم الصحة واحسن حال ، وان يجعل لقاءنا قريباً ، انه سميع مجيب .

اكتب اليك هذه الرسالة من المستشفى ، لاني دخلته بعد وصولي باربعة ايام ، والاطباء اكدوا لي ان المرض بسيط ، فقط احتاج الى الراحة وبعض الادوية ، ويبدو ان هواء هذه البلاد اثر علّي ، اضافة الى مرض قالوا انه وراثي ، وقد اجروا لي فحوصاً كاملة من قبيل زيادة الاعتناء والاهتمام . واذا سارت الامور بسلام اخرج من المستشفى بعد يومين او ثلاثة ايام .

اكتب اليك بهذا الامر ، والذي لم اخبر به الحكيم او العائلة ، لكي أطمئنك ، اذ يجوز ان تسمع الخبر من غيري فتقلق ، أما اذا سألت عن عناية الجماعة بنا واهتمامهم باحوالنا فانك تتعجب من هذه العناية وهذا الاهتمام .

لكن كما يقولـون ، الصديق عنـد الضيـق ، فتصور ان الاطبـاء والممرضـات يمرون عليّ مرات كثيرة كل يوم ، ويمازحونني ويسألون وكأنهم يعرفونني منذ وقت طويل .

ما عدا ذلك احوالنا ، ولله الحمـد ، جيدة والاخوان جميعاً بخير ويهدونكم تحياتهم القلبية المشتاقة . ودم لاخيك المخلص المشتاق .

حماد المطوع

الـرسالـة الثانيـة للحكيم لا تختلف كثيراً عن الاولى ، عـدا ان زيارات نظّمت للمجموعة الى هيوستن وتكساس ثم إلى سان فرانسيسكو، وهذه الزيارات كانت هامة جداً ، هكذا يصفها حماد ، ويضيف « ان الجماعة في سان فرانسيسكو سألوا عنك باهتمـام وباحتـرام كبير ، وقـالوا انهم سمعـوا بك ، ويتمنون ان تزورهم » .

أما الرسالة الثالثة والأخيـرة للحكيم فكانت قبـل مغادرة حمـاد للولايات المتحدة بخمسة عشر يوماً ، وقد كتبها من واشنطن . وتضمنت تحيات حـارة للسلطان وللحكيم ، وجاء في احدى الفقـرات منها : « اغلب الاجتمـاعات كانت مع اشخاص يتكلمون العربية ، ويعرفون تاريخ سلطنة موران ويكنون احتراماً كبيراً لصاحب الجلالة السلطان . وقـد سألـوا عن التفاصيـل المتعلقة بجلالته ، من حيث العمر وعدد الاولاد والاخوة وغير ذلـك . وقد اجبنـاهم عن جميع اسئلتهم بمنتهى الصراحة، فسـروا واعجبتهم كثـيراً صـراحتنا . وكذلك سألوا عن اصحاب السمو الامراء ـ ويعرفون اكثرهم بالاسم ـ واكدوا لنا ان دعوات ستوجه لهم من اجل زيارة الديار الاميركية . أمـا الاجهزة التي ارسلت إلى السلطنة فقد شاهدنا اجهـزة شبيهة بهـا ، ولكن معقدة أكثر ، واجرى الاخوان الذين رافقوني دورة على هذه الاجهزة واستفادوا كثيراً وحال عودتي سأنقل لكم التفاصيل » .

الرسالة الثانية لمطيع من اتلانتا ستي وبتاريخ ١٤ مايس

بعد التحيات والاشواق يكتب اليه ما يلي :

« لم اذكر لك عن الخوف الذي لازمني خلال اقامتي في المستشفى ، ليس

من المرض او حتى الموت ، وانما الخوف من الموت في ديار غريبة، وزيادة في الاحتياط طلبت ، وعلى شكل امر ، من الاخوان الذين رافقوني في الزيارة ، ان تنقل جثتي اذا مت الى ارض الوطن ، وعندما ضحكوا وقالوا ان القضية لم تصل الى هذا الحد ، اضطررت في احدى الليالي الى كتابة وصيتي ، وذكرت فيها هذا الامر بالذات !

الآن وقد تعافيت ، واصبح هذا المرض مجرد ذكرى ، وبدأت التجول مع الجماعة والمرافقين في مدينة اتلانتا ستي، ثم في المناطق المجاورة، ورأيت المدينة الكبيرة بابنيتها الهائلة والطرقات والحدائق والسيارات فقد شعرت بخوف من نوع آخر ، او شعرت اننا صغار مثل النمل مقابل العظمة الاميركية والقوة الاميركية .

كل شيء هنا منظم الى اقصى حد ، وكل شيء يمشي على الساعة : القطارات، الطائرات، النوم ، اليقظة ، العمل ، وحتى الراحة والنزهة. وقد صدف عدة مرات ان حُدّدت لنا مواعيد لاجتماعات وبعض الأحيان في امكنة بعيدة ، لكن مع ذلك كنا نصل في الوقت المحدد ودائماً دون تأخير .

الاميركان يحبوننا كثيراً ، وقد لمسنا ذلك في لقاءاتنا جميعها ، أما الاحتفاء والاهتمام والعناية فحدِّث ولا حرج ، ولولا البرودة في الجو لتمنى الانسان لو يعيش هنا ، او على الاقل لو يقضي وقتاً طويلًا . أما الاشياء الاخرى ، والتي لا يمكن ان تكتب ، فسوف احدثك عنها حال عودتي ! » .

الرسالة الثالثة من سان فرانسيسكو وبتاريخ ١٨ حزيران . وجاء في بعض فقراتها : « لولا الشوق اليكم والى الاهل والوطن لقال الانسان هذا مكاني ، صحيح انه يحتاج الى الوقت لكي يتعود ، لكن في هذه المدينة العملاقة ، والمتنوعة الاصول والاعراق ، مع اتقان اللغة الانكليزية ، يمكن للانسان ان يعيش لفترة غير قصيرة ، في المدينة وحواليها . انها تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين. البنايات التي لا يستطيع الانسان ان يرى نهاياتها ، والشوارع التي لا يمكن لغريب ان يسير فيها دون خوف ، والجسور المعلقة والبحر الهائج . واجمل شيء في سان فرانسيسكو هو ليلها . المدينة لا تنام ولا تدع

احداً ينام ، حتى في ساعات الصباح الاولى ترى الرجال والنساء في المقاهي ، في المطاعم ، في الشوارع ، في كل مكان . سألت المرافقين : متى ينام هؤلاء الناس ؟ فضحكوا ولم يجيبوا عن سؤالي .

اتصور ان كالفورنيا من اغنى واجمل بقاع الارض ، وهذا ما اكده لنا بعض الطلبة العرب . (وبالمناسبة فقد التقيت بغزوان وقضينا معاً وقتاً ممتعاً . وبدا لي انه جيد بدراسته ومعلوماته ، وقد اتفقنا ان نبقى على صلة في المستقبل ، وحال عودتي ساخبرك بالتفاصيل ، ولم انس ان ابلغه تحيات الجميع) .

كل شيء اخضر في هذه البلاد : الغابات ، الحقول، الشوارع ، خضرة لا يصدقها الانسان الا اذا رآها .

وفي هذه المنطقة مجموعة من المصايف والبحيرات ، وقد سألت كبير المرافقين ما اذا بالامكان ان يأتي الانسان مع عائلته او مجموعة من الاصدقاء لقضاء فترة شهر او شهرين ، فأكد لي ان ذلك ممكن جداً ، فقط يجب ان اخبرهم قبل مجيئي بمدة كافية ، لكي يهيئوا لي ما يلزم . افكر ان ارجع الى هذه الديار اكثر من مرة ، وان امشي واتجول دون رقيب ودون حسيب ، وانت تعرف ماذا اقصد !

وحالما نلتقي سوف احدثك الكثير الكثير عن هذه المدينة ، عن ليلها ونهارها ويمكن ان ترتب لنا زيارات الى هنا في المستقبل » .

أما الرسالة الأخيرة التي بعث بها حماد الى مطيع فكانت من واشنطن وبتاريخ ٩ تموز .

« لا بد ان تزور أميركا، هذا رأيي ورأي الاخوان الذين يرافقونني، خاصة بعد الاحتفالات التي شاهدناها في الأيام الأخيرة ، وفي العاصمة الاميركية . لا يتصور الانسان ولا يتخيل العقل ان احتفالات مثل هذه يمكن ان يشاهدها في مكان آخر او في زمان آخر : الخيول والطبول وحملة المشاعل ، الرجال والنساء ، الاطفال الصغار والشيوخ الكبار ، في الشوارع ، في الساحات ، في كل مكان . جماعتنا ، يا اخ مطيع ، انهبلوا ، بس فاتحين

حلوقهم ويناظرون . حتى المرافقون الذين كانوا معنا بـدوا بشكل مختلف عن الأيام السابقة ، انهم يرقصون مع الراقصين ، يضحكـون ويهزجـون ، ولولا الخجل ، ولولا اننا وفد رسمي رفيع المستوى لكان من الممكن أن نشترك .

اميركا ، يا اخ مطيع عظمة لا توازيها اية عظمة اخرى . ومثلما ذكرت في رسائلي السابقة : الابنية ، الشوارع ، المـطارات ، حتى المطاعم والفنـادق ، وحتى البشر، والآن، ولم يبق على اقامتنا الا ايام قليلة، اشعر ان هذه الزيارة كانت ضرورية بالنبسة لي ، لانها كانت مفيدة ، وهامـة ، ولا بد ان اكـررها مرات ومرات، وأرجو من الله أن يمكننا من زيارتها معاً، وأتمنى أن ألقاك قريباً وسوف نتحدث طويلاً».

رافقت عودة حماد موجة كبيرة من الاحتفالات والاهتمام والحركة ، وقد تخللتها الاحاديث والاسئلة ، وابدى الجميع رغبة في ان يسمعوا منه مباشرة ، وان يعرفوا كل شيء عن « هذه الاميركا » . وحماد بانفعاله واجاباته كان يكرر الاجابات ذاتها مرات ومرات ، لان الاسئلة التي كانت تطرح متشابهة ولا تكاد تتغير . والحكيم الذي عاتب حماد لانه لم يخبره بمرضه ، حاول ان يكتشف ، قبل الآخرين ، نتائج هذه الرحلة وتأثيرها ، ولذلك تمت بين الاثنين عدة زيارات ، وقد تخلل تلك الزيارات الكثير من الاسئلة المفاجئة والمتباعدة ، لان الحكيم ، عندما كان طالباً في النمسا ، قرأ دراسات حول الطريقة المثلى والمؤكدة للاختبار او لقياس الذكاء ، وتتلخص هذه الطريقة بان يُسأل الانسان بسرعة ، وفي موضوعات متعددة لا صلة بينها ، وعلى ضوء رد الفعل ، وسرعة الاجابة ووضوحها ، يكتشف مدى قدرة العقل ، ومدى التنظيم الذي يربط بين اجزائه . لجأ الحكيم الى هذه الطريقة من خلال اسئلة اعدها سلفاً ، وقد خرج نتيجة هذا الاختبار ان « حماد برنجي ، لهذا العمل ولاي عمل آخر » وهذا ما دعاه لان يرتب له موعداً مبكراً مع السلطان .

اثناء اللقاء مع السلطان ، حاول حماد بكثير من الجهد والتركيز ان يلخص انطباعاته عن الزيارة ، ان يصف ويقول كل ما شاهده ، وما احس به ، لكنه ، ومنذ البداية ، اكتشف انه مرتبك ، وان افكاره تضيع وتتداخل ، ولذلك لم يقل الاشياء التي كان يريد ان يقولها ، او قالها بشكل مختلف . ورغم المساعدات العديدة التي قدمها الحكيم ، سواء بالاشارة الى الرسالة التي كتبها

حماد الى السلطان ، عندما كان في اتلانتا ، او الى الوصية اثناء المرض ، فـان هذه الاشارات شغلت السلطان اكثر مما شغلته الامور الاخـرى ، فطلب من حماد ان يطلع على الرسالة وعلى الوصية معاً . وحماد الذي بدا محرجـاً وخجلاً اعتبر نفسه انه وقع ضحية مؤامرات صغيرة ومكشوفـة ، سواء من الحكيم او من مطيع ، لكنه ، مع ذلـك ، قال اشيـاء كثيرة ، وإن ظل في شـك حول اهميتهـا ومدى تـأثيرهـا . ولما تـوقف عند زيارته الى واشنطن ، والاسئلة التي وجهت اليه ، والخاصة بالسلطان ، فقد تغير الجو ، اصبح دقيقاً وربما حرجاً ، لان السلطان الذي كان شديد المرح وراغباً بـان يستمر الحـديث هكذا ، من موضوع الى آخر ، فتح عينيه بما يشبه الاستغراب ثم مسّد على لحيته وسأل :

ـ قلت لي سألوك عن اولاد السلطان واخوانه ؟

وتغيرت لهجته قليلاً ، اصبحت اميل الى السخرية :

ـ وانشاء الله سألوك عن حريمه ؟

ونفى حماد بسرعـة وحِدّة ان يكـون سؤال مثل هـذا وجه اليـه ، اجاب بحزم :

ـ ولو سألوني ، يا طويل العمر ، اقص لساني قبل ما اتركه يقول كلمة .

ـ وسألوك عن الامراء ؟

ـ قالوا انهم يريدونهم بزيارة وراح يرسلون الدعوات .

ـ وفنر . . سألوك عن فنر؟

ـ لا يا طويل العمر .

وبعد قليل استدرك مرتبكاً :

ـ سألوني ، يا طويل العمر ، عن الاعمار ، وسألوا عن ترتيب الامراء .

وبدا واضحاً ان السلطان لم يكن مسروراً من اسئلة الاميركيين عنه او من رغبتهم بتوجيه الدعوة للامراء لـزيارة الـولايات المتحـدة ، قال بعـد فترة من الصمت :

ـ ما احد تذكرنا، ما احد زارنا او قال لنا تعالوا، قبل ما يطلع النفط من تحت رجلينا .

وزفر بحرقة واضاف :

ـ الله يرحمك يا خريبط : قلت لهم هذا هو الذهب . . وكلهم ركضوا .

والحكيم الذي لم يعرف كيف يقود المناقشة من جديد ، او كيف يجعل الجو اكثر مرحاً ، بدا له في لحظة معينة ان كلمات السلطان تحمل معاني كثيرة ، وربما كان يقصده ايضاً . ولذلك بذل جهداً ليغير مجرى الحديث ، فلما بدا له ان اللحظة مناسبة ، قال بفخامة وهو مطرق :

ـ ارى ، يا صاحب الجلالة ، ان دعوةً توجه اليكم لزيارة اميركا ضرورية جداً ، دعوة من الرئيس الاميركي نفسه ، لان هناك اموراً كثيرة يجب ان تبحث مع جلالتكم !

رد السلطان بنوع من السخرية :

ـ تقبلها يا حكيم ؟ تبينا نقول لهم : اعزمونا يا جماعة الخير ، نريد نجيكم بزيارة ؟

وضحك فبدا صوته خشناً وقد تخللته الحشرجة :

ـ لو كانوا جماعتنا ، بينا وبينهم خبز وملح ، كان قلنا لهم : ولّوا انفسكم يا جماعة الخير ، باكر حنا ضيوفكم .

ـ الحق ما تقول ، يا صاحب الجلالة .

هكذا رد الحكيم بتواضع ، ثم اضاف وقد اصبحت لهجته جادة اكثر مما ينبغي :

ـ هم لازم يركّضون ورانا، ونقول لهم : اليوم لا ، واللي بعده لا ، وبعد ما ينشف ريقهم وهم يركضون نقول : ما يخالف ، على خيرة الله ،ونحدد لهم متى نجي وكم نجلس واللي يعجبنا واللي ما يعجبنا .

رد السلطان وقد انفرجت اساريره :

ـ هذا الكلام اللي ينقال يا حكيم !

وهز الحكيم رأسه وقد بيت امراً . ثم اخذ الحديث وجهة اخرى : سأل السلطان عن المناخ والطعام ، وسأل عن صحة الرئيس الاميركي وما اذا كان الناس يحبونه ام لا ، وكاد يسـأل عن امور محـددة لكن وجد نفسـه اقرب الى الحرج ، التفت الى الحكيم وقال له :

ـ وقالوا لي ، يا حكيم ، ان الجماعة هناك ، بالزواج ، مـا يفرّقون بين الحلال والحرام . . اللي يطيح بايديهم .

قهقه الحكيم في محاولة لان يخلق جواً مرحاً يساعد حماد على المشاركة ، فلما ظل حماد صامتاً ، وقد اطرق الى الارض ، سأله :

ـ نسينا نسألك ، يا حماد ، النساء هناك جميلات ؟

تطلع اليه حماد بنظرة هي مزيج من اللوم والعتاب والخجل ، وقد ادرك ان الاشارات الخفية التي وردت في رسـائله الى مطيـع عرف بهـا الحكيم ، وربما حدّث السلطان ايضاً ، رد ينهي الموضوع :

ـ مثل كل مكان يا حكيم ، فيهن المزيونـات وفيهن المعظّمات اللي مـا ينشرن بشّلك .

وانتهت الزيارة ببعض التعليقات المرحة ، مع كلمـة قالهـا السلطان وهو ينهض ليودع حماد :

ـ فتّح قلبك وعينك زين ، يا وليـدي ، والقلب قبل العـين ، وعسى ان الله يوفقك .

ومن الذين سروا اعظم السرور بعودة حماد ابوه . كان مثل طفل لا يقوى على اخفاء فرحه ، وكاد يجر البعير الذي نذره ان عاد حماد سالماً ، كاد يجره الى المـطار ليذبحـه هناك . لـولا ان ابناءه واخـوته رأوا في ذلـك خفة لا تنـاسب العائلة ، وقد يغضب هذا التصرف حماد ايضاً. وهكذا ذبح البعير في السوق، على مرأى من الكثيرين ،ولم يحمل من لحمه الى البيت حـتى قطعة صغيرة، اذ وزع بكامله على فقراء موران . وظـل صالـح المطوع خـلال يومـين او ثلاثـة يستقبل الضيوف . ويستمع باهتمام الى ما يقوله ابنه ، خلافاً لكل السفرات

السابقـة . وخلافاً لكل المسافرين الآخرين ، والذين كانوا يغيبون في اسفارهم فترات طويلة . كان صالـح على قنـاعة ان ابنـه عاد من مكـان بعيد ، بعيـد وخطر ، وان قلـة من الـذين يصلون الى هناك يعـودون . لا يدري من اين جاءته هذه الافكار او كيف امتلأ بهذه القناعة ، لكنه كان على يقين راسخ ، أما عندما علم ان ابنه مرض هناك وادخـل المستشفى وعولـج ، فقد تـأكدت شكوكه ونبوءته. قال لابنـه في نهاية الليلة الثـالثة لـوصولـه ، وبعد ان انفض الضيوف :

ـ ديرتنا ، يا وليدي ، ارحم ، واذا الواحد منه خير لاهله ولخوياه ، واذا مات ، يموت بارضه ، بين اهله وخوياه .

عمه شداد كان يخفي عواطفه ، عكس ابيه ، فما كاد يهـدأ الجو قليـلاً ، وبعد ان سلّم حماد على الجميع ، حتى قال له :

ـ اسمع يا حماد . . هالحين حنا اللي نشور ، وحنـا اللي نقـول ، أما ذاك العظريط، اللي ما يفرق بين الناقة والبعير فخله يشور على من يستاهل شوره .

وفهم كلام شداد على اكثر من وجه، وفهم انه يقصد اكثر من واحد . أما حين اختلى بحماد فقد سأله :

ـ يا وّل ، يا حماد ، شنهو الـلي دهاك ؟ الـواحد منـا بديـرته ، بـين اهله وعشيرته دايخ ، وانت رايح تهفي من ديرة لديرة ، ومن عشيرة لعشيرة ، وكأن آل المطوع اولادهم كثرت وثاراتهم خلصت !

فلما قهقه حماد لكلام عمه ، اضاف العم :

ـ وهذي الديرة يا ابن اخي احسن من غيرها وجمـاعتك احسن من غـير جماعة .

أما الجد مفلح الذي لم يعرف بسفر حماد الا يـوم عودتـه ، حين اكتشف الحركة الزائدة والاستعداد ، فقد تطلع الى مطلق وسأله :

ـ ها . . يا جدّي مات احد ؟ من مات ؟

وحين هز مطلق رأسه عدة مرات دلالة النفـي ، مع ابتسامة كبيرة ملأت

وجهه ، سأل من جديد :

ـ ها . . من راح يعرس ؟

فلما استعمل مطلق المحقان ، بعد ان حسنّه قياساً لفترة سابقة ، وابلغه ان حماد سيصل اليوم ، تطلع الجد بكثير من الاستغراب وسأل :

ـ ويرجع منين؟ ومتى راح؟

ـ راح لاميركا من شهور !

ـ امريكا !

ـ إي نعم اميركا .

ـ وهذه . . مشرّق او مغّرب ؟

ـ مغرب .

ـ الناس تروح مشرق يا وليدي ، ومن مشرق تجي الحنطة ويجي الخام ، ومن هناك يجي الخير ، وشنهو اللي اخذ حمادنا مغرب ؟ ما احد شار عليه ؟ ما سأل احد ؟

وظل الشايب في حيرة من امره ، فلم يسمع بهذا المكان ، وكان يعرف ان الناس ، اغلب الاحيان ، يسافرون الى الشرق ، أما ان يسافر حفيده باتجاه آخر ، ولا يعرف ايضاً ، ويعود ، ويرى الناس في حركة حوله ، خلافاً للاسفار الاخرى ، وخلافاً للمسافرين الآخرين ، فقد قدّر ان حماد اصبح شيئاً مهماً . قال بحزم :

ـ اذا جاء قل له يمر بي ويسولفني .

وبدا حماد شخصاً جديداً بالنسبة للجميع ، بالنسبة لمرؤوسيه واصدقائه ، وحتى بالنسبة للنساء ، فقد ظلت زوجته تنظر اليه صامتة ، وكأنها تكتشف آثار السفر على وجهه ، في عينيه ، وتريد ان تعرف ما اذا تغير ام لا ، وهل عاد اليها مثلما سافر ؟ أما امه فكانت مثل ابيه ، تركض من مكان ألى آخر ، ولا تعرف اتضحك ام تبكي ، كانت دموعها تنحدر ، تتساقط ، ولم تكن تفعل

شيئاً لمنعها او لحجب وجهها عن الاطفال والصبية !

أما عندما زار حماد جده ، وكان ذلك بالحاح من الجد نفسه ، وبعد ان جلس الى جانبه ، فقد تطلع اليه وكأنه يتعرف عليه لاول مرة ، وبعد ان ابتسم الجد ولاطفه بان ربت على فخذه سأله :

ـ ها يا وليدي . تمر هذه الديرة احسن ام ديرة مغرّب ؟

ولما ابتسم حماد ولم يجب ، مع ان الجد انتظر ، وبعدما تطلع طويلاً الى حماد ثم الى مطلق تابع :

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا ، يا وليدي ، وجماعتنا تروح مشرّق ؛ اشوفك انت رايح مغرّب ؛ عسى انك لقيت شيء بمغرب ؟

ولما ضحك حماد بصوت عالٍ ولم يفهم الجد ، ولم يترجم مطلق ، مع انه كان يحمل محقانه وفي حالة استعداد كامل لان يترجم ، قال الجد :

ـ اذا عشنا نشوف . وعسى ان يكون خير !

كيف يمكن لثلاثة شهور ان تغير انساناً بهذا القدر ؟ او كيف يمكن للانسان ان يتغير ، ان يصبح انساناً آخر ، خلال فترة قصيرة كهذه ؟

فبعد ان هدأت الضجة ، واراد حماد ان يستريح يومين او ثلاثة ايام ، قبل ان يعود الى العمل ، وفيها يحاول ان يقنع نفسه بالاسترخاء ، وجد ان حواسه كلها تتوتر ساعة بعد اخرى ، تصبح مستفزة ، وان عقله ينتقل من مكان الى آخر بسرعة البرق ، بحيث لم يعد قادراً على البقاء في مكان بعينه ، او ان يفعل شيئاً محدداً . وفجأة في مساء اليوم الأول ، وفيها الحوانيت المتأخرة في موران تغلق ابوابها ، وجد نفسه يتوجه الى مكتبه .

لاول مرة ، منذ ان بدأ العمل ، يتوجه الى مكتبه في مثل هذه الساعة . اثار وصوله ، لدى موظفي الخفر القلائل ، الاهتمام الكثير ، بل اثار التساؤل والقلق ايضاً ، وقد عزز لديهم هذه المشاعر حين طلب استدعاء بعض مسؤولي الاقسام واثنين من قارئي الشيفرة . ماذا يريد رئيسهم في هذه الساعة من الليل ؟ الا يمكن تأجيل ما يراد عمله الى الغد ؟

وخلال اقل من ساعة كان معظم مسؤولي جهاز الامن والسلامة في حالة اجتماع ، وقد استمر هذا الاجتماع مدة ثلاث ساعات ، تم خلاله استعراض أحداث الشهور الماضية ، واهم الاحداث التي وقعت ، وكيف تم التصرف ازاءها ، وانتهى بتوجيهات عامة . أما حماد نفسه فقد بقي بعد الاجتماع عدة ساعات اخرى ، ونتيجة بقائه اضطر عدد من مرؤوسيه للبقاء ايضاً ،

رغـم ان لا عمل لديهم . وقد استعرض في هـذه الساعـات بعض الاوراق والملفـات ، كما استخـرج من العلبـة السـاعـة الانيقـة التي اهـديت اليـه في واشنطن . كانت ساعة مكتب بحجم قبضة اليد ، لها اطار اصفـر يليه اطـار مخملي اخضر اللون ، وكانت هذه الساعة ، بالاضافة الى التوقيت والتاريخ ، تنبه ، بجرسها الناعم ، لكن الواضح ايضاً ، الى انتهاء توقيت معين ، فـاذا حدد حماد لاجتماع وقتاً معيناً ، نصف ساعة مثلا ، فكان الجرس يتولى تنبيهه وزائره الى ذلك ، ثم يفعل ، مرة اخرى بعد خمس دقائق، وهكذا . . الا اذا اعيد توقيته من جديد .

يضاف الى مزايا هذه الساعة مزية اخرى لا يعرفها سوى حماد ، ولم يبح بها لاحد في موران . كانت الساعة عبارة عن آله تسجيـل ، يمكن ان تسجل اي حديث يدور في غرفته ، مهما كانت المسافة بعيدة .

لقد اهديت الساعة الى حماد في الاجتماع الأخير الذي ضمه على انفـراد ورئيس قسم السـلامة في واشنـطن ، ولم يكن معهما سـوى المتـرجم ، وليس المترجم الذي جاء به حماد معه ، وانما آخر كان يعمل في الادارة المضيفة .

في هذا الاجتماع وفي اجتماعات اخرى عديدة ، واغلبها كان يتم مع حماد على انفراد ، قيلت اشياء كثيرة ، صحيح انها اختلطت وتـداخلـت الى درجـة كبيرة ، لكـن مـع ذلك ظلت واضحة او قريبة من الوضوح في ذهنه ، وان كان لا يستـطيع ان ينقلهـا ، سواء للحكيم او لغيـره ، لان التنبيهات ، والتي اخذت اكثر من شكل ، جعلته يقتنـع ان من الافضل بقـاءها لـه ، له وحده .

الآن وهو يضع الساعة على مكتبه ، ويوقتها على الثالثة صباحاً، ثم يتيه في ذكريات واحلام بعيدة ، فتتداخل الصور والروائح والامكنة ، ويلقي نظرة من النافذة على موران ، فيراها نـائمة هـادئـة وكـأنها تنام الى الابـد ، ويرى الاضواء تشع فقط في هذا البناء الذي يتولى رئاسته ، يمتلىء بمشاعر هي مزيج من الفخر والقوة والخوف .

لم يكن هكذا في يوم من الأيام ، وان كان شعور القوة هو الذي يطغى على

باقي المشاعر ، وهذه القوة التي يحس بها ليست بعدد الرجال الذين يعملون معه ، ولا بالاجهزة التي تملأ الجزء الخلفي من مبنى الأمن والسلامة، والتي لا تتوقف عن العمل ليل نهار ، انها اكثر من ذلك ، انها « المعرفة » ، فهو الآن يعرف اكثر من الجميع وافضل منهم ، وقد تأكد ان الذين يعرفون اكثر والذين يعرفون افضل هم الأقوى.

قالوا له في واشنطن انهم يعرفونه جيداً ، يعرفون كل شيء عنه ، من يكون ، عمره ، ترتيبه بين الاخوة والاخوات ، تجارة ابيه واعمامه واخواله ، وذكروا له لون السيارة المكشوفة التي كان يستعملها ونوعها وسنة صنعها ، ومع هذا فإن الذي كان يتحدث معه جاء على ذكر الموضوع عرضاً ، واكتفى بقراءة هذا القدر من المعلومات ، ثم طوى الملف وهو يضحك ، مشيراً الى ان لديهم من المعلومات الكثير الكثير ، عنه وعن الآخرين في موران . وهذا الأمر الذي افزعه في البداية ما لبث ان تطلع اليه بنوع من التقدير .

الآن ، في موران ، في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وبعد الاجتماع الذي عقده مع رؤساء الاقسام ، يحس ان المهمة المنوطة به من الضخامة والاهمية بحيث لا يستطيع غيره ان ينهض بها . صحيح انه لا يعرف كيف او ماذا يريد ، لكن مع ذلك عليه ان يكون انساناً جديداً ، حتى بالنسبة الى نفسه . واذا كان قد اختار هذا الوقت بالذات لزيارة المكتب ، دون انذار سابق ، وان يبقى حتى هذه الساعة ، ولا يعرف لماذا فعل ذلك ، يحس ان هذه البداية وهذه الطريقة يمكن ان تخط له طريقاً جديداً وخاصاً به .

ظل سارحاً في افكاره واحلامه فترة طويلة ، لكن ما كادت الساعة تدق معلنة الثالثة حتى استعاد نفسه من الخدر اولاً ، ثم من الذكريات والاحلام بعد ذلك. أما وهو يركب سيارته فقد تطلع الى الحرس بنوع من القسوة ، وكأنه يؤنبهم انهم ليسوا بالهيئة او اليقظة الكافية. وحين كان يعبر شوارع موران كان يلتقي بالذين يحملون الخضار وبالذاهبين الى المسجد ، ويلتقي بعدد من الرعاة وببعض المسافرين. لأول مرة كان يتطلع اليهم بطريقة مختلفة عن السابق : احصى عددهم باهتمام ، تمعن بملابسهم وهيأتهم ، وراهن نفسه ان لا بد من

معرفة عدد منهم . أما عندما انعطفت السيارة ومرت امام قصر الـروض فقد تطلع الى القصر بإمعان وكأنه يراه لأول مرة، ولم يسهُ عن مراقبة الحرس وإحصاء عددهم أيضاً .

واكثر من اية مرة سابقة ينام حماد حتى الضحى العالي ، وابوه الذي ذهب الى السوق مبكراً ، وعاد الى البيت لقهوة الضحى ، وسأل عنه ، ثم لما رآه يتمطى وفي عينيه وعلى وجهه بقايا النوم ، قال وهو يضحك :

ـ خل ببالك ، يا وليدي : حرار الطير ما تشبع الا بمخالبها ، ونومها نوم الكراكي ، أما اذا جاء الفجر فتسري .

هز حماد رأسه وشارك اباه الابتسام ، ثم اوضح له بعد ذلك ان الانسان يحتاج الى ايام لكي يتعود التوقيت الجديد ، لان فرق التوقيت بين موران وواشنطن سبع ساعات !

وهز ابوه رأسه دلالة انه سمع لكنه لم يفهم ماذا يعني بفرق التوقيت ، وكيف يمكن ان يكون . أما بعد ان سأل آخرين فقد ازداد تشوشه ، لانهم تكلموا في امور لم يفكر فيها ولم يسمع بها من قبل .

في فترة لاحقة ، وحين وصل حماد عند الفجر او بعده بقليل ، وكان يرى الجد يحاول بصعوبة تلمس طريقه من اجل ان يشرع باعداد قهوة الصباح ، وقف الى جانبه يساعده ، يقدم اليه ما يطلبه او ما يحتاج اليه ، وكان الجد يقبل هذه المساعدة بفرح . فلما انتهى قال له وهو يطلب منه ان يقترب لانه يريد ان يفضي اليه بسر :

ـ قلت لهم : اتركوا حماد ، حماد يدل دربه ولا بد يصل ، اذا مو اليوم اللي عقبه !

وضحك بصوت عالٍ ثم اضاف متسائلاً :

ـ وصار لي كم يوم اشوفك تدبي الفجر ، يا وليدي ، او قبل الفجر ، وكأنك صرت امام مسجد او تصلي جماعة !

ويتطلع الى حماد بعينيه الخابيتين في ظلمة الصباح الأخيرة فلا يرى الا

اشباحاً ، ولا يعرف ماذا حصل في هذه الدنيا !

هل قال الاميركيون لحماد ان يقلب نهاره ليلاً وليله نهاراً ام توصل الى هذه الفكرة بحدسه الملعون ورغبته الجامحة المجنونة ؟

لو ان الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد جواباً له ، لكن حماد لا يتوقف عن التغير ، ويتفتق ذهنه كل يوم عن فكرة جديدة واسلوب جديد . ولان هذه الافكار والاساليب لا تقتصر عليه وانما تطال الآخرين ايضاً ، فقد لفتت نظر الحكيم ، اذ بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع ، وبعد ان تأخر حماد عن زيارته في الصباح ، او حتى قبل صلاة الظهر ، ثم محاولاته للاتصال به مرات عديدة اثناء النهار ولا يجده ، فقد جعلت هذه الامور الحكيم يستغرب . أما حين جاء من ابلغه ان حماد ، نهاراً ، في البيت ، وفي المساء ، وحتى ساعة متأخرة ، في المكتب ، فقد سأله حين التقيا في الاجتماع الاسبوعي :

ـ الظاهر يا ابو راشد ان توقيت اميركا آخذ عليك!

ولما تطلع اليه حماد بشيء من الاستغراب والتساؤل ، ولم يفهم مغزى الكلمات التي قالها ، ضحك الحكيم وتابع :

ـ نبحث عنك نهاراً في المكتب يقولون غير موجود ، نبحث عنك في البيت ليلاً يقولون غير موجود !

وبعد مناقشات طويلة متشعبة ، حاول حماد خلالها ان يوضح لماذا يداوم ليلاً ، وكيف ان التجربة ، رغم غرابتها وصعوبتها ، اعطت نتائج افضل ، من حيث انصراف جميع العاملين في الجهاز الى انجاز اعمالهم بسرعة ودقة ، اضافة الى امكانية استقبال بعض الاصدقاء ، دون ان يلفتوا نظر احد ، والاستفادة من اخبارهم ومعلوماتهم . بعد ان سمع الحكيم ما قاله حماد علق مازحاً :

ـ انا معك، جهازكم جهاز خاص ، وله وضعية مختلفة عن الدوائر الاخرى ، وحتى اذا داومت في بعض الحالات ليلاً ، فان من الضروري الا توجد لهذا الجهاز تقاليد ثابتة او يعرفها الناس .

وضحك الحكيم وكأن افكاراً كثيرة تصطرع في رأسه ، ثم اضاف

ـ فكرة ان تزور المكتب ليلاً رائعة . وفكرة ان يكون في المكتب من يسهر ويتابع ضرورية ، لكن لا تلزم نفسك او تلزم الآخرين بالدوام الليلي .

وحماد الذي هز رأسه دلالة الموافقة والاقتناع قرر ان يستفيد من كل شيء . . . . ومن كل وقت ايضاً .

اتسمت العلاقة بين مطيع وحماد ، منذ الأيام الاولى لتعارفهما ، بطبيعة خاصة ، حتى ليظن من يراهما بعد شهر من هذا التعارف ، وكأنهما اصدقاء منذ مدة طويلة ، ولقد سُرّ الحكيم الى اقصى حد من الالفة التي قامت بين الرجلين ، وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تشبه ظواهر اخرى مماثلة في الطبيعة وبين البشر ، وحتى بين الحيوانات ، قال الحكيم لنفسه وهو يتذكر اشياء كثيرة « من الصعب ان نعزو ظواهر معينة كالالفة او الصداقة مثلاً الى اسباب مباشرة او محددة ، كما انها ليست نتيجة الرغبة . المسألة اكثر تعقيداً من ذلك ، انها ترتبط بالعقل غير الواعي ، او بمنطقة الظل ، كما يسميها العلماء . . فعن طريق اللاوعي ، وفي منطقة الظل بالذات ، تعمل قوى لا ندركها ، تماماً كما يعمل القلب دون ارادة الانسان ودون رغبته ، وهذه القوى هي التي تكّون عواطف البشر ونوازعهم . . وحتى عقولهم » .

هذه الظواهر في الحياة والكون ، او ما شابهها ، كانت تشغل الحكيم ، فيفكر فيها تفكيراً طويلاً متواصلاً ، لانه يعتبر ان مجرد التفكير رياضة هامة وله تأثير يطال الجسد ايضاً . لماذا يحب الانسان ولماذا يكره ؟ والحب والكراهية هل هما امران نفسيان وغير عقليين ام انهما اكثر تعقيداً وتشابكاً من ذلك ؟ وما يقال عن اللحظة الاولى والنظرة الاولى هل هما حقيقة ثابتة وكلية ؟ هكذا يتساءل ، وفي محاولة لتأكيد قناعته يأتي بالامثلة الحسية : علاقته بالسلطان خزعل مثلاً ، لقد بدأت منذ الساعة الاولى ، وما تلا ذلك تأكيد وتفاصيل . ومطيع وحماد : كيف تعارفا وارتبطا وكأنهما خلقا ليكونا هكذا منذ الازل ؟ وبالمقابل مطيع

وسعيد ، اذ رغم القرابة النسبية التي تربطهما ، فقد خلقا لكي يكره احدهما الآخر ، « حتى ان الواحد لا يطيق الارض التي يمشي عليها الثاني » هكذا يقول الحكيم لنفسه .

بعد ان توطدت العلاقة بين حماد ومطيع ، واصبحا يتبادلان الافكار ويصلان ، اغلب الاحيان ، الى قناعات واحدة او متشابهة ، باقل الكلمات ، وباقل الجهد ، قال الحكيم ذات يوم ، وهو يتحدث عن هذا الموضوع بالذات ، لكن دون ان يشير الى مثل عملي :

ـ القلوب يا جماعة الخير سواقي ، ومهمة الانسان ، مهمة العقل ، ان يفتح بين السواقي لكي تصب في النهر الكبير .

هذه الفكرة المركزية في عقل الحكيم لها ترجماتها العملية المتعددة ايضاً ، فان يكون هذان الركنان منسجمين متفاهمين ، دون قسر او ارغام ، ودون تدخل مباشر منه ، معناه ان نصف المهمة التي يفكر فيها قد انجز . وهذا ما يفسر التأخير الذي حصل في البداية من اجل اختيار رئيس لجهاز الأمن والسلامة والتردد الذي رافقه ، أما بعد ان ساقت الصدفة الموفّقة حماد ، وذلك التعاطف الذي حصل ، ثم العلاقة التي قامت مع مطيع ، فقد اعتبر الحكيم ان « منطقة الظل » او القوة الخفية لا تزال تحالفه وتقف الى جانبه ، وهذا مما شجعه على تقديم اقتراح للسلطان لاختصار مدة اختبار حماد ، وبالتالي تسميته رئيساً لجهاز الأمن .

في فترة سفر حماد كانت فرصة للحكيم لان يعيد التفكير بكل شيء ، قضى ليالي بكاملها مفكراً مهموماً ، وهذا التفكير وهذا الهم ليس مبعثهما انه لا يعرف ما يريد ، وانما كيف يجمع اطراف الشبكة ، كما كان يقول لنفسه ، ثم كيف يواصل الابحار في بحر الظلمات ، لان موران والناس فيها بقدر ما يبدون له بصورة من البساطة والطيبة ، واقرب الى المسالمة ، فان المظاهر ، في احيان كثيرة ، خداعة مضللة ، تماماً كالمياه العميقة . فهي غالباً ما تكون ساكنة هادئة ، لكنها فجأة تتغير ، ولذلك فانه يخشى الناس اكثر مما يفهمهم . حتى المدينة بمقدار ما تبدو له هشّة وبدائية فانها صلبة ، قاسية ، وعلى شكل

طبقات بعضها فوق بعض، فما يكاد ينشر طبقة ويعرف ما تحتها، حتى يفاجأ بطبقات اخرى تحتها. كما تتصف موران ايضاً بالمزاج الحاد العنيف الذي يتولد في اللحظة ، ولا يشي بنفسه قبل وقوعه . عكس ما كان عليه الوضع في حران .

هكذا كان يفكر وهكذا كانت تبدو له الامور ، لكن مما ساعده في التغلب على هواجسه او على الوسواس (هكذا يطلق على لحظات الحيرة) الرسائل التي بعث بها حماد من هناك ، ثم الاحاديث التي جرت بعد عودته . صحيح انه لم يتحدث اليه مباشرة ، ربما احتراماً او خجلاً ، لكن مع مطيع تحدث عن كل شيء وبالتفصيل : عن ليالي سان فرانسيسكو ، والتي لم تقتصر فقط على التجول في الشوارع او الوقوف على ذلك الجسر العظيم في فم الخليج والنظر الى شعلة الضياء التي تشكل المدينة وتحدد ملامحها ، وتحدث ايضا عن النساء الصغيرات اللواتي تعرف عليهن : شقروات ، جمالهن يسلب العقل ولا يمكن للانسان ان ينساه ، أما في الفراش ، الفراش المعطر الدافىء ، فان الواحدة منهن قادرة على ان تجعل اكبر رجل في احضانها كالطفل الصغير، كلهن مدربات ، مليئات بالقوة والحيوية ، ولكن لا يشبعن ولا ينمن . كما لا يتركن احداً يشبع او ينام . ليس فقط في سان فرانسيسكو وانما في اغلب المدن التي زارها ايضاً .

ومطيع الذي ذكر للحكيم عرضاً ، وبشكل مازح ، عن « الدلال الذي لاقاه الاخوان » وكيف ان حماد رجع مذهولاً مأخوذاً ، «وان صورة اميركا انطبعت في ذاكرته الى الابد » ، بعد ان سمع الحكيم بهذه التفاصيل ، ثم قام باجراء ذلك الاختيار ، كان واثقاً انه يمسك بيده اوراقاً قوية ، يمسك « الجواكر » ، هكذا قال لنفسه : الاعلام والامن ، واضاف وهو يبتسم « واللاعب المرّ . الحاذق ، هو اللاعب الذي لا يظهر على وجهه اي انفعال ، يكون وجهه كالمطاط لا تقرأ فيه ربحاً او خسارة » .

وفي هذه الفترة تقرر ايضاً اصدار صحف من نمط جديد في موران ، فمطيع الذي قضى شهوراً من الاستعداد ، وسافر مرتين الى القاهرة وثلاث مرات الى بيروت، للاتفاق مع عدد من المحررين الصحفيين والفنيين، رجع

بحصيلة بدت للحكيم ، اول الأمر ، لا تتناسب مع هذا الجهد والانتظار ، لكن بعد ان صدرت الجريدة اليومية ، « البادية » ، ثم تلتها ، بعد خمسة شهور المجلة الاسبوعية « الواحة » ، وما رافق صدورها من احتفاء ، ثم ذلك التأثير الذي اخذ يظهر ويتسع مع صدور كل عدد جديد ، تأكد الحكيم ان سلاح الاعلام لا يقل اهمية وتأثيراً عن الاسلحة الفعلية التي تقتل وتدمر وتحقق اخيراً النصر !

كان الحكيم يريد من الصحافة الشيء الكثير ؛ صحيح انه لا يعرف ذلك بالتحديد، او كيف يمكن الوصول اليه ، لكنه يحسه ، يتراءى له في لحظات معينة ثم يتوارى . ومع ذلك يعتبر ان دور الصحافة يتجاوز كثيراً مجرد نقل ما حصل من احداث واخبار هنا او هناك ، او مجرد تزجية للوقت والتسلية ؛ يريد ان يكون دور الصحافة كاملاً ، كلياً ، ودائم التجدد ، ان يعيد تشكيل عقل البشر وعواطفهم ونظراتهم ، واخيراً مواقفهم ، بحيث لا يفكر الانسان ولا يتصرف الا على ضوء هذه النظرة ، تماماً كما كانت الاديان تفعل . ويهز رأسه بنوع من الحيرة والتساؤل معاً ، ويضيف مخاطباً نفسه « الاديان ، اية إديان ، السماوية او غير السماوية ، كانت من التأثير والقوة الى درجة انها طبعت اتباعها بطابع واحد ، حتى لكأنهم من صلب رجل واحد : الاخلاق ، الافكار ، طريقة التصرف ، النظرة . . . بكلمة واحدة : كل شيء » .

ويتذكر الحكيم كتاباً قرأه عن الغجر : قوم توارثوا العادات والافكار ، اضافة الى الصفات ، دون ان يعلمهم معلم ، ودون ان يقول لهم احد . لقد حصل هذا نتيجة المناخ النفسي الذي عاش فيه هؤلاء ، وبالتالي تسربت اليهم كل صفات وافكار الذين سبقوهم ، اصبحت جزءاً منهم ، وهكذا ، ودون وعي في الغالب ، يُسرب جيل الى جيل ، يَشرب جيل من جيل ، بحيث يصبح الجد الأول والحفيد الأخير وكأنهم « اخذوا نفس الطريقة وتعلموا عند نفس المعلم » هكذا قال لنفسه ، ثم استمر بافكاره : « المطلوب من الصحافة ان تعيد تشكيل اي عقل ، حتى عقل السلطان » .

هكذا كان يحلم بدورٍ للصحافة ، أما كيف ينَفّذ ، ما يجب ان يقال ومن يقوله ، فانه كان في حالة اقرب الى الحيرة ، لكن مع ذلك قرر ان يخوض

يوماً ، هذه التجربة ، لا بد ان يبلور افكـاره اكثر ، ان يعـرف ماذا يقـول ، وكيف يقوله .

ومع ذلك ، ولانه الآن غير متفرغ لهذه المهمة بالذات ، فان الفترات التي يقضيها مع مطيع ، والاحاديث التي تجري بينهما ، لا يعتبرها زائدة او تـرفاً ، وليست ايضاً قتلاً للوقت ، كما يفعل الآخرون ، « انها ثقافة غجرية » هكذا يقول لنفسه ، ويضحك بعض الاحيان بصوت عالٍ .

ولأن مـوران ليست جزيـرة معزولـة او محصنة ، فـالعواصف حـولهـا لا تتوقف ، ففي كل يوم تصل الاخبـار حاملة قصص الملوك المخلوعـين والذين اعدموا ، والممالك التي كانت « مزدهرة وقوية » ثم سقطت وذابت كما يذوب الملح في الماء . كانت هذه الاخبار تفزع الحكيم ، تجعله مضطرباً ، لان اكثر ما يخشـاه : الزمن . كـان يقول لنفسـه بنوع من الغيظ : « الـرهان بيننـا وبـين الآخرين ليس اننا قادرون او غير قادرين ، الرهان هو الزمن». كان يخشى ان تتبدد احلامـه وتضيع قبـل ان يستطيـع بلورتها . قبـل ان يفرضهـا . وهـذا التحدي بقدر ما كان يشوقه ويحرضه كان يفزعه أيضاً. « لسنا وحدنا . ولا نستطيع ان نهرب مما حولنا ، كل ما نريـده فسحة من الـوقت تكفي لان تكتمل خلالها ادواتنا ، وعند ذاك : مرحباً بالمعارك ! » .

. . وإلى أن تستكمل هذه الأدوات لا بد «أن نتحصن، أن نتلقح ، لأن التلقيح الذي يسبق المرض او يرافقه ، يوجد مناعة ضد الطاعون الـذي يعم ويجتاح المنطقة والعالم » . خاصة وانه يعرف اي مجانين يفرخون في المنطقة وماذا يمكن ان يفعلوا في ظل الجوع والقهر الذي ينزل بهم كل يـوم ، يقول لنفسـه بنوع من الحزن : « اذا اقترن الفقر بالحلم تولد الثورة » وحـين يتذكـر نشاط مطيع وصخبه يقول لنفسه : « اذا ضمنا ان يقرأ الناس ما نكتب ومنعناهم من قراءة ما يكتبه الآخرون ، واذا راقبنا كل شيء وعرفنا كيف نسد الثغرات ، نكون قد كسبنا نصف المعركة . . أما النصف الآخر . . . » .

وباتفاق كامل بينه وبين مطيع أولاً ، ثم مع حماد بعد ذلك ، « لا بد ان نبدأ اللعبة على اصولها ، ان نخلق صحافة وان نكسب صحفيين » ، لـذلك

وافق على الكثير من الاقتراحات التي قدمها مطيع ، وطلب اليه ان يشرع دون تأخير ودون تردد .

اختار مطيع مجموعة من الصحفيين المحترفين ، وكانت لعدد منهم اسماء لامعة ، ودفع لهم الكثير الكثير ، اذ بالاضافة الى الرواتب الكبيرة ، اعطيت لهم امتيازات في السكن والسفر «لاننا نحن الرابحون في النهاية» كما قال لنفسه وكما قال للحكيم ، بعد ذلك ، رغم بعض الملاحظات والاقاويل التي ترددت وقالها اكثر من واحد .

منذ وقت مبكر ، او على التحديد منذ ان التقى الحكيم بالامير خزعل في حران ثم بعد ذلك الزيارات التي قام بها الى موران ، والعلاقات بين الاثنين تقوى وتتوثق ، وإن رافقتها بعض الهواجس والهموم بالنسبة للحكيم . أكثر من ذلك بدأت تنغّص عليه عيشه ، فقد اصبح على يقين يترسخ ويتزايد يوما بعد آخر انه ليس مجرد مستشار للسلطان ، وانما هو منذور لامر عظيم : بناء دولة !

وبناء دولة ليس بالامر الهين ، يجب ان يمتلك الانسان قوة خارقة وذكاء غير محدود ، وان يكون تحت امرته منفذون جيدون : أكفاء ومخلصون ، ويجب ، اخيراً ، ان تكون الظروف مواتية . هذا هو الجانب العملي . وحين يستعرض الحكيم ما انجزه ، ويستعرض وجوه مساعديه ، يشعر بالغبطة . فاختيار حماد موفق للغاية ، فقد استفاد هذا الرجل من كل الوسائل والاشكال القديمة والحديثة ، في المدن وبين البدو ، عن طريق المال وعن طريق الصداقات . . وعن طريق التخويف ايضاً .

وحين يتذكر الحكيم طريقته في التصرف مع حماد يحس ان تعبه لم يذهب هدراً ، حتى ثقافة الغجر ، كما يسمي الدردشات التي تجري على رَسلها ، والتي تأخذ مسارات متعددة ، يعتبر انها ضرورية ، فقد وسعت عقل الرجل واعادت خلقه ، أما السفرات والعلاقات التي اقامها ، خاصة مع المسؤولين في الأجهزة المماثلة ، فقد فتّحت مداركه وأفاد منها كثيراً . قال الحكيم لنفسه بنوع من الرضا : « البدو ، بصورة عامة ، اذكياء . يجب الاعتراف لهم بهذه

الميزة ، وقد تكون الصحراء المترامية ، وقسوة الحياة ، ثم تلك الليالي الطويلة ، ضمن الاسباب التي ساعدت وشحذت لديهم ملكة التأمل ، فاصبحوا بهذا الاستعداد الذي لا يخفى » .

لذلك لم يعد الحكيم يخاف الوضع الداخلي ، لان الناس ، بعد ان تدفقت الثروة ، اصبحوا اقل ميلاً لان يهدروا قواهم في القيل والقال ، او حول مواقد القهوة . حتى الامراء الذين بدرت عن بعضهم دلالات خشي منها السلطان اول اعتلائه العرش ، ما لبثوا هم انفسهم ان غرقوا في جمع الثروة ومراكمة المال ، واندفعوا ، كما تندفع السهام ، الى التجارة ووضع اليد على الاراضي ، ثم إلى المقاولات والمضاربة ، بحيث تفوقوا على الجميع ، واخذوا يتنافسون فيما بينهم : من الذي يملك اكثر من الآخرين ، ومن يستطيع ان يبني قصوراً تثير غيرة الآخرين ، وتتفوق على قصورهم ، واية فتاة جميلة كبرت في موران في غفلة عنهم ومن يسبق غيره إلى الزواج منها ، حتى اذا تحدد موعد الزواج امتلأت موران بالحديث عنها وعنه ، وفي يوم الزواج تنقلب الدنيا ، اذ يتحول الليل الى نهار ، ويسير الذهب انهارا وتمدّ الموائد التي لم يسمع بمثلها من قبل ، وتُقدّم الهدايا التي تفوق التصور وتتجاوز الخيال !

واذا كان الحكيم قد لخص لنفسه ، ومنذ البداية ، ان بناء الدولة يتطلب بالاضافة الى الادوات ضرورة وجود الفلسفة ، واذا كان قد اضطر ، لاعتبارات عملية بحتة ، ان يعطي الادوات اولوية ، من حيث التوقيت فقط ، فانه لم يغفل ليلة واحدة عن التفكير بالفلسفة التي يجب ان تنهض عليها الدولة «لأن الفلسفة اساس الفكر والعلوم » ، كما يقول لنفسه ، كما انه الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة ولان « دولة من غير فلسفة مثل سفينة دون ربان » .

الآن وقد استكمل ادواته ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، واطمأن الى الاوضاع ، لا يمكن ان يؤجل اكثر مما فعل مسألة التفرغ من اجل القيام بالمهمة الاساسية ، وهذه المهمة لا تبدأ من الصفر ، كما كان الامر في حران ، او حين وصل الى موران ، فالفلسفة التي يريد ان يرسي قواعدها ، ويثبت معالمها ، واضحة في رأسه ، بل في احيان كثيرة شديدة الوضوح . ولا

تتطلب اكثر من بضعة شهور ، وعلى اكثر تقدير سنة ، من اجل انجازها . فبعد ان قضى اوقاتاً طويلة في التأمل والتفكير والمقارنة ، امتلك القناعة الكاملة أنه قادر على انجاز هذا العمل ، ولا بد ان ينجزه .

طبيعي أن لا يستطيع مناقشة أفكاره الآن، وقد لا يستطيع حتى وقت متأخر ، لان تدوين هذه الافكار اولاً ، ثم استيعاب هذه الافكار بعد ذلك ، من قبل الآخرين ، يتطلب الكثير من الجهد والوقت .

أما كيف حصل هذا التطابق ، والذي لا يحصل الا نادراً ، واصبح الحكيم على هذه الدرجة من القناعة، فانه يعزو ذلك الى القوة الخفية ، او « منطقة الظل » كما يحب ان يسميها ، وقد يستعمل هذا التعبير اثناء التدوين ايضاً . القوة الخفية هي التي تحدد وتمهد وتقود ، وهي التي تيسر للبشر كل شيء . فاذا كانوا جديرين بهذه الصفة ، واستطاعوا ان ينظروا ابعد من اليوم والغد ، وان يفعلوا ما يجب ان يُفعل في وقته ، وبشكله الصحيح ، فلا بد ان تتغير الحياة ، وان تقوم حياة قادرة على البقاء والاستمرار .

وان تجتمع فيه الصفات كلها ، وبهذه الجدارة ، وان يكون في قمة الهرم ، خاصة بعد ان تنازل له السلطان عن جزء من صلاحياته ، وانشغل الامراء بالمال والنساء والقصور ، فان شيئاً اكثر من الدهاء ، واكبر من الخط ، ويتجاوز الكفاءة ، ما يعطي للامور ابعاداً وآفاقاً لم يكن يحلم بها من قبل .

فبعد جهد متواصل ، وبمثابرة لا تعرف التعب او التوقف ، توصل الى فلسفة المراكز الاربعة ، او نظرية المربع ، وهذه النظرية الفلسفية ليست نزوة من نزوات الخيال ، كما انها لا تشبه ما قرأه الحكيم في كتب التاريخ التي انكب عليها خلال السنتين الماضيتين . انها نظريته هو . وإذا كان لا يريد أن يبشر بهذه النظرية في الوقت الحاضر ، لانها لا تحتاج الى انصار ومؤيدين، فقد امتُحنت وجربت بحيث اصبحت مثل الطلقة المصوبة باحكام : لا تخيب .

نظرية المربع ، التي يفكر فيها بالليل والنهار ، والتي بدأت تستهويه الى اقصى حد ، تتلخص باعتماد القوى الاساسية المهيمنة على الانسان ، وهذه القوى ليست الخير والشر ، بالمعنى البسيط الذي يتداوله الناس ، كما انها

تتجاوز العقل المجرد ، او الحواس المجردة ، ولذلك فانها شيء خاص . انها مزيج من القوى كلها بنسب واشكال شديدة التعقيد . واذا اراد الحكيم ان يسترسل لكي يشعر بالمتعة والتفوق ، فانه يعتبر الانسان قوة مُسّيرة ، وان ما يسيرها ، بوعي ، او بدون وعي ، المراكز . والمراكز هي اربعة ، تبدأ من الاعلى لتصل الى ما دون الوسط قليلاً . فالعقل يعتبر اساس المعرفة وطريق الوصول ، ويمكن ان يطلق عليه ، مجازاً ، المركز الأول ، او المركز الاعلى ، وهو الذي يُحدد ويُوجه ، لكن ايضاً بالاتفاق ومشاركة المراكز الاخرى . أما المركز الثاني فهو القلب . والقلب هو وجدان الانسان ونقطة الاستقطاب ، حيث تصب فيه المراكز الاخرى بعد ذلك ، ومنه تنتقل ايضاً . وفي هذا المركز يولد الايمان والاقتناع ، ولا يمكن ان يصل الانسان الى نتيجة دون ان يكون هذا المركز في اقصى حالات القوة والنشاط . أما المركز الثالث فهو المعدة ، لان الانسان اذا كان جائعاً وغير قادر على تحصيل قوته تضعف عنده المراكز الاخرى ، وقد يتحول الى انسان خطر ، ولذلك يجب ان يرتبط هذا المركز بمركز القلب اولاً ، اي ان لا تترك له حرية الحركة الا بمقدار ما يخضع الى المركز الثاني ، وبالمراكز الاخرى بعد ذلك . أما المركز الرابع فهو الطاقة الجنسية ، وهذا المركز الذي يهمله الكثيرون من العلماء ، يعتبر الحكيم نفسه محظوظاً لانه يعرف اهميته وقوته ، وقد تسنى له ان يواكب ، هكذا يقول لنفسه ، دراسة اهمية هذا العامل وتأثيره ، حينما كان طالباً في النمسا ، وهذا احد الاسباب الذي جعله يولي عناية خاصة للعامل الجنسي ، ودفعه لان يدرس الامراض التناسلية ويتخصص فيها .

أما كيف توصل الحكيم الى نظرية المربع فانه يبتسم حين يتذكر ، اذ يقول لنفسه : « مثلما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية من سقوط التفاحة ، وقبله ارخميدس وهو يستحم ، كذلك وجدت نفسي اكتشف نظرية المربع » ويقطب جبينه ويغمض عينيه قليلا ثم يضيف : « الأشياء كلها تقوم في جوهرها ، على هذه النظرية : اولاً واخيراً الاركان هي اربعة ، الكرسي ، مثلاً ، لكي يكون راسخاً وعلى اتم انسجام ، يقوم على اربع ارجل ، وكذلك الطاولة والسرير ، وكل شيء آخر . ليس هذا فقط ، اذا تأملنا نجد ان الطبيعة تقوم على نظرية

المربع : الفصول الاربعة ؛ الاتجـاهات الاربعـة ؛ حتى عناصر الـطبيعة هي اربعة: الهواء، والنار، والماء. . . والتـراب . وتركيب المخلوقـات يقوم عـلى نظرية المـربع ايضـاً : الحيوان يمشي عـلى اربع ، الانســان يمشي على اربـع » ويضحك لان الفكرة لا تبدو واضحة منـذ الوهلة الاولى ، لكنـه يشير الى ان رجل الانسان تحتوي على مفصلين : الساق والقدم ، ولـذلك فـان الساق لا تستطيع شيئاً دون القدم ، ولهذا فان الاثنين هنا في واحد . والنتيجة اربعة ، هذا اذا تركنا جانباً اليدين، وهما تخلقان التوازن، والذي بدونه لا يستطيع الانسان المشي » .

ويسترسل الحكيم اكـثر من ذلك وهـو يفكر في نـظرية المـربع : « وجـه الانسان وجسده يعتمدان مبدأ الاربعة : اذا اخذنـا الانسان طـولياً نجـد انه يعتمـد نفس المبـدأ : العــين اليمنى ، الاذن اليمنى ، نصف الانف ونصف الفم ، وهمـا مقسـومـان فعـلاً ، ثم نصف الاست ونصف الـذكـر ، وهـذه اربع » .

ويمكن للحكيم ان يستمـر الى ما لا نهايـة اعتماداً عـلى نظريـة المربـع ، ويتذكر بكثير من العجب انه وصل الى موران يوم الاربعاء ، في الربيع ، وفي شهر ربيع الأول . ويعتبر ذلك من جملة مظاهر السعد القيمة ، والتي ساعدته على كشف هذه النظرية بهذه السرعة وبهذا العمق .

نظرية المربع ليست من التاريخ ، وان كانت شواهد التاريخ تؤيدها . ولا يمكن اعتبارها تطبيقاً لافكـار وتجارب علميـة ، مع ان النـظريات العلميـة ، خـاصة مـا يتعلق بالـطب ، تقدم ، كـل يوم ، دليـلاً جديـداً تدعمـه هـذه النظرية . أما بالنسبـة لانجـازات الإنسان في مجال علوم الغيب والتنجيم ، وكذلك في علوم اللاهوت والفلك ، فتجعل الحكيم غير قـادر على اهمـالها او تجاوزها . ومع ذلك فان نظريـة المربـع ، ليست اياً من النـظريات او العلوم الاخرى . انها نتيجة الالهـام من ناحيـة ، وحصيلة العلوم والافكار والتـأمل الطويل من ناحية اخرى . وهي بمقدار ما تهتم بالامور النظرية البحتة ، فان الجانب العملي فيها لا يقل اهمية وتأثيراً ، وربما كان الجانب العمـلي الدافـع

الأول والاساسي الذي ادى الى بلورتها وانجازهـا بهذه السـرعة وبهـذه المتانـة ايضاً .

في اطار بلورة افكاره والوصول الى النظرية طرح الحكيم على نفسه سؤالاً بسيطاً : ما هو الانسان ؟ واذ لم يجد ضرورة لتركيز افكاره في مجال الاجابة عن هذا السؤال بالذات ، تابع فسأل نفسه : كيف يجب ان نتعامل مع الانسان ؟ وللوصول الى جواب ، خطوة بعد خطوة ، مرحلة بعد اخرى ، استطاع بلورة الافكار وانجازها .

صحيح انه واجه في بحثه بعض الاستثناءات والشواذ لكنه كان مقتنعـاً ، كما اكد لنفسه ، ان الاستثناء يؤكـد القاعـدة ، كما يقـولون ، وان عـدداً من المسائل يحتاج الى مزيد من البحث والتقصي . . ثم التأمل . ولا بد ان يفعل ذلك في الفترة القريبة القادمة .

« البدء من الصفر اصعب البدايات ، لكن بالتأكيد اهمها وارسخها » .
هكذا قال الحكيم لنفسه وهو يستعرض ما انجزه حتى الآن ، كان فرحاً مثل طفل ومنتشياً كثمل ، لان « هماً » جديداً اضيف الى الهموم التي كانت تثقل كاهله . فالسلطان الذي واظب خلال الفترة الاولى على حضور اجتماعات الامن والسلامة ، بدأ يظهر تذمره « لان السوالف ذاتها تتكرر دائماً » ولذلك ما لبث ان جعل هذه الاجتماعات شهرية اولاً ، ثم اخذ يكتفي بالتقارير التي ترفع اليه ، ودون ان يقرأها يؤشر عليها بالقلم الاخضر : «نظر» ويعيدها . أما في السنة الثالثة لاعتلائه العرش ، وكان يبدو متألقاً وبصحة جيدة ، فقد طلب من الحكيم ان يتولى نيابة عنه الاشراف الكامل على هذا الجهاز . . ايضاً .

لم يكن هذا القرار الا استكمالاً لشكليات متعلقة بالناحية المالية ، لان بعض الاجراءات التي كانت تقتضي موافقة السلطان وتوقيعه ، كثيراً ما تأخرت بسبب غيابه او عدم رغبته « النظر بالاوراق » ، او بسبب الحرص الذي يظهره مالك الفريح ، امين المال ، حيث كان يصرّ على التواقيع والاختام اكثر من اصراره او حرصه على الاموال ، وقد ادى هذا ، ومنذ وقت مبكر ، الى نوع من الجفوة بينه وبين الحكيم . أما الآن ، وبعد هذا القرار ، فقد اصبح الحكيم مطلق اليد حراً في اتخاذ ما يراه ضرورياً بخصوص بعض الاجهزة ، واصبح « هذا المرابي اليهودي ، ابن الحلابة ، يدفع والرجل على رقبته » هكذا قال الحكيم لنفسه بنوع من الزهو ، وقد شعر انه حقق ضربة

قوية ، وان لم تكن قاضية ، ضد مالك الفريح .

العلاقة بين الاثنين ، ومنذ البداية ، تميزت بالمنافسة الصامتة ، وان حافظت على طابع الود الظاهري ، وبعض الاحيان المبالغ فيه ، خاصة وان الرجلين يتمتعان بحدٍ عال من التهذيب والنعومة ، اضافة الى تقاسمهما مودة السلطان واسراره . صحيح ان مالك الفريح سبق الحكيم الى موران بعدة سنوات ، ويعتبر نفسه من اهل موران الاصليين ، لان اباه او جده ـ اذ يترك الامر غامضاً ، حيث يستعمل كلمات عامة ، ويمكن ان تفسر باشكال مختلفة ـ اضطر الى السفر ، مثل الآلاف من اهل موران ، في تجارة ـ والغالب في رعية جمال ـ وكان يفترض ان يعود ، لكنه تأخر في العودة ، فتزوج واقام ، وجاءه اولاد ، ومرت الأيام ، فلما مات لم يستطع ابناؤه السفر او العودة ، فبقوا حيث هم ، « أما عندما حان الوقت ودعا داعي الوطن فلم نتأخر » هكذا يفسر الشيخ مالك عودته الى موران . وفي موران استفاد من علاقة بعيدة وغامضة بعائلة السلطان من ناحية النساء ، اضافة الى معرفة القراءة والحساب ، وإتقانه بشكل خاص لحساب الدوبية ، حيث اثار دهشة السلطان خريبط منذ الأيام الاولى لوصوله . أما بعد ذلك ، فقد توثقت علاقته بولي العهد ، واصبح احد المقربين اليه ، فلما اعتلى العرش عينه مساعداً لامين المال ، ثم بعد بضعة شهور اميناً اصيلاً .

مالك الفريح ، او الشيخ مالك ، كما اصبح اسمه فيما بعد ، وهو يعود الى موران ، ثم وهو ينضم الى القصر ، والى حاشية الامير ، بعد ذلك ، يصحح خطأ تسبب فيه الآخرون ، وانعكست نتائجه عليه خلال فترة من الزمن ، لكن ما كاد يعي هذا الخطأ حتى قام باصلاحه فورا : عاد الى اهله والى موطنه ، وبذل اقصى الجهد لان يستعيد ارتباطه بما حوله : اللهجة ، الملابس ، النظرة ، التعرف على الاقرباء ، وعلى تاريخ العائلة ، وقد سجل ، في دفتر انيق ، القرابات حتى الجد السابع ، ثم اخذ يطلق اسماء الاجداد والاقرباء على ابنائه ، الواحد بعد الآخر ، وكانت زوجته في كل مرة تخلف ولداً تدخل معه في خلافات تطول الى شهر او اثنين حول اسم المولود الجديد ، والذي لا تعرف من أين نبشه او كيف جاء به .

لقد بالغ الشيخ مالك بهذه التصرفات الى أقصى حد ، حتى ان الكثيرين الذين لا يعرفون تاريخه يقدرون انه لم يغادر موران في حياته يوماً واحداً . أما في اوقات اخرى ، خاصة حين يتحدث الى الحكيم او الى مطيع فلا يمكن تمييزه عن اي « ميداني » عريق . كان يتعمد استعمال لهجة بلدية ، بمفرداتها الضيقة وبمخارجها الرخوة ، ليدلل على مدى معرفته ، ولكي يقول لاي انسان يسمعه انه يتحدث الى غرباء ، وان هؤلاء الغرباء لا يفهمون الا بهذه الطريقة !

والحكيم الذي بذل جهداً واضحاً لكي يتحدث باللهجة المورانية ، لم يتقنها ابداً ، بل وبدت للكثيرين مضحكة واقرب الى السخرية ، فلم يطل به الامر حتى انصرف عنها مضطراً ، وان تسبب لـه ذلك بمرارة لا تخفى . وفي محاولة غير مباشرة للرد على الشيخ مالك ، هجر لهجته الاولى ، ولجأ الى العربية الفصحى ، بمخارجها وقلقلاتها ، وبالغ في ذلك كثيراً ، حتى ليظن من يسمعه لاول مرة انه واعظ ، او انه يتعمد المزاح ، لكن بمرور الأيام تهذبت هذه اللغة ، وتعود الناس عليها ، فلم يعد يلفت إلّا نظر الغرباء او الذين يقابلونه لاول مرة .

كان من السهل ان تحتمل موران الرجلين ، كما احتملت الآلاف الذين جاءوا من قبل ، لان فيها من الفرص والامكانيات ما يرضي الكثيرين ويشغلهم ، وكان من الممكن ان يُسّوى الخلاف بين الاثنين لو وقع هذا الخلاف او لو ظهر ، لكن شيئاً مثل هذا لم يقع ، بل وظهر ما يخالفه تماماً . ومع ذلك ، فان معركة صامتة ، وفي الظلام ، لم تتوقف يوماً واحداً ، وكانت تأخذ اشكالاً غير مباشرة ، وان كان ظاهرها شديد البراءة . فالشيخ مالك لم يكن يشير الى الحكيم مجرد اشارة ، في محاولة لتجاهله ، او للتقليل من اهميته . أما اذا تعلق الامر بقضايا مالية فانه يتشدد ويدقق قبل ان يصرف ، كما يتأخر كثيراً ، لكي يثبت للحكيم مدى السلطة والقوة اللتين يتمتع بهما .

ظل الحكيم يظهر ترفعاً واضحاً عن المال ، فلا يريد ان تكون معركته مع « ابن الحلابة » ـ كما يسميه سراً ـ في هذا المجال ، « فهذا المرابي سيدفع اولاً واخيراً ، فقط يريدني ان اترجاه ، ان ابوس لحيته ، لكن فشر » لان الحكيم كان على يقين انه لو جر الى حيث يريد الشيخ مالك ، فلا بد ان يخسر ، « لانه

فقط يريدني ان استجيب لـه ، ان اتنازل ، وبعـد اول تنازل ليس هنـاك الا طريق واحد: الانحدار الى ما لا نهاية، تنازلات تجر تنازلات، وهذا ما يريده وهذا ما يخطط له ، لكن انـا واياه والـزمان بيننـا وبنشوف » . لـذلك امتـلأ الحكيم اصراراً، اقرب الى التحدي، على الصمود والتجاهل وان لا يتنازل تحت اية قوة واية اعتبارات . كان يقول في لحظات التذكر ، وحين يمّر طيف « ابن الحلابة » في مخيلته :

« وهل هناك مجنون على وجه الارض يذهب الى كلب جائع ، ومصـاب بفقر الدم والسفلس ويحاول ان ينتزع من حلقه عظمة ؟ » ويضحك ويهز رأسه متوعداً . ولان مال موران هـو مال السلطان ، لم يحـاول الحكيم ان يسترضي الشيخ مالك او ان يتملقه . « الواحد يدور رأس النبع ويقصده » ولهذا لجأ الى السلطان مباشرة . وعن طريقه كان يحصل على كل ما يريد . ليس ذلك فقط يحس الحكيم انه اكبر من هذه القضايا ، وان مهمته اخطر من ان ينشغل بهذا النـاطور او ان يلجـأ اليه ، « فـالناطـور ، مهما كبـر ، تقول لـه : هـات . . يعطيك . تقول له : خذ يأخذ منك ، أما ان يصغّر الانسـان عقله ويسأل : هل عندك يا شيخ كذا وكذا لاننا نريد ان نبني دولة . فالجواب الجـاهز : مـا عندي » .

بهذه الطريقة . ومن خلال اوامر السلطان ، حصل الحكيم على ما يريد من الاموال ، وقد حصل عليها دفعـة واحدة ، سـواء من اجل الصحـافة او جهاز الأمن، او من اجل «الهدايا والاكراميات ومصاريف خاصة». وهكذا تجاوز الكثير من المعارك والاحراجات التي يمكن ان تحصل لو امتثل الى ما كان يريده ويفترضه الشيخ مالك .

أما الآن ، وبعد ان فوضه السلطان بصـلاحيات جـديدة ، فقـد بدا في منتهى القوة والرضا ، وبدأ يفكر ويخطط لامور جديدة .

موران التي كانت تغرق في الرخاوة والتأمل والانتظار ، بدأت تنتفض وتتغير : ابنية من انماط واشكال لا حصر لها تقوم وتنتشر في كل مكان ، شوارع تُشّق وسط المدينة وعلى اطرافها ، وقريباً من منطقة القصور ، كما سميت منطقة الغدير ، فتبدو بقايا البيوت والجدران والاشجار وكأنها آثار عصور قديمة خلّفتها هزة مفاجئة . الاجانب يصلون ويتكاثرون كل يوم ، ولا يطول بهم الوقت حتى يستقروا . الاعمال تتزايد وتتداخل بحيث لا يعرف الانسان هل يواصل في الغد ما بدأه اليوم ام ينتقل الى عمل آخر . والحياة ، بكلمة موجزة ، تتقطع جذورها ، تضطرب ، تتغير ، لكن لا احد يعرف ماذا سيصير .

صحيح ان الأمر اختلف كثيراً عما حصل في حران او رأس الطواشي ، وعما حصل في بدرة وام العوالي وعجرة ، لان كل بناء يشاد هنا ، او كل شارع يشق ، يضيف الى الركام الموجود قروحاً جديدة وركاماً جديداً ، حتى لتبدو موران كالاحشاء المتناثرة ، او كاكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي اللامتناهي . وهذا المنظر الذي يمرض اي انسان مقيم ، ويجعله في حالة من التوتر والحزن ، فلا يعرف هل يمكن بعد الذي حصل في هذه المدينة التي تعوّد عليها والفها منذ ان فتح عينه على الحياة ، ان تعود الى حالتها السابقة ، او الى شيء من الانسجام ؟ والغريب الذي يصل موران لاول مرة لا يعرف هل جُنّ الناس فيها فحمل كل واحد معوله واخذ ينتقم من المدينة ويقوّضها دون رحمة وباسرع وقت ؟ حتى المهندسون ، او من يفترض انهم كذلك ، والذين يقودون مجموعات من البشر والآلات هنا وهناك ، ويبدأون بشراسة في تمزيق احياء

المدينة وبيوتها، كانوا يفعلون شيئاً ثم يتراجعون ، ثم لا يلبثون ان يعودوا اليه مرة اخرى ، وقد بدت على وجوههم وتصرفاتهم علائم الحيرة والنزق ، حتى اذا غرقوا في الانقاض وتاهوا في المنعطفات والتقاطعات جاء غيرهم ليواصلوا العمل ذاته او ليبدأوا عملاً غيره .

مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها : مجموعة من الانقاض تتزايد كل يوم . والناس يتطلعون حولهم بحيْرة او بتشفٍّ ، لكن برغبة وحيدة ايضاً : ان يخلصوا من هذا الذي يجري . ولان الحكيم يرى موران على مصورات المهندسين المليئة بالعذوبة والشفافية ، والمليئة بالاشجار ايضاً ، فانه لا يرى الشقاء ومدى العذاب الذي ينزل بالناس حوله ، ولذلك وجه اهتماماً متزايداً الى شيئين اثنين : الاراضي ، والفكر ، ففي النهار لا يتوقف لحظة واحدة عن « دراسة المخططات » . كان يفعل ذلك بكثير من الحماسة والاهتمام ، ولا يتردد في استدعاء مهندسي البلدية ودار الامارة لمناقشتهم في جميع التفاصيل المتعلقة بمستقبل موران ، حتى اذا « حفظ المخططات » يوماً بعد يوم ، شهراً بعد آخر ، ارسل رجاله « لمساعدة المعوزين في اطراف المدينة ، عارضاً عليهم ان يشتري الاراضي البور التي يملكونها . وانه مستعد ان يدفع لهم فوراً مبالغ يمكن ان تساعدهم في ان يبدأوا حياة جديدة!»

بعد ان ينتهي عمل النهار الشاق الطويل ، ويعود الحكيم الى قصر الحير ، يخصص جزءاً طويلاً من ليله للتأمل والتفكير بنظرية المربع .

الذين عرفوا او سمعوا بما يفعله الحكيم ، وكيف انه يبحث عن الفقراء في الليل والنهار لكي ينقذهم من فقرهم ، ولكي يؤمن لهم اعمالاً في البلدية ودار الامارة، قلبوا شفاهم بشك وتساؤل .

مالك الفريح عرف قبل الآخرين ان الحكيم لم يترك ارضاً في موران الا واشتراها او ساوم على شرائها ، منفرداً او مع آخرين ، فكان يهز رأسه ويخرج صوته من انفه :

ـ والله . . والله اذا لقي شبر ارض واحد في موران كلها يندفن فيه ما اكون ابو صفوق !

أما عندما جاءه مساعده بناء لطلبه ، وظل واقفاً امامه صامتاً دون حراك ، فقد تطلع اليه طويلاً وكان يهز رأسه باستمرار ، الى ان سأله اخيراً :

ـ وشنهو قولك باللي يكرم من كيس غيره ؟

وحين قلب المساعد شفتيه دون ان يعرف كيف يجيب ، تابع الشيخ مترنحاً :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني حتى يقال كريم النفس مقصود

لكن يخسا !

ولما انتفض المساعد ، وبدا مرتبكاً ، ختم الشيخ مالك حديثه :

ـ احرص يا وليدي : لا تصرف قرش واحد قبل ماتنشف ريق اللي يريد القرش !

أما شمران العتيبي الذي سمع ما يتناقله الناس في السوق وفي مقهى زيدان فقد قال بسخرية .

ـ لا تصدقوا يا جماعة الخير ، وانا به ادرى ، مثله مثل الظبرطع ، من مال غيره ينهش ويرضع !

وبصق ، واضاف بعد قليل :

ـ اذا كان كل الاجاويد مثله لاكان ولا كان الجود .

وتغيرت لهجته ، اصبحت ساخرة :

ـ وذاك هو قصر البعير . . لو تكلمت قاعه لقالت اللي يكفي و زود .

قال زيدان الذي كان يتابع الحديث :

ـ القرش اللي يندفن بقيعان مثل القرعة والحصيبة يموت يا ابو نمر ، واذا اشتغل يصير قرشين .

ـ وكل الله يا ابن الحلال ، ترى قرش الحرام يحترق ويحرق اللي يشيله ، واذا عشنا نشوف !

العجرمي وآخرون من اهل موران ، والذين استغربوا ثم غضبوا لانهم بدأوا يرون مدينتهم تتهدم فوق رؤوسهم ، لم ينتظروا طويلاً لكي يصلوا الى القصر ويقابلوا السلطان :

ـ الفلا ، يا طويل العمر ، ما اوسع منها ، وهذه هي قريّبة ، اتركوا موران مثل ما تركها آبائنا واجدادنا . واذا ما كانت تعجب الغُرب واللقامين اللي جاءوا امس واليوم يتركونها ويتركّونا ، حنا عاجبتنا وما نريد غيرها .

ويصمت العجرمي قليلاً ، وتتغير لهجته :

ـ المسألة ما هي موران بس ، يا طويل العمر ، المسألة ان الأخباث يريدون يحولون الناس عن دين الاسلام ، ويريدون نشر الفساد ، ولا بد انكم سمعتم عن القراطيس اللي يطبعونها ويخلونها ببيوتنا!

وبعد قليل :

ـ وانت ، يا طويل العمر ، حامي الدين والرعية ، انت حامي المسلمين ، نريدك بسيفك تقطعهم وتقطع دابرهم .

والسلطان الذي ابتسم وقال كلمات قليلة ، لم تفهم كلماته ، او على اي وجه تفسر :

ـ وكلوا الله ، يا جماعة الخير ، وانشاء الله ما يصير الا الخير .

انشغل الحكيم اكثر من قبل بالنظرية ، وصادف ايضاً ان سفرات مطيع اخذت تطول وغيبات بدري الحلاق تمتد وتتزايد ، ولذلك عرف الحكيم شيئاً وغابت عنه اشياء ، كما يقولون ، ويبدو ان العجرمي الذي لا يعرف التسليم او التراجع ، والذي ينقض على خصمه كما ينقض الثور ، لم يترك فرصة الا واستغلها ، ولم يترك احداً الا ووصل اليه .

ففي رحلة الصحراء التي تعوّدها السلطان في منتصف فصل الربيع ، والتي يحرص ان تكون خاصة الى اقصى حد ، بحيث تقتصر على الحد الادنى من الحرس والحاشية ، اضافة الى افراد العائلة السلطانية ، وبعيدة عن اعين المستشارين والرسميين ؛ في هذه الرحلة ، ونتيجة ضغط الاخوة ، والمخاوف

الكبيرة التي اشاروا اليها ، والتي يمكن ان تهدد السلطنة كلها، وليس السلطان وحده ، وافق السلطان ان يفتح عينيه اكثر من السابق ، وان لا يمنح ثقته لاحد خارج افراد الاسرة ، وان يحد من صلاحية المستشارين ، هؤلاء « الذين لا يفتون الا بالسوء » كما قال الامير محجم .

نقل ابو مصباح للحكيم ، بكثير من الخفاء والسرية ، بعض ما جرى ، واضاف « ان الحياة عاهرة وغدارة » والحكيم الذي وافقه بهزات من رأسه ولم يتكلم ، شعر ان الارض تميد تحت قدميه ، فلام نفسه انه اهمل كثيراً من الامور او نسيها .

أما عندما جاءه مطيع ، وبدا خائفاً مضطرباً ، وابلغه ان السلطان سمّى الى جانبه سكرتيراً آخر ، وان الرجل لا يمكن التفاهم معه ، فقد هز الحكيم رأسه ، وبدا مهموماً وغرق في الصمت فترة طويلة ، أما حين حاول مطيع ان يخرجه من صمته ، وكان اقرب الى العصبية والحدة ، فقد رد عليه وهو ينظر الى البعيد :

ـ السلطان سلطان ، يا خالي ، لا يسأل عما يفعل ، وهو الذي يحيي ويميت ، هذا اولاً : وثانياً . نحن ، اولها وآخرها ، ضيوف عندهم ، واذا كانوا قد احسنوا ضيافتنا حتى الآن ، فان الحساد لا يتركون لاحد ان يأكل لقمة هنيّة .

ـ ويريد ان يتم كل شيء عن طريقه . قلت له لا بد ان نحدد المسؤوليات وان نتقاسم العمل ، قال : حتى كأس الماء التي تدخل غرفة السلطان لا بد ان اعرف بها . . ولم نتفق على شيء .

ـ اتركه الآن .

ـ ولكن لن يبقي لي شيئاً .

ـ يكفي ان تبقى حياً !

ـ امن اجل هذا جئنا الى موران يا خالي ؟ من اجل ان نبقى احياء لنأكل ونشرب ؟

ـ لا يا خالي ، جئنا من اجل قضايا اكبر بكثير .

ـ لماذا نسكت اذن ؟ لماذا نقبل ؟

وضحك الحكيم ضحكة خشنة ، ومرت في رأسه افكار وخواطر كثيرة ، وفي احدى اللحظات كاد يعترف لمطيع بنظرية المربع ، لكن وجد ان الجو غير ملائم ، كما انه ليس في وضع نفسي يمكنه من شرح كل شيء . قال وهو ينظر الى نقطة بعيدة ، ابعد مما يحيط به :

ـ اسمع ، يا مطيع ، يا خالي . .

وكاد يتوقف ، او كاد ينسى ما اراد ان يقوله ، فالصمت امتد فوقهما مثل غطاء القبر ، لكنه تابع :

ـ اشياء كثيرة يتعلمها الانسان في وقت مبكر ، ويتصورها يقيناً لا يقبل الشك ، لكن الحياة تعلمه ان ذلك اليقين مجرد وهم .

قلب مطيع شفته دلالة عدم الاهتمام ، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما سمع ، لكن الحكيم تابع :

ـ الخط المستقيم مثلاً : لا يختلف اثنان انه اقصر خط بين نقطتين ، ولو سألتك الآن لاجبتني الجواب ذاته الذي يردده كل الناس . .

للحظات ظن مطيع ان خاله يهذي ، وان ما يقوله الآن لا صلة له بالهجوم الذي بدأ يحاصرهما. لم يأبه الحكيم:

ـ انا الوحيد ، او من القلائل ، الذي يقول ان الخط المستقيم ليس اقصر خط بين نقطتين ، لا بل ابالغ واقول انه اطول الخطوط .

ـ وما علاقة ذلك بمشاكلنا ، بحديثنا ، يا خالي ؟

ـ كل العلاقة .

ـ لا افهم .

ـ على مهلك وستفهم كل شيء !

رفع مطيع يده بنوع من العصبية ، معتبراً ان خاله يسخر منه . تابع

الحكيم :

ـ هـذا هو الأمـر الأول الذي اريـدك ان تحفظه عن ظهـر قلب ، والأمر الثاني : تعلّم ان لا تغضب .

ـ والله يا خالي انا قررت ان اترك وامشي .

ـ هذا ما يريدونه ، وهذا ما يدفعوننا لان نفلعه ، لكن نخطىء كثيراً اذا فعلنا كما يريدون او كما يتوقعون . يجب ان نفعل ما نريد وما لا يتوقعون .

ـ بصراحة، يا خالي ، انـا غير مقتنـع ، وهذا العمـل قبلته من اجلك ، ولولا معزتك لا ابقى يوماً واحداً .

ـ اعطني فرصة جديدة ، يا خالي ، واظنك لن تندم .

ـ ماذا تريدني ان افعل ؟

ـ ان تقتنـع بان الخط المستقيم ليس اقصر الخـطوط ، وان الغضب ، او اعلان الغضب ، يعني خسارة نصف المعركة سلفاً .

وصمت الحكيم ثم استرسل بلهجة جديدة وكأنه حضّر نفسه لذلك منذ وقت طويل :

ـ كانت المرحلة الماضية كلها اكتشافاً واستعداداً للأيام القادمة ، واذا كان هناك غباء لدى خصومنا ، فان غباءهم الاساسي ليس انهم يكرهوننـا ، فهذا مفهوم ومتوقع، ولم يغب عن ذهني لحظة واحدة، لكن غباءهم الحقيقي هو انهم بـدأوا علناً وبـالمعارك الصغيـرة ، اي بدأوا بخـوض الحرب قبـل وقوع الحرب ، ونحن ، من هذه اللحظة ، لا نعتبر ان الحـرب معلنة ، مـع انها لم تتوقف بالنسبة الينا يوماً واحداً . واذا اردنا ان نحارب يجب ان نفعل ذلك في وقتٍ وبشكلٍ لا يتوقعونه ابداً .

وهذا ، يا خالي ، نصف البرهان على نظرية الخط المستقيم ، أما النصف الثاني من البرهان فهو ان الحروب غير المباشرة ، الحروب التي تقع بينهم ، دون أن نظهر، دون ان نعلن عن انحيازنا، يمكن ان تعفينا من حروب كثيرة كان يفترض ان نخوضها . لتقع الف حـرب ، أما حـربنا فهي الأخيـرة ، او مع

وغرق الحكيم في الصمت اللذيذ ، وبدا معجباً بالكلام الذي قاله. أمّا مطيع الذي فهم ولم يفهم فكانت حيرته تزداد ، ولا يعرف هل يواصل حواراً عابثاً مع خاله ام يتركه يتكلم كما يشاء . قال بتعريض :

ـ الفرق كبير بين الكلام الذي تقوله والامور التي تحصل في الواقع .

ـ ومع الغضب ، مع الانفعال ، يبدو الانسان عارياً ، تظهر نقاط ضعفه ، وتظهر الاسلحة التي يريد ان يستعملها ، وعندها يكون خصومه قد اضطروه للوقوف امام بنادقهم في الارض العراء . ولذلك ، منذ هذه اللحظة يجب ان نتعلم كيف لا نغضب ، او على الاقل ان لا نظهر غضبنا ، لئلا يعرفوا كيف سنتصرف .

وضحك الحكيم لانه تذكر :

ـ قبل اكثر من عشرين سنة ، في المانيا ، تعلمت هذا الدرس جيداً : كنت اسكن مع اثنين آخرين عند امرأة عجوز ، وكانت لديها قطة رمادية ، تحبها وتعتز بها ، وكانت المرأة تعاملنا حسب الكيفية التي نعامل بها القطة ، الذي يحب القطة ويدللها تحبه وتلبي طلباته ، والذي ينظر اليها بحياد تعتبره العجوز غير موجود ، أما من يزعج القطة او ينظر اليها بعداء فانه اذا بقي في هذا المسكن شهراً فلن يبقى الشهر الذي يليه . ومن سوء حظي انني منذ وقت طويل لم اتعاطف مع القطط ، لكن لم اناصبها العداء ايضاً ، كنت لا احس بوجودها . ولم اكتشف ابداً الفتنة التي تتحدث عنها العجوز ، ولذلك كفّت المرأة عن الحديث معي ، وابتعدت القطة عني ، أما هانس الذي كان يسكن معنا ، ويتظاهر انه مفتون بالقطة الى اقصى حد ، فكان يحظى باحسن معاملة ، ويتمتع بامتيازات لا يتمتع بها احد غيره .

تعاركت عدة مرات مع هانس بسبب القطة ، اذ كان يتعمد ان يرمي بها عليّ او ينميها في فراشي .

ذات يوم اختفت القطة ، وكنا انا وهانس في البيت حين غادرته العجوز لبعض الوقت ، فلما عادت ولم تجد قطتها ، هجمت عليّ وسألتني بعداء اين

وضعتها ، او ماذا فعلت بها . ولما انكرت معرفتي ، وانني لـم ارهـا ، دخل هانس في تلك اللحظة ، ونظر اليّ وابتسم ، اكدت ابتسامته ونظرته انني لا بد ان اكون وحدي المجرم ، وهكذا استطاع ان يصل الى غايته .

فبعد ثلاثة ايام ، ونتيجة تحقيقات البوليس وتأكيد الشهود ، وهما العجوز وهانس ، وجدت نفسي عـلى الحدود النمسـاوية ، وهنـاك اكملت دراستي ، ولقد علمني هذا الـدرس كيف يجب ان لا اغضب ، او على الاقـل الا اظهر غضبي الا في الوقت المناسب .

هذا الحديث كله كان يحكيه الحكيم لنفسه ، ليقنع به ، ليصل الى حالة نفسية تمكنه من مواجهة المـرحلة القادمـة . ومطيـع الذي بـدا مقتنعـاً ، او تظاهر بذلك، قرر بينه وبين نفسه أن ينتظر فترة قصيرة، فاذا صلحت الامور واستقامت كما يتمنى او كما يريد بقي والا فلن يكلف نفسه خوض معارك يرى انها لا تعني شيئاً بالنسبة له ، اكثر من ذلك يعتبر ان خاله يغامر اكثر مما ينبغي ويذهب بعيداً في هذه المعارك الخاسرة بكل تأكيد .



لم يتأخر الحكيم ليوقف عمله في النظرية . صحيح انه بدا ، خلال فترة من الزمن ، مقتنعاً وراضياً ، اذ استطاع الوصول الى القوانين الاساسية ، الا انه بعدم تطبيقه لهذه القوانين شعر بالهبوط او بما يشبه خيبة الأمل ، لان النظرية ، اية نظرية ، لا تعني شيئاً اذا لم تأخذ ابعادها في التطبيق والممارسة .

أما بعد تسمية سكرتير جديد للسلطان دون استشارته ، ودون اشعاره ، فقد اعتبر ان الأمر اكثر خطورة مما قدر في البداية ، لان همساً بدأ يدور ايضاً حول احتمال اقامة مستشفى خاص بالقصر ، وان الدكتور مؤيد الدقاق قد استدعي لمقابلة السلطان مرتين في يومين متواليين ، دون ان يذكر شيء عن الامر ، لذا تحسب الحكيم واصبح اميل الى الخوف .

أما حين سُمّي مؤيد الدقاق طبيباً للقصر فعلاً ، فقد قرر الحكيم ان لا يعتبره خصماً او منافساً « لانه مجرد طبيب . أما انا فشيء آخر : انا صديق السلطان وصفّيه ، وبيضاته بين يدي . . يضاف الى ذلك أني المستشار الذي يفكر نيابةعنه . . والنديم وكاتم الاسرار . وقبل كل هذا وذاك افهم كيف يفكر ، وماذا يريد . . وهذه هي بيضة القبان » .

اول ما فعله الحكيم، وقد صمم على ذلك بعناد الاطفال ، ان يكون صديقاً للطبيب الجديد . « اذا ارادوا ان يأتوا لي بخصم ، ان يضعوا سكيناً في خاصرتي ، كما قال لي ابو مصباح ، فسوف اثبت لهم انهم لم يحسنوا الاختيار ، واني قادر على انتزاع السكين من الخاصرة كما يفعل الدراويش » .

الشيء الآخر الذي فكر فيه ، وما لبث ان نفذه بهمة وكثير من المكر ، ان يكون صديقاً لمن يعتبرهم اصدقاء العجرمي ، لان صداقته للسلطان لا تعني العداء او نسيان الآخرين . واذا شعر بالندم لانه لم يلتفت الى اقامة الصلات الوثيقة معهم خلال السنين الماضية ، ما عدا الامير ميرز والامير راكان ، فقد قال لنفسه بنوع من العزاء « الوقت لم يتأخر » . وتذكر ما سمعه من بدري المدلل ، ان لا يضع بيضه كله في سلة واحدة ، قال وهو يضحك « هذا الامي ، الثرثار ، يعرف اكثر مما يعرف العلماء . ولا بد ان تكون التجارب علمته والاسفار فتحت عينيه » أما الخصوم الذين بدأوا حربهم ضده فيجب الا يشعرهم انه تلقى الانذار او انه يعرف شيئاً او يستعد لشيء !

العجرمي يحتاج الى عجرمي آخر ، هكذا قال له مطيع قبل فترة طويلة ، وهذا ما يجب ان يكون . وابن شاهين الذي زاره مرتين ، واشار اشارات قريبة من الوضوح انه بحاجة الى انواع من المقويات تساعده وتقويه ، والحكيم الذي تظاهر انه لم يفهم بوضوح ، قال في محاولة لاسترضائه انه سيوصي به طبيباً من اصدقائه ، اختصاصيا بامراض الشيخوخة ، لكي يتولى « تظبيطه » . ابن شاهين اصبح الآن ضرورياً ، والمقويات التي يجب ان تعطى اليه ليست لتمكينه من مواجهة الزوجة السادسة فقط ، وانما لمواجهة العجرمي ايضاً وقبل كل شيء .

لم يبعث وراءه ، ولم يسأل احداً عنه مباشرة . انتظر الى ان جاءيوماً الى القصر . وفي حضرة السلطان ، وبطريقة فيها من البراعة اكثر مما فيها من المكر ، سأله عن بعض امور الدين ، وابن شاهين لم يكن يحتاج الا لمثل هذه الاسئلة لكي يفيض ويجود ، اذ ما كاد يسأله حتى تحدث كما لو انه يخطب الجمعة ، واتى بالآيات والاسانيد . والحكيم الذي كان يهز رأسه مؤيداً وخاشعاً ، قال في لحظة تخيرها تماماً :

ـ السلطنة بحاجة الى كلية للشريعة ، وبحاجة الى علماء افاضل ، من امثالك يا ابو محمد .

كانت هذه البداية ، وكان هذا هو الطعم ، ولذلك بدل ان يركض الحكيم وراء ابن شاهين حصل العكس. فلم تمض إلا ايام قليلة على هذا

اللقاء، حتى جاء ابن شاهين لزيارة الحكيم في القصر، وبعد بعض الاحاديث الجانبية استفسر منه عن « الفكرة السامية » التي اقترحها ، ما هي تماماً ، وكيف يجب ان تكون ، والحكيم الذي افاض كثيراً في شرح وتوضيح اقتراحه ، اكد انه لو نفذ فسوف يخلق اجيالاً مؤمنة ، ويقيم صروحاً للدين على اسس قوية وثابتة ، وليس كما هو الحال الآن « حيث يبشر الجهلة بالدين ويحمل لواءه الذين لا يفهمون اصوله » . أما في الزيارة الثانية ، والتي تمت بعد اسبوعين ، فلم يقتصر الحكيم في حديثه على كلية الشريعة فقط، بل وسأل ابن شاهين عن صحته ، بطريقة معينة وابتسم ، ولم يتردد في لحظة مناسبة من ان يفتح الدرج ويسحب زجاجة دواء ، ناولها لابن شاهين وهو يضحك :

ـ المقوي اللي طلبته مني قبل مدة . يا ابو محمد ، ما نسيته ، لكن ما كان تحت يدي . الآن . . هذا هو، جربه وخبرني . . وادع لي لان دعواتك مستجابة .

وعاد ابن شاهين شاباً في حربه وقناعاته ، وفي لياليه ايضاً . لم يكن بحاجة الى من يحرضه ، الى من يقول له ماذا يجب ان يفعل ، والحكيم بعيد ، يراقب ، يسمع . أما موران التي كانت تحب المطر والحرب فقد استعاضت عن تأخر الامطار هذه السنة بمشاهدة صراع الديكة . كان الصراع يجري في كل وقت وفي كل مكان : « العجرمي لا يعرف الالف من العصا . واذا ناقصه شيء جلال على ظهره وتقول له حي » « ابن شاهين خبلته خصيانه، وبعد ما لهف الدنيا يريد يلهف الآخرة . لكن يخسا » « قولوا للعور : اخاف يصير الدرب فوقاني . ارموا له حذيانه وما عليكم ، الحمار يدل مربطه » « وقولوا للشويهين : الحية ما تنحط بالحثل ، واذا دفت يشوف ونشوف » « العجرمي يقول عني حية ؟ قولوا له الحية التي ترعى وتفري احسن من حيات التبن » .

وتطول المعركة وتتشعب . الحكيم يتظاهر انه لا يدري ، فاذا سمع ابدى استغرابه ودهشته ، واذا هدأت المعركة يوماً يرمي كلمة لكي ينبري مائة من اجل اضرامها . فالقصص التي تنتقل بين حي القلعة وحي سبيع ، والتي تنتقل بين سوق الحلال والعوالي تصل بسرعة الى المقاهي والبيوت ، وبانتقالها تتزايد وتكبر مثل زوابع الصحراء ، خاصة وان للرجلين من المزايا والصفات ما

يغنيهما عن التحريض. ومع ذلك فان اهل موران يضيفون الكثير وهم ينقلون القصص ، ويجعلون كل واحد من الاثنين يلتهب ويتألق الى درجة الاشتعال الكامل ، ثم الاحتراق .

أما تلك النكت البذيئة التي يحفظها ابن شاهين ، وقد رواها في مناسبات كثيرة ، فقد حُوّرت تماماً واصبحت تعني العجرمي وحده ، فكان الناس حين يسمعونها يضحكون من قلوبهم ، وكأنهم يسمعونها لاول مرة. والعجرمي يرد على النكت والقصص التي تروى بالشتائم والغضب . ويبالغ الى درجة انه يضع الجميع في سلة واحدة ، الذي ينقل القصص والنكت مثل من يسمعها ، مثل من يضحك لها ، وتتوالى خسارته للمعركة يوماً بعد آخر !

ذات ليلة ، وقد سمع السلطان بعضاً مما يقال ، فضحك كثيراً ، سأل الحكيم اي رأي يرى في هذا الذي يجري ، فرد بكثير من الهدوء والحرص :

ـ الاثنان من الافاضل ، يا صاحب الجلالة ، مثل اصابع اليد ، لا يمكن ان تميز بين واحد وآخر .

وبعد قليل :

ـ وموران تحتاج الى كلية للشريعة ، فاذا كان رئيسها ابن شاهين اليوم فغداً يموت ويتركها للعجرمي وتنتهي المشكلة .

وقامت في موران كلية للشريعة ، وكان اول رئيس لها ابن شاهين ، لكن ابن شاهين عاش وعمر طويلاً ، والعجرمي لم يتوقف ولم يسلم .

قال الحكيم لمطيع في وقت مبكر ، وبطريقة اقرب الى النشوة ، وهو يشهد الصراع بين الديكة :

ـ ما قلته صار ، يا خالي ، لا يفل الحديد الا الحديد !

ولما نظر اليه مطيع باستغراب وتساءل ، اضاف :

ـ قلت لي في يوم من الأيام : لا يحل مشكلة العجرمي الا عجرمي مثله ، وانت شايف وسامع بما هو حاصل بين العجرمي وابن شاهين !

فوجىء مطيع تماماً ، ولم يقدر ان خاله وراء هذا الذي يجري بين

الرجلين ، رد بانفعال :

ـ فخار يكسر بعضه . واحد أخرا من التاني .

ـ هذا ما يجب ان تفهمه . . .

وبدأ الحكيم يشرح وجهة نظره من جديد وباسلوب آخر :

ـ اذا كان العيساوي يطالبك ان لا يدخل كأس ماء عند السلطان الا بمعرفته فاترك له الماء كله . واذا كان يريد ان يحدّث السلطان عن انساب اهل الفلا فلا تتدخل ابداً . واذا كان يتصور ان قضاء اطول وقت مع السلطان هو كل ما يريد فلا تتنافس معه . المهم ان تعمل اشياء لا يستطيع العيساوي او غير العيساوي ان يعملها . . لا تنافسه في المكان والزمان الذي يريد وحيث هو قوي . دعه يركض وراءك وينافسك في القضية التي لا يعرفها ولا يقدر عليها . اتركه يركض حتى يتعب ، وعندما يتأكد انه اضعف منك يخضع لك ، وعليك ان لا تذّله الى درجة تخرجه عن طوره .

بدت الفكرة مغرية لمطيع ، لكن لم يتصور كيف يمكن ان تطّبق ، او لم يتصور لها شكلاً عملياً ، وفي محاولة لان يحمل خاله على ان يجعل الفسفور في عقله يشع ، كما يحب الحكيم ان يقول في لحظات التجلي ، قال له باستفزاز :

ـ يا خالي ، يا ابو غزوان ، العيساوي ما هو مثل العجرمي .

ـ اتركك من الكلام الفاضي ،العيساوي اصغر من رجل قملة ، وانت في شبر ماء تغرق !

ـ انا؟

ـ اي نعم . . انت .

ـ والله غلطان يا خالي .

ـ لا يا سيدي . .

ـ اذن لا تعرفني !

ـ حافظك عن ظهر قلب !

وضحك الحكيم بعصبية ، ثم اضاف :

ـ اسمع يا خالي : المثل يقول كل واحد بعقله راضي ، برزقه ما راضي . العيساوي مثل العجرمي واصغر منه . مستعجل ، طاير . بعد ما سمع هو وعائلته ان الدنيا تغيرت ، وان باب الرزق عن هذا الطريق ركضوا . اتركهم ، لا تقف في وجوههم ، انتظر في الزاوية ، انتظر الوقت المناسب . حتى اذا اخطأوا ، اذا وقعوا اضرب ، لا . . الافضل والاحكم ان يكون غيرك من يضرب ، ويجب ان تكون الضربة قاتلة .

بدا مطيع فرحاً مثل طفل ، وكأنه وصل الى ما يريد ، قال وخرجت الكلمات من بين اسنانه :

ـ والله لافرج الناس عليك يا ابن العيساوي !

ـ لأ . . لأ يا خالي ، اذا بدأت بهذه الطريقة ما راح تصل .

هكذا رد الحكيم وهو يبتسم ، وبعد قليل :

ـ ازرع ، يا خالي ، في كل زاوية لغم ، وفي كل كلمة لغم ، ولا بد ان يصطدم الخروف بلغم في يوم من الأيام ويتفجر ، وانت لا من شاف ولا من دري ، وهذا ما قلته لك قبل فترة عن الخط المستقيم !

ولم يتـه الخال وابن اخته في مناقشات عقيمة او في خلافات كلامية . انصرفا الى تخطيط صبور ، واعتمدا خطة متشعبة كأنها شبكة العنكبوت ، فاذا افلت العيساوي من خيط فلا بد ان يشتبك بخيط آخر ، ولا بد ان يقع .

ادرك الحكيم ، منذ وقت مبكر ، ان موران تنتظر مستقبلاً كبيراً ، وهذا الذي دعاه الى المجيء ، لكن ما جعله مرتبكاً بعض الشيء ، واحياناً نادماً ، انه لا يفهم الناس هنا بالمقدار الكافي . فبشر هذه المدينـة يختلفون كثيـراً عن البشر في حران او في اماكن اخرى . ورغم اطمئنانه الى نظريته ، والتي يمكن ان تفسر اي شيء ، فقد لام نفسه انه لم يجسّدهما بالممارسة الحيـة وبالتـطبيق اليومي ، الذي يمكن أن يغنيها ، على ناس هذه المدينة . ومثلما تفتح ذهنه من كلمات او تصرفـات ، قد تبـدو صغيرة او ثـانويـة ، سمعها او صـدرت عن الآخرين ، وانطلق منها ، فقد وجد نفسه الآن يهتم بامور عديدة في آن واحد : فكليـة الشريعـة التي قامت بهـذا الاسم ، ما لبثت ان تغيـرت بنـاء لاقتـراح الحكيم . اصبح اسمها : كلية السلطان خزعل للشريعة . والشارع الـرئيسي الذي يربط المدينة بالمطار اصبح اسمه شارع السلطان خزعل ، بناء لاقتـراح الحكيم ايضاً . أما المدينة الجديدة التي بـدأ تشييدها قريباً من وادي الرها فقد سميت بشكـل عفوي مـدينة السلطان خـزعل ، لان السلطان الـذي وضع حجر الاساس قال للمشرف على المشروع وهو يضحك ، انه يترك له وللعاملين معه ان يطلقوا عليها الاسم المناسب ! وهكذا ، وقبل ان تنقضي السنة الثالثة من ولاية السلطان ، كان اسمه قد اطلق على اماكن لا حصر لها ، في موران والمدن الاخرى ، فالمدارس التي باسمه توجد في كل مدينة وقريـة ، وكذلـك الشوارع والساحات .

وتتويجاً لهذا النشاط الذي بدأه الحكيم ، بـالتنسيق مع مـطيع ، اعـطيت

اهمية اضافية للاعلام « هذا باب ، يا خالي ، ما احد له قدرة ان ينافسنا فيه » ولذلك تم اختيار مكان جديد للجريدة والمجلة ، في ساحة الروض . وبدل المطابع القديمة اخرى جديدة ومتطورة الى اقصى حد ، وقد تولى راتب تأمين هذه المطابع بعد زيارة لالمانيا . ولم يقتصر نشاط هذه المطابع على اصدار الصحف ، فقد تجاوزتها الى مجالات تجارية عديدة وهامة .

الامراء ، اخوان السلطان واقرباؤه ، الذين تخوفوا في البداية من الحكيم والمستشارين الآخرين ، ما لبثوا في هذه الفترة ان نسوهم ، اذ شغلتهم امور اخرى اكثر اهمية . فالاراضي حول وادي الرها ، والتي كان قسم منها مزابل لموران ، والاقسام الاخرى مراعي واسواق للابل ، اصبحت هدفاً مباشراً للتنافس بينهم : من يضع يده على القسم الاكبر منها، ومن يضع يده قبل الآخرين ؟ وكذلك حصل ايضاً بالنسبةلعدد من الشركات .

ومطيع الذي بدأ بذكاء في ابراز صورة السلطان كل يوم في الجريدة اليومية ، وكان يوعز ويرتب هذا الموضوع بكثير من الاهتمام والحرص ، بدأ ايضاً في اظهار الاعمال الخيرية والزيارات الرياضية التي يقوم بها عدد من الامراء . كان يفعل ذلك بالتنسيق الكامل مع الحكيم ، الذي استهوته هذه اللعبة ، وبدأ يفكر في الأمر كثيراً ، وجمح به خياله ، ففكر ان يكتب مقالاً اسبوعياً ، او كل بضعة أسابيع ، يتناول بالشرح والتحليل نظرية المربع . وفكر أيضاً ان يكتب مذكراته. لكن لم يتوقف عند هذه الامور طويلاً، «لأن المسألة الآن ان نمكّن اوضاعنا ، ان نخلق روابط ابدية » ويسرح في الخيال حين يردد كلمة « ابدية » اكثر من مرة ، انه لا يعرف ولا يحدد لها معنى ، لكنه يحسها قوية في قلبه ونفسه . ويحس ان الطريق لتحقيق هذه « الابدية » الآن ، لا تعني الحديث عن النفس بقدر ما هو الحديث عن الآخرين : السلطان والسلطة . وما دام اخوة السلطان يشكّلون جزءاً من السلطة ، ولا يستطيع ان يغفل او يهمل هؤلاء ، فلا بد اذن من ان يتحدث عنهم . ان يضعهم في الصورة ، رغم معرفته بالكثير من التفاصيل ، سواء تلك المتعلقة بموقف او رأي السلطان بهم ، او رأيهم بالسلطان ، لكن مع ذلك فالسلطة في النتيجة لعبة معقدة ، ويجب ان يلعبها ضمن شروطها . واذا كان قد اخطأ خلال الفترة

الماضية ، وترك للآخرين ان يتقولوا عليه وان يفتروا ، امثال العجرمي وابن فريح وان يحرضوا ، فقد كان ذلك خطأه بالذات ، لان الانسان ، اي إنسان، من لحم ودم، أي أنه تطبيق لنظرية المربع، وليس السلطان وحده تطبيقاً لهذه النظرية ، ولذلك فقد ترك ، سهواً ، بعض الامور تفوته ، ولا بد ان يصلحها الآن .

أما نظريته فلا يمكن ان يبددها من خلال مقالات صحفية ، او ان تظهر مشوهة ومجزأة. يجب ان يعتني بالامر الى اقصى حد ، ان يبذل جهداً متواصلاً ومتقناً من اجل اخراجها الى الناس في احسن حلة ، لكي يكون لها وقع القنبلة ، أما ان يتحدث عنها السوقة ، والذين يتعلمون القراءة والكتابة ، وان تصبح مدار اسئلة واستفسارات ، مثل اية قضية اخرى ، فانه لا يحتمل ذلك ولا يطيقه . قال لنفسه بنوع من الجد الاقرب الى الحزن « من الجلال واللائق اكثر ان تظهر النظرية بين دفتي مجلد ، او مجموعة من المجلدات لئلا تصبح اشلاء ، او تصبح مضغة في افواه الصعاليك وانصاف المتعلمين » .

وهكذا بدأت تنشأ علاقات جديدة بين الحكيم والامراء ، وكذلك الحال مع مطيع أيضاً. صحيح ان هذه العلاقات نشأت عرضاً ، او هكذا أُريد لها ان تظهر ، لكن الحرص الذي ابداه الطرفان على قيامها واستمرارها لا يخفى ، فمباراة الفروسية التي جرت في السنة الثالثة في موران ، بعد ان كانت تجري في الصحراء ، بعيداً عن اعين الناس ، ودون رغبة بمشاركتهم ، لم تلبث حتى انتقلت الى موران، وكان الامير ملحم هو الذي يرعى هذه المباراة. أما الحكيم ومطيع فقد كانا من اوائل المدعوين . والامير الذي بدا مضيفاً عذباً ، وبذل جهداً واضحاً في تعريف كبار الزوار بعضهم إلى بعض، وعلى الخيول، قدر، بصوت عال ، احتمالات معينة للمباراة ، واشار بشكل سريع الى عدد من الخيول التي يملكها ، وكيف انها « ركضت في مصر والاسكندرية وبيروت . وقد فازت في كل المرات » .

دوّن مطيع بعض الملاحظات ، واستفسر من الامير حول عدد الخيول والسباقات التي فازت فيها ، ثم شارك مشاركة متحمسة اثناء السباق . أما في اليوم التالي فقد عبر عن ارتياحه وتقديره من خلال تقرير نشره في الجريدة

اليومية بتوقيع « مراقب » ، وارفقه بعدد من الصور التي ظهر فيها جميعها الامير ملحم .

ومن الامير ملحم الى الامير فواز ، الى الامير راكان ، الى الامير مناور الى الامراء الآخرين الأقل اهمية والاصغر سناً . فاذا كان الامير ملحم قد اهتم بالخيول وشغلته عن كل شيء، فان هواية الامير فواز الرياضة. كان الاب الروحي للرياضة في السلطنة كلها ، ولانه قضى سنة وبضعة شهور بين القاهرة والاسكندرية ، وشهد هناك المباريات ورأى مدى الاهتمام بها ، ولانه حاول عدة مرات في القاهرة ممارسة كرة القدم ، لكن بدا له انه لن يحسنها ، ربما لتقدمه في السن ، او لانه لا يقوى على العدو ، كما كان يصرّ المدرب ، فقد صعّد هذا الاهتمام ليكون مؤسساً لعدد من النوادي الرياضية ، وليكون الاب الروحي والراعي للرياضة والرياضيين في موران .

وكانت للامراء الآخرين ايضاً هوايات مختلفة ، استطاع الحكيم بكثير من الصبر والمثابرة ان يعرفها او ان يحزرها . فالامير راكان معجب بشيئين اثنين : المسابح والعباءات . ولان الحكيم عزيز على الامير راكان ، وقد دعاه عدة مرات الى مزرعته خارج موران ، وابدى رغبته في محاورته حول قضايا اللغة والفقه ، فقد توثقت العلاقة بين الاثنين ، واقترح الامير راكان ، لكن دون إصرار ، ان تتولى الجريدة اليومية اعادة نشر « الفية ابن مالك » لتعم الفائدة!

أما حين كانت وداد تعد نفسها لزيارة دمشق وبيروت خلال الشتاء ذاته ، فقد اوصاها الحكيم على مجموعة من السبحات، كتب لها على ورقة اسماءها ولون خرزاتها وعدد هذه الخرزات ، لئلا تنسى ، واوصاها أن تعطي الورقة لراتب « الذي يجب ان يخلقها من تحت الارض ، لاني موصي عليها من اعلى المراجع » وطلب منها ايضاً ان تحضر معها عباءتين «وبر اصلي ، واحدة فاتحة بلون البلح اول نزوله والثانية غامقة بلون التمر ، ولا تبخلي ابداً ، يا ام غزوان ، لان كل شيء سعره معه » وضحك الحكيم وضحكت زوجته ، وعندما استفسرت لمن سيهدي السبحات والعباءات رد وهو يقهقه :

ـ لصاحب النصيب !

وحين نظرت اليه مستغربة وضحكت ، تابع :

ـ حتى هذه الساعة النية ان تكون الهدية للامير راكان ، لكن اذا رجعتِ بالسلامة ، وكانت معكِ الوصية ، نبيّت خيرة ونشوف من هو اللي يستاهلها !

وفي اطار اكمال الطوق ، والوصول الى ابعد نقطة ، قال الحكيم ليقنع نفسه وزوجته ايضاً ، وقد خرجت كلماته عميقة ، وكأنها صادرة من القلب :

ـ اتذكر حديثاً للرسول عليه السلام ، لا اتذكر كلماته بالفاظها لكن اتذكر معناها ، قال : تهادوا فان الهدايا تؤلف بين القلوب ، او ربما قال : تقّرب بدل تؤلف . نعم ان الهدية لا تخلق المحبة فقط ولا تولد الالفة فقط، انها تفتح القلوب وتجعلها مستعدة لفهم وتقبّل اصعب الاشياء وابعدها .

وتوالت هزات رأس الحكيم ، وبعد قليل اضاف بطريقة تقريرية صلبة :

ـ وبسفرتك ، يا وداد ، لا تنسي ان تحضري معك ما تستطعين حمله ، ومن كل شيء اثنان ، كما فعل نوح عليه السلام ، حتى اذا احتاج الانسان ان يقدم هدية وجدها تحت يده ، فلا يخجل ولا يحتار .

وداد التي قامت خلال سفراتها السابقة باحضار ما اوصتها نساء القصر عليه ، واشياء اخرى فكرت حين شرائها ان تقدمها لهذه الاميرة او لتلك ، لكنها ما لبثت ان تناست الموضوع بعد وصولها الى موران ، ثم نسيته فعلاً . فاذا عادت الى تذكره مرة اخرى ، او اذا اصطدمت بحاجة من الحاجات التي جلبتها معها كهدايا ، كانت تقول لنفسها : « ما عندهم يكفيهم ويزيد » وتبتسم وهي تنظر الى الهدية، ثم تطويها وتعيدها الى مكانها .

هذه المرة والحكيم يشجعها ان تجلب معها اكبر كمية من الهدايا ، ويأتي باحاديث عن الانبياء والرسل يبدو لها الامر غريباً . سألت في محاولة للتأكد :

ـ قولك ، يا ابو غزوان . . في تقدير لهذي الهدايا عند الجماعة ؟

ـ الهدية اقصر طريق للقلب . . . يا وداد !

وابتسم ، وبعد قليل :

ـ واللي بده يكسب لازم يفّت ، لازم يعطي ويهدي .

هذا الدرس الذي حفظه الحكيم جيداً من بدري المدلل نفـذه بكثير من الذكاء والكياسة ، فلم يسرف في تقديم الهدايا ، ولم يتعمـد ارتفاع اسعـارها دائماً ، ولم يشر اليها بعد ان قام بتقديمها . كان يعتمد خـطة محكمة وشـديدة الدهاء . وكان اغلب الاحيان ، ينـظر بعيني صقر ويسمـع باذني حمـار ويشم كالقطة ، فـالامير الـذي ينظر الى السبحات في ايـدي الآخرين ، ويسـأل عن انواعها ومزاياها ، لا بد ان يتلقى من الحكيم ذات يوم سبحـة تفوق كل مـا عنده او ما رأى . والامير الذي تهمه العطور والبخور ويبدو حريصاً على مظهره ومنـظره ، ستصله فجـأة حقيبـة صغيـرة ، متقنـة الصنـع ، وفيهـا عـدد من زجاجات العطر ، وقد قام الحكيم بترجمة الكلمات الاجنبية . كان يكتب بخط انيق ، خلافاً لطريقته في كتابة الـوصفات الـطبية : « بعـد الحلاقـة » « عطر خفيف للنهار » « عطر لليل ، للنوم . . » « مقوي للجلد » وهكذا .

أما اولاد الامراء الذين لم تتكون لهم هـوايات بعـد ، فقد تـذكر الحكيم عدداً منهم ، ولذلك جلب احذيـة رياضيـة واقلام حبـر فابـر وآلات تصويـر كوداك ، وجلب مرة او مرتين مسدسات حـربيبة مفضضـة المقابض وصغيـرة الحجم ، وقد تعمد عرضها امام السلطان ، لانه لم يكن بعد متأكداً ما اذا كان راغباً بواحد منها ، فلما ظهرت اسنان السلطان الامامية الكبيـرة من الفرح ، ورازها مرتين او ثلاث مرات بيده اليمنى وصوّب ، ثم رازها باليسار ، حـين تأكد الحكيم ان هدية من هذا النوع تنـاسب جلالتـه ، حنى رأسه قليـلاً الى الارض وقال بصوت حمّله مقداراً كبيراً من التواضع :

ـ ترددت ، يا صاحب الجلالة ، في تقديمه لجلالتكم ، لان مقامكم اسمى من ذلك ، اما اذا قبلتموه فإنني لن انسى ذلك مدى العمر .

لكن كلما برع الحكيم في اختيار الهدايا ، سواء من ناحية نوعها او توقيت تقديمها ، كان يصطدم بـالتحدي الـذي يمثله بـدري المـدلل . فقـد تخصص الحكيم بالامراء ، وبالامراء المهيمن بشكل خاص ، في الوقت الذي لم يقـدم بدري المدلل هدية لامير ، وربما لم يفكر بذلك ، لكن مع ذلك فان الهدايا التي

تخرج من صندوق بدري ، بخفاء ودهاء ، كما يفعل الساحر ، لا تلبث ان تصبح الموضوع الوحيد للحديث ، حديث الصغار والكبار .

فالمسدسات الزائفة، مسدسات الفلين التي حملها معه خلال سفرة قصيرة قام بها الى بيروت ، من اجل شراء انواع من العطور والمقصات لصاحب الجلالة ، وبعد ان قام بتوزيع الهدايا على ابناء السلطان ، خلقت من الضجة والخوف والاهمية اضعاف ما خلقته المسدسات الحربية ذات المقابض القصيرة المفضضة التي حملها الحكيم . أما تلك اللعب التي كان بدري يحرص على شرائها من صديق له في بحمدون كل صيف ، والذي يوصيه ان يجمع له منها اكبر عدد ، وبانواع مختلفة ، فكان لا يخرجها دفعة واحدة ، وانما يتخير وقت اخراجها . ويتخير ايضاً لمن يعطيها . كانت هذه اللعب تشغل القصر كله ، ثم تنتقل الى قصور الامراء فتشغلها ، ولا تلبث ان تشغل موران كلها . فالحيات المصنوعة من المطاط ، والعقارب التي تتحرك بالنابض الآلي ، ثم انواع الكبريت التي تحرق وتفرقع وتخرج منها الوان او روائح من نوع او آخر ، استهوت الكبار قبل الصغار ، بل واصبحت تملأ ليالي السهر الطويلة في قصر الغدير وفي القصور الاخرى ، وكثيراً ما تولدت منها قصص وأحاديث للأيام التالية : كيف جلس ابن شاهين على حية . . ثم قام فزعاً وهرب من المجلس! وكيف اوقدت لابن خميس سيكارة بثقاب يخرج رائحة غير زكية ، وكيف اشتعلت لحية ابن المشاط وهو يوقد غليونه الحجري .

أما عندما جاء بدري بالفتاش والاسهم النارية ، ووزعها قبل ثلاثة ايام من عيد الجلوس ، فقد جعلت تلك الليلة من ليالي موران لا تنسى ، فبعد ان بدأت اصواتها ترتفع ، وبعد ان ملأت سماء موران بتلك الالوان ، ولم يبق احد الا وشاهدها او انتظرها ، حتى تبعتها اصوات الرصاص ، وقد حصل هذا دون تدبير ودون انتظار ، بحيث تحولت الليلة الى مهرجان استمر حتى ساعات الصباح الاولى ، وقد قدر الكثيرون احتمالات وآمالاً بعيد الجلوس الجديد .

واذا كانت الاسهم النارية قد خلقت هذا التحريض الذي استتبع استعمال كل سلاح في موران، فقد فكر بعض العسكريين ان يستعملوا

اسلحة اكبر تعبيراً عن الفرح والمشاركة ، الا ان توصية الحكيم ، والتي لم تتأخر كثيراً ، في ان يكون الجيش والشرطة في حالة طوارىء ، هكذا جاءته الفكرة ، فوتت على هؤلاء ان يستعملوا اسلحتهم !

وهكذا يبدو التحريض قوياً لا يقاوم للحكيم ، رغم ان بدري المدلل لم يفكر بذلك، ولم تخطر بباله لحظة واحدة ان يستفزه او يتحداه ، الا ان واقع الأمر كان على هذه الصورة ، والحكيم الذي كان يثني على بدري ، ويعتبره ضرورياً بالنسبة له ، كان يغتاظ « من هذه القوة الشيطانية التي تجعله يتصرف وكأنه ابليس » .

أما عندما قام بدري المدلل بتزويج اثنتين من بناته الثلاث ، واحدة الى رئيس حرس السلطان ، والثانية الى نائب قائد شرطة موران ، فقد احس الحكيم بتحدٍ مباشر ، قال لنفسه وخرج صوته عالياً نزقاً :

ـ ابن الحرام علمناه على الشحادة سبقنا على الابواب .

في اليوم التالي لحفلة الزواج ، وكان الحكيم من ابرز حضورها ، بناء على إلحاح مدير الشرطة ، والذي قال له انه لا يقبل ان يكون نائبه اقل من رئيس الحرس ، قال الحكيم لنفسه ، وبصوت عالٍ وبنوع من السخرية :

ـ الظاهر ، ابن الحرام بدري ربطها وحزّم عليها ، صار عم البدو والحضر سوا ، عن يمينه مدير الشرطة وعن يساره رئيس الحرس .

وضحك بغيظ ثم اضاف :

ـ والله يسترنا من الثالثة .

وفي تلك الليلة بالذات قرر الحكيم ان لا يتفوق عليه احد !

سمير قيصر ، او الاستاذ قياصر ، كما يطلق عليه الحكيم بعض الاحيان مداعباً ، وصل الى موران ضمن مجموعة من الصحفيين الذين تعاقد معهم مطيع اثناء زيارته الى القاهرة ، أما الذي رشحه واقترحه فهو راتب ، لان علاقة ، اساسها الصدفة ، نشأت بين الاثنين قبل بضع سنوات ، حين كان راتب يقضي جزءاً من وقته في الاسكندرية .

ما كان وصول سمير قيصر موران ليثير اي اهتمام اولاً ، او اي تساؤل او خلاف بعد ذلك ، لولا المذكرة التي قدمت من السفارة الاميركية بعد بضعة شهور من صدور جريدة البادية ، فقد تضمنت تلك المذكرة اشارة الى ثلاثة مقالات ، نشرت في اعداد متفرقة من الجريدة ، وكان اثنان منها موقعين باسم سمير الصريح ، والثالث بالاحرف الاولى من اسمه ، وقد اشير بخطوط حمراء الى الفقرات التي اعتبرت خطرة . لم تكتف السفارة بذلك ، قدمت معلومات مستندة الى مصادر مؤكدة ، كما قال مستشار السفارة باول اندروس، تشير الى « ان المدعو سمير قيصر سبق ان قضى عدة سنوات في احد السجون المصرية لاسباب سياسية » .

هذه المعلومات والملاحظات ولّدت قلقاً اقرب الى الخوف ، وكانت تكفي لترحيل اي شخص من السلطنة ، لكنها ، مع ذلك ، لم تكن كافية لترحيل سمير ، لانه جاء عن طريق راتب اولاً ، ولان علاقات وثيقة نشأت بينه وبين مطيع والحكيم بعد ذلك . كما ان جريدة البادية ما كانت لتصدر او لتصبح بهذه القوة والاهمية لولا المساهمة الكبيرة التي يقدمها . ولذلك ما كادت ملاحظات

السفارة تقدم ، وما كاد آلحكيم يفاتح مطيع بالامر ويتساءل عن الموقف الذي يجب اتخاذه ، بما في ذلك احتمال ترحيل سمير والاستغناء عنه ، حتى صرخ مطيع بما يشبه الاستنكار :

ـ قبل ما يرحل ارحل قبله ، هذه القضية حطها ببالك . . يا خالي .

وحين تساءلت عينا الحكيم بدهشة تابع مطيع :

ـ يا خالي صار اكثر من ثلاثة شهور ونحن نحضّر لاصدار مجلة « الواحة » ، وكل شيء قائم على اكتاف سمير ، « والبادية » لا يمكن ان تستمر اذا رفع يده منها .

هز الحكيم رأسه بموافقة وحزن ، وهذا شجع مطيع لان يقول :

ـ والمعلومات التي قالوها لك ، يا حكيم ، قديمة وفيها مبالغة . . .

وتغيرت لهجته :

ـ والرجل حكى لي عن هذه الامور ، وقال انها جزء من تاريخ مضى وانقضى ، وانه نادم على اضاعة سنوات من حياته في اعمال سياسية صبيانية .

ويكثير من الدهاء والحيلة ، اضافة الى التلويح بالمخاطر التي تترتب على نشر مقالات مثل تلك التي اشارت اليها السفارة ، مع اغراءات تتزايد فترة بعد اخرى ، بدأ سمير يكتسب صفات جديدة ، وبدأ يصبح شخصاً لا صلة له بالذي كانه. صحيح أن هذا نتيجة قناعة داخلية عميقة، ونتيجة استعداد كامل ، وربما كان يموه نفسه في الماضي ، اكثر مما هو نتيجة النقاشات التي تعمد الحكيم اثارتها معه ، خاصة وان الاثنين كان يروق لهما ان يناقشا الامور الفلسفية ، خلافاً لمطيع « العملي » ، كما يصفه الحكيم ، « لاننا نصدر عن نفس النبع الذي هو اصل الينابيع كلها : الفلسفة » .

أما حين زار راتب موران وسأله الحكيم بما يشبه العتب كيف انه لم ينبّهه ولم يذكر له شيئاً عن هوية سمير السياسية وعن سجنه، فقد رد راتب وهو يضحك :

ـ الله يخليك يا حكيم الرجل طلق ماضيه كله وحرام ان نذّكره ، او ان

نخرج هذه الجثة ، من القبر ونحطها في وجهه !

ولما استخرج الحكيم قصاصات الجريدة واشار الى الخطوط الحمراء ، وقال انها اثارت السفارة الاميركية ، فقد رد راتب بضيق :

ـ يا سيدي حط بالخرج .

وبعد قليل :

ـ الاميركان يخافون من خيالهم ، يخافون من كل شيء لونه احمر ، ولا يحبون اي انسان له ماض .

وزفر فخرج صوته مختلفاً :

ـ وانت يا حكيم لا تحتاج لمن يقول لك ان واحداً له ماضٍ وتنكر لهذا الماضي افضل الف مرة من واحد يريد ان يبني امجاداً على ظهورنا .

وغمز راتب بعينه وقال وهو يبتسم :

ـ وانا ما عدت ولد يا حكيم ، وغير مستعد ان اورطك او اورط نفسي ، والأيام بيننا .

بعد بضعة ايام من هذا الحوار ، وحين كانوا على مائدة الطعام والحكيم ينبه ابنه الصغير الى ضرورة ان يمسك السكين بيده اليمنى « لان اليمنى هي الاقوى ، وهي المباركة » . علق راتب ضاحكاً :

ـ الآن فهمت . . .

فلما تطلع اليه الحكيم متسائلاً تابع والضحكة تملأ وجهه :

ـ لان سمير يستعمل يده اليسرى ظننت ان كل شيء فيه يساري ، وانه سيبقى كذلك .

رد الحكيم ضاحكاً :

ـ يا اخي درهم وقاية خير من قنطار علاج .

ـ لا تخف يا حكيم ، اطمّنك وانا مسؤول : الرجل مستعد ان يكتب باكثر من يده اليمين ! وضحكوا جميعاً بنوع من المتعة !

ولم تكذب نبؤات راتب ومراهنة مطيعُ ، فالسفارة ذاتها ، واثناء احدى

المناقشات حول الصحافة ودورها في المرحلة الراهنة ، اشارت بكثير في الارتباح الى « النهج الواضح ، الذي يطبع صحافة موران ويجعلها رصينة ، قوية ، ومؤثرة تأثيراً واضحاً في تعبئة الرأي العام حول العرش ، وتأييد الافكار المعتدلة والتمسك بالقيم الدينية والاخلاق » ولم يفت المستر باول اندروز ، مستشار السفارة ، ان يشير الى مقالات عبد الهادي البكري والشيخ عثمان اسماعيل وايضاً « مقالات سمير قيصر الأخيرة » ، قال هذه العبارة وهو يبتسم بغبطة !

مطيع الذي وجد نفسه يغرق في هذا الجو ، كان يقرأ نتائج عمله في وجوه الآخرين ، خاصة القصر وما حوله ، انه يريد صحافة مدوية ، تخطف الابصار ، ولذلك لا بد من حدث جديد ومثير كل يوم ، لان من شأن هذا الاحداث ان تستقطب ، أما ما يقوله الحكيم عن الاسس الفلسفية ، وعن المثل ، فانها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له الا بمقدار ما يمكن ترجمتها الى صيغ خفيفة مسلية تلفت الانظار وتثير الاهتمام، وهذا ما جعله يركز كثيراً على القسم الفني ، وبشكل خاص التصوير « لان موران اليوم تغرق في الامية ، وحتى المتعلمون ، الذين يقرأون ويكتبون ، ليس لديهم الوقت لان يغرقوا في التحليلات الطويلة ، او في الكلام النظري الذي لا يؤدي الى نتيجة ، ولهذا يجب ان تعتمد الصحافة الحديثة على الصورة ، على الشيء غير المألوف ، وهذا وحده مقياس النجاح » .

ما يتصوره مطيع او يفترضه ، وما يحاول الوصول إليه ايضاً ، ليس نتيجة اجتهاد ، فهو لم تكن له صلة بالصحافة في يوم من الأيام ، ولكن من خلال الافكار التي سمعها اثناء التحضير لاصدار الصحف ، والمناقشات التي جرت امامه في اماكن عديدة حول الصحافة التي يجب انشاؤها او الصحافة المطلوبة ، اضافة الى ما يلاقي هوى في نفسه ، توصل الى تكوين هذه الافكار العامة ، لكن دون ان يكون قادراً على تنفيذها شخصياً . ولذلك كان يكتفي بالتوجيه ، ويقتصر دوره على الاشراف .

وهكذا نشأت تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين مطيع وسمير ، اذ شعر كل منهما انه يكمل الآخر .

أما كيف قامت العلاقة بين راتب وسمير فان الصدفة وحدها لعبت الدور الاساسي ، فقبل بضع سنين ، في الاسكندرية ، وخلال موسم الاصطياف ، وكان راتب احد نزلاء بنسيون روجينا تم التعارف ، وكانت صلة قرابة تربط سمير بصاحبة البنسيون .

والصدفة ايضاً قادته مرة اخرى لان يلتقي به في القاهرة ، اثناء ما كان يجري البحث عن صحفيين للعمل في موران .

قال لهما ، بعد ان استشاراه في امكانية مساعدتهما للاتصال ببعض الصحفيين :

ـ تأسيس صحافة غير ان يعمل الانسان في صحافة قائمة . التأسيس يحتاج الى امكانيات استثنائية ؛ والاشخاص الذين يعرفون كيف ينشئون دوراً صحفية كبرى قلائل جداً . طبيعي القضية ليست مستحيلة ، لكن المهم ان تبدأ الصحيفة قوية ، وان تمتلك اسماء كبيرة ، وهذا يجعلها في مركز القوة والتأثير .

وبعد ان يهز رأسه دلالة الاسف ، ويكون كلامه قد استوعب ، يضيف بلهجة حزينة :

ـ لدي تجربة في تأسيس الصحف ، وقد سبق ان ساهمت بانشاء عدة صحف ، وكان بودي لو استطيع مساعدتكم ، لكن . . .

وحين تتطلع اليه العيون يتابع :

ـ ـ لدي التزامات كبيرة وعاجلة في الفترة الحالية .

ويسأله مطيع بقلق ورجاء :

ـ الى متى ؟ اقصد . . .

ـ ثم ان الحياة في موران ، وفي البلدان النفطية الاخرى ، شاقة ، ومن الصعب ان يتحملها الانسان .

ويهز رأسه بنوع من الاسف :

ـ والصحفيون الذين قد يرغبون في العمل هناك قليلون ، قليلون جداً . .

ويعود الى لهجته الاولى :

ـ لكن يمكن اقناع عدد منهم ، خاصة اذا كـانت المزايـا التي سيحصلون عليها مشجعة !

وبعد الكثير من الكر والفر ، من الاختبار والتأثير النفسي ، وبعد ان عرف كيف يقدّم نفسه ويظهر مزاياه طلب مهلة شهرين .

ـ خـلال هذين الشهـرين استطيـع ان انجز القسم الاكبـر من التزامـاتي واعتذر عن القسم الآخر ، واستـطيع ايضـاً ان اتصل ببعض الـزملاء ، وان اقنعهم ، بشكل او آخر ، بالعمل معنا . طبيعي المسألة ليست سهلة ، خاصة واننا نريد صحفيين من الدرجة الأولى ، صحفيين كباراً ، لكن ازاء المزايا والإغراءات التي يمكن ان تمنح ، قد يوافق بعضهم على العمل معنا .

لام نفسه كثيراً بعد هذا اللقاء . اعتبر ان مهلة الشهرين التي طلبها تمثل ذروة الحماقة في حياته كلها. ماذا لو بحثوا عن آخرين ووجدوا من يلائمهم، ولـم يكلفـوا انفسهم مجـرد الاتصال به او الاعتذار ؟ وخلال هذين الشهرين ماذا يمكن ان يحصل والى متى يبقى ضائعاً حائراً وجائعاً ايضاً ؟ وهل تنـطلي حيلة مثل هذه او تؤدي الى النتائج التي افترضها ؟

لم ينم تلك الليلـة ، تاه في حالة من التخبط يولدها الشعـور بالخيبـة ، وتمنى في اعماقه لو انه كان اقل ذكاء ، اذن لما كان مضطراً لان يدفع ضـريبة هذا الذكاء التافه ، ولما ضاعت منه هذه الفرصة التي انتظرها . وفي الغفوات القصيرة حلم انه عاد مرة اخرى الى السجن ، وانه يتعـرض للتعذيب ، كـما حصل له في الأيام الاولى من التوقيف ، وحين صحا في احـدى اللحظات ، واستعاد احداث اليوم ، قرر ان يصحح خطأه ، ان يختصر المدة ، على الأقل لمدة شهر واحد ، وقد يوافق على فترة اقل !

وهذا ما حصل في اليوم التالي . واذا كان قد سيطر على عواطفـه واخفى فرحته ، فان مطيع لم يستطع ذلك . اعتبر ان اختصـار المدة من شهـرين الى شهر واحد تضحية لا يمكن ان ينساها لسمير . أما موافقتـه على ان يتعـاقد ، بعـد ان اعتذر ، « فقط اريـد فرصـة للتفكـير ، نعم اريـد ان افكـر وادرس

الموضوع»، مع الوعد بأن يبذل جهده من اجل الاتصال بصحفيين آخرين : أما حين وافق على التعاقد فقد اعتبر مطيع انه انجز نصف المهمة ، ولكي لا يترك الموضوع قابلاً لاعادة النظر او للتردد ، فقد دفع اليه مبلغاً سخياً ، دون ان يطلبه ، وهذا المبلغ الذي رفض سمير تسلمه ، في البداية ، بكثير من الاباء « لان الامر سابق لاوانه ، والعلاقة بيننا قائمة على اساس الثقة » فما لبث ان وافق ، نتيجة الضغط والالحاح !

هذه « اللمسات الفنية » كما يسميها سمير كانت ضرورية . ويضحك وهو يفرك بيديه « وراتب الذي عرف في وقت سابق اني سجنت يجب ان يقف الى جانبي دون تردد» ولذلك ما كاد يقترح عليهما ان يسافروا معاً الى الاسكندرية « لاننا انجزنا المهمة » وموافقة راتب المتحمسة ، لان ذكريات الاسكندرية ضجت في رأسه ، وحين ابدى مطيع بعض التردد ، تعهد سمير ان يَختصر مدة الشهر الى فترة اقصر !

وفي الاسكندرية ، وفي لقاء منفرد ، ونتيجة الدور الذي قامت به روجينا ، فهم راتب الموقف كاملاً . قال وهو يضج بالضحك :

ـ يا سيدي كل انسان له اخطاء في ماضيه ، واكثر الذين سجنوا لاسباب سياسية كانت الاسباب ، اغلب الاحيان ، واهية او ملفقة .

وبعد قليل وبلهجة ابوية :

ـ وعفا الله عما مضى !

أما بعد ان وصل سمير الى موران ، ونتيجة الجهود التي بذلها بالتعاون مع الكثيرين ، ولانه كان وثيق الصلة بمطيع اولاً ، ثم بعد ذلك بالحكيم ، وكان يفهم ما يريده اي منهما ، ويستجيب له بكثير من الذكاء والطيبة . . والسرعة ايضاً ، ويعرف كيف يعبر عن افكاره بتلك الروح المرحة ، فقد بدأت تلك اللعبة الجديدة التي تركت آثارها في موران وما حولها .

قبل نهاية هذا الصيف وصلت الى موران ام حسني ومعها كنتاهـا وخمسة اطفال ، كان وصولها مفاجئاً للكثيرين ، واكتشف الكثيرون ، واستغربوا ، ان حسني وسعيد متزوجان ، وان لكل منهما عائلة ، ولكـل منهما اولاداً ايضـاً ! واستغـرب هؤلاء وغيـرهم انهم لم يسـألـوا انفسهم من قبـل ، ولم يسـألـوا الرجلين ، بالمقدار الكافي ، عن هذه الامور ، وكأنهم الفوا وجودهما هكذا ، رغم ان كل واحد من الاثنين كان يسافر مرة او اكثر سنوياً ، يقضي شهراً او اثنين عند الاهل .

الآن ، بعد الحفاوة والـدعوات ، وحـين بدأت ام حسني تـدقق وتعطي اذنيها للكنتين لتسمع من خلالهما ما لم يقله ابناها بشكـل مباشر ، عـرفت ان شيئاً جديداً قد حصل بين الأخوين، وان حسني يفكر بالاستقلال في بيت خاص ، لانه لم يعد يحتمل . قالت لنفسها بحزن : « قلبي ، من زمان ، قال لي » .

وتذكرت كيف كانت في عمان كل شيء : تحضن الكنتين والاولاد وترعى الرجلين ، كما تحضن الدجاجة فراخها ، وكان لا يتم اي امر الا برأيهـا وبناء على مشورتهـا . الآن تشعر بـالخطأ ، لانها تـركت ابنيها يسـافران وحـدهما ، وتشعر بخطأ اكبر انها تركتهمـا هذه الفترة الطويلة كلهـا . لهذا ، وبكثـير من الصبر والدأب ، اخذت تحاول اصلاح ما افسـده الزمـان ، مستخدمـة المكر البريء والحيل الصغيرة ، ومستعينة بالاطفال بشكل خاص . كانت تدفع الاطفال لكي يتعلق كل واحد بعمه ، وتدفع كل كنة لان تهتم بسلفها أكثر مما

تهتم بزوجها . أما فكرة ان يستقل كل واحد من الأخوين ببيت خاص ، فلم تتصورها ولم تكن مستعدة لان تحتملها .

قالت ذات ليلة ، وهي تنهض لتأوي الى فراشها ، وبدا كلامها غريباً :

ـ قبل ان تنفصلوا بعضكم عن بعض اكون انا تحت التراب .

واذا كانت قد اطمأنت بعض الشيء حين ابدى ابناهـا ، دون كلمات ، نوعاً من التسامح ، وبدا لها ان الامور قد عادت الى طبيعتها ، فان تلك الروح الدؤوبة التي ولدتها الصعوبات ، وصقلتها التجربة ، منذ ان فتحت عينيها على هذه الدنيا ، وكانت مجرد فتاة يتيمة ، تنتقل من بيت الى آخر ، ثم زُوجت ، وهي لا تزال فتاة صغيرة، من رجل يتجاوز عمره عمرها ثلاث مرات او اربعاً، وعاشت معه سنتين فقط انجبت خلالها حسني ، وهي التي تولت تسميته ، لان الزوج مات قبل ولادته ببضعة شهور ، تلك الروح هي التي قادت خطواتها فيما بعد . وهي التي حددت لها كيف تسير وكيف تعيش . وحسني الذي كان عبئاً جديداً كان فأل خير ايضاً ، ولذلك تعلقت به واحبته كثيراً . أما حين تزوجت مرة ثانية وجاءها سعيد ، وبعد سنة زكية ، فقد ظلت تحس ان الولد الأول له وضع متميز مختلف ، أما فيما بعد فان هـذا التميز ، او هـذا الاختلاف ظـل غامضاً وخفياً ، لان عبء الثلاثة ، من حيث الأكل والهموم ، كان واحداً .

لذلك ما ان وصلت مع هذه القبيلة الصغيرة ، بعد الرسالة التي جـاءتها من حسني تـطلب وتلّح في الطلب ان تـأتي ، وان الصحـة والاحـوال جيـدة للغاية ، وقد اكد على ذلك اكثر من مرة ، لئـلا تخاف وتـظن الظنـون ، فقد حملت معها كمية كبيرة من « التجارة » التي كانت تتعاطاها في عمان ، حملت معها اللبان والحنـة والقمر الـدين ، وحملت ايضاً البـامياء اليـابسة المشكـوكة بخيـوط ، والملوخية المجففـة ، اضافـة الى عدد كبـير من المكـانس النـاعمـة والخشنة ، وكانت هذه المواد واخرى مشابهة لها تشكل تجارتها التي تدر عليهـا « ارباحاً » تكفي لمصروف البيت ، كما تقول .

كما ان هذه التجارة كانت تتغير وتتنوع حسب الاماكن والفصول ، وتبعاً لرغبات المشترين وحسب امكانياتهم المادية ايضاً . ففي الصيف ، حـين تكثر

الخضار ، ولا يفكر احد باستعمال الخضار المجففة ، تجلب الأمشاط وليف الغسيل ، ولا تتردد في ان تحمل نماذج من الاقمشة الحريرية او الصوفية ، اضافة الى السبحات وانواع من الحلويات الشامية. وفي اوقات اخرى كانت تحمل المناخل والعقل والبخور ، ولا تتردد في جلب العباءات والفروات ، اذا وصُيّت عليها في وقت مناسب .

كانت رحلات ام حسني بين دمشق وعمان ، في تلك الفترة ، وكانت تتكرر بمعدل رحلة كل ثلاثة اسابيع او اربعة . ولا بد ان تحمل معها ايضاً مفاجآت عديدة . وبكثير من الدهاء تتصرف مع زبائنها ، والذين صنفتهم ضمن سلم وحسب اولويات معينة ،فهي ، اولاً ، لا تعلن عن وصولها الا بعد وقت يكفي لان ترتب جميع الحاجات ، وبعد ذلك تبعث باخبارها لعائلات قبل غيرها ، وتستقبل عائلات قبل غيرها. أما المواد التي جلبتها فتعرف متى تعرضها ولمن .

هكذا كانت ام حسني طوال السنوات التي قضتها في عمان ، الآن ، وهي تصل الى موران ، ورغم طول المسافة وصعوبة الطريق ، ورغم الرسالة المطمئنة التي وصلتها من حسني ، والتي لم تترك احداً الا وقرأها لها ، فقد حملت معها ايضاً كميات من المواد والحاجات التي افترضت امكانية الحاجة اليها ، وبالتالي رواجها . اختارتها بعناية وغلفتها لتبقى اطول فترة وفي احسن حال . أما بعد ان استقرت واطمأنت الى وضع ابنيها ، وان كل شيء يسير سيراً حسناً ، فقد فكرت ، من جديد ، ان تفتح بيتها لاستقبال المشتريات من الجوار ، لكن ما كادت تلمّح الى ذلك ، وباشارة بعيدة غير مباشرة ، حتى صرخ سعيد محذراً :

ـ ابوس رجلك يا حجة !

ولما بدا عليها الخوف تابع موضحاً :

ـ خبر من هذا النوع اذا طش وانتشر في موران ، معناه ان نرحل يا امي ، ان نحزم اغراضنا ونمشي !

وحين فتحت عينيها بدهشة وتساؤل قال بصوت هامس :

ـ الناس في موران يتعاملون معنا كتجار جملة كبار ، وبضائعنا تأتي من الهند والسند ، أما الشغلات الصغيرة فلا نمد اليها ايدينا ، فاذا بدأنا ببيع العلكة والملبس ، واذا بدأت تقدّرين لكل جربانة سودا قبقاب او بابوج ، ترى راح ننزل بعيون الناس ، وتخرب بيوتنا !

لم تفهم امه بوضوح ما اراد ان يقوله ، وبكثير من الهدوء والصبر ، مع التأكيد الذي لا ينفك يتزايد على الغنى والوجاهة ، وانها يجب ان تكون امرأة مقدّرة ، اكبر من كل نساء موران ، شرح لها ان تجارة من النوع الذي تفكرفيه سوف تؤدي الى اضرار كبيرة ، واكد لها ان الناس في موران يختلفون كثيراً عن عمان والشام ، ويجب ان يتم التصرف معهم بشكل مختلف تماماً . أما حين تساءلت :

ـ والحنة والبودرة واللبان اللي تعبت في حملها ؟

ـ خذي عشر طوق ربحاً فيها، بس خلصينا منها !

هكذا رد سعيد ، في محاولة لان يدفن الفضيحة في مهدها ، فتساءلت من جديد :

ـ برأيك ان النسوان في هذي البلد ما بحنوا شعرهم ؟ ما بتبودروا ؟ وعلكة ما يعلكوا ؟

ـ كل شي بسوّوا .

ـ طيب ، احنا ليش خايفين ؟

ـ احنا خوف ما خايفين ، لكن هذه الشغلة ما هي شغلتنا .

ـ شغلة من ؟

ـ يا امي ، يا حجة ، بعد ما تقضي هنا كم شهر تعرفين كل شيء ، تعرفين اخلاق الناس وطبائعهم !

ـ ولازم انتظر على هذي الاشياء التي حملتها كم شهر ؟

ـ هذه انسيها ، ادفينها بالتراب وكأنها ما كانت !

ـ والنعمة تندفن يا ابني ؟

ـ بهذي البلد كل شيء يمكن ان يندفن : البشر، النعمة ، وحتى الشرف يمكن ان يندفن ، لان المهم هو المظهر ، ولازم ما نغلط يا حجة !

فهمت ام حسني ما قاله ابنها ، لكنها لم تقتنع ؛ اكثر من ذلك اعتبرت ان حسني على حق ، لم يتغير ، لم تفسده النعمة ، فملابسه ، عدا يوم الجمعة ، هي نفس الملابس التي تتذكر انه كان يلبسها قبل بضع سنوات في عمان ، أما تقواه فبدل ان تنقص زادت ، وكذلك عاداته كلها في الأكل والمنام . أما سعيد فانه الآن شخص مختلف ، انها تنكره ، لكن تطمئن نفسها انها نزوة من نزوات الشباب ، ولا بد ان يرجع الى عقله او يرجع اليه عقله ، كما يحصل له دائماً بعد كل خسارة، بعد كل مصيبة .

واذا كانت العجوز قد وافقت على مضض فانها لم تستسلم ؛ انفجرت داخلها كل تلك العبقرية البدائية ، تماماً مثل الحيوانات، التي تعرف كيف تشق طريقها ، كيف تفك الحصار من حولها ، ولذلك ، ولم تكد تمضي عليها بضعة اسابيع ، حتى انطلقت كما تنطلق دودة الارض ، ففي وسط ظلام موران الذي يحيط باية امرأة ، استطاعت ان تعرف طريقها .

وصفتْ ام حسني لسعيد ان روحها طقّت ووصلت الى حلقها ، شعرت انها ستموت . و « ان الروح يا ابني صارت مثل عصفور يرفرف في صدري » وتشير الى القلب ، ولذلك لبست ملاءتها وخرجت .

مشت ، مشت لا تعرف في اي اتجاه ، او الى اين . كانت تتطلع الى البنايات والناس من وراء منديلها السميك . كانت ترى كل شيء عجيباً غريباً لا يشبه اي مكان آخر رأته من قبل . الناس يشترون ، يبيعون ، ينادون ، يصرخون ، يضحكون ، وفجأة ، وبعد ساعات من المشي ، وصلت لا تعرف الى اي مكان ، عطشت ، كانت تريد دمعة ماء ، ان تستريح في ظل شجرة او حائط ، وفجأة وجدت نفسها في مكان غير كل الاماكن ، وجدت نفسها في القصر !

هكذا روت القصة اول مرة ، حين ذهبت بمفردها الى القصر . أما في مرة لاحقة فقد اكدت انها تطلعت بامعان ، لكي لا تنسى ، كيف سارت بهما السيارة ، هي وزوجة الحكيم ، في اول زيارة للقصر . وانها تتذكر معالم اساسية هي التي قادتها في المرة الثانية . أما مسألة العطش ودمعة الماء ، او مسألة التعب والرغبة في الراحة والجلوس بظل جدار او تحت شجرة ، فقد تخلت عنها . اذ ما كادت تصل الى القصر ، وما كاد ذلك العبد الاسود يعترضها ، طالباً منها ان تبتعد ، ثم يسألها عمن تريد ، حتى ذكرت انها تريد ان ترى الشيخة ، أما حين سألها من جديد ان كانت الشيخة او احد آخر في القصر طلب مجيئها ، فقد اكدت ان الشيخة بالذات تنتظرها .

زوجة الحكيم تروي القصة بطريقة مختلفة : « زهقتني المخلوقة ، طلّعت روحي . كل يوم والثاني وهي مزروعة بخلقتي : دخلك يا ام غـزوان ، أنت وزوجـك ناس اكـابر ، احسن من جميـع النـاس ، وانـا بنفسي زيـارة القصر والتعرف على الحريم ، ولا احد يمكن ان يأخذني غيرك . واسكت ، لكن هل تسكت ؟ ابداً . علقتني مثل العلق : نحن اقارب ، نحن حبايب ، وما لنا الا الله وانتم ، ولـولاكم ما جينـا الى موران ولا شفنـاها ، والـواحـد اذا سـوّى المعروف لازم يكمله . وأسألها : لماذا القصر يا خالتي ؟ من تريدين في القصر وماذا ستعملين هناك ؟ وترد : لا اريد اي شيء ، بس سلام وكلام ، بنفسي اشوف القصور وناس القصور » .

وتتنهد زوجة الحكيم ثم تتابع : « اذا غـابت يوم تجي ثـاني يوم : يـا ام غزوان : ابوس ايدك ، ابوس رجلك لازم تأخذيني للقصر . قلت لنفسي ، مثل ما لزق ابنها الحكيم وظل وراءه حتى وافق ، الظاهر ان هذه العجوز ما في نيتها ان تحل عني ، ستبقى لازقة .

المهم اتفقنا . قلت لها بكرة . ثاني يوم شرّفت : مطقومة ، محنية شعرها ، مخفحفة ، وتطق بتمها ، اللي ما فيه سنّين ، العلكة : يـا الله يا ام غـزوان ، تأخرنا يا أم غزوان . خاف الجماعة يزعلوا إذا تأخرنا عليهم يا أم غزوان . رحنا . ونحن في السيارة مدت لي يدها بقطعة لبان ومسكة وقالت : حلّي سنك يا ام غزوان ، وضحكت . وبعـد شوي التفتت ووشـوشتني : حتى الانفاس تكون طيبة اذا الواحد سلّم وباس . ومن باب القصر الداخلي ، وما ان تصل امرأة لتسلم علينا حتى تهجم ام حسني عليها : وبوس وبحق . . بوس وبحق . استغربوا، فتحوا عيونهم: خير ان شاء الله. منين لين؟ وبلشوا يتضاحكوا ويتـطلعـوا فيها ويتـطلعـوا ببعضهم . انـا صـرت مثـل القملة المفـروكـة ، خجلت ، غسلني العرق وما عرفت كيف اتصرف وكيف احكي . قلت لهم : ام حسني قريبتنا ومشتاقة وجاءت للسلام . قالوا : اهلاً وسهلاً ، وسكتـوا . وهي مثل العفريتـة تتطلع في الـوجوه وتضحـك . لما جـاءت الشيخة ، امي زهـوة ، قلبها حسهـا . تركت كـل النـاس وهجمت عليهـا . ومثـل القـطة انـدحشت فيها ، والشيخـة عقلها جوزتـين بخـرج ، انعبـطـت داخت،

وبعدها صار اللي صار » .

لم تسمع ام حسني كيف تروي زوجة الحكيم قصة البداية ، ولم يجرؤ احد على اعادة روايتها امامها . أما هي فقد روتها بطريقة مختلفة للغاية : « بعـد ما كملّت الاسبوع في موران حتى جاءت زوجة الحكيم ، نسيت اسمها ، البنت الطرابلسية . واذا الله ما كذبني يمكن اسمها وداد ، جاءت حتى تسلم علينا وتدعونا للعزيمة اللي ناوي الحكيم يعملها لنا . بعد السلام والكلام قلت لها : يا بنتي انا العـزايم ما متعـودة عليها ، واذا كـان لا بد ولازم كنـايني والاولاد يحضـروا . قالت ابـداً . هذا الكـلام شيليه تمـاماً من راسـك ، لانك اذا لم تحضري انا ازعـل والحكيم يزعـل ، والعزيمـة من اجلك ، بالاسـاس ، لام حسني ، ام الكل . الخلاصة ـ قدر ما شـدّت وقدر ما اعتزرت ما في فايدة . رحت . اكلوا الجماعة . الأكل كله حاضر ، هي ما لها علاقة ، ما مدّت يدها لطبخة . انا ما اكلت ، لكن مـا خليت احد يشـوف او يحس . المهم ، بعد الأكل ، قالت : يا ام حسني صار لك اسبوع او اكثر في البلد ، والظاهـر ان الجماعة في القصر آخذين على خاطرهم ، زعلانين ، وانا من رأي ان نزورهم اليوم قبل بكرة ، والحكيم وصاني ان اقول لك هذا الكلام . قلت لها : يا بنتي انا عجوز اختيارة ومالي همة وما عندي مرّوة ، ولا اعرف كيف احكي معهم . قالت : زيارة ساعة ، وانا امرّ بـالسيارة ونـروح مع بعض ، وهنـاك ، وبعد السلام ، لا تحكي ولا مطلوب منك شي ، خلي كل شيء عليّ .

ظليت محتارة وركبني الهم ، حتى النوم ما قدرت انام . وانا اتقلب عـلى فراشي ، والدنيا حولي نايمة ، قلت لنفسي : كبّري عقلك يا ام حسني ، ظلي ببيتك ، لا تروحي ولا تجي ، اللي يحبك ويسأل عنك هو اللي بسأل وهو اللي يجي ، أما وانت حاملة نفسـك ورايحة تلقلقي من بيت لبيت ، بكـرة الناس تقول شايبة وشرشوحة ، وكل النهار دايرة وكأن ما لها بيت . ولـو كانـوا ناس عـاديين مثـل بـاقي النـاس ، كـان فيهـا ومـا فيهـا ، لكنهم امـراء وملوك ، والواحد ، حتى لو ما كان له معهم حاجة او شغلة ، ينظروا اليه من فـوق ، يتصوروا انه شحاذ وجاء للشحاذة والسؤال .

المهم . . للصبح ما نمت . كنت محتـارة وركبني الهم . في الأخـير قلت

لنفسي : الله يكتب اللي فيه النصيب . قمت وصليت ودعيت ، ورجعت للنوم . نمت . شفت احلام كثيرة ، احلام مثل الكوابيس : شفت حالي وسط جماعة كبيرة وكل واحد يجرني ويضربني ، وكل واحد يقول : هذه هي . قمت مفزوعة ، توضيت وصليت ، قلت لنفسي اذا مرّ هذا اليوم على خير نذراً عليّ اصوم ثلاثة ايام . قعدت في البلكون اقشر الفول ، بعد ما كسرت الصفرة وشربت فنجان قهوة . ولا اعرف كيف جاء على بالي ان اقلب الفنجان واشوف حظي . قبل ما ينشف الفنجان ، وقبل ما يخلص تقشير الفول جاءت زوجة الحكيم : يا الله . . يا الله يا خالتي . بعثت خبر للقصر وقالوا انهم بانتظارنا . قلت لها اقعدي يا بنتي ، اشربي قهوة ، استريحي ، وعلى رواق ، مع فنجان القهوة ، نحكي كلمتين ، لان البارح ، وسط الصياح والجماعة ما قدرنا نحكي . قالت : نحكي بالسيارة وقهوة شربت ، ولازم نمشي بسرعة لان الجماعة بانتظارنا . قلت : يا بنتي ما لي نفس بـهذي الروحة . قالت : أبداً . انا ازعل وهم يزعلوا . المهم الحت والحت حتى طاوعتها . دكيت ملايتي الزّم وتدحرجت وراءها . ركبنا السيارة وطارت فينا ، لا اعرف من اين راحت وكيف راحت ، غمضة عين ، وانا دايخة وقلبي يرجف ولساني صار مثل الحطبة ، حتى صرنا بالقصر .

هذا هو القصر ؟ هذا هو اللي طوشونا فيه ؟ سألت نفسي ، وقلت : بيت المفتي بالشام احسن منه بالف مرة . بيت الحايك او بيت الطباع بعمان احسن منه بالف مرة . ما فيه الا الحيطان العالية ، حيطان من طين ، ولا عرق اخضر ، ولا شقفة زرع . والغرف معتمة تقمط القلب ، وريحة الزفر مالية الدنيا . قلت لروحي : يا حسرة على القصور وعلى الساكنين في القصور . تطلعت هون تطلعت هونيك : كل شيء وسخ ، مزفّت وبألعط ، والله واعلم انه بعمره ما انغسل . قلبي انعصّ وتمنيت لو اني ما طاوعت هذي المقصوفة وما داست رجلي . . لكن . قالت لي امرأة سوداء مثل الفحمة : « اجلسي » . قالت هذه الكلمة بامر وكأني قاتلة ابوها ، واشارت الى كومة من الفرشات . قعدت . كنت خايفة وقرفانة ، وكأني قاعدة على اسياخ من نار . تركتنا السودا انا وام غزوان وراحت . تطلعت لام غزوان ، تطلعت حولي ، اسودّت الدنيا

بعيني . قلت لنفسي اللي بدو يصاحب الامراء لازم يتحمل غلاظاتهم وثقل دمهم ؛ وانا بهذي الافكار ، فكرة تأخذني وفكرة تردني انفتح الباب ودخل منه اربع خمس نسوان ، وقفت وسلمت ، لكن ، الله الوكيل ، الواحد لا يعرف الاميرة من الخدامة ، مثل بعضهن : صفر ، ممصوصات ولا كأن فيهن دم . كنت ارجف ، مبهوتة وخايفة ، سألتني واحدة لكن ما فهمت عليها . قالت لها ام غزوان : ام حسني قريبتنا والحكيم يحبها مثل امه ، وفرحتنا بوصولها الى موران لا تعادلها الا فرحتنا بالتعرف عليكم ، وقلت لنفسي لازم يتم التعارف ولازم الطيبين يعرفوا بعضهم » .

وتستريح ام حسني قليلاً ، تستعيد في ذاكرتها هذا الحشد المتداخل من الأشياء والوقائع ، ثم تتابع بصوت صقلته جرعة الماء التي تناولتها : « كان يمكن لهذه الزيارة ان تكون الاولى والأخيرة لو ان الشيخة ما وصلت . لما دخلتْ الكل سكت ، وكان يمكن ان تسمع الابرة لو وقعت على الارض . قلت لنفسي هيك لازم تكون الامهات وهيك لازم تكون الاميرات : في عينيها بريق يذوب الحجر ، والجبين يضوي مثل الفجر ، مهيوبة ، راكزة ، وكأنها غير عن البشر . سلمت وقعدت ، لكن لم ترفع نظرها عني ، وانا ، سبحان الله ، قلبي لها لهف . منها سؤال ومني سؤال وانبنت بينا للمحبة جسور ، وكأنا نعرف بعضنا من ازمان ودهور » .

لما تأكد سعيد ان امه « دخلت » القصر، وان العلاقة بينها وبين الشيخة تزداد رسوخاً وقوة يوماً بعد آخر ، اصبح على يقين انها لا بد وان تمارس « تجارتها » بشكل من الاشكال ، لان هذه العادة لم تفارقها منذ ان كان صغيراً ، فاضطرب قليلاً ، بل اكثر من ذلك عاودته المخاوف ، وخشي هذه المرة ان تحمل تجارتها وتدور بها بعد ان كان يأتي اليها المشترون في السابق . وفي محاولة لان يعرف ما اذا بدأت ام لا ، سألها بشكل مفاجىء :

ـ انا غلطان ، يا حجة ، في الكلام اللي حكيناه قبل كم اسبوع !

ـ اي كلام يا بنّي ؟

ـ قلت لك انسي وادفني الاشياء اللي حملتيها معك من الشام .

وبعد قليل وباسف :

ـ وانشاء الله تصرفت بها كلها ؟

نظرت اليه بارتياب قبل ان تجيب :

ـ خير انشاء الله ؟

ـ ما لهم شغلة في السوق اليوم الا السؤال عن شوية حنة وشوية بخور .

وبعد قليل :

ـ ومستعدين ان يدفعوا وزنها ذهب ، لان هذه الاشياء مطلوبة للقصر

فتحت عينيها على اتساعهما ، فلمح فيهما الاهتمام اكثر مما لمح الندم ، فتأكد انه يسير في الطريق الصحيح . تابع :

ـ وقلت للجماعة اللي سألوا : اعطوني فرصة هذه الليلة وبكرة ارد عليكم الجواب .

سألت بلهفة :

ـ وهذي الاشياء . . كثير غالية ؟

ـ غلاء ما هي غالية . . الا اذا صار عليها طلب .

ـ ومطلوبة كثير ؟

ـ اذا القصر طلبها ، اللي يبيعها يصير فوق الريح .

عضت عن شفتها بنوع من الندم . احس ان شيئاً قد حصل . لم يلاحقها . صمت ليفسح لها المجال وتتكلم . تطلعت في اكثر من ناحية ، وهي لا تفعل ذلك الاّ حين تخسر في التجارة . يتذكر المرات القليلة التي خسرت . خسرت حين اخذت منها واحدة من « الاكابر » ولم تسدّد ، وخسرت مرة اخرى لما انكرت اخرى ، وخسرت حين اعاد لها مرة الزوج ما اخذته زوجته ، بعد ان كان الاطفال قد اتوا على الجزء الاكبر من القمر الدين واللوز . كانت تعترف لا لتؤكد خسارتها وانما لتعلّم درساً . اليوم رأى في عينيها ذات النظرة .

بعد فترة صمت طويلة قالت بحقد :

ـ بنت الكلب تقول لي اجلسي ، اجلسي ، ويروح يوم ويجي يوم وتقول لي : عمتي أريد حنة ، وأعطيها . تقول : هذا لا يكفي يا عمتي لأن شعري مكزبر ، واعطيها مرة ثانية ، اعطيها حنة تكفيها لاجداد اجدادها .

ـ من هي يا امي ؟

تنهدت بحسرة ثم قالت بما يشبه الاعتراف :

ـ العبدة السودا اللي تشتغل في القصر .

ـ وغيرها يا حجة ؟

ـ فكرت ان ابيع الحنة والبخور ، لكن خفت من كلامك ، قلت لنفسي : اغراب ولا اعرف طبايعهم .

ـ وانشاء الله اعطيتها كل الحنة ؟

ـ لا يا ابني ، الشاطر اللي يعطي قطرة قطرة ، والمهبول اللي يدلق حاله فرد مرة .

ـ يعني . . عندك حنة ؟

ـ انا امك ، من كل شي اخلي خميرة .

ـ وانشاء الله الخميرة كبيرة ؟

ـ لا تخف . يا ابني !

وضحكت ، فبانت سناها الاماميتان ، كانتا كبيرتين بارزتين . اطمأن ، ضحك بصخب ، لكي يحاول ان يبدأ من جديد ، لكي يجرها الى حيث يريد . بعد ان هدأ وترك فترة كافية للصمت قال ليبدأ معركته :

ـ يا امي . .

تطلعت اليه بتساؤل تريد ان تتابع معركتها وقد اتضحت لها ، تابع :

ـ ما دام القصر بحاجة الى الحنة والبخور ، وما دام انت وصلت ، فنحن الآن في بداية طريقنا الى الجنة . . .

وبعد قليل اضاف بلهجة مختلفة تماماً :

ـ اذا انت ساعدتيني !

سألت باهتمام :

ـ انا ؟ كيف يا ابني ؟

ـ اي نعم ، انت !

تطلعت اليه متسائلة ، لكن بارتياب ايضاً ، تابع :

ـ المسألة اولها وآخرها : ان الواحد ينصب الفخ ، يرمي الشبكة ، وبعدها كل انسان وشطارته !

ـ شطارته ؟

ـ اي نعم ! وبعد قليل : والشطارة ما هي دائماً البيع والشراء .

تطلعت اليه دون ان تتكلم ، انها تسمع شيئاً جديداً . لقد تعودت ان تعرف الشطارة في البيع والشراء . في هذين المجالين وحدهما تظهر براعة الانسان وقدرته ، ولا تتصور ان هناك مجالاً آخر . تابع وكأنه لم يلاحظ شيئاً :

ـ المهم ان يحصل الانسان على المال ، ان يعرف كيف يصل اليه !

مدت شفتها السفلى فبانت طويلة رخوة ، التفت اليها بسرعة وقال :

ـ مثل ما يحط الصياد الشاطر الطعم في الفخ لازم نحن نحط الطعم في الهدايا التي تقدم للقصر !

سألت بحذر :

ـ شو قصدك يا ابني ؟

رد بسرعة :

ـ ما دام المال عند القصر ، وما دام القصر يحتاج الى الحنة والبخور . . والف شغلة ثانية ، فالواحد بدل ان يبيع الحنة والبخور يقول لهم : خذوا ، واذا اخذوا . . تورطوا ، يدفعون بدل الواحد الف ، هذه هي الشطارة !

ـ بدون بيع وشراء ؟

ـ هذا هو البيع والشراء الجد . . يا حجة .

ـ ونعطي هذي الحاجات للاغنياء ، للامراء ، بدون ما نأخذ حقها ؟

رد في محاولة لان يحكم السيطرة على الموقف من جديد :

ـ اسمعي ، يا حجة ، هات لي كل « البضاعة » اللي حملتيها معك من الشام .

وبعد كثير من التردد ، والتأجيل والرجاء ، في محاولة منها ان تبقى حرة

التصرف ، وان تبيع بالطريقة التي تروق لها ، وفي محاولة منه ان يسيطر كلية ، جلبت الصرر واكياس الخام الصغيرة ، وقد ساعدها في ذلـك ، فلما وُضعت جميعها في منتصف الغرفة ، على شكل كومة صغيرة مضحكة ، سألها وهو يفرك يديه فرحاً :

ـ ايوه . . يا حجة (وهو يستعمل نفس التعبير الذي كانت تطلقه عليهـا النسوة في عمان ، رغم انها لم تذهب الى الحج ، وخلافاً لحسني الذي يصرّ على مناداتها : يا امي ، مؤكداً على الهمزة المكسورة) .

تـطلعت اليه بنصف ابتسـامة ، وبـدت فخورة ببضـاعتها ، سـألهـا من جديد :

ـ هذه هي كلها ؟

هزت رأسها علامة الايجاب دون ان تتكلم . تابع :

ـ طيب . . . كم دفعت ثمن هذه البضاعة كلها ؟

بانت عليها الدهشة وشيء من الخوف ، اذ ظنت انه سيتلفها ، قالت في محاولة لاستعادتها من جديد وقد سيطر عليها هذا الخاطر :

ـ يا ابني قيمتها ما هي كبيرة ، وبكرة نعطيها للمستحقين فطرة او زكاة ، لا توجع راسك بهذي الشغلة .

ـ الحق معك . . .

وبعد قليل :

ـ بس بدي اعرف كم دفعت !

واستدرك بسرعة وهو يقهقه :

ـ لا . . ما مهم كم اندفع ثمن البضاعة . . . المهم كم هو طلبك اليوم ، في موران ؟

ـ يا ابني . . . .

ولما رأى التوسل في وجهها ونوعاً من الحزن قال بلهجـة جديدة ، وبعد ان

عبّ نفساً عميقاً :

ـ اسمعي يا حجة . . راح ادفع لك المصاري اللي دفعتيها وفوقها قدها ربح . . راضية ؟

ردت بمكر :

ـ البضاعة ، يا ابني ، ما هي للبيع !

ـ ايوه . . يا حجة . . هذه واحدة ، والثانية ، ما رايح آخذ البضاعة ، رايح اتركها عندك ، بس بشرط

ـ بشرط ؟

ـ اي نعم . . بشرط

ـ ما هو الشرط ؟

ـ ان تقّدم هدايا للشيخة والاميرات . بالمختصر ، تقدم للقصر !

رفعت يديها الاثنتين دلالة انها لا تستطيع ، وبعد قليل :

ـ قلبي لا يطاوعني يا ابني .

وانخفض صوتها تماماً وكأنها تخاطب نفسها :

ـ اللي ما عنده شي يعطي ، يقول خذوا ، واللي عنده اموال قارون يأخذ وما يعطي ؟

ـ مثل المصيدة والجبنة . . يا حجة !

ـ السم الهاري .

ـ طولي بالك يا حجة ، يا ست الكل ، ومثل ما قلت لك : ادفع لك ثمن البضاعة كلها وفوقها الربح ، واتركها عندك ، بس مسألة البيع والشراء اتركيها .

ردّت بنوع من الغضب :

ـ خلص يا ابني ، ويقطع اللي بدو يبيع واللي بدو يشتري .

وتغير صوتها ، اصبح حزيناً :

ـ سألوا: شو اللي ودّاك على المر؟ قال: الأمرّ منه. وأنا يا ابني، لولا الحاجة ، لولا الفقر ، وحتى لا تضيعوا وتمدوا ايديكم للناس ، حملت عنكم هذا الحمل ، تعبت وشقيت حتى لا تجوعوا ، حتى لا تخدموا في بيوت الناس . وانا يا ابني لا بنفسي تجارة ولا بنفسي ربح وخسارة .

وساد الصمت من جديد ، كان صمتاً حزيناً مذكّراً، فتح ابواب الماضي ، فتدفق هذا الماضي مشحوناً قاسياً ، وكأنه عدو . تذكر سعيد اياماً بعيدة ، تذكر كيف كانت امه تركض من مكان الى آخر ، في الليل والنهار ، من اجل ان تؤمن اعمالاً تكفي لشراء الخبز ، وكيف كانت تسهر الليالي ، ليلة بعد ليلة ، خاصة في رمضان، أو قبل العيد الكبير، من أجل أن تشتري لكل واحد منهم حذاء او قميصاً . كان تعبها يذوب ويتلاشى في الضحكة التي تتلقاها مقابلاً . وكانت في فجر العيد تبدو قوية وكأنها لم تسهر الليالي السابقة كلها، لكي تتلقى فرحهم وابتساماتهم . وبعد ذلك ، حين وصلوا الى عمان ، وواجهوا صعوبات في البداية ، تولت فتح البيت ، هي التي صرفت عليه من التجارة الصغيرة التي اكتشفتها فجأة . . وحتى وقت متأخر ، وربما الى الآن ، لا تعرف عمليات الحساب الصغيرة ، كانت تتعامل بكل سلعة على انفراد ، ولكي لا تخطىء او لا يخدعها احد ، كانت تصّر على ان تأخذ ثمن كل سلعة بشكل مستقل ، وكثيراً ما كانت تفرد المواد التي تبيعها على مساحة كبيرة ، وفوق كل مادة ما يقابلها من النقود، وكانت تحرص على ان تتوافر لديها مبالغ من القطع النقدية الصغيرة ، واول ما تفعله ان تصّرف للنساء اللواتي لا يحملن مثل هذه القطع . أما اذا زادت المبالغ عن حد معين ، واذا اقتضى الأمر اجراء عمليات حسابية، فكانت تستعين بكنتها او بالاثنتين معاً ، مع شرط لا تمّل ابداً من تكراره : « الترجيع غير مسموح ، المسموح غلط الحساب والسهو » وبعد قليل تضحك وتضيف : « للطرفين » وكثيراً ما راجعت الحساب مرة او اثنتين ، وكثيراً ما أعادت صف ما يماثل المواد التي باعتها ، ووضعت فوقها النقود ، أما المواد التي نفدت فكانت تضع ، عوضاً عنها ، مواد اخرى،وتظل تقول وتكرر لنفسها اسم المادة المفقودة لكي لا تسهو ولا تخطىء!

حياة مثل هذه تركت آثارها وقوانينها في نفس هذه العجوز ، ولا يمكن ان تستبدل بين يوم وليلةاياً كان الوضع الذي تعيش فيه الآن . أما مـا يقولـه لها سعيد فانه لا يتعدى نزوة من تلك النزوات التي تملأ رأسه ، كما ملأت رأس أبيه من قبله ، تركهما معاً للفقر والمصاعب ، بعد أن تخلى عن الكثير ، وبعد أن وضع ثقته في كثيرين ، دون اوراق ، دون شهود ، فذهبت هذه الاشياء عند ما ذهب .

ولكي لا يستسلم لجـو الحزن ويجـاري امه فيفقـد ما تـوصل اليـه ، قال بانفعال :

- والله يا حجة كل ركضي وكل تعبي حتى اعـوض عليك التعب ، لاني اعرف كم شقيت من اجلي ومن اجل اخوتي .

وهز رأسه باسف وحزن ثم اضاف :

- واليوم . . ولآخر يوم في العمر ، أريدك فوق رؤوسنا ، وما أريد تتعبي ، وحتى شربة الماء لازم تصل عندك .

وانتقل الى موضوع آخر وبدأ يتحدث ويفكر كما لو انه وحده .

واجهت ام حسني في علاقتها مع الشيخة ، خلال المرحلة الاولى ، بعض الصعوبات : عدم معرفة اللهجة ، وبالتالي صعوبة التفاهم ؛ وكذلك الحال بالنسبة للتسمية المناسبة التي يمكن ان تطلقها عليها اثناء النداء او التخاطب . فزوجة الحكيم كانت بمثابة المترجمة اثناء الزيارة الاولى ، وكانت لا تتردد ايضاً في ان تنادي الشيخة بنفس اللقب الذي سمعت الجميع ينادونها به ، اي « امي زهوة » .

الآن وقد اصبحت ام حسني تزور القصر بمفردها ، وجدت نفسها مضطرة لاختراع لغة خاصة جديدة للتفاهم ، ومن اجل ذلك بذلت جهداً في تعلم بعض الكلمات ، وبذلت جهداً اكبر من اجل تحريض ذاكرتها لاستعادة ما حفظته من كلمات غريبة وشعر وامثال منذ ان كانت طفلة .

كانت تقضي الساعات امام النسوة في القصر ، وكأنها خرساء . منصتة ، صامتة ، متوترة ، واقرب الى الذهول ، تتابع الحديث بحواسها كلها ، لعلها تلتقط بعض الكلمات . أما وهي عائدة الى البيت فكانت لا تتردد في استعادة الكلمات التي سمعتها ، تفعل ذلك في الطريق ، ثم وهي تنزع ملاءتها، واثناء ما تخاطب الصغار . الكنتان اللتان رأتا وسمعتا ، تظاهرتا انهما لم تسمعا ، او نظرت الواحدة في وجه الاخرى وابتسمت . اما حسني ، وهو يسمع امه تتكلم بطريقة محمومة ، ولا تكف تردد لنفسها بصوت خافت كلمات غامضة ، وكأنها تردد الادعية ، وبعض الاحيان تسأله عن معاني كلمات معينة ، فقد اصبح على يقين ان « هواء موران لم يناسبها ، ويجوز انها ضيّعت »

سعيد كان الوحيد الذي ادرك قبل الجميع ان «الحجة في الطريق الصحيح» ولكي يشجعها ويحرضها بدأ يلعب اللعبة معها ، ولذلك ، وخلال فترة قصيرة ، حوّل البيت الى سيرك ، واراد ان يشرك الجميع فيه . كان يحمل معه ، كل يوم ، مجموعة من الكلمات الجديدة ، ولا يزال يرددها ، ويطلب من الاطفال ان يرددوا وراءه ، ثم يطلب من امه ان تفعل ذلك ايضاً ، في جو من المرح والمزاح ، مع الضحكات الصاخبة والجوائز ، بحيث تحولت تلك الكلمات الى مجرد اصوات دون اي معنى ، ولأنها تتكرر بهذا المقدار وبهذه السرعة فقد تداخلت واصبحت مضحكة او اقرب الى الاحاجي .

وبكثير من الجهد الدؤوب والمثابرة ، اضافة الى استفزاز الجسد كله ليلعب دوراً مساعداً ، اخذت ام حسني تلجأ للاشارات ، والى وجهها وعينيها لكي يساعداها في التعبير ، الى ان توصلت الى خلق لغة خاصة ، لغة مضحكة ، لكنها كافية للتفاهم والتعبير . والشيخة التي اعجبت ، لا تعرف لماذا ، بهذه المرأة بالذات فمنذ اللحظات الأولى، وجدت في لغتها من الصراحة ما يساعدها على النسيان والتغلب على الحزن . وإذ أدركت أم حسني هذه العاطفة، ولكي تقوي مركزها، فقد واصلت اللعبة .

ومثلما كان فنجان القهوة محراثاً فتح لها دروباً في أماكن أخرى فقد دلّتها غريزتها إلى ان هذا المحراث لا يخيب. كانت توّد ان تدعو نساء القصر الى بيتها، فهناك ، مع الحديث عن حظوظ المستقبل ، من خلال ما يقوله الفنجان ، يمكن ان تفرد حاجاتها. سوف تفعل ذلك بكثير من التؤدة ، وكأنها تعرض امامهم اشياء ليست للبيع . ستعرض حاجة بعد اخرى ، ولا بد ان يشتروا . انها متأكدة من ذلك ، ومتأكدة اكثر ان لديهم من المال الكثير الكثير . لن يتعبوها في المساومة، ولن يعيدوا الاشياء بعد شرائها . لكن دعوة مثل هذه سابقة لاوانها ، انها لا تعرف البشر هنا ، لا تعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون ، ولذلك فان الخطأ المبكر يكلف صاحبه ثمناً غالياً . ليس هذا فقط ، « انهم امراء وسلاطين » هكذا قالت لنفسها ، وهذا نوع جديد من الناس لم يسبق لها ان تعاملت معه ؛ صحيح ان الاغنياء ايضاً نوع خاص من البشر ، لكنها تعرفهم ، بل وتعرف كيف تخاطبهم وكيف تؤثر فيهم . كانوا

في اعماقهم بخلاء ، انانين ، كانوا يريدون كل شيء ، ويتمنون ويحاولون لو انهم لا يدفعون . لكن لم تترك واحداً منهم يفلت . حتى ترددهم كانت تعرف كيف تعالجه ، وتتغلب عليه . وهؤلاء ، هل هم مثل الاغنياء الآخرين ؟ هل يعتبر المال كل شيء بالنسبة لهم ؟

كانت مترددة في دعوتهن الى فنجان القهوة . لن تعرض عليهن شيئاً في المرة الاولى ، ولن تعرض في المرة الثانية ، لكن هل يرفضن دعوتها ؟ انهن اميرات ، دم خاص ، لا تعرف كيف يتصرفن ، او كيف تتصرف معهن ، لكنها ، مع ذلك ، تحّس ان فنجان القهوة طريق لا يخيب ، ولا بد ان تلجأ اليه .

وهذه القهوة التي تقدم اليها الآن . . حاولت ان تكتشف فيها طعماً من نوع معين ، وجدت طعم البهارات كلها ولم تجد طعم القهوة . كانت تعرف ان القهوة يجب ان تُعّد بكثير من العناية والمهارة ، يجب ان تُغلى وتعقد ، حتى اذا شُربت فتحت مسام البدن كلها ، وولدت لذة اقرب الى النشوة . وبعد ان تشرب ويُطبّ الفنجان ، تبدأ البقايا تتحدر وتنزل برخاوة لتخط معالم واشارات ودروباً تحدد وتكشف طريق المستقبل . أما هذه المياه العكرة ، المرة ، المليئة بطعوم لم تتذوقها من قبل فيمكن ان تكون اي شيء الا قهوة . ولذلك كانت رغبتها ان تصنعها بنفسها ، ان تدعوهن الى بيتها لتعلمهن درساً !

لكنها ، مع ذلك ، ظلت حائرة طوال الفترة الاولى ، وظلت تجبر نفسها على هذا « الصبر » تتجرعه ، وفي لحظة معينة استيقظت فيها روح الذئبة ، رغبة مواجهة العالم كله دون خوف ، من اجل ان تعمل وتعيش . لن تستمع الى كلمات حسني . « وسعيد فسقان ، لا يهمه الا يومه ، وكل شيء على طيزه . انا اللي تعبت وشقيت ، وانا اللي اعرف البشر » . وكادت ان تحمل معها الى القصر بعض الحاجات لتعرضها هناك وتغريهن بالشراء ، لكن فجأة توقفت «لا ترخصي حالك يا ام حسني ، طول عمرك والناس تجي لبيتك . كل الاكابر كانوا مزروعين عندك ، يسألون ، يترجون . . ويوصون . . وهذا الكلام متى ؟ قبل سنين ، لما كنت محتاجة . اليوم غير شكل ، والحجر بارضه ينفع » وترفض الفكرة ، تؤجلها ، ثم تعود اليها مرة ثانية « اللي ما يجي معك

تعال معه ، والقضية اولها وآخرها بيع وشراء ، عجبهم اشتروا ما عجبهم على كيفهم . الف واحد غيرهم يشتري » . وتستيقظ فيها كرامتها « اثقلي شوية يا مرة ، الثقل للمرة زينة ، وبكرة هم يلحقوك » وتقرر اخيراً ان تقدم تنازلاً جزئياً « القهوة . . الركوة والفناجين، خفاف ، حملهم سهل . اقول لهم : اشتهيت أن تشربوا قهوتي، ان تجربوها، بعدما شربت أنا قهوتكم. اشربوا وبعدين احكموا » ، وبعد ان يشربن اقول لهن « طبّوا الفناجين لاني راح اشوف لكم بختكم » .

وحملت ، في صرة ، الى القصر ادواتها . أبقتها تحت ملاءتها انتظاراً للوقت المناسب ، فلما جاء هذا الوقت قالت للشيخة بما يشبه التوسل ، وكانت مرتبكة :

ـ يا امي زهوة . . .

ولما نظرت اليها المرأة بتساؤل واستغراب ، تابعت :

ـ عندي طلب ، واريدك ما تردي طلبي .

ـ خير انشاء الله يا ام حسني ؟

ـ راح اعمل قهوة واريدك تشربي منها .

والشيخة التي فهمت ولم تفهم ظلت تنظر اليها بتساؤل ، فلما فكت صرتها واستخرجت ادواتها ، بما في ذلك السكر والقهوة ، وعرضتها امامها ، للتدليل على النظافة وحسن النية ، نهضت مهرولة مثل قطة الى الحوش ، حيث كانت النار ودلال القهوة ، وبكثير من البراعة ، وكأنها هيأت نفسها منذ وقت طويل ، بدأت .

خلال الفترة التي استغرقها احتساء القهوة لم ترفع عنهن عينيها . كانت تراقب بعناية ردود افعالهن ، مدى تذوقهن ، وهل يمكن لهذه القهوة ان تكون جسراً مثلما كانت في اماكن واوقات أخرى؟

الخيبة التي لمستها في الوجوه ، والنظرات التي تبادلتها النسوة فيما بينهن كانت تكفي لان تهزم امرأة غيرها ، أما هي فقد حشدت نفسها لمواصلة

الهجوم ، واذا كانت « التجارة » قد اكسبتها اشياء كثيرة فيما مضى من الأيام ، فان معرفة الناس كانت ابرزها : كيف تفهم البشر ، وكيف تنظر الى ما وراء الاقنعة ، نقاط القوة والضعف لدى كل واحد منهم . كيف تفهم وتتعامل ، وهذه المعرفة التي لا تكشف عن نفسها ، هي التي مكنتها ان تعيش وان تقاوم ، وقد تأكدت هذه المعرفة اكثر من خلال فنجان القهوة . وهذا الفنجان الصغير كان كافياً لاصطياد اية امرأة ، مهما بدت قوية او بعيدة ، وكان بمقدار ما يفتح القلوب . . يفتح الجيوب ايضاً !

الآن تبدأ باستعمال هذا السلاح ، خاصة وان الفترة التي مرت مكنتها من ان ترى الكثير ، وان تسمع الكثير . ولانها لا « تفهم » اللهجة ، كما قدّرت النسوة ، فقد بالغت كل واحدة منهن بالحديث امامها .

كان اول الفناجين فنجان الشيخة :

ـ قل لمن يحمل هماً ان هماً لا يدوم

قالت هذا البيت من الشعر ، الذي حفظته منذ وقت مبكر ، ولطالما رددته ، وكان سبباً في علاقات وصداقات بينها وبين عدة نساء ، قالته ونظرت الى الشيخة بطرف عينها فلما وجدتها تصغي باهتمام اضافت :

ـ لا يكتم السر الا كل ذي ثقة والسر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ظهر التحفز في عيني الشيخة ، وبدا انها تريد ان تسمع المزيد ، لكن ام حسني تعودت ان تعطي بمقدار ، ان تعطي قطرة قطرة . لقد علمتها « التجارة » ذلك ، ثم علمتها الحياة ، لان من يعطي كثيراً وبسرعة لا يبقى لديه ما يعطيه ، والناس دائماً ينتظرون المزيد .

ولما صمتت لا تريد ان تتابع ، سألتها الشيخة :

ـ وبعد ؟

هزت ام حسني رأسها عدة مرات ، وكانت الهزات بين الرفض الخفي والتستر على قضايا لا تريد ان تبوح بها ، على الأقل الآن . . او امام

الآخرين . فلما استمرت الشيخة تنظر اليها بتحفر اضافت بلهجة مختلفة :

ـ ومـا احسن الصبر الجميـل مع التقي   ومـا قدّر المـولى على خلقـه يجري

كانت هذه مجرد البدايـة ، واذ ادركت الشيخة مـا رمت اليه ام حسني ، فقد اكتفت ، لم تلّح ، بل وبدا عليها للحظات الارتباك. مـاذا لو تـابعت ؟ وماذا لو قال الفنجان كل شيء ؟ قالت الشيخة بطريقة اقرب الى التورية :

ـ الناس خشب لين يتعارفون ، يا ام حسني ، والصدور صناديق !

والتفتت ام حسني الى الفنـاجين الاخـرى ، الى النسـاء الاخـريـات . وللحظات بدت وكأنها تعود عشرين سنة الى الـوراء . ارتسمت على شفتيهـا ابتسامة كبيرة ، تعبيراً عن المرح ورغبة الإثارة ، تماماً كما كانت تفعل مع تلك الصبـايا في الشـام وعمان ، حـين يلجأن اليهـا لمعرفـة فرص الـزواج والحب والوصال ، طـالبات ان تقـرأ وتقول مـا يخبئه الفنجـان . الآن تعود الى نفس الطريقة : قالت كلمات عامة يمكن ان تؤول على اكثر من وجـه ، قالتهـا مع ابتسامات وغمزات بالعين لكي لا يضطررنها لان تقول كل شيء، واذ فرحت كل واحدة بهذا المقدار ، وتمنت الا تواصل ام حسني هذه اللعبة الخطرة ، لكي لا تنكشف الامـور اكثر ممـا ينبغي، فقد بـدأت كل منهن تفكـر وتعمل لكي تلتقي بها على انفراد ، ان تسمع منها عن الماضي اولاً ، فاذا تأكدت طلبت ان تحـدثها عن المستقبـل ، وحتى لو لم تكن هنـاك الا ظلال من هـذا الماضي ، فالاهم هو المستقبل !

فوجئت بالنتائج ، لم تتوقع ان تكون للكلمات التي قالتها هذا الاثر ، ولم تتوقع ان يتغير الموقف تجاهها بهذا القدر ، حتى هي شعرت انها تغيرت . بدت اكثر ثقة واكثر جرأة ، اصبحت قادرة على سؤال النسوة عن معاني الكلمات ، وتطلب منهن ان يتكلمن معها ببطء لكي تتعلم ، ولم تتردد ايضاً في استعمال بعض الكلمات الشامية ، رغم تأكدها انهن لن يفهمن معناها .

ومثلما تجر الهزيمة الى هزيمـة أخرى فـان الظفـر يؤدي الى ظفر اكبـر ، فما كادت تصل القصر في زيارة لاحقة حتى وجدت العيون معلقة بها ، تحتضنها ، تتـابعها للتعبير عن المودة والاكتشـاف معاً ، وبـطريقة هي مـزيج من الـرغبة

والمداعبة سألنها ان كانت تفّضل قهوتها ام قهوتهن ، ولما ردت ، مع ابتسامة كبيرة، إنها تفضل القهوة التي تصنعها «لأنها تشفي وتحكي ، تسلي وتخلي» فقد تعالت الاصوات طالبة منها ان تصنع قهوتها . وبنفس الطريقة السابقة ، بدأت مع الشيخة ايضاً :

قل لمن يحمل هماً   ان هماً لا يدوم

ويعد ان ابتسمت اضافت :

ـ « وانت ، يا طويلة العمر ، يا محروسة السلامة ، الشيء اللي مرّ عليك ، الشي اللي شفتيه ، لو مر على غيرك ، او غيرك شافه ، كان اليوم اثر بعد عين ، كان راح وانتهى ، لكن المصايب تخلق او كما قالوا في القديم :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى   ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فُرجت وكنت اظنها لا تفرج

وفي الفنجان ، يا شيخة ، رسوم وعلوم ، فيه سلام وكلام ، وفيه اللي صار وجرى وفيه اللي ما يندرى ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، واللي ما ينحكي اليوم ينحكى ثاني يوم ، والف صلاة وسلام على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد ! .

وتكتفي الشيخة ، تتحصن وراء صمتها ، تغيب في الذكريات والماضي ، تعاودها احداث هزتها واقلقتها وافرحتها ، واخرى احزنتها ، لكنها الآن لا تريد ان تسمع ، او على الاقل لا تريد ان تسمع امام الآخرين .

وكما فعلت ام حسني في المرة السابقة مع النساء ، فعلت هذه المرة ، مع اضافة بعض الأمثال وابيات من الشعر يمكن ان تفهم وتفسر على وجوه كثيرة . والنسوة اللواتي تضاحكن بخجل ،وفهمن بعض ما قالت وغابت عنهن اشياء ، لكن يردن ذلك وكان ذلك يكفيهن .

سعيد الذي ادرك ايضاً المنزلة التي بلغتها امه في القصر ، ولدى الشيخة بشكل خاص ، فانه بمقدار ما كان فرحاً ، وكان يظهر عليه هذا الفرح كالاطفال ، فقد راودته الوساوس والشكوك مرة اخرى ان تخطو امه الخطوة التي يخاف منها ، قال لها ليوقع اتفاقاً:

ـ لا مانع عندي من التجارة ، لكن لأنّا شركاء فكل ما يباع ، وقبل ان يباع ، يتم باتفاق الشركاء !

ضحكت امه وهزت رأسها دلالة الموافقة، ولكن كان متأكداً أنها لا تعني هذه الموافقة ، او ان الموافقة لا تعني شيئاً لها ، اضاف :

ـ انت قلت لنا ان الفطرة فرض ، وان الفقراء يردها النواحد منهم على الثاني ، أما الأخير فلازم يطلعها ولو صاع ملح . صحيح ام لا ؟

ـ صحيح يا ابني .

ـ ونحن ، الله فتح علينا ورزقنا ، وما عادت الفطرة تكفي ، لازم الواحد يزكي .

ـ اي نعم ، لازم يا ابني .

ـ وانا برأيي ان الاشياء اللي عندك نطلعها فطرة او زكاة !

ـ يا ابني . . .

وضحكت بحزن ثم تابعت :

ـ عينك ما ضاقت الا على هذي الاشياء ؟

ضحك بصخب ليخفي حرجه وليواصل تطويقها :

ـ كل همّي، يا حجة ، ان انام مستريح البال ؛ ان اشتغل على رواق لاني اذا سمعت ، بكرة ، كلمة في السوق ، اذا انتزع مزاجي الله ما يدبرها .

ـ . . قصدك يا ابني ؟

ـ مثل ما قلت لك المرة الماضية : خلي التجارة عليّ وعلى حسني .

ـ انت يا ابني تعجن وتعيد ، وكأن ما لك شغلة الا الاغراض اللي عندي !

رد بحزن وبلهجة جديدة :

ـ رأيي . . يا حجة ان الشغلات التي عندك تعطيها للشيخة ، تهديها للقصر .

ـ اي والله يا ابني . .

وابتسمت ابتسامة واسعة وساخرة ، وبعد قليل :

ـ لان الجماعة وحدهم اللي يستحقوا الفطرة !

ـ لا يا حجة ، انا عندي قصد ثاني ، واريدك تساعديني في القصر . هذا قصدي بالعربي الفصيح ، والباقي سلامة فهمك !

وبصعوبة فهمت ، او بصعوبة اقتنعت ، لانها لم تجد في نفسها القوة على ان تتغير بهذا المقدار ، وان تتخلى عن قيم واساليب تعلمتها خلال حياتها كلها ، لكن ، مع ذلك ، ونتيجة الحب الخاص ، القوة الخفية التي يملكها هذا « الشيطان » وجدت نفسها تستجيب له ، تطاوعه ، ووجدت لذة في ان تكتشف هذا العالم ، وان تعرف نقاط ضعفه بشكل خاص : كيف لا يشبع هؤلاء الاغنياء من الهدايا ، كيف يأخذون ولا يعطون ، وكيف يفهمون الأخذ والعطاء .

في وقت متأخر ، ومع فناجين القهوة بدأت ام حسني تحمل الى القصر البخور وماء الزهر والحناء، وحملت عدداً من الاطواق والسبحات، وثلاث قطع من الحرير الاسود ، وخمس زجاجات من الكولونيا وثلاثين حطة بوال اصلي .

أما القلوبات والكنافة المبرومة التي جلبتها معها فقد طحنها الاطفال خلال الاسابيع الاولى . اذ لم تستطع ان تحميها ولم تستطع ان تمنع الاطفال « لان قلبي لم يطاوعني » كماقالت . أما آخر قطع الكنافة ، وبعد ان فتحت العلب التي كانت تضعها فيها ، فقد كانت مجالاً لتندر سعيد وغبطته معاً . قال وهو يجمع بقايا الفستق من العلبة ويلتهمها ، وكان هذا آخر ما تبقى :

ـ دائماً اولاد الاكابر كانوا احسن منا . كنتِ تصرخين اذا مدّ الواحد منا يده . الآن ، اولاد الطفرانين اكلوا كل شيء ، لكن مع ذلك تركوا لنا الفتافيت . المهم انه لم يبق للاكابر شيء !

قال هذا وضحك . وبعد قليل اضاف بنفس اللهجة :

ـ الحمد لله اللي صار لنا دور .

ردت امه بانكسار :

ـ يا ابني طعمينا اولاد الاكابر الكنافة حتى تأكلوا الخبز .

وبعد قليل :

ـ حرمتكم ، يا ابني ، حنّية عليكم ، وما هو بخل . كان لازم تدبر

الخبز ، ولا تتصور انه كان عندي احد اغلى منكم .

ـ قصة وانتهت يا حجة ، بس جاء من ينتقم !

هكذا رد بمرح ، واضاف بعد قليل ، وهو يوجه السؤال للاولاد .

ـ اكلتم يا شباب ؟ شبعتم ؟

ولم يتركهم لكي يجيبوا ، تابع :

ـ ولازم من الآن وحتى الساعة اللي تموتوا فيها تدعوا لهذي العجوز ، لانها هي اللي ربتكم ، واذا راح تصيروا رجال هي اللي سوتكم ، وهي اليوم وبكرة تعبانة فيكم وما لازم تنسوا افضالها عليكم في يوم من الأيام .

تأثرت العجوز ، بدا وكأنها تتلقى الآن مكافأة سخية : الاعتراف . هذا يكفيها . لقد تعبت لا من اجل ان تكسب ، او ان تجمع مالاً ، تعبت لكي تحمي الصغار، ولا تضطرهم للمذلة والسؤال . تشعر الآن انها وصلت . لم يتبق لها شيء ، ولم يعد هناك ما يغريها او يخيفها . واذا كانت فيها بقايا حرص ، وتفكر بالتجارة ، او باشياء مشابهة ، فلكي لا تقع مرة اخرى . تحملت الكثير ، عرفت معنى الجوع والحاجة ، وعرفت اكثر نظرة الناس الى امرأة وحيدة والى أيتام، ولا تريد ان تجرب مرة اخرى .

كانت اولى الهدايا التي حملتها ام حسني الى القصر ، الى الشيخة بالذات ، سجادة صلاة في مقدمتها بوصلة تحدد اتجاه الكعبة ، وقد وصل الى سعيد عدد منها كنماذج ، بعد فترة من تأسيس وافتتاح شركة السجاد الشرقية . اعطى أمه واحدة ، وطلب منها ان تحمل الثانية الى الشيخة ، فلما وصلت الى القصر اثارت من الاهتمام الشيء الكثير ، وانتقلت في نفس اليوم الى ديوان الرجال ، وكانت موضع تعليقات عديدة وتفسيرات مختلفة .

قامت ام حسني بنقلها وتقديمها ، وقد فعلت ذلك على اعتبار انها مجرد رسول ، أما عندما حان الوقت لتبدأ بتقديم الهدايا من الاشياء التي حملتها ، بناء على الحاح سعيد الذي لم يتوقف يوماً واحداً ، فقد احست بالتعاسة والقهر ، واحست انها ترغم على اشياء سيئة ، لا تناسب طبيعتها . وليوم

وليلة ، عندما وافقت مضطرة على حمل عدد من اعواد البخور الى الشيخة ، بدت لها هذه المرأة كريهة الى درجة تستغرب كيف فكرت ان تقيم معها مجرد علاقة .

ماذا يبقى بينهما اذا انتفى موضوع البيع والشراء ؟ هل هما متساويتان ؟ هل يمكن او تتصور ان تكون صديقة لها كما كانت ام وجدي وصفية ونعمات ؟ هل يؤتمن هذا النوع من الناس ويكون وفياً ؟ فكرت بذلك طوال اليوم وقد اعتراها الحزن وشعرت باللاجدوى، وخلال الليل لم تستطع أنْ تنام. بدت لها الشيخة خبيثة ، قاسية ومليئة بالحقد ، بل وتأكدت ان هذا الجبروت الذي يميز حركاتها وسكناتها ، وما تولده في القصر ان جاءت وان ذهبت شيء غير انساني . فاحست بالخوف ، بل وفكرت لو تقطع علاقاتها بالقصر تماماً . ولا تدري كيف خطر لها هذان البيتان، واللذان سمعتهما مرات عديدة اثناء الحديث عن العجوز الشمطاء في القصص القديمة :

عجوز النحس ابليس يراها تعلمه الخديعة من سكوت

تقود من السياسة الف بغل اذا انفردوا بخيط العنكبوت

في اليوم التالي ، وهي تنتقي مجموعة من أعواد البخور ، انتقت اضعفها واصغرها ، وتمنت في اعماقها لو تكون آخر الاعواد التي تتنشقها « عجوز البين » كما اصبحت تسمي الشيخة بينها وبين نفسها . وكانت تستعيد في ذاكرتها الكلمات التي يمكن ان تقولها لها « لانك تقية نقية صائمة مصلّية ، والنور يشع من جبينك ، جئتك يا بنت الاولياء ، يا بنت الاجداد ، يا ام الايتام والفقراء ، جئتك بالنذر فاقبلي نذري واشفعي لي يا شفيعة ، يا مباركة » وابتسمت بسخرية ، لان الشيخة بدت لها في تلك اللحظات نقيضاً لهذه الصفات كلها .

ومثلما كانت فناجين القهوة محراثاً فتح لها طريقاً عريضة ، اصبح دخان البخور ، وهو يتلوى في الهواء ، على طرف النافذة ، شبكة طوقت الشيخة من كل ناحية ، فبدت مخدرة فرحة ، بل وبدت امرأة مختلفة تماماً عما كانت. اخذت تعب الهواء وتنظر في وجوه النسوة حولها وتبتسم . قالت عدلة لنفسها « جاء من يسحرها او يبطل سحرها»!

ولان ام حسني لا تعرف غير البيع والشراء ، ولكي تجعل هديتها حلالاً ، طلبت من الشيخة ان تعطيها بدلاً من البخور ذرة ملح . طلبت هذا الطلب ، وهي تبتسم ، ولا تـريـد ان تفسر او ان تخـوض في الأمـر اكـثر من ذلـك . والشيخة التي استغربت هذا الطلب ، ولم تجد له تفسيراً مقنعاً ردت :

ـ سبحان من اودع في كل قلب ما يشغله .

وهزت رأسها ثم قالت لنفسها في تفسير الطلب الذي طلبته ام حسني ، « دّيانك سيدك الى ان توفيه » .

أمـا بعد ان بـدأت ام حسني تدرك ان الحيـاة ليست فقط تجارة ، او ان التجارة يمكن ان تأخذ اكثر من شكـل ، وليس مجرد تلك العمليـات الصغيرة التي شغلت بها نفسها طوال الفترات الماضية ، اذ بـدأت تنهال عليهـا عطايـا القصر ، فقد فكرت في نفسها « الاغنياء غير الفقراء ، الاغنياء لا يعطون الا اذا توقعوا مقابلاً ، حتى وهم يعطون للفقراء ، للشحاذين ، يريدون من هؤلاء ان يشكروهم بصوت عالٍ امام الآخرين . أما الفقراء فانهم يعطون دون ان ينتظروا مقابلاً من اي نوع ، صحيح انهم يعطون القليل ، ولكنهم بحاجة الى هذا القليل ولا يملكون غيره » .

في المرات اللاحقة لم تقتصر هداياها على الشيخة ، اذ قدّرت ان الاشياء الاخرى التي حملتها معها تلائم الصبايا ، فالسليماني والترابة الحلبية ، وبعض الاعشاب « الحارة » يمكن ان تفيد المتزوجات حديثاً ، أما النسوة اللواتي كنا في القصر ينتظرن ابناء الاعمـام ، بشكل خـاص ، او اولاد الاخوال ، واللواتي طـال انتظارهن ، فقـد وجدن في ام حسني انقـاذاً . اولاً لانها تستقرىء لهن فناجين القهوة عما يخبئه المستقبل ، وبعد ذلك لكي تعطيهن شيئاً من السليماني والترابة الحلبية ليجلون وجهوهن او لتبـدو شعورهن لامعـة زاهية . والنسـاء اللواتي عذبهن انتظار الولد او الخوف ان يتطلع الازواج الى زيجات جديـدة ، خاصة بعد ان كثر المال ، تشبثـن بام حسني ، فهي وحدها التي تستـطيع ان تساعدهن .

وهكذا اصبحت محور اهتمام قصر الغدير . اذا تأخرت قبل الظهر تتلفت

العيون بتساؤل لكن يظل التوقع ان تأتي ، أما اذا مر اليوم دون ان تظهر ، فلا بد ان يساور القلق الكثيرات ، حتى « امي زهوة » بدا عليها التساؤل والتغير شيئاً فشيئاً ، فلم يعرف ماذا كان ذلك نتيجة عدم القدرة على التكيف مع الوضع الجديد ، ام نتيجة التقدم بالعمر ، أم بسبب الحزن الذي سيطر على الكثيرين في هذه الفترة . والنسوة اللواتي خفن وتوقعن ان تكون الشيخة في وضع اقوى ، وفي حالة نفسية مختلفة ، وبالتالي لا بد ان تنتقم وتغيّر كل شيء ، كما حصل في قصر الروض ، واعتبرن ان سحرها وحده يكفي لان يغيّر ويدمر ، فقد اضيف اليه الآن سحر « الشامية » كما اطلقن على ام حسني ، ولذلك لا بد ان يتحوّل كل ما في القصر الى ملح . وقد تأكدن من ذلك حين اصبحت ام حسني تطلب مقابل ما أعطته او ما تعطيه ذرات من الملح «اذا كان الملح يذل كل شيء ويذيبه ، فان النبي آدم اضعف من ان يقاوم الملح» .

وبدأت تتكون لام حسني صورة جديدة هي مزيج من كل شيء : العواطف والاحقاد والخوف ، اضافة الى الرغبة في تجنب « الابالسة الذين هبوا على قصر الغدير كما تهب الرياح » .

الـزيارة التي قـامت بها الشيخـة لام حسني في بيتها كـانت حدثـاً بـالـغ الاهمية، فخلال الأيام الثلاثـة التي سبقت الزيـارة ، مع ليـاليها ، لم يتـوقف الاستعداد ، ولم يبق احد في الحي الا واصبح على علم بالامر . ومـع ذلك لم يفارق القلق ام حسني لحظة واحدة ، وقد اخذ هذا القلق يتزايد حتى اصبح هلعاً كلما اقترب الموعد . تمنت ام حسني لو انها لم تلح هذا الالحاح كله على الشيخة، او لو انها اجّلت الزيارة الى وقت آخر، لكنها لم تترك لهذه الهواجس ان تستبد بها . ولئلا يفوتها الوقت او تقـع فريسة للمرض ، انصـرفت بهمة كبيرة للعمل : اعادت تنجيد المخدات والفراش ، واعادت ترتيب البيت مرة او اثنتين . حتى الملابس في الخزانة اشرفت بعناية على ترتيبها « لا يعرف البني آدم ، يمكن جاء على بالها ان تفتح الخزانة ، ان تتفرج ، فاذا ما كان كل شيء بمحله ، نظيف ومرتب تقول : ما اوسخهم ، من برّا رخام ومن جّوا سخام . ويمكن يجي على بال المخلوقة ان تتفرج على المطبخ ، على غـرفة المـونة ، ومـا احلانا ونحن نركض حواليها وندحش زبايلنا هون وهون » .

وتم ايضاً ترتيب المقاعد والخزائن ، في غرفة الضيوف والغرف الداخلية . وقامت ام حسني بتعسيف السقف والجدران ، ونفض السجاد ، والشطف . قامت بذلك بنفسها ، لانها لم تطمئن « صغار ويمكن ان يستعجلوا او ينسوا » ورشت زوايا البيت بماء الزهر واشعلت البخور يومـين متواليين . قامت بكـل هذه الاعمال بكثير من الحرص والعنايـة ، لكن ، مع ذلـك ، ظل القلق او عدم الاطمئنان ، يسيـطر عليها : « مـاذا لو رفعت طـرف السجادة وشـافت

الغبار ؟ واذا شمت ريحة التوم او البصل المحروق ؟ واذا انزركت المخلوقة او ارادت ان تتوضأ ، وما انتبهنا ان الصغار وسخوا وجأجأوا . . شو رايح تقول علينا ؟ » .

وكنتّا ام حسني ، اللتان كانتا كخادمتين بين يديها ، وكانت توجه اليهما اوامر صارمة دقيقة ، ولا تكف عن مراقبتهما ، بدا انهما غير راغبتين بهذه الزيارة ، اكثر من ذلك بدا عليها بعض التهاون ، وهذا ما دعا ام حسني الى مزيد من القلق ، وكانت المرأتان مستغربتين هذا الاهتمام وهذا الحرص كله . لم تكن حماتهما هكذا في يوم من الأيام فماذا تعني الشيخة ، وماذا سيترتب على هذه الزيارة ؟ هكذا قالت كل واحدة في نفسها ، وهكذا قالت كل واحدة لزوجها . أما حسني الذي بدا متطيراً الى اقصى حد من هذه الزيارة ، واعتبرها دليل شؤم ، فلم يتدخل ولم يقل كلمة خلال اليومين الاولين ، أما في اليوم الثالث ، يوم الزيارة ، وحين جاء للغداء ، وطلبت منه امه ان يتغدى في المطبخ ، على غير العادة ، ونظر اليها باستغراب مشوب بالغضب ، فقد ردت عليه :

ـ رضاي عليك يا ابني . . لان غرفة الأكل مسحتها قبل شوي وارضها مبلولة .

قال وهو يزفر مثل ثور :

ـ الحق عليّ انا اللي صغّرت عقلي وجيت . .

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نحن مع الناس العاديين ما ماشي حالنا ، وكأنه كان ناقصنا اميرات وشيخات .

ـ يا ابني لازم الواحد يماشي زمانه ، وكل بلد ولها عاداتها ، وكل انسان وله مقام .

هزت رأسها وابتسمت بتوسل ثم اضافت :

ـ وهي مرة في العمر ، يا ابني ، وتمضي .

ـ يا ريت يا امي ، لكن هذا الدرب طويل ، درب ما له آخر ! .

ـ لا ، يا ابني ، مرة وتمضي .

ـ طيب ، بسيطة ، بنشوف !

واكتفى بان اكل قطعة صغيرة من الخبز وشرب كوباً من اللبن ، فعل ذلك وهو واقف . وخلال دقائق ترك البيت دون كلمة .

أما سعيد الذي انشغل بهذه الزيارة اكثر من اي انسان آخر ، وربما اكثر من امه ، فقد جلب ، لا يُعرف من اين ، عدداً من قطع الزرع ، واشترى خروفاً لهذه المناسبة ، وقد انتقاه كبيراً بقرنين معقوفين ، واحضر كمية كبيرة من اللوز والبندق ، وتمنى لو كان في مكان آخر ، اذن لاختار اشياء واشياء ، «لكن موران مثل الضيعة» هكذا قال لنفسه . كما أبدى آراء بشأن نظافة البيت وترتيبه . وفي اليوم الثالث ، يوم الزيارة ، اخذ الاولاد الثلاثة ، ابنيه وابن اخيه ، الى الحلاق ، واشترى للبنتين الصغيرتين فساتين جديدة ، أما ملاحظات زوجته التي سمعها في الليلة الاولى تعليقاً على الزيارة ، فقد رد عليها بحزن اقرب الى الاهانة « امي ، وضيوف امي ، على العين والراس . وما بدي كلمة زايدة او كلمة ناقصة » وزوجته التي صمتت ، وكان يمكن ان تكتفي بذلك ، لكن بعصبية سألها من جديد : « فاهمة ؟ » فلما ردت : « ما حكينا شي » تابع : « الواحد يدفع حياته وماله كله من اجل زيارة من هذا النوع ، وفيه ناس تحكي كلام طالع نازل ؟ » .

وواصل سعيد تقديم المساعدة والمشورة في كل مرحلة ، وقضى وقتاً طويلاً مع امه على انفراد . كما اوصى زوجته ان تلبس اجمل ما عندها من ثياب وكيف يجب ان تتصرف وكيف يجب ان تبتسم ، « لان التيسة ، زوجة حسني ، يمكن تتحيون وتكون مثل البومة ، لا من تمها ولا من كمها ، ويجوز تحسبها الشيخة خرسا او هبلة ، انت كوني حِرْكة ، خفيفة ، حتى تبيضي الوجه » .

لما اطمأن سعيد لكل الترتيبات ، بما فيها تغسيل الاولاد ، واحضار القصاب الذي سيتولى ذبح الخروف على عتبة البيت حين وصول الشيخة ، اوصى على قالب ثلج يكفي لمقهى كبير ولليلة كاملة ، بعدها غادر البيت مع

توصية واضحة قالها بصوت عال ليسمع الجميع :

ـ اذا احتجتم اليّ فانا في القهوة ، قهوة عبد الرزاق ، سمعتم ؟

اختار مقهى عبد الرزاق ليكون قريباً من البيت ، ليرقب موكب الشيخة ، وليعرف ايضاً رد الفعل من الآخرين ، ولكي يلبي اي حاجة او طلب قد يجدّ في اللحظة الأخيرة .

عند العصر، حين اقترب وصول الشيخة ، كثر الهرج وزادت الضجة ، من اولاد الحي الذين رأوا اولاد الاسطة وكركر بتلك الملابس الجديدة البيضاء ، وقد قصوا شعورهم وتعطروا ، وظلوا مرابطين عند الباب ، لكي ينقلوا بسرعة اخبار وصول الشيخة ، بمجرد ان يروا سيارتها . خلق هؤلاء الاولاد وأولاد الحي ضجة كبيرة ، وقد تزايد الهرج وتزايدت الضجة بمرور الوقت ، مما ادى الى خشية ام حسني ان يفسد الاطفال نظافة الادراج والرصيف ، وقد غسلتها بنفسها عند الفجر . فاوصتهم اكثر من مرة . وظلت تراقبهم وظلت تراقب احفادها وعدم انشغالهم مع الاطفال الآخرين . كل هذه خلقت حالة من التوتر والهرج لم تكن متوقعة .

بعد العصر بقليل وصلت الشيخة ومعها عبدتها تهاني واثنتان من النساء تراهما ام حسني لاول مرة ، في سيارتين من سيارات القصر ، وبوصولها ارتفعت الاصوات والضجة ، ورافقها تدافع الاطفال ، وكادت الشيخة تنزلق وتسقط على الارض ، قريباً من الأدراج، لكن عيني تهاني انتبهتا في الوقت المناسب ، فأسندتها من ابطها ، وقد خلق هذا ، للحظة ، ارتباكاً لام حسني ، التي كانت في ملابس بيضاء واسعة اشبه ما تكون بالأجنحة ، خاصة وهي ترفع احدى يديها الى حلقها تغطيه لكي تزغرد ، وترفع الثانية بقارورة ماء الزهر ترشه على الضيوف . . .

كانت لحظات متوترة حافلة ، الامر الذي فوّت على ام حسني ان تقدم كنتّيها بالطريقة التي استعدت لها كثيراً خلال الأيام الماضية . أما ما تلا ذلك من وصول الاطفال ، وهجومهم السريع الآلي على الشيخة لكي يقبلوا يدها ، وكذلك ليقبلوا ايدي النساء الاخريات، وقد سبب هذا مرارة واضحة للجدة،

لم تخفهـا ، لكن لم تستطــع ان تفعـل ازاءها شيئـاً ، فقد ادى كـل ذلك الى التعجيل بتقديم الحلويات، وحصل هذا بشكل سريع متلاحق، مما اعـطى للزيارة طابعاً غير ما قدرتـه وخططت لـه ام حسني ، وترافق ايضـاً مع اسئلة واستشارات عديدة من القصاب، ما اذا كان عليه تقطيع الذبيحـة الى اجزاء صغيرة ام كبيرة ، وانه يفضل ان يكون الى جانبه احد لكي يرشده . كل ذلك ولّد ارتباكـاً وحركـة زائدة ، اضـافة الى دخـول الصبية وخـروجهم ، وكانـوا يتقربون من جـدتهم لكي يسروا لهـا بأسئـلة وطلبـات لا تعرف كيف تجيب عـنها او كيف تتصرف ازاءها .

كانت الشيخة تتوقع جواً هادئاً وحركة اقل ، أما وقد رأت كل هذا فقـد بدت منزعجة قليلاً ، ومما اكد هذا الانطبـاع لدى ام حسني انها رأتهـا تتلفت عدة مرات ، وطلبت مرة من تهاني ان تقترب منها ، واسرت لها شيئاً في اذنها ، وقد سبب هذا كدراً حقيقياً لام حسني ، وسبب لهـا الخجل ايضـاً ، لانها في دارها لا تستطيع ان تتصرف كما كانت تريد او كما تتمنى . حتى الاحاديث التي تبادلتها معها كانت قصيرة ، سريعة ، وكـثيراً ما انقطعت .

أما الشيخة فلم تـأت في هذه الـزيارة لكي تـأكل ، جـاءت لتختلي بـام حسني ، لكي تتحدث معها على انفراد دون رقابة ، حتى لو من بعيد ، ولكي تسمع منها بوضوح ما يقوله الفنجان . هذا ما قدرته وما هدفت اليه . أما في هـذا الجـو ، حيث تتــراكض النسـوة ، ويعم الصخب ، وحيث لا تعــرف الصحون التي وضعت من تلك التي يجب ان ترفع ، فلن تستطيع ان تتكلم ، ان تقول شيئاً ، ولن يكون حالها هنا افضل من حالها في قصر الغدير .

محـاولات ام حسني ان تخلق جواً طبيعيـاً هادئـاً ، وان تتصرف ببسـاطة وتلقائية اصطدمت بذلك الانفعال الذي تولد من الحركة الزائـدة والارتباك ، ثم الضجـة التي كانت تصـل من الخارج ، الأمـر الذي ادى الى المـزيـد من الارتباك والحيرة ، ثم بعد ذلك الى اختصار الزيارة .

كانت ام حسني قد خـططت ان تستبقي الشيخة عـلى العشاء ، او عـلى الاقل ان تتذوق بعض قطع من المعلاق ، خاصة وانها جهّزت بعض المشهيات والاكلات الخفيفة المناسبة . لكن هـذا الوضـع ادى الى ان تفقد السيـطرة ،

وشعرت في لحظة قيام الشيخة تريد الانصراف ، ان اية محاولة جديدة ، لن تجدي ولن تغير شيئاً . قالت بطريقة استعراضية :

ـ هذه الزيارة غير محسوبة ، يا شيخة ، لانها قصيرة ، ولان الاولاد وكنايني كانوا راغبين يشوفوك وان يسلموا عليك ، وكانت هذه الزيارة لهم .

ولما ابتسمت الشيخة موافقة ، تابعت :

ـ أما زيارة ام حسني فمن بد ولازم ان تكون غير شكل !

ـ المهم ان نشوفك ، يا ام حسني ، هنا ، هناك ، لا فرق ، وعسى ان يكون بيتكم عامر واستروا ما شفتم منا !

وبنفس الصخب والضجة ، اضافة الى المراسيم ، خرجت الشيخة بعد الغروب وانتهت الزيارة . لكن الحديث عنها لم ينته ، والضجة التي رافقتها لم تتوقف . والذين لم يعرفوا بالزيارة قبل حدوثها عرفوا بعد ذلك . أما الاطفال الذين كانوا في الأيام الماضية شديدي الانفعال والترقب ، انتظاراً لهذه الزيارة ، وانتظاراً للشيخة بالذات ، فقد اصيبوا بخيبة امل شديدة . حتى عندما اقبلوا على هذه المرأة العجوز ، وقبلوا يدها ، كانوا يتوقعون امرأة اخرى ، او على الاقل ليست هذه المرأة بالذات .

والكنتان ايضاً شاركتا الاطفال هذه المشاعر ، وان كانت مشاعرهما اوضح . ففي محاولة منها للتعبير عن عدم الاهتمام ، سألتا عن النساء اللواتي كن مع الشيخة ، سألتا ما اذا أكلن ام لا ، وسألتا ما اذا قرابة من نوع او آخر تربطهن بالشيخة . أما عندما تساءلتا عنها فقد كانت الاسئلة اقرب الى الهزء « عيونها واحدة نازلة وواحدة طالعة . . او انا غلطانة ؟ » « لا . . . وانا لاحظت » « وحلقها رخو كأن عندها فالج او بتمها لقمة » « ونظراتها . . مثل نظرات الحرامية ، تتطلع على الداخل وعلى الخارج وكأنها خايفة » « مو بس هيك ، كل دقيقة تمرر ايدها على تمها ، تمسحه ، وهي تتاوب ، وكأنها بالعة حسكة وعطشانة » « وعيونها تدمع ، لاحظت ؟ » « ظني ان عينها اليمين حولة ، لانها كل لحظة تدير وجهها كله ، وكأنها ملقوطة » « وعرجا » « وشفت عكازتها ؟ طولها مرة ونص » « وسودا مثل الفحمة ، ولي » « كل شيء فيها

بقّرف » « بتعرفي ؟ حبيت ازكزكها ، جاء على بالي اسألها : قولي لي يـا خالتي مـين اكبـر انتِ او ستنـا حـواء » « تضـرب ، وجههـا مـابيضحـك للرغيف السخن » .

لاول مـرة تسمع ام حسني من الكنتـين مثل هـذا الكلام ، ومـع ذلـك تظاهـرت انها لم تسمع . ولو لم تكن مذهولة وتحاول ان تستعيد كل التفاصيل ، حتى الصغيـرة منهـا ، منـذ ان سمعت الاطفـال يـدقـون البـاب بصخب ثم يصرخون معلنين عن وصول الشيخة ، وحتى لحظة مغادرتها ، لـولا انشغالهـا الكامل لما تركت الكنتين تتكلمان بهذه الطريقة ، كانت في لحظات كثيرة تسمع النهايات ، وترى ابتسامات السخرية والضحك ، اكثر مما تسمع الكلمات .

أما عندما جاء سعيد ؛ وقد جاء قبل ان تُجمع فناجين القهوة ، وقبل ان تجمع بقايا الحفلة ، فقد كان في شوق ولهفة لان يسمع من امه ، ان تحدثه بكل التفاصيل منذ ان وصلت الشيخة وحتى لحظة مغادرتها ، واذا كان قد بدأ بنوع من اللوم ، في ان امه لم تسبق الشيخة عـلى العشـاء ، فقـد ردت بطريقـة اقرب الى اتهام الآخرين ،الى اعتبارهم مسؤولين بشكل او بآخر، قالت بنزق :

ـ يلعن هالزيارة ويلعن يومها !

تنفست بحقد اقرب الى الغضب وتابعت :

ـ ويلي اتطلع عليها واسمعها . وويلي اتطلع واسمع غيرها!

وتـطلعت الى الكنتين اللتـين اهتمتا بجمـع البقـايـا . كـانت تعتبـرهمـا مسؤولتـين بشكل مـا ، وكانت تـريد ان تشتكي ، لكن في اللحـظة الأخيـرة عدلت ، اذ لو فعلت يمكن ان تجرىء المرأتين عليها ، فما دام سعيد معها ، لا بد ان يتولى زوجته ، ولا بد ان تتراجع ، أما اذا بدأت بالشكوى منذ الآن ، واتخـذت موقفـاً حاداً عصبيـاً ، فان الـزيارة تعتبـر فاشلة تمـاماً ، وعكس مـا ارادت .

تحدثت مع ابنها بطريقة رخوة وغامضة . قالت ان النساء يتزاورن ، وان هذه الزيارة مثل غيرها ، ولذلك لا تفاصيل كثيـرة يمكن ان تقال او يمكن ان تنقل !

الأيام التي اعقبت الزيارة اتسمت بمقدار كبير من التوتر الخفي والكدر، واتسمت ايضاً بذلك الصمت المدوي الذي ينذر كل لحظة بالانفجار. وكأن التعب والاحقاد والرغبات الكامنة، والتي تموّه نفسها غالباً، وجدت نقاط الضعف فنشطت واحتقنت، لكن انتظرت بعض الوقت لكي تطل برأسها، ثم لكي تنفجر بعد ذلك.

فأم حسني التي توقعت الكثير من هذه الزيارة، أصيبت بخيبة امل كبيرة، فلامت نفسها، لكن احتملت وصبرت، وبدل ان تفرغ غضبها على الكنتين اوعلى الصغار امتلأت به، فاعتزلت الجميع اول الامر، ثم ما لبثت ان سقطت مريضة. حصل هذا على التحديد في اليوم الخامس الذي اعقب الزيارة، واستمر مدة اسبوعين. وقد حمدت الله « لان العلة وقعت فيّ ولم تصب الصغار او آباءهم » ولم تذكر شيئاً عن الكنتين. ونتيجة الحمية القاسية، وتلك الادوية التي تعوّدت على تناولها في حالات مشابهة، بدأت تستعيد صحتها شيئاً فشيئاً، لكن آثار المرَض والضعف لازمتها فترة غير قصيرة.

أما حسني الذي حاول ان يبقى طبيعياً، او ان يتظاهر بذلك، خلال الأيام الاولى، مع تصميم لا يلبث يتزايد على الصمت، لكي يعبر عن احتجاجه بشكل ما، فقد نقل العدوى الى زكية، زوجته، فبعد ان كانت طبيعية في وقت الزيارة، عكس ما توقع سعيد، اذ ركضت وضحكت ولبست احسن ثيابها، واستمرت كذلك في الليلة ذاتها، ثم في اليوم الذي يليه، وتبادلت مع أديبة، سلفتها، التعليقات الساخرة حول الزيارة وحول الشيخة

بالذات ، تغيرت فجأة في اليوم الثاني ، اصبحت امرأة اخرى : فبعد ان غادر حسني البيت الى دكانه ، حجزت نفسها والاطفال في غرفتها ، فلم تغادرها ، ولم تسمح للاطفال ان يغادروها ايضاً . أما عندما احتج الاطفال وبدأوا بالصراخ فقد عاقبتهم بقسوة ، ولم تتركهم يغادرون الغرفة ، الا مرة واحدة والى الحمام بالذات ، وطلبت من الابنة الكبيرة ان تحضر قليلاً من الاكل والماء . استمر الحال كذلك إلى المساء. إلى أن جاء حسني، فخرج الأطفال مرة اخرى ، لكن لفترة قصيرة ، ثم اعادتهم بقسوة . وتكرر الشيء ذاته في اليوم اللاحق ثم في الأيام التالية ، مع شيء من التراخي . وحين مرضت ام حسني واعتزلت في غرفتها زارها حسني عدة مرات ، أما هي فقد اطلت من باب الغرفة مرتين، وسألت ما اذا كانت حماتها بحاجة اليها او بحاجة لشيء. فلما صمتت ام حسني واشاحت بوجهها اعتبرت انها ادّت واجبها فلم تحاول بعد ذلك !

سعيد لم يفهم سبباً لهذا الذي يجري حوله . كان يتوقع ان تأخذ الامور مجرى آخر ، ممّا دفعه لان يسأل نفسه ثم يسأل زوجته . وسأل امه ، لكن دون ان يصل الى جواب مقنع ، فافترض ان اخطاء من نوع او آخر وقعت اثناء الزيارة او بعدها ، وان امه وزوجته تتكتمان عليه ولا تريدان ان يعرف . وبدا له هذا الافتراض صحيحاً او ممكناً ، وما عزز لديه ذلك سلوك اخيه وزوجته ، فرغم انهما حاولا التظاهر ان كل شيء طبيعي ، لكن البرودة والجفاف كانا واضحين ، سواء من الصمت او من النظرات ، فلما استفسر والح ضحك حسني بسخرية وكأنه يقول له دون كلمات « تقتل القتيل وتمشي بجنازته » .

كان سعيد يريد من هذه الزيارة بداية صاعقة ، اذا صحّ التعبير ، هكذا كان يفكر وهكذا كان يتمنى . حتى وهو يجلس على الرصيف في مقهى عبد الرزاق ، التفت بجلبة واضحة حين مرت السيارتان ، وقال بصوت واضح سمعه الذين كانوا حوله « سيارات القصر ، سيارات القصر يا جماعة » أما في اليوم التالي ، ثم في الأيام اللاحقة ، فلم يترك احداً الا واسرّ له بشكل ما ان الشيخة كانت بزيارتهم امس ، وانها « قضت اليوم بكامله ، وكادت ان تنام عندنا ، لكن القصر بعث يطلبها » « وان الشيخة اكلت وشربت ، وكان معها

العشرات من الاميرات والخدم والعبيد، وقد امتدحوا جميعاً اكـل ام حسني » « كادت ان تصرف الخدم وتبقى زائرة لعدة ايام » .

وباشكال اخرى كثيرة كان ينقل خبر الزيارة وما رافقها وما اعقبها ، واخذ يصور له خياله اموراً لا تلبث ان تتغير مرة بعد اخرى ، دون ان يحس بذلك ، ودون ان يعتبر نفسه مخطئاً او مبالغاً . أما بعد ان وقعت امه مريضة ، ثم ذلك الجو الذي خيم على البيت، فقد لام نفسه لأنه لم يستفسر بالمقدار الكافي حول التفاصيل الدقيقة التي رافقت الزيارة منذ لحظة الوصول والى ان غادرت الشيخة . ولما حاول ذلك مع زوجته ، وبعد اسبوع تقريباً ، فقد ردت بما يشبه اللوم والسخرية :

ـ والله ، يا رجال ، ما جاءنا من هذه الزيارة غير التعب ووجع الرأس !

أما حين بعث القصر ، او بعثت الشيخة ، بسيارة لتسأل عن أم حسني ، وقد حصل ذلك في الاسبوع الثالث ، وقال السائق « القصر طالبها » فقد ردت ام حسني بنفسها من وراء الباب الموارب ، قالت للسائق :

ـ سلّم لي على الشيخة وقل لها انشاء الله كم يوم وام حسني تبيّن عليكم !

ولم يفت الحكيم خبر الزيارة . فقد نقله اليه رضوان ، الذي بلغه سعيد ، ثم سمعه من حسني بعد عشرة ايام . واذا كان قد توقف عند الخبر قليلاً ، واعتبره هاماً ، الا انه اقنع نفسه ان زيارات مثل هذه يمكن ان تتم « بين العجائز حتى يقطعّوا الوقت » وكاد ان يلوم زوجته لانها لم تستطع ان تدعو بعض نساء القصر ، خاصة زوجة السلطان او الاميرات المهمات . لكن قال لنفسه بنوع من التعزية « اللي يعتمد على مرا مثل اللي يحصد هوا » .

أما زوجة الحكيم التي سمعت بخبر الزيارة في وقت متأخر ، وارادت ان تفاجىء زوجها بابلاغه بامر الزيارة ، فقد اكتشفت ان الخبر وصله قبلها ، وبدل ان تصب جام غضبها على « الكرنيبة » كما اصبحت تسمي ام حسني، اكتفت بان قالت :

ـ اذا كانت شاطرة ، وبدها تلعب من وراء ظهري والله لاخليها تفتل لي خيطان !

في نهاية الاسبوع الثالث ، وقد بدأت ام حسني تبلّ من مرضها ، بدأت نذر العاصفة تتجمع في البيت . فالرسالة العاجلة ، التي جاءت من القصر ، او هكـذا اعتبرهـا وسماهـا سعيد ، بـدعوة امـه ، لا يمكن ان تؤجل او ان تهمل ، لان الامر قد يُفسر تفسيراً سيئاً وضاراً . كان يريدها ان تقوم بالزيارة بسـرعة . وام حسني ذاتهـا التي ملت المـرض والبقـاء في الفـراش احست ان روحها ترفرف في صدرها ، ولا يمكن التغلب على هذا الضيق الا اذا غادرت البيت . لا يهم الى اين ، المهم إن تغادره ، ان تبتعد عنه قليلاً ، خاصة وان الكنتين آلمتاها، وإن تكن زوجة حسني اكثر، لكنهما اشتركتا معاً بالسخرية منها ومن ضيوفها ، وابديتا عدم اكتراث واضح اثناء مرضها. تمنت لو تعود ، من جديد، مثلما كانت من قبل: قوية، قادرة على تقديم مصروف البيت، أو على المشاركة فيه ، وان تسافر وتتاجر كما كانت تفعل .

حسني ذاته اعتبر صمته عقاباً كافياً ، ولا بد ان يراجع كل واحد موقفه ، كما فعل هو ، فيتوقف الطيش وتنتهي المظاهـر ، واعتبر ان زكيـة قد اوصلت الرسالة نيابة عنه، اذا لم تصل رسالته، فقد كان مستعداً في هذه الفترة ان يبدأ من جديد ، كما فعل في كل المرات السابقة ازاء اخطاء سعيد وحماقاته .

كان يمكن للامور ان تأخذ شكلاً هادئاً وطبيعياً ، حتى الزيارة التي ولدت هذا المقدار من التوتر يمكن ان تنـزلق الى الظلمـة فتتوارى وتضيـع من ذاكرة الجميع ، لكن سعيد لا يمكن ان يترك لامر ان يجري في مجراه الـطبيعي . فما كادت رسالة جديدة تصل من القصر مع هدية حتى قال لامه بصوت قوي مع شيء من اللوم واراد من الجميع ان يسمع :

ـ يا حجة زعل الامراء والسلاطين غير زعل الناس العاديين .

ـ اللي يزعل يرضى يا ابني .

ـ الا . . هم ، لانهم ما تعودوا على الزعل .

كان حسني يسمع . كان يسمع وهو صامت ، ولم يكن ينوي التدخل ،

لكنه فهم كلمات اخيه وامه تعريضاً به ، زفر وهز رأسه . قال سعيد :

ـ واليوم احسن من بكرة ، يا حجة .

قال حسني ، وخرج صوته غاضباً مهدداً :

ـ اسمعي يا امي : قبل ما تحطي رجلك بالقصر احمل حالي واولادي وامشي .

ـ خير . . انشاء الله ؟

هكذا سأل سعيد باستغراب ، وكأنه فوجىء بهذا الموقف . رد حسني ، وقد حاول ان يتماسك ويجعل صوته واضحاً وبطيئاً ، لكنه بدأ يرتجف :

ـ الله يجعلك بخير . . .

وبعد قليل :

ـ انا من يوم ما الله خلقني مع الحكومة ما لي خلطة ، لا احبها ولا رايد اشاكلها .

ـ ومن طلب منك ان تخالطها وتشاكلها ؟

ـ اسمع يا سعيد : اول درس تعلمناه من الحجة ، اول كلمة قالتها : العب وحدك ترجع راضي . وكانت دائماً تقول : ابعد عن الشر وغنّ له ، وانت من يوم ما وصلنا موران ما لك شغلة الا تدور على الشر دوارة .

ـ ادور على الشر ؟

ـ اي نعم يا سيدي ، بصراحة ، بدون لف او دوران ، كل شغلك تتحكحك بالحكومة وتدفش الحجة على القصر .

ـ انا ، يا سيدي ، ما فهمت قصدك ولا فهمت كلامك .

ـ قصدي ان نبعد عن الحكومة ، ما نخالطها .

ـ يعني اذا زارت الحجة القصر ، او اذا جاءت الشيخة لبيتنا بزيارة معناها انّا خالطنا الحكومة ؟

ـ اي نعم . . يا سيدي .

ـ غلطان .

ـ غلطان مو غلطان هذا رأي .

ـ رأيك غلط .

ـ اسمع يا سعيد .

وزفر حسني ثم ضحك بمرارة وتابع :

ـ القصر هو الحكومة ، هو الدولة ، وانت تعرف هذا احسن مني .

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وتابع من جديد :

ـ وانت تعرف ، يا سيدي ، ان الحكومة ، مثل الشرموطة ، كل يوم مع صاحب وما لها صاحب ، لا تحلل ولا تحـرّم ، ما لهـا قلب ولا لها رب ، ولا يهمها الا مصلحتها ، فاذا حطيت حالك بين المطرقة والسندان صرت عجينة ، وخسرت الأول والأخير !

ـ طيب . . ما علاقتنا بهذا الكلام ؟

ـ يـا سعيد ، يـا حبيبي : العب وحدك تـرجع راضي ، ونحن مـا جئنا لموران الا لنشتغل ، لنحصل على رزقنا ، وما لنا غير شغلة !

ـ طيب من قال ان لنا شغلة ثانية ؟

ـ كل يوم والثاني : يا الله يا حجة . تأخرت على القصر يا حجـة . لازم تروحي القصر يا حجـة . لو كانت زيارة وانتهينا كان سدينا بوزنـا وسكتنا . لكن شايف ، زيارة جـرت الثانيـة ، وبعد مـا كنا نروح عنـدهم صاروا يجـوا لعندنا ، ومثل ما قال ذاك الرجال : السلام جرّ الكلام والكلام جر المشنقة !

ـ اف اف . . اف ، صار فيها مشانق !

ـ اي نعمّ يا سيدي ، وانت بتعرف رأي لما فاتحنا الحكيم ان نعمل معـه في موران . قلت له : والله يا حكيم خبزة وبصلة والواحد رأسه مرتاح احسن من الوظيفة ، احسن من ابن الحكومة ، لان الحكومة غدارة، ما لها امان وما لها صاحب ، هـذا اذا حكيت عن الحكومـات اللي مثـل الخلق والعالم ، أمـا

حكومة شوربة ، مثل حكومة موران ، فيمكن الواحد اليوم يكون سلطان تاني يوم ملح وذاب ، وكأنه ما كان في يوم من الأيـام ، ميّت وشبعــان مـوت ، وانا ما جاي على بالي اموت .

ـ ولا انا . . . يا سيدي !

هكذا رد سعيد وهو يضحك !

ـ طيب ، اذا كنـا متفقين ، خلينـا نبعد عن القبـور ، لان اللي ينـام بين القبور ما يشوف الا المنامات الوحشة .

والتفت الى امه وسألها :

ـ احكي يا امي ، ليش مرضتي ؟

ردت وهي تضحك بسخرية :

ـ المرض من الله ، يا ابني ، والعافية من الله !

ـ والشيخة ؟ وزيارة الشيخة . . ما هي سبب المرض ؟

قال سعيد في محاولة هجوم جديدة :

ـ يا حسني . . كبر عقلك ، فكر مثل الخلق والعالم . . علاقتنا مع القصر تفتح لنا الف باب وباب ، ونحن لا جماعة مناصب ولا جماعة وظائف ، وانـا رأيي بالحكومة انها اخرا مما تتصور ، لكن اذا صارت لنا علاقة بـالقصر نمشي مصالحنا . . لا حتى نصير وزراء !

ـ يا سيدي الحكومة تعطي التسعة حتى تأكل العشرة ، الحكومة بنت ستين كلب ، ما لها امان وما لها صاحب ، كل يوم لون وكل يوم شكل !

ـ هذا لواحد يريد ان يكون وزيراً ، لواحد يعمل في السياسة . أما اذا كان مثلك ومثلي ، كل همه الشغل والفلوس ، فالعلاقـة مع الحكـومة حتى تنفتـح امامنا الابواب المسدودة ، حتى نصل ، لانه اذا صارت لنا علاقة ، واذا دفعنا كم قرش ، سيطرنا ، نعم سيطرنـا ، ومثل مـا قالـوا من قبل : طعمي الفم تستحي العين .

وظل الخلاف قائماً واستمر ، حسني يرفض بشكـل قاطـع ان تكون لـه علاقة ، اية علاقة ، بالقصر ، وسعيد يرى العكس تماماً ، ويرى ان الابتعاد عن هذا المجال ، خاصة في هـذا الوقت وهـذا المكان ، نوع من الجنون لا يمكن ان يغفره او ان يتسامح فيه . والعجوز التي احتارت بين الاثنين قالت في محاولة لان تؤجل الموضوع ، لا لأن تحسمه :

ـ من يوم الله خلقنا ونحن نركض ونشقى ، فلما وصلت اللقمة للتم كفرنا واختلفنا .

وزفرت ، ثم قالت بحزن :

ـ طولوا بالكم !

دون تردد ودون انتظار طويل قررت أم حسني أن تهجر موران. يجب أن تفعل ، لا يهم إلى أين ، أو إلى متى ، المهم أن تغادر . ستبقى بعيدة إلى أن تشفى ، وعندما تعود مرة أخرى سوف تعرف كيف تكون مختلفة عن السابق . لن تقبل ان تتحول الى كرة ، يقذفها واحد الى آخر ، يكفيها ذلك . واذا نجت من الموت هذه المرة ، فقد لا تنجو في المرة التالية . أما الشيخة ، امي زهوة ، فلن تعني لها شيئاً بعد الآن . هذه المرأة لا تعرف الحب ابداً ، ولم تعرفه في حياتها كلها ، تعرف شيئاً واحداً : كيف تكره، وكيف يزداد كرهها لكل من حولها يوماً بعد آخر. ونساء القصر الاخريات . . اي نوع من النساء هن ، واية افكار واحلام تملأ رؤوسهن ؟ . لقد عرفتهن جميعاً ، .لا تحركهن سوى الاحقاد والرغبات الصغيرة . صحيح انها لا تفهم بعض الكلمات التي يوشوشنها بها ، لكنها مع ذلك تستطيع ان تقدر . اذ لا تفعل اي منهن شيئاً سوى الحديث عن الاخرى ، وكل واحدة تريدها فقط لنفسها ، ان تحدثها ، وان لا تحدث غيرها عما يقوله الفنجان . كفاها ذلك ، لم تعد تطيق .

حتى حسني وسعيد اصبحا مختلفين كثيراً عن السابق ، لا بد ان تعود الى معاقبتهما ، كما كانت تفعل من قبل . كانت في السابق تكتفي بالتهديد ، بالصمت ، وبعض الاحيان بمجرد ان تلبس ملاءتها وتتظاهر بانها ستتركهم . كانوا يمتلئون بالخوف ، ولا يلبثون ان يتغيروا ، ان يصبحوا شكلاً آخر . الآن يجب ان تعود الى نفس الطريقة ، ولا بد ان يتأثروا . ما زالوا صغاراً ، وعقوبة

من هذا النوع ، وليس مجرد التهديد ، سوف تعيدهم الى العقل .

أما بالنسبة للكنتين فلن تتسامح ابداً . لقد تغيرت المرأتان خلال بضعة شهور ، كما لم تتغيرا طوال سنوات . كيف تسمح بذلك ؟ وكيف كانت مسيطرة وقادرة خلال الفترة الماضية كلها ، ثم فجأة ، وبمجرد ان تغاضت قليلاً ، بمجرد ان تهاونت في التنبيه والمراقبة، او بلفت نظر الازواج، اختل كل شيء ؟ لا بد ان تعود مرة اخرى المرأة التي كانتها . سوف تعرف كيف تتصرف ، فقط تحتاج الآن الى بعض الراحة .

لكن اين تسافر ؟ والى متى ستبقى ؟ وهل تقوى ان تعيش وحيدة مرة اخرى ؟

لم تجد ان عودتها الى دمشق تليق بها، اذ لم تترك جارة من الجارات الا وحدثتها أن ابنيها لا يصبران على بقائها يوماً اضافياً بعيدة . يريدانها ان تكون اليوم قبل الغد في موران . ماذا تقول الآن اذا عادت ؟ هل تقول انها في زيارة مثلما كانت تفعل من قبل ، او انها جاءت لتبقى ؟ وهل تقوى ان ترجع وتخلف ابنيها واحفادها دون ان تراهم ؟ ستموت حزناً وكمداً ان تصورت انها لن تراهم مرة اخرى .

يجب ان تفكر بمكان آخر ، مكان ينقذها ، ولا يعرضها لاحراجات دمشق واسئلة الجارات والاقرباء .

كان يمكن ان تفكر بالذهاب الى مكة ، هناك تستطيع ان تنقذ روحها ، ان تتوازن من جديد ، لكن الوقت لم يكن وقت حج . وفجأة عنّ لها ان المكان الوحيد الذي يلائمها هو المدينة ، الى جانب قبر الرسول . هناك يمكن ان تستعيد نفسها ، ان تتوازن وترتاح وتبتعد ، حتى اذا امتلأت بذلك الجو ، وتشبعت بالرائحة الزكية والراحة العميقة يمكن ان تعود امرأة اخرى .

حاول سعيد ان يثنيها عن الفكرة : « المدينة بعيدة ، والوقت غير مناسب ، أما اذا جاء وقت الحج فسوف احملك على كتفي الى هناك » ولم تقتنع ولم تتراجع . وحسني الذي كان مثلها مملوءاً بهذا التعب وبهذه الهموم لم يطل به الامر حتى اقتنع :

ـ اوصلك وأؤمن عليك وارجع يا امي .

ومثلما خاف سعيد ، حين رآها تحمل صررها وتأتي الى موران ، فقد خاف من تلك الصرة الكبيرة التي لم تترك لاحد غيرها ان يحملهـا ، وعندمـا وضع اصبعه عليها يدسها ، قال وهو يبتسم :

ـ يا حجة . . . هناك ما لك غير الزيارة ، أما التجارة فاتركيها لغيرك .

ردت بمزيج من الغضب والحزن :

ـ زيارة قبر الرسول ، يا ابني ، اكبر تجارة للبني آدم في الدنيا والآخرة ، ولا تخف .

ـ وهذه البقج يا حجة ؟

ـ بقجة خير وبركة ، يا ابني ، وتنفع !

وهكذا رحلت الى المدينة .

في المدينة بدا لها الناس نوعاً مختلفاً : اقرب الى الضوء واشبه ما يكـونون بالاشباح : يمشون على رؤوس اصابعهم ، يتحدثون بهمس او بتعب ، وكأنهم لا يقوون على الحديث او لا يريدون . ينظرون ولا ينظرون . أما تلك الملابس الخفيفة فاشبه ما تكون بالاكفان : بسيطة ، ناعمة ، تنزلق على الاجساد كما تنزلق الريح . واحسنت ام حسني ان حياتها الماضية كلها لا تعني شيئاً . تحولت مرة اخرى الى ذرة من رمل ، الى لحظة من ضياء . حتى الاكل اصبح النسبة لها هنـا شيئاً مختلفاً ، انها تأكل فقط لتبقى لتكون قادرة على زيارة قبر النبي ، وان تصل هناك . وعاودها الاسف انها اتعبت نفسها واتعبت الآخرين من اجل ان تستقبل الشيخة وان تهيء لها كل ما هيأته . اكثر من ذلـك تمر امـام ناظـريها حياتها من جديد ، تراها مختلفة ، لا تعني شيئاً ولم تحقق اي شيء .

قبـل ان تصل الى هنـا كانت تـظن انها بحـاجـة الى شهـور من العـلاج لتشفى . كانت تريد أن تنام نوماً طويلاً متصلاً ، لكن فجأة احست بالقوة ، وبعدم الرغبة في النوم . لم يبق لهـا الا القليل عـلى هذه الارض ، ثم تنقلب لتصبح تحتها . لقد تعبت كثيراً ! تجولت ، باعت ، رأت أناساً بـاشكال لا

حصر لها . والآن تريد ان تستريح . ان تفكر بحياتها كلها ، وان تحاسب نفسها .

انها حائرة الى اقصى حد . لا تعرف كيف تكون هي نفسها وانساناً جديداً في نفس الوقت . اكثر من ذلك لا تعرف كيف تقترب من البشر ومن الرسول في آن واحد . لامت نفسها كثيراً انها تقاضت ارباحاً اكثر مما ينبغي على الاشياء التي باعتها . ولامت نفسها اكثر لانها ساوت بين الاغنياء والفقراء في الاسعار . كان يجب ان تفرق ، ان تميز البشر . صحيح ان الفقراء دفعوا ، لكنهم كانوا يأتون بالقطع النقدية الصغيرة . كانت تفرحها هذه القطع وتساعدها ، لكنها لم تتسامح مرة واحدة في ان تأخذ ما تفترضه سعراً للبضائع التي كانت تبيعها .

وهنا . . انها لا تعرف ماذا تفعل بالمال الذي تركه لها حسني . دائماً تشتري حاجات ، وتكتشف بعد فوات الاوان انها اكثر من طاقتها ، او مما تقدر على ان تأكله . قالت في نفسها وهي تبتسم وتتذكر : « الاولاد يأكلون الاخضر واليابس ، وكان يجب ان يكون كل شيء كثيراً ، تمتلىء عيونهم ، فلا يشتهون ، ولا يمدون ايديهم بعد ذلك » الآن لا تعرف ماذا تفعل بالرغيف الثاني . كان يكفيها واحد . لكن تجد نفسها تشتري اثنين . واذا كانت قد حملت معها الى غرفتها ، القريبة من المسجد ، الرغيفين في الأيام الاولى ، فانها استمرت بعد ذلك على شراء الرغيفين، لكن قبل ان تصل الى الغرفة كانت تعطي رغيفاً الى واحد من الذين يقفون عند باب المسجد ، وترجع بالآخر .

لم يقتصر الامر على رغيف الخبز او الأكل البسيط الذي تعودته هنا ، اصبح الوقت بالنسبة لها فائضاً ايضاً : كانت تكتفي بساعة نوم او اثنتين ، ولأن الليل اطول من ان يُقضى في الصلاة ، اخذت تفكر بكل شيء . تذكرت ايام كانت صغيرة ، وحين تزوجت اول مرة ، ثم حين تزوجت في المرة الثانية ، وتذكرت كيف جاءها الاولاد وكيف ربتهم . وتستغرب انها تتذكر اشياء للمرة الاولى ، لم تخطر ببالها من قبل ولم تفكر فيها ، فجأة تراها امامها ، وكأنها تحصل من جديد . انها تتذكر الأيام البعيدة اكثر مما تتذكر غيرها ، حتى تلك التي حصلت في الأيام الاولى لوصولها الى موران لا تبدو لها

بوضوح الايام البعيدة . كانت الاشياء ، في ذلك الزمن البعيد لها رائحة خاصة ، نعم رائحة تتنشقها الآن ، تعاودها مرة اخرى . لماذا نسيت هذه الاشياء كل تلك الفترة ولماذا تعاودها الآن ؟

وبدأت تعيش من جديد في ايام قديمة ، ايام كانت طفلة ، كان يروقها كثيراً أن ترجع الى تلك الأيام ، ثم فجأة تتذكر حسني وسعيد وزكية ، ثم تتذكر احفادها ، تجد ان الوجوه ذاتها تتكرر ، انها نفس الوجوه وان اختلفت الملامح قليلاً ، وتجد انها لا تستطيع ان تبقى بعيدة او معزولة . غفرت للجميع اخطاءهم ، لا تحس ان لها ثأراً عند احد ، حتى الكنتان تحبهما ، رغم الكلمات التي سمعتها ؛ ورغم ان زكية تصرفت بتلك الطريقة ، يمكن ان تسامحها ، وسوف تصلي ركعتين عند قبر الرسول وتهبهما لها . « طفلة يمكن ان تخطىء ، كل انسان يخطىء » ويجب ان لا تتوقف عند هذه الاخطاء الصغيرة .

تفكر بذلك كله والليل لا ينتهي : امي زهوة ، الشيخة ، تحيرها . ماذا تريد هذه العجوز او كيف تفكر؟ ولماذا هي حازمة قاسية مع الآخرين في الوقت الذي تكون معها هادئة مقبلة وكأنها طفلة ؟ ولماذا تتحول الى اذن كبيرة شديدة التحفز لا لتقاط كل كلمة تقولها لها؟ قالت ام حسني لنفسها «بالتأكيد تنتظر شيئاً ، والا لما كانت بهذا الشكل » . وبدأت تستعيد همسات نساء القصر ان غابت الشيخة ، وبدأت تتذكر ايضاً اشكالهن وتصرفاتهن . هل يمكن ان تقتل او تكون بهذا السوء ومن اجل اي شيء ؟

وتغرق في الصلاة والعبادة لتنسى . ترقب الناس والاشياء حولها لكي لا تفكر . لكن ، مع ذلك ، يبقى لديها من الوقت الكثير ، ودون ان تحس او ان تقرر تجد نفسها غارقة في التفكير والهموم .

وتتغلب ، من جديد ، على حيرتها وهمومها بالصلاة . تقضي يومها كله في صحن المسجد . لكن الليل ، هذا البحر الذي لا يهدأ ولا ينتهي ، يحاصرها ، يخيفها ، وهي هنا وحيدة . لو ان احداً معها لشعرت انها اقوى . حتى القطة ، ياسمين ، التي كانت عندها في دمشق منذ ايام بعيدة ، كانت تؤنسها ، بعد ان ينام الاطفال . كان يكفيها ان تتلفت حواليها فترى الجميع

نياماً ، تشعر بالقوة والثقة . قرقرة القطة ، في تلك الليالي، كانت تسليها، تساعدها على ان تقضي عدة ساعات اخرى من اجل انجاز بعض الخطات الاضافية . الآن تمتلىء بالوحدة والخوف . قد تموت هنا دون ان يحس احد ، دون ان تقول كلمة اخيرة وصية لاولادها ، لا تريد ان تنتهي هكذا ؛ ان تموت وحيدة ، بعيدة ، منسية . لا احد يعرف قبرها ، او يزوره . صحيح ان الفقراء يزورون قبور الذين لا احد لهم ، ويضعون فوقها اغصاناً خضراء ، لكن القبور هنا بلا عدد . بلا اهمية ولا تزار ايضاً . انها متأكدة ان ابناءها سيحزنون حين تموت . وسوف يكفّرون عن اخطائهم تجاهها حين تمضي ، وقد يبنون لها قبراً جميلاً وقوياً ، لتبقى بينهم حتى بعد ان يفنى جسدها . اذا ماتت هنا ستموت مجهولة تماماً . حتى اسمها لن يتذكره احد ، ولا يعني شيئاً لاحد . وبعد شهور ، او ربما بعد سنوات ، اذا جاء احد ابنيها ، او جاءا معاً ، وسألا عنها فلن يتلقيا جواباً من اي نوع ، الحركة الوحيدة ان يقلب كل من يسألانه شفته وكتفيه دلالة انه لا يعرف .

لا ، لا تريد ذلك . صحيح ان هذه الارض شريفة ، مقدسة ، والكثيرون يفضلون ان يموتوا هنا ، لكن ما يريحها اكثر ان تموت بين ابنائها ، بين اناس يعرفونها ويحبونها ، ستموت راضية عند ذاك ، ستموت دون شعور بالندم او الغربة .

وتمضي الأيام تتلوها الشهور . تغرق في النهار بين الناس ، وتغرق في الليل بالوحدة . تشغلها في النهار هموم الناس واحاديثهم ، وتنشغل في الليل بهمومها وافكارها . كل ما تصمم عليه في ليلة تنساه في اليوم التالي . أما حين يغيب بعض الذين عرفتهم في اسابيع او شهور سابقة، فتعرف انهم ماتوا ، فتحزن لموتهم ثم لا تلبث ان تنسى ، فاذا تذكرتهم مرة اخرى حزنت من اجلهم اقل مما حزنت في المرة الاولى ، أما ملامحهم فتبدأ تغيب الى ان تتلاشى ، وكذلك اسماؤهم .

بعد ثمانية شهور حين جاء سعيد واصطحبها الى الحج ثم عاد بها الى موران لم تمانع . كانت تحس انها شفيت وانها راغبة ومستعدة للعودة . اكثر من ذلك كانت تحس بشوق كبير الى الصغار .

صحيح انها لم تطمأن لاجاباته حين سألته عن اخيه : كيف تركه ، وكيف هي علاقتهما الآن ، لكن اياً كان الجواب كانت سترافقه في العـودة . يكفيهما هذا الدرس الآن . والصغار ، ما ذنب الصغار الذين تركتهم رغم شدة تعلقها بهم ؟ واذا كان الكبار قد اذنبوا فلم تعاقب الصغار او تتخلى عنهم ؟

قال لها سعيد في احدى اجاباته عن اخيه :

ـ ابو تيسير بعده عايش بعقل عمان او الشام .

وزفر بحسرة وتابع :

ـ وموران تحتاج الى عقل ثاني !

أما حين استفسرت ما اذا سألت عنها الشيخة او احد آخـر من القصر ، فقد رد وهو يقهقه :

ـ القصر لا يتذكر الا الناس اللي بوجهه . . يا حجة .

وبعد قليل ، وهو يهز رأسه :

ـ بعد سفرك باسبوع ، اسبوعين ، سألوا ، لكن بعدها نسوا كل شيء !

بدا لها ، منذ الأيام الاولى لرجوعها ، ان ابنيها ما زالا موجودين معاً في البيت ، لانهما لا يستطيعان ، ولا يستطيع اي منهما ، اتخاذ قرار الانفصال . لكنهما ، عملياً ، منفصلان ، لان بدل المائدة الواحدة ، والتي كان يتخللها الكثير من الاحتفاء والصخب ، اصبحت مائدتين ، واغلب الاحيان تبدأ الواحدة وتنتهي دون ان يحس بها الذين في الجانب الآخر من البيت . وبعد تلك العلاقات الحميمة بين الكنتين ، لم تعد الواحدة تكلم الاخرى الا مضطرة . وتتعمد احداهما ان تدخل المطبخ حين تغادره الثانية . أما الاطفال الذين كانوا رسل المحبة والوفاق ، فقد منعوا ، وبقسوة ، من الاختلاط او اللعب معاً ، فاذا صدف ان اكل الواحد منهم في بيت عمه او جلب حاجة كان ذلك سبباً لخلاف قد يمتد الى ايام او الى اسابيع ، وما يرافق ذلك من عقوبات وصراخ .

وحسني وسعيد تغيرا ايضاً ، سواء في العلاقة ، او في العمل ، وحتى في وقت الوصول الى البيت . أما الكلمات التي يتبادلانها فكانت اقرب الى المجاملة ، او لكي لا يبقيا صامتين اذا التقيا .

ندمت ام حسني ولامت نفسها لانها تأخرت بوصولها الى موران اول مرة ، لكنها تكتشف الآن ان كل شيء متأخر وفات اوانه . اكثرمن ذلك بدا ان وجودها اصبح عنصر خلاف جديد . كل واحد من الابنين يريدها ان تأكل على مائدته ، ان تكون في القسم الذي يحتله من البيت ، وان تكون معه

ومع زوجته في الموقف . واذا كانت تملك بقية قوة في فترة سابقة ، وقادرة ان تمنع خصام الزوجتين ، فقد اصبحت اضعف من ان تفصل بينهما في المرحلة الجديدة ، واصبحت كلماتها الحازمة المؤنبة تثير السخرية اكثر مما تولد الخوف او المهابة .

قالت لحسني بيأس مرير ، حين الحّ عليها ان تأكل معه بصورة دائمة :

ـ لا تهتم بمسألة اكلي يا ابني ، انا ادبر نفسي .

ولما الحّ اكثر من قبل ردت :

ـ . . . والاكل آخر شي بالنسبة لي ، يا ابني .

أما حين تطلعت عيناه بتساؤل واستغراب فقد تابعت :

ـ واكلي بعد الحج والزيارة صار مثل اكل العصافير .

وابتسمت واضافت بحزن :

ـ ويمكن ان اعيش على الهواء اذا كنت راضية ومرتاحة !

أما محاولاته في ان تأكل على مائدته يوماً وعلى مائدة سعيد يوماً ، فقد أغضبتها ، قالت بحدة ، وبدا صوتها اقرب الى قطة تموء :

ـ يقطع الأكل ويومه ، اتركني ، يا ابني ، بحريتي ، ولا تخف عليّ !

سعيد تظاهر انه لم ير ولا يعرف ، ولذلك لم يتدخل ولم يطلب شيئاً ، كان متأكداً ان كل شيء مُؤقت . ومع ذلك لا يريد ان يكون السبب في اي اجراء يقدم عليه حسني . حتى مسألة القصر ، او ان تكون لأمه علاقة قد تساعده في العمل ، فما لبث ان صرف عنها النظر ، لانه وجد منافذ اخرى ، واستطاع ان يصل الى اكثر ما كان يريد .

اي حزن يستبد بالانسان حين يكتشف ان كل جهده وعمره ذهب عبثاً ، دون جدوى وبلا اية نتيجة، سوى هذه الاجواء المعتمة القاسية، وهذه الآلام التي يعاني منها كل واحد على طريقته ؟ ما فائدة الثروة ان كانت نتائجها كما ترى عيناها ؟ واي معنى للسفر والانتقال من مكان الى آخر اذا كان المكان

الجديد سيولّد هذا المقدار الهائل من التعاسة والالم ؟ وهي . . الم تكن مسؤولة عن كل ذلك ؟ اليس ما تراه الآن نتيجة تربيتها وطريقتها في التعامل والتصرف ؟

بدت لها موران ضيقة ومعادية ، وبدا لها البيت مثل سجن ، وامتلأت ايامها ولياليها بالوحدة ، اكثر مما كانت تحس بليالي المدينة . هل اخطأت مرة اخرى حين وافقت على المجيء ؟ وهل نستطيع شيئاً تجاه الصغار الذين حملوها من مكان الى آخر ؟

بذلت محاولات لان تجمعهم ، او لان تجمع بعضهم على الاقل . كانت تقطع رغيفاً من الخبز قطعاً صغيرة، وتضع فوق كل قطعة كعباً من السكر ، ومع القصص التي ترويها كانت تزقهم كالعصافير ، لكن صرخات زكية او أديبة، وزكية بشكل خاص ، منادية على الاولاد ، تقطع عليها اللذة الوحيدة المتبقية لها . كان الصغير وهو يرتجف ، ثم ينهض مسرعاً ، بعد ان يمسح طرفي حلقه بظاهر يده ، لئلا تظهر عليه علامات الأكل ، تغرقها في تعاسة لا حدود لها ، وتجعلها عاجزة عن التصرف او المقاومة . ماذا تفعل وكيف ترد ؟ كان النداء على الصغار ، ان يتركوها ، وان يلتحقوا بامهاتهن يشعرها انه لم يبق لها شيء ابداً .

وفكرت من جديد ان تربي قطة او عصفوراً « هذه الحيوانات لا تتخلى عن الانسان ولا تتركه ، حتى عندما يتركه ابناؤه » لكن من اين لها قطة مثل ياسمين؟ وهل تبقّى لها من العمر ما يجعلها تبدأ من جديد؟ واذا ماتت لمن تترك هذا الحيوان المسكين ؟ هكذا فكرت وهي تتخلى عن الفكرة ايضاً .

حتى الصلاة لم تعد تكفي . يمكن ان تصلي ساعات ، ويمكن ان تسبّح ، لكن اكثر من مرة وجدت نفسها تفكر باشياء اخرى اثناء الصلاة . كانت تستغفر وتستدرك ، وكانت تبدأ من جديد ، لكن كثيراً ما تكرر الامر ذاته .

لم يبق امامها الا ان تسافر مرة اخرى ، ان تعود الى الشام ، والى الطيبة بشكل خاص ، هناك يمكن ان تقضي ما تبقى لها من ايام ، ويمكن ان تبرر عودتها بحجة ان المناخ لم يناسبها ، وان الماء اثّر عليها فلم تحتمل وجاءت .

هناك صديقاتها ، ولا بد ان يفهمنها وان يساعدنها .

هكـذا بدأت تفكر وتمتلىء بهذه الرغبة ، لكنها لم تجرؤ ان تفاتح ابنيها او ان تتخذ قراراً. وإلى ان تتخذ ذلك القرار بدأت بين يوم وآخر تخرج . تـزور جارة من الجارات ، او تمشي في الشـوارع على غـير هدى . يكفي ان تقضي ساعة او ساعتين خارج البيت لتبقى حية ولئلا تمرض او تموت .

زكية كانت تنتظر ذلك ، تنتظره بلهفة ، لانها على يقين ان حماتها لا تعرف سوى القصر ولا تزور الا الشيخة . فما ان تغـادر البيت حتى تتحرى غـرفتها لتعرف ما اذا اخذت بخوراً او لباناً ، وكانت تعرف ذلك ، اغلب الاحيان ، دون ان تضطر الى فتح الصرر ، فرائحـة الغرفـة ، او الترتيب الـزائد الـذي تحرص عليه ام حسني ، لا بد وان يشعرها بما فعلت حماتها . أما اذا عادت من مشـوارها ، فكـانت زكية تـدفع اليهـا الصغار لتتـأكد ، فينهـال عليها هؤلاء بالاسئلة ، او يطلبون ان تعطيهم مما اعطتها الشيخة . هكـذا كانـوا يطلبـون ويتصرفون نتيجة تـوصيات امهم والـدروس التي لا تتعب من ترديـدها عـلى رؤوسهم !

ولم يتأخر حسني لكي يتدخل :

ـ انـا ، يا امي ، من هـذيك الليلة ، حـالف يمـين : اذا دخلت القصر عينك ما عاد تشوفني !

فترد بغضب :

ـ يقطع القصر واللي ساكن فيه .

ـ ما علينا ، بس لازم تأخذي بالك !

ـ بسيطة يا ابني !

لم تكن زكية تكتفي بهذه القناعة ، كانت ، ايضاً ، تريد دليلاً ، لكي لا تبقى لحسني اية حجة . فبعد الوصـايا التي رددهـا عشرات المـرات ، وكانت اغلب الى التهديد « ان تبلع لسانها ، وتغمض عينها . مهما سمعت او رأت من امه » فانها الآن لا ترغب بدخول معركة خاسرة ، ولا تريد مجرد نصر عادي او

صغير ، يجب ان تحقق نصراً مؤكداً وكاملاً ، ولذلك فان اي خطأ ، مهما كان صغيراً ، يمكن ان يؤدي الى نتائج معاكسة ، اذ بعد ان احتملت الكثير من حماتها في فترات سابقة ، وتحملت ايضاً سعيد وسخريته ، فقد حان الوقت لكي تفتح بيتاً خاصاً بها ، ولان يكون لهما وحدهما زوج ، لا ان تكون مجرد شريك ، كما كانت تقول .

ولذلك لا تتعب من البحث والتنقيب ، ولا تتوقف عن دفع الصغار ليأتوا بالدليل من عند جدتهم ، حتى اذا ملكت هذا الدليل ، وفي لحظة مناسبة تضعه امام حسني : « حلفت اكثر من يمين انك لن تبقى يوماً واحداً في هذا البيت اذا دخلت امك القصر ، وامك لم تدخل القصر مرة ، دخلته عشرات المرات ، واليوم كانت هناك واليك الدليل » وتقدم اليه دليلاً لا يمكن دحضه ، ولا يختلف حوله اثنان .

هكذا كانت زكية تهيء نفسها ، رغم قناعتها ان حماتها ذهبت مرات عديدة الى القصر . وان تكن في زيارات قصيرة ، خلافاً لعاداتها السابقة . اذ كانت تقضي هناك ساعات طويلة كل يوم . الآن تتعمد ان تذهب اثناء غياب ابنيها ، ولا تقضي الا وقتاً قصيراً ، لكي لا ينكشف امرها . ومع ذلك فزكية ليست في عجلة من امرها ، لقد انتظرت وقتاً طويلاً ، ويمكن ان تنتظر ، فاذا قبضت على حماتها بالجرم المشهود فلن تستطيع الإنكار او التمويه اذا ووجهت بذلك .

الآن لا تريد ان تعرّض نفسها الى موقف ضعيف ، فالضعف يجر الى ضعف اكبر منه ، والخصومة الآن ليست بينها وبين حماتها ، انها بين حسني وامه ، وعليها ان تدفعه لمواصلة الحرب ، ومن الافضل الا تظهر .

ما كانت أم حسني لتزور القصر لولا الحصار الذي يطوقها، والذي تراه في عيون الصغار والكبار . وما كانت لتفعل ايضاً لو لم تأتها سيارة القصر على غير انتظار او توقع . ومما حرضها اكثر انها هي التي فتحت الباب وتلقت الدعوة ، دون ان يحس احد . صحيح انها في اعماقها تشعر بالمرارة لان القصر نسيها تماماً ، لكن مثلما قال لها سعيد حين سألته ، ان ناس القصور لا يسألون عن الآخرين الا اذا احتاجوا اليهم ، او اذا التقت بهم عيونهم . ومع ذلك فان الفضول الممزوج بالشوق ، وتلك الرغبة في تحدي الحصار ، وان تشعر بانها حرة وقادرة على ان تفعل ما تريد ، كل هذه الاسباب معاً دفعتها لان تفكر بزيارة الشيخة. طبيعي لن تلبي الدعوة فوراً، لكنها لن تتأخر كثيراً.

الشيخة كانت بحاجة ماسة لان ترى ام حسني ، لان تستقرىء لها ما يقوله الفنجان ، اذ بعد ان مرت على قصر الغدير تلك الأيام الصعبة ، حيث مرضت تهاني ، وخلال ثلاثة ايام ماتت ، دون ان يعرف سبب مرضها او موتها ، ثم بعد ذلك ، وخلال اسابيع قليلة مات سرور . والشيخة التي حزنت لموت تهاني، أقنعت نفسها ان موتها نتيجة العمر او لسبب غامض، أما سرور فان موته لا يترك شكاً ان في الامر سراً لا تفهمه .

اذ بعد ان مرض سرور ، او بالأحرى بعد ان اصيب بالحمى ، وبدأ يهذي ، وربما قال اشياء اخافت الذين سمعوه ، وقد يكون وصل ذلك الى علم السلطان ، فما ان مضت ساعات حتى زاره ، على غير توقع ، ودون طلب ،

الدكتور المحملجي .

بعد ان فحصه اعطاه ابرة ، وارغمه على ان يشرب دواء ، وخلال فترة الظهر زاره السلطان بنفسه ، وكان الحكيم برفقته ؛ أما عند العصر ، او بعده بقليل فقد مات سرور ، ودفن قبل ان تغيب شمس ذلك اليوم !

موت سرور اخاف الشيخة الى اقصى حد . كانت بحاجة الى سند ، الى معرفة الأيام القادمة ، وفجأة تذكرت ام حسني ، وحدها يمكن ان تنقذها ، ان تقول لها ما يخبئه القدر ، خاصة وان النساء حولها بدأن ينظرن اليها بطريقة مختلفة عن السابق . صحيح ان الأمر لم يتعد نظرات التساؤل لكن هذه النظرات بدأت تقلقها .

بعد ثلاثة ايام قامت ام حسني بالزيارة .

بدا لها القصر يختلف عن اية فترة سابقة ، اذ ما عدا البوابة التي ظلت مثلما كانت من قبل ، فان كل شيء تغير . هدمت اجزاء كثيرة من الاسوار الداخلية ، وقامت اجنحة جديدة وواسعة ، اضافة الى بنايات لا تعرف كيف بنيت بهذه السرعة . حتى جناح الشيخة ، فيما عدا الغرفة التي تشكل مدخلاً للجناح ، لم يبق شيء .

والشيخة بدت لها امرأة اخرى خلال هذه الفترة : اكثر احديداباً ، بحيث اصبحت عصاها اطول من أي فترة سابقة ، وشعرها طال عن السابق وابيضّ ايضاً . أما لونها فاصبح على سواد وزرقة ، الشيء الوحيد الذي لم يتغير عيناها . ما زالتا مشعتين صارمتين ، واقرب الى العناد او الحذر .

استقبلتها الشيخة كما لم تستقبلها من قبل . اذ رغم الحزن ، فقد احتضنتها بقوة وقبلتها خلافاً لكل المرات السابقة . وام حسني التي كانت تنوي ان تعاتب ، وان لا تطيل زيارتها ، ما لبثت ان شعرت بالضعف ازاء هذه الحفاوة ، فنسيت الكلمات التي حضّرتها واستعدت لها ، وتسامحت تجاه نسيان الشيخة وعدم سؤالها ، خاصة بعد ان حدثتها اولاً عن تهاني ثم بعد ذلك عن موت سرور الغامض .

رغم الحزن كانت الشيخة تريد ان تعرف ما يخبئه لها المستقبل ، وام

حسني التي اعتذرت انها لن تستطيع ، على الاقل هذا اليوم ، اشارت ، بشكل غير مباشر ، انها تفضل ان يؤجل الموضوع ؛ والشيخة التي التقطت هذه الاشارة ، فهمتها جيداً ، رغم انها كانت تتحرق داخلياً لان تعرف كل شيء وباسرع وقت .

ام حسني لم تطل زيارتها ، اذ انسحبت رغم الالحاح عليها ان تبقى ، انسحبت سريعاً بحجة ان احد احفادها مريض ولا بد ان تكون الى جانبه ، لانها الوحيدة التي تستيطع ان تمرّضه وتعتني به .

لم تكد تصل البيت ، بعد العصر بقليل ، حتى وصلت بعدها عباءتان. كان من السهل ان تخفي العباءتين، لكن قبل ان تمر ساعة على هذه الهدية ، وصلت هدية اخرى ، بعثت اليها الشيخة بغزال وبكمية من البلح . فتحت زكية الباب وتسلمت الهدية ، في الوقت الذي كانت ام حسني « تخفي » العباءتين، لكي لا تخلق شراً. هكذا قالت لنفسها. لم يقتصر الأمر على ذلك ابلغ السائق الذي جلب الغزال والبلح انه سيمر غدا صباحا ليأخذ الاولاد ، حسب الاتفاق بين الشيخة وام حسني الى القصر . ثم يصطحبهم مع اولاد آخرين في نزهة .

في ذلك المساء اصبحت زكية متأكدة وتملك الدليل . أما الوقت الذي فصل بين وصول السيارة ووصول حسني فكان قصيراً الى درجة لم يمكّن امه من تدارك الموقف ، او اختراع حجة مقبولة .

لما دخل حسني ووجد الاولاد يتراكضون حول الغزال ، والبلح في منتصف الباحة ، ورأى امه تصرخ وتطلب من الاولاد ان يهدأوا وان يتركوا الغزال لتتمكن من ربطه ، ورأى زوجته تجلس على الدرجة الاولى ، وقد بدا عليها السرور والشماتة في آن واحد ، فقد صرخ بغضب :

ـ بس . . . انت وهو ، كافي صياح .

فلما توقف الاطفال وهدأ الغزال قليلاً ، لكن لم يزايله التعب والخوف ، التفت الى امه وزوجته وسأل باتهام وهو يشير الى الغزال :

ـ من أين جاءتنا هذه المصيبة ؟

قالت زوجته باندفاع :

ـ اسأل مرة عمي . . .

التفت الى امه التي كانت تمسك بحبل ، وبدت مرتبكة ، اقرب الى الخوف ، وسألها :

ـ ها حجة (وكان يستعمل هذا التعبير لاول مرة) شو المسألة ؟

ردت بسخرية وقد آذاها ان يخاطبها بهذه الطريقة :

ـ اللي تشوفه عينك . . . .

وبعد قليل :

ـ غزال ؟

ـ اي نعم غزال . على عيني وعلى رأسي ، غزال ، لكن من اين شرّف الغزال ؟ كيف ترك الدنيا ووصل الى بيتنا ؟ نزل من السماء ؟ طلع من الارض ؟ وليش ترك كل الناس وشرّف لعندنا ؟

كان يتكلم بسخرية وببطء . بنفس طريقة امه ، قالت زوجته في محاولة للوصول الى اقصى النتائج :

ـ بعثوا الغزال وبعثوا البلح . . كله من القصر ، من الشيخة .

ـ والبلح كمان ؟

هكذا تساءل بسخرية وهو يلتفت صوب البلح ، تابعت زوجته :

ـ وقالوا ان نحضر الاولاد ، لانهم راح يمروا الصبح حتى يأخذوهم الى القصر .

ـ يا سلام . . . شي عال ، شي حلو ، وشو كمان ؟

والتفت الى امه وسأل بنفس السخرية :

ـ وشو كمان يا حجة ؟ شو مطلوب منا كمان ؟

اية احزان يمكن ان تتجمع في القلب وتشوي هناك ، وكأنها انتهت

وانقضت ، لكنها لم تنته ولم تنقض ؟ واية ذكريات يمكن ان تغيب في الصدر ، في ذلك الكهف المظلم ، فلا تتحرك ولا تنوي الظهور او العودة ، لكن فجأة تظهر ؟ واية قدرة للانسان على التسامح والطيبة ونسيان الاساءة تجعله ينسى ويرضى ، لكي يبدأ من جديد . . . وفجأة ينكشف الغطاء ، ينقذف بفعل التعب وعدم الرضا وعدم القدرة على الاحتمال ، فيظهر كل شيء لانه لا يقوى على البقاء في الداخل لحظة واحدة ؟

في تلك الدقائق القليلة التي استغرقتها اسئلة حسني ، وبتلك الطريقة الساخرة في مخاطبتها ، وكأنها ليست امه ، او كأنها طفلة صغيرة مذنبة ، تجمعت في صدرها وقلبها عشرات المشاعر والافكار والرغبات. تذكرت حياتها منذ ان كانت طفلة صغيرة ، تذكرت لعبة القماش الزرقاء التي صنعتها ولم تصنع غيرها . ثم انتزعت هي ولعبتها ورميت في حضن ذلك الرجل المسن ، ابو حسني ، ليلعب بها كما كانت هي تلعب بلعبتها ، فيوقظها في الليل المتأخر ، لتبقى ساهرة ، لانه لا يستطيع ان ينام ، او لتفرك له رجليه وظهره ، او لتصنع له الزهورات قبل ان يبدأ بقراءة القرآن . وفي الليال اخرى ، عندما تكون شديدة النعاس ولا تشتهي سوى النوم ، كان هو يشتهي ويريد اشياء أخرى، فلا تعرف كيف تستجيب له ، كيف تساعده ، او كيف تغافله وتعود الى النوم من جديد، وقد امتلأت خوفاً واشمئزازاً . أما عندما مات ، وقد فعل ذلك فجأة ، فلم تميز ما اذا كان نائماً او استبدت به نشوة من نوع ما فحملته بعيداً ، أو انه مات ولن يعود اليها مرة اخرى .

أما بعد ذلك ، وحين تزوجت مرة اخرى ، وظنت ان الآلام التي تحملتها في يتمها وزواجها الأول تكفيها ، ويمكن ان تعيش الآن مثلما يعيش الناس الآخرون ، ففرحت واقبلت وحملت المرة الاولى ثم المرة الثانية ، وجاءت لشكيب الاسطه بولد وبنت ، كما تفعل جميع النسوة ، وكانت مستعدة ايضاً ان تفعل كل شيء من اجل ان تأتي له باولاد ذكور آخرين ، تركها ومشى ، طلقها . . . . وغاب .

ولما اشتغلت بعشرات الاعمال الصغيرة ، من التطريز الى الصوف ، الى تربيد الحطات ، ثم بدأت بتجاراتها الصغيرة ، واخيراً حين انتقلت الى

عمان ، وعلى مدى سنوات عديدة ، وهي تتاجر وتربح وتسافر ، وتقسم ما تحصل عليه الى ثلاثة اقسام متساوية : الاول لمصروف البيت ، والثاني لكسوة الصغار، أما الثالث فتبقيه رأس مال لتشتري به وتبيع، ولا تترك الا قروشاً قليلة ، جمعتها قرشاً فوق آخر ، من اجل شيء خاص عزيز عليها ، ولم تبح به لاحد ابداً ، الى ان تجمّع لديها من اجل شراء هذا الشيء ما يكفي ، واشترته ، وابقته بعيداً ملفوفاً ، وكانت تضيف اليه بين فترة واخرى بعض المستلزمات التي تعتبرها ضرورية ، هذا الشيء الوحيد الذي تملكه ، او تعتبره حقاً خاصاً بها ، وما عدا ذلك ، وطوال حياتها ، ولم يبق من هذه الحياة الا القليل ، هكذا قالت لنفسها ، تركض من اجلهم ، جاعت من اجلهم ، تعبت من اجل ان لا يتعبوا او يذلوا ، وبعد أن كبروا زوّجتهم ، ثم جاء أولادهم ، وهي تواصل الآن التعب والسهر والشقاء ، من اجلهم ايضاً . لا تريد مقابلاً أبداً، وإذا طلبت شيئاً الآن فكلمة، وحتى الكلمة إذا لم تصدر من القلب ، من اعماق القلب ، لا تريدها ، يكفي ان يتركوها ، ان تعيش كما تشتهي وكما تريد ، أما ان تحاسب ، ان تمنع ، ان تراقب ، وان يقال لها اخيراً افعلي ولا تفعلي ، فلم تعد تحتمل .

وحتى القصر والشيخة وموران وكل شيء في هذا الكون لم يعد اي منها يعني لها اهمية او غبطة ، فقط تريد ان تفعل ما يجعلها تحس انها لا تزال موجودة وحرة ، وانها قادرة . اكثر من ذلك تريد ان تقول لا او نعم حسب قناعتها ورغبتها دون فرض او ارغام .

هكذا احست وفكرت وسافرت . . ثم عادت ، فلما وجدته لا يزال ينظر اليها ، وكذلك العيون الاخرى ترقبها وتتابعها ، وكادت ان تنسى كل شيء مرة اخرى ، فما ان التفتت الى الغزال ، ومدت اليه يدها تريده ان يقترب حتى جاءها صوت حسني :

ـ ما قلت لنا ، يا حجة قصة هذا الغزال !

ـ قصة هذا الغزال ؟

هكذا تساءلت بحزم اقرب الى الاحتقار ثم تابعت :

ـ ما له قصة يا ابني . غزال مثل كل الغزلان .

ـ نزل من السماء ؟

ـ لا يا ابني ، الغزلان لا تنزل من السماء ، من السماء تنزل الملائكة ورضا الامهات .

ـ طيب . . من اين جاءنا ؟

ـ من الشيخة . . يا ابني .

ـ يعني رحتِ . كسرت يميني ؟

ـ حتى لا اتعبك ولا تتعبني يا ابني رحت ، وبكرة انا رايحة ، وكل يوم يمكن اروح !

ـ يعني يميني فالصو بالنسبة لك ؟

ـ يمينك على رأسي ، يا ابني ، لكن لازم تعرف : كل حياتي ، من يوم كنت بنت صغيرة ، وحتى اليوم وانا ملجومة ، محلوف عليّ ، مربوطة وقاعدة : لا ارحمك ولا اخلي الله يرحمك ولا اخلي رحمة الله تنزل عليك . لما كنتم صغاراً كنت ملجومة ، لما كبرتم ظلّيت ملجومة ، واليوم وبكرة انت رايد اظل ملجومة ، لا يا ابني ، انا وحدي اللي اقرر وما رايدة احداً يقرر عني ويقول لي وين اروح وامتى ارجع .

ـ يعني انا لا شي باعتبارك !

ـ افهم على كيفك .

لما جاء سعيد ووجد الجو مشحوناً متوتراً هكذا : امه تقف في جانب وبيدها حبل ، وقد اصبح وجهها بين الصفرة والزرقة من الانفعال واليأس ، وحسني يحوم مثل حيوان محبوس ، يتطلع الى الغزال والى عثوق البلح ، ويتطلع الى امه ، والصغار وقفوا في الزوايا او قريباً من الادراج ، وكان الغزال وحده يتحرك حركة صغيرة خائفة . لما رأى المنظر هكذا ادرك ان عاصفة قد هبت على البيت ، قال بمرح ليخلق جواً جديداً :

ـ الغزال فأل خير . . والبلح اشرف الثمر .

ضحك حسني بسخرية واضاف :

ـ والشيخة اشرف البشر .

ـ كل الناس خير وبركة ، يا ابو الشباب .

هكذا رد سعيد في محاولة لان يمتص غضبه ، وبعد قليل :

ـ واولها وآخرها نصف الالف خمساية ، وما في شي يستوجب ان الواحد يحرق دمه ، يحرق اعصابه .

والتفت الى زوجته :

ـ شو يا اديبة . الدنيا مولعة ، الدنيا خربانة . شو صاير ؟

ـ ما في شي يا ابن عمي . . .

وبعد قليل اضافت :

ـ ولو طوّلوا بالهم المسألة بسيطة ، وما تستاهل .

وطلب منها ان تحدثه ، ان تفهمه ما حصل ، فلما اشارت ، بكلمات قليلة ، ان القصر بعث لهم بالغزال والبلح ، وان هذا سبب الخلاف والغضب ، قال لينهي الخلاف :

ـ المسألة من اولها لآخرها بسيطة : نذبح الغزال او نرجعه لاصحابه ، والبلح الف واحد يبوس ايدينا اذا اعطيناه شوية .

لكن لم تنته المشكلة ، ففي صباح اليوم التالي ، جمع حسني وزوجته حاجاتهم بسرعة وغادروا البيت مع الاولاد ، ورغم ان سعيد بذل جهداً كبيراً لكي يحمله على تغيير قراره ، على تأجيله ، الا انه امتلأ اصراراً ، وفي محاولة لان يقنع سعيد ان هذا الحل هو افضل الحلول قال وهو يدفع الاولاد امامه .

ـ احسن لك واحسن لي ، ويمكن احسن للحجة (هكذا اصبح يسميها) ، وحتى نظل اخوان ونحب بعضنا ان نفترق ، واذا ما افترقنا اليوم لا بد ان نفترق بكرة . ويمكن نفترق بكرة على زعل .

وحاول ان يضحك او ان يبتسم ، وهو يهز رأسه ، للتعبير على ان هذا الحل هو احسن الحلول .



لم تمـض ايام على مغادرة حسني الدار حتى مرضت امه من جديد . بـدا المرض وكأنه استمرار للمرض السابق ، واديبة التي شعرت بتأنيب الضمير ، لانها كـانت احدى المتسببـات في ذاك المرض ، وفـيما ادى اليه من نتـائج ، اندفعت هذه المرة ، وقد اصبحت ربة البيت الوحيدة ، الى معالجتها والعنايـة بها . واذا كانت قد رأتها كيف حضّرت ادويتها في المرة السابقة ، واية اعشاب غلتها واية اعشاب سحقتها ، وكـانت تريـد ان تفعل مثلهـا ، فقد قـالت لها حماتها ، وخرج صوتها متحشرجاً :

ـ لا تغلّبي حالك ، يا بنتي ، لان مرضي هذي المرة غـير مرض هـذيك المرة .

وحين تطلعت اليها مستغربة ومتسائلة في نفس الوقت ، تابعت العجوز ، بعد ان تنحنحت :

ـ وما تشفيني الا عشبة بوادي الطيب !

ـ شو يامرت عمي ؟ عشبة بوادي الطيب ؟

ـ اي نعم ، يا بنتي ، عشبة بوادي الطيب وميّة بلادي !

وحين حاولت اديبة ان تقنعها ، ان تلحّ عليها ، وان تجرب ايضاً ، لعلها تصبح افضل ، ردت عليها العجوز بابتسامة حزينة ، وبكلمات متعبة :

ـ البني آدم طبيب نفسه ، يا بنتي ، وانا اعرف حالتي !

وفي الظهيرة والمساء حاول سعيد ان يخفف عنها ، ان يقنعها ان حالتها بسيطة ، ولا بد ان تشفى خلال أيام ، وبعد ان تشفى يمكن ان يستجيب لها وتسافر ، ومن اجل ان تشفى لا بد ان يأتيها بطبيب ، وهي ترفض ، تزداد اصراراً ان دواءها هناك ، وانها حالما تصل سوف تستعيد صحتها ، أما اذا استلمها الأطباء هنا، كالمحملجي وأمثاله، وبدأت ابرهم تثقب جنبيها، فان ذلك سيعجّل بموتها ، ولا تريد ان تموت هنا .

ولكي تقنعه انها ليست بحاجة الى اطباء او الى ادويتهم ، توافق على ان تصنع لها اديبة مشروباً من زهورات متنوعة تصفها لها ، وبعد ان تشربه تتظاهر بالنشاط ، بانها استعادت قوتها ، وتنظر الى عيني سعيد :

- يا ابني ، برضاي عليك ، سفّرني ، خليني ارجع لبلدي واهلي . .

- يا حجة . . نحن اهلك ، ونحن بلدك .

- كنتم اهلي ، يا ابني ، اليوم ما عاد لي اهل .

وتسقط على خدها دمعة ، لا تخجل منها ، وتريد الكل ان يراها ، وتتابع كأنها تخاطب نفسها :

- واللي ما عنده بلد ما له بلد .

- وكلي الله يا حجة ، وبلا هذا الكلام .

وتزفر بحرقة وتهز رأسها :

- ما عاد في فائدة من الحكي ، يا ابني ، لأنـي بزماني حكيت كثير وما احد سمعني !

- إذا كان قصدك حسني وزعله وتركه للبيت فهذه المسألة بسيطة ، رغم ان الحق عليه ، لك عليّ ان ابوس راسه وارضيه ، ونظل ، بوجودك ، اخوان وحبايب ، المهم ان تخلي المرض وراء ظهرك .

وتهز العجوز رأسها دلالة ان هذا ليس كل شيء . وحين تغرق الغرفة في الصمت، ويعجز سعيد عن خلق المرح الذي تعود ان يخلقه دائماً ، يأتي صوتها ضعيفاً منهكاً :

ـ وصلوني لبلدي وما عليكم مني . . .

ـ على العين والراس ، يا حجة ، يا امي .

ـ نسافر بكرة ؟

ـ نسافر بس تكوني قادرة على السفر !

وتنقضي الليلة ، وتمتلىء ام حسني بروائح المسك وهي تستعيد رائحة وادي الطيب ، وترتوي حين تتراءى لها تلك المياه الباردة العذبة ، أما سعيد الذي يتقاسم مع اديبة سهر تلك الليلة ، لانه يمتلىء خوفاً ان تكون الليلة الأخيرة للعجوز ، فتتراءى له حياته الماضية وهو يستعيدها ، يجدها قاسية ، مليئة بالصعوبات ، لكنها مع ذلك اكثر لذة وانسانية من الحياة التي يعيشها الآن ، هنا في موران لا يفعل شيئاً سوى الركض ، يركض في كل الاتجاهات ، ويركض معه الآخرون ، يقنع الكثيرين من اجل ان يقنع نفسه ، يضحك ، لكن ضحكه سخرية ، وكأنه يضحك على نفسه ، ومع ذلك لا يجد شيئاً افضل ليفعله .

في الصباح ، مع اول خيوط النهار ، كانت ام حسني قد استعدت تماماً ؛ ارتدت ملابس الخروج وضعت بقجتها امامها ، وجلست في اعلى الدرج ، مقابل غرفة سعيد ، تنتظر .

لقد فعلت ذلك بعد ان وضعت للغزال أكله وقليلاً من الماء ، وبعد ان صلت الفرض ورددت بعض الادعية ، وفكرت ان تأكل شيئاً لكي تقوى على تحمل السفر ومصاعب الطريق ، لكن لم تجد نفسها قادرة على تذوق اي شيء ، او راغبة باي شيء .

وبنفس طريقة الليلة الفائتة حاول ان يرجىء السفر ، مع تأكيد لا يلبث يتزايد انه حالما تبلّ من المرض وتستعيد قوتها لا بد وان يسافرا معاً ، وهناك ، يمكن ان يبقى معها ان ارادت ، ويمكن ان يؤمّن لها كل شيء . ويمكن ان يعود مرة اخرى الى الشام او عمان تاركاً موران لاهلها ، وهي تسمع ولا تسمع ، لكنها بعيدة ومليئة بالحزن ، واذ تتحصن بالصمت ، لا تعلق ولا تجيب ، تزداد اصراراً على مغادرة هذه المدينة الملعونة ، مدينة الفجيعة والسحرة والعاطلين .

ايام بلياليها ، والصحة والمرض يتناوبان ، وام حسني مثل شمعة تذوب وتتلاشى ، او تصبح مثل مسمار يستعصي على اللّيّ او الانكسار، وسعيد الذي يرقب الضوء ، ضوء كل نهار جديد ، لانه كان يمتلىء يقيناً ان الموت لا يأتي الا في الليل وخفية ، كان موزعاً وحائراً بين ان يتركها تغيب كما يغيب الدخان ، يتركها تموت وتتلاشى دون ان يحضر طبيباً، لانه وحده القادر على ان يفهم مرضها وان يعالجها ، وبين ان يراعي حالتها النفسية ، ويعتبر ان مرضها نتيجة الحزن ، فاذا زال هذا الحزن تستعيد نشاطها وقوتها . وهو بين هذه المشاعر المتناقضة يحاول ان يعيد للبيت المرح والضجة ، ولا يتردد في تقديم الوعود .

أما حسني الذي جاء في اليوم الخامس لزيارتها ، فقد كان محرجاً ومتضايقاً ، وظل اغلب الوقت ينقل عينيه في انحاء البيت، وكأنه يراه لاول مرة ، او كأنه يراقب اية تعديلات جرت بعد غيابه . وحين سأل امه ما اذا كانت احسن من قبل وما اذا كانت اوجاعها مثل المرة السابقة ، فقد ردّت وهي تنظر الى السقف ، وكانت ممددة في فراشها :

ـ لا تخاف عليّ يا ابني .

واستردت نظرتها ، وقالت :

ـ والله ما يقطع احد . . يا ابني !

وانتهت الزيارة بعد ان انقضى الوقت بالصمت او بالانفاس العميقة والزفرات التي كان يصعدها حسني بين لحظة واخرى ، وكان يريدها حديثاً اقوى من الكلمات وامضى ، أما هي فقد استرقت اليه نظرات كثيرة ، وكأنها تستعيد في ذاكرتها صوراً قديمة وتقارنها بالصورة التي امامها ؛ كانت تشعر نحوه بالمحبة الشديدة والمرارة معاً . وتريد ان تفرغ ما في قلبها قبل ان تستعيده كما كان من قبل ، لكن وجدت انها غير قادرة على ذلك .

قال لها وهو يقبل يدها :

ـ سامحيني يا امي ولا تبخلي عليّ برضاك !

ـ رضاي عليك يا ابني .

ـ واذا بكرة انشغلت وماجيت اللي بعده اكون عندك .

ـ بيتك ، يا ابني ، واهلا وسهلاً باي وقت !

وهو يلتفت، وقد اصبح قريباً من الباب ، قالت ، وخرج صوتها متعباً :

ـ ولا تنسى تسلم لي على الاولاد . . . وعلى زكية !

وهو يهبط على الادراج كانت دموعها تهبط على خديها ، وكأنها تودعه لآخر مرة . شعرت ان الدنيا تضيق وتطبق عليها ، وشعرت انها لم تعد بحاجة الى شيء او احد . شعرت انها وحيدة تماماً . دائماً كانت وحيدة ، لم يفهمها احد ، ولم يقف الى جانبها احد .

حين عادت اديبة ، بعد ان ودعت سلفها ، وجلست على طرف الفراش ، وبدت محرجة ، اذ لا تستطيع ان تسألها ، في هذه اللحظات ، عن حسني ، لئلا تثير احزانها من جديد ، ولا تجد ايضاً كلمات تقولها ، سألتها ما اذا كانت بحاجة الى شيء او ان تفعل شيئاً من اجلها . فقد ردت عليها :

ـ لو كانت زكية ، بنتي ، موجودة . . .

وبعد قليل وبحزن :

ـ كان لازم تكون موجودة .

ـ انا مثل بنتك يا مرت عمي .

ـ صحيح يا بنتي .

وتطلعت ام حسني حواليها ، بدت مترددة حائرة ، احست اديبة ان لديها ما تقوله ، سألتها بلهفة :

ـ اذا كنت بحاجة لشيء بعيوني اخدمك يا مرت عمي ، قولي .

ـ كل اللي عندي قلته ، يا بنتي . . .

ـ صحيح يا مرت عمي ، اي شيء اطلبيه ، وانا جاهزة .

استدارت ام حسني على جنبها واشارت باصبعها الى ما تحت السرير . تطلعت اديبة بتساؤل ، تابعت ام حسني بتعب : .

ـ البقجة .

ـ البقجة؟

ـ فيها ، يا بنتي ، ما حضّرته لآخرتي .

وظلت عينا اديبة تنظران بحزن وتساؤل ، تابعت ام حسني :

ـ فيها ، يا بنتي كفني !

وفي فجر اليوم التالي ، لحظة انقشاع الظلمة وبداية اول النهار ، وبعد ساعة من وصول طبيب من المستشفى الاهلي ، وقد انتدبه الدكتور صبحي المحملجي ، لكي يقوم بمعالجة ام حسني بعد ان اعتذر هو عن القيام بهذه المهمة بنفسه ، لانه « اعتزل المعالجة العامة » كما قال لسعيد ، الذي وصله بعد منتصف الليل بقليل ، في تلك اللحظة ، بين آخر الظلمة واول النهار ، وحينما كان سعيد يجوب موران من اقصاها الى اقصاها بحثاً عن صيدلية لشراء الدواء ، فاضت روح ام حسني !

قالت اديبة لسائق القصر الذي جاء بعد ثلاثة ايام ، مبعوثاً من الشيخة ، يسأل عن أم حسني، قالت له من وراء الباب الموارب انها غير موجودة . وحين سألها متى تعود او متى يعود هو ، لان الشيخة تريدها لامر مستعجل ، ردت اديبة :

ـ قل للشيخة انها راحت .

ـ ومتى ترجع ؟

ـ لن ترجعَ !

سافرت ؟

ـ اعطتك عمرها !

ـ شنهو ؟

ـ ماتت

ـ ماتت ؟

ـ اي نعم ، ماتت .

ـ الله يرحمها ويرحمنا .

قال سعيد لزوجته بعد اسبوعين على الوفاة :

ـ دائماً . . عيني كانت على البقجة ، كنت خايف من كبرها ، كنت متصورها من جملة التجارة . . . وابداً ما تصورت انها كفن !

ظلت موران ، مثل كل البلدان والقرى في هذه الصحراء العصية الجامحة ، وادعة ساكنة سنين لا حصر لها ، لا تنشغل ولا تنفعل بالامور الطارئة الا لفترة قصيرة ، ثم تعاود حياتها الطبيعية ، التي تميّزها ابداً : الانتظار . انها تنتظر المطر والقوافل وسوق الخميس ، وتنتظر ايضاً شيئاً ما تحسه ولا تعرفه !

كان المطر ، او مجرد تلبد السماء بالغيوم ، سواء امطرت في هذا المكان ، او في اي مكان آخر ، يولد في القلوب رضا لذيذاً اقرب الى الفرح ، فالمطر يعني اياماً اقل عسراً سوف تأتي ، وان حياة الناس ستكون اقل تعاسة ، وقد يؤدي ، وغالباً ما يؤدي ، الى بقاء الآباء والابناء فلا يرحلون .

أما وصول القوافل فانه يعني وصول عدد من الغائبين الذين طال انتظارهم ، اضافة الى ما تحمله القوافل من الارزاق والاخبار وروائح الامكنة البعيدة ، فيشتري الناس في هذه الأيام اكثر مما يفعلون في الأيام الاخرى ، ويعرفون او يقدّرون الصعوبات الجديدة التي قد تواجههم نتيجة ثبات الاسعار او تغيرها . وما بين استقبال الغائبين ، والسؤال عن الذين لم يرجعوا ، ومعرفة اخبار الاماكن الاخرى ، اذا جاءتها الامطار او تأخرت ، تعيش موران اياماً حافلة غير عادية ، فتتغير حياة الناس وتصرفاتهم ، ويبدون اكثر نشاطاً واقل حذراً ، لكنهم في كل الاحوال لا يكفون عن الحديث فيما بينهم ، ولا يكفون عن توجيه الاسئلة للقادمين .

وفي غير فصل الشتاء ، او حين تتأخر القوافل او لا تصل ، فان موران التي تعيش حياة رتيبة هادئة ، لا تكف عن انتظار يوم الخميس ، انه يوم السوق والاعراس ، وغالباً ما يكون يوم الولائم ايضاً . ففي هذا اليوم يتحرك الناس اكثر مما يفعلون في غيره من الأيام . وفي هذا اليوم ايضاً تصل الماشية التي غابت في البادية فترة ليست قصيرة ، ومعها يصل البشر من الامكنة المحيطة بموران للبيع او للشراء ، مع ما يرافق ذلك من الاحاديث والمساومات ، وما يتخللها من صعوبات ومكر ، وبعض الاحيان خلافات تنتهي بالغضب والقطيعة ، او تنتهي بالرضا ، لكن كل طرف يخفي مشاعره الحقيقية ، لكي لا يشعر الطرف الآخر انه غُلب او غَلب .

هذا الانتظار الذي تظل موران تعيشه يوماً بعد آخر ، شهراً بعد آخر ، يتركز ، اكثر ما يتركز ، في سوق الحلال ، انه بمثابة الرئة التي تتنفس من خلالها موران ، او البؤرة التي تتجمع فيها الاشياء ثم تتفرق؛ ففيه يلتقي اهم الرجال وتجري اكبر الصفقات واخطرها ؛ واليه تصل الماشية والارزاق، واليه يصل الغرباء والقادمون . صحيح ان هذا السوق ليس في وسط المدينة ، وليس مكاناً نظيفاً او جميلاً ، لكنه بكل تأكيد اهم الامكنة على الاطلاق .

ففي اقصى الشرق ، مع ميل قليل نحو الجنوب ، وغير بعيد عن وادي الرها ، حيث الطريق الذي تسلكه القوافل ، اغلب الاحيان ، من اجل الوصول الى موران ، يقع سوق الحلال : بسطة واسعة من الارض ، مستوية ، قاسية ، في جانب منها آبار المياه ، وفي جانب آخر حظائر للماشية والدواب ، وهي حظائر بسيطة ، او بالاحرى لا تتعدى المربعات او المستطيلات من الارض المسوّرة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة ، وغالباً ما تؤجر لقاء مبالغ زهيدة ، والغرباء عادة هم الذين يستأجرونها ، ليأمنوا عدم اختلاط ماشيتهم ودوابهم بمواشي الآخرين او دوابهم .

على اطراف هذه الارض ، او على اطراف السوق ، كما يسمى عادة ، قامت بضع دكاكين، وقد بنيت بشكل بدائي وسرعة متناهية، وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ ، يباع فيها كل ما تحتاجه القوافل ، وتتعاطى

بامور كثيرة في آن واحد . وتكون هذه الدكاكين عادة مليئة بالبشر والاشياء ويختلط فيها الباعة بالمشترين ، خاصة في ايام معينة ، او على التحديد منذ عصر الاربعاء وحتى ظهر الجمعة . وتبلغ ذروة نشاطها يوم السوق ، يوم الخميس . وفي غير هذه الأيام تخلو الدكاكين من البشر او تكاد ، كما لا يتردد اصحابها في اغلاقها لساعات طويلة .

غير بعيد عن السوق ، او على التحديد في الطرف الغربي منه ، يقع المسجد ، وهو عبارة عن ارض مربعة محاطة بسور من الحجارة التي انتقيت بعناية وصُفّ بعضها فوق بعض بطريقة محكمة ، خلافاً لحجارة اسوار الحظائر ، كما فرشت ارضه بحصائر بسيطة متفاوتة المساحات والالوان ، وقد دبّ الى اغلبها التلف .

وفي الجهة الاخرى المقابلة من السوق كانت مقبرة موران ، واذا كان من الصعب ان يميزها الغرباء ، الا اذا دققوا النظر ورأوها في ضوء النهار ، فان اهل موران يعرفون قبورها قبراً قبراً ، رغم ان اكثر القبور سوّيت مع الارض ومالت شاهداتها او رفعت من اماكنها ، لان كل قبر وكل حجر يعني شيئاً حياً قوياً لكل انسان في هذه المدينة .

حين يتجمع المشهد كله ، وينظر اليه من مسافة معينة ، يبدو على شكل مثلث : الجامع رأس هذا المثلث ، أما ضلعاه فهما السوق والمقبرة .

في هذا المثلث من الارض كانت تتشكل موران مرة بعد أخرى ، وكانت فيه تبدأ الافراح والاحزان والمخاوف ، ومن هنا ايضاً كانت تولد الافكار والاخبار ، والى هنا كان يصل المسافرون والغرباء ، بحيث لا تخلو ذاكرة احد من اهل المدينة ، او الذين عاشوا فيها ، من ذكرى حادة مرتبطة بهذا المكان ، ذكرى اب عاد بعد سفر طويل ، او ذكرى الذين سافروا وغابوا ، وما رافق الساعة الأخيرة من ركض وحزن ووصايا ، واخيراً كيف نهضت القافلة وسارت ، ثم كيف ابتعدت الى ان غابت ، وما يتولد عن ذلك من مشاعر الحزن والرغبة واللوعة .

وفي هذا المثلث من الارض تروى قصص بعض الافراد الذين كانوا فقراء

في السوق، لا يملكون إلا كيساً أو كيسين من التبن، أو سطلاً فيه قطران لمداوة الابل ، لكنهم تشبثوا واستمروا الى ان حانت الفرصة التي طالما انتظروها ، فلما جاءت جاء معهـا الخير كله ، فتحـولوا الى اغنيـاء . وغيرهم من الـذين كان يضرب بغناهم المثل ، ويُعدّون من اصحاب الرعايا والرزق الوفير ، ما لبثـوا ، بـين عشية وضحـاها، ان اصبحـوا فقراء ، لان مـواشيهم هلكت في سنـة من سنوات المحل ، او لانها دخلت البادية طلباً للمرعى فغابت وغابت اخبـارها معها .

الاطفال الذين فتحوا اعينهم على الحياة ، وبدأوا باكتشاف العـالم المحيط بهم ، متجاوزين اولاً بيوتهم ثم الحي الذي ولدوا فيـه ، كان اول مـا عرفـوه واكتشفوه : سوق الحلال . فمن هذا السوق ساقوا ضحايا العيد ؛ ومن هذا السوق اشتروا حماراً او بغلاً لنقل الماء ، قبل ان تمد الأنابيب الى البيوت . ومن هذا السوق تمّت زيجات كثيرة حين اتفق الآباء ؛ ومنه بدأت الاسفار الكبيرة والبعيدة والتي غيرت حياة الكثيرين .

وفي هذا السوق كانت تجري الامازيح وتروى النكات ، ومنـه تنتقل الى موران ، وخلال رحلتها القصيرة تتغير ويضاف اليها الكثير ، فيضحك الناس ويـطربـون ؛ ومن الســوق كـانت تــطلق الالقـاب والاوصـــاف فثبتت عـلى الاشخاص اكثر مما ثبت عليهم اسماؤهم ؛ وفي السـوق كان يستغيب النـاس بعضهم بعضاً ، وكانوا يراقبون كل شيء بعيـون مدققـة ، فيعرفـون الاسرار والاخبار حتى اكثرها خفاء .

هكذا كان السوق منذ ان وجدت موران . واذا كـان لكل سـوق معالمـه ورجـاله والعـارفون بخفـاياه واسـراره ، دون ان يظهـر ذلك من المـلابس او التصرفات ، ودون ان يظهر ذلك ايضاً من اول وهلة ، فان اثنين او ثلاثة من هؤلاء الرجال ترتسم ملامحهم في مخيلات الناس وتتـرسخ ، ليس لانهم فعلوا اشياء خارقة ، او لانهم اقوى من غيرهم او اغنى ، وانما لان وجـودهـم ارتبط بحياة الناس على نحو غير مألوف ، ولان تصرفـاتهم لا تخضع للمنـطق الذي يحكم تصـرفات الآخـرين . واذا كان لكـل دولة او لكـل مدينـة ، حاكمهـا واغنياؤها ، ولها رجالها الاقوياء ، فان لكل مدينة ايضاً اناسها الذين يلخصون

حياة هذه المدينة ، فتبدو مختلفة عن غيرها من المدن ، او مختلفة عن ازمان اخرى .

من هؤلاء شمران العتيبي ، ليس لانه صاحب مال وماشية، وليس لانه ممثل السلطان ، الذي يتسلم الباج عن كل دابة تدخل السوق او تباع فيه ، وانما لانه « العارفة » الذي يستشار ويؤخذ رأيه في القضايا الكبيرة والخطيرة حين تحزب الامور ، وحين يقع الخلاف .

اذا وقع الخلاف في السوق ، وكثيراً ما يقع ، يرجعون الى شمران ويحكمونه ، فهو الذي يعرف الخيول ، يعرف انسابها واعمارها ، وبكم بيعت مثيلاتها هنا وفي اماكن اخرى ، من باعها ومن اشتراها . ويعرف الابل القوية ، يعرف صحتها ومرضها ، وكيف يجب ان تعالج ومتى . فاذا وقع الخلاف حول الماشية التي سافرت او جاءت ، ونصيب كل واحد من الذين شاركوا فيها ، فان الذي يفصل في هذا الخلاف ويقبل حكمه دون مناقشة طويلة ودون اعتراض ، هو شمران . أما تلك الشرائع الضمنية التي تحكم علاقات الناس ، وتحدد ما لهم وما عليهم دون ان يعرفوا كيف جاءت هذه الشرائع او لماذا ، فان شمران ، الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، واحد من القلائل الذين تسمع كلمتهم ويؤخذ برأيهم .

وما يقال ايضاً عن انساب القبائل والقرابات او الخصومات التي تقرّب او تباعد اذا نسيها الكثيرون ، او اختلطت وقائعها في ذاكرتهم ، فعند شمران الخبر اليقين والمعرفة الاكيدة .

لم يكن شمران غنياً ، ولم يكن فقيراً ، انه من الآلاف الذين يعبرون هذه الحياة دون ان يسألوا ، ودون ان يتساءل غيرهم ، كيف يتوافر لهم الرزق ، لانه غالباً ما يتوافر ، نتيجة الصدفة او الحظ ، او نتيجة تواضع المطالب والاكتفاء بما هو موجود ، او ربما بهذا التنظيم الخفي والحرص الذي لا يصل حدود اللجاجة ، فلو لم يكن لشمران هذا العدد من الاولاد ، ولكل واحد منهم ، منذ وقت مبكر ، عمل يعرفه ويثابر على القيام به ، دون ايعاز ، لما استطاع هو ان يقضي هذه الساعات الطويلة في السوق ، في مكان لا يغيره :

كـان يجلس في ظل سـور المسجد ، والى هـذا المكان يـأتيـه الـذين يـريـدون مشورته ، والـذين يريـدون سؤاله ، او اولئك الذين لا عمـل وارءهم لكي يتحدثوا او لكي يستمعوا الى الاحاديث التي تدور .

ومن خلال الاسئلة او بسماع الاحاديث ، تُعرف اخبار القوافـل وحالـة السوق ، فيقرر الواحد ما اذا كان عليه ان يبيع او ان يشتري ، او ان ينتظر . وما يجب ان يفعله هذا اليوم او في يوم آخر .

فاذا لم يكن اليوم يوم السوق او يوم وصول احدى القوافل ، واذا لم يكن الفصل شتاء ، فان شمران الـذي يصلي المغـرب في المسجد ، يكـون نهوضه للصلاة ايذانـاً بانتهـاء يومـه . ولا بد ان يتحـرك لكي يقضي هذا الـواجب بسرعة ، ثم يشق طريقه وسط المقبرة ، في مسلك لا يغيره ، ولسانه لا يتوقف عن ترديد تمتمات الرحمة ، فاذا اقترب من السور الغربي يرتفع صوتـه بشكل واضح ، لان هناك قبر ابيه ، حتى اذا تجاوز المقبرة اتجه الى بيته ، قاطعاً موران من شرقها الى غربها .

الأيام التي غاب فيها شمران عن السوق قليلة ، والأيام التي لم تنقل عنه قصة او خبر اقل . واذا كان بحضوره لا يثير تساؤلاً او لا يلفت النظر ، فان غيابه يثير تساؤل الصغار والكبار ، ويشكل هذا الغياب فجوة في سور المسجد وفي السوق كله . ويؤكد الكثيرون أن الصمت كان يرين مثل ظل ثقيل وحزين على السوق حين يغيب .

بمقدار الثبات الذي يخلقه شمـران في سوق الحـلال ، ويعطيـه ملامـح شديدة الظهور ، فان صالح الرشدان ، او كما يُلقب بصالح النذير ، يشـاركه في ذلك، بل ويزيد عليه ، لانه وحـده الذي يخلق في السـوق من الصخب والهرج ما لا يخلقه الآخرون مجتمعين .

مهنة صالح الاساسية : « حذو الخيـل » ، هكذا يجيب حـين يسأل عن عمله ، يجيب باصرار وسخرية معاً . علماً بانه لم يشاهد ، ولو مـرة واحدة ، يحذو حصاناً . اكثر من ذلك لا يقترب منه اصحاب الخيـول ، سواء اكـانت معهم خيولهم أم لم تكن ، خشية ان يدعي يوماً انه حذا خيولهم او اعطى رأياً فيها !

اذا قلّت الحمير ، او حين يؤجل اصحابها حذوها اسبوعاً بعد آخر ، لفقرهم ، اولانهم لا يعتبرون الامر هاماً ، فلا بد ان يجد صالح ما يفعله .

خلال شهر رمضان ، من كل عام ، وايام الاعياد ، يهجر صالح سوق الحلال ، لا يعترف بوجوده ، بل ولا يقترب منه ، لان لديه عملاً خطيراً يشغله ، اذ يحمل طبلاً ويدور في شوارع موران ، وحوله عدد يتزايد كل لحظة من الصبية يصخبون ويتضاحكون ، وهو بانفعال ولذة ، وبتوقيع خاص يدق على الطبل دقاً موصولاً ، مع كلمات هي بين الادعية والشتائم يوجهها الى الكثيرين باسمائهم . وفي الليل المتأخر، يرتفع صوته اكثر مما يرتفع في النهار ، وقد شابه الغضب او جدية مبالغ فيها ، خاصة حين لا يجد الاستجابة كافية لطبله او لصراخه، طالباً من النيام ان ينهضوا «لان الحياة قصيرة. وعلى الناس ان يقضوها في الصلاة والعبادة ، لان الموت ينتظر الجميع والحساب على الابواب » .

فاذا انتهى رمضان وانتهى العيدان ، ويكون صالح عادة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من رمضان ، اضافة الى ايام الاعياد ، حاملاً علماً اخضر ، وقد ثبته في وسطه بطريقة ماهرة ، خلال هذه الأيام يكون قد جمع كميات من الحنطة والشعير ، زكاة او فطرة ، ولذلك ينصرف الى توزيعها بخفاء ودهاء على المحتاجين . كان هذا العمل يرهقه الى أقصى حد . اذ بعد ان يصرّ كميات الحنطة والشعير على شكل صرر ، تتناسب مع عدد افراد العائلة المحتاجة ، ويصفها بانتظام ، وقد علّمها بخطوط وحده يعرف معناها ومن تعني ، وبعد ان يحسبها عشرات المرات ، ويستعيد في ذاكرته اسماء الذين ستوزع عليهم ، يقوم بتوزيعها دون ان يحس به احد . ويستغرق هذا الامر اياماً ، يعود بعدها الى السوق ، وقد هيأ نفسه لعمل طويل مرهق ، بعد ان غاب عن السوق طوال هذه الفترة .

اما لماذا ينظر الناس الى صالح على انه مجذوب موران او احد مجاذيبها ، فلأن التصرفات والقيم التي يتصرفها او تملأ رأسه ، وتلك الكلمات والاحكام التي يطلقها ، خاصة على الكبار والاغنياء ، وما يرافق ذلك من مزاح في العمل والعلاقات ، اضافة الى كمية كبيرة من الاختلاقات والاكاذيب والمتاعب ،

جعلته في نظر الكثيرين هكذا .

يروون عنه انه يحدّث الحيوانات والحجارة ، ويرفض ان يتحدث مع البشر الا في الامور الضرورية . فحين يأتي صاحب حمار بحماره، لكي يحذوه، كان يتحدث الى الحمار ويسأله اكثر مما يتحدث مع صاحبه يسأله : « هذون الظّلاّم مو بس تاعبيك ، لاعنين والد والديك ، مدبّر ومشيلين عليك احمال ربنا ، وبهذي الدنيا الواحد يظلم الثاني ، وانت الوحيد المظلوم وما تظلم » ويهز رأسه اسفاً ويتلفت الى ادواته ، وبعد ان يهيئها يبدأ العمل والحديث معاً : « لا تظل حمار طول عمرك ، يبّس رأسك ، عاند ، والبط ، واذا رفست عوّر ولا تخف » فاذا ضحك صاحب الحمار يلتفت اليه صالح بنصف وجه غاضب ويخاطبه ، وتخرج الكلمات من بين اسنانه :

ـ خلوا بقلوبكم رحمة ، قولوا هذا الله خلقه ولازم يستريح .

فاذا رد صاحب الحمار او ظل يبتسم ، يترك صالح رجل الحمار ويلتفت اليه :

ـ تقول : حمار . . وما يفهم ؟ تقول حمار ولازم يحمل ؟

وحين لا يسمع رداً يتابع :

ـ لولا الدواب اللي الله خلقها ، لولا الحلال ، ما كنتم تساوون شي يابني آدم !

المرات التي غضب فيها صالح الرشدان ، نتيجة كلمة او تصرف ، لا عدد لها ، فهي من الكثرة بحيث تحصل كل يوم . وعندما يغضب يتوقف عن العمل ، لا يواصله في تلك الساعة اياً كانت المرحلة التي وصل اليها ، وبعض الاحيان لا يواصله ما دام الرجل الذي امامه هو صاحب الحمار ، مما يضطر صاحبه ان يسحب حماره لمسافة معينة فيسلمه الى آخر ، متظاهراً انه باعه ، وان هذا الآخر قد اشتراه ، لكي يعاود صالح العمل .

أما المبلغ الذي يتقاضاه اجراً فانه يتفاوت من واحد الى آخر ، ومن فترة لاخرى ، « من صاحب الحمار . . لان الأجرة مثل الزكاة ، كل واحد وما

ملكت يمينه » فيتقاضى من الميسورين اكثر مما يتقاضى من الفقراء ، وبعض الاحيان يتعامل بالجملة ، حيث يدخل حمار احد الفقراء ضمن حمير الآخرين ، ويتقاضى عنه اجراً من القادرين .

انه يفعل ذلك عن قناعة . . وعن دهاء ، فاذا سئل لماذا يفعل ذلك ولماذا يميز بين الناس بهذه الطريقة يجيب بصوت رخو ساخر :

ـ اللي ما يعجبه . . موران وسيعة وخله يلهم الرمل الى ان يشبع !

تعود عليه الناس والفوا طريقته ، ولذلك كانوا يتخذون من هذه المناقشات او المساومــــات وسيلة للثرثرة وقتل الوقت ، او ليخرجوا صالح عن طوره ، وعندها يبدأ بالشتيمة ويملأ الزبد شدقيه ، يرمي حطته على الارض ، مهدداً متوعداً ان يتوقف عن هذه المهنة « ويقطع اهل موران » عند ذاك يتراجعون ، اويتظاهرون بالتراجع . كانوايقولون له كلمات كبيرة مليئة بالمبالغة في محاولة لاسترضائه ، يشيدون بكفاءته وبالمهنة التي لا يحسنها غيره ، ومدى الاهمية والفائدة التي تعود على موران من قيامه بها ! وبعد وقت مليء بالاستغفار ومناجاة الله يوافق ويعود الى مواصلة العمل . . .

ولان صالح الرشدان هذا النمط من البشر فقد اصبح جزءاً حياً قوياً من موران ، يسأل الناس عنه ويمازحونه ، بل ويأخذون رأيه بالقضايا الكبيرة التي تجري حولهم : « الدوسري اشترى موران كلها ويريد يرحل اهلها ، ويش تقول يا صالح ؟ » « موران لاهلها ، لا للدوسري ولا لغيره . والناس ما ترحل » « لكنه اشتراها » « اشتراها ما اشتراها اتركونا من سوالف المجانين . . موران بمكانها لا تروح ولا تتغير والدوسري هو اللي يروح ويرحل » .

فاذا وصلت خيول الى السلطان وانتشر خبر وصولها فلا بدّ ان يبحث الكثيرون عن صالح : « القصر يسأل عنك يا صالح ، وطويل العمر قال : خلي ابن الرشدان يصلنا ويكون قريباً منا ، لان الخيول ما احد يدبرها غيره » كان ينظر الى الذين يتحدثون اليه غير مصدق ، فاذا أكّدوا له بالايمان كان يرد : « طويل العمر يعرف مكاني ، اما يجي او يبعث لي طارش بقرطاس وختم . . وبعدها نشوف » « هذا الكلام ما يصير يا صالح ، وطويل العمر زعول »

« الغضب رأس الحماقة ، والكبير هو الصغير ولازم يسأل » « لكنك تعرفـه يا صالح » « وهو يعرف ابن الرشدان ! » .

الى جانب شمران وصالح في السوق عبيد الطويل : قصير ، سمين بعينين صغيرتين مليئتين بالمكـر والسفاهــة ، من يـراه اول مـرة يظنـه شيخ السـوق واغنى من فيه ، فحركتـه الدائمـة السريعـة بين المشتـرين والبائعـين ، وتلك الكلمـات التي يوجههـا الى هذه المجمـوعة او المجمـوعة الاخـرى ، وبصيغة الامر ، طالباً سرعة البت في العرض الذي يقدمه او يوافق عليه تجعل الناس في حيرة من امره : « علينا . . الرأس بثلاثين ، اذا بعتم اشترينا » وحين يصمت من يوجه اليه الكلام يصرخ « ثلاثين ونص » فاذا اشاح الآخر بوجهه يصـرخ مرة اخرى « واحد وثلاثين » فاذا ردّ عـليه مرة بهزة رأس وابتسامة يصرخ عبيد من جـديد « بـع احسن لك ، يـا ابن الحلال . . وهـذا هو سعـر السـوق » ويتـظاهر انـه نفض يده من هـذه الصفقـة ، فيتحـرك الى الجهـة الاخـرى ، ويخـاطب المجموعـة الثانيـة « يا جمـاعة . . الغنم طيبـة ، شبعانـة ، والراس منها يسوى اربعين» «انت تريد تبيع او تشتري يا عبيد؟ الغنم جلد وعظم وما تسوى شي ابداً . . اذا باعها بثلاث وثلاثين اشترِ» « يـا جماعـة الناس حـوله ويمكن يشرون منه باكثر» « سمه من جديد . . ونشوف » .

ويدور عبيد في السوق ، لا يذهب لمساومة جديدة مباشرة ، يجب ان يتأكد من المنافسين الموجودين ، وما هي احتمالات الاسعار ، فاذا مر بعض الوقت وتأكد يعود بهجوم جديد : « اذا بعت ، يا ولد ، بسومنا أحسن لك » « يفتح الله » « السوق ميت واللي دفعناه ما تحصل عليه من غيرنا » « رح من وجهنا يا رجال وخلنا نترزق » « اسمع . . السعر اللي ادفعـه هالحـين هو آخـر سعر : اثنين وثلاثين » « بعدك بعيد . . . بعيد ، وهذا سوم واحد ما يريد يشري » .

ويعود عبيد الى جماعته مرة ثانية : « يا جماعة : شمري ابن حرام ، يعرف غنمه ويعرف السوق ، وانا رأي ان تقووا قلوبكم وتوافقوا على سعر الاربعين » « يا ابن الزمار . . انت معنا او مع الشمري ؟ « معكم او مع الشمري ؟ الله منكم يا أهل موران . . لا تحللون ولا تحرمون ! » .

وتظل المساومة قائمة وعبيد يدور مثل المكوك بين الطرفين ، ويزحف السعر قليلاً والشَمري لا يتكلم ، يهز رأسه بعد كل سعر جديد يقدمه عبيد دلالة الرفض ، فاذا الحّ عليه عبيد اكثر تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة ، مع كلمة لا يتعب من ترددها : « بعيد . . بعيد » فلما وصل السعر الى الخمسة والثلاثين ، وكان هذا أقصى سعر يمكن ان يوافق عليه اثنان من اهل موران كلفا عبيد ان يتم الصفقة لحسابهما ونيابة عنهما ، قال عبيد للشمري بيأس مرير : « تظلون بدو . . لا تعرفون تبيعون ولا تعرفون تشرون ، والسعر اللي دفعته ما احد يدفعه ، لكن الظاهر ما لك نصيب ولازم تنتظر الخميس اللي يجي وتبيع بعشرين » وزفر عبيد وسأل : « ها . . بعت باربع وثلاثين ونص ؟ » « بعيد . . بعيد » « بخمس وثلاثين ؟» « الله يبارك لك » .

هكذا بشكل مفاجىء ، داهم ، وكأنه مزنة من مزن الربيع، حيث لا يتوقع من يراقب هذه المساومة الطويلة الشاقة أن يتنازل ذلك البدوي قيد أنملة نجده يوافق وتتم الصفقة . وهنا تبدو قدرة عبيد في التسلط والسيطرة، حيث يوجه اوامر حازمة الى الفريقين ان ينتحوا جانباً مع الغنم ، وان يسرع المشترون بتسليمه المبلغ ، فاذا استلمه وضعه في جيبه وطلب ان تعدّ الغنم اكثر من مرة ، أما البدويّ الذي لا يُعّتد بالرقم الذي ذكره ، وظل يعيده ويراقب بانتباه غنمه وهي تسحب منه ، فيصبح خائفاً متحسباً ، ويظن انه وقع ضحية مؤامرة محكمة، خاصة وان عبيد الذي وضع الفلوس في جيبه بدأ يتحرك هنا وهناك ويسأل ويستفسر ! وانشغل المشترون بالغنم يتأكدون من جودتها وسمنتها . خلال هذه الفترة الصعبة من الانتظار والخوف يصرخ عبيد على البدوي طالباً منه ان يتبعه . وفي ظل جدار المسجد يجلس ويطلب منه الجلوس ، وبعد ان يستفسر منه عن عدد الغنم وبكم باعها وكم يصبح ثمنها ، تبدأ عملية العد الطويلة الشاقة ، لان لكل منها طريقته في الحساب . فاذا انتهت هذه العملية ، مستبقياً عبيد قسماً من المبلغ معه ، تبدأ المفاوضات حول ما يستحق له عند هذا البدوي ، واغلب الاحيان ، ضمن جو الخوف والارتباك ، يحصل عبيد على اكثر مما توقع ، ولا يعرف البدوي هل اعطاه كثيراً او قليلاً ، لان الامور اختلطت عليه .

ومثلما انتقل عبيد مرات كثيرة من اجل اتمام الصفقة ، وبعد ان ينتهي من البدوي ، الذي يشبهه القمري كما يصفه ، لانه لا يعرف متى يأتي ومتى يذهب ، ينتقل الى الذين كلفوه بالشراء ، ومع هؤلاء يلجأ الى السفاهة اكثر مما يلجأ الى التخويف :

ـ لولا ان عبيد قطع قلب هذا المسكن اللي يريد يرجع لاهله ما باع باقل من اربعين !

وبعد ان يترك هذه الكلمات ، التي يكررها باكثر من طريقة ، اثناء ما يتحسس ظهور الغنم والياتها ، تستقر في عقول الذين اشتروا ، يتابع بسخرية :

ـ وهالحين لعبّوا اصابعكم ورضّوا عبيد !

فاذا تأخروا او بدا عليهم التردد والانشغال يغيّر لهجته :

ـ وهذا شمران ، ابو نمر ، قرّيب ويعرف .

ولكي لا يتركوا عبيد يستعمل كل مهارته او كل سفاهته ، يصرخ احدهما في وجهه :

ـ اسكت هالحين ، يا ابن الحلال ، وخلنا نشوف دربنا .

وحين يتطلع عبيد باستغراب يضيف الآخر :

ـ لا تخف، يا رجّال ، ما تكون الا راضي .

يرد عبيد بسخرية :

ـ هذا الكلام ما يفيد ، ما يوكل خبز ، يا الله لعبوا اصابعكم وطلّعوا فلوسكم .

ـ اصبر يا ابن الحلال ، وكّل الله !

وبدهاء ومماطلة يسحب احد الشريكين الغنم ويتأخر الثاني لمفاوضة عبيد ، وبكثير من الجهد والصراخ والغضب ، وبعد أن يتجمع الناس غالباً، تنتهي الامور بان يحصل عبيد على ما يريد .

المبالغ التي وصلت الى يدي عبيد كبيرة ، وان كانت متفرقة ، وربما كانت تكفي لان يبدأ عملاً اكثر راحة ، ويمكن ان يجنّبه هذا الركض في السوق، لكن هذا العمل يستهويه ، يجعله ، بنظر نفسه ، سيداً .

يقول عنه شمران : خباص . ويصفه الذين يسخرونه ، ويحتاجون الى خدماته بانه ابو السوق . أما الذين يكرهونه فانهم لا يترددون في ان يقولوا عنه حيّال وزمار .

وفي سوق الحلال بموران عدد كبير من الاشخاص ايضاً ، لكن ملامحهم تغيب وتظهر، إمّا لانهم لم يمارسوا اعمالاً ثابتة وإما لانهم تحولوا عنها، وبعضهم لم يتردد في السفر . مرّ في السوق جمعة ، الطبيب الاسود الذي كان يداوي الجمال. ومرّ اخوان اثنان كانت مهنتهما القصابة لانه كثيراً ما كانت تجري عمليات الذبح في السوق ، لكن ما كادت موران تتغير قليلاً حتى تحول الاخوان ، فاصبح احدهما صاحب مطعم والثاني سائق سيارة . ويمكن ان يقال الشيء ذاته عن أبي غريفة ، الذي كان يصنع القهوة ويدور بها في السوق او يقف على باب المسجد ، لكن لم تمض فترة حتى التحق بحاشية السلطان خزعل واصبح شخصاً مختلفاً تماماً .

كل ذلك جزء من تاريخ موران الذي بدأ يغيب ويختفي من ذاكرة الناس ، اذ ما كادت بضع سنين تمر على تولي السلطان خزعل حتى جاء ابو غريفة ذاته ، وعن طريق جويبر الضويحي ، منادي حران، يبلغ المصلين الذين يخرجون من المسجد ان السوق بدءا من الخميس اللاحق سيكون في العوالي ، وان على الحاضر ابلاغ الغائب . أما اصحاب الدكاكين فقد ابلغو عن طريق الشرطة وطلب اليهم ان يرحلوا .

قبل ان يقف جويبر الضويحي ، منادي موران ، تلك الجمعة ، عند باب المسجد ، ويبلغ الخارجين من الصلاة ، ان سوق الحلال سينتقل الى العوالي ، وعلى الحاضر ان يبلغ الغائب . . قبل هذا وقعت امور عديدة : فالحكيم الذي غاب من ذاكرة الكثيرين ، وكاد يُنسى ، حتى شمران كاد ينساه ، او بالاحرى لا يتذكره الا كما يتذكر مرضاً قديماً ، جاء الحكيم بزيارة الى سوق الحلال ، جاء قبل ثلاثة اسابيع من قرار نقل السوق .

الوقت بين العصر والغروب ، شمران في ظل سور المسجد ، يستمع اكثر مما يتحدث ، واليوم من الأيام العادية ، فلا هو الخميس ، ولا يوم وصول قافلة من القوافل . ترك الحكيم سيارته بعيداً ، ونزل مع ثلاثة من رجال القصر ، واعطى لزيارته طابعاً من البساطة ، اذ توجه اول ما توجه الى المسجد . صلى هناك ركعتين تحية للمسجد ، وبقي بعد الصلاة فترة غير قصيرة في حالة اقرب ما تكون الى الابتهال والخشوع ؛ فما ان نهض واتجه غرباً ، قاطعاً السوق من اوله الى نهايته حتى قال شمران ، الذي ظل يراقبه بصمت اقرب الى الذهول ، وكأنه لا يصدق ما يرى :

ـ ما هي كل صلاة صلاة يا جماعة الخير . . .

ولما نقلّوا نظراتهم بينه وبين الحكيم الذي كان يبتعد قليلاً قليلاً ، لكن لا يكف عن النظر في الوجوه ويبتسم ، حتى تابع شمران :

ـ وهذه الصلاة ما هي لله !

واذا كانت قد انقضت زيارة الحكيم دون ان تترك اثراً او تخلف هماً في قلوب الكثيرين ، لانه لم يتخللها حديث او سؤال ، واتسمت بتلك البراءة والتقوى ، فان الهم دخل الى قلب شمران ، وبعد ايام اصبح خوفاً .

اذ لم تنقص بضعة ايام على هذه الزيارة حتى جاء الامير ميزر بزيارة مماثلة ، لكنها اتسمت هذه المرة بالكثير من المظاهر والاهتمام والضجة ، وطالت اكثر من زيارة الحكيم ، كما تخللتها الاحاديث والاسئلة والامازيح ايضاً .

دخل الفرح الى قلوب الكثيرين بعد زيارة الامير ميزر ، لانهم تذكروا اياماً قديمة ، ايام كان السلطان ذاته يأتي بزيارات الى سوق الحلال . تذكروا كيف كانت تجري الاحاديث ، وكيف كان الناس آنذاك ، خاصة وهم يسمعون الامير ميزر يقول ، ان مياه المواسير سوف تصل السوق ، وان السوق سيتحول الى مرج اخضر ، بحيث من يصله او يراه بعد سنة او سنتين لن يعرفه . قال كل ذلك بلهجة مرحة تخللتها الضحكات الصاخبة ، الأمر الذي جعل العديدين يشاركون ويتحدثون . أما شمران الذي ظل في مكانه ، قرب المسجد ، وكانت تصل اليه ، من بعيد ، ضحكات الامير والصخب الذي يتولد من احاديث الرجال واسئلتهم حوله ، فقد اصبح همه خوفاً في هذا اليوم . قال لنفسه « صار سنين ما شفناهم ولا سمعنا سوالفهم وما اظنهم اليوم احسن من الامس »

وفي اليوم التالي لهذه الزيارة تماماً ، وكان يوم اربعاء ، وسوق الحلال بين العصر والغروب يعج بالرعاياوالبشر ، ويختلط فيه الذين يريدون البيع مع الذين يذرعون السوق من بدايته حتى نهايته ليعرفوا حالة الاغنام وليتأكدوا منها قبل ان يقرروا الشراء في اليوم التالي ، في هذا اليوم وصل الامير ميزر ومعه الأميران فواز وملحم، ورغم الضجة التي رافقت مجيئهم، إذ دخلوا بسياراتهم الى وسط السوق ، الا ان ضجة البشر والنداءات ، اضافة الى حالة الهياج التي ميزت الابل ، نتيجة الصراخ والزحام ، جعلت الزيارة تمر دون أن ينتبه اليها الكثيرون .

الزيارة لم تفت شمران ، صحيح انه عرف بها قبل ان تنتهي بوقت

قصير، لكنه ما كاد يعرف حتى ترك ما كان فيه من حديث ولجّ في البحث عن صالح . كان صالح منهكماً الى اقصى حد بحذو حمار ، فلم يفطن إلى ان شيئاً غير عادي يجري في السوق، ولم يفطن إلى أن شمران فوق رأسه يناديه . .

لما رفع رأسه ورأى شمران تساءلت عيناه ، قال له شمران بلهجة هي بين الحزن والسخرية :

ـ أبشر يا صالح ووّلم نفسك .

ولما ظل صالح صامتاً وعيناه تتساءلان ، تابع شمران :

ـ قبل كم يوم جانا الشيوخ ، وانت تخبرهم ، واليوم جاء اخوان طويل العمر ، وباكر او اللي عقبه يجينا العود الكبير ، وانت بعد اليوم ما لك شغل الا بالصقلاوية والحمدانية ، وبك حيل وقصّ فلوس !

ـ هذي بعيدة عن حلوقنا يا ابو نمر .

ـ ناظر وشف : الجماعة بالدشاديش البيض مثل العرسان ، وما تركوا احد بالسوق الا وسألوه ونشدوه : كيف انت وشلونك ، وبعدها ما يندري !

تلفت صالح اكثر من مرة وفي اكثر من اتجاه ، لم ير شيئاً غير عادي ، لان الزحام في تلك الساعة كان يحد من الرؤية ويجعل الاشياء والاشخاص في حالة من التداخل لا تمكّن من التمييز . وحين ارتدت عينا صالح الى شمران ، قال له :

ـ الله يسترنا من الثالثة !

لما تأكد صالح ان شمران جادّ في كلامه ، رمى المطرقة التي كانت في يده ، وفرك كفيه وقال :

ـ تذكر ، يا ابو نمر ، امس ، ذاك اليوم ، كان خريبط يجينا للسوق ، تذكر ، وكان صوته يهدر : «يا جماعة الخير ، يا ولاد الحلال ، اشهد بالله انكم تحملتم الكثير وما بقي الا القليل ، فاذا خلصنا ابشروا ، ما ننسى لواحد منكم افعاله وافضاله ، بس اليوم تريد معونتكم ، يا نشامة ، يا اجاويد» . وراح يوم وجاء يوم ، اللي انقتل انقتل ، واللي ترك وراه ايتام ترك ، وخريبط لما

صار سلطان ملح وذاب، نسي كل شيء. ولما جاء نوبة أو نوبتين للسوق: « الله يعطيكم العافية ، شلونكم ، وفي امان الله » . أما اذا سأله احد فيرفع صوته فوق كل الاصوات : « حنا بحد السيف اخذنا . وحنا اللي عفينا وسامحنا . . وحنا وحنا » . والناس اللي حاربوا ، اللي تحملوا وماتوا ما عاد يذكرهم . كان يضحك على الجميع بالكلمة الزينة ، يقول : « اشهد بالله انكم نشامة واهل مروة » . لكن بعد هذا الكلام ما يلقي الواحد شيء ابد .

وتغيرت نبرة صوته :

ـ الله كم موران شافت !

رد شمران بحدة :

ـ يلزمها تشوف اكثر !

ضحك صالح وتابع :

ـ لا تخف ، يا ابو نمر، تشوف . . . . واذا ما خربت ما تعمر . .

وبعد قليل :

فمن ظن ان الدهر باق سروره   فذاك محال لا يدوم سرور

استراح صالح اكثر مما يفعل عادة . ونتيجة الحاح صاحب الحمار قام الى عمله من جديد ، لكن ظل يردد : « . . لا يدوم سرور . . . اي نعم لا يدوم سرور » وحاول ان ينتهي بسرعة ليعرف اي شيء حصل ؛ اذ ادرك ان اليوم يختلف عن ايام غيره ، واحس ايضاً ان شمران بحاجة اليه لان « ابو نمر وتد السوق ، وهو السراج والمطر »هكذا يصفه صالح ان كان راضياً عنه ، أما اذا لم يكن فانه يصمت ، لا يجيب ، عكس موقفه من اشخاص آخرين .

العلاقة بين الاثنين خاصة وغريبة ، كما انها تختلف عن اية علاقة بين اثنين . واذا كانت لشمران ذاكرة تشبه الارض والمطر ، فان صالح لا يقل عنه ، يعرف الناس من اصواتهم ، اذ يميزهم دون ان يرفع رأسه ، كما يشم رائحة المطر قبل قدومه بساعات ، يحرك انفه بطريقة عصبية ، كما يفعل الارنب ، ثم يأتي صوته : « يا جماعة الخير : المطر علينا او حوالينا » أمّا اذا

توقع الغبار« احذروا وتوقوا يا جماعة الخير :غبار ونفار وقلة رزق » يعرف ذلك من حركة الريح ، ومن ذلك الحدس الباطني الذي لا يخطىء .

هكذا كان صالح بالنسبة لسوق الحلال ، ولانه لا يخاف ولا يتردد ، يلجأ الآخرون الى تحريضه ، فما ان يسمعوا خبراً حتى ينقلوه اليه ، وعند ذاك يبدأ ولا يهدأ .

في وقت من الاوقات لم يكن الامر يتعدى المزاح ، واقصى ما يصله التعريض ؛ فحين جاء من قال ان السلطان بدأ يلبس الحرير والقصب ، قال صالح كلمة انحفرت في ذاكرة الناس ، قال :

ـ خذوا بالكم يا اهل السوق . . ترى اول الرقص حنجلة !

أما عندما شاع خبر زواج السلطان بامرأة نصفها شركسي ونصفها عربي فقد رفض صالح ان يعمل ذلك اليوم ، قال للذين سألوه :

ـ اتركوا البيع والشراء يا اهل السوق ، لان اليوم يوم التعريس !

وحين استغربوا وتجاهلوا اجابهم بغضب :

ـ ابوي هو اللي عرّس ، اخذ واحدة بدوية وبطنها تانية حضرية . ويفهم الناس من يعني وماذا يعني ، وحين يأتيه الصوت :

ـ يا ابن الرشدان قل الله يعطينا ، ولا تحسد الناس .

يرد وهو يضحك :

ـ تطلع براس الواحد منكم نخلة وما يحصل !

ويقهقه الذين يسمعون ، وبعد ان تتراجع القهقهات والابتسامات ، يغرقون في التفكير او يسأل بعضهم بعضاً او يتساءلون .

هكذا كان صالح ، وموران التي احتملته وجدت فيه تغييراً من الرتابة التي كانت تلّفها ، وكانت تقول من خلاله ما لا تستطيع ان تقوله مباشرة او علناً ، فان بعض العقلاء كان يلح على صالح ان يهدأ وان يكف ، او « ان يضع في جيبه حجراً يثقله » ، لان القصر اذا صبر واحتمل ، او تظاهر انه لم يسمع ، فلا بد ان ينتهي صبره ذات يوم .

أما صالح فلم يفترض ان القصر يمكن ان يخاصمه او ان يكون خصماً« القصر قصرنا ، والدولة دولتنا يا جماعة الخير ، ولولانا . . خريبط وابن خريبط من هم ؟ حنا ما نريد القصر لابن الخايبة او ابن العايبة ، نريد القصر للرحمان » والعجرمي يسمع ما يقوله صالح فيرتفع صوته : « مثل ما قلت لكم : هذه ديرة ايمان وابد ما تصير ديرة كفر ، وذاك الابيض المرقّش ، اذا تحملناه اليوم باكر يطيح وتنكسر رقبته . . وروحوا للشيخ صالح الرشدان واسمعوا ويش يقول ! » .

وبين سوق الحلال وموران تنتقل القصص والنكات والاشاعات ، لكن هذه الامور كانت تضحك الناس اكثر مما تثيرهم ، وتجعل الحياة اقل قسوة واكثر مرحاً . فاذا قصّ السلطان لحيته او بدل هيئته ، اذا تزوج او جاءه غلام جديد ، واذا مرّ موكبه متوجهاً الى هذه الناحية او الى تلك ، كان صالح لسان السوق «يا جماعة الخير . . . من يوم ما جاء ذاك وصار كل يوم يلبسه ويعطره ويدندشه ترى صرنا مثل بول البعير . . كل يوم لورا » .

ويعرف الناس ان السلطان قصّ لحيته ، او انه بدا بملابس جديدة ، مختلفة عن السابق ، فاذا سمع العجرمي يرتفع صوته : « هذا الدرويش ، يعني صالح ، يده مربوطة بالسماء ، ودعاه مستجاب » .

وينظر الناس الى صالح وينظرون حولهم ، وصالح يتزوبع يوماً بعد آخر ، تصبح كلماته نذيراً بعد ان كانت تحذيراً : « الحقوا حالكم يا اهل موران ، الدنيا مصبحة مسّية ، اذا ما قامت القيامة اليوم تقوم ثاني يوم ، واذا ما متم موت الله تموتون موت العبد ، المال ما ينفع ، والدنيا فانية والبني آدم ذرة بهذا الكون وما يلزم ان يأخذه الغرور ، وكل نفس ذائقة الموت ، وعندها لا ينفع لا مال ولا بنون ! » .

في ذلك المساء ، بعد ان غادر الامراء ، وهدأت ضجة السوق ، واذ تأخر شمران ، خلافاً لعادته ، وبعد ان وصل صالح وعرف ما حصل قال يخاطب شمران والذين حوله :

- من يوم ما وصلنا الاغراب ، وصاروا له مثل الجفن للعين . .

واشار الى قصر الغدير لتأكيد من يعني ، ثم تابع :

ـ تراها خاست ، وباكر ، اذا عشتم ، تشوف عيونكم !

أمـا بعد ان تقـرر نقل سـوق الحلال من مكـانه ذاك الى العـوالي ، فان الصدمة التي حلّت بشمران كانت أكبر من أن يتحملها. وصالح الذي رفض الامتثال للأمـر ، وظل لاسـابيع لاحقـة يصرّ على المجيء كـل يوم الى السوق ، فيفرد ادواتـه ويشعل نـاره ، فما لبث ان اضـطر الى هجره في وقت لاحق ، بعد ان هجره قبله كل من كان فيه ، وبعد ان وصلت الآلات وبدأت عملها .

محبة شمران للخيل تفوق اية محبة ، وتعلقه بها يفوق تعلقه بـاي شيء ، « لان بنواصيها الخير الى يوم القيامة » يقول شمران ان الـرسول هكـذا قال ، ويضيف « واذا ضاق صدر الانسان او ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغيّر اهـلاً واحبـاباً واوطـاناً » وبعـد قليل يهمس ، كـأنه يتـآمر : « ويجي بهـا واحد من الاحمرين : الدم او الذهب » ويبتسم وهو يختم كـلامه : « ومـا يندرى يمكن يجي بها الاثنين جميع » .

أما السلطان فانه بنظر شمران ظالم حتى لو عدل « يحب الملك اكثر مما يحب الرعية ، ويحب نفسه اكثر مما يحب ربه » .

لم يورث شمران ابنـاءه الخيل ، لان ما كان عنده منها اكلته نيران العصر الجديد ، ولكنه ورثهم معاداة السلطان ، وقد تأكد هذا العداء واصبح نهائيـاً حين اجبر على ان تشترك خيله ، وكان عنده اثنان من اطيب خيول موران ، في سباق الرحبـة ، اذ بعد ان حُمّل الحمداني والصقلاوي بسيارة ابن مهيد ، شبّت النار بالسيارة وقضت على الحصانين . يقول شمران ان السلطان طلب من ابن مهيد ان يفعل ذلك ، لكي لا تظهر خيل شمران ولا تفوز ، وابن مهيد قـال امـام الشيخ : « قضـاء وقدر ، يـا مبارك ، وانـا خسـرت اكثر من العتيبي : احترقت سيارتي » لكن لم تمـض شهور حتى كان لدى ابن مهيد ثلاث سيارات ولم يبق لدى شمران اي حصـان ، لان الخيول الاخـرى لم ينتظر ايـاماً لكي يبيعها لشداد المطوع « اذ بعد ما راح الغالي ما عاد شيء بالعين » .

أما الابل التي كانت لديه فالتي لم تضع خسـرت بعد ان مـلأت اللوريات والقلابات موران ، وقلبت عاليها سافلها وليلهـا نهاراً ، ولذلك اضطر ان يبيع الابل لانه لم يعد يملك ثمن طعامها ، ولم يعد احد « يسومهـا مجرد سـوم » . باعها بسعر التراب ، ونام تلك الليلة وشتيمة السلطان لا تنزل من فمه .

أما ما ورّثه لابنائه الاربعة ، او ما ورثوه من اجدادهم دون ان يرغب او يدري ، فكان شيئاً عجباً : ورث نمر العلم ، فهو الوحيد بين اخوته الذي تعلم القراءة والكتابـة . حتى إذا اتقن كتابـة رسائـل المسافـرين وحسابـات سوق الحلال ترك المكتب ، ومثلما كانت لابيه زاوية في سوق الحلال كانت له زواية ، ومثلما كان ابوه يتحدث عن احساب الخيول وانسابها كان نمر يتحدث عن قضايا النـاس ومشاكلهم ، ومثلما تغـير ابـوه تغـير هـو . اصبـح لا يتحـدث الا في السياسة . كـان يقرأ ويسمـع ويستقصي ويتتبع ، بحيث تتجمـع لديـه اخبار موران كلها . ويوماً بعد آخر لم يعـد نمر يكتب الـرسائـل والعرائض فقـط ، اصبح يحّدث اهل موران عن كل شيء ، وبين يوم وآخر اصبح الاسم الذي يعرف به : نمر الجريدة !

أمـا بدر فلم يمسـك في حياتـه قلماً ولم يخط حرفـاً ، استعاض عن القلم بـالمفك ، ولا احـد يعرف كيف تعلم اصـلاح الادوات الكهربـائية او متى ، خاصة الراديو . قال ابوه ، ذات يوم ، لما سئل عن عمل بدر:

ـ لا تتوهموا يا جماعة الخير : بدر ما تعلم الا شيء واحد : تعلم يفسخ ، . وحتى السيارة يفسّخها !

فلما سألوا شمران من جديد ، معتبرين كلامه مزحاً او سخرية ، تابع :

ـ واللي ما يصدق يلزمه يناظر المقبرة حدر درانا ، وبعدها يصدق!

وبدر الذي بدأ هكذا ، حيث « قتل » في رحلته الصعبة عشرات الادوات الكهربائية ، خاصة الراديوات ، ما لبث ان تعلّم . فاية اداة كهربائية ، مهما كانت جديدة ومعقدة ، قادر على اصلاحها ، ويجب ان لا يسأل ما هو العطل او كيف سيصلحه « اترك الماخوذ وارجع بعد ثلاثة او اربعة ايام » وخلال هذه الفترة ، وبمعالجة صبورة ، لا بد ان يصل الى احدى نتيجتين : « هذا ميت قبل

ما يصلني وما منه فائدة » او «دوك شوفه احسن من قبل ام لا ؟ » .

هكذا بدأ ، أما بعد ذلك فقد اصبح اختصاصياً في اشياء نادرة : كيف يتغلب على التشويش الذي يوجه ضد بعض الاذاعات ، وكيف « يسرق » التيار الكهربائي لبيوت الفقراء . كان يفعل ذلك بلذة ، ودون السؤال عن المقابل او النتيجة .

ومثلما سُمّي نمر نمر الجريدة ، فقد اطلقت اسماء عديدة على بدر : بدر راديو : بدر موجة قصيرة ، موجة طويلة ، لكن ظل الاسم الذي لا يفارقه ، خاصة حين يذكر شيء له علاقة بالكهرباء : ابن شمران ، ولا شيء غير ذلك .

الابن الثالث لشمران : نجم .

تربى نجم بين اخواله بني مرة ، ومن بني مرّة اكتسب قصّ الاثر والحذر ومعرفة الآخرين ، ولانه جاء الى موران وعمره عشر سنين ، فقد جاء كبيراً ومتكوناً . كان شديد الحذر ، حتى تجاه اخوته ، وافراد اسرته . كان صامتاً مثل حجر ، وعنيداً مثل جبل . حاول ابوه وحاول اخوته ان يعرفوا اي بشر هو . او ماذا يمكن ان يكون ، لكنهم لم يصلوا الى نتيجة . أما متى تعلم القراءة والكتابة ، وهل تعلمها في موران ام عند اخواله ، فلم يعرف احد . فجأة اكتشفوا انه يكتب ويقرأ ، وليس مثل اخيه نمر يبحث عن الآخرين ليكتب لهم الرسائل والعرائض ، كان يكتب لنفسه ويقرأ دون ان يعرف الآخرون ودون ان يحسوا . واذا كان شمران قد فسر « جفلة » الولد انه لم يألف جوهم لانه عاش عند اخواله . « واتركوه على طبيعته ولازم يصير » ، فقد صار وتكوّن على مزاجه ، دون ان يتدخل احد .

وفي وقت لاحق ، وحين جاء نجم يطلب من ابيه مالاً لانه يريد ان يتاجر ، فلما سأله اي نوع من التجارة يستهويه : الخيل او الغنم ، او البيع والشراء في السوق فقد فوجىء برده ايضاً :

ـ لهذي السوالف اصحابها ، يوبه . . .

ولما نظر اليه ابوه وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته اقرب الى الاستغراب

والتساؤل ، تابع :

ـ بموران كلها ، يا يوبه ، ما يبيع الكتب الا البخاري وابن حزيم ، ويلزم بدل مكتبة ان تكون عشر .

ـ وتبيع القراطيس يا وليدي ؟

ـ ابيع الكتب . . يا يوبه !

ـ وظنك من يشري؟

ولم ينتظر جوابه :

ـ اذا ما كذبني ربي يا وليدي يجوز الوحيد اللي يشري منك اخوك ، نمر ، حتى يسولف الناس ويحوس موران ! .

وضحك شمران بصخب حزين . فقد تعلم ان الناس يمكن ان يتاجروا بالاغنام والارزاق ، ثم تعلّم ايضاً ان هناك من يتاجر بالارض والبناء ، أما ان يتاجر الانسان بالقراطيس فلم يتصور ذلك ولم يتوقعه . ماذا يمكن ان يكون هناك من الكتب غير القرآن وسيرة عنترة والزير ؟ وحتى القرآن يوهب ولا يشترى ، ويحصل ذلك مرة في العمر ، وربما لا يفتح ، اذ يكتفي الناس به بركة ، ومن المفيد ان يكون موجوداً في البيت ، أما غير ذلك فلم يتصور شيئاً ابداً .

الآن وهذا الشاب الذي لا يُعرف كيف يفكر او ماذا يريد يطلب مساعدته ، فهل يستجيب له ام يتخلى عنه ؟ هل يصم اذنيه ويفقده مرة اخرى كما فقده خلال سنواته العشر الاولى ؟

حاول معه ، قال له ان موران بحاجة الى الحلال والارزاق اكثر مما هي بحاجة الى القراطيس ، وان البخاري وابن حزيم يكفيان موران ، ولا يريدان معهما احداً . وقال له ان المصيبة بنمر وبدر تكفي ، ويمكن ان يساعده في رعية اغنام او جمال ، فاذا لم يشأ فالقماش يشبه القرطاس . وموران كلها تلبس ، ولا احد في موران يقرأ . لكن نجم لم يجب ، صمت . وشمران الذي كان يخاف صمت ابنه اكثر مما يخاف كلامه وافق في النهاية . باع واشترى وأمن له ما

طلبه ، وقد ساعده بدر ايضاً ، وقامت في موران مكتبة ثالثة : مكتبة ابو ذر .

أما صالح ، اصغر الاخوة ، فقد تربى مع ابيه ، في سوق الحلال اولاً ، ثم عند شداد المطوع ، بعد ذلك . فحين احترقت خيول ابيه ، وحين هجر ما تبقى له من حلال ، لم يجد غير شداد . بدأ صالح فارساً وسائساً اول الأمر ، ثم ملك ربع حصان ثم نصفه ، ولانه ليس له عالم غير هذا العالم ، اذ كان يعرف كيف يركب الخيول وكيف يروضها ويسوسها ، فقد اعتبره شداد مثل ابنه، حتى ظن الكثيرون ، في وقت متأخر ، ان صالح من آل المطوع .

قامت المكتبة قبل انتقال سوق الحلال الى العوالي بسنة او اكثر قليلاً ، وشمران الذي امّن لنجم ما يحتاجه من مال لكي يبدأ « تجارته » لم يسأل عن هذه التجارة ، فقد كانت عادته الا يتدخل في شؤون اولاده ، لانه يثق بهم ، ولان احداث سوق الحلال واخباره تشغله تماماً . أما بعد ان انتقل سوق الحلال وضاع شمران في موران ، فان من جملة الاماكن التي زارها وقضى فيها وقتاً ، كانت مكتبة ابي ذر .

لم يتصور شمران في لحظة من اللحظات ان ابنه يحسن اختيار العمل الذي يناسبه ، لكنه وافق على اعطاء المال مختاراً ، ومع ذلك لم يوافق على العمل . أما الآن ، وهو يجلس في المكتبة ، ويري ابنه في حركة دائبة ، ويرى الناس يدخلون ويخرجون ، يشترون او يسألون ، فقد لام نفسه انه لم يعرف سوى الخيل ، ولم يتعد سوق الحلال . قال لنفسه بنوع من الحزن « موران اللي نخبرها راحت ، ماتت ، وهالحين بدل موران ذيكماية موران ، وعسى ان الله يجعل خاتمتها زينة ! » .

ومع ذلك لم تستهوه المكتبة ، ولم تستهوه الادوات الكهربائية ، حتى نمر الذي عاش معه في سوق الحلال ، ويعرفه اكثر من اولاده الآخرين ، يجده الآن شخصاً مختلفاً ، ويجد ان همومه وعقله شيء آخر . حاول ان يتذكر كيف كان بالنسبة لابيه وجده ، وللناس الذين كانوا حوله ، وجد ان كل شيء الآن يختلف عما كان من قبل . السيارات بدل الخيل والابل ، البيوت العالية الاسوار والمغلقة الابواب بدل الخيام او تلك البيوت الطينية التي تعتبر جزءاً مما

حولها ، والتي كانت ابوابها مفتوحة باستمرار . والتجارة ؟ والشوارع ؟ واخلاق الناس ؟ وعلاقاتهم ؟ كل شيء تغير ، كل ما كان يعرفه انهار وانتهى ، ولذلك فضّل ان يبقى في المقهى . هناك يمكن أن يجد بعض الذين يعرفهم ، يمكن ان يتحدث معهم او ان يستمع اليهم . انهم يعرفونه جيداً ، يعرفون كيف يتحدثون وكيف يسألون ، وحتى الذين خرّبتهم موران وافسدتهم السيارات تبقى لديهم اشياء كثيرة يمكن ان تقال ، او على الاقل يعرفون كيف يسمعون !

ومثلما حاول ان ينسى خيوله التي احترقت وارضه التي سرقت ، ثم حاول ان ينسى سوق الحلال او ينشغل عنه ، فانه يوماً بعد آخر يحس بانفصال عن كل ما حوله ، اكثر من ذلك يحس بالعداء . وهذا ، او ربما غيره ، جعله يظل بعيداً عن المكتبة ، او على الاقل ، ان لا يقترب منها اكثر مما ينبغي ، كما فعل ايضاً تجاه « المشغل الفني لكهربة السيارات والادوات المنزلية » .

في الماضي ، في سوق الحلال ، كان يحس انه جزء من كل ما يحيط به ، حتى الحيوانات حين كانت تمرض او تتوجع يعرف مرضها ووجعها ، يعرف ذلك من عيونها ، من بخار حلوقها ، كان يتحدث اليها ، يسألها ، وكانت تجيبه . أما الآن فانه يستغرب كيف يستطيع بدر استلام هذه الآلات الجامدة ، الميتة ، وكيف يتعامل معها . كيف يمكن ان تحدثه عن امراضها واوجاعها وكيف يستطيع ان يعيد اليها الحياة؟ والكتب التي يبيعها نجم من يقرؤها من الناس ولماذا ؟ وهل هناك بشر يحتاجون الى مزيد من التعلم ما دامت الحياة حولهم تضج وتغلي وتتغير كل يوم ، وما دام الناس لا يتوقفون لحظة واحدة حتى للحديث او السؤال ؟ قال لنفسه بنوع من الأسى : « سوق الحلال عالم ، والرجال هناك تتعلم . أما من يوم ما طار السوق فكل شيء صار مثل الطحين المذرور في الريح » .

لو كان في وضع نفسي افضل ، مثلما كان ايام السوق ، لما تردد في السخرية من ابنه نجم « والتجارة » التي اختارها . ولقال عنه ما قاله عن بدر او اكثر ، لكنه الآن يحس بالضياع ، اكثر من ذلك يرى ان كل شيء دون جدوى . صحيح ان المال اصبح اكثر من قبل ، لكن دون بركة ودون معنى ،

قليلون هم الـذين يصبحون اغنيـاء ، يأكلون نصيبهم ونصيب غيـرهم ، أما الآخرون فانهم الآن يـركضون كـالكلاب المـطرودة ، لكي تصل الى ايـديهم النقود ، فما تكاد تصل حتى تتبدد وتضيع ، ليس هـذا فقط ، اخلاق النـاس واشكالهم تغيرت ، وكأنهم ليسوا الذين يعرفهم . حتى اولاده تغيروا . قال في نفسه بلوعة « سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير » .

افتتح نجم مكتبة ابي ذر ، بعد زيارة الى القـاهرة وبيـروت ، استغرقت ثلاثة شهور ، اشترى خلالها كميات كبيرة من الكتب ، جلب معه قسماً منهـا وجاءت الاقسام الاخـرى على دفعـات . توقـع الكثيرون وتـراهنوا ان تنتهي « تجارته » خلال السنة الاولى ، وبخسارة محققة ، لان موران التي تعرف الاكل والبناء والذهب لم تتعلم القراءة بعد ، فاذا كان البخاري يعيش على المصاحف الكبيرة والصغيرة ، وعلى الف ليلة وليلة والزير سالم وعنترة ، فان ابن حزيم لا يقترب من المصاحف ، عدا جزئي عم وتبارك ، اضافـة الى القرطـاسية ومـا تحتاجه المدارس ، أما ان تكون في موران مكتبة ابي ذر ، فان اي مجنون ، غير ابن شمران ، لا يفكر بذلك .

ولان موران لا تتوقف لكي تفكر ، ولان الناس لا يعرفون شيئاً اكثر من ان يقلد الواحد الآخر ، فلم تشغل المكتبة احداً ولم تغره ، ولذلك ما لبثت ان نسيت ، ونسي الناس ايضاً الخسارة التي توقعوها لها .

لكن موران اخرى كانت تتكّون دون ان يحس بها احد ، وهذه الموران هي التي جعلت المكتبة تستمر وتتسع ، وجعلت نجم يستعين بشريك آخـر ، ثم يسافر مرة او مرتين كل سنة لشراء كميات كبيرة وجديدة من الكتب .

ومثلما استقبلت مـوران عشـرات الآلاف من البشر من امـاكن واشكـال مختلفة ، وقدرت على استيعابهم وتوفير الحياة لهم ، كذلك كانت قادرة على ان تستقبـل وتستـوعب آلاف الكتب كـل سنـة ، تـولت مكتبـة ابي ذر بيعهـا وتوزيعها .

اكـثر من ذلك فتـح اثنان من اهـل مـوران مكتبة جـديدة قـرب مسجد السلطان خزعل ، كانت اكبر من المكتبات الاخرى ، واكثرها تنويعاً، سمياها

مكتبة الانصاف ، واذا كان البخاري وابن حزيم قد شتما وارتفعت اصواتهما في السوق ، فان نجم وجد في مكتبة الانصاف سنداً .

كان نجم يقرأ قدر ما يبيع او ربما اكثر ؛ كان يقرأ معظم ساعات الليل ، وفي النهار يقرأ خلال الفترة التي تفصل بين الانتهاء من زبون واستقبال زبون جديد ، وهذه العادة التي بدأت منذ وقت مبكر ، هي التي دفعته لاختيار هذا العمل دون غيره ، ومن خلال الكتب والاسفار اصبح شخصاً مختلفاً عما كان او عما عرفه الآخرون . لقد حصل هذا ببطء وصمت معاً بحيث لم يلفت نظر أحد ، حتى هو لم يفطن للشخص الذي اصبحه . واذا كان نفوراً جفولاً منذ صغره ، حتى من اخوته ، فقد بدأ يتغير ، أخذ يتحدث عن الكتب التي يبيعها ، كما لو انه يتحدث عن اصدقاء : من كتبها ، في اية فترة ، ماذا قالت وماذا قال عنها الآخرون. وهذه الطريقة في التعامل ، في البيع، حببته الى الكثيرين وكونت له صلات واسعة . حتى اخوه نمر الذي كان يعتبر نفسه عالماً بكل شيء ، ويواظب على قراءة الجريدة كل يوم ، ولا ينام الا بعد ان يستمع الى عدة نشرات اخبار ، استغرب ان اخاه يعرف بهذا المقدار ، وان عالم الكتب يفوق كثيراً ما افترضه وما تصوره ، ولذلك اصبح يقضي جزءاً من وقته في المكتبة ، وكان لا يتردد في أن يساعد بعض الاحيان .

ولولا الثأر الذي يملأ عقل نمر ضد مطيع ، واحساسه ان قوة خفية تشده الى ذلك الكرسي قرب دائرة الجوازات ، يرقب من هناك القصر وبشر القصر ، ويكتب العرائض بشكل معين ، لولا الثأر والقوة الخفية لما تردد في ان ينتقل الى المكتبة ، وان يقضي وقته يقرأ ، حتى اذا دخل التحدي مع « اللقامين » يعني مطيع وامثاله ، استطاع ان يسحقهم ، ان يتفوق عليهم ، لكنه صرف النظر عن فكرة تغيير عمله ـ علماً بان هذا كثيراً ما كان يجري في موران ـ وان ظل على علاقة تقوى وتتعمق مع نجم ، ومع الكتب التي يقترحها عليه .

لما بلغ شمران ان نمر يقضي جزءاً من وقته في المكتبة ، ولاحظ في البيت كيف اصبح الاخوان متلازمين ، يقرآن او يتناقشان ، قال بسخرية وهو يهز رأسه :

ـ مقرود على مقرود . . والله يستر !

لو تركوا لشمران خيوله ، لرأوه يوماً ولم يروه في اليوم التالي . ولو تركوا له ارضه لعرفوا كيف يتفاهمون معه، او على الاقل ان يتجنبوا كلامه . أما عندما « رفعوا » سوق الحلال الى العوالي ، بحيث « لا يمكن ان يصله الا مجنون او واحد باله من الهم خالي » ، كما يقول شمران ، فقد دفعوه بالقوة لان يشتم وان يقول ما لا يقال . كان في احيان كثيرة لا يتردد في ان يقول اي شيء ، لم يكن يكتفي بالكلمات، اذ اضافة لها يستعمل يديه ، وكثيراً ما كانت تلك الاشارات ابلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات .

حماد الذي يعرف شمران ، وكانا في يوم من الأيام اصدقاء ، حين تصله التقارير او يأتي من يقول له ان شمران لا يفعل شيئاً سوى شتم الحكومة ، وانه يقول عنها « فلاني وتركاني » ، ولا يوفر حتى السلطان ، كان يهز رأسه بحزن ، ثم يطوي التقارير ، او يقول للذين يحملون الشتائم :

ـ يجوز لشمران ما لا يجوز لاحد : حرقوا خيله ، اخذوا ارضه . ومن عند قبر ابوه رحلوه ، فخلوه يقول كلمة والثانية ، ويا كر او اللي عقبه يتعب ويسكت .

لم يتعب شمران ، لكنه غرق في موران الجديدة التي لم يعرفها من قبل . أخذته الحركة السريعة والتغير الكبير. كان ينبهر ويتساءل، ثم يصمت بانتظار شيء ما، أو تبلغ به الحدة درجة لا يقوى معها على السكوت. وهو بين الانتظار والصخب ، او بين المراقبة والانبهار لا يعرف كيف تمر الحياة او كيف

تسـير . واذا كان همه في وقت من الاوقات ان يفكر بالمعيشة ، فقد تكفل الاولاد عنه بهذا الواجب ، خاصة بدر ، الذي اصبح بين يوم وآخر ، وكما يقول ابوه « يلعب بالفلوس لعب » .

كانت موران في الأيام السابقة بحاجة الى شمران . كان الناس يلتفون حوله التفاف السوار على المعصم ، وكانت المشاكل في موران تتطلب رأيه ومشاركته . الآن ، وقد رحلوا سوق الحلال الى العوالي ، ولم يعد الناس يهتمون بالخيل والابل ، ولم تعد الرعايا تعبر هذه الصحراء كلها لتصل الى موران ، وانما يأتيها اللحم المذبوح من اقاصي الدنيا ، وحلّت السيارات محل الاباعر ، فقد احس بالهرم والتعب قبل ان يهرم وقبل ان يتعب ، ولذلك اكتفى بقهوة زيدان في شارع القاضي. كان يقضي نهاره هناك ، يستمع الى الناس اكثر مما يستمع اليه الناس . كان يرى وجوهاً لم يرها من قبل ، ويسمع كلاماً لم يسمعه من قبل : السيارات: أنواعها ، أسعارها، كم تحمل وكم هي سرعتها . ويسمع ايضاً عن قطع الغيار والكفرات ، ولا يعرف هل يسأل ، هل ، يشارك ام يبقى مستمعاً ؟ حتى هؤلاء البدو الذين كان يعرف بعضهم في سوق الحلال تغيروا الآن . أين ابلهم واغنامهم ولماذا اصبحوا هكذا ؟ واذا كانوا بهذا الشكل ألآن فكيف سيكونون غداً ؟

بعد تفكير طويل وهّم وانتظار اراد شمران ان يمتحن نفسه : السيارات التي تقف قرب كراج السبيعي ، هل يستطيع ، بعد ان سمع الكثير وراقب وحفظ الاسماء التي يرددها الناس حوله ، هل يستطيع ان يميز انواعها وان يعرفها ؟

هكذا سأل نفسه ، ليس من اجل ان يختبر معلوماته ، وانما ليرد على كلام ابنه بدر الذي قال له قبل ليالٍ انه مستعد ان يشتري سيارة اذا كان هناك من يرافقها في اسفارها « لاننا اذا اعتمدنا على السائق يأكلنا ويأكلها » . وكان يقصده هو . ذهب شمران الى كراج السبيعي . دار حول السيارات ، نظر اليها بإمعان ، نظر الى مقدماتها بشكل خاص ، كما كانوا دائماً يفعلون . نظر الى اطاراتها ، والى صناديقها ايضاً في محاولة لان يقدر نوعها وحمولتها ، ورجع الى مقهى زيدان وهو يؤنب نفسه : « حسافا . . . يا ابو نمر ، انت اللي كنت

تميز الناقة اللي جابت بطن من اللي جابت بطنين من نظرة ، وتعرف الفلو من هي امـه ، والفرس من هـو حصانها ، وتعـرف وين شبّرت وين ربّعت ومتى تشبت ، تصّم عليك هذي الحدايد كأنها الصخر؟ » ولم يبذل جهداً او محاولة بعد ذلك لان يلعب هذه اللعبة .

أما الحسرة التي أكلت قلبـه حين استـولى الحكيم على ارضـه ، وكادت تقتله ، فقـد حاول ان ينسـاهـا بعـد ان سمـع الكثير عن الاراضي التي تم «شراؤها» لحساب الامراء او لحساب الحكيم ، لم تبق قطعة ارض في موران او حواليها الا بيعت واشتريت عدة مرات ، وفي كل مرة يتضاعف سعرهـا قياساً للمـرة التي سبقتها ، بحيث اصبـح مجرد ذكـر الارقام يـولـد الـدوار في رأس شمران ، ومع ذلك كان يسمع من يقول في مقهى زيدان : « تجارة . . ودائماً التجارة فيها ربح وفيها خسارة » أما لماذا لم يكن الامر هكـذا من قبل، وهـو الذي تربى وعاش في السوق ، ويعرف كيف يتم البيع والشراء ، ويعرف الحيل التي يلجأ اليها عادة الذين يبيعون والذين يشترون ، فان ما يراه الآن اقرب الى السر ، وما يسمعه ليس له علاقة بالبيع او التجارة ، انه شيء آخر تمـاماً ، لا يجد له اسماً أو تفسيراً .

ومثلما كان سوق الحلال ملجأ وحصناً لشمران ، فيه يلتقي مع الذين يريد ولا يريد ، ولم تكن من عادته ان يـزور احداً في بيتـه ، عدا شـداد المطوع ، حيث يلذ له ان يقضي واياه معاً ،- وحولهما الخيول ، سـاعات طـويلة ممتعة ، اقـرب الى النشوة ، يتحـدثـان ويستعـرضـان هـذه المخلوقـات الـرائعـة التي « ظهورها حرز وبطونها كنز » كما يحب شمران ان يقول ، وهـو يربـت على كفل فرس او حصان ، كانت هذه الزيارات قبل الرحيبة ، أما بعد ذلك ، اذا اراد شداد ان يراه ، او ان يسمـع رأيه ، فكـان يأتيـه الى السوق ، مثـل كل الآخرين ، رغم ان شداد كان كثير الخوف على خيوله ، يخاف ان تجفل او ان تؤذى ، ويخاف اكثر من ذلك من عيون الآخرين !

بعد ان رفع السوق من مكانه ، وهجر شمران سوق العوالي ، فلم يزره الا كما يزور قبراً ، واستقر في مقهى زيدان ، كـان كـل من يريـده يأتيـه الى هناك ، وقد فعل شداد ذلك عدة مرات . أما محـاولاته في ان يحمله عـلى ان

يعاود زيارته الى بيته ، مرة اخرى ، « لان الزرقا خلّفت » ، او « لانه جاءتني خيول ماتتثمن وما مثلها في العالمين » او « الحمداني المحجل اللي تخبره يا ابو نمر يريده القصر ، ولازم تثمنه » رغم هذه المحاولات فقد كان شمران في رفضه صلباً عنيداً ، بحيث اضطر شداد الى الرضوخ والموافقة !

وبقدر ما كان مقهى زيدان قريباً من المكان الذي كان فيه سوق الحلال ، كان بعيداً عن قصر الروض ثم عن قصر الغدير ، لان شمران يعتبر ان « العوج من الثور الكبير » ولذلك لا يريد ان يرى السلطان او ان يسمع اخباره ، وكأنه بهذه الطريقة من التجاهل يعبّر عن احتقاره ، او يريد ان يعاقبه ، فهو السبب في هذا البلاء الذي حل بموران !

في الطرف الآخر ، غير بعيد عن قصر الغدير ، قرب دائرة الجوازات ، اتخذ نمر مكاناً له : يكتب العرائض والرسائل ويتابع معاملات السفر ، ويرقب ايضاً القصر : من جاء اليه ومن خرج منه ، وماذا فعل هناك ، بعد ان يكون قد قرأ الجريدة « من الفها الى يائها » ، وبعد ان يكون قد استمع الى عدة نشرات اخبار في الليلة الفائتة وصباح ذلك اليوم .

كان نمر يسمع عن موران من الاذاعات اكثر مما يقرأ عنها في الجرائد « والاذاعات هناك والجرائد هنا . . يا عباد الله » ومع ذلك لم يكن يصعب عليه استنتاج السبب ، أما اذا مرت سيارة مطيع متجهة الى القصر ، وهو فيها « لَابِدْ مثل الارنب » ، في المقعد الخلفي ، لا تبين منه سوى نظارتيه ، فكان يقول بصوت مسموع ، وهو يضرب الجريدة على الطاولة التي امامه :

ـ الله . . . الله من هالزمان ، صارت العنز الجربا تسرح بالغنم !

فاذا نظر اليه من يسمعه بتساؤل يتابع بلهجة جديدة متآمرة :

ـ هذا اللي فات هالحين شيخ الكذابين ، ما له شغلة الا يكذب وينفخ بذاك !

وبعصبية يشير الى الجريدة والى سيارة مطيع قبل ان تنعطف ناحية اليمين لتدخل الى القصر من باب جانبي ، ولا بد عندئذٍ ان تكون العريضة التي يكتبها ، والموجهة غالباً الى القصر ، عن طريق مكتب الشكاوى ، شديدة

اللهجة والجفاف ، ليعبر عن احتجاجه واحتقاره .

فاذا انتهى الدوام الرسمي ، واستراح نمر وانكسرت حدة الشمس ، بدأ جولته في موران : يذرعها من اقصاها الى اقصاها ، يقول للناس اي شيء حصل : من رأى وماذا رأى وماذا سمع . كان يعرف كيف يقول الاشياء ولمن يقولها . ولا بد ان تنتهي جولته في مقهى زيدان ، حيث يكون ابوه صافناً متأملاً ، او غارقاً في الاستماع للذين حوله يتحدثون عن السيارات التي وصلت الى موران ذلك اليوم ، ماذا تحمل ولمن . وخلال دقائق ينثر نمر أخباره في المقهى ، ويترك على وجوه سامعيه وفي قلوبهم خوفاً وتساؤلات ، حتى اذا انتهت مهمته اصطحب اباه وعادا .

من أكثر الامور مدعاة للحيرة والعجب ان نمر يملك من الاخبار كمية هائلة ، اكثر مما يملكه اي انسان آخر . حتى الاخبار التي تبدو غير قابلة للتصديق لاول وهلة ، لما توحي به من مبالغة وتضخيم ، كانت تأتي الوقائع ، في وقت من الاوقات ، لتؤكد صحة ما قاله . فاذا جاء ذكر الحكيم او مطيع فعندئذٍ لا يملك شمران نفسه من التعليق ، وغالباً ما يكون تعليقاً ساخراً اقرب الى الشتيمة . أما اذا وجد الاربعة ، بمن فيهم ابن الرشدان وعبيد الطويل ، فلا بد ان تكون ليلة من الليالي التي تنتقل اخبارها بسرعة ، وتصل في احيان كثيرة الى حماد . فنمر الذي يبدأ صامتاً ، وكأنه غير راغب في الحديث ، ويتطلع حواليه بنظرات جذرة ليختبر المكان والبشر ، وليقدّر كيف يبدأ او ماذا يقول ، ما يلبث ان يقع تحت وطأة الاسئلة والاستفزاز : « موران اليوم مثل مقبرة ، لا من باع ولا من شرى » « السلطان عرّس » « السلطان خلف » « المالطي شرى مقبرة حران وباكر يشري مقبرة موران » . عند هذا لا بد ان يتصدى نمر او ابوه لهذا الهذر الذي يجري حولها ، فاذا تكلم شمران اخذ الحديث نسقاً معيّناً لا يلبث ان يصبح ساخراً ، لان ابن الرشدان يجب ان يشارك ، وعادة ما يشارك بتعليق او بشتيمة ، أما اذا تكلم نمر فقد تعود ان يفعل كما تفعل الاذاعات :

ـ اليكم اولاً ، يا جماعة الخير ، الاخبار . اخبار موران اليوم ان طويل العمر يفكر بعرس جديد ، وربما في غضون ايام . المالطي باع القاع غرب

المسجد للامير ميزر ، وتشارك معه بقاع جديدة غرب وادي الرها .

ويزفر ويهز رأسه بأسى ثم يقول :

ـ اما التعليق ، يا جماعة الخير ، فكل واحد منكم عنده عقل وعنده فكر ؛ من يوم ما سرح الذيب بالغنم طاحت الدنيا وخربت !

ويخرج من جيبه الداخلي الجريدة ، لا يهم ان تكون جريدة اليوم ، او اي يوم آخر ، المهم ان يُري الذين حوله صورة مطيع ، هذا هو عدوه الاساسي ، وهي صورة لفرط ما تكررت تبدو وكأنها الصورة ذاتها : مطيبع يقف الى جانب السلطان في احد الاحتفالات او الاستقبالات ودائماً يداه مكتفتان الى صدره بذل ، وعيناه تتطلعان الى السلطان باعجاب . يشير نمر الى الصورة ويقول :

ـ هذا هو مسيلمة الكذاب ، يكذب مثل ما يشرب الماء، مثل ما يتنفس، لكن الحقيقة كالشمس ، والشمس ما يحجبها غربال .

هذا النوع من الاخبار والتعليقات لا يروق لشمران ، فقد علمته التجارب ان لا يثق بكلام الجرائد ، « لان هذي القراطيس ، وكل ما مكتوب فيها ، ما تهز شعرة ولا تشيل بعرة » ولا بدّ ان يدفع الحديث باتجاه آخر ، على الاقل نحو الحكيم :

ـ يا جماعة . . تذكرون موران قبل ما يصلها ذاك المبقع وامثاله كانت بالف خير ، لكن من يوم ما وصلها سفت وانحدرت ، والله يستر من الجايات .

ولان كلام شمران لا يزال غامضاً ولا يعرف الذين حوله عمن يتحدث ، فلا بد ان يتدخل صالح :

ـ لا مبقع ولا سالح على روحه ، يا ابو نمر ، قولها وخلصنا .

ـ وتحسبني اخاف ؟

ـ ما يندرى !

ويغمز صالح الرشدان بعينه لمن حوله انه استفزّ شمران ، ولا ينتظر شمران :

ـ اسمع يا ابن الرشدان ، وخلِ غيرك يسمع ، ذاك ، اللي بالك فيه ، انت تعرفه وانا اعرفه ، مسيكين ، على باب الله ، اذا امست يطيح بحريمة وبعدها يشخر ، أما ذاك اللي عالق فانوسه وللصبح ما ينام وفكره كله منين يجيبها ومنين يحوفها فذاك غريمي . . اليوم .

ـ المسيكين اللي تقول عليه يا ابو نمر . .

يقول احد الذين يستمعون ذلك ، ليزيد النار اشتعالاً ، فيتدخل صالح :

ـ والله ما احد مسكين الا حِنّا . . أما الجماعة هناك فاكلوا التمرة والنواة ، وما خلوا لغيرهم شي .

ـ اذا تحكي على الفلوس يا ابن الحلال فاللي تقوله صدق ، لكن المسألة اكبر واكبر . . .

ويسحب شمران نفساً عميقاً حزيناً ، وهو يقول هذه الكلمات ، ثم يتابع :

ـ أبوه كسر رقاب العباد. سوّى اللي ما يتسوى. قلنا ثار؛ أما هو، الّي قال : يجي يوم يا ابو نمر ما يصير الا ما يرضى الناس . . وخدها من هالشارب . قلت له خير يا مبارك ، لكن اللي صار ، ما تشوفه عيونكم !

ويزفر مرة اخرى :

ـ مثل ما قلت لكم : المبقّع راس الحية ، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل : حط الحصان بين الحمير يتعلم النهيق .

ـ ما ظل خيل يا ابو نمر !

هكذا يرد صالح الرشدان ، فيضحك شمران من اعماقه ويرد :

ـ والله هذا هو الصحيح يا ابن الرشدان : الخيل كلها صارت كُدُشْ .

ويتدخل نمر ويتدخل آخرون ، في محاولة لان يوجهوا الحديث وجهة اخرى ، لكن شمران مصر على ان الحكيم هو رأس البلاء ، وان السلطان اداة بيده ، وهو الذي يسيّره، فاذا ضرب، او ابعد، لا بد ان يخاف السلطان

ويتراجع ، ولا بد ان تصبح الامور افضل من قبل .

هكذا كانت تجري الاحاديث والمناقشات في مقهى زيدان، لكن تعرض صالح الرشدان للضرب اكثر من مرة ، وزرع بعض المخبريـن في المقهى ، وبشكل ظاهر تماماً ، جعل شمران يأتي يوماً ويغيب اياماً . ولم يعد نمر يهتم اذا مرّ ذلك اليوم او لم يمر ، كان يقول اذا سئل :

ـ موران كلها قهوة ، والواحد يشرب بفلوسه ، في هذا المكـان او ذاك ، وزيدان ما هو عايش عليّ !

هل يمكن لمدينة ان تعادي انساناً مثلما فعلت موران مع صالح الرشدان ؟ وهل يوجد انسان ، غير صالح الرشدان ، قادر على ان يوزع هذا المقدار الهائل من الشتائم . . على مدينة بأسرها في محاولة للانتقام ؟

اذ ما كاد سوق الحلال ينتقل الى العوالي حتى ضاع صالح الرشدان ، لم ينتقل الى هناك « لان ولا اي ابن كلب صاحب حمار يصله » ولم تستطع موران ان تستوعبه او ان تؤمن له العمل ، رغم انها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون اليها من كل مكان .

ولانه « تورط » فتزوج متأخراً ، فقد كان عمر اكبر اولاده اثنتا عشرة سنة ، وكان هذا الصغير يرافقه في تجواله ، حاملاً جزءاً من معدات العمل ، أما الخمسة الآخرون ، من اولاد وبنات ، فكان يتركهم في البيت .

صالح يذرع موران كلها ، بحثاً « عن ابن حرام يريد يحذي حجشه » فيعثر على واحد او لا يعثر ، لان اصحاب الحمير اصبحوا اقل من السابق ، او لانهم لم يعودوا يحفلون حذيت حميرهم او لم تحذ ، لانها « لم تعد تجيب فلوس اكلها » بعد ان كثرت السيارات والقلابات ، وحلت محل الدواب في النقل . أما اصحاب الخيول الذين لم يعترفوا بصالح الرشدان، من قبل ، فقد اصبحوا اشد انكاراً له في المرحلة الجديدة ، اذ ما يكادون يرونه يحوم حول اسطبلاتهم حتى يبعثوا من يطرده ، وكأنه مرض يخافون على خيولهم منه . لقد حصل هذا مرات عديدة ، وكأنهم اتفقوا فيما بينهم على ذلك .

ظل هكذا شهوراً طويلة ، وشهراً بعد آخر يزداد الحصار حوله وتزداد صعوبة الحياة بالنسبة له . انه منذ اربعين سنة لا يمارس الا هذه المهنة ولا يعرف غيرها . لقد حذا حمير موران من المهد الى اللحد ، وحذا عدداً من الخيول والبغال ايضاً . كانوا في السابق يتزاحمون حوله ، ينتظرون ساعات وساعات ، وكانوا يكيلون له المديح ويستعملون الكلمات الكبيرة لاسترضائه . الآن ، لا احد ينظر اليه ، لا احد يطلب منه شيئاً . أما اذا تحدثوا فلكي يسخروا : « هالقلابُ ، يا صالح يبي حذوة . . فاضي اليوم او نجيك غير يوم ؟ » « هالفرس ينراد لها قص اظفر وحذو يا صالح ، لكن بشرط : الصغيرة اللي وراها على البيعة ويش قولك » . ويشيرون الى سيارة كبيرة وخلفها سيارة صغيرة . وصالح لا يوفرهم ، لا يوفر احداً منهم : « والله يا اهل موران حميركم احسن منكم ؛ ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر واوادم ، اما هالحين فانتم زق » . ويقول « حذي الحمير من رجليها ، أما الحمير اللي اشوفها هالحين فينراد لها حذي من روسها » . ويضحكون بصخب لكلمات صالح ثم لا يلبثون ان يشغلوا سياراتهم ويمشون تاركينه وحده .

حين كانوا يقولون له فيما مضى ان القصر يطلبه لكي يحذي الخيول هناك كان يرد ان « القصر ما هو احسن من الناس الواقفين ، فاذا كان عنده اي شيء يطرّشه ونشوف » أما الآن فقد اقتنع ان يقدّم معروضاً الى القصر لكي يتولى هذه المهمة ، ويمكن ان يوافق على راتب مقطوع ، واكد له الكثيرون ان ذلك حل معقول . ونمر الذي وافق مضطراً على كتابة هذا المعروض ، وكان متأكداً ايضاً ان لا احد سيقرؤه او يجيب عنه ، كتبه بروح ساخرة تقطر احتقاراً : « عظمة السلطان وولي امر العباد . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . انا صالح الرشدان ، من موران اباً عن جد ، بعدما صدر امر جلالتكم بنقل سوق الحلال من مكانه تدردبت المصايب فوق رؤوس الخلق وانا واحد منهم ، قلّت الاشغال وانسدت الابواب ، ومعلوم لكم اني اقوم بحذو الخيل منذ اربعين عاماً، لكن وصول السيارات قلّلت الأرزاق، فأطلب منكم التعيين في القصر ، وبمسؤولية الخيل ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه .

مراجعتي في قهوة زيدان » .

وقضى اياماً واسابيع في مقهى زيدان لا يفارقه ، على أمل ان يبعث القصر بطلبه ، لكن شيئاً مثل هذا لم يحدث . وخلال هذه الفترة ، ولما عرف بعض الخبثاء ان صالح ينتظر استدعاء من القصر ، وان لديه هناك مهمات خطيرة ، اصبح سخرية اكثر من اية فترة سابقة : اي داخل للمقهى ، خاصة اذا كان شخصاً جديداً ، يترافق مع الكثير من الهمس والتعليقات ، «ابشر يا صالح : الخير جاء » « الرجال اللي جاء هالحين يسأل عن صالح ، قلنا له خير ، قال خير ، بس الكلام من راسي لراسه ، قلنا له هالحين ما هو بموجود ، لكن يجي ، تبي نعلّمه أو قبلها نروزه ، خاف يكون عند سالفة ثانية» وصالح يراقب، يتابع ، ينتظر، لكن دون جدوى.

قال لشمران ذات يوم ، وكان لا ينظر اليه ، لان عينيه مركزتان على باب المقهى :

ـ وشنهو شورك، يا ابو نمر ما دام القصر مثل المقبرة : لا علم ولا خبر ؟

ـ هيل عليه التراب واسلح فوقه .

ـ يعني ما منه نتيجة ؟

ـ لا حياة لمن تنادي ، والاحسن دوّر لك سالفة ثانية .

ـ وطويل العمر ينسى صالح الرشدان ؟

ـ نسى الجميع يا شيخ .

وضحك شمران بحزن وتابع :

ـ ومن هو صالح الرشدان لطويل العمر ؟

ـ ومن هو طويل العمر بلسيّانا ؟ ويش يسوى اذا حنا رحلنا او كنا غير موجودين ؟

ـ يا صالح ، يا ابن الحلال ، مثل ما قلت لك سالفة القصر شيلها من راسك ، هذه السالفة ما توكل خبز .

ـ لكن مثل ما تشوف عينك يا ابو نمر : الجماعة اللي حول القصر واقعين بالرز واللحم ، يأكلون ويتسوّكون !

ونفض صالح الرشدان يده من السلطان ، مؤقتاً ، على الاقل ، وبدأ جولاته في موران من جديد ، ولم يتردد في الذهاب الى العوالي او الى القرى المحيطة بموران ، لكن لم تكن النتيجة افضل « حتى البدو المساخيط تركوا البل والخيل ، وصار دينهم ومعبودهم البك آب . . لكن بسيطة ، يجي يوم ونشوف » .

ولم يقتصر حقده على البشر بل امتد الى السيارات ايضاً، فما يكاد يمر بسيارة متوقفة، وليس عندها أحد، حتى يفعل شيئاً للتعبير عن احتقاره، اذا لم يستطع ان يبول ، يطلب من ابنه ان يفعل « حيل يا وليدي ، اللي تقدر عليه » ، فاذا لم يستطع اي منهما ، فلا بد ان يجمع في حلقه بصقة كبيرة : « تفو عليك وعلى يومك » ولم يتردد ايضاً في ان « يزرع » اعداداً كبيرة من المسامير والزجاج المكسور في شوارع معينة . كان يختار الاماكن التي يعتبرها اكثر ملاءمة من غيرها ، خاصة الطريق المؤدي الى قصر الغدير ، لكن هذه المهمة كلفته الكثير : ضربه اصحاب السيارات ، بدأوا « يمازحونه » بسياراتهم ، ولم يترددوا في ابلاغ الشرطة ، والشرطة تولت تأديبه .

ويزداد الحصار حوله ، ويحاول شمران ان يساعده ، ليس فقط في ان يمده بالمال بين فترة واخرى ، وانما في ان يؤمن له عملاً بعد آخر . طلب من بدر ان « يدبره » اول الامر ، وبدر الذي وافق لم يعرف كيف يستخدمه او كيف يستفيد منه ، قال له « اجلس يا عم صالح ، اشرب قهوة وسولف ، فاذا احتجت الى شيء من السوق ، بدل ما اروح انا انت تروح » وصالح الذي وافق لم يلبث ان خلق مجموعة من المشاكل ، خاصة لاصحاب السيارات الذين يأتون من اجل اصلاح كهرباء سياراتهم، مما اضطر بدر الى صرفه ، بعد ان تحمله بضعة شهور .

ووجد له شمران عملاً في كراج السبيعي ، صديقه القديم ، لكن لم تمض بضعة ايام على عمله ، كحارس في الكراج ، حتى تسّبب بعدد من

الخلافات بين اصحاب السيارات والكراج ، فصرف من العمل بعد ان ضرب .

وتكرر العمل والبطالة . وصالح الرشدان حائر ضائع ، ينتقل من عمل الى آخر ، لكن لم تكن نهاية اي عمل افضل من نهاية الذي سبقه ، بحيث لم يستطع شمران ان يستمر او ان يفعل اكثر من ذلك ، قال له بعد ان تعب من مشاكله :

ـ والنعم ، يا صالح ، اهلك سموك صالح وما هم غلطانين ، وهالحين اذا ما تنصلح وتصير مثل الاوادم دوّر على غيري وخليه يتعب بك .

ـ ما اظن احد تعبان مثلي يا ابو نمر .

ـ تعبان وما تخلي احد يستريح .

ـ وهم تاركيني استريح ؟

ـ صرت تدور على الشر يا صالح والناس صدورها ضيقة ، اذا حملت يوم ما تحمل الثاني .

ـ صرت مثلهم يا ابو نمر ؟

ـ الله يهديك يا صالح ، لان صدري ضاق وروحي رفرفت .

وهكذا انقطعت العلاقة بين شمران وصالح ، بعد ان استمرت سنين وسنين ، لكن رغم القطيعة بين الرجلين فان كل واحد منهما لا ينسىٰ الآخر ، ولا يغفل عنه ، فشمران الذي لم يستطع ان يفعل اكثر مما فعله من اجل صالح كلّف ابنه نمر وكلّف عبيد الطويل ان يتفقداه بين فترة واخرى وان يساعداه .

وكلما ظن الناس ان نوعاً من السلام خيم اخيراً ، وان صالح توقف عن شتائمه ، او وجد ما يشغل به نفسه ، يرتد نحوهم كالزوبعة ، الى مقهى زيدان ، الى المسجد ، او يقف في منتصف السوق : « قولوا اللي تقولوه عليّ يا اهل موران ، قولوا عاقل ، قولوا مجنون ، ما اشتري كلامكم بنواة ، لكن اريدكم تعلّموني ، باي دين وباي شرع ناس تبني العلالي والقصور وتلعب بالفلوس لعب ، وما يندرى منين جات هذه الفلوس ، وناس ما تلقي كسرة

خبز ؟ وذاك راعي الملة والدين ، ليش صاكّ بابه ، لا يسمع ولا يجيب ، وكأنه من اهل الكهف ؟ » يتوقف قليلاً يتطلع بامعان الى الوجوه التي تتابعه ، يهز رأسه بحزن ويقلب يديه بحيرة « قبل كم سنة كنا بالف خير ، لكن من يوم ما جاءت هذي البلايا ، وعنطز كل واحد منكم بقلّاب او بيك آب ، وبعد ما كنتم تحبون الاكتاف واللحىٰ وتقولون نضحك على صالح ، وصالح يفك ويدق ، وما راح يوم وجاء الثاني حتى صرتم مثل ذاك الصاك بابه » فاذا سمع كلمات المديح تكال اليه من جديد ، او من يقول له ابشر ، ولا بد ان ينال المساعدة ، يصرخ مثل جريح « تخسُون انتم وفلوسكم ، ما ابيها ، ابي اشتغل ، ابي ادقدق » ، ويجد عملاً ، او يجدون له عملاً ، لكن مثل كل المرات السابقة ، ما تكاد ايام تمر او على الاكثر بضعة اسابيع حتى يقع الخلاف وتدب المنازعات .

قال له عبيد الطويل بنفاد صبر .

ـ يا صالح ، يا ابن الاوادم ، السالفة اللي براسك شيلها ، وموران اللي تخبرها راحت ، ماتت ، هالحين حنا بموران ثانية ، فاترك الخيل وحذو الخيل ودوّر على شغلة ثانية ، والا مت من الجوع .

واوضح له ان امامه احد خيارين : ان يفعل مثله ، حيث انتقل من دلالة الغنم والاباعر الى التوسط في عمليات بيع وشراء البيوت والاراضي ، وان الشغلة الجديدة ، بالاضافة الى ارباحها الكبيرة ، فانها سهلة ويمكن ان يتعلمها في بضعة أيام . أما الخيار الثاني فان يفعل مثل شمران ، ان يجلس في مقهى زيدان او اي مقهى آخر ، ويصمت او يتعلم الصمت ، « لان الناس كلها صارت عينها عليه حمرا ، واذا سكتوا اليوم ما يتعرف ويش يصير عقبه » وفي محاولة اقناعه باحد هذين الحلين ابدى استعداده ان يساعده في تأمين عمل « وهذه المرة آخر مرة يا صالح » فاذا احب ان يفعل مثل شمران ، فان بدر ابدى استعداده ان يستخدم ابنه ، وان المبلغ الذي سيتقاضاه « مع قرش من هنا وقرش من هنا يكفي ، المهم ان تخلصنا من الطلايب يا صالح ، وهذا ما هو رأي بس ، رأي ابو نمر ، ورأي الناس كلهم ، والا هذا حدنا وياك » .

واذا كان لكل قرية ولكل مكان ذاكرة وقلب ، فان المدن الكبيرة ، خاصة

التي تتكون وتتغير بسرعة ، تفقد ذاكرتها وتتعلم القسوة باتقان ، ولذلك فاذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من ايام ، واحبت شتائمه وطريقته في التعامل، فانها ما لبثت ان تجاهلته ثم نسيته . حتى عندما مات له طفل ابن عامين لم يجد احداً يساعده او يمشي معه . كان وهو يحمل الصغير ملفوفاً بثيابه ، في طريقه الى المقبرة ، يثير السخرية اكثر مما يثير الشفقة « يا جماعة . . صالح سارق له سرقة ، ومثل الحرامي يهرول ولا بد ينكفي على وجهه وتبين سرقته » « هالركضة ما هي لله يا صالح لازم وراك سالفة » ولا يرفع وجهه ، لا يسمع ، ويمسك بجثة الصغير بحقد اكبر ، وكأنه يريد ان يستمد منها مزيداً من الصلابة والقوة .

ويحاول ان يتعلم الصمت لكن الصمت لا يواتيه ولا يأتيه ، ولان احداً لا يسمع اليه ولا يلتفت لما يقوله ، فقد بدأ يكلم نفسه . بدأ اول الامر يفكر بما يجب ان يقوله اذا رأى السلطان في يوم من الأيام ، كيف يبدأ وكيف يدفع الحديث بالاتجاه الذي يريد، ولكي لا يخطىء ولا يتردد اخذ يطلق على الاشياء التي امامه اسماء بشر يعرفهم او يريد ان يتحدث اليهم ، ينظر الى الباب او الى الجدار ويبدأ « يا طويل العمر ، والاعمار بيد الله ، هذه الدنيا فانية ولو دامت لاحد ما وصلت لكم ؛ انا يا طويل العمر تعرفني ، او على الاقل سمعت سالفتي ، انا صالح الرشدان ، موران كلها تعرفني ، واذا سألت تلقى الجواب . بسوق الحلال عشت عمري كله ، ما وصلت دابة من ثلاثين . . اربعين سنة ، الا ومرت تحت يد صالح ، ومثل ما شمران كان وتد بالسوق صالح كان مثله ، لكن ما يندري من هو اللي شار عليكم ان ينشال السوق من مكانه، لا بد يكون لئيم او ابن حرام ، لان من ذاك اليوم والناس هاجّه ، كلها تقول الله لا يبارك ، وهذا الله ، يا طويل العمر ، هو المنتقم الجبار ، وما احد يفلت من عقابه ، ولو كنت بمكانك يا طويل العمر لا بد ان افتح تحقيق واعرف اللي شار واللي قال وأنزل به اشد العقاب ، ومع ذلك هالحين يلزم تأمرون ويرجع السوق مثل ما كان » ويفرح صالح بهذه النتيجة ، ويتخيل من جديد السوق وقد عاد الى مكانه : حركة حافلة : البشر والدواب ، وكل انسان لديه ما يفعله او ما يقوله ، وهو لا يلتفت الى الكثير مما

يجري حوله ، لان العمل اكثر من ان يطيقه او يقدر عليه . كان يعمل اكثر من الآخرين ، ولا يفرغ من العمل الا بعد ان يفرغ الجميع . وفي احيان كثيرة كان يطيب له ان يتوقف عن العمل يوماً او يومين ، ويجلس ليستمع الى شمران او الآخرين وهم يتحدثون ، لكن « لا احد يرحم ولا احد ينتظر وصاحب الحاجة لجوج » !

وانتقل من السلطان الى الآخرين « صالح لا يمكن ان يفوت قضية ، يمكن ان يسامح ،ان يسكت، لكن لا تخفى عليه خافية » استحضرهم واحداً بعد آخر ، ماذا يجب ان يقول لهم وامام من : « الشهود احياء والناس ما تنسى يا فلان » ولان الذين يريد ان يتحدث معهم كثيرون فقد اعطى للاشياء حوله اسماء وصفات وبدأ، لم يترك احداً ولم ينسَ شيئاً.

كان كل ذلك يجري وصالح يجوب الشوارع وحيداً ، بعد ان عمل ابنه عند بدر ، باحثاً عن صاحب حمار ليحذوه له. كان يريد ان يمارس المهنة ليس من اجل ان يحصل على مقابل ، وانما لكي يثبت لنفسه انه ما زال قادراً على العمل، وانه لا زال نافعاً للآخرين . لكن لا احد يستجيب له ، لا احد يسأله او يطلب منه شيئاً . حتى الشتائم التي كانت تستهوي الكثيرين في وقت سابق لم تعد تعني لهم شيئاً الآن . ولانه لا يعرف التوقف او الراحة ، ولا يجد احداً لكي يتحدث معه ، فقد اخذ يتحدث لنفسه ، وبصوت عالٍ ، دون ان يأبه او يخاف !

قال شمران لما بلغه ما وصلت اليه حالة صالح :

ـ اللهم حسن الختام !

بعد ان اتسعت الاعمال وتشعبت ، لم يعد الحكيم قادراً على ان يتصرف الى كل عمل بنفسه ، ولم يعد الاشخاص الذين حوله قادرين ايضاً ، وهذا مما اضطره الى اقناع راتب بالانتقال الى موران والاقامة فيها ، كما بذل جهداً كبيراً الى ان تمكّن من استدعاء الآغا للتباحث معه بشأن التعاون ، خاصة وان هناك افاقاً جديدة تكشفت امامه من خلال نشاط رضائي بالذات . ولم يطل الامر حتى حقق هذين الهدفين معاً ، فبدا الحكيم خلال هذه الفترة في منتهى القوة والرضا عن النفس ، وشاركته العائلة هذا الجو من الحيوية والفرح ، خاصة وان غزوان اوشك على التخرج وجاء بزيارة خلال العطلة الربيعية . كان يبدو اقرب الى الرجال بمظهره الذي ازداد سمنة ، وبطريقة تصرفه وحديثه . وقد ولّد هذا تفاؤلاً كبيراً لدى الحكيم ، وكان يود في اعماقه لو ان غزوان بقربه ، اذن لاكتسب خبرة كبيرة ، ولصرف معه وقتاً وجهداً من اجل ان يختصر الزمن ، وان ينطلق الى الحياة العملية ، لان الحكيم ، رغم محبته للعلم ، يعتبر انّ الحياة هي التي تصقل الانسان وتحدد بالنتيجة امكانياته ووضعه في المجتمع .

ولم ينس الحكيم « الواجبات » ايضاً ، فراتب الذي تعوّد النزول في بيت الحكيم ، وجد ان من الضروري الانتقال الى بيت مستقل ، ووجد ايضاً ان حياة العزوبة ، خاصة في مدينة مثل موران ، غير ممكنة ، او على الأقل ان نظرة الناس لرجل مثله ، بسنه وامكانياته المالية ، لا تستقيم اذا ظل اعزب، وهذا ما دعا وداد ان تأخذ على عاتقها البحث له عن زوجة . صحيح ان الأمر طرح

في البداية على شكل تساؤل مرح ، ثم اصبح تساؤلاً جاداً ، واخيراً اصبح سؤالاً يتكرر في كل جلسة بأشكال عديدة ، وكان الحكيم في الغالب وراء هذا التساؤل او السؤال . ووداد التي وجدت ان صحتها تتحسن ، وانها تنتعش وتتغير تماماً خلال زيارات راتب ، اعتبرت ان انتقاله الى موران سعادة لا توازيها اية سعادة ، واذ خافت لاول وهلة من فكرة زواجه ، ولا تطيق ان تراه متزوجاً ، فإنها مالبثت ان اقتنعت واقنعت نفسها ان الطريقة الوحيدة لكي تحتفظ به ، لكي يبقى فلا يسافر ، وان يكون قريباً بهذا المقدار ، هي ان يتزوج ؛ وان يتزوج بمعرفتها ، عن طريقها ، لكي تضمن بقاءه وقربه اولاً ، وتضمن ايضاً ان تختار له المرأة المناسبة !

بعد الكثير من البحث والتأمل والانتظار ، سافرت وداد الى بيروت ، واستمرت شهرين وعشرة ايام في هذه السفرة . لكن لم يمض على سفرها الا اسبوع واحد ، حتى ارسلت برقية الى الحكيم : « رجاء ابلاغ راتب ان العروس بانتظاره ، يلزم توجهه لاتخاذ القرار المناسب » . طار الحكيم من الفرح ، واعتبر ان زوجته تمتلك من الامكانيات الشيء الكثير ، وان كانت لا تظهرها ، او لم يكتشفها هو سابقاً . وبكثير من الحفاوة والمودة هنأ راتب وشدد على ضرورة سفره في اقرب فرصة « اليوم قبل بكرة ، لان المسألة لا تحتمل التأجيل » ويضحك الحكيم بقهقهة ثم يضيف « مسألة مستقبل ، يا راتب ، مسألة مصير » ويهز رأسه بمرح لذيذ : « ومثل ما دخلنا نحن القفص الذهبي ، ولانك عزيز علينا ، نريدك ان تدخله مثلنا ! » .

وراتب الذي يتذرع ببعض الاشغال والواجبات ، وانه لا يستطيع السفر قبل ان يفرغ منها ، وان « بنت الحلال ستنتظر ، لان ليس عندها خيار آخر ، سوى الانتظار ، خاصة وان ام غزوان حضّرتها وقالت لها اية سعادة تنتظرها ، واي زوج ستربحه وتدخله الى العش ! » .

بعد مناقشات عديدة تخللها المرح والجدية ، سافر راتب ، وانتظر هناك شهرين الى ان تم العثور على الفتاة المناسبة . وقد اوضحت وداد لزوجها ، بعد ان عادت ، « ان الامور تعرقلت اكثر من مرة ، لان البنت الاولى اللي ربطناها ، لم تعجب راتب . وحتى الثانية لم تعجبه . وفكر ان يلغي الزواج

كله ، لكن في النهاية اقنعناه انا وعمتي ام احسان ، ولقينا البنت المنـاسبة . . وتزوج وسافر » وتنهدت وابتسمت لان هذا الحمل الثقيل سقط عن عاتقها ، والحكيم الذي قدر المصاعب والمتاعب التي ترافق الزواج رد عليها بمرح :

ـ مثل هذه الشغلة لا تحصل الا مرة في العمر ، فاحمدي ربك واضحكي بعبك .

وضحك بقهقهة ، ثم قال بعد ان هدأ :

ـ ونحن مو مثل غير جماعة !

ردت بنوع من الغيظ المصطنع :

ـ اي والله . . . هذا الشيء اللي ناقصكم !

ـ ليش يا ستي . . غيرنا احسن منا ؟

ـ لأ ما قضية احسن ، لكن كل ناس ولهم عاداتهم .

ـ وعادات موران واهلها الا تعجبك ؟

ـ لأ . . يا سيدي !

ـ انا ، يا ستي ، صرت موراني : عاداتهم عاداتي ، واخلاقهم اخلاقي ، وناوي اعمل مثلهم !

ـ شو قصدك ؟

ـ ان اتزوج مثلهم !

ـ تطلع عينك وما راح تشوف غيري !

وهجمت عليه تقبّله ، تحضنه ، تتطلع الى عينيه بتحديد. شعـر الحكيم بغبطة كبيرة . شعر ان وداد تحبه اكثر مما يقدر واكثر مما تظهر ، لكنها تكابر ، تخفي عواطفها . أما الآن ، وبعد هذه الفترة من البعد والشوق فانها تكشف اوراقها ، تفضح ما يعتلج في قلبها من عواطف واشواق ، قال وقد امتلأ رقة :

ـ انت كل شيء لي في هذه الدنيا واغلى من عيوني !

وانشغل الحكيم ايضاً بغزوان ـ فبعد ان زاره في الولايات المتحدة في صيف السنة الماضية ، اكتشف ان ابنه كبر وتغير كثيراً ، فبالاضافة الى النباهة التي ميزته منذ ان التقى بهم في المطار ، فان كل حركة وكل تصرف اقدم عليه بعد ذلك ، وخلال الزيارة كلها ، اكدت له « ان هذا الشاب ـ ويجب ان اقول ذلك بحياد ـ مثال حي للذكاء وحسن التصرف . . والطموح» . فقد حدثه غزوان عن سان فرانسيسكو بافاضة ، واخذه بنزهات طويلة ومتعددة ، وكان يضع لكل زيارة برنامجاً مناسباً ، وكثيراً ما فاجأ اباه وامه . فزيارة الحيّ الصيني في المدينة ، والتجول بين مجموعة كبيرة من الصينيين ، اثارا افكاراً لدى الحكيم تصور انه نسيها لفرط ما ابتعد الزمن! وزيارة الغابات المعمّرة التي لا تبعد عن المدينة كثيراً اثارت لديه مفاجأتين اثنتين في آن واحد : فحتى ذلك الوقت لم يكن يظن ان ابنه تعلم سواقة السيارة بعد ، أما عندما استأجر غزوان سيارة منذ الليلة السابقة ، وقد انتقاها بمواصفات تلائم مستوى العائلة ، وجاء بها الى الدار دون ان يحس به احد ، ثم في الصباح وابوه يسأله ماذا رتب لهم لهذا اليوم ، يقول له رداً على السؤال :

ـ ان ترى بعينك احسن من ان تسمع باذنك !

وبكثير من البطء والثقة يستخرج مفاتيح السيارة الواقفة ، يفتح الباب الايمن ، ويطلب من امه ان تركب ، والام التي نظرت اليه ثم نظرت الى زوجها لا تعرف هل تستجيب له ام لا ، أما عينا الحكيم اللتان دارتا دورة كاملة ، وكأنه يفيق من نومه ، فقد فوجىء تماماً ، لكن كلمات غزوان الواثقة ، الواضحة ، تطلب منهما ان يركبا ، وان يركبا في الكرسي الامامي ، وامه في الوسط ، لم تترك لهما الخيار . أما تلك البراعة التي اظهرها غزوان في السواقة ، في معرفة الاتجاه والطرق ، ثم تلك الاغاني التي احضرها خصيصاً ، ووضعها في المسجلة ، فقد اضفت على الرحلة متعة كبيرة، انست الحكيم ، خلال جزء طويل من الطريق ، الخوف .

المفاجأة الثانية التي اذهلت الحكيم الى اقصى حد ان تكون في الدنيا أشجار بهذه الضخامة وبهذا العمر المديد، فما كاد ينزلق إلى غابة (Red Wood) ويشهد تلك الأشجار التي لا تثير الإعجاب فقط، وإنما تثير الذهول والتساؤل،

حتى بدأ الحكيم يحلق في عوالم بعيدة وغامضة. استعاد بتشويش كبير أكثر الوقائع التاريخية التي قرأها، وبدا له أن كل شيء ممكن في هذه الحياة، وأن الخلود أمر يتعلق بالدرجة الأولى برغبة الإنسان ثم بمدى قدرته!

كان مذهولاً لا يجد الكلمات المناسبة التي يقولها لنفسه او لغيره . كان يضرب على الاشجار ، يتطلع الى اغصانها ، يتابع سيقانها في هذه الرحلة التي لا تصل الى نهايتها ، وتظهر على وجهه علامات العجب ، وظل يردد ، دون تعب ، كلمة واحدة : « سبحان الله ، سبحان الله » . أما غزوان الذي استعد لهذه الرحلة بكثير من المعلومات والطرائف ، فقد فاجأ اباه وامه بمقدار ما يعرف . أما تلك الصور التي التقطها ، وكان حريصاً ان تكون جامعة ، وقد استعان بعدد من الزوار لالتقاطها ، فقدْ ظلت مدار حديث طويل وطريف للحكيم بعد ان عاد الى موران ، وصدف ان الكثيرين رأوا وداد في هذه الصور لاول مرة !

السلطان الذي استمع بكثير من الانتباه للحكيم يحدثه حول رحلته ، وحول عظمة الولايات المتحدة ومدى اتساعها وتنوع خيراتها ، دقق ، بكثير من العناية ، بالصور التي قدّمها اليه الحكيم ، معتذراً ان « ام غزوان اضطرت ان تكشف عن وجهها لان عادة اهل البلاد لا تسمح بغير ذلك » . ابدى السلطان شكوكه حول ما يقوله الاميركيون عن عمر الاشجار ، ولا يمكن ان يصدقه الانسان ، اذ « كيف يعرفون اكثر مّن سابع او ثامن جد ؟ » «وكيف يعرفون ان عمر هذه الشجرة الف سنة وهذي ألفان ولا هم زرعوها ولا عرفوا من زرعها؟» والحكيم الذي حاول ان يقرّب الموضوع الى منطق يمكن فهمه واستيعابه ، وتحدث عن « امور علمية » ، لم يستطع ان يستمر ازاء ابتسامات السلطان ، والتي كانت اقرب الى السخرية او عدم التصديق .

كان السلطان بعد كل عبارة جديدة يقولها الحكيم عن « غابة نوح » - كما اطلق عليها ، تثير اهتمامه ، او هكذا يتظاهر ، فيلتقط الصور مجدداً ويتمعن بها ، وكأنه يعاود دراسة اعمار الاشجار ، لكنه في الحقيقة كان ينظر الى وداد ، ينظر الى شعرها ، الى رقبتها ، الى طولها ، كان يدرس اية امرأة تكون ، قياساً للنساء اللواتي عرفهن! في لحظة مناسبة ، وقد سأل السلطان عن دراسة

غزوان ومدى « تقدمه بـالعلم » قال وهـو يبتسم ابتسامـة كبيرة تـظهر اسنـانه كلها :

ـ والله العليم ، يا حكيم ، ان غزوان آخذ منك ومن امه !

بعـد فترة من الاحـاديث المختلفة ، والتي كـانت تدور حـول الولايـات المتحدة ، سأل السلطان مـا اذا كان احـد من الاولاد رافقهم بهذه السفـرة ، ودون ان ينتظر الاجابة ، سأل عن اعمار الاولاد ، والحكيم الذي سر كثيـراً لهـذا السؤال ، والذي يـدل على اهتمـام السلطان ومحبته ، اجـاب بكثير من التفصيل عن اسماء الاولاد والتاريخ الدقيق لميلاد كل منهم !

الآن ، وغـزوان يعـود الى مـوران ، ويـرى ابـوه ان من « الـواجبـات » الاساسية ان يقوم بزيارة القصر والسلام على السلطان وتقديم الشكر له ، فقد كانت مناسبة اضافيـة ، لا لان يتأكـد السلطان من عمر « غـابة نـوح » وانما ليتمعن بالصور ، لان ينظر دون تحفظ ، اولاً ، لكي يدقق ويقارن بين الصور ووجه غزوان ثم بينها وبين . . وجـه الحكيم واخذ يـردد نفس الكلمات التي قالها قبل شهور :

ـ اتاري ، يا حكيم ، غزوان آخذ منك ومن امه !

وغزوان الذي بدا شخصاً مختلفاً في هذه الزيارة ، اقنع اباه ان من المناسب ان يـزور السلطان بنفس المـلابس التي يلبسها في ستايت State ، وان يتصرف علـى هواه ، وهذا ما حصل وقد تركت الزيارة اثراً مريحاً لدى الحكيم ، اذ اثنى السلطان على مظهر غزوان وعلى دراسته ، وقال في نهاية الزيارة :

ـ ولا بد نزور غابة نـوح يا حكيم ، مـا دام غزوان هنـاك ليكون دليلنـا ويراوينا كل شيء .

وانتهت زيارة غزوان « اقصر من البرق » كما قـال ابوه ، وهـو يودعـه ، وشعر انه لم يتكلم معه ، لم يره بما فيه الكفاية . قال له عند باب الطائرة :

ـ ما شبعنا منك ، يا حبيبي ، لكن تبقى دراستـك هي الاهـم ، وانشاء الله ترجع الينا في اقرب فرصة ، والله يحرسك ويوفقك !

انتظر الحكيم بفارغ الصبر عودة راتب من شهر العسل ، وقد امتد هذا الانتظار وطال ، بحيث شمل الصيف كله ، وقد سبّب له هذا قلقاً وارتباكاً ، اذ كان يريد ان يبدأ « الرحلة الكبرى » ؛ رحلة البحث و « التقصي » ثم بداية « التدوين » ، وهذه الالفاظ والصفات من اختياره هو ، أما ان يكون مثل الذئب : عيناً مغمضة واخرى كالفنجان لا تعرف الراحة أو المنام ، ليرقب ذلك الخبيث سعيد ، او ليعرف ماذا يصنع رضائي ، خاصة في هذا الصيف اللافح ، والذي بدا للحكيم اقسى واطول من اصياف اخرى ، فقد شعر انه يضحي اكثر مما يجب ، ويتحمل اكثر مما يطيق ، وانه يؤجل اموراً لا تحتمل التأجيل .

أما بعد ان عاد راتب من رحلته ، وكان في منتهى الرضا والثقة ، وبعد الحفلات التي اقيمت له ، وكانت حدثاً مشهوراً في موران ، فقد ظهر الحكيم في حالة من الزهو ، اقرب الى الغطرسة ، قال لراتب بتورية لا تخفى :

ـ تحملتُ كثيراً خلال هذا الصيف ، ولا يكلف الله نفساً الا وسعها ، والآن جاء دوركم !

وراتب الذي يعرف مداعبات الحكيم ويتحملها بصدر واسع ابتسم ولم يعلّق .

تابع الحكيم وهو يبتسم ، ويغمز بعينه :

ـ ولازم تعرف، يا راتب، ان اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس . .

ـ التيس احسن من الجدي ، يا ابو غزوان !

هكذا رد راتب بمرح ، فاجابه الحكيم :

ـ لكن التيس يظل تيس .

ـ مظلوم هذا الحيوان، يا حكيم، لأنه أذكى وأجرأ من حيوانات كثيرة!

ـ يا سيدي . . المهم ان يكون الانسان فوق شغله ، لان اولاد الحلال حولنا اكثر من الهم على القلب !

وفهم الذين سمعوا الكلام ، انه يعني اكثر من واحد ، لكن مع ذلك انصرفت الاذهان الى رضائي بالدرجة الاولى .

اصبح الحكيم بعودة راتب قادراً على ان يتحرك ، ان يعطي وقتاً اطول لهذا الهّم الذي يشغله ، خاصة وان فترة الصيف ، رغم صعوبتها ، كانت من اغنى الفترات واهمها ، لان سمير الذي بقي الى جانب الحكيم ، كموقف تضامني ، هكذا فسّر تأجيله لاجازته السنوية ، بدا كريماً اكثر من اية فترة سابقة ، اذ كانت المناقشات بينه وبين الحكيم تطول في اكثر الليالي وتمتد الى السحور ، وقد صادف ان جاء رمضان خلال الصيف ذلك العام ، والحكيم الذي كان محافظاً واقرب الى التزمت بطبيعته ، وجد ان جو موران يفرض عليه ان يكون اكثر محافظة ، ولذلك لم تظهر وداد بعد ان عادت امام الضيوف ، ولم يرها الا عدد محدود من الرجال .

أما تجاه سمير ، خاصة في نهاية هذا الصيف ، فكان الامر مختلفاً . فاللقاءات والمناقشات التي تجري في قصر الحير ، اغلب الليالي ، وعلى الشرفة الغربية، وكانت في البداية تقتصر على الاثنين فقط، فما لبثت ان انضمت وداد اليها . انضمت اول الأمر قياماً بواجب الضيافة ، ثم برغبة ان تسمع وتتابع . كان يروق لها ان تعرف ما يشغل زوجها وما يفكر فيه ، وان تعرف ، ان تسمع وان ترى هذا الرجل ، الذي لا يتوقف الحكيم عن ذكر فضائله وقوة عقله . . . وخفة دمه ايضاً !

بدأت اللقاءات اواخر الصيف ، أما بعد ان غاب راتب فترة طويلة ،

اطول مما قدرت وداد ، وعاد اكثر سعادة مما قدرت ايضاً ، فقد خلق لها هذا تحدياً دون ان تعرف له سبباً . واذا كانت بوادر هذه الحالة قد بدأت قبل عودته ، وقد ادرك الحكيم ذلك ، نتيجة العصبية والحدة التي ميزت تصرفاتها وعلاقاتها مع الخدم ، فقد قدّر ان الامر يعود ، بالدرجة الاولى ، الى جو موران ، وربما ايضاً الى شهر رمضان ، رغم ان وداد لا تصوم الا حسب مزاجها ، متخطية كل الاعتبارات الدينية ، اذ كانت تصوم، بعض الاحيان ، كالاطفال ، والحكيم الذي يعرف ذلك ويوافق عليه يقول لها بنوع من التعاطف الواضح :

ـ الثواب على قدر المشقة ، والاطفال والنساء لهم اعذار كثيرة . .

ويبتسم ثم يضيف :

ـ وساعة موران ، في مثل هذا الحر تعادل اياماً بكاملها ، ولذلك يكفي هنا ان يصوم الانسان بالنّية او حسب درجات المادنة ! .

أما بعد الحفلات التي جرت لراتب ، وكانت وداد بمثابة ام العريس والعروس معاً ، واظهرت اهتماماً وفرحاً بالغين ، واشتركت في التحضير وتقديم العروس للضيوف وللقصر بعد ذلك ، ثم تلك الاقتراحات التي قدمتها للزوجين الجديدين ، سواء من حيث الناس الذين من المناسب ان تقام معهم العلاقات ، او من حيث ترتيب البيت ؛ بعد تلك الاجواء التي شغلتها وادخلت تغييراً كبيراً على حياتها ، فقد بدأت تحس يوماً بعد آخر انها خسرت الكثير ، وانها اخطأت خطأ لا يمكن ان تغفره لنفسها ، حين جارت زوجها ووافقت على فكرة زواج راتب ، ثم اصبحت كل شيء في اللعبة . وتأكد هذا الشعور وتعمق بعودة راتب ، فقد بدا لها انساناً مختلفاً . كانت اذا نظرت اليه بتلك الطريقة التي تعرفها جيداً ، وتعرف كيف تؤثر عليه وكيف يستجيب لها ، يهرب منها ، يتظاهر انه يستمع الى الآخرين ، او انه يقوم بعمل ما ، واذ تلح اكثر من قبل ويتهرب اكثر من قبل تعرف كيف ترد عليه ، وكيف تخضعه مرة اخرى !

لو كانت في بيروت ، لو كانت معه وحده ، لعرفت كيف تعيده الى

احضانها طفلاً صغيراً . لقد حاول في اوقات سابقة ان يتمرد ، ان يكون كما يريد او كما كان ، لكن جبروتها سحقه ، لا ليس الجبروت ، انه شيء آخر يحار في وصفه او تسميته ، وان كان دائماً شيئاً قوياً كاسحاً ، لا يقوى على مقاومته . مرة ترفع صوتها ، مرة تبكي ، مرة ترفض ، ومرة لا تتركه يهدأ او ينام لحظة واحدة . تقبل عليه كسحابة الربيع ، او تمتنع كأنها فتاة عذراء . تركع عند قدميه كجارية ، تفرك ساقه وتداعب باطن القدم ، او تفترسه كأية لبوة دون ان تنتظر موافقته او حتى سماع صوت رغباته . وهو في جميع الحالات ، رغم الاستعداد والتهيؤ . . يسقط ، يتراجع ، ويجد نفسه في احضانها طفلاً مستجيباً يبحث عن الدفء والحنان ، او يبحث عن شيء ما يفتقده !

الآن تشعر انها فقدته ، تشعر ان هذه الفتاة الصغيرة ، ابنة التسعة عشر عاماً ، سرقته منها وتحاول ان تفلت . هل يمكن ان توافق او ان تسلّم في مواجهة هذه الفتاة الغريرة ؟ هل تنسحب وترضى بذلك الدور الكئيب : دور الحماة ؟ وراتب ، ذاك الذي يفخر بتجاربه ، وماضيه ، هل يقنع بهذه الدجاجة الخائفة المرتبكة وينساها ؟ لا تتصور لحظة واحدة ان ذلك شيء ممكن . لتتركه الآن ، لتتركه بعض الوقت ، ريثما يمل ذلك الجسد الباهت ، والذي يشبه الوجبة الخالية من الطعم ، ولا يختلف مذاقه عن مذاق الماء ، بالتأكيد سيمل ، وربما في وقت ابكر مما تتوقع ، وسوف يعود اليها . لكن اذا عاد هل ترضى وتستجيب اليه بمجرد ان يرغب ؟ لا ان هذا جزء من ماضٍ انتهى وانقضى . الآن تريد ان تعذبه الى درجة القهر ، الى درجة التوسل . يجب ان يبكي لكي يعوّض عن بكائها في الايام السابقة، يجب ان يدق بابها مئات المرات ، وسترد على هذه الدقات بأن تؤكد وجودها لكن غير راغبة فيه ايضاً . ليست مستعدة لان تستجيب له ، حتى اذا هلك ، اذا قبّل قدميها ، وبعد ان ينتظر ويتلف ستنقذه مرة اخرى ، سوف تستعيده لكن لكي يبقى لها هذه المرة .

هكذا افترضت ان الامور ستجري ، لكن مع ذلك لم تكن متأكدة ، ولم تكن مستعدة للانتظار . لن تبقى مثل امرأة مهجورة لا تملك شيئاً سوى الانتظار . ولن تقبل ان يتذكرها الآخرون عندما لا يجدون غيرها ، او لا

يجـدون شيئاً يفعلونـه . لا . . لن ترضى ، يجب ان تؤرق حيـاته ، ان تجعله مجنوناً بها ، ومتى ؟ في ذورة شعوره بالانتصار ، في اللحظة التي يحس فيها انه تجاوزها ، او انه لم يعد يحبهـا او بحاجـة اليها ، وعنـدما تـظن تلك الصغيرة المفتونة بصدرها وبردفيها ، انها ملكت وسيطرت ، تكتشف فجأة انها لم تملك سوى الريح ، ولم تسيطر الا على الوهم ، فتخضع عندئـذٍ ، لكن بذل اكبـر ويتسلم كامل ونهائي .

الغيرة ، اذن ، هي الوسيلة التي يجب ان تلجأ اليها لتثيره . ان يكون في حياتها رجل آخر . ليس مجرد رجل تلتقي به في الظلام ، حين ينام الآخرون ، كما كانت تفعل معه ، فلا يحـس ولا يعـرف ، وانما ان يكون شديد الحضـور ، قوياً ، وان يراه راتب بعينيه وبحواسه كلها ، ليتأكد كم هي مرغوبة ومشتهاة ، وليعرف ايضاً كم اصبحت مستحيلة بالنسبة له . لن يكون الحكيم بطل هذه اللعبة الخطرة ، ولن يكون احد الذين يفترضهم ، سوف تتتجاوز كل ظنونـه وتوقعاته : سوف تحب سمير !

تتذكر . . في احدى الليالي سألها وهو يضمها ، بعد ان نام الحكيم ونزلت اليه مثل قطة ، عن سمير ، فاكتفت بان قالت بهمس :

ـ مثل كل عفاريت ،هاروش وماروش !

وراتب يعرف معنى هذه السخرية ، حين تلجأ اليها . لذلك لم يسألها مرة اخرى . اما في المرات اللاحقة ، وكان سمـير يتحدث الى المـوجودين ، لكن كان ينظر الى الحكيم بالذات ، وكأنه الشخص الوحيد ، فقـد اكتشف راتب فيه مكراً اقرب الى السخرية ، وفي نهاية السهرة ، وبعد ان غـادر الضيوف ، قال الحكيم لراتب دون ان يسأله :

ـ لو كان في موران كم واحد مثله لحـرثتُ المنطقـة كلها وخلـيت الكـل يركع .

وراتب الـذي كان يفكـر في قضايـا اخرى لم يجب ولم يعلق ، أمـا عنـد الفجر ، وحين كانت وداد تتسلل الى فراشه ، وقد طال انتظاره لها ، فقد سألها بنوع من الاتهام :

ـ تأخرت ، تأخرت كثيراً ، ما اخرك ؟

قرصته من خده واحتضنته بقوة . كانت دافئة شهية ، وكانت نسمات الفجر قد ايقظتها ، ولما سألها من جديد ان كان الحكيم قد نام ام لا ، ردت بسخرية :

ـ الهذه الدرجة خايف ام صرت تغار ؟

ولا تعرف لماذا ارادت ان تداعبه ، ان تثير غيرته . بدا سمير اقرب الاشباح اليها ، سألت بمكر :

ـ اعجبتك السهرة ؟ اعجبك سمير ؟

وتذكرت النكت التي رواها سمير على مائدة الطعام ، كانت محتشمة في الظاهر ، لكن تحت هذا الغلاف الرقيق من الحشمة كانت التورية الماكرة الفاجرة ، وقد ضحكوا لها طويلاً ، حتى ان راتب تطلع اليها اكثر من مرة بنظرات لا تخفى دلالتها . الآن وهي تسأله ، وهي تستعيد تلك النكت التي لم تقل كل شيء بوضوح ، تحس غيرته . فلما ظل صامتاً مستمتعاً بهذا الدفء قالت لتستفزه :

ـ ما رأيك لو حبيت سمير ونمت معه ؟

وردّ على سؤالها بجسده كله : ارتمى عليها بقوة كما لو انه يعاقبها ، يلطمها ، ثم لوى ساعدها ببعض القسوة ، لكنه لم يؤذها ، وحين حاولت ان تفّر منه ، ان تبتعد قليلاً لتنظر الى وجهه والى عينيه لتقرأ الجواب ، كانت الظلمة الشاحبة تحد من الرؤية او تمنعها ، قالت لتواصل لعبتها :

ـ ما جاوبت على سؤالي ؟

ومن بين اسنان مصطكة قال كلمة واحدة :

ـ اخرسي !

قالها بمزيج من الحقد والشتيمة والمداعبة وعدم التصديق . وناما تلك الليلة كما لم يفعلا من قبل ، شعرا بالغبطة والارتواء اكثر من اية مرة سابقة ، وشعرا انهما اقرب الى بعضهما بعضا من اية فترة ، أما عندما سمعت نحنحات

ابي عبد الله في الحديقة فقد اجفلت ، ومثل قطة انسلت هاربة تاركة الباب نصف مفتوح ، لئلا يحدث اغلاقه صوتاً يوقظ الحكيم !

بغريزتها احست ان سمير الشخص الوحيد الذي يجعلها تستعيد راتب ، ولذلك ، ودون ان تتردد ، ودون ان تنتظر بدأت لعبتها . فبعد ان انتهت الحفلات الرسمية التي اقيمت لراتب ، وخلال شتاء ذلك العام ، اقترحت نظاماً للتزاور بين مجموعة من العائلات ، كان راتب اساسياً فيها ، وكان سمير ايضاً . وهذا النظام في تبادل الزيارات ما كان ليروق للحكيم لولا المقدمات التي سبقته . فسمير الذي ابدى تلك الشهامة ، وبقي في موران ذلك الصيف ، واعطى للحكيم جل وقته وخلاصة افكاره ، لم يرتفع بنظر الحكيم فحسب ، وانما اصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، وما كان هذا ليتم دون موافقة وداد ومشاركتها . واذا كان الحكيم قد خشي شيئاً فهو ان تعاودها الآلام الغامضة والكآبة فتنعزل ثم تدخل في تلك الحلقة من الامراض والحزن ، وربما المشاكسة، فتفسد عليه ما حضّره وما استعد له ، لكن حين وجد ان سمير يغير الجو بمرحه وشبابه ، وليس مثل غيره من الضيوف ، وأن وداد لم تعد تنزعج من المناقشات التي تجري بينهما ، فقد اعتبر نفسه محظوظاً الى اقصى حد ، واعتبر « ان قوة عليا ، غامضة وكلية ، هي التي تقود خطواته وتيسر له اداء رسالته » . ولذلك قدر لوداد هذا « النبل » واعتبر ان تضحياتها ونكرانها لذاتها لا يمكن ان ينسى ، وهذا ما جعله يوافق باندفاع على اقتراحها .

كان شتاء حافلاً مليئاً بالصواعق والرعود ، فالفتاة الصغيرة التي فرحت بالفستان الابيض الذي لبسته لاول مرة، كعروس، في موران، وبدت مثل دمية وسط الاحتفالات والحفاوة ، والتي كانت تبدو مرتكبة خجولة لا تعرف كيف ترد على الاسئلة او كيف تتصرف ، ما انقضت على اقامتها بضعة شهور حتى سقطت فريسة للمرض . قال الحكيم : « عدم التكيف نتيجة الكآبة وضعف الشهية » . أما جارتها ، ام جميل ، فقد كانت متأكدة انّه « وهم الحبل لكن دون حبل» وقد اعطتها نوعين من الادوية لمعالجة انتفاخ البطن والدوّار. وداد وحدها كانت تعرف العلة ، لكن لم تقل ذلك ، اذ بعد عدة سهرات

صاحبة اكدت للصغيرة انها لا تملك ان تقرر بمفردها ، وانها هي التي تقرر نيابة عن الجميع ، خاصة نيابة عنها ، ولذلك فقدت الصغيرة القدرة على التصرف او التكيف ، ووقعت مريضة .

أما راتب الذي ظن ان وداد التي كانت ملك يديه امس ، ستبقى كذلك اليوم وغداً ، لذلك كان يتصرف بكثير من الثقة والاطمئنان ، وسيعود اليها حالما يشبع من هذه القطة الصغيرة ، وانه في وقت قريب سيرتد الى أوزّته المتعالية ويردها كما يرد دجاجة ضالة او هاربة ، وسيعاودها مرة بعد اخرى ما وجد ان نفسه تشتهيها ، بدأ يكتشف ان الاوزة تبتعد ، وانها من هذه المسافة تنقره ، تسخر منه ، ولا تتردد في ان تقول ، بكلمات واضحة ، انها توشك على الطيران بعيداً لتنضم الى سرب آخر ، ولتكتشف عالماً جديداً . لا تكتفي بذلك تعرف كيف تعامل سمير امامه بالذات ، كيف تدلله ، وتضحك للنكت التي يرويها ، واخيراً كيف ان الكلمات التي قالتها قبل فترة طويلة تعنيها ، وتعني شيئاً جدياً !

وراتب يتظاهر ان اللعبة لا تعنيه ، او انها نوع من الاستفزاز والاثارة ، ولا بد ان تنتهي كما بدأت ، بمجرد ان يغمز بعينيه او يأتي باشارة ، لكن يكتشف يوماً بعد آخر ان اللعبة اكثر جدية مما قدر او مما يحتمل . يقول في نفسه « الرجل يستطيع ان يرضي الله ويرضي الشيطان معاً ، أما ان يرضي امرأتين فأمر مستحيل » وينتظر ويتابع ، ويصرّ ان لا ينسى .

الوحيد الذي دخل اللعبة نتيجة حسابات ، وكان متأكداً من حساباته ، هو سمير ! فموران وسلطانها وحكيمها ، وكل ما حملت ارضها او اظلت سماؤها ، لم تكن تعني له اكثر من : الاقامة الجبرية في منفى . صحيح انه هو الذي اختار هذا المنفى ، وانه سيبقى فيه بضع سنين ، لكن سيرجع ثرياً كبيراً ليبدأ حياته من جديد . ونتيجة هذه القناعة ، غابت المرأة من مخيلته او كادت . واذا كان قد ارغم نفسه على ان ينساها خلال سني السجن ، لئلا يتعذب او يضيع ، فلم يكن يملك الامكانية لان يجعل احلامه حقيقة واقعة ، خاصة هنا ، في موران ، ولذلك واصل اللعبة ذاتها ، ليس عن عفة او عدم رغبة ، وانما « لان موران كلها تمارس العادة السرية ولا تمارس الجنس ، لان

الجنس الآخر غير موجود » هكذا كان يقول ليقنع نفسه قبل ان يقنع احداً ، وليدلل على ان المرأة غير موجودة ، او على الاقل لا يمكن الوصول اليها ، ولئلا يغرق في الاوهام والاحلام !

ولان المال هو الهدف الاساسي وربما الوحيد فقد صعّد ميوله كلها نحو هذا الهدف السامي ! أما بعد ان جاءت وداد لتحضر مناقشاته مع الحكيم ، ولتكون ربة بيت مضيافة ، فقد اعتبرها ديكوراً « في هذا الخراب الجميل » : يعني موران ومن فيها ، ولذلك فهذا الديكور يرطب الجو قليلاً يكسر وهج الشمس . وقد يمنع ايضاً سفّ الرمال .

لم تكن وداد صورة المرأة التي يتمناها او يشتهيها ، بكل تأكيد ، هكذا قال لنفسه ، ولذلك لم تثر فيه ، حين رآها اول مرة ، انفعالاً ، ثم في المرة الثانية لم تثر فيه شهوة ، خاصة وانها تحصنت وراء صمتها ، وكانت عيناها تتوهان في المدى دون ان تستقرا على شيء او على احد .

في المرات اللاحقة ، خاصة في الحفلات التي اقيمت لراتب ، او في تلك السهرات التي اصبحت تنعقد في قصر الحير او في بيت راتب ، وفي بيوت الا صدقاء الآخرين ، بدت له وداد امرأة مختلفة : اكثر شباباً واكثر فتنة . وانه يعني شيئاً بالنسبة لها . استغرب انه لم ير هذا الشباب وهذه الفتنة من قبل ، او لماذا كان غافلاً عن هذه النظرات المليئة بالشهوة والنداء . أما حين تحرشت به اول مرة ، بان وضعت يدها فوق يده وضغطت ، فقد ارتبك ، بل وبدا شاكاً من معنى تلك الحركات او انها تقصدها ، وراتب الذي التقط هذه الاشارات فوراً ، وفهم معناها وابتسم ، زاد في ارتباكه .

انقضت بضعة ايام على هذه السهرة ، كانت اطول ايام يعيشها سمير في موران ، وكان متأكداً خلالها ان الحكيم سيعرف ، وعندئذٍ لا بد ان يلقنه درساً لن ينساه في حياته كلها . لن يكتفي بان يلقي به في جب عمقه مائة ذراع من جباب موران ، وهناك ، وبعد ان يقضي سنين عديدة لا يرى خلالها نوراً او بشراً ، وبعد ان ينهكه المرض، سوف يمسك به كما يُمسك بفأر ، ويُلقى خارج الحدود : فقيراً ، منبوذاً ، بعد ان يكون قد خسر صحته وشبابه . . . وأمواله .

بعد بضعة ايام بعث الحكيم يطلبه ، ويلح ان يأتي وان يلقاه في تلك الليلة بالذات . اكد السائــق عـلى ذلك بلهجة جازمة وبـاساليب عـديدة . تـأكد سمير ان منيته قد حانـت ، وان العقاب الذي ينتظره سيكون شديداً ورادعاً ، لكي يؤدب « هؤلاء الوافدين » . أما عندما وصل الى قصر الحير بعد الغروب بقليل ، وكان خائفاً منهكاً ، وتمنى في اعماقه لو انه لم يصل موران ولم يرها ، فقد وجد الحكيم على الشرفة بانتظاره ، وما كاد يراه ، وكان متحسباً قلقـاً ، وعلى وجهه حالة من التجهم والاستغراب ، وقد زادت هذه الحالة في شعوره بـالانهاك ، وبكلمات مـرتبكة اقـرب الى التوسـل القى سمير التحيـة ، لكن الحكيم لم يـرد عليها وانمـا تقدم نحـوه وقد زاد تجهمـه ، وهو ينـظر الى عينيه بتحديد . كاد سمير يتكلم ، ان يصرخ ان لا علاقة له بهذا الذي حصل ، وانه لم يفكر ولم يحاول ابداً ، لكن كلمات الحكيم الوجلة الخائفة جاءته في اللحظة الأخيرة :

ـ قلت لنفسي ان غيبتك ما هي طبيعية . .

ـ عيّان . . يا سعادة البيه ، عيان خالص .

خرجت الكلمات حزينة متوسلة ، وكأنها تطلب غفراناً ، او على الاقـل تأجيل العقاب . امتدت يد الحكيم الى جبينه تجسه ما اذا كان حاراً ام لا . أما عندما ظهرت وداد من باب الشرفة بضحكة تملأ وجهها وبفستان سماوي ضيق قليلاً ، يبرز صدرها الفخور الشامخ ، وقالت وهي تتقدم نحوه :

ـ طوّلت علينا يا استاذ سمير . . .

فقد تأكد عندئذٍ ان الظنون التي ملأته خلال الأيام الماضية مجرد اوهام . وعندما هرع الحكيم الى الداخل ليأتي بحقيبته الطبية ، فقد قالت له وداد بمـا يشبه الهمس :

ـ ما لك حق تغيب هذي الغيبة الطويلة ، او زعلان منا ؟

وعلى المرجوحة في صدر الشرفة مُدّد سمير ، وقام الحكيم بفحصـه بكثير من العناية ، لكن لم يتـوصل الى نتيجـة ، وقد زاد في حيـرته الاعـراض التي ذكرها سمير ، فاكتفى بان اعطاه قرصاً مهـدئاً ، عـلى ان يجري لـه فحوصـاً

اضافية اذا لم تتحسن حالته في الأيام القادمة . لكن قبل ان تنتهي تلك الليلة ، ومن خلال الاحاديث المرحة التي اسعفت الحكيم ، ثم من خلال العشاء الشهي الذي حضرته وداد ، استعاد سمير قوته وحيويته ، وبدا انساناً آخر . أما عندما قام مستأذناً بالانصراف ، فقد اقترح عليه الحكيم ، كوسيلة في الحيطة ولزيادة الاطمئنان ، ان يقضي الليلة ضيفاً عندهم ، لكنه اعتذر ، وأيدت وداد الاقتراح بكثير من الحماس ، وقالت انها ستعّد له السرير خلال ثوان قليلة ، وفي محاولة لاقناعه اشارت ان الحكيم سيكون قريباً . . اذا اقتضى الأمر وضحكت ، لكنه اصر على ان يغادر ، وازاء هذا الاصرار اصرا ، من جانبهما ، ان يوصلاه بالسيارة ، « لان المشوار في هذه الليلة ، وموران نائمة ، سيكون جميلاً » .

في السيارة ، اكثر من مرة ، لامست يداها يده ، وقالت الايدي ، في تلك الليلة ما لم تقله الكلمات او العيون ، وبدا لسمير انه يسير في شارع له اتجاه واحد ، ولا بد ان يسير في هذا الشارع الى نهايته .

ـ حب واحكِ واكره واحكِ !

هكذا قال الحكيم لراتب ، وكان يهز رأسه بنوع من الاسف والحزن ، بعد ان استمع اليه طويلاً يحدّثه عن تغير موقف سمير ، وعن بخله « وان الرجال لا يمكن ان يعرفوا الا بعد ان يجربوا » .

ولما خيم الصمت بين الاثنين اضاف وكأنه يحدثه نفسه :

ـ بعد ان اختبرت الرجل ، بعد ان عرفته عن قرب ، فقد تغير موقفي منه ، اصبحت اقرب الى الشك وعدم الثقة .

ولما حاول الحكيم ان يذكره برأيه فيه اول وصوله الى موران رد راتب بنزق :

ـ الله يخليك يا حكيم ، وانت سيد العارفين : سبحان الذي لا يتغير .

وزفر بحرقة ثم اضاف :

ـ المال، يا حكيم ، يفتل الراس ، والمنصب يغيّر . وشايف لك ان سمير تغير . أما شو اللي غيّره فعلمي علمك !

رد الحكيم وهو يبتسم ابتسامة واسعة :

ـ يا ابن الحلال . . اذا الرجال صمّد له كم قرش فقل لي من في موران ما انطمر بالفلوس ؟ واذا المسألة مسألة مناصب فالرجال ما بنفسه لا منصب ولا ما يحزنون .

ـ انا اللي علّي قلته يا حكيم ، ولولا معزتك عندي لا حكيت ولا طلع مني كلمة .

وبعد قليل وبحزن :

ـ ومع ذلك خلِ المسألة ببالك والأيام بينا يا حكيم !

تطلع اليه الحكيم بتوجس ، لان وثوقه هذه المرة تجاوز الحد المألوف . سأله بارتياب :

ـ لك يا راتب خاف تكون سامع اشياء لا اعرفها ؟

وبعد قليل :

ـ ها سامع شيء ؟

ـ ابداً ابداً ، المسألة من اولها الى آخرها انه اصبح انساناً من نوع آخر ، غير ما عرفته !

سأله الحكيم بنوع من التحدي :

ـ طيب . . شو رأيك لو حكّمنا مطيع او حماد ؟

ـ يا سيدي ، الله يخليك ، المسألة من اولها الى آخرها لا تستاهل !

كان راتب يريد ان يبذر الشك ، ان يبعد سمير ، اكثر مما يريد ان يشير الى علاقته بوداد ، لانه ما زال واثقاً بقدرته على ان يستردها ، كما انه لم يصبح غريباً الى الدرجة التي يحتاج فيها الى مساعدة الآخرين لطرد هذا المنافس . تكفي هذه الاشارة الآن ، أما لو حاول اكثر من ذلك فربما استطاعت وداد ان تقنع زوجها انه وحده الذي حاول ان يتحرش بها ، وقد تتولد من ذلك اشكالات ومنغصات هو في غنى عنها الآن ، خاصة في هذه الفترة المبكرة من زواجه .

ووداد . . هذه اللبوة التي اكتشفت جسدها في وقت متأخر ، والتي عرفت الحكيم حتى حرف الياء ، تريد الآن ان تعوض كل ما فاتها . فالذي يتحدث بهذا المقدار عن الجنس ، والذي يملأ سهراته مع الاصدقاء بتفاصيل لا تنتهي

حول اهمية هذا العامل وتأثيره ، ليس فقط على سلوك الانسان الفرد وانما على الدول وعلى المجتمعات البشرية ايضاً ، لا يجد الوقت او القوة لكي يكتشفه بنفسه وعندها بالذات ، او لكي يمارسه كما يقول . ولا تعرف وداد كيف حفظت من سمير ، هذا الخلد، كما يسميه زوجها مداعباً ، كلمة لم تفهمها جيداً لكن تحس باعماقها معناها . قال لها ذات ليلة ، بعد محاضرة كان يلقيها الحكيم عن الاخلاق ، وقد قام الحكيم ، مثل عادته كل ليلة ، وطال بقاؤه في الحمام ، قال لها : « من يتكلم بهذا المقدار عن العفة ليس لديه الوقت لممارستها او ليكون عفيفاً! » .

الآن تريد ان تكتشف عبقرية الجسد ، ان تمتحنه لتستقرىء فيه كل ما يستطيع ان يقوله ، وبجموح يتجاوز كل حد .

راتب ما زال يؤرقها ، يخض دمها . بمجرد ان تراه تستفز ، يملؤها التحدي ، فتصبح كالقطة التي يلوح لها بقطعة من اللحم او الجبن، فلا يمكن بعدها أن تهدأ أو أن تستسلم. تشعر أنها محتاجة إليه، تريده كل ليلة، وبنفس الوقت تشعر تجاهه بالكراهية والنفور ، اذ ما تكاد تراه حتى تتبدد وتضيع ، تجد نفسها غير قادرة على النسيان او الغفران ، اكثر من ذلك تجد نفسها غير قادرة على ان تستسلم. يجب ان يأتي،ان يركع ويتوسل ، وبعد ذلك ليذهب مرة اخرى . انها توافق على ان يفترقا . أما ان يبقى هكذا : واثقاً ، مكتفياً ، متعجرفاً ، وان لا يحس بوجودها الا كما يحس بوجود الآخرين ، فلن تغفر له ذلك ابداً !

ليست هي التي تفكر وتقرر ، جسدها وحده هو الذي يفيض الآن ، يطغى عليها ، يتجاوزها . والحكيم الذي يّسف تلك الادوية ، ويبدو شاباً متألقاً في بعض الليالي ، لا يلبث ان يخبو ويتلاشى . لشدّ ما كانت تكره شخيره . كان يستفزها هذا الشخير الى درجة التحطيم . كانت تقضي ، في احيان كثيرة ، الليل بطوله ، في محاولة لان تنام وتغفو ، لكن ذلك الصوت الرتيب المتواصل المشحون بكل الثقة والطمأنينة يبددها ، يهدها ويولد لديها عصبية جامحة فلا تقوى على المقاومة او الانسحاب .

اكثر من ذلك لا تعرف حقيقة شعورها نحوه : تحبه وتكرهه في آن واحد . تريده ولا تريده ، اذ بمقدار ما يمثل لها جواً من الطمأنينة والرضا، تحسه بارداً بعيداً ، بل ومعادياً . حتى جسده لا يشبه الاجساد المتحابة المتلهفة ، وجوّه ليس مثل جو الآباء او العاجزين والمرضى ، انه حالة خاصة ، متفردة ، لا تعرف طبيعتها وجوهرها . اية هموم وافكار تملأ رأسه وتؤثر على جسده ؟ اية احلام ورغبات يريد الوصول اليها ؟ فكرت في ذلك طويلاً ، لكنها لم تصل الى اية نتيجة . المال ؟ لقد جمع من المال ما يكفي لان يحيا مرتين او اكثر ، لو كان يعرف كيف يحيا . السلطة ؟ انه الآن اكبر من الآخرين واقوى : « ظل السلطان » ، هو الذي يقرر نيابة عنه ، وهو الذي يفكر ويتصرف في كثير من الامور . هكذا قال لها في لحظات تجليه ، كان يشير الى ذلك بكثير من الفخر ، والتباهي . ثم فجأة ينسحب الى داخله ، تماماً كما تفعل السلحفاة ، فيصمت وينغلق وكأنه هاجر الى مكان قصيّ . تريد ان تعرف كيف يفكر وماذا يريد ، لكنها ، رغم السنين التي قضتها معه ، لم تستطع . وهذا الجو من الغموض يجعلها تضيع في متاهات لا تعرف كيف او الى اين يمكن ان تنتهي . في اماكن اخرى ، في اوقات اخرى ، كانت تعرف ان الدخل لا يكفيه ، او ان طرابلس ضاقت عليه ، او انه يريد ان يغير العيادة وأثاث البيت . هكذا كان يقول . أما بعد ان وصل الى السلطنة فإنها لم تعد تعرف كم يملك ، او كيف يفكر او ماذا يريد .

الحكيم في عالم آخر : « كيف يبدأ الاقلاع ؟ » هكذا يقول لنفسه ، ويؤجل القرار او البداية يوماً بعد آخر . اذ بعد ان جمع عدداً من الدفاتر الجلدية الانيقة ، ولم يترك احداً من معارفه الذين سافروا خلال تلك الفترة الا وردد امامه نفس الكلمات :

ـ لا تتعبوا انفسكم بحمل الهدايا ، كل ما اريده : مجموعة من الدفاتر الراقية ، دفاتر كتابة ، والاحسن ان تكون مجلدة وكبيرة ، والاحسن ان يكون لكل واحد منها لون يختلف عن لون الآخر .

ويضحك بقهقهة عالية ويضيف :

ـ واذا طبشتوها : قلم باركر او شفرز !

وتستبد به النشوة فيضيف موضحـاً :

ـ وكل ما كثرتم ، وكل ما غليتم انتم كرام ونحن مستاهلين !

لا يمكن ان يبـدأ « الاقلاع » كـما يتصوره وكـما يتمناه الا حـين يكون في منتهى الصفاء النفسي والعقلي ، وان لا يشغله العمل اليومي ، او ان يقـطعه عما هو فيه . وكان يخـطط ايضاً ان يكـون الاقلاع قـوياً صـاعقاً لكي يـرتفع ويحلق ، حتى اذا اخذ ارتفاعاً ووتيرة فعندئذٍ لا يخاف ولا يتوقف .

كل يوم يلقي نظرة حانية على مجموعة الدفاتر التي رتبت بعناية ظاهرة على الـطاولة الكبيـرة قرب النـافذة الغـربية في الغـرفـة العليـا . وفي محـاولـة لان « يشحن » نفسه لبدء العمل سمّى تلك الغرفة « المحراب » وسمى الـطاولة التي دهنت من جديد : « الصخرة » . أما الدفاتـر السبعة الاولى فقـد اطلق عليهـا اسماء ، بعد ان رقمّها : الاول : الاستهلال ، وكتب بخط ثلث اعتنى به كثيراً : « بين يديْ القارىء » . وكان الثاني : « تذكـرة الاذكـياء لمعـرفة سر البقـاء » . واطلق عـلى الثـالـث : « سر الاسـرار في معـرفـة تقلبــات الليـل والنهار » . واطلق على الرابع : « المختار من اخبار العصور الخوالي في معـرفة الاوائل والتوالي » . أما الدفاتر الثلاثة الأخيـرة فقد فتـح فيها اقـواساً ليـدون الاسماء التي سوف يستقر عليها ، وظل متردداً بين عدة اسـماء . ولم ينس ان يكتب بخط فيـه تواضـع : تأليف الـدكتور صبحي المحملجي ، وكـاد يكتب النطاسي ، لكنه عدل . وفكر ان يستبدل لفظة الدكتور ، باعتبارهـا اجنبية ، بلفظ الحكيم ، وقد وجد في الكلمة الأخيرة وقعاً مؤثراً ، لانها تتجاوز كثيراً المعنى اللفظي الى معانٍ أخرى . أما الكتاب بمجموعه فكان يريد له اسماً مدوياً . ورغم انه فكر بعناوين عديدة فقد ظل متردداً ، وان كان اقربها الى نفسه : « الدستور عبر الدهور » ، ومع ذلك ظل حائراً ، لانه يريد ان يكون « المربع » ظاهراً او موجوداً في العنوان .

المشكلة الاساسية التي كانت تؤرقه : كيف يستطيع ان يتصرف لكي يخيم السلام على قصر الخير . ان ارضاء وداد وقناعتها ، ثم مشاركتها واخيراً السلام مع الآخرين هي الاركان الاربعة التي تقوم عليها النظرية ، ولذلك

حرص اشد الحرص ان لا تمرض ، الا تنعزل ، أما اذا بدأت مشاكستها او اذا اثقل عليه الآخرون بالواجبات والهموم فعندئذٍ سوف يؤجل مشروعه الى وقت آخر .

ويستغرب الحكيم أن سميراً لم يكن عنصر مثاقفة فقط وانما عنصر طمأنينة ايضاً ، ووداد تحس بالرضا لوجوده ولعلاقته به ، وقد فسر الأمر « ان كل امرأة لديها شكوك حول علاقة زوجها بنساء اخريات ، ولا يمكن ان تطمئن أو ان تتخلى عن شكوكها الا اذا وثقت بصديق زوجها » ولذلك فان من جملة المزايا التي يتمتع بها سمير هذه الصفة ايضاً ، وقد تأكدت تماماً من خلال المناقشات التي تجري بين الاثنين ، وكانت تستمع اليها بكثير من الانتباه والمتابعة !

أما سمير الذي لم يلتفت، اول الأمر ، الى نظرات وداد او لم يستطع تفسيرها ، ثم وقع في ذلك الارتباك الذي جعله مُريضاً وخائفاً لبضعة ايام ، بعد ان غازلته بوضوح وعلى مرأى من راتب ، اذ قرصته من يده وضحكت ، ثم وضعت يدها فوق يده اكثر من مرة ، فقد تأكد تماماً من موقفها ودعوتها بعد ان اوصلته بالسيارة تلك الليلة هي والحكيم .

لم يكن بحاجة الى اكثر من هذه الاشارات ليبدأ . صحيح ان وداد قد تجاوزت الخامسة والثلاثين ، وبدا جسدها ممتلئاً او اقرب الى السمنة ، لكن تلك العناية التي توليها لنفسها ، تجعلها تبدو اصغر سناً . ولان موران مدينة الاشباح ، بحيث لا يمكن لانسان ان يرى المرأة او ان يصلها ، فقد لجأ سمير الى تصعيد ميوله او الى اجازات طويلة ، بحجة العمل ، في اماكن عديدة ، وخلال تلك الاجازات الى بيروت والقاهرة ، وسافر اكثر من مرة الى اثينا وروما ، كان « ينتقم ويتزود » كما كان يقول لنفسه !

الآن ووداد تقتحم عالمه ، وبعد ان تأكد من جبروتها ومدى تعلق الحكيم بها ، فقد امتلأ رغبة في ان يدخل هذه التجربة . قال لنفسه : « المرأة الثرية لا تكبر مثل المرأة الفقيرة ، ولا بد ان تكون شهية وممتعة ، خاصة في موران الزفت » . ويتوه في افكار واحلام غنية ولذيذة : « اذا اراد الانسان ان يسيطر

على رجل فيجب ان يعرف مفاتيحه ، والمرأة التي يحب لا تعتبر مجرد مفتاح عادي ، وانما هي مفتاح عام (Masterkey) تفتح ابوابه كلها وتختصر المسافات ، ووداد التي يخاف الحكيم من صمتها ويرتعب من غضبها وعزلتها يمكن ان تجعلني غنياً خلال فترة اقصر ، وسوف تساعدني على ان اغادر هذه المدينة القاتلة » ! . . واذ مرّ طيف راتب في مخيلته قال بنزق : « ابن الايه والايه ما يسيب الناس في حالها ؟ ما يسيبها عايشة ما دام هو نايم على احلى بطن في موران ؟ » .

رغم زحمة المشاكل التي تشغل الحكيم ، فان قضايا الفكر وفلسفة الكون لا ينساها ، لانه : « منذور لشأن اكبر من موران ، وابعد من الأيام التي يقضيها الانسان على وجه البسيطة » . وهذه القضايا كثيراً ما شغلته ، بل وجعلته يشعر بالتعاسة ، لانه لا يوليها ما تستحق من وقت واهتمام . ولذلك قرر ، بعد ان رتب الكثير من الامور ، ان يصرف جزءاً من لياليه مفكراً متأملاً بالقضايا الكبرى . كان يقضي الساعات في حالة من التأمل العميق ، تصل حدود الذهول ، وفي محاولة للوصول الى البؤرة ، كما يُسمي النقطة التي يركز عليها تفكيره ، كان يغلق عينيه ويقطب حاجبيه ، ثم يتخيل هذه النقطة بالذات ، وما يكاد يصل الى نتيجة او الى فكرة ، حتى يدونها بسرعة وبطريقته الخاصة ، كأن يكتب : « مراقبة الرياح ، عبر الفصول ، ضرورة كبرى ، لانها تؤكد صحة النظرية » او يكتب : « الكثبان الرملية ، في صحراء موران ، تأخذ الشكل الهلالي ، لان الرياح تجري من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وهذا برهان على صحة النظرية » او يكتب : « تقاطع ضوئين من مكانين مختلفين يؤدي الى اربعة » ، ويكتب اخيراً وهو يضحك ، ويشعر باللذة : « الجماع يتم وفق نظرية المربع » !

كان مثل هذه التأملات او الكتابات بمقدار ما تريحه وتخلق لديه الغبطة ، تخلق توتراً وحزناً لدى وداد ، اذ اضافة الى انها لا تفهم معنى الكلمات التي يدونها ، فانها تعتبرها مضيعة للوقت ، ولا تليق بانسان مثله . أما لحظات الصمت الطويلة التي يغرق فيها خلال السهرات ، فقد كانت تثيرها وكثيراً ما

اضطرتها الى مغادرة الغرفة لتأوي الى فراشها ، تاركة اياه الى « صفنات الشياطين ومخاطبة الارواح » .

والحكيم الذي حرص منذ وقت مبكر ان يكون « مثل الجوزة المغلقة » ، هكذا يصف نفسه ، لا يريد ان يبوح باسراره الى اقرب الناس اليه ، لقناعته ان «السرّ اذا تجاوز اثنين ذاع». ونتيجة لهذه القناعة كان يفكر ويحلم واخيراً يقرر بشكل منفرد . أما اذا اراد ان يمتحن صحة موقف من المواقف ، او ان يحسم في قضية اشكلت عليه ، فكثيراً ما لجأ الى احدى طريقتين او الى الطريقتين معاً : كان يفتعل مناقشة او يثير مجموعة من التساؤلات ، وغالباً ما يكون لها علاقة بالقضية التي تشغله ، وخطوة بعد اخرى يدفع المناقشة الى اسئلة يمكن من خلال الاجابة عنها ان يقيس وان يقرر . أما الطريقة الثانية فهي ان يقيس « الهوى » في نفسه ، وهو مولع بهذه الكلمة ويصر على استعمالها ، فاذا وجد انه يميل الى شيء بذاته فلا بد ان يجتنبه . لقد اقتنع بهذه الطريقة منذ سن الشباب ، ولا يعرف كيف او لماذا ، وكثيراً ما ردد امام مطيع او امام اصدقاء آخرين ، عبارة بذاتها ، خاصة اذا التبست الامور : « اذا اشكل عليك امران فانظر ايها اقرب الى نفسك واجتنبه ! » .

هكذا كان الحكيم في اموره كلها ، أما في قضايا الفكر وفلسفة الكون ، بشكل خاص ، فكان الامر اكثر دقة وتعقيداً ، لانه اذا امكن للذين حوله ان يفهموا ويشاركوا في القضايا اليومية والعملية ، فانهم في امور الفلسفة لا يستطيعون مجرد ادراك مقاصده ، ولا ينتظر منهم بالتالي اية مشاركة ، فهم اضعف من ان يقدروا مدى الحرقة الداخلية التي تلتهب في اعماقه ، واقل احساساً باهمية هذه الموضوعات وخطورتها . ولذلك كان يفضل ان يبلور افكاره بمعزل عنهم ، فاذا التمعت فكرة في رأسه ورآها تقربه من الوصول الى « النظرية » سجلها بكثير من السعادة ، لكن في حالات اخرى ، وبعد ان يقضي الساعات الطويلة مفكراً متأملاً ويستعصي عليه الوصول الى اية نتيجة ، فكان يعزو ذلك الى جو موران « الخبيث » والذي « يبخّر الافكار ويبددها لحرارته او للغبار الكثيف الذي يهبّ في معظم اوقات السنة » . او يتذرع بكثرة المشاغل وتزايد المسؤوليات ، والتي «تسرقه» عن التفكير في الامور التي يحبها .

الآن ، بعد ان رتب اموره وشعر بالثقة والاستقرار ، يجد نفسه اكثر ميلاً لبلورة افكاره ، خاصة وانه اكتشف في سمير ليس مجرد صحفي كفؤ ، وانما « خدن له وللقضايا الكبرى » ، فبعد المناقشات التي جرت بين الاثنين ، ولان الفلسفة كانت دراسة سمير في الجامعة ، ثم موضوع اهتمامه ، فقد تبين للحكيم ان القضايا المعلقة او المؤجلة يمكن ان تجد حلولها . طبيعي لن يكاشف سمير صراحة ، ولن يطلب منه ، على الاقل في هذه المرحلة ، ان يشارك مشاركة مباشرة ، لكن يمكن للمناقشات ان تحرّض فكره اولاً ، ويمكن ان تحفزه بعد ذلك على ان يدون افكاره بوضوح اكثر من السابق .

ادرك سمير ، منذ الاسابيع الاولى ، الميل الفلسفي ، لدى الحكيم ، لكن اعتبره ضرباً من اللغو الفارغ ، لانه لا يستند الى اساس ، ولا يدل على ألمعية من اي نوع ، بل هو اقرب الى الاستعراض من اي شيء آخر ، تماماً كما تحفظ سيدات المجتمع مجموعة من التعابير لكي تسلّي الواحدة منهن ضيوفها ، او كما يفعل بعض الثقلاء حين يحفظون عدداً من النكات ليقنعوا الآخرين بخفة دمهم !

هكذا كانت حقيقة تقديرات سمير ، لكنه لم يبح بها ، فما دام مرتبطاً بالحكيم ، ولان الحكيم « عقل » موران ، وأحد رجالاتها النافذين ، فهو بحاجة اليه ، ليس مجرد الحاجة فقط ، بل يعتبره طريقه الى القوة والثروة ، ولذلك عليه ان يجاريه في هذا الهذر الذي يروق له ، وان يستمع ويظهر اقتناعه بكل ما يقوله ، فهو بهذه الطريقة يستطيع ان يثبت اقدامه ، ويقترب اكثر مما يريد .

لعبة مثيرة حافلة في جانب ، ومملة وغبية في جانب آخر ، لكن الاثنين يقبلان عليها بكثير من الحماس والرغبة الظاهرة . ومثلما خصص الحكيم صباح كل سبت لاجتماع لجنة الأمن والسلامة من اجل تقدير الموقف ، فقد خصص ليلتين ، الاثنين والخميس ، من كل اسبوع ، لقضايا الفكر والاعلام . هكذا اطلق على هذين الاجتماعين ، وكانا يضمان الحكيم ومطيع بالاضافة الى سمير وبعض العاملين في اجهزة الاعلام ، وقد انضم الى هذه الاجتماعات في وقت لاحق ممثل عن جهاز الأمن والسلامة .

كان يروق للحكيم ان يتكلم في هذه الاجتماعات عن « فلسفة الاعلام » لا عن الاعلام كعمل يومي . ماذا تريد موران من الاعلام ، وكيف تحققه ؟ « كيف يكون الاعلام في خدمة القضايا الكبرى ؟ » « كيف يمكن للاعلام ان يعيد خلق البشر ؟ » وسمير الذي كان يظهر تجاوباً واضحاً في هذه المناقشات ، اذ يقدم افكاراً « لتعميق الحوار وبلورته»، كان يقابله مطيع الذي يريد ان يبحث الهموم اليومية وكيفية التغلب عليها . وكثيراً ما حاول ان يضع حداً « للقضايا الكبرى والبحث في القضايا الصغرى » كما كان يقول مازحاً ، ويطرح ما يتطلبه العمل . كان من شأن ذلك ان يزعج الحكيم « لانه يقطع عليه سلسلة افكاره ويسقطه من اعلى علّيين الى الدرك الاسفل نتيجة ادخاله في اليومي » .

ولان هذه الحالة تكررت مرات كثيرة ، وقد سماها سمير ذات يوم « تمرينات عقلية » قبل الشروع في مناقشة القضايا الاخرى المطروحة ، والوصول الى حلول لها ، فقد تفتق ذهن الحكيم عن حل مثالي : « يوم للرب ، ويوم للقلب ؛ يوم للقضايا العملية ويوم لقضايا الفكر » . وهكذا تحول اجتماع ليلة الخمس الى مناقشة « القضايا الكبرى » ، حسب تعبير الحكيم ، وهذا الاجتماع الذي كان يدخل الملل على المشاركين فيه ، ولم يكونوا متحمسين للمناقشة او ابداء الرأي ، ما لبث ان اخذ نسقاً جديداً ، اذ اصبح مقصوراً على اثنين فقط : الحكيم وسمير ، وبدل ان يتم في القصر او في مقر جريدة البادية انتقل الى قصر الحير .

بدت هذه الصيغة للحكيم مريحة ومثالية ، فان يكون في بيته يشعر بطمأنينة اكبر ، وان يكون وحيداً مع سمير يكتشف ان عقله يتوقد وانه اكثر ذكاء من اماكن اخرى . أما عندما تبدأ تلك المناقشات الخصبة حول «الدوافع» او حول « القوى الخفية » في الانسان ، ويتذكر الحكيم بعض المقالات التي قرأها في شبابه ، ثم ما اضافت له دراسة الطب ، خاصة حين كان في النمسا ، ويستعرض افكاره والنتائج التي توصل اليها ، فإنه كان يحس بالزهو والتألق ، اكثر من ذلك يحس انه اقترب كثيراً من «إلقاء القبض على النظرية وليس على افكار فقط » .

ومن اجل اضفاء الحيميمة الكاملة على هذه اللقاءات كان الحكيم يتبسط كثيراً في الحديث عن نفسه، حين كان طفلاً ثم حين اصبح شاباً . أما دراسته في المانيا والنمسا فقد تحدث عنها مرات عديدة وبافاضة ، ولفرط ما كرر قصصاً بذاتها فقد حفظها سمير تماماً ، لكنه دائماً كان يبدي دهشته واعجابه وكأنه يسمعها لاول مرة ، وهذه الطريقة في الاصغاء والاستجابة كانت تدخل السرور الى قلب الحكيم وتجعله في احيان كثيرة مرحاً .

ذات مرة ، عندما تحدث عن ايام قديمة ، ايام الشباب واول سنين ممارسته الطب ، وكان يتحدث ، ربما للمرة الثالثة او الرابعة ، كيف ترك طرابلس الى حلب ، فقد قال سمير بلهجة جادة ، لكن مرحة ايضاً :

ـ اسمح لي ان اقول لك يا سعادة البيه ان حياة سيادتك من الغنى الى درجة يجب ان تكتب ، لتكون قدوة للاجيال القادمة .

والحكيم الذي سر من هذه الملاحظة لم يعلق ، لكن الفكرة راقت له جداً ، اذ لم يفكر في الامر تفكيراً واضحاً متكاملاً . صحيح أنها خطرت له في اوقات سابقة ، وفي محاولة لرفع مستوى الجرائد والمجلات في السلطنة ، ان يساهم فيها، وان يكتب حول نظريته او حول تجاربه وحياته ، الا ان هذه الخواطر لم تدم طويلاً ولم تتبلور ، لان « النظرية يجب ان تظهر كاملة ، وبمستوى النخبة ، لا ان تمرمط على صفحات الجرائد والمجلات امام الصعاليك والسوقة » ، أما الكتابة عن حياته وتجاربه فقد وجدها مبكرة . الآن وسمير يطرح الفكرة تضج حياته في ذاكرته وتنتصب بايامها ولياليها كما لو انه يراها تتكون امام ناظريه . لكن في لحظة قال ليقنع نفسه « كل شيء في وقته حلوا» .

هذه اللقاءات كانت بداية لعلاقة من نمط جديد بين سمير والحكيم ، علاقة حميمة ومتكافئة ، لان الحكيم الذي يشعر تجاه الآخرين بمشاعر متباينة ، وبعض الاحيان غامضة او متناقضة ، يجد تعويضه مع هذا الانسان « مثلما البطون تحتاج الى الغذاء فان العقول تحتاج الى الغذاء أيضاً ، وقد تكون حاجة العقول اكثر من حاجة البطون ، لكن اكثر الناس لا يدرك ذلك ، خاصة في موران » فالعلاقة بحماد تشعره بنوع من الرضا ، لان تعليمه اجدى

وفراسته صائبة ، « لكن حماد بطيء الفهم وعقله محدود » ويضيف لنفسه وهو يضحك : « المراكز الدنيا والوسطى هي الاقوى » . أما سعيد فلا يمكن اعتباره صديقاً او موثوقاً ، بل هو عدوّ محتمل ، « لان المراكز مختلة ، غير منضبطة ، وغير متساوية من حيث التأثير». أما مطيع «فإنه قريب، والقرابة ترتب ضرائب، وهذه الضرائب يجب ان تُؤدّى » ويهز رأسه ثم يتابع بثقة : « ومع ذلك فانه لا يخرج عن شوري ولا يتصرف دون الرجوع اليّ » .

ويستعرض الحكيم في ذاكرته شخصيات اخرى واشخاصاً آخرين عرفهم او مروا في حياته ، ويتوقف من جديد عند سمير ، يقول لنفسه : « مثل هذا الخلد لا يجد الانسان : قطٌّ من خشب :يصيد ولا يأكل ، يسلي ويحلي ويأكل ويخلي » ومع ذلك يجب ان لا يبالغ في اظهار حبه او اعجابه به ، لان « الحب الهادىء هو الحب الدائم . وهو الحب الاقوى » .

وسمير ، بعد تجارب وخيبات قديمة ، يعرف لماذا جاء الى موران وماذا يريد : « الصدفة خلقت هذه الثروة ، والصدفة هي التي دفعتني الى هنا ، ولولا ذلك لظللت بعيداً ، ولظلت موران ، بالنسبة اليّ ، نسياً منسياً ، قبيلة تائهة في هذه الصحراء غير المحدودة ، لكن ما دمت قد جئت ، وما دام لي دور ، وقادراً ، فيجب ان استفيد من كل شيء والى اقصى حد ، لانها فترة محدودة ، قصيرة ، عابرة ، ولا يمكن ان تتكرر ايضاً . ليس لدي وهم من اي نوع ، ولا يمكن ان اثق او اتوقع » .

وحين ينظر حواليه يقول لنفسه بحزن « لا يمكن للانسان ان يتفاهم مع هؤلاء البدو مهما قدم من تنازلات ، انهم حيوانات صحراوية ، ويتصفون بخصائص لا يمكن ان يتنازلوا عنها ابداً ، ومن الجنون ان افكر بالتكيف معهم . يمكن ان اضحك عليهم ، ان امازحهم ، لكن نبقى عالمين » وحين يتذكر حماد ومالك وآخرين يزفر ويحدث نفسه : « واصبحوا معقدين بعد ان جاءتهم الثروة بشكل مفاجىء ودون استحقاق . كل واحد منهم يتصور نفسه رباً من الارباب ، ويفهم كل شيءً ، لذلك من العبث مناقشتهم او التفاهم معهم حول اية قضية ، انهم اعند من الصخر » وحين تمر صورة الحكيم في مخيلته يبتسم « مغرور وتافه ، يتصور نفسه انه قادر وقوي ، لكن في الحقيقة

« مهنته » اوصلته الى موران وادخلته الى قلب السلطان ، فتوهم القوة ، مثل البالون ، ويمكن ان ينتهي في لحظة ، خاصة من الناحية السياسية ، لكن مع ذلك يجب التفاهم معه او على الاقل مجاملتـه . أما اوهـام الفلسفة والقضـايا الكبرى فانها اكاذيب، يحلو له ان يلعب بها كما يحلو لاغلب الرجال ان يلعبـوا مع النساء ، متوهمين ، في لحظات معينة ، انهم اصبحوا محبوبين ومرغوبين ، وبـالتالي قـادرين على السيـطرة ، لكن عنـدمـا تنتهي الليلة ، عنـدمـا تنتهي الشدة ، يكتشفون كم كانوا واهمين ومخدوعـين ، ويحزنـون انهم خدعـوا بهذا المقدار » .

ويتذكر حياته الماضية ، فيهز رأسه دلالة التصميم « انا لست مستعداً ان اكرر تجاربي واخطائي . اعرف الآن من اكون ، وماذا استـطيع . . وكيف . هذه الاسئلة التي تعلمتها في الجامعة ، وكانت تبدو لي في ذلك الوقت بسيطة الى اقصى حد ، هي الآن الاسئلة الصعبة والمشوّقة ، واجدها اليوم في منتهى الحكمة » .

على هامش المناقشات « المعمقة » التي اجراهـا الحكيم مع سمـير ، اشار بشكل عرضي الى ان لديه نظرية يريد ان « ينصرف الى تدوينهـا ونشرهـا بين الناس لتعم الفائدة » واشار ايضاً الى انه بهذا الدافع اضطر الى مراجعة اعداد كبيـرة من الكتب القـديمـة ، وتعمّـد اجـراء الحـوارات الـذكيـة مـع ذوي الاختصـاص ، وانه دوّن في دفـتر خاص ، سمـاه « الخرطـوش » الكثـير من الافكار التي توصل اليها والاستشهادات والتضمينات التي توضح أفكاره .

ولا يعرف الحكيم كيف خطرت له ايضاً فكرة ان يوصي على عباءة سوداء ليلبسها اثناء العمل، خاصة وانه سيبدأ التدوين في مطلع العام، فترة البرد في موران . اكثر من ذلك تراءت له فكرة العباءة السوداء ضرورية للغاية ، لانها تشبه ملابس القضاة او الرهبان ، وهو في عمله سيكون قاضياً ويصدر احكامه الكلية والحاسمة ، وسيكون راهباً ايضاً في محراب الفكر وفاء للنذر الذي قطعه على نفسه باخراج نظرية المربع الى الناس .

تبدت الصورة واضحة لسمير ، رغم حذر الحكيم وعدم كشفـه لاوراقه كلها ، فوجد الامر من الطرافة والتغيير بحيث يجلعه يتغلب على صعوبة الحياة في مـوران ، فبـدأ يلعب اللعبـة : اتى للحكيم بعـدد من الكتب ، ووضـع الاشارات على الكثير من النصوص ، ودخل معه في مناقشات فرعية كثيـرة ، وفي لحظة توهج ومزاج مرح لم يتردد في ان يطلق على الحكيم تسميـة : المعلم الرئيس ، تشبيهاً له بابن سينا . أما عندما اطلعه الحكيم على العنوان المقترح

للكتاب ، وبعد فترة صمت وتأمل ، فقد ارتأى سمير اضافة عنوان فرعي ، واقترح عنواناً مؤقتاً : « الناموس الاساسي في الفكر السياسي لابي غزوان الحكيم النطاسي : صبحي المحملجي الطرابلسي » .

هذه الامور جعلت الحكيم في حيرة ، فما يقوله الرجل يتسم بمقدار كبير من الجدية ، والمعونة التي يقدمها مخلصة ، لا يتطرق اليها الشك ابداً ؛ حتى الاقتراح بان يستمرا في المناقشة ، رغم تقدم الليل في كثير من الاحيان ، وموافقة سمير ان ينام في قصر الحير ، كل ذلك جعل الحكيم ميالاً الى اعتباره جاداً ويعني كل كلمة يقولها وكل موقف يتخذه . أما ان يقارنه بابن سينا ، في هذا الوقت المبكر ، وقبل ان ينشر نظريته بين الناس ، ففيه شيء من المبالغة ، لكنها نتيجة المحبة وليس نتيجة سوء النية . قال الحكيم ليقنع نفسه : « قل لي بماذا تفكر اقول لك من انت ، والرجل لا بد ادرك ما افكر فيه وما انوي عمله ! » .

بهذه الطريقة اكتملت الحلقة او كادت . فخيم على قصر الحير نوع من الرضا ، لان الحكيم يوشك على الانتهاء من استعداداته وينتظر مطلع العام لكي يبدأ ، ومع ذلك ظل مشوشاً قليلاً ، خاصة حين راودته فكرة اهداء الكتاب الى السلطان . فقد بدت له اهمية الكتاب ، في لحظات معينة ، تفوق كثيراً الشخص او الفترة التي يعيش فيها والناس الذين حوله ، اياً كان مستواهم ، ولا يعرف كيف عنّ له « مالىء الدنيا وشاغل الناس ، المتنبي » ، لا بل سيطر عليه ، قال لنفسه في لحظة انفعال : « من هو هذا القزم الأعرج، كافور ومن سيتذكر هذا الاسود الذي كان مشفره نصفه لولا أبو الطيب؟» وبدا اكثر ميلاً أن لا يكون الاهداء الى السلطان، «إنه مجرد انسان عادي ، ولولا المشورة التي تقدّم اليه لما استطاع شيئاً » .

لكنه لا يستطيع ايضاً ان يتجاهله ، ان يمر على الموضوع هكذا دون الاشارة اليه او دون ذكره . فكر ان تكون في نهاية المقدمة اشارة الى السلطان ، لكن تخوف من هذه الفكرة ، اذ « قد يأتي اخوان السوء ، وبعد قراءة الكتاب ، بما فيه المقدمة ، لا بد وان يقولوا للسلطان ان لا ذكر له في كتاب من مئات الصفحات الا في ذيل صفحة من صفحاته ، عندها تبدأ المشاكل! وفكر

ان يكتب قبل الاستهلال كلمة يشير فيها الى انه انجز تدوين الكتاب وهو « نزيل موران » وفي عهد السلطان خزعل ، لكن لم يتوقف عند هذه الفكرة طويلاً ، لانه لم يحب في حياته كلمة نزيل ، فهي تذكره بنزلاء السجون والمصحات العقلية ؛ ولانه لا يريد ان « ينشر نفسه على حبل ، ويقول للقاصي والداني انه ليس مورانياً ، او انه مجرد ضيف في موران » .

قرر اخيراً ، حسماً لهذا القلق ، ولكي ينصرف الى « المتون لا الى الحواشي » ان يوافق على اهدائه الى السلطان . « اعرف انه لا يستحق هذه الدّرة ، لكنه مثل كل الملوك والرؤساء يحب ان يكون مركز الاستقطاب والاهتمام ، لكي ينظر اليه الجميع ويتصوره الجميع عبقري زمانه ، مع انه لا يساوي نكلة . وعلى الانسان ان يضحك على هؤلاء الملوك والرؤساء وان يدغدغ سخافاتهم بكلمة ، وهذه الكلمة ستكون جواز المرور ، فاذا ملك الانسان الجواز وصل الى النجوم » وتراءى له الاهداء مكتوباً بماء الذهب ، على الصفحة الاولى ، والسلطان ينظر الى تلك الكلمات المذهبة ويرى اسمه كالقمر يلمع وسط النجوم ، عندها لا بد ان يغدق عليه اكثر مما اغدق على اي انسان ، ويأمر بتوزيع الكتاب في كل مكان ، وبين عشية وضحاها يصبح الكتاب بين ايدي الناس يقرأونه ويحفظون نصوصاً منه ، والذين لا يعرفون القراءة يمسكون باولادهم او اقربائهم المتعلمين ويطلبون ان يقرأوا لهم بضع صفحات من هذا السفر ، لكي يحفظوا منه مقاطع يرددونها كما يرددون القرآن او كما يحفظون ابيات الشعر التي يحبونها . اكثر من ذلك تراءى له الكتاب يترجم الى عدد كبير من اللغات الاجنبية ، ويصدر في عواصم عديدة في وقت واحد ، ويكون موضع اهتمام الصحافة والاذاعات والجامعات ، ويُدرس بعناية من قبل الدوائر المسؤولة ، ليس باعتباره كتاباً هاماً فحسب وانما لانه من اعداد شخصية مرموقة ، ولانه يمثل سياسة وفكر سلطنة موران في الحاضر والمستقبل ، ولذلك يجب ان يُعنى بكل كلمة ، وان يتم التوقف عند كل جملة ، اذ بدون ذلك لا يمكن فهم سياسة موران او الفكر الذي يوجه كل خطوة من خطواتها وكل موقف من مواقفها .

وفكر ان تكون اللغة الالمانية اولى اللغات التي يجب ان يترجم اليها

الكتاب ، لأنها اولاً لغة الفلسفة ، وثانياً لان الالمان اكثر من غيرهم استعداداً لفهم الافكار العميقة والذكية . وبعد ان يترجم لا بد ان يبعث بنسخة الى تلك العجوز التي سكن عندها وتصرفت معه بتلك الطريقة الفظة ، دون ان تظن لحظة واحدة « ان الرجل الذي طردته من بيتها سيكون بهذه الاهمية وبهذه القوة » . ربما لا تزال تلك العجوز حية الى الآن ، وقد تشتري بنفسها الكتاب ، لكن مع ذلك يجب ان يرسل اليها نسخة ، مع كلمة وتحية ، سيكون لها درساً ، وقد تندم ؛ « لكن هيهات ان تنفع الندامة » . أما اذا ماتت فان ورثتها سوف يستلمون الكتاب وسوف يتداولونه ، وبعدما يقرأونه ويعجبون به ، سيكون « ضيف كل سهرة ، وسوف يقدمونه لاصدقائهم ويذكرون لهم ان الكاتب عاش في هذه الغرفة ، وفي هذا البيت بالذات ، ولا بد ان يشيروا اين كان ينام واين كان يدرس » .

وفكر لو انه يتجاوز النظام القاسي الذي فرضه على نفسه ، او الوقت الذي حدده لبدء « التدوين » وان يشرع فوراً . « اذ ما الفرق ان ابدأ الآن او في اي وقت آخر ؟ من سيحاسبني ومن سيكلف نفسه دراسة هذه القضية بالذات ؟ » لكنه عاد وقرر « ان يكون العمل ضمن نسق واضح ، وان يخضع لنظام لا يحيد عنه » لان النظام في رأيه جزء من النظرية ، ولا بد ان يتقيد بكل التفاصيل لكي يصل الى النتيجة التي يريد .

هكذا راودته الافكار والمخاوف ، وهكذا اعتراه التردد والقلق ، لكنه مع ذلك استطاع ان يتوصل الى حلول اعتبرها مناسبة ، وارجأ قضايا معينة لكي يفكر فيها اكثر من قبل .

وداد كانت ملكة الخريف كله ، بايامه ولياليه ، ثم الشتاء الذي تلاه ، فما كادت تدخل التحدي حتى بدت اكثر فتوة واكثر اشراقاً . اضفت على الحكيم جواً من العناية ، وسألته باهتمام عن المدة اللازمة من اجل انجاز كتابه ، وما اذا كان ذلك الكتاب قصة ام شيئاً آخر ، وسألته ايضاً اذا كانت قادرة على ان تقرأه وان تفهمه ، والحكيم الذي اغتبط لهذا الجو واعتبره فألاً حسناً ، شرح لها بكثير من التبسط ان الكتاب يمكن اعتباره كل شيء « سيكون كتاباً جامعاً ، فيه قصص التاريخ وقصص الاقدمين ، وفيه الحكمة والشعر . ويمكن لكل

انسان ان يقرأه ويخرج بنتيجة ». ووداد التي فهمت ولم تفهم ، لم يكن سؤالها يتجاوز ابداء الاهتمام واشعاره انها معه ، وكان هذا يكفيه .

وفي غمرة الاستعداد للاقلاع كُثّفت المناقشات وأُعطي لها نسق عملي ، ففي كل ليلة من خريف ذلك العام ، كان الحكيم يحددموضوعاً للمناقشة ، وكثيراً ما يكون بيتاً من الشعر او حكمة ، ويسميه الاستهلال ، حتى اذا اشبعاه بحثاً وشرحاً ، وتوصل منه الى نتيجة يعتبرها مرضية قام بتسجيلها ، ولا يتردد في ان يعيد تلاوة ما سجله على مسامع سمير ، وكان يسمي هذه النتيجة « القفلة » .

وداد تحضر جزءاً من هذه المناقشات . كانت تتسمع بصمت وتنقل نظراتها بين الرجلين ، لكن اغلب الاحيان لا تسمع ما يقولانه . فاذا ملّت من هذه الاحاديث فلا تلبث ان تنسحب لتوجه الخدم او لتساعدهم في اعداد العشاء ، فاذا انتهت دعتهما الى المائدة . وعلى مائدة العشاء يأخذ الحديث نسقاً آخر : يصبح خفيفاً ، ناعماً ، طريفاً ، والعادة ان يشارك فيه الجميع ، وكان هذا يسعد الحكيم ويجعله في حالة من النشوة ، فاذا تساءلت وداد في نهاية العشاء ما اذا كانا سيواصلان ، يرد سمير بمرح :

ـ على مزاج الحكيم وحسب اوامره .

ويقهقه الحكيم فرحاً كطفل ، اذ لا يتصور ان كرماً مثل هذا لا يزال موجوداً بين الناس ، فيعلن بحماسة كبيرة رغبته في ان يواصلا العمل ساعة او ساعتين « من اجل الوصول الى قفلة او اثنتين » . أما وداد التي تستعد لتركهما ، بعد ان تكون قد امتلأت نشوة ، فانها تكرر الرجاء ذاته .

ـ لا اريد ان اوصيكم : الانسان يحتاج الى الراحة والنوم . . ايضاً !

وتضحك بغنج ثم تضيف :

ـ ولا تظلموا ارواحكم !

يطمئنها الحكيم ، مؤكداً لها « ان الافكار جاهزة ولن اتعب سمير او اطيل عليه » فترجوه بهمس اقرب الى الحياء « ان لا يشعل النور لكي لا يوقظها » ويبتسم ويهز رأسه دلالة الموافقة !

وفي رطوبة الساعات الأخيرة من الليل ، ومع النسمات الرخية ، وبعد ان تطمئن وداد ان الحكيم انزلق الى فراشه كالقط ، وغرق في ملكوته الابدي ، تنسل . كانت وهي تنحدر الى الطابق السفلي ، تبدو كالشبح في هذا السكون الذي لا يقطعه سوى شخير الحكيم ، ومثل الاحلام الجميلة المعطرة ، او كالحيوانات الاليفة التي تعرف كيف تداعب اصحابها ، وكيف تدخل الى اعماق قلوبهم ، ودون ان يحس سمير متى دخلت او كيف . . تنزلق في الفراش الى جانبه .

ساعات حافلة من المتعة والخوف معاً ، وهذا الخوف بالذات يحول كل حركة وكل لمسة الى كهرباء صاعقة ، فلا يتذكر اي منهما انه عاش لذة كهذه من قبل ، او ان لذة مثل هذه يمكن للانسان ان يصلها او ان يدركها ، حتى اذا تبددت الظلمة أو كادت، وبدأت الأشكال والأشياء في غبش الفجر تبين، لكن دون وضوح ، وسمعت اصوات العصافير ، تتحرك وداد ، لكن دون رغبة ، ايذاناً ان ليلة اخرى على وشك ان تنتهي . كانت في حالات كثيرة ، بعد هذه الحركة المؤذنة بالرحيل ، تلقي بنفسها عليه مرة اخرى ، تحتضنه ، تقبله وكأنها لا تنوي ترك الفراش ابداً . وهو الذي يشعر بالارتواء يمتلىء بالرهبة ، فتصبح استجابته اضعف ورغبته اقل ، حتى اذا تسللت تاركة الباب نصف مفتوح قام فاغلقه وغرق في النوم .

في الصباح ، والحكيم يتناول افطاره على الشرفة الخارجية ، ان كان النهار مشمساً ، يوصي الخدم بكثير من الحرص ان لا ترتفع اصواتهم وان لا يحدثوا اية ضجة ، « لان الاستاذ نائم ، ولا بد ان يكون قد تعب من سهر الليلة الفائتة » . أما وداد التي تتأخر، مثل عادتها ، فانها تبقى في الفراش ، او تشغل نفسها باشيائها الخاصة ، وتظل هكذا الى الظهر تقريباً ، الى حين عودة سلمى من المدرسة .

تكررت مثل هذه الليالي كثيراً ، ووداد التي كانت مندفعة بتأثير الغيرة ورغبة في التحدي أول الامر ، ما لبثت ان شعرت بسخف راتب وتفاهته : « جبان . لا يعرف سوى المال ، ولا يختلف عن الحكيم بشيء ، حتى الشكل ، بعد ان تزوج ، اصبح اقرب الى السمنة ، ويبدو راضياً عن نفسه

وكأنه ملك كل شيء » . أكثر من ذلك وجدت أن سمير ، بشكله وسنه وطريقته في التصرف « يختلف كثيراً عن هؤلاء التجار » .

ودون خوف او تردد ، وبعض الاحيان بتحدٍ ظاهر ، اقرب الى السخرية ، اصبح سمير واحداً من الناس الذين لا يفارقون قصر الحير . وهذه الصيغة في العلاقة جعلت الحكيم يفترض ان بامكانه ان يكاشفه بنظرية المربع ، اكثر من ذلك فكر لو انهما يشتركان معاً في صياغتها . لكن اعتبر الامر سابقاً لاوانه ، وربما فيه بعض الخفة « ليأت الاقتراح منه . اذا اقترح سوف يعفيني من امور كثيرة ، يمكن ان املي عليه ويكتب ، او اودعه افكاري فيتولى صياغتها » لكن فجأة امتلأ بالقلق « غداً . عندما تصدر النظرية ، لا بد ان يقول الحساد : ان سمير قيصر ابوها وامها ، هو صاحب الفكرة وهو الذي كتبها ، ولا يعدو دور الحكيم الزخرفة ، وربما وضع اسمه ليستفيد او ليروّج الكتاب » ولذلك صرف النظر ، بكثير من الحزن ، عن هذا الاقتراح .

راتب الذي كانت عيناه كعيني الذئب لا تخفى عليه صغيرة او كبيرة ، قال للحكيم ذات يوم :

ـ يا حكيم . . لا احد يحضر الدب الى كرمه !

ويتطلع اليه الحكيم باستغراب ودهشة ، ويسأل :

ـ شو قصة الدب والكرم . . يا راتب ؟

ـ سمير . . يا ابو غزوان .

ـ شو قصة سمير ؟ وليش انت تارك كل الناس وما عندك الا سمير ؟

ـ يا حكيم ، ما ظل حدا الا وحكى ، يقولون : لبخله ترك بيته وعايش براس الحكيم !

ـ يا راتب كلام الناس كثير ، واللي يسمع كلام الناس يدوخ .

ـ بس يا حكيم الأخ زادها كثير .

ـ يا سيدي ، بصراحة ، انا اللي ماسكه ، انا اللي يستفيد منه .

وبكثير من الارتباك والتداخل شرح الحكيم لراتب ان لديه مشروعاً

كتـابياً كبيـراً ، وذكّره بـالكتب التي اوصاه عليهـا خلال زيـارته السـابقـة الى موران ، وكيف ان هذا المشروع لا يقتصر باهميته وتأثيره على موران وحدها ، ولا يقتصر على الفترة الحالية ، وإنما يتجاوزهما إلى المنطقة كلها ، والى فترة زمنية طـويلة . كما اشـار الحكيم بكثـير من المـرارة الى الاضـطرابـات التي تعصف بالعالم ، وان السبب فيها عدم وجود « علماء اكفاء يتصـدون لصياغـة الافكار من اجل حماية الاخلاق والدين والوطن » وبطريقة غـامضة ، وفيهـا شيء من التواضع ، اشار الى انه يتصدى لهذه المهمة ، وان سمير الوحيد الذي يمكن ان يساعده .

ومثل المرة الاولى اجل راتب معركته انتظاراً لظروف أفضل!

بعـد ان اصبح حمـاد شخصاً مهـماً في موران ، ويتـردد اسمه همسـاً بـين الكثيرين ، بدا الامر غريباً لعمه شداد . لما التقى به بعد شهور طويلة ، سأله بسخرية :

ـ يا وّل ، يا حماد ، قبل سنتين ، لما سألتك وين تشتغل قلت لي بالقصر ، مشاور للسلطان ، وهالحين اشوفك تهفي ، كل يوم بديرة ، وكأن السلطان ما يريد شورك !

وضحك بصوت عالٍ ، ثم تابع :

ـ علّم عمك الصحيح ، يا حماد ، انت مشاور سلطانّا ام مشاور غيره ؟

ابتسم حماد ولم يجب . التفت شداد الى الذين يسمعون :

ـ خلوا ببالكم يا جماعة : حماد مثل ما قالوا جماعتنـا : اذا نوى مـا يعلّم بـطاريه ، ويـظن ان النـاس مـا تعرف ، لكن يـروح يوم ويجي يـوم وكل شي يظهر . . وبعدها ويش يقول ؟

ـ يا عم اللي تشـوفه عينـك : يقول السلطان : سـافر ، اسـافر . يقـول السلطان : سوِ ، اسوي . يقول السلطان : اجلس ، اجلس . وانت تظن ان ورا كل سفرة فـرس ، لكن هذا مـا هوبصحيـح !

هكذا رد حماد مداعباً، وفهمت كلماته بأكثر من شكل. وعمه الذي هزّ رأسه موافقاً قرر أن يعرف بطريقته الخاصة.

لم يتغير حماد على اهله واصدقائه فقط ، تغير على نفسه ايضاً . فبعد ان كانت موران المدينة ، وليس موران السلطنة ، عالمه الذي يدور فيه ، واذا تجاوزه فانه لا يفعل ذلك الا الى البادية القريبة ، عدا سفرات قليلة رافق خلالها القوافل ، لكنه لم يواصل سفره الى المحطات الأخيرة ، حيث وصلت تلك القوافل، فانه الان، ويوماً بعد آخر، تستبدّ به هواية اكتشاف العالم فيقبل عليها بكثير من الرغبة والشوق ، ويمارسها بطريقته الخاصة ايضاً . والاميركيون الذين اشاروا عليه بان يقلل من ظهوره في الاماكن العامة ، وان ينتحل اسماً مستعاراً في بعض اسفاره ، من قبيل الحيطة ، وان يُبقي تحت تصرفه مبالغ من المال جاهزة ، لكي يتصرف بها عند الضرورة بشكل مباشر ، ودون الرجوع الى احد ، او دون المرور باشخاص آخرين ، هذه الافكار والاقتراحات راقت له الى أقصى حد ، وبدأ عقله يتفنن في اختراع الاسماء والالقاب ، كما جهّز لنفسه مجموعة من جوازات السفر باسماء وهيئات مختلفة ، حتى انه لا يتمالك نفسه من القهقهة بصوت عالٍ اذا نظر الى الصور الملصقة على الجوازات ، خاصة حين يتذكر متى وكيف التقطت له هذه الصور . أما المبالغ المالية التي كانت تحت تصرفه، فقد اقتطع قسماً منها ووضعه في الخزانة الحديدية، التي يحتفظ فيها ايضاً بعدد من المسدسات وجوازات سفر جاهزة للاستعمال في اية لحظة ، بعد ان توضع عليها الصور وتدون الاسماء .

الشخص الوحيد ، او من الاشخاص القلائل ، الذي لم يلاحظ على حماد تغيراً مهماً هو الحكيم ، واذا لاحظ فذلك التحسن المستمر والذي كان نتيجة الاندماج بالعمل الى حد الهوس ، والذي رافقه اكتساب خبرات تزيد بمرور الأيام ، مع مرونة عزاها الحكيم الى الجهد الذي بذله في تدريبه وصقله ، ثم جاءت السفرات لتوسع مداركه وتزيد وعيه .

ومثلما تفاءل الحكيم باختيار حماد ، تفاءل ايضاً بالتقدم الذي حققه ، وهذا سهّل وعجل في ان يترك له معالجة الكثير من الامور دون تدخل ، ثم في استقلال الجهاز بعد ذلك .

لقد حصل هذا دون اعلان ودون قرارات ، وحصل ، عملياً ، قبل ان يقرر الحكيم التنازل عن بعض الصلاحيات . وحماد الذي فعل ذلك

بالحدس ، اول الأمر ، ما لبث ان بدأ يعي نتائج كل موقف وكل خطوة ، خاصة وان زياراته العديدة الى الولايات المتحدة افادته كثيراً ، ثم جاءت نصائح مركز الابحاث والتقارير التي قدمها لتحدد له عملياً ما يجب ان يعمل ، واخيراً المناقشات الخصبة التي كانت تجري بينه وبين مساعديه ، خاصة من الاميركيين ، وبعض الاحيان بوجود مستشار السفارة ، باول اندورز ، وقد ادت كلها الى نتائج حاسمة ومفيدة .

الآن والحكيم يبدي هذا الخوف كله من « الرياح الحمراء » ، كما يسمي الافكار والحركات التي تسري في المنطقة ، ويصبح عصبياً نزقاً وهو يطلب من حماد ان « يتخذ الاجراءات المشددة من اجل اجتثاث هذا الميكروب قبل ان يصبح مرضاً مستوطناً ، مثل الكوليرا والبلهارسيا والتراخوما » ويرفض ايضاً ان تسرف موران في اعتماد اسلوب الهدايا والعطايا، هذا الموقف الذي تقبله حماد بنوع من « التفهم » والرضا ، اثار في نفسه تساؤلات وافكاراً كان يحاول ان يبعدها او ان يموهها خلال الفترات السابقة ، لكنها تنبثق الآن من جديد : لماذا يبدو الحكيم متشدداً قاسياً تجاه « الوافدين » كما يسميهم ، ويجعلهم كلهم في سلة واحدة ؟ ولماذا يبدي هذا الحرص كله لموران والسلطنة اكثر من اهل موران واكثر من السلطان ذاته ! والمال . . . هل اذا دفعت موران هنا وهناك ، وكما تريد وليس كما يطلب الآخرون ، يعتبر امراً زائداً ؟

رغم النصائح التي تكررت كثيراً ان لا ينفعل ، ان لا يقول «نعم » نهائية ، او « لا » نهائية ، وان لا يقرأ على وجهه اي موقف ، فانه يجد نفسه غير قادر على السكوت او الاحتمال . قال للحكيم بسخرية مبطنة :

ـ تذكر يا ابو غزوان : نشف ريقنا الى ان خلصنا من مالك ابو كزلك ـ وقد اطلق عليه الحكيم هذه التسمية لانه كان يحار باستعمال نظارتيه ـ كنا نقول له ادفع يقول ما عندي فلوس ؛ واليوم بعد ما خلصنا منه ، وبعدما انعم الله على السلطنة بهذا الخير، واذا اعطينا هنا وهنا فحنا اللي نكسب ، ومن زمان جماعتنا قالوا : اللي يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه .

توقف قليلاً ، تنفس بعمق ثم اضاف :

ـ وظني يـا ابو غـزوان انه اذا صـرفنا كم قـرش هنا وهنـاك نخلص من الشتائم اللي تسمعها صبح وعشيـة . ونخلص من الفتن ومن السلاح اللـــي يحطوه تحت الحمل ويعبرون به الحدود لحين ما يجي وقت ويرفعونه بوجوهنا .

وانخفض صوته حتى كاد لا يسمع :

ـ ومثل ما قالوا : شبّع البطن تستحي العين .

ولم يقتنع الحكيم ، ظل مصـراً على رأيـه ، ولم ينتظر حمـاد موافقتـه لكي يتحرك ، او لينفذ ما يدور في رأسه ، لكن دون ان يطلعه على شيء ايضاً . وفي جو الحركة والانفعال ، ومن المنافسة المكتومة ، ولان اموراً كثيرة جدت خلال هذه الفترة ، ان مثل هذه المناقشات لم يتكرر، كما لم تظهر اية خلافات بوجهات النظر ، خاصة وان الحكيم استغرقته افكار وهموم جديدة .

« زوجني قريبته ويريد وحده يكون عمي . . لكنه متوهم وغلطان » هكذا قال حماد لنفسه ، وهو يتذكر ابتسامة الحكيم الساخرة ، بعد ان سأله عن رضائي والآخرين ، وكيف لم يقل له عن الاعمال الجديدة والمشاريع التي سينفذها .

ليس هذا اول سوء تفاهم يقع بين الاثنين ، فقد سبق ذلك ايضاً الاختلاف حول السياسة التي يجب اتباعها في المنطقة ، وحول علاقات جهاز الأمن والسلامة بالاجهزة الاخرى . واذا كان حماد قد تعلم دروساً خلال السنوات الماضية ، فلعل اول وأهم هذه الدروس : الصمت ، وحسن الاستماع . لا يتكلم اذا لم يُسأل ، واذا سئل يجيب باختصار شديد ، ولولا تلك الابتسامة التي تسبق الاجابة ، او ترافقها ، وغالباً ما تملأ وجهه ، او تشكل قناعاً لهذا الوجه ، لأسيء فهم موقفه واجاباته .

تعلم الصمت واتقنه ، بعد ان رأى الكثير وسمع الكثير : كل واحد من الذين حوله لا يلذ له شيء اكثر من ان يتحدث عن الآخرين . كان حماد يعتبر ان المعلومات التي تقال هامة وطريفة في آن واحد ، وكان يعتبر ايضاً انها ستكون مفيدة ذات يوم ، ولذلك اخذ يحتفظ بها !

الحكيم، من جانبه، افترض أن الخدمة التي قدّمها لحماد بتعيينه في هذا الجهاز ، ستجعله تابعاً وخاضعاً له تماماً ، ولذلك تعامل معه ، منذ الأيام الاولى ، بطريقة متعالية ، واخذ يستعرض امامه كل ما يعرفه ، لا من اجل أن

يعلّمه ، وانما ليثبت له جهله وقلة درايته . وحماد الذي «انعبط» خلال الفترة الأولى، وهو يستمـــع الى الحكيم يتجول في انحاء العالم ، ويتحدث عن امور كثيـرة ومعقدة ، مـا لبث ان اكتشف عدم جـدوى اكثر الامـور التي يتحدث عنها ، لان « الحكيم لا يعرف اقرب الاشياء واقرب الناس اليه » ، وقد تأكد من ذلك نتيجة وقائع كثيرة .

لم يقتصر الأمر على ذلـك ، كـان يلذ للحكيم ، حتى وقت متـأخـر ، الحديث عن بداية تكوين جهاز الامن ، فقط ليذكر حماد بافضاله عليه واهميته بالنسبة له . حتى اللهجة الابوية التي كان يستعملها السلطان ، حـين يطلب شيئاً او ينبه الى شيء ، وكان حماد يستمع بكثير من الرضا والمـوافقة ، اغـرت الحكيم ، وكان شديد الكلف بها ، بل واخذ يستعملها ايضاً ، الامر الذي يثير حمـاد الى اقصى حد ، بـل ويجعله نزقـاً ، لكن كـان يـداري الاثـارة والنـزق بالتحمل والصمت ، الى ان اصبح عادة .

بالمقابل لم يذكر حماد ، ولم يشر مجرد الاشارة الى المنافع الكبيرة التي حققها للحكيم اول مرة ثم في المرة الثانية ، حين كان وسيطاً بينه وبين عمه راشد ، ثم عمه شداد ، والحكيم نفسه لم يعد الى تذكر هذه الامور ابداً . اكثر من ذلك حين طلب راشد المطوع ان يلتقي بالحكيم ليتفاوض معه على ما له من ارض الحصيبة ، او بالاحرى ما تبقى لآل المطوع منها ، فقد ابدى الحكيم استغرابه لطلب راشد المطوع ورغبته في لقائه . قال لحماد بتساؤل اقرب الى السخرية :

ـ الارض الـلي يحكي عنها عمـك ، يا حمـاد ، ما لهـا قيمة ، وانـا بعت الارض اللي اشتريتهـا منه بخسارة . لكن ،من اجلك ، يمكن ان اساعـده ، يمكن ان اجد له مشترياً !

ولما هز حماد كتفيه بعدم اهتمام لان الامر لا يعنيه تابع :

ـ واذا كـان يـريـد يبيـع الارض جنـوب المسايـل يمكن ان نحكي وان نتفاهم !

لم يكن حمـاد بحاجـة الى من يقـول لـه مـا اذا كـانت تلك الارض ، او غيـرها ، بيعت ام لا ، وبكم بيعت ومن اشتـراها ، فقـد كانت لـه في دائرة

« الكوشان » التسجيل مجموعة من العناصر تبلّغه بحركة الاراضي وعمليات البيع والشراء التي تتم في موران وخارجها ، وكان لديه ايضاً بعض العاملين في مجال التوسط ، وعدد من التجار . أما ما قاله لعمه ان الارض مثل اية تجارة اخرى ، عرضة للربح او الخسارة ، فكان يهدف الى ان يهدئه ويسترضيه اكثر مما يريد اقناعه .

ويتذكر حماد تلك القصة التي حدثه عنها سعيد منذ وقت مبكر ، وكيف تصرف الحكيم بخصوص بعض عقاراته ، خاصة مستشفى الشفاء التي كانت له في حران، فبعد أن سخر الكثيرون، حين بنيت في ذلك المكان النائي، وظنوها في البداية ابنية تابعة للشركة ، أما بعد ان تجاوزها البناء ، واصبحت اقرب الى وسط المدينة ، وكان يفترض بالاراضي المحيطة بها ان تصبح حدائق ، كما قال الحكيم ، الا انه لم يتردد ، بعد اقل من سنتين ، وبعد ان زرع قسماً منها ، في ان يفصلها عن المستشفى . فصلها بسور نصفه الاسفل من الاسمنت والنصف الاعلى من الاسلاك ، على ان يشرع ببناء مجموعة من الدكاكين ، الا ان ضرورة انتقاله الى موران حملته على الابطاء في مواصلة البناء ثم ايقافه ، فلم ينجز بناء سوى الاساسات . أما عندما اشترت الدولة المستشفى ، وتقرر شق طريق الى الغرب ، وكان من المقررلهذا الشارع ان يمر في ارض الحكيم ، واضطرت الدولة لشراء الاراضي والتعويض على اصحابها ، فقد قال الحكيم كلمة بين المزاح والجد ، لكنها وحدها التي نفّذت .

سأل رئيس لجنة الاستملاك :

ـ هل تريدون الارض غرب المستشفى ؟

ـ القسم الاكبر ضمن مخطط شارع السلطان ، ولا بد من استملاكها .

ـ وابنية السوق المركزي ؟

ـ السوق المركزي ؟

ـ كل شيء انتهى : المخططات ، الخرائط ، الاساسات . . . وبين يوم والثاني يكون السوق قايم .

ـ الشارع لازم يمشي يا حكيم .

ـ والتعويض ؟

ـ نعوض عن الارض .

ـ والبناء؟

ـ البناء ، مثل ما تشوف عينك ، شبر عن الارض !

ضحك الحكيم ونظر بتحديد الى عيني رئيس اللجنة وسأله :

ـ لو فرضنا ان الاستملاك تأخر شهراً او شهرين وقام البناء ، ماذا تفعلون ؟

ـ نشتري ونهدم ونفتح الشارع .

ـ وتدفعون عن البناء والهدم وترحيل المواد ؟

ـ اي نعم !

ـ واذا خلصناكم من الهدم والترحيل ، اما تقولون لنا الله يعطيكم العافية ويكثر خيركم ؟

ـ نقول .

ـ ادفعوا عن هذا وذاك والله يبارك لكم !

ورئيس اللجنة الذي بدت له الفكرة مشوقة ، طلب من الحكيم ان يؤجل اتخاذ القرار ، أما بعد ان تشاور مع آخرين ، واستأذن الامير ، والذي اتصل بدوره بموران ، فقد تمت الموافقة على دفع التعويض عن الارض والهدم وترحيل المواد !

كان يكفي حماد ان تكون له صلة بسعيد فقط ليعرف ادق الاسرار واكثرها خفاء . أما حين قامت صلة بجميع الذين يحيطون بالحكيم ، بمن فيهم رضوان وابو عبد الله ، وبخادمة تساعد زوجته ، فانه يعرف عنه اكثر مما ينبغي ، ولذلك اكتشف منذ وقت مبكر نقاط ضعفه « وهواياته » وماذا يملك واين ، وان تظاهر انه لا يعرف عنه اي شيء ، اكثر من ذلك بدأ يلعب بمكر مع

الحكيم ، اذ يستجيب ، ظاهرياً ، لكل ما يقوله ، لكن لا يفعل الا ما يريده .

عندما اخذت العلاقات بين الرجلين منحى دقيقاً ، خاصة اثر التفاوت او الاختلاف حول علاقات سلطنة موران مع الدول المحيطة ، برزت فكرة زواج نادية . تذكرها الحكيم حين تذكر بدري ، ودون انتظار طويل ودون تردد ، وبعد ان هيأ لها جيداً ، كلف مطيع ان يفاتح حماد. وحماد الذي فوجىء بالفكرة راقت له وبدت طريفة ايضاً ، وربما كانت طرافتها ، في جانب منها على الاقل ، مستمدة من وداد ذاتها ، اذ كانت تبدو له جذابة مليئة بالانوثة والحيوية ، وما كادت تتدخل بطريقتها الخاصة حتى تمت الموافقة وبعدها الزواج ، وقد استغرق ذلك كله فترة قصيرة جداً . أما بعد ان انقضى شهر العسل ، وقد قضاه العروسان في الولايات المتحدة ، فقد امتلأ حماد شكاً ان يكون الزواج فخاً يريد الحكيم ان يصطاده به من جديد ، ولذلك ، وبعد ان انتهت الحفلات التي اقيمت على شرف العروسين ، اتخذ موقفاً فيه الكثير من المهارة : اغدق الهدايا على نادية ، وادعى كثرة العمل من ناحية ثانية ، الأمر الذي يجعله غير قادر على تلبية الكثير من الدعوات او حضور السهرات ، ولذلك بدأت تتباعد لقاءاته بالحكيم ، بدأت بالتدريج ، لكن باصرار ، ثم اخذت تتباعد اكثر .

وبكثير من الصبر والدأب استطاع ان يكسب نادية، واستطاع ان يقنع الحكيم بعلاقات من نوع جديد .

وشيئاً فشيئاً اصبح الحكيم لا يعني لحماد سوى شيء ثانوي ، حتى افكاره وتحليلاته تبدو له سخيفة ، اقرب الى الهذر ، ومليئة بالاحلام ، فهي لا تعتمد على اية معلومات ، اكثر من ذلك انها مليئة بالنفاق والتلفيق . يختبر بمكر بدائي هوى السلطان ، ما يحب وما يكره ، وما يرغب ان يقال له ، ويغزل على هذا النول ، دون ان يكلف نفسه عناء التدقيق بين ما قاله امس وما يقوله اليوم ، ولذلك لم يعد يعبأ حماد بتحليلاته او اقتراحاته ، كان يتركه يتكلم كما يشاء . يهزّ رأسه لما يقوله دلالة الاقتناع والموافقة ، لكن يمتلىء تصميماً ايضاً على مخالفة كل كلمة . حتى الاجتماعات الاسبوعية ثم الشهرية التي كانت تشغل القصر في المرحلة الأولى لتكوين جهاز الأمن والسلامة ما لبثت ان فقدت اهميتها

بتغيب السلطان مرة بعد اخرى ، ثم بذلك الاستعراض الاقرب الى الزهو الذي يمارسه الحكيم على مجموعة من المساعدين والموظفين الذين يستدعيهم لا لكي يسمع منهم وانما ليلقنهم دروساً خائبة في سياسة ليس لها وجود في اي وقت او في اي مكان !

في وقت لاحق ، ولم يطل هذا الوقت كثيراً ، اثر اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان ، وقد تابع حماد المحاولة بنفسه ، وعرف تفاصيلها كاملة ، قدّمها هدية للسلطان ، دون ان يدرئي احد ، خاصة الحكيم ، ونتيجة ذلك قامت علاقة خاصة بالسلطان ، وخصصت للجهاز اموال طائلة يتصرف بها بالشكل الذي يراه مناسباً ، ودون الرجوع الى اية جهة :

كان حماد بحاجة الى هذه الثقة بالذات ، وبحاجة الى هذه الاموال لكي يتحرك ، فما كادت تمر بضعة شهور ، ويبدي السلطان عدم رغبته بحضور الاجتماعات الشهرية لجهاز الأمن والسلامة ، حتى بدأ حماد يفعل مثله . بدأ يختار ، اول الامر ، اسفاره في فترة انعقاد هذه الاجتماعات، ثم لم يتردد بعد ذلك عن الاعتذار ، بحجة وجود اشغال طارئة وهامة ، مكتفياً بايفاد نائبه او احد المسؤولين لديه في الجهاز . والحكيم الذي اعتبر السفر حجة مقبولة ، او كما كان يسميها : « القوة القاهرة »، ما لبث ان تعود على اسفار حماد او على غيابه .

قال له حماد ، ذات مرة ، رداً على استفساراته :

ـ المهم ، يا ابو غزوان ، ان يكون احد مسؤولي الجهاز .

وابتسم ابتسامة عريضة واضاف :

ـ الا اذا اردت تأجيل الاجتماعات مرة بعد مرة ، او ان ألغي السفر!

ـ المهم ان نكون في الصورة ، على صلة بالمعلومات . .

ـ ابشر يا ابو غزوان . ما يحضر احد من الجهاز الا وعنده كل المعلومات ، وراح اشرف بنفسي .

وهكذا انتهت ، او كادت ، علاقة العمل المباشرة بين حماد والحكيم ، خاصة بعد الزيارتين اللتين قام بهما الحكيم الى الولايات المتحدة . قالوا لحماد

اثناء احدى زياراته ، وحين جرى الحديث عن الحكيم « رجل ثرثار » وضحكوا ، ثم اضافوا « وهو ، في كل الاحوال ، غير مؤذٍ ، ويمكن ان يكون مفيداً في المستقبل » .

الآن ، بعد ان ملك الحكيم مساحات كبيرة من الاراضي في موران وحولها ، اضافة الى ما يملكه في حران ، وقد سجّل هذه الاراضي باسماء اولاده وزوجته ، ولم يسجل باسمه سوى قصر الحير ، والارض التي اشتراها اول وصوله الى موران ، وبدأت تلك المضاربات ، وارتفعت نتيجة لها الاسعار ، ثم دخل مع بعض الامراء ، يشتري ويبيع ، اضافة الى ذلك البيوت العديدة في بيروت والجبل وطرابلس ودمشق ، وبين فترة استراحة واخرى يهذي بأفكار ومشاريع كتب يريد ان يتفرغ لكتابتها ، فقد تأكد حماد « ان الرجل يفهم بالسياسة مثل ما انا افهم بالطب » وان كل ما يقوله او يفعله ستار لا شياء اخرى ، خاصة بعد اختلافه مع سعيد ، ثم بداية اختلافه مع راتب ، « أما ذلك المنحوت من قصب » ، يقصد سمير ، « فما عنده حلال او حرام ، يفتي بالطالعة وبالنازلة وما يرف له جفن » .

كان يمكن لحماد ان لا يرى الكثير من الامور ، او ان ينساها حتى لو رآها ، لكن « اصدقاء الحكيم واقرباءه لا يسهون ولا ينسون » ، فما يكاد يمر يوم الا وواحد منهم في وجه حماد : « يا سعادة البيه ، دا راجل مجنون ، مجنون خالص، بفكر باختراع نظرية جديدة للعالم، نظرية المربع، سمعت حاجة زي كدا يا بيه ؟» ويصمت سمير قليلاً ثم يضيف : « وعايزني اكتبها له ، دا راجل عبيط لان اللي عنده نظرية لازم يكتبها بنفسه ، والا ايه يا بيه ؟ » ويأتي مطيع « انا وياك اصحاب ، يا ابو راشد ، والا لا حكيت ولا شكيت : الحكيم صاير رجل لا يطاق ، لا يهمه الا نفسه ، خرّب علاقاته مع الناس كلهم ، وآخر شيء راح تخرب بينه وبين راتب ، لان ابن قيصر صار الحاكم الناهي في قصر الحير ، والحكيم لا يعمل اي شيء بدون شوره » وراتب يتكلم ولا يتكلم : « والله يا اخ حماد كان وضعي في مرسليا عال العال ، وكانت حياتي في بيروت ماشية تمام ، لكن الحاج الحكيم ، رسائله وبرقياته ، وكلها تؤكد على ضرورة مجيئي اليوم قبل بكرة، فلما وصلت نسيني ، لا علم ولا خبر ، حاط عقله

بعقل هذا اللي اسمه سمير وطول الليل والنهار : لتّ وعجن ، قال راح يطلّع كتاب ، كتاب بعشر مجلدات ، بعشرين مجلد » ويصمت قليلاً ثم يضيف : « عصفورية يا ابو راشد ، مستشفى مجانين تماماً ! » .

وحماد يستمع ، يستغرب ، يصمت ، لكنه في النهاية يريد هذه المعلومات، لا بد أن تفيده في وقت من الأوقات، لأنها تثبت له أي رجل هو الحكيم ، واي مساعدين واقرباء له ، ومتى يجد الوقت ليفكر بالكتابة ؟ وهذه النظرية التي يتحدث عنها سمير ، اي نوع من النظريات ؟ ماذا تعني ولمن ستوجه ، وماذا ستكون نتائجها في النهاية ؟

ولكي يواصل حماد لعبته ، وضع مبلغاً في ظرف ، ووضع الظرف في جيب سمير ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

ـ رجاء المعذرة ، يا استاذ سمير ، هدية صغيرة !

وحين ابدى سمير « اعتراضه » تابع حماد :

ـ موران ، يا استاذ سمير ، صارت غالية ، ولا بد ان تكون للانسان موارد اضافية !

وبعد قليل :

ـ وبيّن الاصدقاء ما في هذه الشكليات او الاعتبارات !

وقبل سمير المبلغ « بصعوبة » ،واستمر على زيارة حماد اسبوعياً ؛ أما مطيع فقد رفض استلام اي مبلغ في المرة الاولى وفي المرة الثانية ، أما حين ابدى حماد غضبه « لان الفلوس ما هي لجيبك وما هي من جيبي ، وانما هي مساعدة يمكن ان تصرف بمعرفتك ، ولمن يستحقها من الذين يتعاملون مع الجريدة » فقد قبل مطيع هذا التفسير، قال في محاولة لتبرير هذا القبول :

ـ ساقدم ايصالاً بكل مبلغ يصرف . . مهما كان صغيراً !

ـ الله يخليك يا ابو رشدي ، بسيطة ، والموضوع كله ما يستاهل .

أما على راتب فلم يعرض ا ي مبلغ ، قال له بعد ان استمع اليه طويلاً :

ـ صحيح ان الاشغال صارت في الوقت الحاضر اصعب من قبل ، لكن

تحت ايدينا الف شغلة وشغلة .

وقبل ان يخرج راتب من مكتبه ، اتصل حماد بمدير تموين القوات المسلحة ، وطلب اليه « ان يقدم كل مساعدة للسيد راتب الفتال ، اخونا وصديقنا ، لانه يستأهل » .

ولم تمض ثلاثة ايام حتى اصبحت الشركة الشرقية للمواد الغذائية مسؤولة عن تأمين الاعاشة لحامية موران ! مع رجاء قاله حماد لراتب واصر عليه :

ـ هذا الموضوع بيني وبينك يا اخ راتب ، ورجاء ان لا يعرف ابو غزوان ، لانه لا يرتاح لتدخل الاجهزة بالقضايا التجارية ، ولا يحب ان تسمّى الاشياء عليه !

وراتب الذي غمز بعينه رد وهو يسلم على حماد بحرارة :

ـ ولا يهمك، يا ابو راشد، وهذه المساعدة لن انساها ، ولا بد ان تنقذنا .

ـ بسيطة . . اذا ظلينا على صلة ، كل شيء ينحل وتصير الامور احسن .

لم يعد حماد مديناً لاحد ، ولم يظهر انه دائن لاحد ايضاً . ظل بنفس الابتسامة التي تميزه دائماً ، وظل بنفس الود ، لكن الشيء الوحيد الذي تغيّر انه غالباً لم يعد موجوداً في المكتب اذا اراده احد منهم ؛ كان سكرتيره عبد المولى شديد المودة والتهذيب « ابو راشد سافر قبل يومين ولم يبلغنا بموعد رجوعه » « ابو راشد طُلب إلى القصر » « ابو راشد في اجتماع طارىء . . ولا يُعرف موعد انتهاء الاجتماع! » .

ويتصل حماد بمن اتصل به مرة وينسى مرة اخرى ، ولان الكثيرين لا يحتملون التأجيل او الانتظار ، ولان لدى حماد الكثير من المساعدين فقد كلف بعضهم ان يستقبل « الاصدقاء » وان يتحدث معهم ، « أما القضايا الخاصة ، القضايا التي تحتمل التأجيل ، فانا بمجرد ما افرغ سوف نلتقي ونتحدث » وهكذا قيلت اشياء كثيرة لبعض المساعدين ، وأُجّلت اخرى ، لكن بدا يتضح ان حماد اصبح هاماً وصديقاً يمكن الوثوق به ، ويمكن الاعتماد عليه عند الحاجة ، هكذا قال كل واحد من اصدقاء الحكيم لنفسه ، ولم يقله للحكيم او لاحد آخر !

أما كيف اصبح حماد قوياً هكذا وموجوداً بهذا القدر فهو نفسه لا يعرف ، او بالاحرى لا يستطيع ان يفسر الأمر تفسيراً واضحاً ، اذ ما كانت تمر فترة على وجوده في الجهاز حتى وجد حوله عدداً يتزايد من الناس يحيطون به وكل منهم يريد ان يتحدث اليه ، او ان يكسب رضاه ، ولانه تعلم الاصغاء والابتسام ، ثم تعلم اصدار الاوامر ، فقد اصبح محبوباً ومرهوباً في آن واحد . أما عندما تعلم ان يعطي او ان يسهّل للآخرين الاخذ ، فقد اصبح محبوباً اكثر من قبل . ويوماً بعد يوم امتلأ ثقة بنفسه وتأكد انه يعني الكثير للآخرين . وقد تأكد لـه ذلك من خلال زياراته للولايات المتحدة ثم المانيا ودول اخرى فقد اصبح رجلاً مختلفاً : اصبح يعرف ماذا يريد وكيف يصل .

ولانه اقتنع منـذ وقت مبكر انّ « الجهـاز » لموران كلهـا ، وليس لجهة او لاحد ، ولانه رئيس هذا الجهاز ، فهو الوحيد الذي يتخذ القرار ، وهو الذي يعرف كل شيء ، لذلك لا يجوز لاحد ان يتدخل او يقترب ، حتى السلطان لا يحق له ذلك « فالجهاز انقذ حياته عدة مرات ، حتى من اخوته انقذه » ثم ان السلطان لديه من المشاغل الكثير الكثير ، فاذا لم يستقبل الوفود لا بد ان يزور المناطق ، واذا انتهت هذه المشاغل والمهمات يتفرغ للمهمة التي لا يتعب ولا يمل منها ابداً : النساء . وحماد الذي زرع عيونه في كل مكان لم ينس القصر ، بل كان القصر احد ابرز واهم الاهداف . فعل ذلك بكثير من العناية والاتقان « حياة صاحب الجلالة عندنا اغلى من كل شيء » ولذلك اختار عناصر القصر بنفسه ، بعد ان امتحنهـا في مهمات وحـالات سابقـة ، وبعث عناصر معينـة

منتقاة للتدريب في الولايات المتحدة ، ثم ربط الجميع برئاسة الجهاز مباشرة . كانت له عيون بين الخدم والحرس وبين النساء ايضاً ،بحيث يعرف كل شيء ، حتى مع اي من النساء قضى السلطان ليلته ، وهل انتقل تلك الليلة الى امرأة اخرى ام لا ، كان يصل اليه، ويعرف متى نام ومتى استيقظ، وما اذا زاره احد او حصل اي شيء في القصر . .

أما الامراء الذين لم يفهموا مهمة جهاز الأمن والسلامة ، في البداية ، ولم يقيموا له وزناً ، فقد اخذوا يكتشفون شيئاً فشيئاً ان حماد يمكن ان يساعدهم في امور كثيرة : في تأمين المعلومات او الحاجات ، من داخل السلطنة او خارجها ، وكان يعرف اكثر من ذلك كيف يخدم الآخرين ، وكيف يكون مفيداً وضرورياً في الوقت المناسب ، فما يكاد احد الامراء يتحدث عن بندقية صيد بمنظار ، كتلك التي عند صاحب الجلالة ، حتى تصله واحدة مثلها بعد ايام او اسابيع في اقصى الحالات. ويمكن أن يقاس على هذا امور كثيرة. واذا احتاج امير آخر الى معرفة مالك الارض جنوب قصور الخالدية فلا يتطلب الامر اكثر من ساعات قليلة ليقدم له حماد المعلومات المطلوبة او اكثر منها. أما في حال سفر امير او اميرة الى الخارج فلا بد ان يقدّم حماد مجموعة من العناصر للحماية والخدمة ، عدا عن اشعار السفارة لتأمين الاقامة والسيارات والمرافقين .

كان يفعل هذه الاشياء ، وغيرها بتواضع جم وكأنها جزء من واجباته ، فلما زاد المال بين يديه اكتشف ان الناس يحبون المال اكثر من اي شيء آخر ، ومن اجل الحصول عليه مستعدون لتقديم اية خدمة .

والقصر الذي كان يقدم الهدايا والعطايا ، ما لبثت هذه المهمة ان انتقلت الى الجهاز ، بعد الاخطاء الكثيرة التي وقعت والشكاوي التي قدمت ضد الشيخ مالك ، خاصة وان ثلاثة من الذين اشتركوا في محاولة اغتيال السلطان كانوا من قبيلة لم يتلق رئيسها العطايا المخصصة له تلك السنة ؛ قال السلطان لحماد وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، بعد ان كلّفه بهذه المهمة :

ـ جماعتنا وحنا ادرى بهم اذا سديت حلوقهم أمنت شرهم .

ـ الصدق اللي تقوله يا طويل العمر .

ـ عصفورين بحجر واحد : ترضيهم وتربطهم .

لم يكن حماد بحاجة الى مثل هذه التوصية ، فقد سبق له ان قدم بعض الهدايا الى عدد من الشيوخ لانهم ساعدوه في كشف عمليات تهريب سلاح كانت قد جرت ، ومرة اخرى لانهم ساعدوا في تقديم اليد العاملة من اجل بناء مخازن لقوات الحدود . أما الآن وقد اصبح جميع الشيوخ يتلقون العطايا المخصصة لهم من جهاز الأمن ، فقد قامت علاقات حميمة بين هؤلاء والجهاز ، كانوا يتقاطرون على موران ، وكانوا يقضون اياماً في ضيافة حماد ، وبكثير من العناية والصبر ، وبعد ان أُفرد بناء خاص سُمّي دائرة البادية ، اصبح هؤلاء الشيوخ يراجعون الدائرة ليس فقط لاستلام العطايا وانما للتوسط لحل الكثير من المشاكل او من اجل تأمين ما يحتاجونه من دقيق وسكر او حاجات اخرى .

حتى شيوخ القبائل من البلدان المجاورة الذين تعودوا على زيارة السلطنة بين فترة واخرى ، ومنذ ايام السلطان خريبط ، غالباً ما يرجعون برعايا وهدايا ، فقد واصلوا القيام بهذه الزيارات واكثروا منها في السنوات الأخيرة ، وكان السلطان لا يبخل عليهم ، اذ بالاضافة الى الحفاوة والاستقبال ، كانوا يعودون باموال لم يحصلوا عليها ، او يحلموا بها من قبل، وقد تولى جهاز الأمن القيام بمهمة الاتصال او تقديم الهدايا .

قال شداد لاخيه بعد ان رأى الحصان الذي قدمه له ملحم بن المهيد هدية :

ـ يا ابو فوزان . . هذا الحصان ما يعجب ، وما هو لله !

ـ ما مثله ، يا ابو غانم ، وانت تعرف الخيل !

ـ اصله من اصل صاحبه ، وانت تخبر يوم الزرقا !

ـ الله منك يا رجل ما تنسى شيء ابداً .

ـ الرجال ما تنسى يا ابو فوزان ، تسامح لكن ما تنسى .

وصمت الاخوان وكأنهما لا يريدان ان يتذكرا يوم الزرقاء ، حين وشى بهما

ملحم الى قوات الحدود ، وادى ذلك الى مصادرة البضائع التي كـانت تحملها الجمال ، واستلم ملحم ثلث قيمة البضائع المصادرة ، كما اعترف بذلك امام عدد من الناس ، وكان بينهم شمران .

قال شداد يواصل هجومه :

ـ وجاء نوبات بحياة خريبط ، وجاء مرة او اثنتين قبل سنين، تذكر يا ابو فوزان ، وما قال مرحبا ، هالمرة جاي مشنشل بدل المرحبا ماية ، وبدل قبضة تمر خيل وموزر ، ويمكن يطلب منا ، بعد ، بنّية !

ـ لا بد يكون ندم يا ابو غانم ، والندم ملح الرجال !

ـ ندم او قريشات طويل العمر ؟

قال ابو فوزان في محاولة هجوم :

ـ وهذا الحصان مني لك ، يا ابو غانم ، اقبل !

ـ خيل اللئيم تكدّش يا صالح ، وتخرب الخيل الطيبة .

قال شداد لاخيه بمرارة :

ـ يا رجل . . .

ـ اسمع يا ابو فوزان ، ولا بد انك سمعت من غيري ، موران ما عندها سالفة الاحماد ، فبعد ما قال له طويل العمر اعط ، فتح حماد كيسه واعطى ، لكن ما ترك شين الا واعطاه ، ما ترك واحد بينا وبينه ثار الا واعطاه ، واليوم جاء ملحم حتى يرد لك يـوم الزرقـا ، فاذا نسيت تـذكر ، واذ عجـزت حنا اقدر .

وبضحكة انهى صالح الموضوع ، على الاقل مؤقتاً ، أما شداد ، فقد قال كأنه يحدث نفسه :

ـ راح يجي يوم ندفع ثمن خيلنا وكدش غيرنا ، ويجوز انه اللي مـا استلم هو اللي يدفع !

وبمقدار البراعة التي لجأ اليها حماد في كسب بعض الناس ، فقد كان بارعاً

ايضاً في استعمال القوة ، او التهديد بها . قال له اندورز ذات يوم « السياسة التي تجعل الوضع في موران مستقراً سياسة بسيطة ، لكن تحتاج الى ذكاء في التنفيذ » . تطلع اليه بمودة وتابع : « سياسة الجزرة والعصا »ولما نظر اليه حماد باستغراب وتساؤل ، قال له :

ـ القوة والمال . . وضحك وهو يصحح : لا المال والقوة .

وبكثير من الصبر والهدوء ، وخلافاً لطريقة الحكيم في الحديث ، شرح له أن الظروف الجديدة في موران تساعد على قيام حالة من الاستقرار والرضا ، فقط يحتاج الأمر الى استعمال وسيلتين اثنتين ، او واحدة منهما على الاقل : الاغراء والشدة . الإغراء تجاه الاشخاص والقطاعات التي تعتبر ان الوضع القائم وحده هو الذي يناسبها ، لانها من خلاله تكسب وتقوى وتؤمن مصالحها ؛ والقوة تجاه الاشخاص والقطاعات الاخرى ، القطاعات المتمردة ، التي لا ترضى بشيء ولا تقنع بشيء .

كان حماد ، بحدس غامض ، يدرك ان الكثيرين في موران يحتاجون الى المال او الخوف ، الذين لا يأتون بالمال يمكن ان يخافوا العصا ، حتى لو لم تستعمل العصا ، خاصة وانه من خلال التجربة اكتشف ان لا احد يشبع من المال ، وكان هذا يضايقه الى اقصى حد ، فهو ، رغم الاموال التي بين يديه ، يشعر انه بحاجة الى شيء آخر ، او كان يرى ان المال لا يعني كل شيء في هذه الحياة ، وربما كان هذا هو السبب ، او على الاقل ، احد الاسباب ، التي جعلته ينظر الى الحكيم هذه النظرة .

وتمر الايام وينشغل الناس في موران بالحياة التي تموج وتتغير حولهم ، فيركضون من اجل الكسب او تدبير الرزق : فينسون قلقهم او ينشغلون عنه ، لكن موران جزء من ارض كبيرة تمتلىء بالجوع والقهر وتتفجر بالغضب ، وتتحرق الى شيء آخر غير ما يقال لها وما تسمعه ، ومثل المؤذن الذي يشق صوته ظلمة الفجر ، اعلاناً عن بدء يوم جديد ، كذلك تهدر اصوات الغاضبين والجائعين حول موران ، وتنتقل من مكان الى مكان في هذه الارض العربية الحزينة ، فتصل اصداؤها الى موران ايضاً ، فيتوقف الناس عن

الركض المجنون ويستعيدون ذاكرتهم ، ومن جديد يستبد بهم القلق فيتساءلون وينتظرون ! الاغنياء ، والذين يزيد غناهم يوماً بعد يوم ، يخافون ويزداد خوفهم بمقدار تزايد ثرواتهم ، والفقراء الذين كانوا يعرفون كيف يحتالون على الحياة في الأيام القديمة لتأمين رزقهم ، يجدون ان هذه الحياة اصبحت اقوى منهم واكثر مكراً ، وهي ترميهم من مكان الى آخر ولا يعرفون اين ستدفعهم او اين ستكون قبورهم . فيرهفون آذانهم لسماع الاصوات الآتية من بعيد .

كان السلطان لا يحب هذا الغضب ، بل ويخاف منه ، وكثيراً ما تمنى في اعماقه لو ان الكهرباء لم تصل الى موران ، او لو ان الطائرات لم تعرف طريقها اليها ، اذن لعاش الناس في قناعة ورضا ، كما عاش اباؤهم واجدادهم ، لكن ما دام هذا قد حصل ، وما دامت موران غنية الآن فلتعط ، ويصدر اوامره الى حماد ان يتحرك ، ان يعطي . وحماد الذي يعرف اكثر من الآخرين لا ينتظر الحريق يصل الى موران لكي يتولى اطفاءه ، انه يذهب اليه ، يذهب تسبقه عطاياه ، وبوصول العطايا والاختلاف حول اقتسامها ، يؤمل الغاضبون والجائعون ، ويتنفس الذين يحكمون الصعداء ، ويثري الوسطاء ، فيتراجع الغضب وتنكسر حدته .

الحكيم الذي اعترض على هذه الطريقة ، وكان يُسمع اعتراضه في وقت سابق ، لم يعد حماد يعبأ بما يقوله الآن ، رغم انه يستمع اليه بكثير من الانتباه والادب ، لكنه لا يفعل اكثر من ذلك ، أما ما يقوله عن الدعوة والدعاة ، وما يسرّبه عن نظرية المربع ، فانه يثير سخريته وأسفه ، وفي احيان اخرى يجعله نزقاً ، حتى الهاتف الذي يأتيه من الحكيم مستفسراً عن الاحداث التي تتردد اصداؤها في الأذاعات ، يعتبره تدخلاً في امور لا تعنيه ، فيجيبه مرة ويطلب من سكرتيره ان يجيب مرة اخرى ، أما حجم الاموال التي ارسلت او لمن اعطيت فانه لا يعرف ويجب الا يعرف عنها اي شيء .

ومثلما ذهب حماد هناك لاطفاء الحريق ، او ذهبت امواله ورسله ، فانه هنا يشدد قبضته ليُحْكم السيطرة ، يريد ان يجعل موران ساكنة مثل مقبرة ، لا يحب ان يسمع شيئاً او احداً . نشر عيونه في كل مكان يحصي على الناس انفاسها ويرقب اية حركة او أي سكون ، حتى القصر ، وبدافع الحرص اكثر من

السابق على السلطان ، طلب احاطته بمزيد من الحراسة والمراقبة . . والاهتمام ايضاً .

بعث الى نمر من يبلغه « ابلع لسانك ، لانه كلمة والثانية وكأن امك ما جابتك ، والاحسن القم حجر واسكت » ونمر الذي ضحك بسخرية ، اعتبر هذا التهديد دليلاً على الخوف اكثر مما هو مظهر قوة . قال للرسول :

ـ سلّم على ابو راشد وقل له : الدم ما يصير ماي ، واهل موران قرايب ويعرفون اللي يصير واللي ما يصير ، بس خله يتوقّى من اللقامين ومن اللي حاطين على خشومهم مناظر ! .

كان يقصد احد اثنين : مطيع او سمير ، او ربما ، يقصدهما معاً . أما شمران عندما بلغه التهديد الذي وجّه الى ابنه فقد قال امام كثيرين في مقهى زيدان :

ـ ظني ان حماد ما يقول اللي قاله لانه رضع حليب امه وربي بين الخيل .

وبعد قليل اضاف بنوع من النزق :

ـ وبكل الاحوال يلزم يعرف هو وغيره، الغريب والبعيد، ان الحرب اولها الكلام .

وحماد الذي بلغه ما قاله شمران وابنه ضحك بغيظ وقال دون رغبة :

ـ يا عباد الله اعرف اكثر منهم واحسن منهم ، بس خليهم يكفونا شرهم حتى نشوف دربنا !

غاب الاميرفنر عن السلطنة بضع سنين ، متنقلاً بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة ، التماساً للراحة والاستجمام او طلباً للعلاج . لم يرجع الى موران خلال هذه السنين الا لفترات قصيرة ، لا تتعدى الاسابيع . وكان في كل زيارة يحزم امتعته فجأة ويرحل من جديد ، بعد ان يكون قد امتلأ تشاؤماً وعاوده المرض مرة أخرى .

في هذه المرة ، وقبل انتهاء العام بثلاثة اسابيع ، عاد . قال الكثيرون «زيارة مثل زياراته السابقة، والبرد هو اللي حمله وجابه، فإذا ربّعت في المكان اللي جاء منه يشيل ويرحل مثل الطيور» وقال آخرون، وظهرت على وجوههم علامات الحزن « لداه ما لقيوا دوا وقالوا له تموت ببلادك اخير لك ولنا . . وجاء » . أما السلطان خزعل الذي اعتبر مجيء اخيه حدثاً عادياً ، لا يثير تساؤلاً او خوفاً ، وبالغ في الاهتمام به ، فما لبث ان احس بالقلق ، لان فنر الذي كان قليل الكلام ، غامضاً ، اصبح الآن مغلقاً تماماً ، ولا يجيد شيئاً كاجادته الصمت . ومما زاد في قلق السلطان ثم تخوفه ان الامير اعتذر عن قبول قصر السعد الذي بني أخيراً ، وكان واحداً من اجمل القصور في موران . كان اعتذاره اقرب الى الرفض ، وفضّل ان يعود الى بيته السابق ، والذي اصبح متداعياً اقرب الى البيوت المهجورة ، لان احداً لم يعتن به خلال فترة غيابه .

قال السلطان لما بلغه اعتذار اخيه عن قبول قصر السعد :

ـ من به طبع ما تركه . .

وفهمت عبارة السلطان على وجوه شتى . أما عندما جرى الحديث في امور اخرى ، فقد ردد السلطان عبارة بذاتها مرتين ، رددها دون مناسبة ظاهرة وابتسم ، قال :

ـ على البني آدم ان يمشي ممشى زمانه .

وقد ربط الكثيرون بين الجملتين ، وترآى لهم انه يعني اخاه فنر ، لكنهم ، مع ذلك ، لم يكونوا متأكدين تماماً . فالامير اذا كان يفترض ان موران لا تزال كما تركها ، او مثل ايام ابيه ، فانه يخطىء كثيراً ، لان موران تلك لم يبق منها شيء ، لم تتسّع وتكبر ثلاث او اربع مرات فقط ، وانما تغيرت . وما عاد لها صلة بالمدينة التي كانتها قبل بضع سنين . والامير اذ يتصور ان تناوله للتمر او اللبن ، كما كان يفعل من قبل ، او كما كان يفعل ابوه ، ليقنع الرعية ويجعلها تتمسك به ، لانها تراه يشبهها وقريباً منها ، فان موران قد كفّت عن اكل التمر او شرب اللبن منذ سنين عديدة ، أما اهمية السلطان الآن ، ومدى تأثيره وتعلق الناس به ، فان ذلك بقدر ما يبدو قوياً وكريماً ، بقدر ما يبدو بعيداً وغامضاً .

موران الآن لا تحتاج الى سلاطين مثل خريبط : متقشفين او يتظاهرون بالتقشف ، ولا تحتمل ان تعود كما كانت. أما ان يأتي الامير فنر حاملاً علله وصمته ، ومفترضاً ان السكن في ذلك البيت القديم يمنحه ميزة من اي نوع فانه يخطىء كثيراً ، لان موران التي فتنتها السيارات الاولى حين وصلت اليها قبل سنين ، والتي لم تزد على عشرين او ثلاثين سيارة في عهد السلطان خريبط ، وكان معظمها خاصاً بالقصر ، فان هذه الفتنة تبدو صغيرة الآن ، ولا تتعدى اللعبة التي يملّها الطفل بسرعة ، فيستبدلها بغيرها، ليغيرها مرة اخرى بعد فترة قصيرة ، فتتراكم السيارات كما تتراكم اللعب، وتتغير كما تتغير الجوارب . هذه اللعبة تجاوزتها موران منذ سنين لتفتن بلعبة جديدة : القصور . فجأة اكتشف الناس ان الخيام التي كانت تظلّهم ، او تلك البيوت الطينية التي كانت تؤويهم ، اصبحت كريهة ولا تليق بهم .

ومثلما كان الحكيم من اوائل الذين بنوا القصور ، واطلق على قصره اسم

« قصر الحير » ، وقد اختار له طرازاً المانياً ، فإن اكثر الذين سخروا او استغربوا ، ما لبثوا ان شاركوا في اللعبة : بدل القصر اثنان او ثلاثة! وبدل الطابق الواحد عدد من الطوابق ؛ وبدل الشبابيك العريضة واجهات زجاجية تمتد من الجدار الى الجدار ، لان هذا ، كما يقولون ، يعطيهم شعوراً انهم لا يزالون على صلة بالطبيعة وبكل ما حولهم! ومثلما كانت تسمى الخيول اخذوا يطلقون على قصورهم اسماء والقاباً غريبة ، وبعض الاحيان مضحكة . كما اخذوا يربون الحيوانات ، خاصة الغنم ، داخل هذه القصور ، حتى اذا سرحت الغنم الى جانب الشبابيك او الابواب الزجاجية ، وبدأت تمسح ابوازها بالزجاج او تنطحه اثارت الفكاهة والضحك اكثر مما تثير الاستغراب !

لم تمض سنوات حتى اصبحت موران مدينة عجيبة . فمن الاسفار التي قام بها الكثيرون الى بلدان عديدة ، ومن المجلات التي حملوها معهم ، او من الرسوم البدائية التي خططوها لبيوت رأوها في هذه الاسفار ، اضافة الى وجود شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور ، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد ، او كما تتشكل الحدائق اليابانية : مجموعة من الالوان والاشكال والحجوم لا تحتملها عين : بيوت فسيحة الى درجة لا يُعرف لاي شيء ستستعمل، او من سيسكن فيها . عشرات الغرف توازيها الدهاليز والممرات المعتمة كأنها الانفاق ، لتكون فاصلاً بين جناح وآخر ، اضافة الى الابواب بمصاريع او تلك التي تدور او التي تختفي ؛ أما الجدران فقد كُسي اغلبها بالخشب او القطيفة الملونة ، وفرشت الارضية بالموكيت الغامق اللون ، حتى الممرات والادراج فرشت، وبالغ الكثيرون ففرشوا المطابخ ودورات المياه! أما المدافىء الانكليزية فقد كانت نمطاً سائداً ومرغوباً في البداية، خاصة حين شيد الامير ميزر قصره على طريق الرها ، لكن ما لبث الكثيرون ان فضلوا عليها انواعاً اخرى من المواقد الفرنسية والالمانية !

حمى المنافسة في بناء القصور لا تهدأ ولا تتوقف ، ولا يبقى احد الا ويشارك فيها. أما السلطان فقد سبق الجميع ، اذ اضاف الى هواياته القديمة هواية جديدة : ان يعيش مع كل زوجة في قصر ، وان يبني لكل عروس قصراً جديداً! لكن لم تمض فترة حتى جاء من ينبه السلطان ، وقيل انه الدميري

الذي عقد له على زوجاته ، هو الذي نبهه ، ان الناس بدأوا يعرفون عدد الزوجات من عدد القصور ، الأمر الذي دعا الى شراء كافة الاراضي المحيطة وتسويرها .

قال شمران ان الراجل يحتاج ، لكي يدور حول قصور الغدير والخالدية ، يوماً كاملاً ، أما الخيّال فانه يحتاج الى ثلاث او اربع ساعات اذا سارت الفرس خبباً .

ومثلما وصلت الى موران السيارات ومكيفات الهواء والجواهر ، ومثلما وصلها أعداد تزيد كل يوم من الغرباء ، فقد وصلها ايضاً امين الورداني ، صاحب شركة الغزال للمقاولات والتعهدات : رجل مربوع او اقرب الى القصر ، سمين ، مرح وعملي بكل ما تعنيه هذه الكلمة . وصل فجأة بطائرته الخاصة الصغيرة الى موران ، وبرفقته مجموعة من المساعدين . ولثلاثة ايام متوالية ، وبموكب من السيارات ، لم يهدأ ولم يتوقف ذرع موران من اقصاها الى اقصاها ، وقيل انه وصل الى الرحبة والرحيبة ، وقيل ان الحكيم اقام له وليمة في المليحة ، وما كاد غبار الركض والانتقال يهدأ حتى انتشرت الاخبار ان موران ستهدم ويعاد بناؤها من جديد ، وانتشرت اخبار اخرى ان العاصمة ستنتقل الى المليحة ، لان مياهها اكثر وهواءها اطيب .

لما سمع شمران بهذه الاخبار قال كلمة رددها الكثيرون بعده . قال :

ـ هذي الديرة ما عاد يفيدها حجام وكي . . صار دواها برداها .

وقبل ان ينتهي اسبوع على وصول امين الورداني وافق السلطان ان يُبنى له قصر جديد في منطقة الخالدية ، وان تبنيه شركة الغزال ، واشترط ان يكون شبيهاً بالقصور العباسية ، وان يبنى الى جانبه مسجد يشبه مسجد ايا صوفيا ، كما اقترح الحكيم! وامين الورداني طلب بالحاح ان يُوافق على ان يكون هذا القصر هدية من شركة الغزال « لكي تتعرف السلطنة على نوعية الاعمال وجودتها » ، الا ان رفض السلطان ، واحتمال ان لا تسير الاعمال كما قدر امين الورداني تم الاتفاق ان تقدم الشركة كشوفاً في نهاية العمل بالتكاليف الفعلية ، « ولا تطلب قرشاً اضافياً » .

كان وصول شركة الغزال بداية الجنون في موران، والحكيم الذي بدا اول الامر شديد القلق لوصول امين الورداني وشركته ، ما لبث ان اكتشف خطأه ، لان اثمان الاراضي التي اشتراها من قبل تضاعفت عشرات المرات ، ثم مئات المرات بعد ذلك ، وهذا انساه ، او جعله يتغاضى ،عن كل شيء عداه . أما العلاقة التي قامت بين الرجلين خلال الفترة القصيرة التي قضاها امين الورداني في موران ، فقد جعلت الحكيم يتأكد « انهما يكملان بعضهما بعضاً ، ولا يمكن ان يتنافسا او يختصما » لان امين الورداني يحتاج الى الكثير من المواد ، وان « الحكيم ، بحكم معرفته وعلاقته يمكن ان يساعد في تأمينها » أما التموين واقامة العمال ، فان « الشركة بحاجة إلى متعهدين ثانويين ، وهؤلاء لا يمكن ان يتم اختيارهم او الاتفاق معهم الا بناء على ترشيح الدولة او على الأقل موافقتها » .

هكذا بدأت موجة الجنون ، وهذه الموجة التي استمرت واتسعت لم تترك احداً او شيئاً . حتى شداد ، الذي كان غارقاً في جنونه الخاص ، وكان بعيداً لا يسمع الا الاصداء البعيدة ، ولا يهتم بها كما يفعل اكثر الذين حوله ، فقد جاء من يقول له ان « ارض الحصيبة اصبحت ارض الذهب » وان الحكيم الذي اشترى تلك الارض ليقيم عليها مستشفى ، قد باعها للقصر ، « لان السلطان سيقيم ثلاثة قصور للضيافة » ، لما سمع شداد ذلك لم يستطع ان ينام تلك الليلة ، جاء الى اخيه عند الفجر ، فلما التقى بمفلح ، شيبة آل المطوع ، قال له ، وكان متأكداً انه لا يسمعه :

ـ يا مبارك ، يا ابو دهام . انت اللي قلت لنا يوم الرحيبة وقبلها : اتركوا خريبط ، قلنا : يا ابو دهام تراه يحفر قبورنا ، قلت هالحين هو اللي يحفر قبره ، واليوم احسن من اللي عقبه . وما راح يوم وجاء الثاني الا خيّل وركب ؛ قلت : اذا مشى البيرق مشينا . سكتنا . . وبعدين مشينا .

ومفلح المطوع الذي كان يتطلع ولا يسمع ولا يعرف ماذا يقال ، كان يهز رأسه ، لكنه لا يتوقف عن انشغاله بتقليب النار من اجل اعداد القهوة . تابع شداد :

ـ وقلت يا ابو دهام اتركوه ، ما منها رجا ، لان الاحدب يعرف كيف

ينام ، ترى الاحدب نام على قلوبنا !

على مسافة امتار كان صالح ، ابو فوزان . كان يسمع ولا يعرف عن اي شيء يتكلم اخوه ، لما التفت وراه قال له :

ـ قلت لك يا أبو فوزان: حماد. . من يوم ما حط يده بيد ذلك المالطي، وصار مشاور السلطان ما عاد حمادنا ، نفضنا يدنا منه ، وما عاد منه فايدة ورجا . قلت وكّل الله . سكتنا ، قلنا الصبر زين . قرينا عليه . قلنا له كل شي ، قلنا له هذي موران وهذون ناسها ، وهذا اللي يصير وهذا اللي ما يصير، لكن كل ما قضبناه الجادة ينحر الجبل، يغّب ويبعد وما ينعرف ليوين ولمتى!

كان شداد منفعلاً اقرب الى الغضب ، وصالح الذي ما زال حائراً لا يفهم بوضوح ما يعنيه اخوه او ماذا يجب ان يفعل ، رد وهو يبتسم :

ـ يا ابو غانم وكّل الله ، اصبر ، وكل شيء بوقته زين . . .

ـ وقتنا فات يا ابو فوزان .

وبعد قليل وبسخرية :

ـ واللي ما اخذته السارحات اخذه المالطي .

ـ اخذه المالطي ؟ من هو هذا البلية وشنهو اللي اخذه ؟

ـ لكن غريمي حماد .

ـ حمادنا ؟

ـ ما هو بحمادنا، يا فوزان، لأنه باعنا ونسينا.

ـ وكّل الله يا رجال .

قال مفلح ، بعد ان شرب اول فنجان ، وقدم الفنجان الثاني لابي غانم :

ـ القهوة ، مثل الماء ، تغسل السم !

قال هذه الكلمات دون ان يعرف عن اي شيء يتحاور الاخوان ، لكن ادرك انهما يتخاصمان . تناول منه شداد الفنجان ، شربه بهدوء ، وقال كأنه

يدبر امراً :

ـ والله . يا ابن الحرام ، يا مالطي ، ما تخلص !

وبعد قليل وقد توصل الى قرار :

ـ ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل : اغر على الحضري ومردّك السلامة .

وبكثير من الانفعال شرح شداد لاخيه ان ارض الحصيبة ما كان ليبيعها لولا تدخل حماد، وانه باعها، «لان المالطي يريد ان يبني عليها اجزخانة» أما بعد ان باعها للقصر وقبض ثمناً لها ذهب الارض كله ، فلن يفوت الأمر ولن يسكت . أما اخوه فقدِ رد بكثير من المرارة :

ـ يا ابو غانم شورنا صار ينفع الصغار والحريم ، أما اللي كبروا ، اللي راحوا ورجعوا فصار شورهم من رأسهم ، والأيام وحدها تعلمهم !

كان يمكن للحياة ان تستمر وتتتابع دون ان يغيرها شيء، حتى اذا دخل فصل الربيع وهاجرت الاطيار، عرف ما اذا كان الامير فنر سيبقى ام سيرحل، وما اذا كان سيستقرّ في بيته ذاك ام سيتركه الى بيت آخر ، لكن جاء من ابلغ السلطان ان اخاه جاء ليبقى ، وانه لن يترك البيت الذي هو فيه الى بيت آخر ، وقد اكد الخبر عدد من نساء القصر ، اذ عرفن من اخريات على صلة بنساء الامير .

والسلطان الذي بدا قوياً واثقاً خلال السنين الماضية ، والذي عرف كيف يكسب اخوته كلهم ، وكيف يدخلهم جميعاً في جوه ، عدا مجحم المشغول بصقوره ، والذي لم يصل موران ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة الا مرة واحدة ، وقيل انه مرض وكاد يموت ، لانه نام تحت سقف ، فنقل الى البادية على محفة ، ولم يسمع احد اخباره بعد ذلك ، عدا مجحم وراكان ، فان الآخرين غرقوا في جو موران وفي لعبتها الجديدة ، وبدأوا يتنافسون فيما بينهم في القصور والنساء والجواهر ، ثم بالاسفار الى بقاع العالم و « اركان الارض الاربعة » كما يقول الحكيم .

الآن والامير فنر يصل، وما رافق وصوله من اخبار وتفسيرات ادخل القلق الى قلب السلطان ، ثم الخوف ، ولان السلطان قلق ثم خاف فان القصر تغير ، واكثر ما تغير واول من تغير الحكيم . فبعد ان انتظر الشهور الأخيرة واستكمل استعداده للاقلاع ، بما في ذلك ارتداء العباءة السوداء في اكثر الليالي ، وقد رد على نظرات سمير حين رآه اول مرة لابساً تلك العباءة ، رد عليه بعبارة لم يفهمها بسهولة ، قال له :

ـ مثل ما يقول اهل موران : برد الشتا توقّه وبرد الربيع تلقه .

ويمرح اوضح لسمير ان برد الصحراء خبيث، وهو يتسرب الى الجسد كما تتسرب المياه في الرمال ، انه يتسلل بخفاء ، حتى ان الانسان لا يحس به الا في وقت متأخر ، ولذلك يجب تجنبه واتقاءه ، أما اذا دخل الربيع او اقترب ، فان الهواء ، رغم برودته ، لا يضرّ الانسان، لا بل ينفعه.

كان هذا الشرح ضرورياً ليفسر ارتداءه للعباءة السوداء ، والتي بدت رافهة ، انيقة ، وقد ظهر فيها كشيخ وقور مليء بالحكمة والمعرفة .

لم يبق على بداية العام الجديد سوى اسابيع قليلة ، وكان الحكيم ينتظر انقضاءها بفراغ صبر وقلق معاً ، حتى وصل الامير فنر . لما بلغ الحكيم خبر وصوله ضرب على ساقه وقال دون ارادة :

ـ الله يسترنا من الاعظم !

وبعد قليل ، وهو يهز رأسه بحزن اقرب الى الاسى ، قال بتسليم :

ـ اللهم اجعله خيراً !

وروى لمطيع ولآخر تم استخدامه في الفترة الأخيرة ، وكانت مهمته تنظيم مواعيد الحكيم ، روى لهما ان حلماً روعه في الليلة الفائتة ، فقد رأى نفسه محاصراً بالنيران وكلما حاول الهروب والنجاة كان رجال ملثمون ، لا تبين سوى عيونهم الحمراء الغاضبة ، يدفعونه ويعيدونه الى وسط النار ، وكانت اصواتهم اقرب الى هزيم الرعد .

روى هذا المنام وربط بين هذه الرؤية وبين وصول الامير فنر . أما بعد ذلك بايام فقد تأكد الحكيم ان الامر اكثر جدية مما تصور او قدر ، حين رأى السلطان مهموماً ، ثم حين امر بان تدعى لجنة الامن والسلامة الى اجتماع عاجل لتقدير الموقف ، وكان قد انقضى على عدم مشاركته في مثل هذه الاجتماعات فترة تزيد على السنتين .

تطرق السلطان في الاجتماع ، وفي محاولة للتمويه ، الى الاوضاع في المنطقة ، وقال : « ان الدنيا حولنا ما هي بخير ، والناس مثل الاباعر الهاجّة ،

او كأنه وُضع في اذنابهم فلفل يحركهم ويدفعهم من مكان الى آخر بجنون » .

بعد ذلك تساءل السلطان ببراءة عن اوضاع الامن والحدود ، ولما تلقى تطمينات مؤكدة من حماد ان « الامور ممسوكة بيد من حديد ، وان الناس منصرفة الى العمل ، ولا يشغلها اي امر آخر » ابدى الحكيم تخوفه « ليس من الداخل ، فالداخل ، ولله الحمد ، يرفل ، في ظل صاحب الجلالة السلطان ، بالخير والنعيم ، والناس في رضا وقناعة . أما الخوف ، الخوف الحقيقي ، فهو الذي يأتي من وراء الحدود، من الدول المجاورة، ولا يمكن مقاومة هذا الخطر الا بالفكر والدعوة ، ولذلك من الزم الامور بالنسبة للسلطنة ان تكون لها وجهة نظرها الفلسفية الكاملة والقوية » .

استراح الحكيم قليلاً ثم قال وهو ينظر الى السلطان :

ـ ومثلما كانت الدعوات التاريخية ، يا صاحب الجلالة ، تستند الى الفكر والاقناع ، فيجدر بسلطنة موران ان يكون لها مفكروها ودعاتها ، وان تكون لها دعوتها ، وان تحارب الكفر والالحاد والفساد ليس داخل حدودها وانما خارج الحدود .

والسلطان الذي التقت نظراته اكثر من مرة بنظرات حماد ، قال ليحسم المناقشة :

ـ حنا ، اللي علينا ، حدودنا وبلادنا ، وما علينا بغيرها ، فاريد منك يا حماد أن تفتح عينك وأذنك، وأن لا تترك كبيرة أو صغيرة إلا وتقول لي عليها ، حتى لو كانت من ابني او اخوي .

وفهم تماماً ان السلطان يعني اخاه فنر ولا يعني انساناً سواه ، أما بالنسبة لملاحظات الحكيم فلم يرد عليها في الاجتماع ذاته . أما في لقاء لاحق ، وقد تم خلال الاسبوع نفسه ، فقد قال السلطان ، وهو يطلب من الحكيم ان يقترب :

ـ. يا ابو غزوان الجماعة بره ، هنا وهنا ، شريناهم ، عطيناهم من عطايا الله ، قلنا لهم خذوا واسكتوا ، وما يغرك الكلام اللي تسمعه بالاذاعة او الجرايد ، كله ضراط ، وما يساوي نواة . . .

والتفت السلطان اكثر من مرة ثم اضاف بهمس :

- وإذا راح يجينا بلاء، يا أبو غزوان، من حدر رجلينا، من جماعتنا واقرب الناس الينـا !

وحاول الحكيم أن يطمئن نفسه، وكادت أن تنقضي السنة فينسى هذا الهم الطارىء، ويعود إلى المهمة التي نذر نفسه لها، لولا الخلاف الذي وقع بين راتب وسعيد .

فالشركة التي قامت فبل بضع سنين ، والتي ازدهرت واعطت نتائج هامة وكبيرة خلال السنـين الاولى ، ما لبثت ان تعـرضت الى التصدع ، ثم سـوء التفاهم ، فالخلاف .

بدأ الخلاف ، اول الامـر ، حول تجـارة المواد الاوليـة . لكن تم تلافيـه وتجاوزه، أما حين اتسعت اعمال وعلاقات سعيد، فإنه لم يعد متحمساً لاستمرار العلاقة ، لكن لا يريد أن يكون البادىء بإنهائها.

بـدا الافتراق اولاً من خـلال رفض الحكيم وراتب المشـاركـة في شـركتي السجاد والادوات المنزلية ، فقد اعتبرا ان موران لم تصل بعد الى الدرجة التي تحتاج الى شركات من هذا النوع . أما بعد ذلك ، ونتيجة للآفاق التي فتحها حماد ، بان سلّم تموين القصر الى الغامدي ، ثم تعهدات تأثيث القصور ، وقد فعل ذلك دون التشاور مع الحكيم ، فقد تغير الحال .

أما الهدية التي قدمتها الشركة الشرقية للسجاد ، بان قامت بفرش جامع السلطان خزعل باثمن انواع السجاد ، فقد اعتبرها الحكيم نوعاً من المزاودة اقرب الى الجنون ، ولا يمكن ان يتسامح تجاه خطأ من هذا النوع ، رغم انه لا يخسر قرشاً واحداً . كانت وجهة نظره واضحة . قال لسعيد وهو يعاتبه :

- الواحد ، يا سعيد ، يا أبو شكيب ، يقدم عباية او مسبحة ، واذا تخنها يقدم عباية ومسبحة ، أمـا ان تفتح علينـا هالبـاب ، وتقدم سجـاد بعشرات الالوف ، وكل سجادة احسن من اختها ، وكل سجادة تنطح الثانية ، فبكرة أهل البلد ما بتخلي علينا ستراً مغطى: جاءوا وأكلوا البيضة وقشرتها، ما تركوا لنا اي شيء ، ملكوا كل شيء ، مو بس هيك ، الواحـد منهم ما عـاد يفرش غرفة او بيت صاروا يفرشوا الجوامع !

وسعيد الذي سمع وابتسم ، حاول باساليب شتى ان يوضح للحكيم ان الهدية لبيت الله ، وانه نذر قبل سنين عديدة بأن اول ارباح يجنيها ويحققها ، لا بد ان يقدمها زكاة عن ارواح الموتى والاحياء ، وانه غير نادم ولا يشعر باسف ، كما انه لا يعتبر نفسه مخطئاً . بعد هذا التوضيح اشار الى ان الهدية ليست من ماله فقط ، وانما شاركه ايضاً الغامدي ، وان الرجل وافق بطيبة نفس ولم يعترض ، لكن الحكيم لم يكن مستعداً للمناقشة او للتفاهم ، قال في نهاية ذلك اللقاء :

ـ انت يا سعيد ، بعد هذه الهدية سويتنا اشهر من نار على علم ، وتعال بكرة واخلص من كلام الناس .

وفي محاولة لان يرضي سعيد الحكيم وعد ان لا يتكرر خطأ من هذا النوع ، وطوي الموضوع . ثم اشيع في وقت لاحق ان تأثيث جامع السلطان خزعل كان تبرعاً من اشخاص كثيرين ، من بينهم او على رأسهم ، الحكيم . واشيع ايضاً ان عدداً من المتبرعين ـ ولان التبرع لبيت الله ـ رفض ان يعلن عن نفسه ، « وتكلف بعض الاخوان ان يعلنوا اسماءهم نيابة عن الآخرين ! » .

أما بعد هذا الدرس ، بعد هذه التجربة المرة ، فقرر سعيد ان يطوي اوراقه ولا يفتحها ابداً : « بدنا العنب . . ما بدنا نحارب الناطور ؟» هكذا قال لنفسه ، مقرراً ان يهمل وان ينسى الحكيم ، حتى الوقت المناسب ، « فاذا بشّمت له الخازوق اطلّعه من عيونه » . ولذلك لم يهتم بشركة المواد الغذائية الا بقدر ما تبقى ، صارفاً كل جهوده الى الاعمال الاخرى .

بعد ان وصل راتب الى موران واستقر فيها ، وبعد ان اكتشف آفاق العمل وامكانياته ، بدأت المشاحنات والتحديات : اراد ان يفرض صيغة جديدة : لمن تعطى التسهيلات ، ولمن لا تعطى ، وكيف يجب ان تسّعر المواد ، الى غيرذلك من التفاصيل . وسعيد الذي تصور نفسه بارعاً ، ويمكن ان يتفاهم مع العفاريت ، وجد نفسه انه لا يستطيع ان يتفاهم مع هذا الانسان الذي هبط من المريخ ، فترك الامر لابي الحميدي ، لكن ما انقضت فترة حتى اعلن الآخر عجزه .

في الأيـام الأخيرة من العـام ، قال راتب للحكيم في اجتمـاع ضم جميع الشركاء ، وكانت محاولة تسوية :

ـ انت يا ابو غزوان ابو الجميع ، ولولاك ما كان صار شي . . .

رد الحكيم ، بكثير من التواضع :

ـ استغفر الله ، استغفر الله ، يا راتب .

نظر سعيد الى راتب بطرف عينيه ، تابع راتب :

ـ عفا الله عما مضى ، نحن اولاد اليوم !

والتفت اكثر من مرة ، حتى اذا التقت نظراته بنظرات الحكيم ، وبدا انهما متفقان ، قال :

ـ الشيء الذي يقرره الحكيم نوافق عليه .

وبعد قليل :

ـ وانت ، يا ابو غزوان ، فصّل ونحن نلبس .

قال سعيد :

ـ ابو غزوان على العين والراس ، لكن هذه الشغلة ما هي شغلته !

وضحك بسخرية ثم اضاف :

ـ وقبل كم سنة ، طلع على لساننا شعر ، ونحن نريـده ان يتدخل . كنا نبوس ايده ، لكن يفتح الله . قال ان هذه الشغلة ما هي شغلته .

ـ كان شغلي لفوق راسي ، لفوق شوشتي ، يا ابو شكيب !

هكذا رد الحكـيم بانفعال ، وبعد قليل :

ـ وبعدين . . اولها وآخرها انتم اخوة ، وكل خلاف بين الاخوة سحابـة صيف .

ولم يتمكنوا من الوصول الى نتيجة . قال سعيد في نهاية ذلك اللقاء :

ـ مثلما بدأنا اصحاب نتفاكك ونحـــن اصحـاب ، واكثر من الشغـل في

موران ما في !

ورغم محاولات الحكيم فان الامور انتهت، وقد سببت له هذه النهاية تعاسة كبيرة « عندما وصلت اللقمة للتم ، وبعد ما جاء راتب ليحمل عني كتف . . . كل المشاكـــل جاءت دفعة واحدة » وتذكر بحزن وصـول الامير فـنر ايضاً . وكيف انه سيكون ، مضطراً ، الى تأجيل العمل ، مرة اخرى .

قال لراتب ، وكان بين الحقد والحزن :

ـ قل ما يصيبكم الا ما كتب الله لكم .

ونام الحكيم تلك الليلة مهموماً حزيناً . قال لنفسه وهو يحاول ان يغفو « وتنتهي سنة اخرى من هذا العمر ، ولا يعرف الانسان هل تقدم ام تأخر ، واذا تقدم او تأخر نحو ماذا ؟ » وغفا وهو يفكر بهذا السؤال الصعب القاسي والذي يشبه الصخرة على الصدر .

السلطان الذي اطمأن بعد التأكيدات التي قدمها حماد ، والتي قدمت من الاخوة ومن جهات اخرى ، اعتبر « ان المال يفتت الصخر ، وفنر مثل غيره ، بعد مايشوف ويتأكد ، وين ما راح يرجع » ولذلك تراجع الخوف ليصبح مجرد قلق ، وحتى القلق اصبح هاجساً يأتي ويذهب بين فترة واخرى .

أما الذي ركبته الوساوس ، واستبدت به الظنون فهو الحكيم . « لان راتب رجل مكاتب ، .جل شركات اجنبية ما هو رجل سوق » وامكانية البحث الآن عن شركاء ، او احضار شركاء من الخارج عملية صعبة ، او على الأقل اصعب من قبل ، ليس ذلك فقط ان راتب نفسه يبدو هذه الأيام شخصاً مختلفاً « وكأنه ركبه عفريت » : كثير الصمت ، قلقاً ، وبعض الاحيان ظاهر النزق . لفت الأمر نظر الحكيم وحار فيه « يمكن الرجل مقصر وخجلان ان يتكلم او يقول ؟ » واستعاد الحكيم معلوماته الطبية ، خاصة في المجال الجنسي ، فتذكر حالات من هذا النوع . ومدى التعاسة التي تولدها، لكن تذكر أيضاً الحكايات القديمة التي كانت تقال عن راتب ، وكيف بدّد جزءاً من ميراثه على النساء والسفر . وفكر ان يفاتحه في الامر ، او على الأقل ان يضعه في جو يحمله على

ان يبوح ، « لكي اساعده واحل له مشكلته » ، لكنه عاد وتردد « المهم الآن ان تُعالج المصاعب المادية ، لا ان نحل العقد النفسية » هكذا قال الحكيم لنفسه . واضاف وقد تذكر سعيد : « ابن الحرام تركنا في عزّ الشغل » ورنت في اذنه من جديد كلمات محمد عيد التي قالها قبل سنوات ، في بداية الفترة التي وصل خلالها سعيد وحسني الى حران ، قال كأنه يخاطبه :

ـ اينما كنت . . الله ييسر لك يا عيدو (هكذا كان يناديه في لحظات التحبب القصوى) .

وبعد قليل وهو يزفر من اعماقه :

ـ والانسان . . لا يُعرف خيره حتى يجرّب غيره .

وبكثير من الجهد والمشقة عُثر على شريك جديد ، فقد تم الاتفاق مع فليحان الزوبعي ان يتولى ادارة شركة المواد التموينية ، بعد ان انسحب منها سعيد الاسطه وعبد العزيز الغامدي ، وقد وافق الحكيم وراتب ان يتخليا للزوبعي عن خمسين في المائة ، مقابل اسمه ومقابل العمل ، لان من جملة الشروط الجديدة التي اقرّت اخيراً في موران ، ان يكون في اي عمل شريك موراني ، ويجب الا تقل حصته عن النصف .

سأل الحكيم وداد في احدى الليالي ، مستوضحاً عن زوجة راتب :

ـ ما قلت لي يا وداد . . . . كيفَ العلاقة بين راتب وزوجته ؟

ـ راتب وزوجته ؟

سألت بصوت عصبي مرتجف ، وكأنها استفزت او ظنته يقصد شيئاً بعينه !

ـ قصدي . . كيف متفاهمين ؟ حابين بعضهم ؟

ـ فولة ومقسومة .

ـ يعني متفاهمين ؟

ـ كثير . . يا سيدي !

قـالت ذلـك بسخـريـة ، فهم الحكيم عكس مـا ارادت . تـطلع اليهـا بتحديـد ، وهو يهز رأسه ، لان ما قدّره وجد الآن جذره في هذه الكلمات القليلة ، قال بحزن :

ـ العمى ما حلّهم يختلفوا . ما عرفوا بعضهم .

ـ لأ . . . يـا ابو غـزوان ، ما فهمت قصـدي ، قصدي انهم غـارقـين ببعضهم وكأن الله غيرهم ما خلق !

ـ هيك ازن ؟

ـ واكثر من هيك يا سيدي ، شايفها وما هو مصدق ، وهي بتعرف كيف تغنج وتتكّسر وهو كان فيه عقل وضيعه !

وتابعت بعد قليل وهي تضحك بسخرية :

ـ قلنا لحالنا اذا تزوج يركز ، بصير بني ادم ، اتاريه ولد ، كلمـة تاخـذه وكلمة تجيبه . وهي فهمته وبدأت تلعّبـه جديـاني : يوم وحـام ، ويوم وجـع ظهر . ويوم دخليك زهقت خذني لعند اهلي . وهو ما له شغلة الا يرضيهـا ويـدلعها : اسـاور وحلق ، مباريم واطـواق ، ويـا حبيبتي ويـا عيني ، وهي تزيد !

هز الحكيم رأسه دهشة واستغرب انه لم يلاحظ ذلك ، ولم يقدره ، مع انه دقيق الملاحظة تماماً وكثيراً ما « يلقطها على الطاير » كما يصف نفسه باستمرار . اضاف بنوع من الحزن « الانشغال بالنظرية ينسي الانسان صلاته » . لمـا رأته وداد بعيداً اعادته من جديد :

ـ ما قلت لي شو قصدك من السؤال ؟

ـ الحقيقـة، يا وداد ، ان الـرّجـال اختلف عليّ ، وصـار التفـاهم معـه صعب !

ـ الحق عليك ، يا ابو غزوان ، انت اعطيته عين، طمّعته ، فكر وتصور حاله صار بني آدم ومهم ، وكأنه نسي .

وبعد قليل وبحقد :

ـ لازم له فركة اذن ، حتى يعرف شو بيسوى ، ومن هو !

ـ طولي بالك يا وداد ، الامور ما وصلت لهذه الدرجة .

وصلت واكثر . واذا ما لاحظت انا شايفه كل شيء !

ـ روقي . . يا بنت الحلال .

ـ من يوم وصوله . او بعد ما وصل باسبوع ، اسبوعين ، صار يسّمع ، صار يحكي كلمات بمعنى . وانت ، يا ابو غزوان قلبك طيب ، لا تسمع . انا سمعت كل شيء وفاهمة عليه تماماً .

تطلع اليها باستغراب اكثر من قبل . تابعت :

ـ كان يخاف منك خوفة حية ، ما كان يتجرأ يقول كلمة ، الآن صار يمزح ، يتطاول ، فاذا تركته بدون فركة اذن يمكن بكرة يتمادى ويزيدها . . يمكن يحكي عليك او عليّ !

ـ فشر ، اقص لسانه .

هكذا رد الحكيم بغضب ، وكأنه احس بالاهانة او تخوف من احتمالات المستقبل ، واضاف بعدقليل بحزن :

ـ غريب . . يا وداد ، كل واحد احسنا اليه ، ساعدناه ، قابلنا بالاساءة . الناس صارت بدون اخلاق ، ما عندها دين او قيم ، لكن بسيطة . . بنشوف !

ـ لازم الواحد يكون قدّ حاله يا ابو غزوان !

ـ ومع ذلك . يا وداد ، الدنيا اخذ وعطا . والانسان لا يمكن ان ينعزل ، ان يعيش وحده ، لازم يتحمل جزء من خرينات البشر .

كان الحكيم بحاجة ماسة لراتب ، خاصة في هذه الفترة ، ولذلك لا يمكن ان يسرف في اساءة الظن به ، او اظهار عواطفه نحوه ، لكن صمم ايضاً ان يتعامل معه بحزم وانتباه ، لئلا يتمادى أو يفعل كما فعل الآخرون .

الصدمة الثانية التي لم تتأخر كثيراً : الاتفاق الذي تم بين شركة الغزال من

ناحية وبين رضائي ومعه بعض الامراء وسعيد والغامدي من الناحية الثانية ، من اجل بناء ثلاثة مطارات في سلطنة موران ، واحد في موران العاصمة ، والثاني في حران ، والثالث في الحدود الشمالية ، قريباً من مدينة البقعة ، اضافة الى بناء شبكة من الطرق الدولية تربط عدداً من مدن السلطنة بالدول المجاورة .

لا يعرف الحكيم كيف يمكن لاتفاق مثل هذا ان يتم بمعزل عنه اولاً ، ودون معرفته ثانياً . اذ بالاضافة الى الارقام الخيالية التي لم يستطع ان يتصورها تصوراً دقيقاً واضحاً ، سواء من حيث نفقات هذه الانشاءات او من حيث الارباح التي سيجنيها كل فرد له علاقة ، فان الاهانة الحقيقية التي احس بها ان يتم كل هذا دون ان يعرف ، دون ان يُسأل . اين هو ؟ ماذا اصبح ؟ والاصدقاء الذين لهم معرفة او صلة كيف يمكن ان يتكتموا عليه ولماذا ؟

سأل راتب ما اذا عرف او سمع عن هذه الامور ، ولماذا لم يقل له ، رد راتب ببعض النزق :

ـ الله يخليك يا حكيم . . اذا دبرنا شركة المواد الغذائية فنحن بالف خير !

واذ لم يعجبه هذا الجواب ، وابدى استغرابه ، فقد تابع راتب بسخرية مبطنة :

ـ الزوبعي صار مثل الزئبق، يا ابو غزوان، محتال ونصاب وما تعرف كذبه من صدقه ، وانا امبارح وصلت موران ، منين بدك أعرف؟

أما عندما سأل حماد ، وكيف لم ينبهه للموضوع ، فقد رد عليه بكثير من البرود :

ـ انت تعرف يا حكيم : الجهاز براسه الف شغلة ، وكل واحدة اخطر واهم من الثانية ، فما عنده الوقت ليعرف من باع ومن شرى !

وابتسم حماد بأدب ثم اضاف :

ـ وانت ، يا طويل العمر ، قلت لنا اهتموا بالقضايا السياسية ، بقضايا الامن ، وما عليكم بغيرها !

هز الحكيم رأسه موافقاً ، لكن بدا بوضوح انه لا يعني هذه الموافقة ، قال حماد :

ـ ولو سألتنا يا حكيم كان علّمناك بكل شيء..

واضطر الحكيم ان يوافق على هذه التفسيرات او التبريرات ، وان يطوي الموضوع مع هؤلاء .

أما حين التقى بالسلطان ، فقد تعمد ان يذكره امامه ، قال لـه ببعض المرارة :

ـ اخشى ، يا صاحب الجلالة ، ان لجنة الاستشارة الاقتصادية في القصر، وبعد ما منّ الله سبحانه وتعالى بالمال ، لا تقدّر اهمية المال ، ولا تعرف كيف يجب ان ينفق ، لان كثيراً من المشاريع التي تمت الموافقة عليها اخيراً بدأ الناس يتكلمون حولها : من تعهدها ؟ بكم ؟ وهل هي ضرورية ام لا !

قال السلطان وهو يبتسم ابتسامته الحصانية الكبيرة :

ـ يـا ابو غـزوان . . اذا النـاس اشتغلت ، ولعبت بـالفلوس تنسى كـل شيء ، وهذا اللي حنا نريده . خل الناس تركض وتتعب ، حتى اذا جاء الليل مثل الحجارة انسدحت وغفت !

رد الحكيم بغيظ ، وكان يعني ما يقوله :

ـ يا طويل العمر . الرجال ما هي بس بالفلوس تنسدح .بالفلوس وبالنهود .

ضحك السلطان بقهقهة عالية وبدأ يتلمّظ ، وبعد ان تطلع الى الحكيم تابع وهو يهز رأسه :

ـ الحق ما تقوله يا ابو غزوان !.

ـ والفلوس لمن يستاهلها ، لمن يستحقها الف هناء ، لكن بعض الاحيان تروح بغير دربها وتضرّ ، او كما قال الشاعر :

وأحفظ درهمي عن كل شخص لئيم الطبع لا يصفو لانسي

وبعد قليل وبحزن:

ـ لان الفلوس . يا صاحب الجلالة ، تصبح رماحاً وسيوفاً بيد اللئام ، او كما قال الشاعر :

لا تركبوه على النهود فانه ليرى ظهور الخيل اوطأ مركبا
أو تفطموه عن الرضاع فانه ليرى دم الاعداء احلى مشربا

ـ والله صحيح اللي تقوله يا ابو غزوان .

وفهم الحكيم شيئاً ، وفهم السلطان شيئاً آخر ، لكن الموضوع الاساسي طوي، مع تصميم لا ينفك يتزايد لدى الحكيم ان لا يترك قضية تفوته او ان يسهو عنها . لما وصل الى هذه القناعة اعتبر ان ارجاءه لكتابة النظرية ليس خطأ، فالنظرية يمكن ان تحتمل، ويمكن ان تؤجل، خاصة وانها لا تعني هذه الفترة وحدها ، ولا تعني هذا الجيل وحده ، وانما هي تمتد وتستمر عبر الاجيال . ومما زاد في قناعته وتأكده ان اموراً بهذا الحجم سها عنها او فاتته خلال فترة التفكير والتحضير فقط ، أما لو تابع فان اموراً اكثر خطورة واهمية يمكن ان تفوته . هكذا قال لنفسه من اجل ان « يوافق » بصعوبة على ارجاء الإقلاع .

لو ان الامور لم تتعد ذلك لعرف الحكيم كيف يواجهها اولاً ثم كيف يعالجها ، لكن ما كان يقلق الحكيم هو عدم مجيء غزوان خلال الخريف الفائت ، ثم الرسائل العديدة التي بعث بها ، وكلها تشير ، بشكل او بآخر ، الى احتمال تأخير مجيئه ، وربما عدم مجيئه خلال هذا الربيع أيضاً. كان يريد «واحداً من الصلب، من اللحم والدم، قريباً ليكون عوناً، بعد أن تخلى عنه الآخرون» ولذلك بعث برسائل عديدة إلى غزوان يطلب إليه فيها أن يأتي.

لما مرت الاسابيع الاولى من الربيع وغزوان لم يأت ولم يكتب ، فقد اصبح قلق الحكيم خوفاً « بعد ان انهى دراسته في الصيف الفائت . لم تبق له حجة . يجب ان يأتي ، أما فكرة الدراسة العليا فانها دلع لا يمكن ان اوافق على بقائه ، أما اذا اراد البقاء لان امرأة امسكت به فهذه هي المصيبة الكبرى . معنى ذلك ان يرى الانسان نهايته بام عينه : كيف يذوب ويتلاشى مثل الشمعة ، دون ان يخلّف اثراً او احداً » .

هكذا تضاعفت وتجسمت مخاوف الحكيم ، وكانت هذه المخاوف تعـاوده في ساعات واوقات كثيرة ، حين يكون مع الآخرين ، وحين يكون وحيـداً . وعاودته ايضاً في الاحلام وقد فزع منها كثيراً . ولولا المعلومات الـواسعة التي يملكها في تفسير الأحـلام لوقع فريسة للاوهام اوربما المرض .

الآن ، في نهاية الربيع ، وقد عاد غزوان ، بعد ان طال انتظاره ، فقد بدا بنـظر ابيه ، وبنـظر الكثيرين الـذين رأوه وعرفـوه من قبل رجـلاً بكـل معنى الكلمة : سمن كثيراً قياساً للسابق وبدت له صلعة خفيفة في مقدمة الرأس ، اضافة الى مظهر الرجال وطريقة تصرفهم . تذكر الحكيم شبابه ، لكنه لم يكن اصلع هكذا . قال لنفسه بنوع من الفخر « الملعون على اخواله ، خاصة من ناحية الصلع » . أما معرفة غزوان باناس كثيـرين فقد فـاجأت ابـاه . يعرف عـدداً من الامراء ، وعلاقته بهم علاقة حميمة ، ويعرف ايضاً عدداً من كبار الضباط ، والحكيم الذي دهش وابدى استغرابه اول الامر ، ما لبث ان اصبح فخوراً « الولـد سر ابيه ، والـدروس التي تعلّمها منـذ الصغر تـظهر نتـائجها الآن » .

كان وصول غزوان مناسبـة لان يجدد الحكيم حيـويته ويستـرد اعتباره ، فالعزلة التي عاشها خلال الشهور الأخيرة ، ثم الصدمات التي تلقاها واحـدة بعد اخرى ، والتي تجاوز كلام النـاس عنها الهمس الى الحـديث الصريـح ثم السخرية ، جعلته يشعر بالاهانة والانكسار ، اكثر من ذلك جعلته يفقد ثقته بنفسه وبالآخرين . أما بعد ان وصل غزوان ، وتلك الحفاوة التي اظهرها نحوه اصدقاؤه ومعارفه ، فقدبدأ الحكيم اكثر مرحـاً وتفاؤلاً بـالمستقبل . حتى آلام الظهر التي لازمته خلال الشتاء ، والتي اضطرته الى الاستمرار بارتداءالعبـاءة السوداء ، رغم قراره بتأجيل التدوين ، بدأت تتراجع ثم زالت تماماً .

اخـذ الحكيم يعيد تـرتيب اوراقه ، كـما يقولـون . قال لنفسـه بـأسى : « الانسان يتعلم من كيسه ، لا بد ان يجري ويجرب حتى يصـل الى نتيجة ، الى حـالة التـوازن الكلّية . أمـا الاشخـاص الـذين يسمـون انفسهم اقـربـاء او اصدقاء ، او هكذا يدّعون ، فغالباً ما يكون الـطمع هـو دافعهم . الآن لا يمكن الاعتماد الا على الدم ، على الاقرباء الحقيقين ، الاقرباء الذين هم من

دم الانسان ولحمه ، على الاولاد بالذات » وتذكر ايضاً ولديه اللذين يدرسان في مدرسة داخلية ببرمانا ، وكيف يحس نحوهما بالرابطة الحقيقية ، بالمحبة التي تفيض من قلبه ، وتجعله بعض الاحيان حزينا. كان يفكر متى ينضم اليه اولاده جميعاً ، كيف يكونون حوله مثلما يكون الاشبال حول ابيهم الاسد . عند ذاك سوف يتكلم معهم كما يتكلم مع نفسه . حتى ادق افكاره واكثرها خفاء يمكن ان يطلعهم عليها ، عكس ما يفعل الآن ، اذ لا يستطيع ان يظهر عواطفه وقناعاته لاقرب الناس اليه . « ليس من السهل الثقة بالناس او حتى معرفتهم ، والانسان لا يمكن ان يُكتشف ويُعرف الا في حالات قليلة : عند الخوف ، او عند اقتسام الاموال والنساء ! » ومرت في ذهنه صور الذين عرفهم او ساعدهم ، لكن اقوى صورة ، والتي طغت على كل ما عداها كانت صورة سعيد . « ابن الكلب لما وصل الى حران كان مثل الشحاذ ، اطعمته ، سقيته ، وخذ يا ابني ، بس اشتغل . لما صار براسه خير دار ظهره ومشى . ولا حتى كلمة يكثر خيرك يا ابو غزوان . . وراح يشتغل مع من ؟ مع الناس اللي رايدين رأسي ، اللي رايدين يشوفوا جنازتي اليوم قبل بكره . طلع لئيم وخسيس ولا كأني احسنت اليه ، لكن هذه هي حال الدنيا : الشاطر وذراعه ، لا اخلاق ولا شرف » ولما تراءت له صورة غزوان ، وقد اصبح رجلاً وواثقاً قال يعزّي نفسه : « كفانا تجارب ، نحن اولاد اليوم » .

تحدث الحكيم كثيراً مع زوجته ، قال لها « ان المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين » ولا بد ان يبدأ من جديد اعتماداً على غزوان . وتحدث معها ايضاً حول افكار كثيرة ، لكن دائماً كان مشوشاً ، وغالباً ما انقطع الحديث فجأة . فبعض الاحيان لا يعرف ماذا يقول ، او كيف يعبر عن الافكار التي تملأ رأسه . وفي احيان اخرى يرى وداد شاردة ، وربما تفكر في امور اخرى . قال لنفسه ذات مرة ، وكان يحدثها ووجدها بعيدة « لا بد انها تفكر بزوجةلغزوان . تستعرض الوجوه والقرابات ، وتفاضل بينها ، وغزوان اذا تزوج واستقر تأخذ الامور شكلاً آخر ! » وفجأة تراءى له ان غزوان تزوج وجاءه اولاد : وانه يجد ، بالاضافة الى مشاغله الكثيرة ، الوقت الكافي لكي يداعب الصغار ، لكي يقضي معهم وقتاً ممتعاً . قال في نفسه « اول شيء

يجب ان يعرفوه ، واول كلمات يجب ان يحفظوها : العائلة . . واسم العائلة » وبدا له اسم المحملجي جميلاً وقوياً، لكنه اعترف انه صعب ايضاً. كاد يبوح ويثرثر بهذه الافكار لوداد ، لكن وجد ان الوقت ما زال مبكراً !

ثلاثة اسابيع من الافكار والاحلام ، وقد تعمد ان لا يبحث مع غزوان اية مشاريع محددة ، وان لا يتحدث عن المستقبل حديثاً دقيقاً او كاملاً ، اذا كان البدو لا يسألون ضيفهم عن حقيقة زيارته لهم خلال الثلاثة ايام الاولى للزيارة ، واذا كانت موران لا تزال تغرق في عقلية البداوة والانحطاط رغم المال ، والمظاهر ، فيجب ان اتفوق عليهم ، نعم ان اتفوق عليهم . وفي كل شيء . . ساتركه هو لكي يفاتحني في الموضوع ، علماً بانه ليس ضيفاً وانما هو من عظام الرقبة ، او هو عماد آل المحملجي . . عمادها للمستقبل » وضحك بزهو .

في نهاية الاسبوع الثالث لم يقل له غزوان . قالت له وداد . وبدت غير منفعلة :

ـ يا ابو غزوان . . عند غزوان موضوع خجلان يحكي فيه معك . .

ومثل طفل صغير سأل بانفعال :

ـ خير يا وداد . . بشّري ، احكي . .

وتراءى له ان الكلمة الوحيدة التي ستنطق بها هي : الزواج . شعر بالفرح وبما يشبه الارتخاء النشوان . كان يتطلع اليها بلهفة . وعيناه وحدهما تلحّان عليها ان تتكلم .

سألت بانكسار قريب من الخوف :

ـ وما في زعل ؟

ـ زعل ؟ اعوذ بالله ، الواحد يزعل من ابنه ؟

قالت وعيناها إلى الأرض:

ـ غزوان ناوي يسافر ، يرجع لاميركا .

ـ يسافر ؟ يرجع لاميركا ؟

هكذا تساءل بإعياء كأنه لا يصدق اذنيه ، فلما استوعب معنى الكلمات التي قالتها زوجته تهالك على كرسي قريب . اسودت الدنيا في عينيه ودارت ، شعر انه منبوذ ، منبوذ ووحيد ، وان الجميع يتخلون عنه . لم يبق احد الى جانبه ، حتى وداد تبدو له الآن بعيدة بعيدة ، والا كيف نقلت اليه الكلمات بهذا الحياد الباردوكأنها لا تعني لها شيئاً خطيراً ، شيئاً اقرب ما يكون الى القتل ؟ كان بامكانها ان تنقلها بشكل آخر ، ان تمهد لها ، وقبل ذلك ان تحاول منع غزوان من السفر. لو كانت اماً بالمعنى الحقيقي لفعلت ذلك ، ولامكنها الوصول الى نتائج حقيقية . معه ، هو الانسان المجرب ، والذي بلغ هذا العمر ، لا تهدأ ولا تتوقف عن المحاولة اذا اردت شيئاً . كانت دائماً تصل ، فكيف مع هذا الشاب الصغير ؟

ظل هكذا وقتاً . غاب عن كل ما حوله ، او لم يعد يحس بكل ما حوله . حتى وداد التي ظلت الى جانبه بعض الوقت ، استغربت رد فعله ، ثم ملّت فانسحبت ، ولم ينتبه لانسحابها او حين جاءت الى الغرفة مرة او مرتين !

ولا يعرف كيف خرج ، وكيف ركب السيارة ؛ وحين سأله رضوان الى اين يتوجه اشار بيده اليسار ان يتحرك ، ولم يقل كلمة واحدة .

وكلما قطعت السيارة مسافة والتفت رضوان قليلاً الى الوراء متسائلاً ، كان الحكيم يشير اليه بالحركة ذاتها ان يستمر . اجتاز موران من اقصاها الى اقصاها بدت له مدينة منفرة قاسية . نفس الشعور الذي لازمه منذ اللحظة الاولى لوصوله اليها ، صحيح انها تغيرت كثيراً خلال هذه السنوات ، إمتلأت بالفيلات والبيوت المبنية على الطراز الياباني والطراز الانكليزي ، وبيوت اخرى كثيرة اخذت من كل طراز طرفاً ، وظلت في امكنة عديدة منها ، خلف الشوارع الواسعة وخلف الابنية الجديدة العالية ، تلك البيوت الطينية الواطئة . كما شقتها الشوارع العريضة والشوارع الدوارة ، رغم ان كل هذا حدث في بضع سنين ، وتغيرت احوال الناس وحتى اشكالهم ، اذ اصبحوا اكثر سمنة ، ولا يبالغ الحكيم اذا شبههم بالبراميل ، كما كان يسمي نائب امير حران ، ومع ذلك لم يحب هذه المدينة ولم يألفها .

الآن وهو يذرع المدينة ، لا يرى في وهج الشمس الا كتلاً سوداء صماء عاتية ، وهـذه الكتل تناصبه العداء ايضاً . تمنّى لو انه لم يأت ، وتمنى لو انه لم يعرف هذه المدينة .

قال لرضوان ، ولا يعرف لماذا :

ـ خذني الى ولي من اولياء الله . . يا ابني !

التفت اليه رضوان بـرأسه وبجـزء من جذعـه ليتأكـد من الكلمات التي سمعهـا . قال له من جديد :

ـ ولي . . ولي يا ابني . .

وحين ظل وجه رضوان جامداً مستغرباً ، زفر الحكيم وسأل :

ـ ما عندكم في موران اولياء ؟ رجال صالحين ؟

ـ كل الناس خير وبركة يا حكيم .

ـ يا ابني ناس ماتوا وما بقي منهم الا قبورهم وبركاتهم .

ـ مثل هذون بموران ما تلقى . . يا حكيم .

وتأكد رضوان ان الحكيم بوضع غير طبيعي ، انه يهذي ، او انه لا يفهم ما يقوله . ظل ينظر اليه في المرآة ، يراقبه ، رآه يتغير، يغمض عينيه، يفتحهما على اتساعهما ، يهز رأسه بلوعة . خاف من هذه الحركات ، لكنه ظل صامتاً . في لحظة مفاجئة قال له الحكيم بنزق :

ـ خذني يا ابني الى مقابر موران .

انزلقت السيارة برخاوة كالحية ، وكأنها كانت وحدها تسير ، لان الذهول امتد الى رضوان ايضاً ، فاذا كان قد استغرب منذ البداية طلب الحكيم في ان يسير هكذا دون وجهة محددة ، فقد عزا الامر الى رغبة في الترويح عن النفس او الاستمتاع بالشمس في هذا اليوم الربيعي ، أما بعد ان طلب منه ان يأخذه الى الاولياء والصالحين ، والموتى بشكل خـاص ، مع انه يعـرف ان موران تنسى موتاها بسرعة ، لا تنساهم فقط ، بـل وتدرس آثـارهم بمجرد ان تهيـل

فوقهم التراب، فيصبحوا جزءاً من التراب الذي حولهم، وأخيراً يطلب منه أن يأخذه الى المقابر، فلا بد ان يكون في الامر شيء يفوق قدرته على الفهم أو الاستيعاب، ومع ذلك لا يجد مفراً من الاستجابة، لكن صمم ايضاً ان يكون حذراً، واذا تطلب الأمر قاسياً.

القى الحكيم نظرة واسعة على الارض الفسيحة، ولم يجد الا احجاراً قليلة متناثرة هنا وهناك، احجاراً بحجم الجماجم، تزيد قليلاً او تنقص قليلاً، ولم ير القبور. التفت الى الوراء، رأى على بعد خطوتين منه رضوان صامتاً، لكن وجهه مليء بالقسوة. سأله برخاوة:

ـ هذه هي قبور موران ؟

هز رضوان رأسه ولم يتكلم. قرأ الحكيم الفاتحة ومسح وجهه. ثم استدار وركب السيارة من جديد وقال:

ـ الى البيت.

قال الحكيم لنفسه والسيارة تقطع موران مرة اخرى من الشرق الى الغرب «لا قيمة لشيء ابداً، لا للأحياء ولا للموتى، في هذه المدينة، فاذا كانت قبورهم هكذا، فان موتهم اشد تعاسة من حياتهم».

* * *

في الليل المتأخر، لاول مرة ترى وداد زوجها يبكي، بكى بصمت ثم نشج، وحاول ان يكتم صوته لكنه لم يستطع. وحين استوضحت بطريقة حزينة اقرب الى الشفقة رد دون ان ينظر اليها:

ـ كان املنا بغزوان، قلنا انفرجت، لكن يبدو انه لا يطيق موران... ولا يطيقنا !

وحاولت ان تشرح وتوضح، لكنه لم يسمع ولم يناقش، بدا له اكثر من قبل انها لم تحاول ثنيه عن فكرة السفر، وربما كانت راغبة بهذا السفر، وتأكد انه لن يستطيع شيئاً.

أما بعد ذلك، وحين تكلم غزوان، فقد شرح لابيه انه التزم مع شركة

في سان فرانسيسكو ، وسيبدأ العمل معها في ١٥ تموز ، ولا يستطيع ان يتأخر يوماً واحداً عن هذا التاريخ ، لانه وقع عقداً ، وقال ايضاً ان للشركة اعمالاً هـامةً في الشـرق الاوسط ، بما في ذلـك سلطنة مـوران ، وقد نصحـه بعض اصدقائه من العسكريين والامراء ان يبقى على صلة بهذه الشركة ، خاصة وانه سيكـون في قسم المبيعات ، وسـوف يكون العـربي الأول الـذي يستخـدم في الشركة، وفيْ هذا القسم. أما فكرة الزواج فإنها غير واردة الآن، وحالما يأتي الوقت المناسب . . فلن يخطو اية خطوة قبل ان يستشيره !

راتب وسمير كانا مع غزوان ، وساهما ، ليس في اقناع الحكيم ، وانما في التخفيف عنه ، ذكرا ان العمل ومستقبل العمل يتطلب وجود شخص ، مثل غزوان ، على صلة بالشركات الاجنبية ، وان كل عاقل يخطط للمستقبل يجب ان يفكـر هذا التفكـير ، « لان مـوران ـ كـما قـال سمـيرـ وصلت من حيث العمالة، الى السقف ، ولان اي توسع واية آفاق محتملـة تتطلب علاقات مع المنابع ، والمنابع في الخارج ، مع الشركات الاجنبية » والحكيم الذي سمع ولم يسمع ، لم يكن يملك الاعتراض ، لان الامور ، كما بدت له ، اخذت مساراً لن يستطيع تغييره .

الشيء الوحيد الذي استطاع الحكيم ان ينتـزعه من ابنـه كوعـد : ان لا ينقطع ابداً عن الكتابة ، وان يزورهم في موران ، مرتين في السنة ، وان يبقى مع العائلة فترة لا تقل عن الشهر في كل مـرة . وسافـر غزوان وبـدأ الحكيم ينتظر ، ثم غرق في جو موران والعمل من جديد .

الانسان الوحيد الذي بكى بحرقة يوم سفر غزوان : اخته سلمى . بكت كما لم تفعل من قبل . تعلقت برقبته ، امام الجميع ، وطلبت منه ان لا يسافر ، ولما ابتسم ولم يجب ، سقطت دموعها ، ثم بكت بحرقة ، واخيراً اخذت تنشج وتضرب بقدميها الارض . صحيح ان امه بكت ، او بالاحرى سقطت دموعها ، لكن مع ذلك لم تكن حزينة . ابوه بدا متماسكاً واقرب الى عدم الاهتمام ، وقد حاول ان يضحك ، لكن فكيه لم يساعداه .

الصغيرة التي لا يمكن تقدير عمرها بدقة ، لكنه بكل تأكيد لا يزيد على اربع عشرة سنة جعلت الجميع في حالة من الحزن اقرب الى اللوعة . قال الحكيم لنفسه « لو ان وداد فعلت بعض ما فعلته هذه الطفلة الصغيرة لما سافر » وقالت وداد « صغيرة ووحيدة ولا تعرف ماذا يفرحها وماذا يبكيها . . لكن بكرة تنسى » أما نادية التي احتضنت سلمى ومسّدت على شعرها فقد اعتبرت ان سفر اخوتها الواحد بعد الآخر هو السبب ، أما بعد ان جاء غزوان فانها تريد ان تتمسك باحد . وهكذا فكر راتب وحماد . . وسمير ايضاً . لكن سمير رأى الى جانب الدموع شيئاً لا يعرف ما هو . صحيح انه رأى الصغيرة مرات كثيرة من قبل ، لكن لا يعرف لماذا لفت نظره نهداها . كانت في السابق اصغر من ان ينظر اليها ، وكان لا يرى فيها الا مجرد طفلة صغيرة ، يمكن ان تستحق منه ابتسامة او كلمة على ابعد تقدير . أما الآن وهو يراها هكذا فقد استغرب بكاءها اولاً ، ثم استغرب اكثر من ذلك تلك الدقات العصبية القاسية المؤثرة وكأنها دقات طبل .

والاشياء مهما بدت صعبة او قاسية في هذه الحياة فلا بد ان تنتهي ايضاً ، وهكذا انتهت هذه اللحظات ، اذ حين بدأ غزوان اميل الى العصبية وكاد يفقد سيطرته وتتساقط دموعه ، فقد سحبت امه سلمى من يدها . قالت لها ان سفرته قصيرة وسيعود ، وقالت انها ستأخذها معها بعد شهرين في زيارة لغزوان . أما الحكيم الذي ظل متماسكاً ومَزَح اكثر من مرة ليخلق جواً يمكنه ، قبل ان يمكّن احداً غيره ، من تحمل هذه اللحظات ، فلم يحتمل ، اذ غرق في صمته وظل يرقب المشهد بانفعال اقرب الى الانبهار والحزن ، لكن في لحظة انتهى كل شيء . قبّل غزوان الرجال جميعاً وسلم على النساء ، وعندما جاء دور سلمى ، قال لها بطريقة استعراضية :

ـ اذا لم تضحكي ما راح اودعك .

ولم تضحك ، لكنه قبلها اكثر من مرة ، غمر وجهه في شعرها وقرص خدها ، ثم لوح بيده وهو يتقدم نحو الطائرة ، بعد ان فُتحت له خصيصاً قاعة الشرف ، وخلال لحظات انتهى المشهد كله .

احتاج الحكيم الى بضعة اسابيع لكي يعود الى حالة من الصفاء ، وكاد يفكر او يشرع بمعاودة العمل في النظرية من جديد ، اذ راجع « مسوّداته » اكثر من مرة ، ووضع خطوطاً حمراء وخضراء تحت عبارات بذاتها ، وقد بدا سعيداً وهو يقرأها لنفسه بصوت عالٍ ، لكن هجوم الصيف مبكراً تلك السنة افسد مزاجه ، بل وجعله عصبياً ، خاصة وان وداد اقترحت منتصف حزيران تاريخاً لبداية الاجازة ، واقترحت ان تقضي العائلة الصيف كله او الجزء الاكبر منه في الاسكندرية ، « لاننا زهقنا من بيروت والجبل ، ولازم الاولاد يغيروا جو » اما الحكيم فكان يطمح ان يقضي الصيف في الفيلا التي اشتراها قبل ثلاث سنين في ضهور الشوير ، « لان الهواء البارد يفتح خلايا الذهن . . ولان الفيلا اذا لم تُسكن سنتين متواليتين فلا بد ان يفكر اهل الضيعة ان اصحابها ماتوا او تخلوا عنها . . . واولاد الحرام كتار » واذ لم تقتنع وداد فقد فكر الحكيم ان يقضي جزءاً من الصيف في الاسكندرية ، والجزء الآخر في ضهور الشوير ، « لكن المشكلة اني والسباحة عداوة ، ما لنا صحبة مثل الشحم والنار ، والشمس طالعة من نافوخنا » .

كان تدخل سمير ذا نتائج حاسمة ، فقد استطاع بكثير من البراعة ان يقنع الحكيم : « لان الاسكندرية ليست فقط البحر ، الاسكندرية مقاهي الشاطىء ، الاستراحات ، الهواء البحري المنعش . . وهناك يمكن ان نتابع البحث ولا بد ان نصل الى نتائج مهمة » .

وسافر سمير مبكراً . وكان يفترض ان تسافر وداد بعده بايام لتصطحب معها الاولاد من لبنان ، على ان يسافر الحكيم وسلمى مباشرة بحيث يلتقي الجميع في الاسكندرية في الخامس من تموز ، وقد وافقت وداد على هذا التاريخ « كرمال عيون الحكيم » ، اضافة الى شراء بعض الحاجات الضرورية من بيروت .

وفي بداية هذا الصيف وافق الامير فنر ان ينتقل الى قصر السعد ، كانت موافقته مفاجئة وغير متوقعة ، وقد سرّ السلطان من هذه الخطوة واعتبرها دليلاً على بعد نظره ، فقد توقع منذ البداية هذه النتيجة « لان الدم ما يصير ماي ، يا ابو غزوان » هكذا قال للحكيم وهو يزف اليه هذه البشرى السارة . ولان السلطان كان في حالة من الانشراح وصلت حد الفرح فقد تخلى ، لاول مرة ، عن بعض العادات التي تعودها ، فبعد ان كان يرفض الدعوات ، ولم يدخل اياً من بيوت الذين يعملون في القصر ، فقد ابدى رغبته في ان يزور الحكيم في قصره .

هذه الرغبة التي سرت الحكيم الى اقصى حد افزعته ايضاً ، اذ لم يبق على سفر وداد سوى ايام قلائل ، ودعوة مثل هذه تتطلب استعداداً قد يتجاوز الاسابيع ، لكن حالة الانفعال التي سيطرت على قصر الخير ، والتي انتقلت كالكهرباء من الحكيم الى وداد ذاتها جعلت الأمر سهلاً وصعباً في آن واحد . اعتبر الحكيم ان زيارة السلطان له في بيته ليس رداً للاعتبار فقط وانما تعزيز للنفوذ وتأكيد له . وان هذه الزيارة يمكن ان تفتح له آفاقاً جديدة . خاصة وقد بدأ يتذكر بعض ما قاله غزوان عن امكانية قيام علاقات خاصة بين سلطنة موران والشركة التي يعمل لديها من اجل اعادة تسليح الجيش ، ولاقامة شبكة من المنشآت العسكرية . تذكر الحكيم ذلك وود في اعماقه لو ان غزوان اخر سفره شهراً او اثنين . اذن لاستطاع بنفسه ان يشرح للسلطان وان ينال موافقته

مباشرة . ومع ذلك ، قرر الحكيم ان يمهد للأمر ، على ان يأتي غزوان في فترة مبكرة لمتابعته ، ونتيجة لذلك راودت الحكيم فكرة اعادة النظر بالاجازة من حيث موعدها او مدتها . أما وداد التي وصل انفعالها درجة الاضطراب ، فكانت لا تعرف اتفرح ام تغضب ام تبدأ الاستعداد دون تأخير . فالسلطان الذي ملأ حياتها خلال السنوات الماضية لفرط ما تحدث عنه الحكيم وغير الحكيم ، والذي كان يبدو خطيراً وكبيراً . . وفتياً ايضاً ، نظراً لكرمه ولكثرة ما تزوج من النساء خلالِ الفترة التي قضتها في موران ، ثم ما ذكره لها الحكيم ، واكثر من مرة ، حول تمعنه بالصور التي التقطت لهم في اميركا ، وكيف انه اكتشف الشبه بينها وبين غزوان . وتلك النشوة التي عاودتها مرة بعد اخرى ان السلطان تطلع الى صورتها بكثير من العناية والانتباه ، كل ذلك ملأها رغبة في ان ترى هذا الرجل ، ان تراه عن قرب لتعرف اي نوع من الرجال هو .

ثلاثة ايام من الاستعداد الكامل ، ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ . لم يستطع خلالها احد من اهل قصر الحير ان يستريح او ان ينام ، الا كما تنام الكراكي ، فالعمال الذين جندوا لطلاء اجزاء من الادراج والشرقتين الامامية والخلفية ، اضافة للمدخل ، أمضوا يومين وليلتين قبل ان يفرغوا . والذين جاءوا لتقليم الحديقة والعناية بدوالي العنب والخضار استمروا في العمل طيلة يومين كاملين ، وثلاثة منهم واصلوا العمل ايضاً حتى في يوم زيارة السلطان . أما الطباخون والخدم والذين ساعدوا في اعادة ترتيب البيت فقد سببوا من الازعاج والارهاق لوداد ما دفعها الى الصراخ عدة مرات ، وقد بكت امام عدد منهم مرتين على الأقل . والحكيم الذي كان يدور كالنحلة ولا يعرف ماذا يفعل او كيف يكون مفيداً ويساعد في هذا العمل الحافل السريع الذي يجري حوله ، فقد تأكد في حالات عديدة ان عدم تدخله يمكن ان يؤدي الى التقليل من وقوع الاخطاء ، او على الاقل يمكن للبشر الذين يعملون ان يقوموا بعملهم دون اضطراب ودون ان يحسوا بالمراقبة .

في الصباح المبكر جداً ليوم الزيارة وصل الاضطراب والفوضى حداً ايقنت معه وداد انها لن تستطيع ان تستقبل السلطان ما دامت الامور بهذا الشكل ،

« ولا بد ان تعتذر منه ، والا سأجنّ او اقتل نفسي » هكذا قالت للحكيم بعد ليلة لم تذق خلالها النوم ، وقد استعانت بثلاث من النساء من اجل ترتيب غرف القصر . والحكيم الذي لم يذق النوم ايضاً ، بعد ان كفّ عن تقديم المساعدة، وانصرف الى اعداد كلمة ترحيب بالسلطان. وقد قضى الليل بطوله يكتب ويمزق . واستعمل اكثر من قلم « لان بعض الاقلام استعصت وحرنت، ولان بعض الدفاتر عاقر فلا تحبل ولا تلد » فقد قرر ان يرتجل الكلمة ارتجالاً . ولكي لا يخطىء او يسهو عن امر من الامور سجل رؤوس اقلام الافكار التي سيتطرق اليها ، واستعاد بعض ابيات من الشعر ، كان على ذلك المستوى من التشوش والانفعال حينما سمع صراخ وداد ثم بكاءها ، واخيراً طلبت منه الغاء الزيارة او ان يفعل اي شيء من اجل انقاذ الموقف ، والا فانها لا محالة ستجن او تقتل نفسها .

وبكثير من المداراة واصطناع الصبر اوضح لها ان السلطان رجل بسيط ، لا يلاحظ ولا يدقق ، ثم انه سيكون وحده ، او مع عدد محدود من الرجال ، واقترح عليها اخيراً ان تنام ساعة او ساعتين، وسيتولى بنفسه الاشراف . وفي محاولة لاقناعها قدّم لها حبة مهدئة وكاساً من الماء ، وفجأة تطلعت اليه بنظرات متفرسة خاف منها وارتجف قلبه ، أما حين ابتسمت وهي تستلم منه حبة الدواء ، فقد قالت وكأنها توشوشه :

ـ بشرط واحد . .

ـ بشرط؟

ـ اذا كان السلطان وحده لازم اسلّم عليه !

ـ لكن يا وداد . .

ـ ما فيها .

ونامت وداد حتى الظهر . نامت نوماً عميقاً متصلاً كما لم تفعل منذ ثلاثة ايام ؛ وخلال نومها حلمت ان السلطان جاء ، وانها تقف بين يديه . كانت خائفة اول الأمر ، اما عندما ضحك كالحصان ، فقد ابتسمت . ولما ضحك اكثر من قبل ضحكت معه ، وحين مد يده الى ذراعها عند الكتف ، وكأنه

يجس اللحم ، فقد شعرت بنشوة ، وبخوف ايضاً . ولما قرصها من خدها صرخت بلذة ولم تتألم ، وفجأة طلب السلطان من الجميع ان يخرجوا فخرجوا ، وبقيت معه . كان قوياً مثل ثور ، وكان بسيطاً مثل طفل . كان يضع نظاراته على عينيه بين لحظة واخرى وينظر الى كل جزء من اجزاء جسمها ، وهي بمقدار ما تفرح تشعر بالخجل ، لكن كانت دائماً تحس بالنشوة. أما حين كان يتقلب فوقها فقد احست بنار متوهجة ، بنار دافئة تملأ خلاياها كلها ، وظلت هكذا وقتاً طويلاً ، كانت تضحك وتحاول الهرب ، لكن النار تطوقها من كل ناحية . لما افاقت وجدت ان الحكيم قد اسدل الستائر المزدوجة ولم تكن تعرف هل هي في الليل ام في النهار . وحين تذكرت قامت فزعة، وتطلعت الى السرير بخوف وكأنها تحاول اكتشاف ما اذا كان فيه احد معها !

والحكيم الذي اضطرب لحالة وداد ، وخاف ان تتفاقم وربما تؤدي الى نتائج لا يريدها ، فقد اضطرب اكثر للشرط الذي وضعته : ان ترى السلطان ! ماذا لو اصرّت ؟ وماذا لو كان مع السلطان آخرون ؟ والسلطان نفسه ماذا سيقول وكيف سيفسر الامر ؟ هذه الحالة شتتت افكاره اكثر من قبل ، وكاد يصرف النظر نهائياً عن فكرة الخطاب ، خاصة وانه حاول تذكر بيتين من الشعر ، لكنه لم يستطع . وقضى صباح ذلك اليوم ، وحتى الظهر ، يتحرك في كل الاماكن دون ان يفعل شيئاً . أما بعد ان استيقظت وداد ، وكانت في حالة من الاشراق ، بعد نوم عدة ساعات ، فقد عاوده التفاؤل ، اكثر من ذلك بدا مستعداً ان يستجيب لطلبها فيما اذا كان السلطان وحده . . او مع رجال قلائل .

وجاء السلطان كالمتسلل ، جاء وحيداً ، ما عدا سبعة من الحرس . حتى السيارة الكاديلاك السوداء التي يسميها « الخف » ، والتي يفضلها على عشرات السيارات غيرها ، لما تتمتع به من مزايا تشعره وكأنه في غرفة نومه ، تخلى عنها هذه المرة. ولم يستعمل الروز رويس الرمادية، « النعامة » اذ كانت مرتفعة قياساً للسيارات الاخرى . ولم يستعمل « الحصان » ايضاً ، جاء بسيارة شفر مثل تلك التي تستعملها عادة نساء القصر . أما سيارتا الحرس فقد وقفت واحدة عند الباب الداخلي للقصر ، امام سيارة السلطان ، والاخرى ادخلت

الكراج الايسر .

خلال الفترة الاولى ظل التهيب، الاقرب الى الارتباك ، مسيطراً ، فقد اجال السلطان نظره في الغرفة اكثر من مرة . وتطلع بالحاح نحو الابواب الداخلية . وحين قال ان القصر جميل ومريح ، رد الحكيم بالقصة المشهورة التي حصلت لهارون الرشيد ، وقد رواها لابنائه اكثر من مرة ، اذ توقع ان يتعرضوا لسؤال من السلطان مثل سؤال الخليفة للصبي الذكي ، وكيف عليهم ان يجيبوا !

لاول مرة يلتقي الرجلان خارج القصور السلطانية او الاستراحات . الآن في قصر الحكيم . اي شرف تفضل السلطان فمنحه إياه، واي شعور بالامتنان يغمره في هذه اللحظات ؟ كان بوده ان يقول ذلك ، ان يعبر عنه . وخطرت له فكرة ان يقف ويلقي الكلمة ، لكن وجد ان الوقت ما زال مبكراً ، وربما كلمة من هذا النوع ، وامام السلطان وحده تعتبر غير لائقة او نوعاً من النفاق ، فصرف النظر عنها . وخطرت له فكرة ان يستعيد بعض النكات ، لكن تعلم منذ وقت مبكر ان النكتة اذا لم تأت في السياق ، وبالمناسبة ، او كما كان يقول لنفسه « حفر وتنزيل » فلا بد ان تعتبر خفة لا تليق به . وفكر ان يسأل السلطان عن اخيه الامير فنر وما اذا جّدت امور حول سلوكه وعلاقتهما ، لكن تردد « قد يعتبر ذلك تدخلاً ، ثم لا يليق سؤال السلطان حول الامور المزعجة » .

هكذا مرت الافكار في عقل الحكيم ، واذ خاف من الصمت ، فقد حاول ان يبتسم اكثر مما ينبغي، وان يفرك يديه اكثر مما يفعل عادة . قال لنفسه : « ما كنت قط عيياً او مرتبكاً كما انا الآن » وأحسّ ان للزمن في مثل هذه اللحظات ، قياساً مختلفاً . وتذكر انه سجل ملاحظات ذكية للغاية حول مفهوم الزمن ، ووضعها تحت عنوان كبير : « مفهوم الزمن عند المحملجي » . وتذكر ايضاً انه احتار بين كلمتي « زمن » و« زمان » . وكان مصمماً ان يبحث الفرق بينهما ، لكن لا يعرف كيف سها عن ذلك .

قال السلطان في محاولة لان يخلق جواً اليفاً :

ـ الكانديشن رحمـة من الله يا ابو غزوان ، خاصـة بالنهـار ، أما بـالليل فهواء ربنا اطيب !

لقطها الحكيم بسرعـة ، وبارتباك ظاهر سأل :

ـ اذا كنتم تفضلون ، يا صاحب الجلالة ، هواءربنا فيمكن ان نجلس في الشرفة .

ـ اخير لنا يا حكيم .

ومثـل الجمل نهض . كـان الحكيم قد كلف ثـلاثة من الخـدم ان يأتـوا باوقات حددها لهم ، وان يدخل كل واحد من باب حدده له ايضاً بدقة ، وفي وقت محدد ، لكي تقدّم لجلالته الاركيلة ، ثم يقدم البخور وماء الزهر ، وحدد اين يوضع الجمر ، ومتى تأتي القهوة وكيف تقدّم . الآن ، بخـروج السلطان الى الشرفة ، يختل البرنامج ، وربما ولّد هذا نوعاً من الاضطراب ، الذي قد يؤدي الى نتائج غير محمودة . قال السلطان يواصل تبسطه :

ـ كأن البنائين توّهم مخلصين القصر . . يا ابو غزوان .

والتفت السلطان في اكثر من ناحية يختبر القصر ويتعرف عليه . رد الحكيم بمرح :

ـ البناء الجيد . . . والسلاح الجيد ، يا صاحب الجلالة ثمنه فيه !

ـ عسى ان يكون منزل مبارك وعامر . . يا ابو غزوان .

ـ اقبل ، يا صاحب الجلالة .

ـ ابد . . حلالكم وانشاء الله دايمين فيه .

ـ بوجودكم يا صاحب الجلالة ، وانشاء الله دائمين فوق رؤوسنا .

في الشرفة ، وقد جلس الحكيم على نفس الكـرسي الذي تعـود الجلوس عليه ، ومع نسمات الليل الرطبة الرخية تفتحت خلاياه وشعر بالثقة . تحدث عن موران حين وصلها ، كيف كانت مدينة بسيطة : « لا ماء ولا كهرباء ؛ أما الشـوارع ، أما الابنيـة ، أما الحيـاة » ، وهـز رأسه وهـو يستعيـد ويتـذكـر ويبتسم . « أمـا الآن ! » . وتحدث عن المـدن الاخرى في السلطنـة والتقـدم

الـذي حصل والـرفاه الـذي يعيش فيه النـاس ، وكيف ان ذلك كله نتيجـة السياسة الرشيدة والحكيمة التي يتبعها جلالته . وان المستقبل سيكون افضـل من الحـاضر ايضاً « فقط يتـطلب الأمر ان يكـون لموران جيش قـوي وسلاح حديث . . وهذا ليس صعباً او بالامر المستحيل » .

السلطان منتعش ، يهز رأسه موافقاً ومؤيداً ، ويضحك بفرح بين لحـظة واخرى ، لكنه كان ايضاً بحـاجة الى احـاديث مرحـة طليّة ، وجـو من نوع آخر ، وعندما اقترح السلطان ان يبقوا على الشرفة وان يتنـاولوا عشـاءهم في نفس المكـان ، لانه لاحظ الـطاولة الكبيـرة التي اعـدهـا الحكيم في الصـالـة الداخلية ، فقد حبكت الامور فجأة . قال الحكيم بلهجة اعتذار :

ـ اذا كنتم تفضلون الشرفة ، يا صاحب الجلالة ، فيمكن ان تخدمنا اذن ام غزوان .

لم يجد السلطان كلمة مناسبة يـرد بها ، ضحـك بصوت عـالٍ ، فكانت ضحكته اقرب الى الصهيل ، وكانت تعبيراً عن الفرح واللذة والموافقة . ولم ينتظر الحكيم ، نهض مثل قط ، وخلال دقيقة او اثنتين بدأ الموكب : الحكيم يتدحرج بثـوبه الابيض ، وحبـات دقيقة من العـرق تتجمع عـلى مهل فـوق جبينـه ؛ ووراءه ، على بعـد خـطوتـين ، وداد ، بفستـانها الاسـود الضيق ، والذي يبرز بياض بشرتها المتألقة ، خاصة الرقبـة وبدايـة الصدر ، وخلفهـا بخطوة واحدة سلمى ، وقد لبست ثوبـاً سماويـاً موشى بـوردات بيض ، أما شعرها الاصفر الكستنائي فقـد عقصته وربـطته بشـريط اسود ، كـانت تبدو صغيرة كأنها طفلة ، وكانت تبدو كبيرة كأنها امـرأة ، خاصـة وان امها رطّبت وجنتيها بحمرة خفيفة لا تكاد تبين ، ولأول مرة وضعت لها كحلاً ابرز العينين الواسعتين الخائفتين .

كان الحكيم يقرأ في وجه السلطان انطباعه ورد فعله ، وكان يرقب بعناية كبيرة كل حركة مهما كانت صغيرة او خفية .

ولاول مرة يبدو السلطان مرتبكاً كطفل ، وهو يسلّم على المرأتين ، وربما ارتجفت عضلات وجهه ، اذ ركزّ نظارتيه اكثر من مرة ، وظل واقفـاً اكثر ممـا

يفعل عادة مع ضيوفه الآخرين . والحكيم الذي احرجه وقوف السلطان أكثر مما ينبغي ، قال بانفعال :

ـ استغفر الله . . استغفر الله ، تفضلوا . . تفضلوا يا صاحب الجلالة .

ولما دارت عينا السلطان بتساؤل ما اذا كان من اللائق ، ان يطلب من المرأتين الجلوس ، فقد تولى الحكيم انقاذ الموقف :

ـ تفضلي يا ام غزوان ، اقعدي معنا شوية ، وبعدين شوفي كيف ترتبي قعدتنا . .

وضحك لكي يكتسب شجاعة اضافية ، ثم تابع :

ـ لان جلالته رغب ان نسهر ونتعشى تحت السماء ، افضل من ان نخنق حالنا في الغرف وتحت المكيفات .

جلست وداد مقابل السلطان ، أما سلمى فقد ظلت واقفة ، وبدا ان الجميع نسوها او انشغلوا عنها ، والحكيم الذي التفت اكثر من مرة ، وفي محاولة لاختبار الجو ، ومدى الصميمية التي تولدت ، اكتشف نسيانه لسلمى ، قال لها باعتذار :

ـ تعالي . . تعالي ، يا حبيبتي . . تعالي الى جانبي !

«ثلاث ساعات وثمانيا وثلاثين دقيقة استغرقت زيارة جلالته» هكذا قال الحكيم بكثير من الغبطة ، وهو يستعيد مع وداد وقائع الزيارة « وكان من الممكن ان يبقى فترة اطول لو الحّينا عليه اكثر» هكذا ردت وداد . وهي تتمطى وتستعيد في ذاكرتها صورة الرجل : كيف ضحك وكيف اكل وكيف نظر اليها بطريقة لذيذة .

أما عندما يستعرض الحكيم وقائع الزيارة ، واقعة بعد واقعة ، دقيقة بعد اخرى ، فيعتبر ان الحظ يمكن ان يلعب دوراً . « لكن الذكاء والالهام يلعبان الدور الاساسي » ففكرة الزيارة ليست لحظة عابرة ، وليست وليدة المصادفة . فقد اشار الحكيم الى انه يتطلع الى شرف مثل هذا ، وعبر عن هذه الرغبة بمناسبات عديدة . والزيارة ، زيارة اي كان ، حتى لو كان السلطان ، لغيره ،

لا يمكن ان تكون بهذه الحيوية والاهمية والانس لولا اللمسات الحضارية التي اضفاها على الزيارة ، منذ اللحظة التي ترجل جلالته من السيارة وحتى لحظة المغادرة . فالجلوس في الشرفة ، مقابل الخضرة وتحت أقفاص الكناري ، واعواد الريحان التي قدمها للسلطان في لحظة مناسبة ، ثم كيف ساق الاحاديث والنكات ، وكيف افاض بتألق لم يصل اليه في يوم من الأيام . أما جلوس وداد وسلمى معهما ، فقد اضفى على الجو عطراً رقيقاً ، وجعل السلطان في حالة من الود لم يره في مثلها من قبل. صحيح ان المرأتين لم تجلسا كل الوقت، فقد تحركتا كثيراً ، وحتى في لحظات غيابهما استطاع الحكيم ان يروي بعض النكات ، ما كان ليرويها لو انهما موجودتان !

يمر هذا الشريط في ذاكرة الحكيم ، أما كيف خطرت لـه تلك الفكرة العبقرية ، وكيف لمعت كما تلمع النيازك ، فانه هو نفسه لا يعرف كيف يفسرها ، ولذلك يعزوها للالهام ؛ فقبل ان يحدّثه عن موضوع التسليح ، « وان الحظ ، والحظ وحده ، مكّن غزوان من التعرف على اهم واكبر شركة في العالم لبيع السلاح ، ويمكن ان نستفيد من معرفته وعلاقاته ، وقد وافق ان يقوم بهذه الخدمة للسلطنة من اجل الحصول على كل ما نريد من السلاح وباية كميات نريد » .

ما كان لهذا الحديث ان يجدي او ان يكون عملياً لو لم تلمع الفكرة الام :

ـ الرجال العظام ، يا صاحب الجلالة ، يجب ان يبقوا في ذاكرة الاجيال ، وان يكون ذكرهم على كل لسان ، وهذه المهمة ليست مهمة للتاريخ القادم ، وانما يجب ان تكون مهمة الحاضر قبل ان تكون واجب المستقبل ، ولذلك ارجو ان تسمح لي ، يا صاحب الجلالة ، وساعدني بان انال موافقتكم على اقتراح محدد : ان نكتب تاريخ جلالتكم ، منذ ايام الطفولة وحتى اللحظة الحالية . . .

السلطان الذي بدا له الامر طريفاً وجذاباً لم يعرف كيف يجيب عن هذا الطلب ، فقد اكتفى بالابتسام فبانت اسنانه الكبيرة . تابع الحكيم :

ـ سوف نسمّي الكتاب يا صاحب الجلالة : « نسر موران » .

وافاض الحكيم طويلاً في شرح اهمية هذا الاقتراح وضرورة تنفيذه ، وانه سيتولى بنفسه الاشراف المباشر على جميع مراحل العمل . واشار الى ان لـديه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة على احسن وجه . والسلطان الذي كان يختبر مدى جـدية الكلمـات ، ومقـدار مـا يعنيـه الحكيم ، سأل في لحظة صمت :

ـ لو كتبتم عن ابوي وعن تاريخ السلطنة ما هو اخير ؟

ـ سوف يتم التطرق الى الموضوعين ، كبداية ، يا صاحب الجلالة . سوف تخصص بعض الفصـول الاولى للمغفور لـه والدكم ، وتـأسيسه للسلطنـة ، وسوف يشار ايضاً الى تاريخ وجغرافية موران .

وابتسم الحكيم وتطلع الى السلطان ثم تطلع الى وداد ، وقال :

ـ وهذا الكتاب، يا صاحب الجلالة، ليس مجرد تاريخ، انه سيرة حياة رجل عظيم ، ويجب ان يتضمن مجموعة من الصـور : صور الـطفولـة وصور الصبا والشباب ، وحتى الـوقت الحاضر ، ويجب ان يـوزع على نـطاق واسع جداً ، على الافراد والمؤسسات ، وان يترجم الى عدة لغات .

وهكذا اقتنع السلطان ، وظل الحكيم محتفظاً بالمفاجأة الأخيرة :

ـ سمـير قيصر ، يا صـاحب الجلالـة ، سيتولى صيـاغة الكتـاب ، فقط نحتاج منكم ، يا صاحب الجلالة ، ان تخصصوا لنا وقتاً كافياً لكي تحدثونا عن طفولتكم وعن ايام الشباب ، أما ما تبقى فسوف نتولى امره انا وسمير ، ولا بد ان يرضيكم ويرضي كل من سيطلع عليه !

لا يعرف الحكيم كيف هبطت عليـه الفكرة ، فجأة وجد نفسه يفكر هكذا ثم يتجرأ ويقترح ، ولعلّه ما كان ليواصل لولا الجو الودي الحميم الذي كان فيه السلطان ، ومما شجعه ايضاً انه حيـن التقت نظراتـه بنظرات وداد وجـد منها تشجيعاً واضحاً ، فقد غمزته مرتين ، وكأنها تطلب منه ان يصرّ وان يتابع . أما في الليل المتأخر ، وقد اقترح الحكيم عليها ان يتابعـا السهر في الشـرفة ، وبعد ان تحدثا كثيراً ، وصمتا كثيراً ، وبدا ان كلا منهما يود ان يتشرب لحظات اللذة حتى الثمالة وبطريقته الخاصة ، فقد قال لها بكثير من الود :

ـ تعرفي . . يا وداد . .

وضحك وهز رأسه بغبطة :

ـ كثير من الامور : توفيق .

لم يرد ان يقول لها ذكاء ، اذ خشي ان تسيء فهمها ، أما كلمة « حظ » فانه لا يحبها ، كان يسميها دائماً : عكاز الكسالى . فلما وافقته تابع :

ـ حتى اختيارك ان نقضي الصيف في الاسكندرية ، وان يكون سمير قريباً منا ، اشياء اساسية من اجل انجاز « نسر موران » .

ضحكت بغنج . وقالت :

ـ لازم تعرف دائماً كيف تصدقني وتاخذ بشوري !

ـ مثلك ما في . . يا اميرة .

قال سمير للحكيم في اليوم الثالث للقائهما :

ـ انا موافق على القيام بهذه المهمة ، لكن الامر يتطلب شرطين : الاول : مجموعة من المراجع عن جلالته . والثاني : ان يخصص لنا جلسات عمل عديدة ، بعد ان نهيّىء مجموعة من الأسئلة .

ـ ولا يهمكك ، اتركها عليّ ، انا مسؤول ، وانا الذي سأؤمن لك كل شيء .

ابتسم سمير بمرح ، وسأله :

ـ وبيدفع كام ؟

ولم يفكر الحكيم بهذا السؤال ، او بالاحرى لم يخطر بباله ، فقد افترض ان كتاباً بمثل هذه الاهمية ، ويمكن انجازه خلال بضعة شهور ، لا يجوز الحديث فيه عن الاتعاب ، وبطريقة لا شعورية ردد وراء سمير وبنفس الطريقة :

ـ وبيدفع كام ؟

ـ انت عارف ، يا بيه ، ان كتاباً عن السلطان ليس مثل اي كتاب آخر ، انه يتطلب جهداً استثنائياً ، ولا يحتمل خطأ من اي نوع ، ولذلك يجب ان يعامل الموضوع كله بصورة استثنائية .

وابتسم ابتسامة واسعة . ونظر بتحديد الى عيني الحكيم ، ثم تابع :

ـ لو كان اي كتاب آخر فالمسألة بسيطة . . .

ولم تطل المناقشة ، قال الحكيم ليحسم الامر :

ـ لا تخف، اذا خرج الكتاب مثلما اتصوره ، وارضى جلالته، فمسألة المكافأة لا تسأل عنها ، راح تنطمر بالفلوس ، مني ومن جلالته . . ومن المصروفات الخاصة ايضاً !

قال سمير لنفسه « صفقة العمر . شهادة تأمين مدى الحياة ، ويمكن ان تفتح آفاقاً غير محدودة لمستقبل لا اتوقعه الآن ، ولذلك يجب ان العب بمهارة » وبدأ يفترض ارقاماً محتملة : عشرة آلاف ، مائة الف ، خمسمائة الف . . مليون . قال مليون وهو يضحك بغبطة : مليون ايه ؟ جنيه ؟ فرنك ؟ دولار ؟ وبدأ يتصور ماذا سيفعل حينما يستلم المبلغ : « اضعه في البنك واعيش على الفائدة.. اوظفه في مشروع ، ويجب ان ادرس الأمر بشكل جيد للغاية ، ويمكن ان يتضاعف المبلغ خلال سنتين او ثلاث سنوات ». وفكر ان ينشىء مؤسسة صحفية جديدة تتفوق على الاهرام واخبار اليوم « كفانا ان نبقى أجراء . . الآن يجب ان يعمل الانسان لحسابه مباشرة » ان يقيم شيئاً باسمه ليبقى العمر كله ، ويبقى ايضاً بعد ان يموت. وتجرأ اكثر وبدأ يتصور المؤسسة الصحفية ، واسماء الصحف والمجلات التي ستصدرها ، واين يجب ان يكون مركزها ومطابعها . . «ولا بد أن نقيم شركة للتوزيع ليصل المطبوع الى اقصى مكان في الكرة الارضية ، لا ان نبقى تحت رحمة شركات التوزيع » .

وفكر ايضاً ان يكون لديه دفتر « خرطوش » مثل ذلك الذي عند الحكيم ، وفي هذا الخرطوش يمكن ان « يدون » كل ما تسمعه اذناه او تقع عليه عيناه . ومن هذه المادة الاولية يصنع اولاً « نسر موران » وقد وافق على هذه التسمية واعتبرها ذكية ، ويحتفظ بالباقي ، بما في ذلك صور نادرة لجلالته ، للوقت المناسب، لا بد ان يستفيد منها باشكال واوقات مختلفة : اذ قد يموت السلطان فجأة ، قد يعزل ، وقد يقتل ايضاً « فما دامت المادة الاولية موجودة يمكن استخراج اشياء كثيرة منها » .

وفي الأيام التالية ، وخلال اسبوعين ، وهي المدة التي استطاع الحكيم ان يبقاها في الاسكندرية ، ولم يستطع ان يبقى فترة اطول ، لانه ، كما قال لوداد

« لست ملكاً لنفسي ، فلا استطيع ان امدد رجليّ واترك السلطان والدولة ؛ ثم اني انتظر غزوان ، ولا بد ان يأتي في فترة قريبة ، ولا يمكن ان اتركه وحده».
خلال هذه الفترة خاض مع سمير في مناقشات عميقة ؛ كيف يكون الكتاب : عدد الفصول ، عنوان كل فصل ، واين يجب ان توضع الصور في مقدمة الكتاب ام في نهايته . ولم ينس ان يتطرق الى عدد النسخ التي يجب ان تطبع ، الى غير ذلك من الامور الفنية . وعندما وصل الى المقدمة التي سيضعها للكتاب تردد واحتار ، هل من الملائم ان يضع اسمه على الغلاف باعتباره كاتب المقدمة ام لا ؛ والمقدمة ذاتها هل هي مجرد كلمة عادية مثل الكثير من المقدمات التي توضع ام هي دراسة معمقة للفلسفة السياسية والاجتماعية التي تنهض عليها السلطنة كلها ؟

حتى اليوم الأخير قبل سفره ظل حائراً ومتردداً ، قال لسمير وهو يبلغه بسفره :

ـ لا بد ان اعود بسرعة ، لاني لا استطيع ان اتأخر ، ويجب ان اهيء لك المراجع الضرورية عن تاريخ السلطنة وارتب المواعيد مع جلالته .

وسمير الذي « حاول » ان يقنعه بتأجيل سفره ، « وانه لا يمكن عمل شيء خلال الصيف » اقتنع اخيراً انه يمكن على الأقل « توفير المصادر » حتى اذا وصل شرع بالعمل فوراً ، فطلب منه الحكيم ، بما يشبه الرجاء ، ان لا يتأخر !

شهرا الصيف كانا اخطر شهرين في حياة كثيرين ، فالحكيم الذي احس بخيبة امل كبيرة ، نتيجة انهيار بعض احلامه ، وجد في الظروف الجديدة امكانية لاستعادة كل ما خسره ، اكثر من ذلك يريد ان يعمل وحده ولحسابه الخاص ، بعدما تعب من علاقاته مع الآخرين ، وكيف انهارت هذه العلاقات ، او على الأقل تعرضت للمصاعب . قال لنفسه في محاولة لحسم هذا الاختيار الذي يعتبره اساسياً : « العب وحدك ترجع راضي » .

أما وداد التي اضطربت بعد تلك الليلة ، بعد زيارة السلطان ، فانها لا تعرف الآن حقيقة مشاعرها . اصبحت في الاسكندرية امرأة متعبة لنفسها

وللآخرين ، وكأنها لا تستطيع ان تألف هـذا الصخب كله ، او وجود هـذا العدد من افراد الاسرة حولها في كل لحظة . كانت حائرة ماذا تفعل او كيف ، فالحكيم الذي لم يعترض على ارتدائها المايو ، وان تقضي جزءاً من نهارها على الشاطىء ، رفض ان يتعرى او ان ينزل الى الماء رغم الحـاحها . فكـان هذا سبباً في جزء من النكد ، ولانها لا تعرف السباحة ، ولا تستطيع اكـثر من ان تبّل جسدها بالماء ، رغم المحاولات التي بذلها الاولاد لتعليمها ، كانت تقضي ما تبقى من وقت على الشاطىء بيدها كتاب لا يكاد ورقه يُقلب ، اذ لم تألف الكتب ، او عـادة القراءة ، وتستغـرب كيف يقـرأ النـاس او كيف يضيعـون اوقاتهم في هذه السخافات غير المجدية . هذه التسلية لم تقنعها ولم ترضها . أما بينها وبين سمير فان اشياء كثيرة حصلت . لم تكن المرأة الوحيدة التي يعرفها، فقد اكتشفت ان له علاقات واسعـة ، وانه يعـرف عدة نسـاء ، وكان يقضي معهن وقتاً غير قصير . حتى اللحظات او الاوقات التي كان يقضيها الى جانبها والى جانب الاولاد، لا يتردد في ان يقيس اية امرأة تمر، ويتابعها بكثير من الاهتمـام وهي مقبلة ثم وهي تدبـر ، وكانت تـظهـر عـلى وجهـه عـلامـات الاعجاب والشهوة واضحة تمامـاً . . ولم يكن ليخفيها ، اكـثر من ذلك كـان يتلذذ باظهارها لتراها هي بشكل خاص .

حتى في الاوقات التي كانت معه في الفراش ، وقد تعمد ان يسكن بعيداً عنهم ، وتعمدت وداد النزول الى المدينة لشراء بعض الحاجات ، وكانت تلتقي معه خلال هذه الاوقات ، كان يبدو شخصاً مختلفاً عما كان في موران : اصبح واضح الملل ، ولا يتردد في ان يقول بعض الكلمات الخشنة ، كان يقولها بين المزاح والجد ، لكنه يعنيها . أما خفة الدم التي ميزته في موران فقد انتهت هنا تماماً ، بل وبدا اقرب الى القسوة والجفاء .

كان يمكن ان تفهم هذه التصرفات ، او ان تبقى بحجمها الطبيعي، وقد تلتمس له الاعذار ايضاً ، لكن اشد ما فاجأها محـاولاته المـاكرة والخفيـة لان يصطاد سلمى . لقد رأت ذلك ليس بعين الام وانما بعين المرأة . رأت طريقته في تعليمها السباحة . ورأت نظراته لها وهم على الشاطىء ، او وهم جلوس في الشرفة . كان باستمرار يسألها ، يوجه اليها الحديث ، ولا يتردد بعض الاحيان

ان يسربت على كتفها او على ساقها . وسلمى التي كانت كالزهرة اول تفتحها ، هنا ، مع اخوتها وآلاف الناس حولها ، في جو من الحرية ، بعد سجن موران الذي امتد شهوراً طويلة ، وجدت نفسها مستعدة للاستجابة ، لتشرب الحياة الجديدة، كما تشرب المياه المالحة في كل مرة يغمرها ماء البحر . لم تكن تعرف ماذا يريد سمير منها او لماذا ينظر اليها بهذه الطريقة ، لكنها كانت مأخوذة بكل شيء هنا ، بما في ذلك نظراته وطريقته في التعامل معها .

وداد وهي ترى ذلك ، تتابعه، وبالمقابل ترى كيف يحاول ان يبتعد عنها ، تتوتر ، تمتلىء غيظاً ، لا تتصور انها يمكن ان تعامل هكذا ، او ان شيئاً مثل هذا يمكن ان يقع ، لكن لا تريد ايضاً أن تعترف او ان تسلّم : مايوه القطعة الواحدة التي كانت ترتديه اثناء وجود الحكيم استبدلته بمايوه قطعتين ، وقد تعمدت ان تشتري ثلاثة منها بالوان صارخة حادة ، انتقتها بحيث تتناسب مع لون جسدها . الخوف من الماء الذي ملأها في الأيام الاولى تخلت عنه ، وبذلت جهداً لتعلم السباحة ، حاولت ذلك مع الاولاد ومع سمير . وخلال هذه المحاولات شربت كمية من المياه المالحة امرضتها ، فاكتفت بان « تسبح » في المياه الضحلة . أما الدعوات التي اخذت تتكرر يوماً بعد آخر ، وكل دعوة باسم واحد من الاولاد ، ودائماً سمير المدعو والضيف ، فكانت بهدف ان تقبض عليه ، ان لا يغيب عن عينيها . وعشرات التصرفات الاخرى ، وكلها من أجل أن تستعيده وأن تقنعه أو أن تقنع نفسها أنه لا يزال الذي تعرفه وتريده . وسمير حاضر غائب ، او كالماء لا يمكن مسكه او معرفة لونه ، ماذا يريد وبماذا يفكر .

شهر كامل من المحاولات والصراع الأعمى . بعد سفر الحكيم ، وكلما بدا لاي منهم انه اقترب او وصل يكتشف انه كان يسير بالاتجاه الآخر ، بالاتجاه الخطأ . فسمير الذي كان يريد ان يبقى على صلاته مع وداد كان يريد في الحقيقة ، في المرحلة اللاحقة ، سلمى . ووداد التي تبذل جهداً لاستعادته تقربه وتبعد سلمى ، او تجعل لعلاقته بها تلك الطفولة والبراءة التي لا يمكن ان تتحول الى شيء آخر . أما سلمى المفتونة بالجو الجديد ، وبالاهتمام من اخوتها والشباب الكثيرين حولها وحولهم ، وبسمير ايضاً ، تحس ان جسدها نما وتكور

في مواضع كثيرة . وانه يفتن الآخرين بمقدار ما يفتنها ويحرجها ، لكن لا تحس اكثر من ذلك . والاخوان اللذان فوجئا باختهما الصغيرة وقد نمت وكبرت في غفلة عنهما لا يعرفان حقيقة عواطفهما نحوها ، اذ ما زالت الصغيرة ، وما زالت الطفلة ، ولكن اصبحت ايضاً تمتلك جسداً يخافان عليه من الآخرين ، ولذلك اضطربت مواقفهم وتصرفاتهم وطريقتهم في التعبير عن الحب او في الدفاع .

وعنّت موران في بال وداد من جديد : هناك يمكن ان تكون ملكة : الكل يريدها ويطاردها ، حتى صاحب الجلالة . وهو ينظر اليها بتلك الطريقة ، كانت تحس بالنشوة ، لانها تعرف معنى تلك النظرات والى ما يمكن ان تؤدي . هنا ، في هذا المزاد الهائل من الاجساد العارية ، من النساء اللواتي لا يعرف الرجل كيف يتجنب ويحيد ، لا يمكن ان تظهر وتملك ، انها مجرد رقم « والرجال في الارقام يخطئون كثيراً ، دائماً يخطئون ، والا كيف نفسر ان للرجل علاقات كثيرة قبل ان يتزوج ، مع نساء جميلات ، لكن حين يتزوج يتزوج امرأة بالذات ، قد لا تكون الاجمل بين اللواتي مررن في حياته ، لكنها وحدها التي يريد ؟» وقررت ان تحارب من مكان قوي ، وفي الساعة التي تريد . ليس هذا كل شيء ، عليها ان تحمي سلمى ، ان تبعدها عن الذئاب التي تحوم حولها . واخيراً عليها ان تصل الى بيروت لكي تؤمن الاولاد في المدرسة ، وتشتري لهما ما يحتاجان اليه .

وهكذا ، في لحظة مفاجئة ، عصبية ، وقد وعدها سمير واخلف ، قررت أن تسافر. خلال ساعات ، استعدوا . ولما جاء سمير عصر ذلك اليوم ، لم يكن باق على سفرهم بالقطار الى القاهرة سوى ساعة ، ورغم انه بذل جهداً استثنائياً لكي يحملهم على تأجيل السفر ، وادعى انه كان مريضاً فلم يحضر الى مقهى عرابي ، الا ان وداد كانت قد حسمت وقررت .

قالت له وهي تبتسم وتمد اليه يداً طويلة مستقيمة ، لكي لا تفسح له مجال الاقتراب :

ـ شكراً استاذ سمير ، وانشاء الله نلتقي قريباً في موران !

ـ شكراً على ايه يا افندم ؟ انا زعلان قوي .

ـ زعلان ؟

ـ ايوه يا افندم . . والا ايه معنى ده السفر المفاجىء ؟

ـ بقي لمدارس الاولاد اسبوع ، يا استاذ سمير ، ولازم اوصلهم واؤمن حاجاتهم !

ـ كده . . اذن ؟

وضحك ضحكة صغيرة ، ثم التفت الى سلمى :

ـ وانت مسافرة يا سلمى ؟

ولما هزت رأسها وضحكت ، قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ خسارة . . والنبي .

بعد بضعة شهور ، وبقبول الامير فنر لقصر السعد وانتقاله اليه ، وما رافق ذلك من زيارات ودعوات ، ظهر بوضوح ان السلطنة تعيش ، من جديد ، فترة من الازدهار والاستقرار ، لم تر مثلها من قبل ، خاصة وان الاخوة الامراء عبروا ، تجاه بعضهم ، عن الكثير من المودة والتفاني ، وقد ذكّرت تلك الحالة السلطان بالايام التي اعقبت الرحيبة ، حيث كان اولاد السلطان خريبط واخوته يتراكضون من مكان إلى آخر بتفانٍ وانكار للذات ، من اجل ترسيخ الدولة وتعزيز هيمنتها لمواجهة الخصوم جميعاً وتجاه الاخطار التي قد تتولد بسبب الاهمال او التراخي .

الآن تعيش السلطنة فترة مثل تلك . ومما زاد في هذه المشاعر وقواها ، خلال المرحلة الجديدة ، وخلافاً لكل الفترات السابقة ، حالة القوة والغنى التي فاضت وسيطرت ، فبدت السلطنة مرهوبة ومرغوبة في آن واحد . واذا كان السلطان خريبط قد استعان بالكثيرين لتثبيت حكمه وتصفية خصومه ، ولم يكن يملك من المال الا القليل ، وكان في كثير من الاحيان مضطراً للتقتير والتأجيل وشد الاحزمة على البطون ، فان المال فاض وتجاوز كل حد ، وتدفق اكثر مما يتصور اي انسان . ومثلما كان خريبط دقيقاً شديداً ، بل ومقتراً في المال ، فلا ينفقه الا بمقدار ، ولا يعطيه الا بعد تمحيص وانتظار ، وعلى دفعات ايضاً ، فان السلطان خزعل لم يبخل ولم يتردد في البذل والعطاء ، بحيث لم يبق احد ممن يحيطون بالقصر او له علاقة او صلة بالعائلة الا وحصل على نصيب ، فظهرت البحبوحة بالتصرفات وعلى الوجوه ، وفي الملابس ، والمآكل ، وبدا

الجميع في حالة من الرضى والزهو . . الا مالك الفريح .

فالشيخ مالك الذي كان مستعداً لان يغّض النظر وان يتساهل ، لم يعد يحتمل ازاء الاسراف الذي يزيد يوماً بعد آخر . ففي الاجتماعات التي كان يُجري فيها بحث تمويل المشاريع ، وكان يتطلب وجوده ، وبعد ان يتكلم الكثيرون ويسروفوا في الكلام حول اهمية المشاريع وضرورة الاسراع باقامتها وتأمين التمويل اللازم لها ، كان في كثير من الاحيان يصرخ كالملدوغ :

ـ حنا ما علينا : مشاريع زينة مو زينة ، هذي عليكم ويم ضمائركم ، لكن يا عباد الله . . ما تقولون فلوس منين ؟

ويلتفت الى مساعده الذي يحمل دفاتر الحسابات :

ـ عطني يا ابن الحلال . .

ودون ان يتقدم مساعده لاعطائه الدفاتر ، ودون ان يحاول هو ، يتابع :

ـ يا جماعة الخير . . .

يضحك بغيظ ، يتطلع خلسة الى السلطان ليقرأ مدى اهتمامه ، فاذا وجده مهتماً يجيب :

ـ ما باقي الا قريشات ، يا طويل العمر ، فاذا كنتم تريدونها لهذا المشروع او لغيره فالامر امركم ، لكن بعدها لازم نوقف .

أما اذا رآه بعيداً وغير مهتم ، وربما يفكر بامور اخرى فكان يصرخ :

ـ هالحين نفرد بساطنا ونقول كل شيء !

وبأمر اقرب الى الغضب يطلب من مساعده ان يعطيه الدفاتر هذه المرة وان يقترب ، ان يجلس الى جانبه وان ينتبه .

ـ صاحب الجلالة موجود والبساط احمدي ، وكل واحد يقّدر ويقول . . .

وقبل ان يفتح دفاتره ، وقبل ان يتكلم احد ، يصرخ بمساعده :

ـ خذ قرطاس واكتب . . .

ويلتفت الى هذه الجهة ، ثم الى الجهة الاخرى وكأنه يخشى من شيء ، او

يخاف من غريب ، ويتابع بلهجة سرية متآمرة :

- يا جماعة الخير . . الفلوس بامر جلالته ، وهو صاحب الامر والنهي ، لكن مثل ما قالوا من قبل : من أمنّك لا تخونه ولو كنت خاين ، فحرام نرمي الفلوس في التراب .

وبعد الكثير من المناقشات والضغط والمكر ، وغالباً ما يكون وحده في طرف والآخرون في طرف آخر ، والسلطان ابداً لا يتكلم ، ينظر بفرح الى خصام الديكة ، الى هذا الذي يجري امامه ، حتى اذا انتهى ، اذا قرر شيئاً ، يكون الشيخ مالك راضياً مقتنعاً وأول الموافقين :

- هذا اللي يصير ، وكل واحد عنده ضمير ، ويريد الخير لهذي البلاد . . . يوافق !

الحكيم يفهم التعريض اكثر مما يفهمه اي انسان آخر ، لان الرهان الاساسي بين الاثنين من هو ابن البلاد ومن هو الغريب ، من يريد مصلحة دولة موران ومن جاء من اجل الكسب !

هذه الموافقة لا تعني للشيخ مالك الا اجتياز نصف الطريق ، وربما نصفه الاسهل . فاذا جاء من خُصص له المال يطلبه ، كان الشيخ مالك ، الذي لا يحمل ورقة ولا قلماً ، ينظر اليه بكثير من الاستغراب والتساؤل :

- يا عباد الله ما تطلبون شيء غير الفلوس ؟ ما تعرفون الا قولة هات ؟

فاذا ضحك من يطلب المال او غضب ، نتيجة تجاهل الشيخ مالك ، يسأله بجد وغضب :

- وشن هي الفلوس اللي تريدها؟

- اللي قررها جلالته .

- اللي قررها جلالته ؟

وبعد قليل :

- اتركوا طويل العمر يا عباد الله ، خلّوه يستريح ، دوختّوه بقولة : نريد ونريد .

فاذا انتهى من هذا الدرس وهدأ قليلاً يتطلع الى وجه سائله بمنتهى البراءة :

ـ الله العليم انه ما عندك سالفة غير الفلوس ؟

فاذا هز رأسه دلالة الايجاب ، يعاود الشيخ مالك :

ـ يا ابن أخي ترى الفلوس لمالك الملك ، وحنا بهذي الدنيا ندرج درْج مثل سيل الحدور ، والعاقل العاقل ، ابن الحلال ، اللي عرف ان بعد هذي الدنيا موت ، وبعدها حساب وكتاب .

واغلب الاحيان لا يعقب هذا الكلام اي تعليق ، فاذا ساد الصمت فان ذلك لا يضايق الشيخ ابداً ، ينصرف إلى سبحته الصفراء ينقّل حباتها ثلاثاً ثلاثاً ببراعة ظاهرة ، فاذا تنحنح ضيفه ينبهه الى وجوده او الغاية التي جاء من اجلها فعندئذٍ يرفع الشيخ نظرة فيها من الغيظ بمقدار ما فيها من الحقد ، ويهدر صوته :

ـ اذا كان كلام الله ما احد يسمعه خلنا نسمع كلام العبد . . .

ويلتفت اليه بابتسامة سخرية :

ـ سولف يا وليدي .

ولان ليس عند من يحدثه حديث آخر ، « سالفة» او شيء اضافي يقوله، فانه يذكره فقط بالمبلغ الذي خصصه جلالة السلطان، وانه يعرف جميع التفاصيل، ولا حاجة لتكرارها الآن. والشيخ الذي يحاول ان يتذكر، واغلب الاحيان لا تسعفه ذاكرته بما يكفي ، يطلب مزيداً من الايضاح ، ويتوقف عند بعض النقاط ليسأل متى حصل هذا ومن كان موجوداً ، وماذا قال جلالته ، حتى اذا تأكد من جميع هذه التفاصيل بهزات من رأسه تطلع بامعان في وجه محدثه وتخرج كلماته بطيئة :

ـ زين . . زين ، هالحين فهمنا السالفة . . .

يتوقف لحظة ، يبتسم ، ثم يضيف :

ـ باقي عليك يا وليدي شي واحد . . .

ـ شي واحد ؟

ـ وريقة من يد السلطان !

ويبتسم الشيخ مالك حتى تبدو اسنانه ، فلا يعرف ان كانت ابتسامة تشفٍّ او ابتسامة فرح ، ويضيف :

ـ ولا تنس ، يا وليدي ، على الوريقة توقيع طويل العمر . . والختم ، وبعدها الله كريم .

وفي الجولة الثانية ، وبعدما يأتي كتاب السلطان وعليه التوقيع والاختام ، يحاول الشيخ مالك ان يفاوض ما إذا كان المطلوب الآن المال جميعه او قسماً منه ، وما اذا كان من الممكن اختصار المبالغ ام لا ، مع الكثير من الحدة في المناقشة والسخرية ، والتذكير بالجنة والنار ، فاذا انتهى من ذلك كله ، وبدا الطرف الآخر مصراً وغير مستعد لاعادة النظر او المساومة ، يرد عليه الشيخ بزخامة :

ـ كل اللي قلته ، يا وليدي . على العين والراس ، وامر جلالته ما ينرد ، لكن ما هو قولك اذا قلت لك : الفلوس اللي تبيها ما هي بواجدة ، ما هي عندنا .

ويصرح الشيخ مالك على حامل دفاتره ان يأتي ويحضر معه الدفاتر ، فاذا جاء وجاءت يبقيها مغلقة ، ويبقى المساعد واقفاً ، ويقول بحزن :

ـ اريد واحداً منكم يصير بمكاني . . . ولو يوم واحد !

في مرات كثيرة كان يصل الشيخ مالك الى ما يريده او الى بعض ما يريد : ان يخّفض المبلغ ، ان يجزّئه ، او ان يؤجله . وعندما يحصل شيء مثل هذا يفرح الى اقصى حد ، يتغير ، يصبح انساناً مختلفاً ، فلا يلبث ان يفيض بالاحاديث ويطلب الشاي والقهوة ، لنفسه ولضيفه ، مرات عديدة ، ولا بد ان يتذكر كيف ان موران تتعرض الى مؤامرة ، خاصة من الغرباء الذين هجموا هجوم الجراد ، ولذلك يجب « ان نفتح عيوننا ، ان نحرص على كل قرش ، لانه اذا خلص مالنا طفيت نارنا وما احد يتذكرنا » ولا بد ان يسوق الحديث

بشكل او آخر الى تلك القصة التي سمعها منه الكثيرون : « حضر هجان من مكة في مسافة تسعة ايام واخبر بان الفرنج قد ملكوا كمران وانهم يحاصرون مدينة سواكن ، وان الشريف امير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين ، وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة ، واقاموا بجدة خوفاً على البندر من الفرنج ان يهجموا عليه ، وارسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء الخبر تنكد له السلطان الى الغاية ، ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد ، فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى الجمعة ، فلما خرج قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، ورقي المنبر خطب خطبة بليغة في معنى النازلة التي وقعت بسبب الفرنج . واخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما اقيمت الصلاة قال المؤذنون : القنوط عقيب الصلاة ، فلما صلى قاضي القضاة الجمعة قنط في الركعة الأخيرة فقنط السلطان والامراء ومن في الجامع قاطبة »[1] .

بعد ان ينتهي من هذه القصة يسأل نفسه ويسأل ضيفه :

ـ بعدما وصل الخبر لسلطان مصر شنهو اللي صار وشنهو اللي جرى ؟

ولا ينتظر الاجابة ، فقط تتغير لهجته تصبح اقرب الى السخرية :

ـ تنكد ، اي نعم تنكد ، وانتظر الى ان صارت الجمعة ، وقنط ، وبعد ما قنط ما تذكر احد ولا احد تذكره !

ولا يزال الشيخ يحكي ويهذي ويوحي ، لكن بهدف واحد ، ان يبلغ رسالة محددة : « الحكيم صبحي المحملجي عدو موران ، واذا كان هناك اذى ينتظرها ، او عدو يتربص بها ، فانه هو ، او عن طريقه . لكن لم يذكر اسمه مرة واحدة ، ولم يشر اليه !

والحكيم الذي احتمل الكثير ، والذي لم تعد له علاقة مباشرة بالشيخ مالك ، لا يمكن ان يغفل عن التعريض ، ولا يمكن ان ينسى الانتقام . الآن ، في ظل الظروف الجديدة ، يجد ان الوقت قد حان .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الرابع ـ ص ٣٠٨ .

بعد الاجتماع الذي اتخذ فيه قرار اقامة البرج ومدينة خزعل الرياضية ، ونتيجة ضحكات الشيخ مالك وسخريته من هذه المشاريع ، وانها لن تجدي ، واشار ان من يقترحها هم اعداء موران ، وصل الغضب بالحكيم درجة فاقت كل حد . قال للسلطان الذي حضر جزءاً من الاجتماع الذي بحثت فيه هذه المشاريع :

ـ بعد مغادرتكم الاجتماع يا صاحب الجلالة جن جنون هذا الابليس ، ابن الفريح : لا تحلموا . . الفلوس ما تشوفها عينكم ، والبرج ما ينبنى . والاخوان كلهم : « هذا امر صاحب الجلالة يا شيخ مالك ، وهذا المشروع تقرر وتوافق عليه » ، وابداً يا صاحب الجلالة . يضحك ويمد لسانه ، ولذلك ارى انه تجاوز حدوده ، يا صاحب الجلالة ، وتطاول على الجلالة ، ولازم يتأدب ويكون عبرة لغيره .

ولم يتأخر السلطان في اعفائه ، لكن ابقاه تحت تصرفه ، دون ان يخصص له عملاً جديداً !

شعر الحكيم بالزهو والقـوة عندمـا تخلص من هذا الخصم ، لقـد انتظر طويلاً الى ان جاء الوقت المناسب ، وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح « سيكون امثولة للآخرين ، ويجب ان يعرف الجميع من هو الدكتور المحملجي » هكذا قـال لنفسه بنوع من الفخر . واذ وجد ان السلطان في حالة نفسية متألقـة ، اقـرب الى الحبور ، فقـد اعتبر ان كثيـراً من الافكـار التي شغلتـه في اوقـات سابقة ، وان كثيراً من الاحلام التي يريد الوصول اليها اصبحت قريبة ولا بد ان يصلها ويحققها في فترة قريبة .

لم يخطىء في فراسته ، فالقصر ، وكل من له علاقة ايضاً ، يبدو بشكـل مختلف عن السابق : الحركة والنشاط والبشر ، وكل شيء آخر يوحي بهذا الجو ويشجع عليه ، وكأن عودة الامير فنر ، ثم الوفاق الذي حصل ، بموافقته على البقـاء والمشاركـة في السلطة ، والتي لم يتحدث عنهـا احـد بصـوت عـالٍ او بوضوح ، كان الجميع يتمناها وينتظرها . واذا كان قد لام نفسه لانه لم يقدر اهمية هذا الأمر ، ولم يتوقع ما يترتب عليه ، ما لبث ان اخذ ايضاً . اذ لم يتأخر عن زيـارة الامير فـنر ، وقد قصــد ان يتحدث معـه في امور عـديدة ، لكي يكتشف ذكـاءه ومدى معـرفته . واذا كـان قد خـرج بنتيجة هـذه الـزيـارة : « الرجل عادي ، واقرب الى الامية ، لانه لا يحسن اية لغة اجنبية ، ولا يحسّ بالنكتة الذكية اللماحة، كما انه اقرب إلى المحافظة من ملابسه وطريقته في التصرف » . رغـم ذلك وجد الامير انسانا بسيطا . فقد سأله عن عـدة امور متعلقة بامراض المناطق الحارة ، وكيف يمكن اتخاذ اجراءات مناسبة لمكافحتها

او الحد من اضرارها ، كما سأله عن مناطق اخرى من العالم مشابهة وكيف تقاوم هذه الامراض ، والحكيم الذي تحدث باستفاضة عن المناطق الحارة في العالم ، وكيف ان الوفيات بين الاطفال تبلغ ارقاماً قياسية ، اشار إلى ان النسبة في موران اقل بكثير ، وان السنوات القادمة ستكون اقل منها الآن بكل تأكيد . وقد انتهت المقابلة بنوع من الرضا المتبادل ، مع تأكد الحكيم بصحة احكامه السابقة .

لم يقتصر موقف الامير فنر على مجرد الانتقال الى القصر الجديد ، او تلبيته الدعوات التي وُجهت اليه ، بعد ان كان يرفض في السابق بطريقة خشنة ، اقرب إلى القسوة ، وانما عبر ايضاً خلال هذه الدعوات باحاديثه وتعليقاته عن تبسط واضح واخوة حقيقية . صحيح ان احاديثه خلت من الطلاوة ، لكنها لم تخل من المودة . حتى وهو يستمع الى اخوته ابدى الكثير من الكياسة وهو يستفسر، وهو يسأل، ثم حين كان يعبر عن رضاه وتفهمه. أما الامراء الذين كانوا شديدي القلق بعد عودة الامير فنر ، وذلك الموقف الذي اتخذه ، والذين تمنى اكثرهم لو انه لم يعد ، فقد ندموا انهم اساءوا الظن الى هذه الدرجة ، ولذلك فقد اصبح فرحهم الآن مضاعفاً . وهذا الفرح ذاته انتقل الى السلطان وعّم القصور كلها . ولقد فكر السلطان في احدى لحظات الاشراق ، وكطريقة للتعبير عن المودة القصوى ، ولترسيخ تقليد جديد في الاسرة ، لو يقترح ان يتزوج جميع الاخوة ، اولاد المغفور له السلطان خريبط، في ليلة واحدة ، ان هذا لو تم سيخلق فرحاً في جميع انحاء السلطنة . وسوف يستمر هذا الفرح اياماً بلياليها ، وربما كان فألاً حسناً ، وقد يصبح تقليداً جيلاً بعد جيل . كما سيخلق في ذاكرة الاجيال القادمة نوعاً من الاعتزاز ، خاصة اذا ترافق ذلك مع زيجات ترتب منذ الأيام الاولى للولادات الجديدة التي ستكون في وقت واحد ، او في اوقات متقاربة . تماماً كما يحصل بين الكثير من المخلوقات ! هذه الفكرة التي الهبت خيال السلطان لبضع ليال ، ما لبث ان تخلى عنها في الدعوة التي اقامها الامير ميزر لاخيه فنر . اذ بعد احاديث عديدة تخللتها الامازيح ، اشار الامير زعل ، مخاطباً اخاه الامير فنر ، الى انه يراه الآن اكثر قوة واكثر شباباً مما كان قبل سنين . فرد فنر ببعض الجفاء :

ـ اللي يدري يدري يا زعل واللي ما يدري يقول كف عدس !

وفهم من هذه الاشارة ان الامير لا يزال يعاني من بعض المتاعب الصحية ، لكنه يتحمل ويقاوم بنوع من المكابرة ، ولولا رغبته ان يكون بينهم ، وحتى ان يموت على ارضه وبين اخوته ، لفضل البقاء هناك . وللحظات عبرت في ذاكرة كل واحد ممن كانوا يتابعون الحديث احزان واشواق ، لكن ازداد اكبارهم وتقديرهم لهذا المسافر الذي عاد اخيراً . وهذا ما جعل السلطان يصرف النظر عن الاقتراح .

أما عندما بدأت تعقد تلك الاجتماعات الخاصة ، والتي غالباً ما تمتد وتطول، ولا يحضرها مع السلطان والامير فنر سوى عدد قليل من الاخوة ، وعقد الاثنان منفردين ثلاثة اجتماعات في اسبوع واحد ، انعقد منها اثنان في قصر الغدير ، والثالث في قصر السعد ، فقد تأكد الجميع ان الامير جاء برغبة التعاون والمساعدة ، وانه يضع نفسه تحت تصرف اخيه السلطان . ومما زاد في هذه القناعة ما قيل ان الامير قد يتخذ له مقراً في القصر السلطاني الجديد ، في الخالدية .

هذه الفورة العارمة من الحماس والتغير التي امتدت اسابيع ، ولم يبق احد في موران الا وتحدث عنها وشغلته بشكل او بآخر ما انفكت ان تراخت ثم تراجعت . وقد ساهم الامير فنر ذاته في كسر حدتها من خلال الحديث الصحفي الذي اجراه معه سمير قيصر وحضره مطيع ايضاً . فقد اوضح بشكل غير مباشر ان وضعه لم يتغير عندما كان في الخارج او وهو يعود الى ارض الوطن ، وانه يضع نفسه في خدمة السلطنة والسلطان ، لكنه يفضل الراحة في الوقت الحاضر .

أما الاحاديث التي سبقت المقابلة الصحفية او اعقبتها ، فقد كانت اكثر وضوحاً ودلالة . فقد اصر الامير فنر ان لا تعطى للحديث اية اهمية استثنائية . ورفض ان تنشر له اكثر من صورة واحدة لانه يفضل ان يكون بعيداً ، لكي لا يزعجه الناس ، وتتأثر بالتالي صحته .

الحكيم كان شديد اللهفة لمعرفة أدق المعلومات واصغر التفاصيل . سأل

مطيع وسأل سمير ، سألهما معاً واستمع باهتمام الى كل ما قالاه ، ثم سأل كلاً منهما على انفراد . وراقب عن كثب وبكثير من الحرص الدعوات التي اقيمت ، وكانت مقصورة على الامراء واولادهم ، ولم يحضرها احد من الغرباء . أما عندما سئل الحكيم عما يتوقعه من مستقبل للامير فنر ، فقد رد ، وبدا على وجهه الحزن الشديد :

ـ الله يساعدنا ويساعده .

وبدا انه غير مستعجل لاعطاء رأي واضح ، أما بعد المقابلة الصحفية بعدة اسابيع فقد قال كلاماً اوضح :

ـ يجب ان لا ييأس الانسان من شيئين اثنين : رحمة الله وتقدم العلم . وانا الآن اتكلم كطبيب ، صحيح ان هناك حالات مستعصية لا يجدي معها العلاج المعروف ، لكن الامل موجود دائماً في اكتشافات طبية جديدة . وهذه الاكتشافات قد تغير الكثير ، شرط ان يكون الاطباء المعالجون على صلة مع مراكز الابحاث والجامعات الهامة في العالم .

وفهم الذين تحدث اليهم الحكيم بهذه الطريقة ان الحالة الصحية للامير فنر تدعو الى القلق ، وربما الى القلق الشديد ، خاصة وان كثيرين تذكروا الاشاعات التي رافقت بداية وصوله ، وان الاطباء الذين عالجوه قالوا له : « داك ماله عندنا دوا والأخير ان تموت بديرتك ، بين اهلك وعشيرتك » . ومما زاد في رسوخ هذه القناعة ان الحكيم الذي زار الامير فنر خلال الاسابيع الاولى ، ثم زاره مرة اخرى في قصر السعد ، وكانت الزيارة الأخيرة ، اضافة الى المقابلة الصحفية ، بايعاز من السلطان ذاته ، فقد بدا واضحاً انه يكتفي بهذا القدر من العلاقة ، ولا يحرص على علاقة اقوى .

أما حماد فقد رد بمرح عندما سأله الحكيم عن تقديره للوضع الجديد :

ـ مورانا بمكانها ، يا ابو غزوان ، ما تتحرك وما تتغير !

فلما طلب الحكيم مزيداً من الوضوح رد حماد :

ـ ظني ، يا حكيم ، ان الامور مثل قبل ، والاحسن ان الواحد منا ما يتدخل بينهم . لا شاف ولا سمع والا راح طعام للنسور !

وتـذكر الحكيم ، من جـديد ، الكتـاب الذي سيضعـه ، بالتعـاون مع سمير ، عن « نسر موران » ، فشعر بالاعتزاز لاختياره هذا العنوان بالذات ، اذ بالاضافة الى دلالته ، فانه شديد القوة والجمال معاً . أما ما يقوله حماد الآن فانه يدل على بعد النظر ، لكنه مع ذلك لا يحس ان موقفه واضح او ان عواطفه ثابتة ومؤكدة تجاه ما يجري .

لقد حصل ذلك كله قبل سفرة الصيف ، أما الآن ، بعد ان عاد الحكيم من السفر فقد كان متأكداً من قناعاته السابقة ، اذ لم يسمـع شيئاً عن الامـير فنر ، وربما اختفى من جديد . وقد فسر الحكيم ان مرض الصفراء يولد الكآبة ايضاً ، وهذه قد تغيب ، او لا تظهر بوضوح ، لكنها تلازم المريض الى آخـر ايام حياته ، ولذلك فان مـا ظهر من نشـاط في مطلع الصيف ، لا يعـدو ان يكون حالة طارئـة او مؤقتة ، قـد تتكرر مـرة او اثنتين لكنهـا لا تعني شيئاً في النهاية . الامـر الآخر الـذي لفت نظر الحكيم بعـد عودتـه : المودة الـظاهرة والفياضة التي بدرت من السلطان . قال له ان غيبته طالت اكثر ممـا ينبغي . وقال ان جو موران خلال هذا الصيف كان ارحم من سنوات سابقـة ، وعلى التحديد من السنـة الماضيـة او التي قبلها . وقـد حفزت هـذه المودة الحكيم وحرضته على ان يخطو الى الامام خطوات كبيرة ، لكن حز في نفسه ايضاً انه يحارب وحيداً ، وان الآخرين ، حتى الابناء ، رغم التضحيات التي يبذلها من اجلهم ، فانهم لا يتجاوبون بالمقدار الكافي ، والا كيف يفسر تأخر غـزوان ، وكيف يفسر تأخر سمير ؟ لقد اختصر رحلته، لم يبق ، بعد الاسكندرية ، الا ثلاثة ايام في ضهور الشوير ، حتى انه لم يستطع ان ينام في الفيلا ، لانها كانت بحاجة الى جهد كبير من اجل تنظيفها واعادة ترتيبها ، وان كان قد قضى نهاراته الثلاثة يتنقل بين الشـرفة الامـامية الصغيـرة والمدخـل ، لكي يشعر الجميـع بوجوده . واتفق مـع بستاني جـديد ، لان القـديم مات قبـل وصولـه ببضعة شهور ، وان قال قريبه الذي جاء يطالب بما يستحق له من اجور انـه مـات قبل وصول الحكيم بخمسة عشر يوماً فقط ! والحكيم الذي تظاهر بالتصديق تلفت اكثر من مرة الى الحديقـة لكي يقول له ، دون كلمات ، ان الرجل مات قبل سنة او اكثر ، والا لما كان وضع الحديقة كما يراه الآن !

لقد بعث الى غزوان ببرقيتين وثلاث رسائل ، البرقيتان تطلبان المجيء وتؤكدان ان يكون في اقرب وقت ، أما الرسائل فقد كانت واضحة لا تحتمل تأويلاً او خطأ . ومع ذلك لم يصل حتى الآن. رد عليه غزوان برسالة قصيرة يشعره ان شركته اوفدته مع فريق الى البرازيل ، وحالما يعود سيرتب اموره ويأتي. لم يقل له كم سيبقى في البرازيل ومتى يعود منها، ولم يحدد اي موعد لاحتمال وصوله الى موران . قال الحكيم ليصّبر نفسه وليجدْ المبررات لغزوان « الغائب عذره معه . . لكن اذا جاء ساعاتبه والومه » .

خلال هذا الوقت هيأ لسمير اكثر المراجع التي تساعده في عمله . أما المواعيد مع السلطان فقد الح اليها بسرعة دون ان يطلب تحديداً ، فالامر سابق لاوانه ، ثم ان هذه المواعيد تتحدد على ضوء الكثير من الاعتبارات ، ويجب ان يكون مسؤولاً عنها ، « لان الامر لا يحتمل اي خطأ . ويجب ان تكون على ضوء تقديري وبوجودي » .

الح السلطان ، اكثر من مرة ، الى تلك السهرة ، واطرى ، وهو يتلمّظ ، اكل ام غزوان ، وسأل ، بغموض ، عن « العائلة » ، وقال ان سهرات مثل هذه لا بد ان تتكرر في المستقبل ، والحكيم الذي استمع الى الاطراء ، وكان مطرقاً الى الارض ، ابتسم اكثر من مرة ، واستعاد وقائع السهرة بكثير من اللذة والاستمتاع . وتذكر الظروف التي رافقتها ايضاً ، وكيف كانت وداد مرتبكة خائفة ، وكيف بكت وطلبت منه ان يعتذر للسلطان . قال لنفسه وهو يواصل ابتسامته ويتذكر : « النساء ناقصات عقل ودين » ، اذ لولا اصراره والمحاولات التي بذلها ، من اجل تهدئة وداد اولاً ، ثم كيف تصرف وكيف تحدث اثناء السهرة ، فلربما اخذت الامور ، ثم العلاقة مع السلطان ، مساراً آخر .

حتى راتب الذي بدرت منه بعض « الاخطاء » او كما سماها الحكيم « جهل » بدا الآن اكثر توازناً ورقة ، وحين سأل الحكيم عن الطبيب الذي يرشحه لكي يشرف على نبيلة « لانها حامل ، يا ابو غزوان ، وتشعر بآلام في الظهر » فقد سأل بنوع من الارتباك اقرب الى الخجل ، الأمر الذي جعل الحكيم يعيد النظر بافتراضاته السابقة ، لكن لم يتأخر في الوصول الى تسمية

طبيب مناسب اولاً والى تفسير يعتبره الاقرب الى الصحة في تحديد وضع راتب بعد ذلك « في سن معينة ، وللرجل المجرب والمتقدم بالعمر ، يصبح الطفل اعز واهم شيء ، ولا بد ان يكون صاحبنا ، عندما تأخرت زوجته ، خاف ، لعب الفار بعبه . . أما الآن فاصبح يشعر بالتوازن والثقة » ومما اكد صحة استنتاجاته ، او تفسيراته الجديدة ، ان العمل في شركة المواد الغذائية تحسن كثيراً عن السابق ، وتم التعاقد بين الشركة والجيش على كميات كبيرة من « مواد الاعاشة » ، وان العلاقة بين راتب والزوبعي افضل من قبل ايضاً . .

أما مطيع الذي استهوته الصحافة كثيراً ، خلال الفترة الماضية ، وانشغل عن الامور الاخرى ، فقد اقلق هذا الحكيم ، فاضطر لان يلفت نظره ، ولان يتدخل في بعض الامور « لان العمود في الجريدة ، يا خالي ، لا يساوي الحبر المكتوب فيه . وانت في الاول والأخير ، اب للصحافة ولست ابناً لها ، فاذا اردت ان تسكّر الباب ساعات وساعات ، والضوء الاحمر شاعل ، لا ترى احداً ولا يراك احد ، لا تراقب ولا توجه ، وكل همك ان تكتب كم كلمة ، ويجوز ان لا يقرأها أحد ، راح يكون حالنا تيتي تيتي مثل ما رحتِ جيت ، لا صرنا صحفيين ولا اشرفنا على صحافة » هذا الكلام الذي قاله الحكيم لمطيع قبل سفره بشهرين او ثلاثة ، والذي اغضب مطيع ، بعض الشيء ، لكنه رد عليه بضحكة غيظ ، يبدو انه اثّر واعطى نتائج ايجابية ، لان مطيع استعاض عن العمود اليومي ، والذي كان يساعده سمير « بمراجعته » ، بمقال رئيسي اسبوعي في مجلة الواحة ، لم يكن مجرد مقال في الصفحات الاولى فقط ، وانما مقال مع صورة ، وقد اختار لنفسه صورة جانبية قديمة بعض الشيء ، لكي يظهر في حالة تفكير عميق !

هذا التطور الذي لمسه الحكيم ، والذي اثنى عليه كثيراً ، دون ان يشير الى المناقشة التي جرت بينهما قبل شهور ، ترافق مع « حدث سعيد » كان ينتظره مطيع بين يوم وآخر ، وهذا الحدث ما كان ليعني شيئاً هاماً او استثنائياً بالنسبة للحكيم لولا الظروف التي رافقته ، فقد كان مطيع مصمماً ان يسمي الوليد الجديد ، اذا كان غلاماً ، واحداً من اسمين: صبحي او غزوان ، أما لو كان بنتاً فظل متردداً بين اسمين ايضاً : سلمى او نعمى ، وما دامت هذه الاسماء

جميعاً تعني الحكيم فلا بد ان يسأله او ان يأخذ رأيه .

كان مطيع محرجاً لا يعرف كيف يبدأ الحديث ، فالابن الأول الذي سماه رشدي ، على اسم ابيه ، دون سؤال احد ، لم يرق كثيراً للحكيم ، لم يقل ذلك بشكل مباشر ، لكن الح اليه . الآن يريد ان يتابع الوزن نفسه ، واقرب الاسماء إليه ، او ربما الاسم الوحيد الذي طغى على غيره من الاسماء : صبحي ، فاذا احرج الحكيم اختيار هذا الاسم فان البديل : غزوان . ولذلك لا بد ان يسمع رأيه .

ما كان هذا الموضوع ليشغل مطيع اوليقلقه لولا المناقشات السابقة ، والتي كان يلذ للحكيم ان يخوض فيها مع ضيوفه ، وكانت تبدو له طريفة وهامة في آن واحد ، اذ كان يسخر كثيراً من بعض الاسماء ، خاصة في موزان ، او من الاشخاص الذين لا يحسنون اختيار اسماء ملائمة لأولادهم . ويتذكر مرة ان الحكيم قال وهو يستعرض الاسماء السائدة في موران « العمى يضربهم ، حمير ، ما في بالدنيا ارخص من الاسماء ، وما في اكثر منها ، والواحد منهم تارك كل الاسماء اللي ترفع الرأس ورايح على : كلب ، جحش ، على فليحان وخريان ، وكأن ما في الدنيا اسم غزوان او حامد . . او كمال او سلمى » كان الحكيم يترنم وهو يردد الاسماء الأخيرة . وقال ان الطريقة الوحيدة لخلق جيل متوازن صحي في المستقبل ان تعطى للابناء اسماء مناسبة ، وان تفرض ضريبة قاسية على الآباء الذين لا يسمون ابناءهم اسماء كبيرة وهامة . .

الآن ومطيع يستعيد صدى تلك المناقشات ، ويروق له ان يبحث هذا الموضوع بالذات مع الحكيم ، ولكي لا يقع تحت طائلة السخرية او الضريبة ابتسم اكثر من قبل ثم قال للحكيم في لحظة صفاء :

ـ مثل ما يقول اهل موران يا خالي : انت عمّه وسمه ، ولا بد انه بعلمك ، يا خالي : بين يوم والثاني ، الله راح يرزقني بولد ، والاسماء اللي فكرت فيها واحد من اثنين : صبحي وغزوان ، فلازم تختار لي !

ضحك الحكيم من اعماق قلبه . كان أقرب الى النشوة ، فهذه اللفتة من

مطيع ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، تدلل بوضوح على ان الرجل ليس متأثـراً به فقط ، وانما يعتبره قدوة ومثلاً ، « والا لما حصرني في هـذه الزاويـة » ، وهذا الموقف لا يدل على الوفاء فقط ، انه اكبر من ذلك ، ولا بد ان يقابل الانسان الوفاء بالوفاء ، وان يقابل الثقة بثقة مثلها . قال الحكيم وبقايا الضحكة تملأ حلقه :

ـ مـا اكثر من الاسـماء يا خـالي ، لكن اذا نـويت عـلى واحـد من هـذه الاسماء ، فتوكل على الله ولا تتردد .

ـ انت عمه وسمه !

ـ لا تحرجني اكثر من اللازم يا خالي !

وفي جـو من المرح والمـودة ترك الحكيم لمطيع ان يسمي المـولود الجـديد الاسـم الذي يشاء، ولا مانع ان يكون صبحي ، أما اذا كان المولود بنتاً فقد اقترح ، بما يقرب الحسم ، ان يكون الاسم : لبنى ، بدل سلمى او نعمى . ومطيع الذي وافق بغبطة قرر دون تردد : الولد : صبحي ، والبنت لبنى .

وشعر الحكيم بالنشوة ، رغم الاخطاء التي حصلت في الفترة الماضيـة ، اكثر من ذلك اعتبرها اخطاء صغيرة ، يمكن ان تحدث مع اي انسان ، لا بل ان اخطاء الآخرين اكبر مما وقـع له . ان مـا يعزيـه ان مساعـديه ، والـذين يعملون معـه ، يثقون بـه ، يحبونـه ، ويعتبرونه مثـلاً لهم ، ولذلـك يلتفـون حوله ، يسألونـه ، يأخـذون رأيه في الصغيـرة والكبيرة ، « اكـثر من ذلك لا يسمون اولادهم الا بناء لمشورتي ورأيي . . وهذا هـو العزاء » . ولم يشـأ ان يتذكر حسني او سعيد ، ولم يخطر بباله ان يتذكر محمد عيـد او مفضي . ونام تلك الليلة مطمئناً ، ولم يقلقه الا تأخر المسافرين : غزوان اولاً ، ثم وداد . . واخيراً سمير !

« الانتخابات » الاولى التي جرت في بداية الخريف ، لاختيار اعضاء غرفة تجارة موران ، كانت بمثابة صدمة جديدة للحكيم . كان يمكن ان يوافق على سقوط قائمته ونجاح اية قائمة اخرى ، لكن الذي لا يمكن ان يوافق عليه او يتصوره نجاح القائمة المعادية : قائمة سعيد ورضائي . صحيح ان الغامدي هو الذي اصبح رئيساً للغرفة التجارية ، ورضائي نائباً للرئيس ، « لكن تبقى القائمة ، بعناصرها ، بطريقة تشكيلها ، وحتى بالمغزى الذي رمت اليه ، من صنع هذا الخبيث سعيد » ، ولذلك فهي تشكل تحدياً للحكيم اقرب الى الاهانة .

واذا كان الحكيم قد احتمل بصعوبة التعهدات التي حصلت عليها شركة الغزال قبل بضعة شهور ، فقد صرف وقته وجهده ، منذ ذلك الوقت ، للرد من خلال غزوان وشركته . لكن غزوان الذي جاء لمدة ثلاثة ايام فقط في اواخر الصيف ، وقدم « افكاراً » كما ذكر اثناء استقبال السلطان له ، حمل معه من موران اقتراحات ووعد ان تدرس هذه الاقتراحات وان « يرد عليها في اقرب فرصة » .

انقضى شهران ، شهران طويلان بالنسبة للحكيم ، ولم يتلقّ رداً ولم يصل الرد ، كل ما تلقاه رسالتان ، الاولى ، شخصية ، من غزوان ، ولم يشر فيها ، الا عرضاً ، الى الاقتراحات التي حملها ؛ مع تأكيد ان « النتائج ستكون ايجابية » ؛ والثانية من الادارة العامة للشركة تذكر انها تلقت اقتراحات السلطنة ، وانها موضع دراستها واهتمامها ، وحالما تستكمل الدراسة المطلوبة

سوف تتخذ الاجراءات المناسبة ! وتختم الشركة رسالتها بالشكر والتقدير العميقين « للدكتور صبحي المحملجي ، ولابنه ، السيد غزوان ، الذي اثبت خلال الفترة القصيرة على عمله في الشركة جدارة وكفاءة استحق بموجبهما تقدير رؤسائه » .

الآن ، بنجاح القائمة « المعادية » ، يتزعزع وضع الحكيم ويضطرب ، « كل ما دبرناها من جهة تنفخت من الجهة الثانية » وقد زاد من اضطرابه ان التقليد الذي كان سائداً ايام السلطان خريبط ، بان يذهب الامراء وابناؤهم بمعية السلطان الى البادية ، وان يقضوا هناك فترة من الزمن ، دون ان يرافقهم احد من المستشارين او الغرباء ، هذا التقليد الذي لم يحرص السلطان خزعل على اتباعه بدقة ، اذ كان يقع سنة ولا يقع في السنة التي تليها ، وغالباً ما يختصر ليومين او ثلاثة ، بدل اسابيع ، واحياناً يتخلف عنه بعضُ الامراء ، بدا هذه السنة ، وبمشاركة الامير فنر ، او ربما بمبادرته ، شيئاً مختلفاً عن السنوات السابقة. ومما زاد في غيظ الحكيم او تشاؤمه ان أُرسل بطلب حماد، وقد عرف ذلك من مطيع ، في اليوم التالي للسفر ، ثم نائبه بعد ثلاثة ايام ، ولم يسأل عن الحكيم . وقد بقي الاثنان الى نهاية الفترة ، أما بعد ان عاد حماد وسأله الحكيم فكان جوابه اقرب الى السخرية :

ـ ما عدا السوالف والقنص ما حصل شي يا ابو غزوان !

وحين نظر اليه الحكيم وكأنه لا يصدقه تابع :

ـ . . . وكان فيه سباق خيل !

وهز الحكيم رأسه بموافقة يائسة ، لكن تأكد ان حماد لا يريد ان يتكلم ، وتأكد اكثر انهم يستبعدونه ولا يريدون ان يعرف !

لو ان وضع الحكيم في البيت ، مع وداد ، كان افضل لعرف كيف يواجه الآخرين ، او على الأقل ان يخلق توازناً من نوع ما يحتمي به ، لكن بعد ان تأخرت كثيراً بين الاسكندرية وبيروت ، بسبب الاولاد واعادة تأثيث البيت في بيروت ، عادت الى موران امرأة مختلفة : نزقة ، صامتة ، واقرب الى المرض . والحكيم الذي بذل جهداً كبيراً لاخراجها من هذا الجو ، كان يشعر

في اعماقه ان التعب الذي حل بوداد هو سببه ، فلام نفسه انه حمّلها مسؤوليات اكثر مما تحتمل ، خاصة وانها كانت وحيدة في بيروت . ولـذلك وبكثير من التفهم والتضحية احتمل الجو الصعب الكئيب الذي سيطر على قصر الحير ، لكن شعر، اكثر من قبل، انه وحيد، وحيد تماماً، وان اقرب الناس اليه لا يفهمه .

لم يقتصر الأمر على ذلك « سمير افندي عنفص » «مش ممكن، يا سعادة البيه ، احط اسود على ابيض قبل الاتفاق على شيئين : المكافأة التي استحقها لهذا العمل ، والشيء الثاني : عشر جلسات عمل مع السلطان ، لاني عايز اعرف كل حاجة عن جلالته ، ولازم اتناقش معه في التفاصيل الصغيرة». والحكيم الذي بذل جهداً استثنائياً ليحمل سمير على ان يتخلى عن الشرطين او ان لا يصر عليهما « لان المكافأة اذا تحددت الآن ما هي من مصلحتك يا استاذ سمير ، لان صاحب الجلالة قد يأمر لك باضعافها ، ثم ان الجلسات مع جلالته لا يمكن تحديد عددها سلفاً ، يمكن ان تكون اقل او اكثر ، ولكي تكون مفيدة يجب ان تطلع على تاريخ السلطنة ، وبعد ذلك نتفق على الاسئلة والتفاصيل الاخرى » ويدفع الى سمير بعدد من الكتب التاريخية والجغرافية لقراءتها ، تمهيداً لوضع مخطط الكتاب ، وبعد ثلاثة اسابيع او اربعة ، وحين يسأل سمير ما اذا انجز قراءة هذه الكتب ، يكتشف انه لم يمّد يده اليها « لان الاستاذ مطيع كلفني بشغلانة عاجلة يا سعادة البيه ، والظاهر ان الشغلانة دي تهم القصر » .

وظل وضع الحكيم عرضة للصعود والهبوط تبعاً للاجواء التي تحيط به ، ولطريقة الآخرين في التعامل معه ، فان يزوره مطيع بين يوم وآخر ، وان يستشيره في تسميته الغلام الذي سيأتيه ، ولا يقدم على عمل دون التشاور معه ، ثم يسمع من الآخرين ان مطيع اتخذ مجموعة من المواقف او اقام عدداً من العلاقات دون ان يشير اليها مجرد اشارة ؛ وان يكون راتب في حالة من الرضا والثقة بالنفس ، بعد ان كان في حالة اخرى اول الصيف ، وهكذا حالات الآخرين المتقلبة او المتغيرة ، فان ذلك ينعكس بوضوح وبسرعة على الحكيم ، فيقع فريسة الاوهام والوساوس ، فلا يعرف هل الخطأ خطأه ام خطأ الآخرين .

يقول لنفسه بكثير من الحزن ، « اصعب شيء في هذه الحياة ان يكون الانسان وحيداً ، او ان يمتلىء بهذا الشعور ، رغم وجود الآخرين حوله ، ورغم الضجة التي تحيط به » ويغرق في حالة من الحزن يحس معها ان حياته تبددت ، وان العمر كله انقضى في الركض الاحمق ، حتى اذا وصل ، او توهم الوصول ، يكتشف انه كان يركض في الاتجاه الخاطىء ، او نحو هدف لا يريده . حتى الزوجة والاولاد اصبحوا في المرحلة الجديدة مختلفين عن السابق . لا يعرف ماذا يريدون او كيف يفكرون ، ولذلك فان مشاعره نحوهم تبدو مهتزة ، قلقة . لقد تعب من اجلهم ، قضى عمره ليجمع ثروة ، وبعد ان وصل ، وحين اراد ان يسلمهم هذه الامانة ، يجدهم بعيدين او غير آبهين، وكأن الثروة لا تعني شيئاً بالنسبة لهم . كان يريد غزوان بقربه ، معه ، لكن غزوان فضّل البقاء هناك ، ولا يعرف الى متى سيبقى وهل يحتمل ان تكون حياته في اميركا افضل مما لو جاء وسلمه كل شيء ؟ ووداد . . كانت في الماضي تحبه اكثر ، او على الاقل هكذا كان احساسه ، أما الآن فانها تشغل نفسها بامور تافهة : بالملابس ، بالمكياج ، بالزيارات ، فاذا تبقى لديها بعض الوقت فانها تنصرف الى البيت والاثاث . لم تعد تحس بوجوده واهميته كما كانت تفعل ، وحين تسأله عن صحته فان سؤالها اقرب الى المجاملة او الشفقة ، بحيث لا تعني لها الاجابة اي شيء، فما ان تتظاهر بسماعها حتى تغرق من جديد في صمتها . أما الملابس والهدايا ، أما تلك العطور والمجوهرات التي لا يبخل ان يحمل منها كميات كبيرة بين فترة واخرى ، وكلما يفرغ حقيبته ، ويكون القسم الاكبر لوداد ، وتظن انه لا يحمل غيرها ، فكان يفاجئها بما خبأه في الحقيبة الاخرى . ومع ذلك ، ورغم الضحكات الفرحة ، القصيرة ، فان كل شيء ينتهي فجأة ، وتعود بسرعة الى عالمها . وهذا العالم لماذا يبدو حزيناً مليئاً بالتوتر والصمت ؟ ماذا تريد اكثر مما يعطيها او يوفره لها ؟ هل هناك امرأة تعيش افضل منها ؟

هذه الامور شغلت الحكيم الى اقصى حد ، وهو بمقدار الثقة التي تملأه بانه قادر على ان يفسر اصعب القضايا ، يجد ان القضايا التي تواجهه شديدة التعقيد ، تموه نفسها ، او سريعة التحول ، بحيث لا يطمئن الى اي تفسير .

وسمير . . لماذا يبدو هكذا بعد ان عاد من السفر ؟ حتى زياراته اصبحت قصيرة متحفظة ، ولا يخفي رغبته في ان يغادر بعد وصوله بفترة قصيرة ، وكأنه يقوم بزيارة مجاملة . قال الحكيم لنفسه : « ربما وقعت اخطاء خلال زيارة الصيف ، اخطاء مني او من الاولاد ! » ويحاول ان يتذكر ، يستعرض الاحداث والأيام خلال زيارته فلا يجد شيئاً ، يسأل وداد ما اذا احست بتغير سمير واختلاف سلوكه . فتجيب اجابات غامضة قصيرة ، بحيث لا يستطيع ان يفهم شيئاً . ويسألها ما اذا ارتكب الاولاد اخطاء ولم تلاحظ ، فتنفي بشدة ، لكن دون رغبة في ان تخوض بالموضوع اكثر من ذلك .

كيف يمكن اعادة جمع الحياة وتنظيمها بعد ان تفرقت وتبددت هكذا ؟ والصداقات والعلاقات اي جنون اصابها بحيث اصبحت غير مفهومة ، غير مستقرة ، وعرضة لاحتمالات لا حدود لها ؟

ظلت الحال هكذا الخريف كله وبداية الشتاء . السلطان عاد من رحلة البادية لكنه عاد انساناً آخر : بدا عليه الهرم او ما يشبه الابلال من مرض طويل ، واصبح اقرب الى الصمت ، محباً للعزلة ، واخذ يقضي وقتاً اطول مما تعود في احد القصور البعيدة عن قصر الغدير ، وهذا الوضع زاد في قلق الحكيم ، بل ووصل حد الخوف ، خاصة وان ذلك ترافق مع ظهور متزايد للامير فنر ، فقد قام باداء صلاة الجمعة ثلاث مرات متوالية في جامع السلطان خزعل ، وقام بجولة في انحاء السلطنة استمرت شهراً كاملاً ، وقد رافقه في هذه الجولة عدد من اخوته الى جانب الحرس والمرافقين والصحفيين . وما قيل سابقاً عن احتمال تخصيص مقر ومكاتب للامير في قصور الخالدية فقد اصبح حقيقة مؤكدة ، لان الاثاث الانكليزي الذي يفضله الامير وصل قبل الانتهاء من القصور ، فوضع في قصر السعد بصورة مؤقتة . أما محاولات الحكيم لاستدراج حماد لكي يحدثه عن رحلة البادية ، ويفهم منه التطورات الجديدة او التي يمكن ان تقع ، فقد انتهت الى الفشل او الى خلق المزيد من التشويش بالنسبة له . قال له حماد في محاولة للهروب من الاجابة :

ـ . . . وتعرف يا ابو غزوان السلطان يحب اخوته مثلما يحب اولاده ، وهذه الصفة موروثة اباً عن جد ، واهل موران كلهم يعرفون ، والامير فنر

كان منحرف الصحة ، أما بعد ان منّ الله عليه واستعاد صحته فمثله مثل غيره من الامراء !

أما زيد الهريدي الذي زار الحكيم مرتين خلال اسبوع واحد ، فقد جاء من أجل هدف محدد لم يخفه ولم يموهه كما فعل في مرات سابقة :

ـ طويل العمر يسلم عليك يا ابو غزوان، ويريد من ذاك الدواء الازرق اللي اعطيته منه قبل سنة !

والحكيم الذي حاول ان يستفسر اكثر ، متجاهلاً الدواءالذي يعنيه زيد ، رغم انه يعرفه ، وقد سماه بنفسه هكذا ، لم يستطع ان يتوصل الى معرفة الجو معرفة دقيقة ، او الى نتيجة واضحة ، قال له زيد في الزيارة الثانية لكي يطمئنه :

ـ لو كان فيه شيء ، يا ابو غزوان ، انت اول من يعرف ، لان مودتك عند طويل العمر ما يصلها احد !

واعطاه الحكيم الدواء الذي طلبه ، مع توصية واضحة :

ـ بلغ صاحب الجلالة تحياتي واحتراماتي ، وقل له يجب الا يجهد نفسه !

زايل القلق الحكيم بعض الوقت ، لكنه لم يطمئن، لانه لم ير السلطان خلال الشهرين الاخيرين سوى مرتين ، وفي المرتين كان هناك آخرون بحيث لم تتح الفرصة لحديث راسخ او شخصي ، ومع ذلك قرر بحزن ، يقرب حدود التهور ، ان يتجاوز هذا الوضع ، لكنه احس بغصة لانه يحارب وحده ، ولان الآخرين لا يتعاونون معه بالمقدار الكافي .

«كلما ضاقت تنفرج»، هكذا قال الحكيم لنفسه، بعد ان قرأ رسالة ابنه غزوان التي جاءت في بداية الشهر الثاني عشر ، كانت رسالة طويلة ، ومما جاء فيها : « . . . وسيكون معي في الوفد نائب رئيس قسم المبيعات وثلاثة من مساعديه ، اضافة الى المستشارين الفني والقانوني للشركة . المطلوب يابابا ، ان تظهر للوفد اقصى درجات الاهتمام والترحيب ، ويجب ان يكون ضمن البرنامج استقبال من قبل صاحب الجلالة ، خاصة وان احد مساعدي نائب رئيس المبيعات يتقن العربية (وسوف احدثك عنه) ولكن بلهجة مغربية ،

وقد ارتأت الشركة ان يلقي كلمة امام صاحب الجلالة السلطان يوضح عمق الروابط بين الولايات المتحدة وسلطنة موران والفوائد التي تعود على البلدين من التعاون المتبادل . كما ارجو ان تحدد للوفد مواعيد مع وزير الدفاع ووزير الداخلية وقائد الجيش ومدير المخابرات ، لان هناك اشياء كثيرة يمكن ان تبحث وتقال ، ويمكن ان يتم التعاون بشأنها ، (وقد اقترح رئيس الشركة بالذات ، ان يتم معك لقاء خاص يا بابا . . عدا عن اللقاءات الاخرى في الدعوات) . وبالمناسبة يجب ان تبذل جهداً استثنائياً في ترتيب الدعوات ، لكي نثبت لهم ان ما قرأوه في كتب التاريخ عن الكرم العربي ليس شيئاً يخص الماضي وانما هو مستمر حتى الآن . لدي اشياء كثيرة سوف نتحدث عنها يا بابا. لكن الآن اريد منك ان تبذل اقصى جهد من اجل تنظيم هذا الموضوع ، واذا اخذت الأمر على عاتقك فسوف تكون النتائج مشجعة للغاية . خاصة وان الجماعة ابدوا استعداداً كبيراً للتعاون ، وفي مجالات كثيرة » .

وفي ختام الرسالة ، التي كانت من ثلاث صفحات ، لم ينس غزوان الاشارة الى ضرورة حجز الطابقين الخامس والسادس في فندق موران الكبير ، باعتبار ان هذين الطابقين يحتويان على شقق وليس فقط على غرف منفردة، واشار ايضاً الى السيارات التي يجب ان تخصص للوفد والمرافقين . . « واخيراً يا بابا الهدايا ، ان الهدايا ، وانت تعرف ذلك جيداً ، تلعب دوراً طيباً » وقد وضع خطًا تحت كلمة « طيباً » ، ثم اشار الى ان الوفد لا يستطيع التأخر اكثر من اسبوع ، ويجب ان يستعد الوفد المفاوض . . « للمفاوضات . . ولتوقيع العقود » أما موعد وصول الوفد فسوف يكون في ٩/ ١٢/ .

نظر الحكيم الى التاريخ مجدداً ونظر الى الروزنامة المعلقة على الحائط . قال بما يشبه الاضطراب : « ما بقي لنا الا ستة ايام » . وخلال هذه الأيام الستة لم يهدأ لحظة واحدة . طلب موعداً عاجلاً من السلطان « للاهمية القصوى » كما ابلغ زيد الهريدي :

ـ يا طويل العمر . . . أبشر . . .

ولما نظر اليه السلطان ، الذي كان بملابس بسيطة اقرب ما تكون الى

الثوب الذي ينام فيه ، بدهشة وصهل مثل عادته عندما يكون فرحاً ، تابع :

ـ اللي كنا ننتظره ، يا طويل العمر ، صار باليد .

وصهل السلطان مرة اخرى ، ثم مسد على لحيته ، وقال للحكيم بكثير من المودة والهدوء :

ـ استرح . . يا ابو غزوان، وخلْنا نسألك اول شيء عن صحتك واحوالك ، وبعدين نسولف بالسوالف الثانية .

خجل الحكيم من كلمات السلطان ، وكأنه يعرّض به لانه لم يسأله عن صحته ، حاول ان يتدارك :

ـ الله يلعن الشيطان لانه ينسي الانسان . . يا طويل العمر .

ـ وكّل الله . . يا ابو غزوان .

ـ وصحة جلالتكم يا طويل العمر ؟

ـ الحمد لله . مثل ما تشوف . .

وصهل من جديد ، وتابع :

ـ ما دمت انت طبيبنا يا ابو غزوان ، وتدز لنا من القواطي الزرق والحمر ، وما دام الله رايد كل شيء بخير .

وشاركه الحكيم الابتسام ، وكان بوده لو يضحك مثله . بدا له السلطان في صحة جيدة خلافاً للمرة الأخيرة ، حين رآه قبل ثلاثة اسابيع . قال مداعباً :

ـ كنت بحاجة الى الراحة ، يا طويل العمر ، ويبدو ان جو البادية لم يناسبك ، وربما اتعبك !

ـ الواحد يروح للبادية يوم او اثنين . هدي المرة طالت : عشرين يوم ، تعبت شوي ، لكن من اسبوع اسبوعين . . لله الحمد !

ولم ينس السلطان ان يسأل عن عائلة الحكيم . وتذكر من جديد طعام

ام غزوان ، قال في محاولة استرجاع لذيذة :

ـ انشاء الله ما يمر كم يوم الا وتشوفونا ببيتكم . . يا ابو غزوان !

ـ الف اهلاً وسهلاً ، يا طويل العمر ، شرف عظيم ، يا صاحب الجلالة .

وضحك الحكيم بطريقة معينة ، ثم تابع :

ـ وخاصة انه في مناسبة ، يا طويل العمر . .

سأل السلطان باهتمام :

ـ خير انشاء الله ؟

ـ مخدومكم . . غزوان ، يا طويل العمر ، بعدما كلفتوه بموضوع تسليح الجيش ، سافر وهذا الموضوع هو الموضوع الوحيد اللي في راسه ؛ ظل يبحث ويدوّر الى ان توصل الى نتائج مهمة جداً .

توقف قليلاً ، ابتسم ، نظر الى السلطان بتذلل واضاف :

ـ امس ، يا طويل العمر ، استلمت منه رسالة ، اكبر شركة سلاح في اميركا مستعدة ان تسلح جيش موران باحدث الاسلحة واهمها ، وباسعار رخيصة ، باسعار مثل الكذب . .

ـ ما تهمنا الاسعار ، يا ابو غزوان ، اللي يهمنا ان يكون لموران جيش اقوى واهم من كل الجيوش وبعدها كل شيء سهل !

ـ تماماً، يا صاحب الجلالة ، هذا هو الامر المهم . ومن توفيق الله ، سبحانه وتعالى ، ان غزوان وصل الى اهم شركة ، وبعد كم يوم تتأكدون بانفسكم .

هز السلطان رأسه اكثر من مرة دلالة الرضا . تابع الحكيم بلهجة جديدة :

ـ عندي طلب . . يا صاحب الجلالة . .

ـ سم .

ـ مدراء الشركة طلبوا مقابلة جلالتكم اثناء زيارة موران ، لان عندهم اشياء كثيرة لازم تطلعوا عليها شخصياً

وبعد قليل وهو يحاول ان يضحك بصوت بدا مشروخاً متكسراً :

ـ بعثت ، يا صاحب الجلالة ، عدة رسائل الى غزوان اذكّره بالاقتراحات التي قدمت من سلطنة موران وضرورة متابعتها والبت بها ، الى ان جاءتني امس ، امس فقط ، رسالة الموافقة ، والجماعة سوف يحضرون الى موران يوم ٩ الشهر ، وسيبقون اسبوعاً . .

وتغيرت لهجته :

ـ ورأيي يا صاحب الجلالة ، ان تستقبلهم قبل اليوم الأخير من زيارتهم ، استقبال مجاملة ، لتعبر لهم عن العلاقات ومدى قوتها بين سلطنة موران والولايات المتحدة . ان استقبالاً مثل هذا يقوي الشركة ويدعمها فيما اذا كانت هناك بعض الجهات داخل الحكومة الاميركية تريد ان تعاكس تقديم صفقة سلاح كبيرة وهامة للسلطنة .

ـ وتريدني اخطب واتكلم ؟

ـ ابداً . . يا صاحب الجلالة . . يمكن ان تسأل المدراء عن صحتهم ، عن رأيهم بزيارتهم ، عما رأوه في موران . هذا كل شيء . .

وبكثير من المداورة والمكر توصل الحكيم الى اقناع السلطان بالموافقة على استقبال الوفد ، كان بودّه لو ان الظروف افضل ، اذن لاقنعه بدعوة الوفد الى حفلة غداء او عشاء في القصر ، او ان يرافق بعض الامراء الوفد الى حفلة صيد وقضاء يوم وليلة في الصحراء . ان هذاشيء يحبه الاميركيون كثيراً ، لقد عرف ذلك واختبره اثناء اقامته في حران ، لكنه لم يجرؤ على ان يطلب مثل هذا الطلب .

ظلت الورقة الأخيرة لو استعملها لا بد ان يكسب السلطان الى جانبه ، ان يقنعه بتقديم تنازل اضافي : « السيرة » . يجب ان يحدد له وقتاً لاستقبال سمير اولاً ، ثم البدء بكتابة السيرة ، بعد ذلك .

قال في لحظة متألقة ، وقد عاد السلطان الى ذكر الدواء الازرق :

ـ يا طويل العمر ، هناك قضايا كثيرة يمكن ان تقوّي الانسان . . .

وضحك قليلاً ثم تابع :

ـ القوة . يا طويل العمر ، ليست بالعمر او بالادوية ، القوة بالثقة . . .

هـز السلطان رأسه ، لكن لم تفهم هـزة الرأس ، أهي دلالة موافقـة ام استغراب ، تابع :

ـ اتذكر ، يا صاحب الجلالة ، اني قلت لجلالتكم قبل سنوات انكم رمز وقـدوة لهذه الامـة ، والناس يتـطلعون الى هـذا الـرمـز بكثـير من الاحتـرام والتقدير ، لكن الكثيرين لا يعرفون ما يجب ان يُعرف عن جلالتكم .

لم يعلق السلطان ، لكنه ابتسم . تابع الحكيم :

ـ والآن ، وبعد ان توافرت الظروف المناسبة ، كل ما اطلبـه منكم ، يا صاحب الجلالة ، ان تحددوا لنا موعدا او اثنين من اجل استكمال المعلومات التي يجب ان ينتظمها الكتاب الذي سيصدر عن جلالتكم ، وان تذكروا لنا فيما اذا كانت لديكم افكار او رغبات يجب ان ترد في الكتاب .

لم يقدر السلطان فيما اذا كان الحكيم يسأله ، يطلب منه طلباً معيناً ، او انه يحدّثـه عن المشروع الـذي حدّثـه عنه قبـل شهور . قـال في محاولـة لعدم الاجابة :

ـ كل شيء بوقته زين ، يا ابو غزوان .

ـ خير البر عاجله ، يا طويل العمر.

ـ سم . . يا ابو غزوان .

ـ هل اطمح بان تحدد موعداً او اثنين من اجل استكمال المعلومات ؟

ـ اللي تشوفه يا ابو غزوان .

ـ بعد شهر من الآن نبدأ ، يا صاحب الجلالة .

ـ على خيرة الله .

بدا استقبال السلطان للوفد مليئاً بالجلال والمودة ، لانه كان تتويجاً لاتفاق كبير وطويل الامد بين الولايات المتحدة وسلطنة موران ، وقد لعب غزوان ، لتوقيع هذا الاتفاق ، دوراً بارزاً ، اثار اعجاب الكثيرين . ولم يتردد السلطان في الاشارة الى هذا الدور اثناء حفل الاستقبال . وما لفت النظر ايضاً ان السلطان خص ثلاثة في الوفد بمعاملة خاصة : رئيس الوفد ، ومساعده الذي يتقن العربية وغزوان ، اذ بالاضافة الى التبسط بالحديث ، وقد قام غزوان بالترجمة بين جلالته ورئيس الوفد ، فقد كانت السيوف التي اهديت الى هؤلاء اجمل من غيرها واعلى سعراً . أما اعجاب السلطان الواضح بغزوان فقد جعل زيد الهريدي يردد ، وعلى مسمع من الذين حوله ، وكان يوجه الكلام الى الحكيم :

ـ هالحين تأكدت ، يا ابو غزوان ، ان لا احد اغلى عنده منك . . وتشوف عينك !

والحكيم الذي انفعل واضطرب كاد يشرق وهو يرد عليه :

ـ الله يطول عمره، الله يخليه ، لاننا بدونه لا نسوي شيئاً .

أما كيف سارت الامور منذ وصول الوفد ، وكيف انتهت هذه النهاية السعيدة ، فان الحكيم لعب دوراً هاماً في التحضير ، ثم جاءت براعة غزوان وذكاؤه ليلعبا دوراً حاسماً في كل المراحل اللاحقة . وكان لا تصالاته ولاستخدام معارفه ومعارف ابيه اهمية فائقة في الوصول الى هذه النتائج ، ولم

ينس التنبيه على شركة ، ومنذ وقت مبكر ، بضرورة حمل مجموعة من الهدايا . أما بعد وصوله فقد قضى مع ابيه حوالي ساعتين لتحديد كيف توزع الهدايا ، بحيث لا يقع خطأ . حتى الامير فنر كانت له هدية بين الهدايا ، وهي عبارة عن صفحات من القرآن مخطوطة على رق غزال من القرن التاسع الهجري ، وقد اشتريت من لندن لهذا الغرض . أما هدية السلطان فكانت كبيرة ومتنوعة : عدة قطع من السلاح رُسم عليها شعار السلطنة وخط عليها اسم السلطان ، اضافة الى مجموعة من المناظير الحربية ، ويمكن ان تفيد في الصيد ايضاً . وكانت بقية الهدايا مجموعات من الاسلحة الفردية او اسلحة الصيد ، ولم ينس الوفد ان يحمل اربعة صقور اسكتلندية رمادية اللون .

هدية الحكيم كانت عبارة عن مجموعة من اقلام الحبر الذهبية الثمينة ، وقد خبأ غزوان هذه المفاجأة عن ابيه حتى اللحظة الأخيرة ، أما عندما تسلمها وفتحها فقد نظر الى ابنه بكثير من الانفعال ، ولم يتمالك نفسه ، اثناء معانقته ، من حبس دمعتين انحدرتا على خده . وهذه الالتفاتة من غزوان نحو ابيه كانت نتيجة الاحاديث التي جرت خلال الزيارة القصيرة في نهاية الصيف ، حيث ذكر الحكيم ان أمنيته ، بعد بضع سنين، ان يتفرغ لكتابة مذكراته ، واشار ، عرضاً ، ان من جملة الشروط التي تحرضه على الكتابة ، بالاضافة الى الجو والوضع النفسي : الادوات ، واوضح انه يقصد بالادوات الاقلام والورق .

توقع الحكيم وامل كثيراً ان يبقى غزوان بضعة ايام اخرى بعد سفر الوفد ، لكنه لم يجرؤ ان يبحث معه هذا الأمر ، لانه لا يحتمل الرفض ، فكلّف زوجته ان تتولى هذه المهمة ، ووداد التي بدت في وضع نفسي افضل ، لم تدّخر وسيلة من اجل اقناعه . لكن غزوان كان واضحاً وحازماً في عدم استجابته الى الضغط ، قال لها في محاولة توضيح اخيرة :

ـ يا ماما انت ما لازم تقبلي ، لاني اذا تأخرت عن الوفد يوماً واحداً راح يلعب الفار بعبهم ، ويمكن يقولوا اشتغل من ورا ظهرنا . وعندها بتبوظ الشغلة كلها .

وكتعبير عن التضحية وفي محاولة لاسترضاء امه وابيه وافق ان يقضي معظم الليالي في البيت ، وان ينام ايضاً ، رغم « ان الشقة محجوزة في الفندق » .

في الليالي التي قضاها غزوان في البيت ، والتي غالباً ما تطول وتمتد ، وكانت تقتصر عليه وابيه ، بعد ان تنسحب امه « لاني نعسانة ، ولان كلامكم ما يخلص » في هذه الليالي جرت احاديث كثيرة ، اكتشف الحكيم من خلالها «ان الدراسة في اميركا افادت غزوان وغيّرته كثيراً» فقد حدّثه ان المرحلة الجديدة ، خاصة في السنوات الأخيرة ، غيّرت كثيراً في المفاهيم السياسية والعلاقات الدولية ، وموران الآن تعني شيئاً هاماً للولايات المتحدة وللغرب بصورة عامة ، لموقعها ولامكانياتها البترولية ، وللدور الذي تلعبه في المنطقة ، ولذلك انتقل مركز القرار من الداخل الى الخارج ، « أما مسألة غرفة تجارة، يا بابا، او مسألة العلاقة بين فلان وعلان ، فانها لا تُعني شيئاً » . واوضح له ايضاً ان اهمية المنطقة ، باعتبارها تمثل مستقبل العالم ، لا يمكن ان تترك بايدي مجموعة من الشيوخ والامراء البدو ، « لان القضية اكبر واخطر من ذلك ، تماماً كما لا يمكن ان تترك مسألة الحرب ، اية حرب ، يقررها مجموعة من الجنرالات ، كما قال احد الفلاسفة » .

والحكيم الذي انتفض اكثر من مرة ، وكأنه يطرد النوم عن اجفانه ، وهو يستمع الى ابنه ، فوجيء بما يسمعه . كان يريد ان يحدثه عن نظرية المربع ، عن التأملات والنتائج التي توصل لها ، لكنه يجد ان عقل غزوان نمط آخر ، « وربما لا يدرك البواعث العميقة والكامنة في الانسان » وحاول ان يتذكر بعض النظريات وكيف انها عجزت عن تفسير السلوك الانساني ، ولذلك فشلت . « أما هذه الاميركا فانها معجزة . والا كيف استطاعت ان تسيطر على العالم ؟ » .

كان الحكيم مشوشاً مضطرباً ، فما يسمعه من كلام لا يقنعه بالمقدار الكافي ، لكن ما يراه من نتائج لا يترك لديه اي شك . اما ذلك القول الذي نسبه غزوان الى احد الفلاسفة ، حول ان الحرب اكبر واخطر من ان يقررها العسكريون ، فقد جعله في شك كبير ، ان ما يقوله ابنه مجرد كلمات تعلمها

على مقاعد الدراسة ، وربما رددها احد المجانين الذي يدعي الفلسفـة ، والا من يقرر الحرب اذن ومن يخوضها ويقرر نتائجها ؟

ومثلما كانت اكثر المناقشات تبدأ بنقطة ثم تتشعب وتتداخل ، وغـالباً مـا يُنسى كيف بدأت او ماذا كان يراد منها ، فان الحكيم نسي قول ذلك الفيلسوف المجهول ، لكنه لم ينس ما يحيط به من هموم ومتاعب يـومية ، كـان يريـد ان يعرف مستقبل موران ، إذ على ضوء ذلك يعرف كيف يسير وكيف يتصرف ، وغزوان الذي لا ينفك يؤكد ، وبشكل متزايد ، ان اتخاذ القرار يتناسب تناسباً عكسياً مع الاهمية في العلاقة بين الداخل والخارج ، فكلما تزايدت اهمية بلد ما اصبح اقل قدرة على التقرير ، ولذلك يجب ان لا يشغل ابوه نفسه بما يعتبـره هموماً . والحكيم الذي سلّم ، ظاهرياً ، بما يقوله ابنه حاول ان يتذكـر كيف كان يفكر عندما كان بعمره ، اية افكار سيطرت عليه ، وكيف كـان ينظر الى الحياة والناس ، ثم كيف تغير سنة بعد اخرى ، ومـا اضافتـه اليه الحيـاة من تجارب ومعارف ، وكيف ان هذه التجارب والمعـارف لا تختلف عما تعلمـه في الجامعة فقط وانما تناقضها . قال لنفسـه في محاولـة الوصـول الى نقطة تـوازن « عقله ، الملعون ، برّاق ، برنجي ، ولا بد ان يكون سياسيـاً بارعـاً ، لكن بعد ان تصقله الحياة وتدربه » .

واذ ادرك غزوان ان اباه لا يثق كفاية بما يقوله ، فقد قال مداعباً :

ـ المهم يا بابا ان تتم هذه الصفقة ، لانها ستكون خميرة جيدة ، وسـوف تفتح لنا آفـاقاً لا نهايـة لها ، لان السلاح في هذه المـرحلة ولهذه المنـطقة اهم شيء !

وشارك الحكيم ابنه الابتسام ، وكان متأكداً ان الجهد الذي بذله في تربيته اخذ يثمر ، ولا بد ان تكون النتائج عظيمة للغاية .

لقد جرى هذا الحديث في إحدى الليالي، أما في الليلة التالية، وقد شارك سمير في جزء منها ، وبدا الجميع في حالة من التألق والرضا عن النفس ، فقد اخذ الحديث منحى آخر ، اذ تكلم الحكيم عن ذكرياته ، واشار عرضاً انه منذ وقت مبكر يسجل يومياته ، « طبيعي الاحداث الكبيرة والهامة وليس احداث

كل يوم » وان هذه اليوميات سوف تساعده في كتابة مذكراته « التي ستكون سجلاً لتاريخ المنطقة خلال الخمسين سنة الأخيرة » وسمير الذي اطرى بحماس طريقة الحكيم في تسجيل اليوميات ، توقع ان تكون المذكرات على جانب كبير من الاهمية . أما غزوان فقد كان نمطا آخر من الافكار والسلوك ، قال ضاحكاً :

ـ تتذكر الالف دولار يا بابا ؟

ـ الالف دولار ؟

ـ اللي اعطيتني ياها يوم السفر . .

ـ اي نعم . . كيف لا اتذكر ؟

ـ صارت خمسة وعشرين ألف دولار خلال الكم سنة اللي مرت !

زقزقت وداد كعصفورة من كلمات ابنها وكانت مغتبطة بالجو العام ، قالت كطفلة صغيرة :

صارت عندك فلوس كثيرة يا ماما !

أما الحكيم فقد ابدى دهشة فاقت كل حد ، تساءل باستغراب :

ـ يعني الواحد بخمس وعشرين ؟

وافاض غزوان في شرح كيفية توظيف هذا المبلغ ، وكيف ان البنوك في State تساعد المستثمرين وتجد لهم فرصاً جديدة من اجل اعادة الاستثمار ، وانه نقل المبلغ ، مرة بعد اخرى ، من استثمار الى آخر ، بحيث اصبح بهذا الحجم ، وختم شرحه وهو يبتسم :

ـ اذا عرف الانسان كيف يوظف امواله ، كيف يشتغل ، يمكن ان يصير مليونيراً !

قال سمير وهو يهز رأسه :

ـ حاجة عظيمة خالص !

ـ انتم ضيعتم جهودكم واوقاتكم بين كتابة المذكرات والسياسة والف

قضية اخرى !

هكذا رد غزوان بمرح مخاطباً سمير ، لكنه يعني اباه ، وكأنه يلومه ؛ عند ذاك تأكد الحكيم ان ابنـه سوف يتفـوق عليه بـذكائـه وحسن تصرفـه ، وان الاشياء التي عجز عنها سوف يتولاها هو : قال في محاولة دفاع عن النفس :

ـ ظروفنا غير ظروفكم يا ابني . . . والدنيا تغيرت !

وفي اليوم قبل الأخير اقام الحكيم للوفـد دعوة كبيـرة في فندق الـرابية ، وقــد ارتأى غزوان ذلك « لان الجماعة ما ناسبهم اكل المنـاسف واللحم كل يوم ، هذا اولاً ، وثانياً : لازم تظهر بنظرهم ، يا بـابا ، شخصـاً مختلفاً عن اهـل موران ، والنقـطة الأخيرة ان الحفلة اذا اقيمت في الفنـدق ، في مكـان عام ، لا تخفى على احد» . اعجب الحكيم بالفكرة ، رغم انها ليست مألوفة في موران بالمقدار الكافي ، وشط به الخيال، اذ فكر في احدى اللحظات لو يعود الى الملابس التي كان يلبسها قبل استقـراره في موران ، وفكـر لو يلقي كلمـة الترحيب باللغة الانكليزية، لكن لغته من الضعف والارتباك الى درجة يمكن أن تثير السخرية، وقد يصل ذلك إلى حساده، أما لو القى كلمته بالالمانية فيمكن ان يساء فهمه ! وفكر طويلاً بالمدعوين ، اراد من هذه المناسبة رداً موجعاً لخصومه ، لحاسديه ، ولذلك استبعد دون تردد ، ومنذ البـداية ، اسمـين : الغامدي لانه لا يعترف بصفته كرئيس لغرفة التجـارة ، والثاني ، سعيـد لانه يريد ان يقول للقاصي والداني ان العلاقة بينهما انتهت تماماً . أما رضائي فقد دعاه من قبل ، وسوف يدعوه الآن ايضاً ، ويمكن لهذه الدعوة ان تشكل محاولة لشق غرفة التجـارة او خلق قوى متعـارضة داخلهـا ! وفكر الحكيم بـآخرين كثيرين ايضاً ، لكنه استبعد واضاف ، ثم اعاد النـظر مرة واخـرى ، الى ان استقر على قائمة يعتبـرها لائقـة ، « لان الكرم ليس بـالضخامـة او الكثرة ، وليس بـالاسراف ، وانمـا بـالبشـاشـة ، بحسن التصـرف ، وبتلك اللمسـة الحضارية ، خاصة مع مجموعة من هذا النوع » .

كان الحكيم وغزوان مثل عريسين وهما يستقبلان المدعوين عند باب قاعة الطعام الرئيسية ، وخلال الخمس والاربعين دقيقة التي سبقت العشاء ، والتي

كانت عبارة عن حفلة كوكتيل ، تبادل خلالها المدعوون الاحاديث وتم التعارف بين اكثرهم ، وقد لعب غزوان ونائب رئيس الوفد ، الذي يتقن العربية ، دوراً بارزاً في التعريف والترجمة ، أما الحكيم فقد كان مثل والد العريس ، حيث وزع بشاشته واهتمامه على الجميع بقدر متساوٍ تقريباً ، وان وقف مع رئيس الوفد ونائبه فترة اطول ، وتبادل معهما احاديث متعددة ، وقد اشار ، ولا يعرف كيف عنّ له ذلك ، انه بصدد وضع كتاب عن تاريخ موران ، وهذه الاشارة بالذات استوقفت نائب رئيس الوفد ، وابدى اهتماماً ملحوظاً . أما الكلمة القصيرة التي القاها الحكيم على مائدة العشاء ، وقد القاها ارتجالاً ، وضمنها نكتة ، فقد ادخلت السرور على نفوس المدعوين ، حتى الاميركيين ، عندما ترجمها غزوان ، والذي تكلم بنفس نبرة ابيه ، مما لفت نظر اغلب الضيوف واثار اعجابهم !

تحدثت موران عن حفلة الحكيم فترة طويلة ، ووصلت اصداؤها الى قصر الغدير ، خاصة وان عدداً من الامراء ورجالات القصر حضرها ، ومما جعل الحديث عنها يستمر ويطول ، ويأخذ مناحي شتى ، انه وقعت خلالها او عقبها امور عديدة : فخلال فترة الكوكتيل ، ولا يعرف كيف ، وضعت تحت اطباق المدعوين ، في قاعة الطعام الرئيسية ، منشورات ضد اتفاقية السلاح وضد الأميركيين. كان تحت كل طبق منشور طوي بعناية ووضع باتقان ، حتى انه لم يلفت نظر الكثيرين اول الأمر . أما عندما فتح احد المدعوين المنشور وقرأ بعض ما ورد في سطوره الاولى ، فقد خاف وتلفت ، خاصة وقد رأى تحت الاطباق ، امامه ، والى جانبه ، منشورات مماثلة . وكانت المحاولة الأخيرة في جمع المنشورات ، بعد ان اكتشفت ، غير ذات جدوى ، فالذين لم يعرفوا عرفوا ، والذين لم يريدوا ان يحتفظوا بها فعلوا ذلك ، وقد سبب هذا احراجاً مؤقتاً للحكيم ، لكنه تدراكه بنكة رواها في ظل التساؤل والذهول ، مما ادى الى تجاوز الموضوع . الأمر الثاني الذي سبّب احراجاً متأخراً ، اي بعد انتهاء حفلة العشاء ، صالح الرشدان وطبله ، فدوي الطبل الذي كان يصل المدعوين ، اثناء العشاء ، بوقع منتظم ، وعندما سأل احد الاميركيين عما يعني ولماذا بهذه القوة ، فقد ارتبك غزوان للحظات ولم يعرف كيف يجيب ، أما بعد

ان تـرجم السؤال لابيه ، فقـد دارت عيناه دورة سـريعة ، وكـأنه يبحث عن سبب ، ثم قال وهو يبتسم :

ـ عرس من اعراس موران !

ومـا كاد غـزوان يترجم حتى اضـاف الحكيم وقد تحـولت ابتسـامتـه الى ضحكة :

ـ والطبل في الاعراس هو القائد ، هو السيد .

قال الزوبعي باستنكار ودهشة :

ـ لكن اليوم ما هو يوم الخميس ، يا حكيم !

ـ بمـوران صارت كـل الايام خميس ، يـا ابو عمـران ، بوجـود صـاحب الجلالة المفدى !

هكذا رد الحكيم ، وقد بدا متألقاً مثل ديك بعد مطر خفيف ، وعندمـا ترجم هذا الحوار للاميركيين بدوا مسرورين للغاية، وقد شاركهم الآخرون هذا السرور . أما عندما كان الحكيم يودع ضيوفه عند الباب الخـارجي للفندق ، فقد كان صوت صالح ، بين دقة طبل واخر ، يأتيه واضحاً ، كان يقول :

ـ بشّر القاتل بالقتل والسارق بالفقر .

كان يقول ذلك بنغم مع دقات الطبل ، ثم يدّق بقـوة ويغير النغم وهـو يدور :

ـ اليوم الاسود يوم جيتنا وشفناك . . واليوم الابيض يوم تعطينا قفاك .

ويشير إلى الحكيم وهـو يترنم ويضحـك ، وبعد ان يـردد المقـطع الثـاني بسخرية ينتقل الى نغم جديد :

ـ ويا من تعب ويا من شقي ويا من على الحاضر لقي .

عندما يردد هذا النغم يصبح ساخراً وحزينـاً في آن واحد ، وفجـأة تتغير نبرة صوته ، تصبح سريعة جادة وهو يردد :

ـ ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع .

والحكيم الذي بدا محرجاً للكلمات التي يسمعها ، او للشتائم التي توجه اليه ، حاول بجهد ان يبعد عن وجهه ، عن سمعه ، عن انظاره وانظار الآخرين ، هذا الذي جاء ليفسد كل شيء. واهل موران من المدعوين الذين يعرفون صالح الرشدان ، او الذين رأوه في شهر من شهور رمضان السابقة او في احد العيدين ، يدق طبله ويجمع الفطرة او العيدية ، لم يتصوروا انه يعرف الشتائم التي يقولها الآن ، او السخرية المرة التي تنزف من كلماته ، واستغربوا اكثر انه يستعمل طبله في هذا الوقت من السنة ، او في هذا الوقت من اليوم ، وعندما وقف قربه بعض المدعوين يسألونه او يداعبونه . . لماذا اختار هذا المكان أو هذا الوقت فقد كانت كلماته جاهزة :

- لازم الواحد يقول للاعور اعور بعينه ، حتى يعرف ويعرف الناس ، ويشير الى الحكيم :

- - وهذا الظالم ما يشوف حدبته ، يشوف حدبة غيره ، ولازم هالحين نقول له ويشنْهو

تمنى الحكيم لو أن هذه الأمور لم تحصل ، وتمنى لو أن حماد لم يغب ، لو كان حاضراً لعرف كيف يتصرف ويمنع هذا الشغب ، هذه الاساءات الصغيرة ، والتي ربما كان وراءها سعيد بالذات ، لكي يفسد عليه حفلته ، ولكي يؤكد له أنه موجود وقادر على الانتقام! وتمنى أيضاً لو أنه أقام هذه الحفلة في بيته . قال لنفسه وهو غارق في المقعد الخلفي لسيارته ، بعد أن ذهب غزوان ليوصل الوفد ، على أن يلتحق به «الحسد رأس مال اللئيم ، ولا بد أن ننتقم من هذا الجاحد سعيد ، لأن هذه الأشياء كلها من فعله» وحاول أن يستعيد ، بأشكال مختلفة وقائع الحفلة : كيف بدأت ، ماذا قال وكيف قال ، والآخرون ، كيف كان رد فعلهم ، لكن فكره تركز حول أمر واحد : رد فعل الأميركان .

قال حماد لما بلغه ما حصل في حفلة الحكيم :

ـ صالح مايغني من راسه . . يا جماعة !

وهز رأسه وهـو يستعرض الـوجوه والاحتمـالات ، واضاف كـأنه يكلّم نفسه :

ـ هذا الطبل ما هو طبل رمضان والعيدين ، وما هو طبل لله !

وحين اشار مساعده الى ضرورة اعتقال صالح وتأديبه رد عليه بسخرية :

ـ لا . . اتركـوه ، ما يخالف ، خلّه يطبّل ، لان الصوت يدلنا من اي بير طالع ، وذاك اللي نريده .

ظل رد فعل حماد ازاء ما جرى هادئاً بل اقرب الى البرود وعدم الاهتمام ، والكثيرون الذي توقعوا عقاباً قـاسياً لصـالح ، استغـربوا انهم رأوه في الأيـام التالية يتجول في الشوارع مزهواً ، ولا يتـردد في ان يعيد عـلى مسامـع الذين يسألونه الكلمات التي قالها عند فندق الرابية ، وفي وجه الحكيم بالذات .

قال الحكيم لحماد يعاتبه :

ـ كان لازم تحضر يا ابو راشد ، اولاً : الجماعة سألوا عنك ؛ وثانياً كان ممكن ان تمنع الهيصـة اللي صارت !

ابتسم حماد ، وحاول ان يكتفي بالابتسامة جواباً ، لكن نظرات الحكيم المحددة المتسائلة اضطرته ان يتكلم :

ـ تعرف اشغالنا ، يا ابو غزوان ، وبعدين انا اغلب الحفلات لا احضرها ، وهذا ما هو من اليوم ، من زمان !

ـ وهذه الهيصة . . من برأيك وراءها ؟

ـ الله اعلم . . يا ابو غزوان !

ـ تقديرك ؟

ـ لا اعرف .

ـ يمكن تكون غرفة التجارة ؟

كان يريد ان يقول سعيد ، لكنه أثر هذا التعميم ، ردد حماد باستغراب وسخرية :

ـ غرفة التجارة ؟

ـ هيك قلت لنفسي ، لاني تعمدت إن لا ادعو جماعة الغرفة بعد اللي صار في الانتخابات الأخيرة .

ـ وكّل الله يا رجل ، الجماعة كلهم طيبين واجاويد ، وظني ان لا احد منهم يفكر ، مجرد تفكير ، بقضايا من هذا النوع .

ـ وهذا الشحاذ اللي كان يطبل ويزمر عند الباب . . من وزّه ؟ من حط بجيبه كم قرش وقال له : طبل وسب واشعل امواتهم ؟

ـ هذا خبل ، يا ابو غزوان ، وما ينأخذ بكلامه !

ـ لازم تمسكوه ، تقرروه ، لانه اول الخيط ، وبعده المسبحة كلها تكر .

ـ ما اريد اسوي من هذا الخبل بطل وشهيد ، إريد اكظّ الناس اللي هم وراه .

ـ لكن اذا قبضتم عليه يوصلكم .

ـ لا تخف يا ابو غزوان . . نصل .

وانتهى الحوار بين الاثنين حول الموضوع . لكن الموضوع لم ينته .

فالحكيم الذي تأثر اشد التأثـر في تلك الليلة ، ثم في الليالي التي تلتها ، وكان علـى يقين راسـخ ان سعيد وراء الـذي جرى ، مـا لبث ان اصبح اقـل ميلاً لاعتباره وحده المسؤول . لان الافكـار التي بدأت تمـلأ رأسه والشكـوك التي تـراوده ، جعلته يحس ان القضية اكبـر واخـطر من ذلـك ، فسعيـد يمكن ان يعاكسه شخصياً ، يمكن ان يتحدث ضده ، أما هذا الذي جرى فانه يتجاوز كل حدود ، واخطر من مجرد خصومة او تنافس بين اثنين . وحماد الـذي كان مستعداً للحوار مع الحكيم في فترات سابقة ، او على الأقل لان يصغي اليه ، استغرقته الاعباء والهموم الجديدة ، ولذلك انقضت فترة دون ان يرى احدهما الآخر . حتى الرقم الجديد لتلفـون حماد الخـاص ، لم يحصل عليـه الا بضعة اشخاص ، ولم يكن الحكيم واحداً منهم ، ولذلك لم يتحدث أحدهما للآخر الا مرات قليلة . كان عبد المولى ، المهذب ، يزداد تهذيباً حين يعرف ان الحكيم على الخط ، فيبلغه ان ابا راشد غير موجود ، او انه سافر قبل ساعات قليلة . ويزداد غيظ الحكيم وخوفه معاً ، فلا يعرف كيف يتصرف ، او باية طريقة يرد على هذا التجاهل والاهمال . اكثر من ذلك ، اصبح يعيش تحت هـاجس ان قوى شريرة وغامضة تلاحقه وتستهدفه ، وقد تقضي عليـه ، دون ان يعـرف طبيعة هذه القوى او من وراءها . ومع ذلك لم يكن مستعـداً لان يبوح بهـذه المخاوف لاحد ، لانه لا يجرؤ ولا يملك الدليل . واسف انه لم يخص نفسه ، اثناء تقسيم الهدايا ، بقطعة سلاح « السلاح يونّس ويشجع الانسان » ، لكن عاد واعتبر القضية اكبر من ان تواجه بسلاح فردي ، فالمؤامرة كبيرة ، والقوى التي تترصد به من المكر والذكاء بحيث انها تموه نفسها باستمرار وتأخذ اشكالاً ووجوهاً لا حصر لها ، حتى سعيد لا يعدو ان يكون اداة من الادوات .

همـوم حماد كـانت من نوع مختلف ، فمنذ أن وقف صالـح عند فنـدق الرابية ، تبدو له موران ، التي ارادها ساكنة مثل مقبرة ، وكأنه لا يعرفها او لم يعش فيها ، مخادعـة ماكـرة ، بل اكـثر من ذلك تبـدو له خـطرة ، لكنه كتم غيظه ، لان صالح اقل من ان يكون خصماً ، ليس هذا فقط ، يريد ان يعرف ماذا ومن وراء المنشورات ، من وزعها وكيف ، ولهذا فـان صالـح مجرد طعم وسوف يصيد به الآخرين . سوف يتركه يسرح كما يشاء . لن يعترضه ولن يدع

احداً يعترضه ، لكن سيراقبه من بعيد ، حتى اذا وضع يده على خصمه سيضربه بلا شفقة وبلا رحمة ، لكي يؤدب موران لسنوات وسنوات .

ولانه خطط بهذا الشكل فلم يكن في عجلة من امره « فالطريدة اذا اطمأنت وشعرت بابتعاد الخطر يكون صيدها اسهل، أما الغشيم فلا يصيد ولا يخلي غيره يصيد » هكذا قال لنفسه ، أما الآخرون فقالوا ان صالح لا يزال يجول في الأسواق يشتم ويتكلم وكأن ليلة الرابية قتلت الخوف في قلبه ، فيضحك حماد ويقول برخاوة :

ـ يا عباد الله اتركوا ابن الرشدان ، يكفيه ان الله طارده من نعمته !

وحين يقولون انه لا يوفر شيئاً ولا يترك احداً يرد :

ـ خله ينفث اللي بصدره ، لانه اذا ما نفث راح علينا الخيط والعصفور !

وينقضي شهر وشهر آخر ، وحماد لا يتحرك ، لا يُسمع صوته . أما الحكيم الذي امتلأ بالخوف من المؤامرة التي تستهدفه ، ولا بد ان تقضي عليه بين يوم وآخر، فقد اصبح الآن أقل شعوراً بالخطر، فيطمئن قليلاً، تعاوده الثقة ، خاصة وان سمير انجز قراءة الكتب التاريخية والجغرافية حول موران ، والتي اجّل قراءتها مرة بعد اخرى ، بحجة أعمال طارئة كلفه بها مطيع ، كما صدف ايضاً ان تقرر قيام السلطان بجولة تشمل انحاء السلطنة ، مثلما فعل اول اعتلائه العرش ، على ان يكون الحكيم ومطيع ضمن المرافقين ، وتدارك الحكيم الأمر فاضاف سمير ايضاً .

كانت الجولة ، بمعنى ما ، رداً على جولة الامير فنر ، وللتدليل ايضاً على مدى الاهتمام الذي يوليه السلطان لرعاياه . وقد اعتبر الحكيم الجولة مناسبة لانجاز عدة امور في آن واحد : يمكن من ناحية ان تتم لقاءات عفوية تساعد سمير على صياغة مناسبة للسيرة « لان الفنانين يحتاجون الى اجواء موحية ، وهذا العمل ، في الجانب الاساسي منه ، عمل فني » هكذا قال الحكيم لنفسه ؛ ويمكن ان يفهم الظروف الجديدة بعد وصول الامير فنر ، ثم بعد جولة البادية ، لان هذه الجولة اقلقته ولا تزال ، خاصة وان مؤامرة الرابية ، هكذا اصبح يطلق على تلك الليلة ، تبدو له غير عادية ، وربما بعيدة الغور ، فاذا

كانت امور معينة فاتته ، لسبب او لآخر، فلا بد ان تكون قد وصلت الى السلطان ، « لا يمكن ان يخفوا عنه صغيرة او كبيرة ، ومن حديث الى آخر ، لا بد ان اصل الى نتيجة ، أما بالنسبة اليّ فربما يتحفظون او ربما لا يريدون اخافتي اكثر مما ينبغي » . أما الأمر الأخير الذي يريد الوصول اليه فهو التأكيد على التوصية التي رددها غزوان عشرات المرات ، حول ضرورة ان تبعث السلطنة ، بين فترة واخرى ، برسائل استفسار حول صفقات السلاح والمطالبة بتقديم مواعيد التسليم ، بغض النظر عن النفقة الاضافية ، لان من شأن هذا الالحاح ان يقوي مركز غزوان في الشركة ، ويمكن ان يساعده على ابرام صفقات اضافية ، سواء مع السلطنة او مع دول اخرى . وقد اعتبر الحكيم ان الظروف التي ستتوافر في جولة مثل هذه لا بد وان تساعده على تأكيد الطلبات التي اشار اليها غزوان .

ما كان الحكيم ليصل الى هذه القناعات والمشاعر لولا وداد ، فبعد الكآبة والعزلة التي سيطرت عليها منذ عودتها ، بدت ، في نهاية الشتاء ، في حالة من المرح والعنفوان ذكرته بشبابه او ببداية ايام الزواج ، لانها بمقدار ما حاولت الابتعاد عنه ، او التهرب من « الواجبات » خلال الفترة الماضية ، وقد عزاها الى التعب او المرض ، فقد بدت في هذه الفترة امرأة مختلفة : كانت تقبل عليه بلهفة ودلال، وكانت تبدي من الصبا ما خفي عنه طوال شهور ، لا بل سنوات . هذا عدا عن المرح ورغبة المشاكسة ، واذا كان قد تقبل هذه الامور بتحفظ ، اذ ظنها نوبة او حالة من الحالات الطارئة ، فان استمرارها وتزايدها ، اعادا اليه الثقة بنفسه وبكل ما حوله . حتى فكرة المؤامرة التي سيطرت عليه اعتبرها هاجساً من الهواجس التي تستبد بالانسان نتيجة العزلة والوحدة ، او نتيجة عدم فهم الآخرين له . أما حين انتبه الحكيم للجو ، فقد اعتبر ان الطبيعة ، حسب نظرية المربع ، تنشط وتتغير في هذه الفترة من السنة ، وهي بمقدار ما تفجر الحياة في النبات والحيوان ، فانها لا تغفل عن الانسان ايضاً !

وبكثير من الرغبة والانفعال بدأ يتكيف مع حالة وداد الجديدة ، وشعر ان جسده وروحه يستجيبان له ، وقد ساعده على ذلك ايضاً ان سمير تعهد له ان

ينجز « السيرة » خلال فترة قصيرة : « أنــا ، يـا سعادة البيـه ، اذا كنت في حالة انسجام ، واذا توفرت لي المواد الاولية ، وكنت عايز ، يمكن ان اكتبها في فترة قياسية » .

كانت وداد تريده ان يسافر ، ان يغيب عن وجهها ، لان التحدي الذي وضعته لنفسها جعلها لا تنام في اكثر الليالي . الآن تريد ان تختبر قواها ، ان تكتشف ما اذا كانت لا تزال قوية وقادرة على ان تفرض وتقرر ، وانها لا تزال قادرة على الانتقام ايضاً ، كما كان الحال في كل الاوقـات السابقـة . يجب ان تدخل هذا التحدي ، وان تظفر ، لن تخاف ولن تتردد .

وسمير؟ انه الآن شخص مختلف ، فبعد ان عاد الى موران ، عاد ، من جديد ، الشخص الذي كان قبـل السفر ، لكن صـدود وداد ، او بالاحـرى قسوتها ، جعله لا يعرف كيف يتصرف . انقطع عن الحكيم فترة من الزمن ، انشغل بأمور عديدة تراكمت خلال الصيف ، كلف بمهمات عاجلة من اجل اصدار صحيفة جديدة ، لكن شعـر ايضاً انـه لا يستطيـع ان يبتعد اكـثر من ذلـك . ودون ذكاء كبـير ، ولانه يـدرك نقاط ضعف الحكيم ، فقـد استطاع العودة من جديد الى السيرة ، او الى « نسر موران » .

وسلمى.؟

عادت من رحلة الصيف مليئة بالاحلام والرغبات ، لكن موران خذلتها مرة اخرى ، حاصرتها بالمخاوف نتيجة قصص أمها، والتي لا تنفك تحـذرها وتنبهها من هؤلاء الرجال، وكيف انهم مثل الذئاب لا يوفّرون شيئاً او واحداً، خاصة البنات الصغيرات ! كانت وداد ، وهي تتحدث الى سلمى ، ترى شبح سمير، تراه متربصاً، منتظراً، ولا بد أن ينقض عليها ويفترسها، وكانت تقصده بالذات ، فبعد ان شبع منها اخذ يتلفت حواليه ، ولم ير الا سلمى ، فهل تسمح له ان يفترسها ؟ هل تقدمها اليه ؟ كانت مستعـدة لان تفعل اي شيء فقط لتبعده عنها .

أما عندما تقررت جولة السلطان ، والحكيم بمعيته ، وكذلك سمير ، فقد اعتبرت وداد ان الفرصة اصبحت مهيئة اكـثر من السابق لان تستعيـد « هذا

الخائن الجبان » الذي حاول ان يهرب منها ، ولا تعرف لماذا برقت في مخيلتها ايضاً صورة السلطان : بضخامته ، بضحكته التي تشبه الصهيل ، وبتلك النظرات التي لم تستطع ان تفهمها او ان تفسرها ، قالت لنفسها « لا احد يستطيع ان يفهم شيئين في موران: السياسة والرجال» وتذكرت الحالة النفسية التي المت بالحكيم خلال الفترة الماضية ، كان يتحدث بغموض عن المؤامرة ، وعزلة السلطان ، وعن الكتاب الذي سيضعه بالتعاون مع سمير ، لكن لم تفهم شيئاً ابداً !

شمران الذي انقطعت علاقته بصالح الرشدان منذ فترة طويلة ، لم يتردد ، بعد ان سمع بما حصل ليلة الرابية ، وامام الكثيرين ، في ان يعانق صالح بحرارة عندما جاء الى مقهى زيدان . فعل ذلك بكثير من الود ، وكأنه يعتذر عن الفترة السابقة ويلوم نفسه انه كان قاسياً تجاهه بهذا المقدار . أما صالح الذي انفعل ايضاً ، ولم يستطع ان ينظر الى وجوه الرجال حوله ، فقد كان اقرب الى الخجل او الاحراج ، رغم انه منذ تلك الليلة ظل يمشي مزهواً فخوراً في شوارع موران ، وكأنه انتقم للجميع .

تذكر الرجلان ، وتذكر معهم آخرون ، موران قبل سنين : كانت وادعة ، راضية ، وكان الناس ، رغم صعوبة الحياة ، يدبرون رزقهم ، ثم يجدون وقتاً لان يتحدثوا ، لان يسمعوا القصيد ، وفي بعض الليالي لان يغنوا ويرقصوا . هكذا كانت الحياة وكانوا راضين . أما منذ ان جاء الاميركان ، ومنذ ان وجد النفط ، فقد تغيرت الحياة والبشر ، انقلبت رأساً على عقب . حتى المال لم يعد له ذلك المعنى الذي كان له ايام السوق . أما الغرباء ، والذين اصبحوا اكثر من اهل موران ، فانهم اخلاط من البشر ، بعضهم يأتي ويذهب دون ان يحس به احد ، وآخرون جاءوا ليبقوا . وحتى هؤلاء كان من الممكن احتمالهم لو انهم بشر حقيقون ، لكنهم ليسوا كذلك . انهم جاءوا ليسرقوا ، ليستبّدوا بالآخرين ، ليسخّروهم ، ولا يشبعون ايضاً .

كان الحديث يجري هكذا ، وصورة الحكيم لا تفارق مخيلة اي منهم ، أما بعد الذي فعله صالح ، والذي انتقل في موران مثل انتقال الضوء ، فقد احس

اكثر الناس ان هذا ما كان يجب ان يُعمل ، رضي القصر او لم يـرض، وذهب الخيال باناس كثيرين ان هذه الرسالة التي بلّغها صالـح ، وعرفت بهـا موران كلها ، اذا لم تصل او لم تجدِ ، فلا بد ان يفعلـوا مثلما فعل . وآخرون قالوا ان مـا فعله ابن الرشـدان لن يغيّر شيئـاً ، ولن يثني الحكيم وامثـالـه عن شـراء الاراضي وتشييد العمارات ، رضي الناس ام غضبوا ، وبالغ هؤلاء فقالوا ان الحياة التي نعيشها اليوم افضل من التي ستأتي ، « لان الخير بالجايات » .

شمران يسمع ، يتذكر ، يذّكر الآخرين ، وبين لحـظة واخرى ينـظر الى الرجل الذي امامه : كم غيّره الزمن ، كم اتعبه ، لكنه لم يستطع ان يذّله . فتلك النظرة العنيدة ، الاقرب الى الشر ، لم تفارق صالح ابـداً ، لا . . انها الآن اشـد وضوحـاً وقوة ، كـان في سوق الحـلال يتظاهـر بالغضب اكـثر ممـا يغضب ، وكان يعرف كيف يغفر للكثيرين او ينسى اساءاتهم ، أما الآن فقد زايله الخوف نهائياً ، بل واصبح مستعداً ان يفعل اي شيء .

ويتراءى لشمران وجه حماد ، يميل على صالح ويهمس باذنه :

ـ عدوك، بعد اليوم ، يا صالح ، ما هو الاملط ، ذاك اخذ منك حقـه وزود ، هالحين بحّر زين بابن المطوع ، تراه اذا نسيت ما ينسى !

ـ يخسا !

ـ تحزم للواوي بحزام اسد . . يـا صالح .

ـ اكثر من « النعمة » اللي عايشين فيها ، يا ابو نمر ، ما نلقى ! .

ـ برد الشتا . . . وغدر اللئيم توقه .

ـ والله ما عندي غير حياتي وعباتي ، يا اخوي ، يا ابو نمر .

وتغرق موران في همومها فتنسى هموم الامس ، وتبتعد صورة ليلة الرابية ، ويعود الحكيم بعد جولته مع السلطان قوياً ، اقوى مما كان من قبل ، وتظهـر صورته في الجرائد والمجلات : إلى جانب السلطان ، يتحدث اليه ، يهمس باذنه ، ولان نمر من القلائل الذين يقرؤون الصحف والمجلات فهـو الوحيـد الذي ينقل الى الآخرين في مقهى زيدان وفي السوق ما جرى ، فيسمع الناس

ويهزون رؤوسهم ، وينتهي كل شيء بالصمت ، او بشتيمة من صالح ، ان كان موجوداً ، او بكلمة مع حركة ذات معنى من شمران .

قال شمران لنمر ذات يوم :

ـ تراها بعد ما امطرت ، اللي شفناه البرق . . وبعده يجي الرعد والمطر !

لم يفهم نمر ما قصد اليه ابوه ، ظل منتظراً ، تابع شمران :

ـ ليلة الرابية ابرقت ، أما الرعد ، أما المطر فاما علينا او حوالينا واليوم او عقبه ولازم تتوقى !

ـ وليش توصيني يا بويه ؟

ـ عين الذيب ما تنام يا وليدي !

وشرح شمران لابنه ان حماد لن يسكت ولن يغفر ما حصل ليلة الرابية ، ولذلك يجب ان يتوقى وان يحترس ، وأنه يمكن ان يعمل اي شيء متذرعاً باسباب واهية او بوشايات كاذبة لينتقم ، ونمر الذي سمع وفهم قال كلمة سريعة :

ـ يا بويه . . ما قتلنا ولا سرقنا وما اظنك بخايف ؟

ـ الخوف ، يا وليدي ، مات بقلبي من زمان ، بس هالحين اتنشق رايحة المطر . . ولا بد تمطر !

قال حماد لنفسه « هذه الشغلة ما هي شغلة شمران . شمران وصالح قوم والسوق كله يعرف» .

ولم يتوقف عن التفكير والافتراض . حتى عمه شداد مرّ بباله ، لكن شداد مشغول بخيوله ، ولو اراد ان يخاصم الحكيم لفعل ذلك مباشرة ومنذ وقت طويل ، ثم ليس المهم ما فعله صالح « صالح عقله جوزتين بخرج ، كل من يقول خذ هذي القريشات وطبّل يقول له هات وحلّت البركة» المهم المنشورات : من طبعها ؟ اين ؟ وهل الامر يقتصر على المنشورات فقط ؟ قد يكون اليوم هكذا لكن غداً لا احد يعرف ماذا يمكن ان يحصل . وهو . . اين هو من كل ما يجري؟ لماذا لم يعرف من قبل؟ ورجاله هؤلاء الكسالى الثرثارون

يقولون له ان موران في عرس ، وان الناس لا يعرفون كيف ينفقــون الاموال التي حصلوا عليها ، وانهم لا يفعلون شيئاً اكـثر من الدعـاء لطويـل العمر . وهؤلاء الـذين يشتمون ، الـذين لم يتركـوا شيئاً الا وقـالوه في المنشـور الذي وزعـوه : من هم واين هم ؟ حتى الاميركـان عـرفـوا بـالامـر ، وهـو ، ابن مـوران ، الذي ينفق الامـوال بـالملايـين هنـا وفي كـل مكـان . . . كيف لا يعرف ؟

ومر في خاطره طيف نمر الجريدة ، قال لنفسه : « ابن شمران ما بيـه الا لسانه الطويل، وظني ان هذي السالفة ما هي بسالفته» ومع ذلك زرع قرب دائرة الجوازات واحداً آخر يكتب العرائض ، لعل « عـداوة الكار تخـلي نمر يطلّع اللي ببطنه». لكن انقضت اسابيع وبدل ان يصبح الاثنان عدوين صارا صديقين . اكثر من ذلك حين يأتي بعض الاشخاص طالبين من نمر انْ يكتب لهم او ان يتابع لهم معاملاتهم يرسلهم الى القحطاني « حتى يترزق ويظل » . وتصل حماد التقارير :

« نمر ما عنده الا قالت الجرايد . . كتبت الجرايد » .

أما حين سأل سعيد ما اذا سمع او عرف بما وقع في فندق الرابية ، ومن يحتمل ان يكون « وراء هذا الخبل ، صالح الرشدان » فقد رد سعيد بعـد ان ضحك من اعماق قلبه :

ـ سمعت . . وعرفت يا ابو راشد .

وضحك من جديد ، وتابع بلهجة مختلفة :

ـ اذا كنت تريد رأي ، فرأي ان الحكيم نفسه وراء العملية كلها ، هو اللي اعطى للطبال كم قرش وقال له : تعال ، سلّ الجماعة !

ـ خف ربك يا ابن الحلال .

ـ الحكيم . . وانـا اعرفـه مثل مـا اعرف نفسي : يحب العليـة ولـو عـلى خازوق !

ـ اترك هذي السوالف . . يا رجل .

ـ طيب ، يا ابو راشد ، الأيام بيننا وتشوف .

ـ والمناشير؟

ـ ها . . ؟ هذي سالفة ثانية !

ولم يترك حماد احداً او مكاناً ، حتى ما قاله سعيد ، واعتبره اقرب إلى المزاح والسخرية ، فكر فيه من جديد ، لكنه لم يتوصل الى نتيجة او الى بصيص نور . ولم يبق امامه الا صالح ، ومع ذلك تركه « الاحسن نمّد له الحبل ، لعل وعسى ، وهو تحت يدنا بكل وقت » ومثلما زرع عيونه في مقهى زيدان وقرب دائرة الجوازات ، كذلك كلف اثنين لكي يتابعا صالح كظله ، لكن دون ان يعرف ودون ان يحس ايضاً . لم يكتف بذلك ، زرع متسولاً قرب بيت صالح ، ولم يتردد اولاد صالح الصغار في اعطائه رغيف خبز كاملاً بين يوم وآخر .

في مرحلة من المراحل اعتبر حماد ان كل ما حصل مجرد لعبة دبّرها احد نزلاء فندق الرابية ، ولا بد ان يكون هذا النزيل الغريب منافساً او طامحاً ، وربما اراد ان يشوش على غزوان امام الاميركيين بشكل خاص ولذلك فعل مافعل . هذا التفسير الذي توصل اليه اراحه بعض الوقت ، لكنه لم يزل الخوف من قلبه ، فهو الذي يعتبر نفسه ليس مسؤولاً فقط عن امن موران وانما يهيء نفسه منذ فترة لان يكون احد رجال قلائل مسؤولاً عن امن المنطقة كلها من الماء الى الماء ، خاصة بعد ان اغدقت السلطنة بعطاياها على الكثيرين وربطت الكثيرين باجهزتها او بمصالح تجارية ومالية كبيرة ، ولان حماد بالذات تزايدت روابط الصداقة والعلاقة التي تربطه بمسؤولي اجهزة الأمن في المنطقة .

انه يشعر بالتحدي او بالاهانة ، فاذا كانت اقرب الاشياء اليه تفوته ثم لا يعرف من وراءها فان عناصره تخدعه ، او على الأقل ليست بالكفاءة التي افترضها. فينصرف مثل ثور الى اعادة تنظيم الجهاز وتوسيعه ، ويجري تنقلات واسعة ، كما يستحدث عدة دوائر جديدة . وبالاتفاق مع المستر اندورز تصل الى موران مجموعة من الاميركيين ، ويغرق حماد معها في دراسة اوضاع واحتمالات معينة . وخلال هذه الفترة لا يريد ان يرى احداً او ان يتصل به

احد . فيغير ارقام هواتفه في الدائرة ، في البيت ، ولا يُعرف ما اذا كان في موران او خارجها. والحكيم الذي يلاحقه في الليل والنهار ، متسائلاً ما « اذا قبضتم على المجرمين ، لان المسألة اكبر مما تتصور يا ابو راشد ، وما هي مسألة الدكتور المحملجي او غيره ، كاشخاص ، هذه مؤامرة تستهدف الاطاحة بالنظام ، وبالقضاء عليه من جذوره . . ومثل ما قلت لك : امسكوا هذا الأزعر كل شيء ينكشف » وحماد الذي يسمع على الهاتف ما يقوله الحكيم ، يهز رأسه ويحار كيف يرد عليه ، كيف يجيبه ، وينتهي الحديث بينهما بان يعد حماد باتخاذ الاجراءات المناسبة وبسرعة ، ويعد ايضاً ان يتصل به في وقت لاحق ، لكنه لا يتخذ اية اجراءات ولا يتصل .

في جولة السلطان ، والتي افترض الحكيم انه سيتوصل خلالها الى حل جميع المشاكل التي تقلقه ، او تلاحقه ، بما فيها معرفة « ابعاد المؤامرة » كان من المقرر ان يشارك حماد في الجولة ، لكنه اعتذر في اليوم الأخير قبل السفر ، « لاسباب طارئة » ، وكلّف نائبه بمرافقة السلطان ، على ان يحاول هو الالتحاق في اقرب فرصة ممكنة . والحكيم الذي شعر بخيبة امل لتخلف حماد ، كان لديه الكثير لكي ينجزه خلال الجولة ، ولذلك ما لبث ان تجاوز هذه النقطة ثم نسيها ، ولم يعد الى تذكرها الا في حران ، عندما اقترح على السلطان ان يصلي عصر احد ايام الزيارة في مسجد السلطان خزعل ، وبدا فخوراً وهو في معيته في المسجد الذي ساهم بتشييده، وكان يريد ان يقول ذلك لكل انسان ، وخطر بباله بشكل خاص حماد ، الذي لا يعترف بكرمه بالمقدار الكافي !

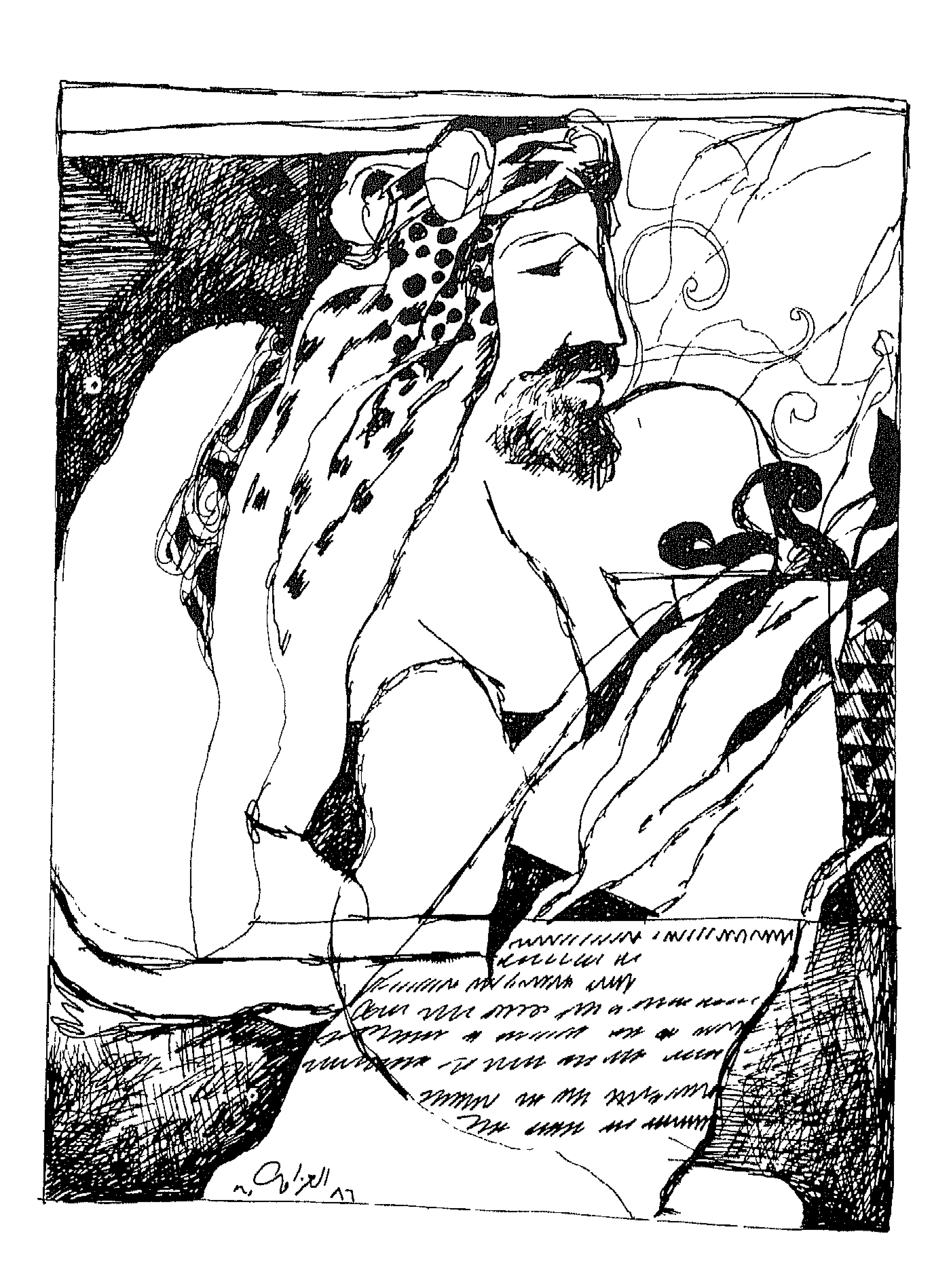
وبعودة السلطان الى العاصمة والاحتفالات الكبيرة التي رافقتها، بدا ان موران تعيش في عرس حقيقي ، وقد فاجأ ذلك السلطان ذاته والحكيم وجميع الذين رافقوه ، أما من اقام هذه الاحتفالات وكيف ، فان حماد كان وراءها ، لان احدى توصيات المجموعة الاميركية التي وصلت أخيراً، وضمن توصيات اخرى ، ان يشعر الناس ، وبكثافة، بوجود الدولة ، خاصة السلطان لتتولد في قلوب الجميع القناعة . . والخوف معاً !

على مسافة اربعة اميال من وادي الرها ، وبموكب من مئات السيارات ،

كان معظمها بلون واحد ، دخل السلطان الى موران ، بعد الاستقبال الحافل الذي جرى له على اطراف العاصمة ، وقد شارك فيه الاخوة الامراء ، وكبار رجال الدولة ، ونحرت خلاله عشرات بل مئات من رؤوس الغنم والجمال ؛ الوحيد الذي لم يشارك في هذا الاحتفال هو حماد ، فقد ظل قابعاً في غرفته الواسعة في الطابق الثالث من البناء الجديد الذي انتقلت اليه رئاسة جهاز الأمن والسلامة ، قبل بضعة شهور ، ظل هناك ليرقب كل شيء وليحمي الجميع ، وعندما مرّ الموكب ، اطل من وراء الزجاج ، دون ان يفتح النافذة ، وهز رأسه عدة مرات وابتسم ابتسامة صغيرة ، لم تفهم ابداً !

شمران العتيبي الذي لمح طرف الموكب عندما كان يخرج من مقهى زيدان ، وقف . نظر الى السيارات تمر بطيئة وكأنها تزحف . حاول ان يميز احداً بداخلها ليعرفه لكنه لم يستطع . قال في نفسه : « اكفان الموتى من ايام نوح بيض ، أما اولاد الحرام ، هفالغبر ، فحتى اكفانهم سودا مثل وجوههم » . وحين اقترب منه رجل كان يقف عند تقاطع الطريقين، وأشار اليه برأسه ، ودون كلمة ، ان يمشي ، فقد تحرك ببطء ، وقال كلمة لا يعرف ان سمعها الرجل او لم يسمعها ، قال :

ـ لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم !



بعودة السلطان بدا ان الحكيم حقق ما يـريد . . او اكـثر : فالمـودة التي اظهرها السلطان تجاهه ، ومنذ بداية الجولة ، لفتت نظر الجميـع ، واشعرت الحكيم ذاته باهمية اضافية وثقة لا حدود لها ، وهذه الثقة سهّلت له الوصـول الى الاشياء الاخرى . فكتاب « السيرة » « اصبح بالجيب » كما عبر عن ذلك سمير . اذ بعد عدة جلسات ، قاد الحكيم خلالها المناقشات والحديث ، دوّن سمير الكثير من الافكار والملاحظات ، كانت بمثابة « الكروكي » كما قال ، او بمثابة العمود الفقري للبناء الذي سيشـرع فيه فـور عودتـه الى موران . هـذا الانجاز ، بالاضافة الى الجو الذي رافق الجولة في جميع مراحلها شجعا الحكيم على ان يبحث في القضايا الاخرى : الوضع السياسي في السلطنة بشكل عام ، خاصة وان السلطان الذي بدا مهموماً في وقت سابق ، وكان شـديد القلق ، فقد اشار ان عودة أخيه بمثابة انقاذ له ، لان فنر يتمتع بكفاءة كبيرة ، والشيء الذي كان يقلقه في السابق هو امتناعه وعدم رغبته في المشاركة ، أما الآن ، وقد اصبح مرناً وراغباً ، كما تخلى عن عناده ، فان التعاون سيجعل وضع السلطنة في منتهى القوة ، واشار السلطان ، عرضاً ، الى اعتلال صحة فنر ، وبالتـالي احتمال سفره لاستئنـاف العلاج في وقت لاحق ؛ وهـذا سيفسح المجـال في ترتيب ولاية العهد بشكل معين . ولم يشأ السلطان ان يتوسع في هذا النقطـة بالذات ، خاصة وان ولاية العهد ظلت قضية معلقة ومؤجلة في آن واحد .

الأمر الآخر الذي كان الحكيم يـريد الـوصول فيـه الى نتيجة حـاسمة : السلاح . « لا يمكن ان تبقى السلطنة تحت رحمة الآخرين او تهديدهم ، يجب

ان تعتمد على مصدر واحد وموثوق ، وان تـرتبط بعقود طـويلة الامد : عشر سنين ، عشرين سنة . أما ان يبقى سلاحنا من مصادر عديدة ، ويتحكم بنا الموردون ، وهؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم ، لان لهم كل يوم قـولاً يختلف عن اليوم السابق . ليس هذا فقط ، يجب ان تؤكد السلطنة طلبياتها السابقة ، او حتى ان تطلب تقديم مـواعيد التسلم ، لان الاوضـاع في المنطقـة تقتضي ذلك » . والسلطان الذي لم يكن يحتـاج الى هذه الاسبـاب او الديبـاجة لكي يقتنع ، كان مستعداً للاستجابة ، قال لينهي المناقشة حول هذه النقطة :

ـ . . . واذا رجعنا موران ، يا ابو غزوان ، بالخـير والسلامـة ، وفي اول اجتماع يجمعنا مع وزير الدفاع ، ما عليك الا ان تذكرني ، وانشاء الله ما يصير الا اللي تقوله .

وانطلق السلطان يتحدث عن انطباعـاته عن غـزوان : كيف كان قبـل سنوات وكيف هو الآن ، ومـا يتوسم فيـه من مظاهـر الذكـاء والفطنـة ، اما « اتقان اللغة الاميركية فكأنه واحـد من ابنائهـا » واشار ايضـاً ، ان السلطنة بحاجة ماسة الى شباب من هذا النوع وبهذه الخبرة « ولا بد ان يرجع الى موران في فترة قريبة ، لانه اخير لنا ان يكون بجانبنا ، يشور علينا ويساعدنا من ان يكون بعيداً » .

والحكيم الذي لا يعرف كيف يشكر السلطان، او كيف يعبر عن امتنانه وتقديره ، يحس بالفخر والكبرياء : لقـد اجدى تعبـه . حتى التضحيات التي قدّمها بصمت ، ولم يكن يتوقع مقابلاً لها ، يجني الآن ثمارها ، وربما في وقت ابكر مما توقع .

ولم ينس السلطان السؤال عن العائلة ايضاً . لم يُسـمِّ احداً بـالذات ، لكنه بدا شديد الاهتمام ان يعرف وان يتأكد . الحكيم الذي اجاب باختصار وخوف ، على عادة اهل موران ، احس ، اكثر من قبل ، ان المودة التي يكنها له السلطان كبيرة غامرة وتفوق ما يكنه للآخرين .

نتيجة هذا الجـو لم ير الحكيم ضـرورة لان يسأل السلطان عن « مؤامـرة الرابية » ، اذ لا يريد ان يشغله او ان يقلقه بهذه التفاصيل ، اذ ربما لم تصله ،

« لانها في النتيجة تدبير حاسدين ومجانين » أما عندما سأل نائب حماد ، وقد مهّد لذلك ، بشكل غير مباشر ، فقد تلقى جواباً مختصراً للغاية :

ـ كنت يا طويل العمر في الولايات المتحدة ، وماسمعت عن الموضوع اي شيء !

وطوى الحكيم الموضوع « لان الرجال العظام لا تشغلهم سفاسف الامور » .

في اليوم الأخير لزيارة حران تحدث الحكيم امام السلطان وامام آخرين في الموضوع الذي يروق له كثيراً : حران ، كيف كانت يوم وصلها بسيارة شحن ، ولم يكن فيها سوى فندق صغيرة ، وبضعة دكاكين ؛ وكيف هي الآن . وتحدث عن مساهمته ليس في تأسيسها او اعمارها فقط ، تحدث عن « تاريخها » ايضاً . وقال انه يفكر بوضع كتاب كامل عن هذه المدينة العظيمة « بابنيتها العالية الحديثة ، بشوارعها المصممة على احدث طراز ، مستشفياتها التي تشابه مستشفيات هيوستن» وقال ان مما سيساعده في انجاز هذا العمل على احسن وجه : الصور ، فهواية التصوير التي رافقت الحكيم منذ ان كان طالباً في المانيا ، وما تزال الى الآن ، والصور التي التقطها خلال الفترة السابقة ، سوف تتكلم ، وفجأة خطر له ان أنسب عنوان يمكن ان يعطيه لمؤلفه هو : مدينة تتكلم .

قال وهو ينهي حديثه :

ـ وسوف اسمي هذا الكتاب مدينة تتكلم ، او مدينة تتكلم عن نفسها !

بدا السلطان مسروراً وفخوراً وهو يستعيد بذهنه ايضاً زيارته لحران قبل سنوات عديدة ، حين التقى الحكيم اول مرة ، وكيف يراها الآن ، سأل بمداعبة :

ـ واتذكر هديتك . . يا ابو غزوان .

ـ استغفر الله . . استغفر الله يا طويل العمر !

وخفض الحكيم رأسه خجلاً وتواضعاً ، وقال وهو لا يزال بهذا الوضع :

ـ هداياكم وافضالكم ، يا طويل العمر ، غمرتنا وغمرت الناس كلهم .

وصهل السلطان مثل حصان وهو يضحك لكلمات الحكيم ؛ فلما هدأ سأل من جديد :

ـ وهالحين . . يا ابو غزوان ، وما دمنا بحران ، اريد اقدم لك هدية ، فاطلب .

تطلع اليه الحكيم بنظرة خاطفة ، وخفض رأسه من جديد ، فلما خيم الصمت ، واحس ان السلطان لا يزال ينتظر رده قال وهو يبتسم :

ـ كل ما اريده ، يا صاحب الجلالة ، سلامتكم ورضاكم !

وبعد قليل وهو يرفع للسلطان وجهاً متضرعاً :

ـ اكبر هدية ، يا صاحب الجلالة ، ان ترضوا عنا وان تشملونا بنظركم . . هذا كل ما نريده !

التفت السلطان الى زيد الهريدي ، وغمز له بعينه ، ومعنى ذلك ان يذكّره ، فهز زيد رأسه دلالة الفهم والصدوع للامر ، ثم التفت الى الحكيم وابتسم !

وقبل ان ينقضي اسبوع على عودة الحكيم كانت سيارة كاديلاك سوداء قد وصلت الى قصر الحير ، وانضمت الى السيارات الثلاث التي كانت في القصر ، وصلت تلك السيارة مع رسالة موقعة من قبل جلالته ، أما الكلمات الأخيرة فكانت « . . وهذه الهدية للدكتور صبحي المحملجي وعائلته تعبيراً عن تقديرنا وشمولكم بعطفنا » . والحكيم الذي لم يستطع ان يخفي فرحه ، اذ نزل ، مع العائلة ، خلال اقل من ساعة مرتين ، لتفقد السيارة ، وللتأكد من بعض الامور ، فقد كان الجزء الاكبر من فرحه نتيجة فرح وداد الذي وصل حدوداً صبيانية ، فقد اصرّت ان تجلس في موقع القيادة ، رغم انها لا تعرف السياقة ، وغازلت الحكيم بالرغم من وجود سلمى ، وضحكت من قلبها ، وقالت انها لن تستخدم غير هذه السيارة في تنقلاتها ومشاويرها ، حتى لو سافرت الى الخارج . والحكيم الذي اصابته عدوى الفرح لاحظ ان وداد منذ وصل اصبحت امرأة اخرى : اصبحت مرحة ، ناعمة ، وشديدة التعلق

به . واذ تذكر الحكيم الفترة التي سبقت سفره ايضاً ، فقد اصبح على يقين ان « نظرية المربع » لا تفسر هذه الحالة فحسب وانما تثبتها ايضاً بشكل مؤكد . وللحظات عنَّ له لو ان الوقت يسعفه والظروف تؤاتيه لكي يتفرغ لمهمة كتابة النظرية ، لكن وجد ان اعباء كثيرة بانتظاره ، ووجد ان النظرية يمكن « ان تتخمر وتنضج اكثر من قبل فيما لو تركت وقتاً اضافياً » !

ولم ينقضِ شهر واحد على جولة السلطان حتى ارسلت عدة رسائل من قبل وزارة الدفاع تطلب تقديم موعد تسليم الاسلحة ، وتطلب ايضاً مجيء وفد لعقد طويل الأجل ، وقد حصل هذا بناء لامر السلطان ، ولعب حماد دوراً في ذلك ، وقد بدا في هذه الفترة شخصاً مختلفاً . صحيح انه لم يشارك في الاستقبال ، لكن لم تمض ايام قليلة حتى زار الحكيم اولاً ، ثم بادر الى الاتصال به عدة مرات ، وطلب منه رقم تلفون غزوان لكي يتصل به ، والحكيم الذي اعتبر ان تقصير بعض الاشخاص في اوقات معينة نتيجة الانشغال او الهموم ، او ربما نتيجة النسيان ، ليس دليلاً على الحب والكراهية ، .وانما لاسباب تخرج عن طاقة الانسان ، لم يستطع ان يفسر موقف حماد باكثر من « الاعمال اليومية . . والرجل اولاً واخيراً يغرق بشبر ماء ، لانه لا يفكر بالقضايا الاستراتيجية . ولم يدرس في معهد او جامعة . لكن مع ذلك عقله جيد» ولذلك قابل موقفه الودي بمواقف مشابهة، وفي محاولة لان يثبت له ان « الفلوس لا تعني له شيئاً » قرر ان يدعوه وان يدعو عدداً من الاصدقاء الى وليمة فاخرة في البادية ، وكاد ان يفكر بدعوة صاحب الجلالة السلطان ، لكنه ظل متردداً حتى اللحظة الأخيرة .

« المرأة . . نعم المرأة ، هي اصل الحياة والخصب والاستمرار » هكذا قال الحكيم لنفسه ، وهو يلاحظ مدى استجابة وداد وحماستها اثناء تحديد قائمة المدعوين ، وعندما ذكر ، عرضاً ، انه يفكر بدعوة السلطان اشتعلت ، وبذلت كل جهدها لكي يُسقط كل الموانع التي **تجعله** متردداً ، لان الرجل « اذا كان حبّ بيتنا وحبّ اكلي فلا بد ان يوافق » . وظلت وراءه في الليل والنهار ، اثناء شرب القهوة في الشرفة الغربية صباحاً ، او وهي معه في الفراش ، لكي يتخلى عن جبنه وتحفظاته ويدعو السلطان . « حتى لو اعتذر

نكون عملنا واجبنا » . . ظلت وراءه الى ان وافق . قال لنفسه بمرح وهو يتذكر حماس وداد والحاحها « والمرأة مثل النوم مهما حاول الانسان ان يقاومها ، ان يهرب منها ، فلا بد ان يستسلم لها في النهاية » .

ذلك اليوم الربيعي ، اواخر آذار ، في بادية المليحة ، على طريق حران ، وغير بعيد عن نبع الصفا ، نصبت ثلاث خيام ، رفع على الوسطى ، الكبيرة ، علم موران ، وفرشت بسجاد كاشان احمر على زرقة، مدت فوقه ، على الاطراف ، حواشٍ موردة زهرية اللون ، نثرت عليها وسائد بفوضى لذيذة ، وفي زاوية الخيمة ناحية اليمين مجموعة من بنادق الصيد وثلاث بنادق حربية مزخرفة عليها شعار سلطنة موران .

الشمس وهي تداعب حبات الرمل وتغسلها من ندى الليل ورطوبته ، تفعل ذلك بحياء اقرب الى الكسل ، لكن بتقدم النهار ، وارتفاع الشمس تتحول الدعابة إلى عناق دافىء بين عشيقين ولدا معاً منذ الازل فتنفعل حبات الرمل ، تتغير ، يميل لونها تدريجياً من الصفرة المقتولة الى البياض الشمعي ، ثم تلتحم بالزرقة الكلية والهواء الاغبش فيصبح اللون كله اقرب إلى لون الملح لحظة استخراجه، او الى لون الصمغ السائل ، فاذا هبت نسمة ريح تهتز الصورة ويرى اهتزازها على شكل رجات مائية تبدأ من اقصى الافق وتنتهي في بؤرة العين .

الصمت في البادية هو الملك الوحيد : قوي ، شامل ، كلي ، حتى الاصوات التي تنفجر سرعان ما تمتصها الرمال وتحولها الى رملٍ جديد . فاذا التحم الصمت بالشمس والرمال فعندئذٍ يتولد دوي مكتوم اشبه ما يكون بصوت الاختناق او الغرق ، حتى طلقات الرصاص التي تعبر الفضاء للحظة

فانها هنا لا تقهر الصمت ، تخدشه لثانية صغيرة ، ثم تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة ، او طيور تحاول التحليق .

هكذا كانت الصحراء منذ ان وجدت ، ومنذ ان رأتها اول عين ، أما في ذلك اليوم الربيعي فقد بدت في عيني كل من رآها شيئاً مختلفاً وغير مألوف : مئات السيارات ، ومئات اكثر من الخراف ، وعدد محدود من المدعوين ، وسلطان واحد يصل بعد وصول المدعوين بساعة وسبع دقائق ، وقد تأكد الحكيم من ذلك حين نظر الى ساعته .

لأول مرة في حياتها ترى وداد الصحراء في كل الاوقات : منذ ان اشرقت الشمس والى ان غابت ، لان القلق ساورها ان يقع خطأ من نوع ما فيفسد الدعوة ، او يخل بالنظام الذي ارادته لها ، جعلها لا تنام تلك الليلة الا كما ينام عصفور في عش جديد. استيقظت في الليل عدة مرات ، ونظرت الى الساعة بجانب سريرها عدة مرات ، واكدت على الحكيم عدة مرات ايضاً ان تكون هناك ، وان يكون ، قبل ساعات ، « لان امامنا اشياء كثيرة ، ويجب أن ننجزها» . اكثر من ذلك تمنت لو تقضي ليلة ، ليلة واحدة ، في الصحراء ، وان تنام تحت السماء مباشرة ، لكن الخوف ما لبث ان خنق هذه الرغبة وطواها . أما عندما سمعت اذان الفجر فقد نهضت وايقظت الحكيم ، وعندما اشرقت الشمس كانت السيارة الكاديلاك الجديدة تقترب من نبع الصفا ، ولما نزلت من السيارة ، التي وقفت قرب الخيام ، لامس هواء الصباح البارد وجهها ورقبتها فاقشعرت ، وحين ارتفعت الشمس قليلاً ودفّأت الهواء ، خرجت من خيمة « المراقبة » ، كما اطلق الحكيم على الخيمة الجانبية ، والتي خصصت للحريم . دخلت الخيمة الوسطى لتلقي عليها نظرة في ضوء النهار ، بعد ان رأتها في الليلة الفائتة ، عدّلت بعض الحواشي ، خاصة الحشية التي سيجلس عليها السلطان ، واضافت وسادتين ، ثم عطّرت المكان والخيمة كلها بعطر خفيف ناعم . وهيأت مجموعة من اعواد البخور ، لكي تشعل في الوقت المناسب .

قامت بهذه الاعمال الصغيرة واخرى غيرها ، لكن القلق لم يزايلها ، لانها لا تعرف كيف ستسير الامور ، في قصر الحير تستطيع ان تتحكم ، ان

تسيطر ، مهما بدا الموقف معقدا . هنا ، في هـذا الفضاء غـير المتناهي تشعـر بالضآلـة والخوف : يمكن ان تهب الـريح فتفسـد ما رتبتـه ؛ يمكن للرمال ان تغطي السجاد والحواشي ، ويمكن للشمس ان تشتد فتمنع الحركة . انها الآن تواجه خصماً مجهولاً ، خفياً وماكـراً ، ومفاجئا ، لا تعـرف متى يأتي ومن اين .

لم تحس حولها بالحركة تتسع وتنشط ، أما عندما اخذت طـلائع الحـرس بـالـوصـول فقـد انسحبت مـع سلمى وخمس من النسـاء جئن من القصر ليساعدنها ، الى خيمة « المراقبة » ، بناء لرغبة الحكيم ، والذي لم يجد حرجاً في حركتها وانتقـالها امـام الرجـال الذين رابـطوا في المكان خـلال الأيام الثـلاثة الأخيرة «الآن. . . . صار لازم تنسحبي يا ام غزوان ، لان الضيوف واصلين بين لحظة والثانية » .

خـلال الساعـة التي قضتها في تبـديل مـلابسها والاهتمـام بزينتهـا بـدأ الضيوف يتوافدون . اطلت من نافذة الخيمة فرأت زوجها يقف وسط مجموعة من الرجال ووجهه نحو الشرق ، عرفت بين الرجال سمير وراتب ، ولم تعرف ثلاثة آخرين . اهتمت بسلمى ، عدّلت لها ياقة فستانها اكثر من مرة وسرحت خصلة الشعر المتدلية الى الخلف على شكل ذيل حصان ، فلما انتهت نظرت من النافذة مرة اخرى ، لاحظت ان عدداً آخر من الضيوف قـد وصل . عـرفت منهم مطيع . وخلال دقائق بعد ذلك امتلأ المكان ، امـام الخيمة الـوسطى ، بالرجال . احست بالقلق وبقليل من الخوف ، تـريد ان تـرى السلطان لحظة وصوله . رأته مرة واحدة ، رأته وحده . الآن تريد ان تراه وسط هذا الجمع . تصورته قوياً الى درجة يثير الفزع ، وتصورت الرجال يتراكضون حوله . تمنت لـو تستطيـع ان تسلّم عليه امـام الجميع . لـو فعلت لاكتشف الـرجـال انـه يعرفها ، وانها تعرفه ، وسوف يتساءلون . ضحكت للفكرة واستبعدتها .

من هـذه المسافـة التي تزيـد على المـائة مـتر ، تلمـح الحكيم بـين لحـظة واخـرى ، وهو يتحـرك بـين الضيـوف ، تحس بقلقـه دون ان تـرى مـلامحـه بوضوح . قال لها ان السلطان سيصـل بين العـاشـرة والعـاشرة والنصف . تنظر الى ساعتها فتجدها تعدّت الحادية عشرة ببضع دقائق . تحاول ان تنـظر

الى ابعد من الخيمة، لعلها ترى الطريق، لكن السيارات ملأت الفضاء كله وحجبت الرؤية تقريباً . تخرج من الخيمة للحظة قصيرة وتتطلع باتجاه الشرق : « موكبه الكبير سيثير الغبار ويُرى من بعيد » لكن لا ترى شيئاً ولا تسمع دوياً ، تدخل وترابط الى جانب النافذة . تطلب من سلمى ان تقترب وتتقاسما النافذة .

في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة ، هبطت طائرتا هليوكوبتر على مسافة غير بعيدة من الخيام ، فاندفع الرجال مثل اندفاع الجمال لاستقبال السلطان ، الذي فاجأ الجميع انه جاء بالطائرة . ركض الكثيرون للوصول في الوقت المناسب، فتولدت من الركض ، اضافة الى الريح التي خلفتها الطائرتان ، سحابة عالية من الغبار وصلت الخيام بسرعة . اسفت وداد وتمنت في اعماقها لو لم يثر هذا الغبار .

ابو عبد الله الذي ظل يتردد ، بكثير من الانفعال ، بين الخيام ، ينقل بعض التعليمات ، اضافة الى الاخبار القصيرة والتعليقات ، وقد وصل هذه المرة بعد وصول السلطان ودخوله الخيمة ، ليطلب تجهيز الاراكيل ، قال دون ان يسأله احد : انه لم يشهد في حياته عدداً من السيارات بهذا القدر ، وقال انه لاول مرة يشهد طائرة من هذه المسافة .

وقال رضوان ان الخراف بدأ ذبحها منذ الفجر ، واستمر الذبح الى الضحى ، وقال ان اللحم يكفي لجيش مؤلف من سبعين فصيل هجانة! ابو عبد الله رفض ذلك ، كان له رأي آخر قال ان الخراف تكفي موران كلها ليومين متواليين ، أما عدد السيارات فلم يستطع احد ان يحدده على وجه من الوجوه ، قال ابو عبد الله لحسم الموقف : « بالمئات او بالآلاف » ، وهز يديه دلالة الحيرة او عدم الاهتمام . اما الحرس فكانوا يشكلون سوراً لمسافة لا يستطيع معها الذي في طرف أن يرى الآخرين في الطرف المقابل !

الحكيم فكر وحاول ان يتجاوز عاداته في الخطابة ، قضى ليلة كاملة ، وحتى اذان الفجر ، في محاولة لان ينظم قصيدة بهذه المناسبة ، لكن المحاولة انتهت الى الفشل ، فاكتفى بثلاثة ابيات نظمها وضمنها الكلمة التي

ارتجلها ، وعندما تلا الابيات ، قال وهو يبتسم نصف ابتسامة « وكما قال الشاعر » ولو سأله احد عن الشاعر لقال اي اسم ، لانه لم يكن مستعداً للاعتراف انه صاحبها !

طلقات الرصاص التي اطلقت تزيد على معركة الرحيبة في ايامها السبعة ، كما قال ابو عبد الله ، أمّا رضوان فقال انه ، وحده ، جمع مائة وسبع طلقات فارغة . والسلطان الذي رقص العرضة عصر ذلك اليوم استبدل السيف ، في لحظة انفعال ، ببندقية ، واسند البندقية الى خصره ورمى .

الاشياء التي يمكن ان تقال عن يوم المليحة كثيرة الى درجة لا يستطيع ان يحصرها او ان يلخصها احد . فالمساجلات التي جرت ، والشعر البدوي الذي قيل ، وغني قسم منه ، ثم ابيات الشعر حول اجمل ما قالته العرب في الشجاعة والكرم والوفاء ، وفي التغزل بالنساء ايضاً ، كانت من الكثرة بحيث تغيب عن الذاكرة . أما النكت التي رويت ، وقد تولى الحكيم رواية عدد منها ، لانه استعد لذلك ، فقد ظلت تتردد لفترة من الزمن . الامراء الصغار ، وهم اثنان من اصغر ابناء السلطان ، ومنصور احد ابناء الجيل المتوسط ، كانوا زينة ذلك اليوم ، سواء بالخطبة التي تلاها ملحم ، وهو الأصغر ، او بالشعر الذي انشده متعب ، وكان اكبر من اخيه بستة شهور ، اما منصور فلفت النظر حين رقص مع ابيه وابدى براعة ظاهرة .

وداد التي خافت خلال وقت معين نسيت خوفها بعد وصول السلطان ، فبعد ان وقف في باب الخيمة وتملى المنظر كله ، سأل الحكيم ، الذي كان يقف الى جانبه ، عن الخيمة الاخرى ، ثم الثالثة ، ويبدو ان الحكيم اشار ، بطريقة ما الى وجود ام غزوان في خيمة « المراقبة » ، فهز السلطان رأسه وضحك . قدرت وداد ذلك دون تأكد . أما بعد ذلك وحتى الغروب ، فقد اصبح اكثر وثوقاً ، خاصة حين جاء ابو عبد الله ، وبدا خائفاً ، يطلب منها ، كما ابلغه الحكيم ، ان تستعد لركوب الطائرة في العودة .

إن هذا اليوم في ذهن وداد حلم لا يمكن ان يتكرر . رأت السلطان وهو يتمشى بالقرب من خيمة المراقبة . رأته يضحك كحصان . رأته يرقص . رأت

ضخامته واحتفاء الناس به . ورأت كيف يطلق النار . أما لماذا اقترح عليها الحكيم ان تستعد للعودة بطائرة السلطان ، على ان تصعد الى الطائرة هي وسلمى قبل الآخرين ، فقد ارهبتها المفاجأة . لماذا يحصل هذا ؟ وكيف ستتصرف وماذا ستقول لو سئلت او تحدث اليها احد؟

قالت سلمى انها تفضل العودة بالسيارة ، فنظرت اليها امها بطريقة تأنيب لكي لا تكرر فكرة مثل هذه ، والتفتت تسأل ابا عبد الله متى يجب ان تتحرك وكيف ، فلم يعرف كيف يجيب . ترددت هل تأخذ معها الحقيبة التي جاءت بها من موران ام تتركها . تطلعت الى كل شيء بارتباك وحيرة ، وكأنها تراه لاول مرة . تطلعت الى الخيمة الوسطى ، تمنت لو يأتي ابو غزوان لدقيقة واحدة ، لتسأله ما اذا كان سيرجع معها ومع سلمى ، ام سيتأخر ، ولتعرف تفاصيل اخرى تستطيع في ضوئها ان تتصرف . لكن الحكيم كان بعيداً ، كان غارقاً في تلك الخيمة التي بدت لها مظلمة ، غامضة ، لكنها لا تتوقف لحظة واحدة عن اثارتها وخلق آلاف الصور في ذهنها .

عند الغروب ، والشمس تميل نحو الافق ، وبدأت ظلال الاشياء تستطيل ، بل وتصير مضحكة ، جاءها ابو عبد الله مهرولاً ، طلب اليها ان تذهب فوراً الى الطائرة ، لان السلطان سوف يغادر ، ولا تعرف كيف لفّت نفسها بالعباءة التي جاءت بها ، وطلبت من سلمى ان تفعل ذلك ، وخلال دقيقة واحدة كانت السيارة الكاديلاك تقف الى جانب الخيمة لتقلها .

في الطائرة لم يحصل اكثر من تحية ، هز السلطان رأسه بكبرياء ، وكان الحكيم وحماد وراءه ومرّ . نظر الى الخلف مرة او مرتين ، لكن لم تلتق نظراتها بنظراته ، ولم تستطع ان تسجل ملامح اكثر من التفات متسائل ، اما لماذا ضحك ، ولماذا تطلع الى الاسفل ، فلم تستطع ان تقدر .

جاءها الحكيم مرة واحدة قبل تحليق الطائرة ، اسر باذنها ان السلطان فكر ان تهبط الطائرة في قصر الحير ، لكن نظراً لتقارب الاشجار ، وعدم وجود مكان كافٍ ، فإن الطائرة ستهبط في قصر الغدير . قال لها ذلك وهو لا يعرف كيف يخفي فرحه . أما عندما هبطت الطائرة ونزل السلطان ، ورافق

نزوله الكثير من الصخب ، فقد بقيت وسلمى في الطائرة . ظلتا كذلك وقتاً غير قصير ، حتى ظنت انها نُسيت ، لكن بعد ان ابتعد الصخب قليلاً ، وسار موكب السلطان ، فقد جاءت مجموعة من رجال القصر ، بسيارة حتى باب الطائرة ، مع كلمة قصيرة : « سوف يلتحق بكم الحكيم بعد قليل » !

كانت تشعر بفرح اقرب الى اللذة، وهذا الفرح يفيض من خلاياها كلها ، حتى وهي تضع يدها فوق يد سلمى وتضغط تحس ان هذه الحركة تدغدغها ، تولد رعشة في جسدها . لم تعرف مثل هذه المشاعر منذ وقت طويل . كانت تريد ان تكون وحيدة في غرفتها ، ان تنظر الى جسدها ، ان تنظر الى اعماق عينيها ، لتكتشف تلك الغبطة التي تكبر وتزيد كل لحظة، لماذا هي هكذا وكيف تفكر او ماذا تريد ؟ انها عاجزة عن الاجابة ، تجد نفسها مضطربة ، لكن ذلك الاضطراب اللذيذ الناعم الذي يتحول شيئاً فشيئاً الى ما يشبه الخدر، وهي بمقدار رغبتها ان تكون وحيدة ، تريد ان ترى الحكيم لكي تسأله عن التفاصيل كلها ، ولتعرف كل شيء منذ لحظة وصول السلطان وحتى اللحظة الأخيرة تتملكها الرغبة أن ترقص، أن ترفع صوتها بصخب طفولي ، لكي تعبر عن الفرح الذي يملأ صدرها ، تتطلع في الظلمة الخفيفة الى سلمى التي تجلس الى جانبها في السيارة ، تراها ترقب الجانب الثاني ، لا تجد في نفسها الرغبة في الكلام لئلا تفسد هذه النشوة او تضيع .

حاولت ان تستعيد المشاهد مرة اخرى ، لكن وجدتها متداخلة الى درجة لا تستطيع ان تتوقف عند مشهد بذاته . تبدو لها الوجوه والاشياء كتلة واحدة ، حتى ضحكة السلطان وهو يمر بالقرب من « خيمة المراقبة » ترن في اذنها مرة اخرى ، وكأنها لا تزال الى الآن تسمعها . التفت اكثر من مرة ، وتوقف حين كان يمر متظاهراً انه يستمع الى الاحاديث التي تدور. كان توقفه من اجلها ، والا لماذا رغب ان تعود بطائرته ؟ وفي الطائرة ، لما مرّ وحياها انفتحت خياشم انفه وهو يتنشق عطرها . لاحظت ذلك من حركة الانف والتي تشبه حركة الارنب . ان هذا واحد من اسرارها الخبيئة ، حتى الحكيم وهو يدفن راسه في عنقها يحس بالدوار نتيجة العطر الذي تستعمله ، تعرف اين تضعه وكيف تمنحه .

ظلت مهتاجة حائرة تنتقل من غرفة الى غرفة طوال المدة التي غابها الحكيم . سألت سلمى عشرات المرات ، سألتها عن امور تعرف الاجابة عنها ، او لا يمكن لاحد ان يجيب . ابتسمت دون ارادة ، وقفت امام المرآة في محاولة لان تجمع الصور كلها ، تناثرت الصور واختلطت . استلقت على السرير ، اغمضت عينيها ، احست النار تنبع من جسدها ، حتى اصابعها كانت تحترق ، وضعت يدها على جبينها ، نادت بصوت عالٍ ، لكن احداً لم يجب . قامت ، تمشت ، وقفت على الشرفة ، نظرت باتجاه قصر الغدير ، قالت في نفسها : تأخر ، تأخر كثيراً !

لم يتأخر الحكيم ، جاء يتدحرج مثل كتلة من النار : الضحكة تملأ وجهه ، والانفعال يسيطر عليه ، لا يعرف من اين يبدأ او ماذا يقول . يريد ان يتحدث عن كل الاشياء في نفس اللحظة . يريد ان ينقل التفاصيل الصغيرة ، وبين الاسئلة والتذكر روى لها الكثير . كيف ضحك السلطان حتى استلقى على ظهره للنكتة الاولى التي رواها . وكيف ضحك اكثر في المرة الثانية ، بعد ان استعاده اياها . وكيف ان الصغيرين ضحكا لضحك الكبار ، لكن بعد ذلك تساءلا عن معنى النكتة او لماذا ضحك الرجال لها بهذا القدر ! حدثها ان السلطان سأله باهتمام عن خيمة المراقبة ، وفرح وبان على وجهه الفرح انك وراء الدعوة كلها . أما لماذا أصرّ على ان نعود بالطائرة فلكي نرى موران في الليل ومن الاعلى . وروى لها كيف انه جعل السلطان في قمة اشراقه ، وانه لم يره هكذا طوال السنوات السابقة ، ولام نفسه انه لم يفكر بدعوات مثل هذه من قبل ، واثنى على موقفها لانها اصرّت والحّت الى ان دعا السلطان .

الخطيئة الوحيدة التي شعر الحكيم انه وقع فيها ولم يغفرها لنفسه :

ـ الصور . . يا وداد ، كان من الضروري ان تُلتقط عشرات الصور ، وكان من الضروري ان تسجل على فيلم ، وربما استفدنا منها في « نسر موران » .

كانت وداد تسمع وتطير ، وكانت تعود في كل لحظة الى المليحة ، كانت تراها باتساعها اللامتناهي ، وترى شخصاً واحداً يملأها : السلطان . تمنت لو

انها كانت على ذكاء اكبر واختصرت الدعوة الى اقصى حد . بضعة اشخاص وعدد محدود جداً من الزوجات . لو فعلت لتألقت اكثر ، لعرفت كيف تتكلم وكيف تتحرك وكيف تحفر في ذاكرة الجميع ذكرى لا يمكن ان تغيب او تنسى !

ورغم تقدم الليل ، ورغم سهر الليلة الفائتة وتعب النهار كان الاثنان يرغبان ان يواصلا استعادة الدقائق اللذيذة التي شكّلت هذا اليوم ، وان يتذكرا جميع التفاصيل . أما عندما ذهبا الى الفراش فقد كانت وداد تحس بجسدها يتفجر ، يغادر اهابه ، وانه يريد ان يمتزج بحبات الرمل ، بالهواء ، بكل شيء . فلما مال الحكيم عليها وتنشق عطرها اصابه الدوار للحظة ، فارتمى عليها ، يحتضنها ، يشدّها اليه بقوة ، وكانت تستجيب بلهفة واقبال ، اكثر من اية مرة ، واقوى من كل ليلة ، لكن كانت ايضاً تتصوره شخصاً آخر ، كانت تتصوره ، هذه المرة ، السلطان . أما عندما شهقت وشدّت فقد افزعت الحكيم ، وكاد ينهض ، لكنها شدته مرة اخرى وبقوة اكبر من السابق . . وناما وهما على هذه الحال !

السحر الذي خيم على قصر الحير، وكان يستعاد كل ليلة بإضافات جديدة وتحويرات لا تنفك تتزايد ، وشارك فيه الضيوف الذين ترددوا اكثر من السابق على القصر خلال هذه الفترة ، انتقل الى موران ، فتحدث الناس عن الدعوة ، ما وقع خلالها ثم ما تلاها ، تحدثوا بكثير من الاستغراب والعجب ، وتطلعوا حواليهم ليسمعوا ما يمكن ان يقوله شمران او صالح ، هذا السحر بدل ان يتلاشى ويغيب دخل طوراً جديداً في اليوم العاشر الذي اعقب الدعوة .

فحماد الذي زار الحكيم في قصر الغدير مرة ، واتصل به مرتين ، ابلغه في اليوم العاشر انه سيزوره في المساء ذاته ، في قصره « لامر هام » ولم يضف اي توضيح . هذا الاتصال ، وبهذه الصيغة ، اقلق الحكيم ، وجعله طوال فترة قبل الظهر يتساءل ويقدر ماذا يحتمل ان يكون الامر الهام ، ولماذا كان حماد متكتماً متحفظاً هكذا ، لكنه لم يتوصل الى نتيجة . أما عندما عاد الى بيته فلم يشأ ان يسأل وداد ، خاصة وانه لم يعود احداً على زيارات عمل في الاماسي او في البيت ، ولانه اصبح على دراية كيف يفكر حماد وكيف يتصرف ، فقد تراءى له أن ما سيبحثه معه له صلة «بمؤامرة الرابية»، ربما قبضوا على العناصر التي كانت وراء المؤامرة ، وربما تكشفت لها ابعاد جديدة تقتضي الحذر ، ولان وداد لا تزال في حالة « الاشراق » ، وهذا تعبير الحكيم ذاته ، فقد جعله ينسى ، او على الاقل الا يشغل نفسه ، خاصة في الامور التي تجلب الكدر .

منذ اللحظة الاولى بدا حماد انساناً جديداً : الابتسامة تملأ وجهه ، ولم يبق

من تحفظه اي ظل ، أما طلاقته ودعاباته للحكيم ووداد . . ثم لسلمى التي دخلت متأخرة بعض الشيء ، فقد جعلت الحكيم في حالة من المرح قلما وجد نفسه في مستواها ، خاصة مع حماد . حتى ان فكرة مؤامرة الرابية تلاشت خلال الدقائق الاولى . قال الحكيم لنفسه « من الاخطاء التي حصلت ان حماد ترك قصر الغدير في وقت مبكر بحيث لم تتوثق العلاقات بما فيه الكفاية » ولام نفسه انه قصّر تجاه هذا الانسان الذي يبدو له مختلفاً عن السابق ، وقرر ان يسلك معه في المستقبل سلوكاً جديداً .

انقضت ساعة او اكثر ولم تجر الاشارة الى « الامر الهام » لا بل نسي الحكيم هذا الأمر ، أما حين عرض على حماد ان يبقى ويتعشى فقد اعتذر لضرورة ان يعود الى مكتبه ، لانه بانتظار تلفونات مهمة .

وداد شاركت في الجزء الاكبر من الحديث . وكان يروق لها ان تعود بين لحظة واخرى الى دعوة المليحة ، واية انطباعات تركت لدى الذين حضروا ، ماذا قالوا وكيف كانت مشاعرهم . أما سلمى التي ظلت صامتة فما لبثت ان انسحبت دون ان يحس بها احد .

في احدى اللحظات التي غابت وداد خلالها قال حماد للحكيم وهو يبتسم :

ـ عندي كلمة . . بيني وبينك ، يا ابو غزوان !

والحكيم الذي تنبهت حواسه كلها عاوده الخوف والشعور بالخطر مجدداً :
« الذين يعملون عمل حماد ليس لهم قلوب ، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته » ثم انه لا يظهر على وجوههم اي تعبير ، ومن جديد بدأت تتوارد الى ذهنه الاسئلة والاحتمالات ، نظر الى حماد : لا تزال نفس التعابير ونفس المرح . لما جاءت وداد قال لها الحكيم بنوع من الرجاء :

ـ الله يخليك ، يا ام غزوان ، اتركينا وحدنا دقيقة .

تطلعت ، وهي تبتسم ، الى عيني الحكيم بتساؤل يحمل معنى الاستغراب واللوم ، ثم تطلعت الى حماد . رأت ابتسامته الودية تكبر وتتسع ، وكأنه يرجوها ايضاً ان توافق على ما قاله الحكيم . قالت بمرح ، ولتخفي احراجها :

ـ انتم الرجال . . دائماً عندكم اسرار !

أما كيف ساق حماد الحديث، كيف قال ما قاله للحكيم ، فان الحكيم نفسه لا يستطيع ان يستعيده ، لان المفاجأة ، في اللحظات الاولى ، كانت اكبر من ان يستوعبها او يقدرها . كان للحديث بعض المقدمات، وكان فيه فيض من كلمات المحبة والتقدير التي حمّلها السلطان لحماد لكي ينقلها للحكيم لانه لا يستطيع ان يقولها له بشكل مباشر . واخيراً جاءت المفاجأة ، كانت مختصرة وواضحة : « طويل العمر يريد سلمى » .

ظنت وداد ، التي كانت الى لحظات تسمع صخب الرجلين ، انهما يتوشوشان ، بعد ان خيم الصمت ، وحماد الذي ابلغ الرسالة لم يكن ينتظر جواباً فورياً لها ، والحكيم لا يملك ان يقرر بهذه السرعة ، ولذلك غرق الاثنان في الصمت .

بعد فترة ليست قصيرة قال حماد :

ـ امر بك عقب باكر ، يا ابو غزوان ، ونسولف .

نظر اليه الحكيم ، ابتلع ريقه ، هز رأسه دلالة الموافقة ، أما وهو يقوم لكي يودعه فقد قال :

ـ بسيطة . . الله كريم !

توقف حماد لحظات ، تنحنح اكثر من مرة في محاولة لان ينبه ، لان يرى وداد ، ان يقول لها كلمة ، فلما ظلت في غرفتها ، قال بصوت عالٍ :

ـ تصبحوا على خير يا جماعة .

سار معه الحكيم ، كان صامتاً ، ودعه حتى الباب الخارجي . وقف الى ان غادر ، وقد تعمد ان يتأخر وهو يصعد الدرج . كان يريد فترة لكي يهيء نفسه ، كيف ينقل الى وداد الموضوع ـ المفاجأة ، هل يقول لها مباشرة ؟ هل يؤجل الأمر الى الغد لكي يفكر ملياً ؟ وسلمى . . هل يجب ان تعرف ؟ ماذا ستقول وكيف ستتصرف ؟ لقد اخطأ انه لم يسألها عن انطباعاتها بعد زيارة السلطان ، واخطأ ايضاً انه لم يسألها في الأيام الماضية ، انها اصغر من ان يسألها

حول هذه القضايا الكبيرة . وهي صغيرة فعلاً ، قبل اسابيع قليلة كان عيد ميلادها الخامس عشر . تذكر يوم جاءت . لقد كان هذا قبل فترة قصيرة ، لكنها ، مع ذلك اصبحت امرأة . شكلها ، صمتها ، وهذه الطريقة في التصرف . عندما تزوج وداد كانت بهذا العمر او اكبر قليلاً، لماذا يستغرب اذن ؟ وهل يستطيع ان يرفض ؟

تظاهرت وداد بالغضب . وجدها في الصالة ، قالت قبل ان يحّضر نفسه بشكل كافٍ :

ـ بعد ما حطينا له رجلين من قصب وسويناه مثل الناس والعالم . . صار عنده اسرار ، وصار يحكي وما يحكي !

ولما ظل الحكيم صامتاً اضافت بسخرية :

ـ سبحان الله !

وبكثير من الجدية ، الاقرب الى العداء ، قال لها :

ـ طولي بالك يا وداد ، لان المسألة جد !

تطلعت اليه بتساؤل مشوب بالخوف ، فلما وجدته مهموماً صامتاً ، اضافت :

ـ خير انشاء الله ؟

ـ تعالي ، يا حبيتي ، حتى نتفاهم !

بطريقة بطيئة ،متخاذلة، مليئة بالحزن اجابها ، خافت ، احست ان لومها يتحول الى حالة عصبية اقرب الى الغضب . فحماد الذي لا تعرف ماذا يعمل بشكل دقيق ، تحس ان عمله مليء بالمرارة والقسوة ، وتحس ، اكثر من ذلك ، انها لا تحبه . نصف الساعة التي قضاها مع الحكيم كانت حافلة ، لا بد انه حدّثه عن راتب ، وربما عن سمير . لا عن راتب بشكل خاص ، اذ بعد ان سافر الحكيم بالجولة ، وطالت سفرته ، تردد راتب على قصر الخير عدة مرات ، ولا بد أن يكون هناك من نقل الى حماد ، « لكن راتب قريبنا ، راتب كان ينزل في بيتنا ؛ هذه ليست حالة جديدة » ، ثم ماذا يهمه ان يكون او لا

يكون ، هي التي تقرر ، واذا كان لانسان ان يحتج فزوجها وحده ، هكذا فكرت ، هكذا قالت لنفسها ، أما ان يتدخل انسان غريب ، مثل حماد ، فانها لا تستطيع ان تفهم او ان تقبل !

لما رآها الحكيم متجهمة صامتة هكذا قال بطريقة مختلفة :

ـ لازم نتفاهم ، يا حبيبتي ونقرر !

كان يحضّر نفسه وهو يجلس في الشرفة الغربية . دخلت وخرجت عدة مرات من اجل اشياء صغيرة ، كانت تحاول ان تستعد ، ان تشحن نفسها ، وكان هو يحاول ان يفعل الشيء نفسه. لما جلسا متقابلين ، وكانا اقرب الى الصمت ، قال بصوت رخوٍ .

ـ . . . في موضوع هام . . يا وداد .

تطلعت اليه دون ان تتكلم . تابع :

ـ والموضوع . . لا يحتمل التأجيل .

وبصعوبة اقرب الى الارتباك شرح لها ان السلطان يكن للعائلة حباً استثنائياً، وانه طلب من حماد ان ينقل ذلك، لان السلطان لا يستطيع ان يعبر عن حبه وتقديره مباشرة، وهذا الحب زاد وتضاعف بعد الدعوتين. ارتاحت وداد ، ابتسمت ، شعرت انها معنّية بهذا الحب ، فسرت في اوصالها رعشة خفيفة اقرب الى النشوة. كانت تود ان تسمع هذه الكلمات من حماد ، ان تعرف كيف قالها السلطان لتتشربها . لماذا حرمها من هذه المتعة ؟ لماذا يظل بدائياً جباناً فيخاف أن يتكلم امام النساء عن مشاعر القلب ؟ قالت ولم يزايلها الغضب بعد :

ـ يضرب . . اذا كان حامل هيك رسالة ليش خجلان فيها ؟ ليش ما حكى ؟ ليش ما نطق ؟

ولما وجدت الحكيم صامتاً ، والتفت اكثر من مرة تابعت :

ـ والا مستحي يحكي قدامي ؟

قام الحكيم واغلق باب الشرفة . استغربت هذه الحركة واستغربت توتره

وصمته ، قالت بلهجة من نفد صبره :

ـ لازم حكى لك اشياء ثانية شوشت فكرك . . يا ابو غزوان !

هز رأسه دلالة الموافقة والتأييد ، ثم جّمع نفسه وقال كلمات حماد ذاتها :

ـ طويل العمر ، يا وداد طلب يد سلمى !

ومثل زوبعة الصحراء دارت الدنيا بوداد ، ارتفعت الى مكان شاهق ، يقرب النجوم ، ثم هوت . تملكها الوجوم ، شعرت بالحزن الشديد الذي يقرب حد الالم ، وشعرت بنشوة تنفجر من كل اجزاء جسدها . شعرت بالتخلي الكامل والالتحام الكلي معاً . انها في حالة من الاضطراب اقرب الى اللوعة او الى النشوة ، لا تعرف .

لا احد يعرف كم دام هذا الصمت . أما عندما تنهد الحكيم واقترب منها ووضع يده على كتفها فقد ارتجفت ، ثم ما لبثت ان وجدت نفسها تتعلق برقبته وتبكي . بكت بصمت ، انحدرت دموعها على طرف خده ، لم يستطع ان يفهم سبب بكائها او ماذا تعني . ولم يستطع ان يقدر هل هي فرحة ام حزينة . انه لم يرها هكذا من قبل . بدت له خلال لحظات امرأة مختلفة ، وكأنه يراها لاول مرة .

وقف ، وضع يده تحت ابطها ورفعها . كانت ثقيلة مثل حجر . كانت خفيفة مثل نسمة . كانت بعيدة وقريبة في آن واحد . كانت فرحة وحزينة معاً . قال بهمس :

ـ خلينا ندخل ونفكر على رواق . . يا وداد .

وباستسلام مأخوذ مشت معه . لما جلسا على المقعدين المتقابلين والمتقاربين في غرفة النوم ، سألها بهمس متآمر :

ـ وين سلمى ؟

ـ نامت !

لم تعش موران فترة حافلة مليئة بالحركة مثل الفترة الواقعة بين منتصف نيسان ومنتصف ايار من ذلك العام . الحركة بين قصر الغدير وقصور الخالدية ، التي اكتملت خلال هذه الفترة من ناحية ، وبين قصر الحير من ناحية ثانية لا تتوقف ولا تهدأ . الرسل الذين ينقلون الرسائل والهدايا لا يتعبون ولا يهدءون طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل. الاشياء التي نقلت الى قصر الحير لفتت نظر الكثيرين ، لان السيارات الكبيرة التي حملتها لم تتمكن من دخول باحة قصر الحير ، نظراً لان الباب الكبير لم يسمح او لم يتسع لدخولها . أما الطائرات التي غادرت موران او وصلت اليها خلال نفس الفترة فكانت اكثر من المعتاد . حتى الاشجار التي نمت وكبرت في الحديقة الخلفية لقصر الحكيم جرى التفكير بقطعها ، لكي تصبح هذه الفسحة مهبطاً لطائرات الهيلوكبتر ، لكن الحكيم ارجأ هذا الأمر في آخر لحظة ، على ان يفعل ذلك في الخريف القادم .

والصيف ، في هذه السنة ، ايضاً ، جاء قبل اوانه واكثر حرارة من المعتاد . فما كاد ينتصف نيسان حتى عبق الجو بحرارة لزجة مخدرة ، تولد الرخاوة اكثر مما تشيع الدفء ، الأمر الذي دفع السلطان لان يفكر بتقديم موعد سفره اسبوعاً او عشرة ايام عن الموعد الذي حدده سابقاً ، لكن اشارة الحكيم ان جو اوروبا ، خاصة المانيا ، وبالذات بادن بادن ، ابرد من جو موران بكثير ، وان الانتقال من جو دافىء الى جو بارد ، او بالاحرى شديد البرودة ، لا بد ان يؤدي الى مضاعفات صحية غير مستحبة . والسلطان الذي

فهم ملاحظة الحكيم واستجاب لها ، قرر ان يتم الزواج في موران ، على ان يسافر بعد ذلك . وهذا القرار يعني ان يأخذ الاستعداد وتيرة اسرع ، الأمر الذي اضطر وداد ان لا تعتمد على الخيّاطات اللواتي جئن من لبنان لاعداد فساتين العرس ، « يمكن ان يستمر عملهن مع بعض التعديلات . . أما فساتين العرس فسوف يتم اختيارها جاهزة من باريس » .

وافق السلطان على هذا الاقتراح بحماس كبير ، وكتعبير عن هذه الموافقة وضع طائرته الخاصة تحت تصرف ام غزوان والعروس ، وهذه الالتفاتة التي قدّرها الحكيم ، ولم يحظ احد بمثلها من قبل ، حتى الامير فنر ، جعلته يتحمل اعباء اضافية ، فقط من اجل ان ينتهي الاستعداد قبل انتهاء الأيام العشرة الاولى من ايار .

واذ انشغل القصر بهذا الزواج اكثر من الزيجات السابقة ، والتي اختلف عددها اختلافاً كبيراً ، فبينما يؤكد الكثيرون انها بلغت سبعاً وعشرين ، فان بعض نساء موران اللواتي لهن علاقة بالقصر يؤكدن ان الزواج الجديد سيكون الرابع والثلاثين ، لان اربعاً او خمساً من البنات اللواتي ربين وعشن في القصر بنى بهن السلطان . أما عثمان الدميري الذي عقد للسلطان على معظم زوجاته او كُلهن ، فقد اكد لاثنين من معارفه ، انه وحده عقد له على اثنتين واربعين امرأة ، قال لهما ذلك وطلب ان لا يذكر شيء عن الأمر « لان فيها موت . فيها « قص راس » .

واذ استمر انشغال القصر ، فان السلطان ذاته كان شديد الاحتفاء بهذا الزواج ، ويريد اتمامه بسرعة كبيرة ، كما يريده ايضاً حدثاً استثنائياً في موران ، خاصة وانه سيكون الزواج الأول الذي سيتم في قصور الخالدية ، بعد الوئام والانسجام اللذين ميّزا وضع العائلة السلطانية ، وانتقال فنر الى مكاتبه الجديدة في هذه القصور . .

عدلة التي استغربت الحركة الزائدة ، حاولت ان تستعيد في ذاكرتها صورة سلمى . تتذكر انها رأتها ، كانت صغيرة مثل لعبة ، بعيونها الزرقاء وجديلتها الطويلة ، أما عندما طلبت منها ان تقترب فقد اجفلت الصغيرة واختبأت وراء

امها . تتذكر هذه الصورة ولا تتذكر غيرها ، لان وداد التي ترددت على القصر مرات عديدة بعد ذلك ، لم تصطحبها سوى تلك المرة . أما متى كبرت هذه الصغيرة ، وكيف فتن السلطان بها ، فانها لا تجد سبباً او تفسيراً . تعرف ان السلطان زار الحكيم في بيته ، لكن لا تعرف اكثر من ذلك ، وسمعت عن دعوة المليحة ، وان زوجة الحكيم وابنتها كانتا هناك ، وقالت لها النسوة اللواتي ساعدن في تحضير الاراكيل ان المرأتين لم تخرجا من الخيمة ولم يرهن احد من الرجال ، حتى اثناء عودتهما مع السلطان بالطائرة لم يجر حديث ولم يحصل اي شيء ، فمتى تعلق بها السلطان ومن قال له ؟

كانت عدلة على يقين انها ستلتقي بزوجة الحكيم قبل ليلة الزفاف ، ولا بد ان توصيها ، خاصة بالنسبة لليلة الاولى ، « لان اكثر من امرأة تعورت » وهي اذ تفعل ذلك فمن قبيل الشفقة لا المحبة ، لانها لم تعد تقيم وزناً للنساء اللواتي يجئن بعدها . كانت متأكدة انها وحدها الباقية ، والتي لا يمكن ان ينساها او ان يستغني عنها ! ومع ذلك اعتبرت ان في الامر سراً لا تفهمه ، وانصرف ذهنها الى الحكيم : « ساحره ابن الحرام . . من يوم ما عرفه سحره » .

ولان العرس تقرر ان يكون في موران ، ومثلما انشغل قصر الغدير وقصور الخالدية والحير ، فان كثيرين وكثيرات انشغلوا ايضاً : في شراء الهدايا ، في احضار الفساتين والمجوهرات من باريس ولندن واميركا ، وكان دافع هؤلاء ، او اغلبهم، أن يقولوا، بشكل ما، للحكيم ولزوجته، انهم ايضاً متحضرون وقادرون على شراء اي شيء ، وان الحكيم وعائلته لا يملكون اية ميزة ، وبالتالي ليس من مبرر ابداً لهذا الاستعلاء . صحيح ان بنت الحكيم تزف الآن للسلطان، لكن هذا لا يعني الكثير، ولن يدوم طويلاً، فقد سبق للسلطان ان تزوج مرات ومرات ، ومثلما يتزوج بنت الحكيم الآن ، فقد يتزوج اية فتاة اخرى غداً ، ولذلك بدأت حالة من الاستعداد وموجة من التحضير ، كل حسب امكانياته ، وكل بطريقته .

وامي زهوة التي بدت امرأة ذاهلة ، شديدة الحزن ، بعد موت سرور ، والتي اخذت تقضي اوقاتاً طويلة في جناحها ولا يكاد احد يراها او يحس

بوجودها ، فقد انفجرت فجأة كما تنفجر الزوبعة . واذا كان السلطان قد انتقل الى قصور الخالدية، وأصبحت زياراته لقصر الغدير متباعدة وقصيرة، فقد نسي الشيخة ، او لم يعد يتذكرها مثل قبل . حتى الذين كانوا قريبين منها ورأوها تنتفض مثل قطة ، فتصرخ وتهدد ، وتدق الارض بعصاها دقات متواصلة مع كلمات الشتيمة ، ولا توفر احداً او شيئاً ، الذين رأوها بهذا الشكل ، وبهذه الوضعية الجديدة لم يهتموا كثيراً ولم ينشغلوا بها . قال ناشد الدبلان الذي يرقب كل شيء بصمت ، قال لنفسه بصوت عالٍ :

ـ صحوة موت ، وما اظنها تقدر على شيء .

أما عدلة التي لم يتغير موقفها من الشيخة ، اذ ظلت اقرب النساء اليها وتسمعها ، ولاحظت قبل الأخريات ما حّل بها بموت سرور ، ثم الحزن الذي اعقبه ، فغّيرها ، فقد بقيت على موقفها . الآن وهي تراها هائجة هكذا ، قالت لها امام اثنتين من الاميرات الصغيرات :

ـ يا امي زهوة : عجّة وتقضي مثل ما قضت غيرها !

والشيخة التي هزت رأسها بانكار ، اعلاناً عن التصميم ومتابعة المعركة ، وان هذا الزواج لن يتم ، كما لم يتم زواجه بهذلة ، قبل سنين طويلة ، وفهمت عدلة هذه الاشارة ، فقد تابعت تقول :

ـ ذاك زمان ، يا امي زهوة ، وهذا زمان غيره !

واذ لم تجد الشيخة فهماً من الذين حولها او تضامناً ، فقد انطلقت الى الآخرين ، حتى قيل انها لم تترك اميراً ، صغيراً او كبيراً الا وشتمت أمامهم الحكيم ، القاتل ، هكذا اصبحت تسميه ، طالبة ان يتدخلوا لمنع زواج السلطان بابنته .

والامراء الذين سمعوها ضحكوا وهزوا رؤوسهم ، ولم يفعلواشيئاً .

واذ استمرت الاستعدادات واستمر معها الصخب والهياج ، لم يعد احد يسمع احداً ، وغاب صوت الشيخة في هذا الضجيج . أما السلطان الذي سمع بعض ما قالته الشيخة فقد اعتبر الأمر غضباً او خرفاً ، قال لزيد الذي

نقل له بعض ما سمع ، قال له :

ـ اذا رجعنا من السفر بالخير والسلامة نمّر بها ونرضيها !

* * *

وموران الاخرى انشغلت ايضاً ، لكن على طريقتها الخاصة ، فشمران العتبي الذي وصلته اخبار المليحة : الخراف التي ذبحت ، والقصيد والغناء ، ثم كيف رقص السلطان ببندقية وليس بسيف ، فقد تلفت اكثر من مرة وتساءل بسخرية :

ـ وينك يا ابن الرشدان . . لان هذا اليوم يومك !

وخفت صوته ، لكن الكثيرين سمعوه :

ـ لكن ظني ان الطبل ما يكفي والكلام ما يفيد !

أما عندما انتشرت شائعة قرب زواج السلطان بابنة الحكيم ، فقد قال شمران في مقهى زيدان وامام كثيرين :

ـ من كبّر لقمته غصّ . . يا جماعة الخير .

وحين تطلعت اليه بعض العيون متسائلة . اضاف وهو يقهقه :

ـ بنت المطوط من ياخذها ؟

وفهم الذين يسمعون أنه يعرّض بالحكيم ويسخر منه . فغمز له احد الجالسين لكي ينتبه للذي يجلس وراءه .
فرّد وبقايا الضحكة على وجهه :

ـ يا ابو ابراهيم ما عاد بالعمر زودة ، وشفنا كل شيء !

والتفت شمران بكليته للذي نبهه اليه ابو ابراهيم وسأله :

ـ وايش قولك . . يا ابن الحلال ؟

ـ القول قولك يا ابو نمر !

ـ جماعتنا في السوق كانوا يقولون : خف من الغني اذا جاع ومن الفقير اذا شبع .

ارتبك الرجل فلم يعرف كيف يجيب او كيف ينفي عن نفسه تهمة انه من «البلابل»، وهي التسمية التي اطلقها نمر على العاملين في جهاز الامن ، والذين يتظاهرون بالمسكنة والغفلة ، ويحشرون انفسهم في كل مكان ، «لكنهم دائماً يغردون، ودائماً يعلّمون عن ارواحهم، مثل ما تعّلم نفسها العنز السودا بين الغنم » فلما رأى الرجل ان العيون تنظر اليه قام وهو يقول :

ـ الله منكم يا اهل موران لا تستريحون ولا تخلون احداً يستريح !

نمر تشوشت معلوماته واضطربت خلال هذه الفترة ، اذ بعد ان تم الانتقال الى قصور الخالدية، لم تعد مراقبته او متابعته لقصر الغدير تجدي الا قليلاً « حتى هذا الأكتع ، يقصد مطيع ، صار بالخالدية» ولذلك صدّق من قال له اول الامر ان الزواج الذي سيتم سيكون بين ابن السلطان ، مزيد ، وبنت الحكيم ، واكد للذين جادلوا « ان معلوماته من داخل القصر » لكن لم تمر ثلاثة ايام حتى اعترف ان معلوماته خاطئة « وان الذي سيتزوج هو العود الكبير» .

ومع مرور كل يوم جديد تتزايد الحركة وترافقها الاخبار . كثيرون توقعوا ان تعطل الدوائر والمدارس يوم الزواج ، وهؤلاء وغيرهم كانوا متأكدين ان راتباً اضافياً سوف يمنح لموظفي الدولة . أما الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة فسوف تكون من الروعة والضخامة الى درجة ان موران لن تشهد مثلها . خاصة وان اخباراً كثيرة اخذت تنتشر بسرعة عن الملابس الجديدة التي خصصت لحرس القصور ، وقد عزز هذه الاخبار ايضاً تشكيل فرقة موسيقية جديدة تابعة للقصر مباشرة .

صالح الرشدان كان مريضاً خلال هذه الفترة ، لكن الاخبار التي تصله وتتزايد كل يوم ، تصل مضطربة مشوشة ، وهذا مما جعله يتحامل على نفسه ويأتي الى مقهى زيدان . لما رآه شمران متعباً منهوكاً هكذا اجفل ولام نفسه انه نسيه مرة اخرى ، وفي محاولة لان يرفع من معنوياته ويشجعه ، ولان يداري خجله على تقصيره ، لجأ الى المداعبة :

ـ جيت . . والله جابك يا صالح . . .

ولما تطلعت اليه العينان اللتان تبرزان كبيرتين في وجه معروق مـريض ، اضاف :

ـ طويل العمر يسأل عنك . .

ـ خير . . ؟

وضحك بسخرية ، واضاف :

ـ لازم عنده سالفة .

ـ سالفته كبيرة هذه المرة يا صالح !

ـ سولف ، يا ابو نمر . .

ـ راح يعرس على بنت غـريمك ، ويريدك تطبل وتبشر اهل موران : « يا اهل موران الحاضر يبلغ الغايب » . . والباقي عليك !

ـ اقعد عوج واحكِ عدل . . يا ابو نمر .

ـ هذا هو القول ، يا صالح ، ودونك الجماعة اسألهم .

ابتلع صالح ريقه بصعوبة والتفت يتطلع الى الوجوه التي تحيط به وتنتظر اجابته :

ـ ها ، يا جماعة الخير؟

ـ اللي يقوله ابو نمر هو الصدق .

ـ سبحان الله . . المقرود دائماً تلحقه القرادة ، قلنا طويل العمر زين وما مثله ، وغريمنا هو المطوط ، هالحين الواحد مـا يعرف وين يـروح وين يجي ، وشدوا روسكم يا قرعان!

وانفجر الجالسون بالضحك . أما صالح فظل منكراً لا يريد ان يصدق ، لا يريد ان يعتبر ما قيل له صحيحاً ، فاذا لم ينتقم منه الحكيم في الماضي فلا بد أن يفعل الآن. صحيح أنه لا يخاف الانتقام، لكنه لا يحس في جسده القوة الكافية للمقاومة عـلى مواصلة الحرب الى النهاية . عندما هدأ الرجـال التفت الى شمران وقال له :

ـ اسمع يا ابو نمر . . اذا كان طويل العمر وجد امس من يحذي له خيله ونسي صالح . . اليوم لو طرّش امة الثقلين ومعها القراطيس والاختام ، صالح لا يسمع ولا يجيب !

ـ وكلْ الله يا صالح ، والدنيا ما تخلص بيوم .

ـ خلصت ولاّ بكيفها ، والحدب يعرف كيف ينام .

واستمرت موران تنشغل وتتغير ، فالذين لم يسمعوا في الأيام الاولى سمعوا في الأيام التي تلتها ، والذين لم يبدوا اهتماماً ، واعتبروا الأمر عادياً ، ما لبثوا ان وجدوا انفسهم مهتمين بشكل او بآخر ، لان الزوجات في البيوت ابدين اهتماماً زائداً وتساءلن بصوت عالٍ ، وكذلك اولاد المدارس وموظفو الحكومة . أما التجار في السوق فقد انتشرت شائعات بينهم وكلها تؤكد ان الزينات يجب ان ترفع ، والوفود يجب ان تسمى لتقوم بتهنئة صاحب الجلالة . وكذلك الحال بالنسبة للباعة الصغار والمتسببين ، اذ ظلوا في قلق وظلوا يتساءلون ما اذا كانت موران ستجن وتنقلب ، كما حصل عندما عاد السلطان من جولته فيتوقف البيع والشراء .

ولا تتوقف الحركة ولا تهدأ في قصر الخير او حوله ، حتى سمير الذي انجز ثلاثة فصول من « نسر موران » ، بدا انساناً آخر عندما بلغه ان السلطان سيتزوج سلمى ، اذ بالاضافة الى توقفه عن مواصلة العمل في كتاب «السيرة» فإنه استعاض عنه بمجموعة مقالات نشرها في مجلة الواحة : «الانسان والقدر» وقد استعرض في هذه المقالات مجموعة من الاساطير الفرعونية والاغريقية ، وكلها تدور حول قوة المال ونفوذ الاقوياء او الآلهة ، وهذه القوى تلاحق البشر ، تختبرهم ، فالاقوياء الاذكياء وحدهم الذين يتحملون ويستطيعون ان يتجاوزوا المحن ، أما الضعفاء فيسقطون» وهذا ما حصل ، اذ ما ان فرغ من المقال الخامس حتى اصبح انساناً آخر : عاد الى كتابة « السيرة » ، واعتبر « ان الازمة التي لا تقتلني تقويني ، ولا بد ان احتمل ، لان الانسان حيوان اجتماعي اولاً ، وحيوان معاصر ذو ذكاء غير محدود ثانياً » . أما عندما اقترح عليه الحكيم ان يرافق السلطان في رحلته الى ألمانيا ، اثناء شهر العسل ، فقد كان موافقاً ، بل متحمساً .

حماد الذي لم يتأخر في ان ينقل الى السلطان موافقة الحكيم ، وكان يتوقعها ، دون ادنى شك ، اصبح منذ تلك الليلة انساناً آخر باهتمامه ولطفه ، حتى عبد المولى اخذ يبادر الى الاتصال بالحكيم ، واصبح اكثر نعومة واكثر ارتباكاً ايضاً . كانت اجاباته في السابق واضحة جلية ، رغم المجاملة والود . الآن تبدو بشكل مختلف . الحكيم لم يحس بذلك، لكن وجد انه يحب هذا الانسان ، او ربما يقدره ، اذ كان شديد الاهتمام وهو يسأل الحكيم عن صحته ، وما اذا كان لا يزعجه بهذا الاتصال ، حتى اذا اطمأن ابلغه ان رئيسه يريد ان يتحدث اليه .

حتى بدري المدلل الذي فترت علاقاته بالحكيم الى حد كبير ، بعد سفر محمد عيد بذلك الشكل المفاجيء ، خاصة بعد ان عرف اسباب السفر ، فلم يلتق به الا مرات محدودة ، وان استمر على القيام « بالواجب » كما كان يقول في تبرير قيامه بزيارة الحكيم كل عيد ، لكن ظل يتابع اخباره « الطيبة » وينشرها . فعل ذلك حين وقع الخلاف مع سعيد ، وفعل ذلك ايضاً حين جرت حادثة فندق الرابية . أما الاخبار الاخرى فلم يكن بدري ليحفل بها . اكثر من ذلك كان يبدي تذمره حين سماعها . الآن ، في مواجهة الاخبار الجديدة لا يستطيع ان يستمر في التجاهل او عدم الاهتمام ، فبادر الى الاتصال بالحكيم ، متذرعاً باسباب واهية ، لا لكي يهنئه ، كما قال في بداية اللقاء ، وانما ليرد ، بشكل غير مباشر ، على ما قاله له الحكيم قبل سنين ، حين زوّج اثنتين من بناته واحدة لمعاون مدير شرطة موران ، والثانية لقائد حرس البادية ، وبطريقة لا تخلو من مكر اشار اشارة سريعة . لكنها واضحة ، انه فرح للاخبار التي سمعها . وان السلطان سأله عن سلمى فاطرى له جمالها واخلاقها واجتهادها ، وحاول ان يُفهم الحكيم ان دوره في هذا الزواج كان اساسياً . والحكيم الذي تقبل تهانيه حاول ان يصرفه عن الموضوع بسرعة . سأله عن محمد عيد « إنشاء الله وفقّه ؟ » ثم سأله عن حياته في موران وعن اهله . وبدري الذي اجاب بسرعة كان يريد ان ينقل للحكيم الرسالة الأخيرة :

ـ وانا ، يا ابو غزوان ، من ناحيتي عملت اللازم : ما تركت في لحيته شعرة بيضة واحدة ، موبس هيك وصبغت له شعره صبغة . . العفاريت لا

تلاحظها ولا تعرفها !

تقبل الحكيم هذه الملاحظة بغيظ ، قال برخاوة ، وكأنه ينتقم :

ـ الله يعطيك العافية ، يا ابو مصباح ، وتسلم ايدك !

سعيد رفض ان يصدق المصاهرة التي يتحدث عنها الكثيرون في السوق . قال ان الحكيم يروّج مثل هذه الشائعات ليجعل الناس ينسون حادثة الفندق ، وفي محاولة لان يستعيد اعتباره . أما عندما التقى بحماد وتأكد من صحة هذه الاخبار فقد قال :

ـ ابن الحرام مثل القط . . كيف ما رميته ينزل على رجليه !

واضاف بعد قليل وهو يغمز لحماد بعينه :

ـ واحسن شيء ان الواحد يفركها ، يغيب عن العين كم شهر حتى الله يفرجها !

سارت الأمور، رغم بعض الصعوبات ، سيراً معقولاً . وداد التي سافرت الى باريس ، وقضت هناك عشرة ايام ، رجعت بحصيلة مرضية . كان هذا تقديرها ، وقد وافق الحكيم على هذا التقدير . أما سلمى التي كانت في حالة ارتباك ، ولا تعرف كيف تتصرف ، فقد احست وكأنها في حلم ، اذ رغم انها كانت تبدل عشرات الفساتين كل يوم ، وتلبس الاحذية وتحمل الحقائب ، فلم تكن مصدقة كل ما يجري حولها : ان تتزوج ، وان تتزوج السلطان بالذات. لكنها ، مع ذلك ، كانت اقرب الى الاستسلام ، وكأنها مأخوذة ، خاصة حين ترى امها تأمرها ، تطلب اليها بطريقة اقرب الى الحزم ، ان تري اباها الفساتين التي جلبتها . كانت تطلب منها ان تلبس التايور السكلاما مع الحذاء الابيض والحقيبة البيضاء ، حتى اذا لبسته ودارت مرة او اثنتين امامها ، تطلب اليها ان تلبس الفستان التراكواز المفتوح من امام ومن خلف فتحة كبيرة ، وحين تتردد سلمى ، لأنه فستان فاضح ، ولا تحتمل ان يراها ابوها هكذا ، تتطلع اليها بشكل معين اقرب الى الأمر ، فتستجيب مستسلمة وكأنها قطة مروضة .

وبعد كثير من الاستعداد والتأجيل تحدد اليوم العاشر من أيار موعداً لزفاف سلمى !

الـذين تـوقعـوا وانتـظروا وتـراهنـوا حـول العـطلة والـراتب الاضـافي والاحتفـالات تحقق توقعهم ، واعتبـروا انتظارهم مليئـاً بـالـذكـاء والتقـديـر الصائب ، أما الذين تراهنوا فقد خسروا قليلاً وكسبوا كثيراً ، لان مـا اعطي لموظفي الدولة والشرطة والحرس تجاوز راتب الشهرين ، ولان ذلك ترافق ايضاً مع زيادة الرواتب .

ولكي لا يبدو الأمر كله مرتبطاً بالزواج فقد اشير ، عرضاً ، الى مناسبتين اخريين : « معركة الرحيبة ، والتي تصادف ذكراهـا في هذا الشهـر ، وذكرى مـرور ثلاثـين سنة عـلى قيام السلطنـة » وهذا الاجتهـاد بنـاء لـطلب الحكيم واصراره ، « لان الحساد قاعدين لنا ركبـة ونص ، ولا بد ان يغيظهم فرح او احتفالات بهذا الحجم » لكنه في الحقيقة امتلأ تحسباً ان يحصل في هذا اليوم ما حصل في دعوة فندق الرابية « لان لكل شيء اذا ما تم نقصان » هذا ما قـاله لنفسه ، وهو لا يعـرف كيف يخفي انفعالـه وخوفـه ، أما مـا قالـه لحماد عن ضرورة إحكام المراقبة حـول القصور ، وكـا ن يعني قصره بـالذات ، وجمـع الصيّـاع والمشـردين ، فـلأن صـورة رجلين سيـطرت عليـه تمـامـاً : مفضي الجـدعـان وصالح الرشدان ، ولذلك وجد ان انسب صفة يمكن ان يوصف بها امثال هؤلاء الناس هي انهم مشرودون . وحماد الذي هزّ رأسه وضحك اكد له ان قصر الخير محـروس حراسـة جيدة منـذ وقت طويـل ، وانه اتخـذ كافـة الاجراءات لتسير الاحتفالات دون ان يعكرها شيء !

ومثلما حصل اثناء اعتلاء السلطان للعرش ، فقد جاءت وفود من انحاء

كثيرة ، فنصبت خيامها في اماكن عديدة من موران وبدأت الاحتفالات منذ اليوم السابق للزفاف ، كما طافت الشوارع فرقتا موسيقى ، الاولى تابعة للقصور والثانية للجيش، وقد ظن الكثيرون ان السلطان قدّم يوم الدخلة ، لكن الاكثر دراية ومعرفة صححوا هذا الخطأ ، وقالوا : ان ما ترونه لا شيء قياساً للاحتفالات التي ستجري غداً . أما مكبرات الصوت التي نصبت في اماكن عديدة ، وكذلك اقواس الزينة والمشاعل فقد حولت ليل موران الى نهار . وذكر بعض الذين كانوا في مقهى زيدان ، او في مقاهٍ اخرى ، انهم رأوا ثلاث سيارات تابعة للقصر مرت في عدة شوارع ، وربما كان السلطان في واحدة منها، لكنهم لم يكونوا متأكدين لسرعة السيارات، ولان الذي يجلس في المقعد الخلفي في السيارة الوسطى كان يلف شماغة على وجهه بحيث لا تظهر ملامحه .

الخيول التي وصلت الى موران ، وكذلك الابل الطيبة ، جعلت الكثيرين يتذكرون اياماً سابقة ويحزنون ، ثم ما لبثوا ان نسوا الأمر او انشغلوا عنه حين قامت عدة طائرات بالقاء هدايا من الجو ، وقد تسببت ببعض الأذى ، لان ما رافقها من ركض وصراخ ، ثم النزاع والخلاف، بين الصبية والاطفال او من هم أكبر سناً بلغ الأوج، وقد استعيض عن الهدايا في يوم العرس بأوراق ملونة .

قصور الخالدية بدت شعلة نار ، وكان من السهل تمييزها من مسافة بعيدة ، وقد سار نحوها الكثيرون في الليلة السابقة للزفاف ، لانهم توقعوا ان يشهدوا العاباً واحتفالات كبيرة . لكن الامر اقتصر في هذه الليلة على فرقة موسيقى القصر ، وعلى القهوة تقدّم لمن يستريح في الخيمة الهائلة القريبة من الابواب الجانبية للقصر . وقد لاحظ الذين وصلوا الى هناك او اقتربوا اكثر من غيرهم حركة نشيطة واحمالاً كثيرة تنقل الى داخل القصور ، لكنهم ، مع ذلك ،لم يميزوا شيئاً .

حماد مثل عادته في هذه المناسبات : رابط في رئاسة الجهاز ، وعن طريق التلفون كان يتابع ، يسأل، ليتأكد . وهذه المرة ، اكثر من مرات سابقة ، لم يغادر الرئاسة سوى مرة واحدة ، حين استدعي الى القصر لمقابلة السلطان ، ولم يبق هناك سوى نصف ساعة ، كان خلالها قلقاً ، ثم عاد .

الحكيم كان متحسباً خائفاً ، لا يعرف ، وهو يسمع ويرى كل هذا ، هل يفرح ويعبر عن فرحه ؟ هل يظهر امام الناس ام يتوارى ؟ انه شديد الارتباك والحيرة ، لا يستطيع ان يكون في قصر الحير ، الذي تحول الى خلية من البشر ، لكثرة من فيه ، ولا يعرف لماذا هم موجودون او ماذا يعملون ، كما لا يستطيع ان يبقى كل الوقت في الخالدية حابساً نفسه في جناحه ، لان مطيع ، الاقرب اليه ، كان شديد الانشغال بالاعداد الخاصة التي سيصدرها بهذه المناسبات المجتمعة معاً ، ولذلك ظل يتنقل من مكان الى آخر ، يشرف ، يتابع ، يحاول التأكد ان كل شيء يسير سيراً حسناً ، وفي نفس الوقت يمتلىء قلقاً ان يكون مقاله ليس في المستوى الذي يريد او يتمنى ، الاتصالان اللذان تمّا بينه وبين الحكيم كان قصيرين من ناحية ومربكين من ناحية ثانية . ود الحكيم لو انه في حالة نفسية افضل ، او لو كان حوله بعض الناس الذين يرتاح لوجودهم معه . حتى السلطان الذي طلب ان يراه لم يدم لقاؤهما اكثر من عشرين دقيقة ، وبدا خلال هذه الدقائق مشغولاً او منتظراً ، واعتبر الحكيم اسئلة السلطان واستفساراته أقرب الى المجاملة.

وداد التي بدت مسيطرة على اعصابها خلال الأيام السابقة ، عاودها من جديد الارق ثم الصداع ، وخشي الحكيم ان تقع فريسة المرض، فبذل جهداً خارقاً لتهدئتها والتخفيف عنها ، لكنها ، في اغلب الاحيان ، لا تسمع ما يقوله لها ، بل وكثيراً ما نهضت اثناء حديثه لتتأكد من امر من الامور او تتفقد حاجة من الحاجات . وكان هذا يترافق مع الحدة والاوامر .

أما في اليوم السابق للزفاف، وحينما عادت من القصر، بعد ان التقت بزوجة السلطان، الأميرة عدلة، والتي اتصلت بها عدة مرات، واصرت على ان تراها لامر هام ، وقد ارجأت وداد موعد اللقاء اكثر من مرة ، متذرعة بالأشغال الكثيرة التي عليها القيام بها الى ان رأتها اخيراً ، ودون مواربة وبكلمات مباشرة وقليلة قالت لها الاميرة عدلة ما يجب ان تقوله!

وداد وهي تروي لزوجها ، بعد ان اصطحبته الى غرفة بعيدة عن الضجة ، كانت موزعة المشاعر مضطربة ، كانت موزعة بين مشاعر الخوف واللذة . واستفسرت منه باعتباره اختصاصياً ، وصاحب تجربة ايضاً ، ما اذا

كانت المرأة جادة وتعني ما تقول ، أم ان الأمر كله لا يتعدى الحسد ومحاولة اخيرة لتخريب العرس . والحكيم الذي سمع باهتمام ما قالته زوجته طمأنها في النهاية ، ووعد ايضا ان يهيىء لسلمى دواء مناسباً . اكثر من ذلك فكر لو « يخرّب » السلطان في ليلة الزفاف . او على الأقل يجعله في اضعف حالاته . لكنه اعتبر هذه المخاوف مجرد هلوسات نساء « ولا تمت الى العلم باية صلة » .

وعشرات الاشياء الاخرى حصلت في موران خلال الأيام التي سبقت الزواج والتي تلته ، فالهدايا التي جيء بها من اماكن عديدة ، والتي احتفظ بها ، كمفاجآت ، الى الوقت المناسب ، والوفود التي امت قصور الخالدية للتهنئة ، والولائم التي اقيمت ، ثم مهرجانات الفروسية التي جرت لثلاثة ايام متوالية ، اليوم الذي سبق الزفاف ثم اليومين التاليين ، والمشاعل التي حملها تلاميذ المدارس في ليلتين متواليتين ، والمباريات الرياضية التي اشرف عليها الامير فواز ووزعت خلالها هدايا ثمينة وكثيرة ، كل هذه غيّرت موران ، لا بل قلبتها .

شمران ، الذي صمم واقسم ان لا تدوس رجله السوق لاسبوع كامل : « والى ان ترفع الزبايل التي ملأت موران ويصمت آخر غراب ناعق » قال لاثنين كانا يزورانه في بيته في الليلة التي سبقت ليلة الزفاف :

ـ الزواج سّنة يا جماعة الخير ، لكن اللي تشوفونه ما هو بزواج ، هذا فسق وقلة دين ، وظني انه ما يمر على خير وسلامة .

أما صالح الرشدان الذي ملأ الدوي رأسه ، واحس ان الدماء تغلي في عروقه ، لما يسمعه ولما يتحدث فيه الناس حوله ، فقد راودته فكرة ان يحمل طبله ويخرج الى الشوارع ، وان لا يترك شارعاً الا ويمر فيه ، حتى اذا وصل امام قصر السلطان قال الذي لا يقال . لكنه ما لبث ان صرف النظر عن هذه الفكرة « اذا كان الناس كلهم مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة شيفيدك طبلك يا مقرود؟» .

لقد عنت لصالح فكرة المقاطعة ، فقرر ان يبقى في بيته ، حتى زوجته واولاده خرجوا الى طرف الشارع او وسطه، وظل وحيداً. تذكر

ايامه كلها ، تذكر حياته عندما كان شاباً وقوياً ، كيف كـان يخافـه كل من في السوق . كانوا يخافونه لقوته ، ولانـه لا يوفـر احداً او شيئـاً . الآن يحس انه استنفـد قـواه ، لم يبق له الا القليل ، وحتى هذا القليل يغادره ، يفلت منه يوماً بعد يوم . قال لنفسه وقد رأى في السماء بعض الشهب النارية : « عندما كـانت المرجلة ، وعندما كـان الرجال ما شفنا احداً منهم ، هالحين ، لما انهد الخيـل وراحت الخيـل ، شـدوا عـلى الكـلاب سـروج وقـالـوا لهـا اسبحي وطيري . . لكن تخسا » .

حتى شداد الذي جاء من يقول له ان موران امتلأت بالخيل ، ولا بد ان تنزل خيوله الى السباق ، فقد رد ساخراً :

ـ الاصايل ما تلعب مع المضرّبات !

وفهم كلامه على اكثر من وجه ، لكن تعريضه بالحكيم لم يكن ليخفى .

أما مفلح المطوّع الذي ثقل سمعـه اكثر من قبـل وخفّ بصره فقـد رأى الحركة الزائدة ، واحس ان هناك شيئاً غير عادي فسأل بخوف :

ـ ها يا جماعة من مات ؟

ولما كان مطلق ذلك المساء غـائباً ، فقد حاول اكثر من واحد ان يصرخ باذنه ان السلطان سيتزوج في الغد ، لكنه ظل يسأل :

ـ ها . . من مات ؟

ـ . . .

ـ من ؟

ثم شغلته الاعلانات التي نشرت في الجرائد عن « الاعداد الخاصة » : اذا كانت الجرائد في الأيام العادية تكذب مرة ، فـانها في المناسبـات تكذب مـائة مرة : مجموعة من المنافقين واللقامين ، وكل واحد منهم يريد أن ينافق أكثر من الآخر ، وهات يا كذب . وباية مناسبة ؟ مناسبة زفـاف الآنسة المصـونة بنت المحملجي لصاحب الجلالة المفدى خزعل بن خريبط . وكأنه اول زواج على الارض ، زواج آدم وحواء » !

يصمت قليلاً ثم يتابع : « وطبيعي على رأس الكذابين والمنافقين شيخهم ، العوج ، مطيع . لكن والله . . والله لا بد ويجي يوم وتطلع هذه المقالات كلها . ها يا جماعة الخير : من كتب هذا ؟ لماذا قلتم هذا ؟ وتشوف دموعهم ويطلبون الشفاعة اولاد الزواني وكأنهم لا يحملون كتابهم بشمالهم او كأنه ما هو معلق برقابهم مثل الرسن . يتصورون ان الناس تنسى ، تسامح ، ويتصورون ان لا احد يعرف كم لهطوا وكم سرقوا . . لكن بسيطة . . يجي يوم ونشوف » وظل يسمع ويتابع غير حافل بالحركة حوله او بالجنون الذي غرقت فيه موران !

بدر نوع آخر ، اذ ما كاد يرى اباه حزيناً مهموماً ، وهو يتابع الاسهم النارية التي تملأ السماء ، ويرى موران تغرق في شعلة الضياء ، حتى قال بجدية اقرب الى النرفزة :

ـ اذا ردت مني يا بويه اخلي ظلمة موران تدوّخ الحرامية . . بس قول .

ويبدأ يشرح لابيه كيف انه يستطيع ، بسهولة كبيرة ، قطع التيار الكهربائي عن موران كلها ، وان ما سيعمله لا يمكن اكتشافه او اصلاحه بايام ، وشمران الذي هز رأسه دلالة الفهم ، لا الموافقة ، قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ تظل ظلمة القبور اخير لهم . . وما مثلها يا وليدي .

ولم يفهم كلامه على نحو واضح . أما عندما جاء نجم ، مثل عادته كل يوم ، ووجدهما يتحدثان عن ايام قديمة ، وكانا غارقين في ظلمة لا تنيرها الا بين فترة واخرى الأسهم النارية ، وبعد ان حيّا وجلس وسمع طرفاً من الحديث . قال بما يشبه السخرية :

ـ هذا ما هو اول عرس ولا آخر عرس ، وهذا السلطان ابن سلطان ، وباكر ابنه او اخوه يجي مكانه سلطان . . الا اذا تغيرت موران .

صرخ ابوه بحدة وكأنه شعر بالتعريض :

ـ موران اللي كانت ، مورانا ، ما بقي منها حجر . . يا وليدي ، تغيرت . وهذا اللي جاب البلا ، وبعد تريد اكثر . . ؟

ـ اللي اريده يا بويه موران ثانية ، موران جديدة ، وما هي مثل ما تشوفها اليوم !

ـ خلنا نمشي يا وليـدي ، خل كم واحـد يقول الله يـرحم شمران ويمشي بجنازته قبل ما تصير موران اللي تسولف عنها .

ـ تصير . . يا بويه !

ـ والله ، يا وليدي ، بعد ما راحت الغالية ، اللي كانت ، ما عاد بالنفس شيء !

واستمر الثلاثة يتابعون الاسهم النارية ، ويتذكرون . . ويحلمون .

ومثلها لم تنم موران في هذه الليلة لم تنم في الليلة التي تلتها ، كانت ، ليلة العرس جنوناً لم يتصوره احد ولم يتوقعه .

في صباح يوم السابع عشر من ايار اقلعت من مطار موران ثلاث طائرات تابعة للقصر ، الاولى ، في الصباح الباكر ، وهي طائرة الحراسة . وبعد ثلاث ساعات اقلعت طائرة المؤن والمرافقين والمرضى والخدم والطباخين والذين يصنعون القهوة. وبعد خمس واربعين دقيقة ، اي في تمام الحادية عشرة ، اقلعت طائرة السلطان خزعل ، كان على متنها جلالته وعروسه وام العروس وثلاثة واربعون من الحرس الخاص والمرافقين الشخصيين ، واثنان من ابناء السلطان ، اضافة الى اختين ايضاً .

الحكيم تخلّف في موران لان لديه الكثير من الاعمال يجب ان ينجزها ، لكنه وعد وداد ، بتأكيد جازم ، ان يلتحق بها في اوائل حزيران ، على ان يمر على الاولاد في لبنان لكي يطمئن عليهم « ولكي ابشرهم ايضاً » .

سمير سافر على طائرة السلطان ، وقد حيّا جلالته مرتين : مرة اثناء ما كان السلطان ذاهباً الى دورة المياه ، والثانية عند اسفل السلم ، بعد الوصول . حاول ان يتفق مع جلالته في المرة الثانية على مواعيد لمتابعة كتاب السيرة . نظر اليه السلطان وصهل ، وبعد قليل رد عليه بمداعبة وضيق : « خلنا نستريح يا وليدي ، هالحين ، وبعدها الله كريم ! » .

موران التي استراحت بعد الاحتفالات « والأيام الكبيرة » كما وصفها مطيع في المقال الذي نشره ، حاولت ان تعود الى حالتها الطبيعية ، لكن الأمر احتاج الى عدة ايام لكي ترفع الزينات وتنظف الشوارع والميادين وتُنزل

مكبرات الصوت والخيام ، وبدا ان الناس ، بعد ان امتلأت اعينهم وآذانهم بما رأوا وبما سمعوا ، اصبحوا في حالة من التعب والتساؤل لا يمكن ان يتغلبوا عليها الا بالعودة الى حياتهم الطبيعية المعتادة ، وكان يفترض ان يبدأوا بعد يوم او اثنين اسبوعاً جديداً مثل كل اسابيعهم الكثيرة التي مرت .

عندما مالت شمس يوم الخميس نحو الغروب وانكسرت حدتها ، بدأ شمران يعدّ فراشه على السطح ، كما يفعل عادة مع بداية كل صيف . رشّ سطح الدار الى ان ترطب ، هيأ قهوته ، تخفف من اكثر ملابسه ، ولم ينس ان يحمل معه الراديو لان برنامج « البادية » الذي يسمعه كل خميس يذّكره ويشده .

كان وحيداً على السطح ، لان « العجيزة » كما يسمي ام نمر ، لديها ما تفعله في الدار . تحرك شمران اكثر مما يفعل عادة . ازاح البساط ، أعاد ترتيب الوسائد ، قلّب النار ، غسل فناجين القهوة مرة اخرى . كان يفعل ذلك دون وعي ، ودون تصميم ، فقط لكي يشغل نفسه . حين انتهى من هذه الاعمال الصغيرة ارتمى على الفراش . ود لو يغني او ان يصرخ . وعنّ له لو يقف على رجل واحدة . ابتسم ، لانه لا يعرف لماذا تخطر في رأسه مثل هذه الافكار . قال في نفسه « يبقى الانسان حياته كلها طفلاً بشكل ما » وتذكر صالح الرشدان ، قال : « الى ان يموت يظل مثل ما هو ، ما يتغير » . وتذكر الحكيم وتذكر ما قيل في مقهى زيدان « البنت ، من اول ليلة ، تعورت » وان سفرة السلطان اليوم لها علاقة بالمعالجة اكثر من اي شيء آخر ، قال في نفسه « اذا الواحد تاجر بلحمه ويش يبقي لنفسه ولربه ؟ » .

مع اول نسمات رخية استعاد نفسه . امتدت يده الى الراديو . انه لا يريد الا برنامج البادية ، « الاشياء الثانية لها اصحابها » لا يحب اخبار موران ولا يصدقها . « الواحد منهم يبحّر بك ويكذب ، لا خجل ولا حياء » ولا يحب الدراويش « ما عندهم الا قال الله وقال الرسول ، وهم لا يعرفون لا الله ولا رسوله » .

فتح الراديو . « اذا كان غير برنامج البادية اخرسه ، اموّت صوته » . موسيقى . « هذي ما يخالف » ويعدل جلسته ، يسحب من تحت الوسادة

ساعة الجيب ، ينظر اليها بعد ان يميلها بزاوية حادة ، لكي يرى عقاربها على الضوء الذي يصل اليه خافتاً من اسفل الدار ومن عمود الكهرباء في الشارع . « ثلاث دقائق وتصير سبع » . يقّرب الساعة من اذنه لكي يتأكد انها تعمل ، يغلق غطاءها ويملؤها. يضعها مجدداً تحت الوسادة. يصب لنفسه فنجاناً من القهوة ، يشربه بلذة وتمّهل . الراديو لا يزال يبث الموسيقى . يتذكر انه سمع مثل هذه الموسيقى في اوقات معينة. يحرك يده دون اهتمام، يحس ان اكثر من ثلاث دقائق مرت . يتطلع الى السماء ، يتطلع حواليه . يسحب الساعة من جديد « سبع وخمس دقائق » يقلب شفته استغراباً « أولاد الحرام ما عندهم الا طن . . طن ، استكثروا علينا برنامج البادية ! » حول مؤشر الراديو في اكثر من اتجاه ليتأكد انه لم يخطىء . كانت المحطات الاخرى اضعف ومشوشة . قال لنفسه « هذي الطن . . طن هي موران » اعاد المؤشر ، انبعثت الموسيقى مرة اخرى . هز رأسه بحقد . قال : « خلنا نشوف تاليها ».

فجأة توقفت الموسيقى . قال شمران « نايمين اولاد الحرام ونسوا برنامج البادية » قال المذيع بصوت صلب مرتجف :

ـ ايها الشعب الكريم انتظروا اخباراً هامة .

قال شمران لنفسه : « ويرعص ، ملعون الوالدين » ودارت عيناه في الظلمة الخفيفة « اخبار هامة ؟» وبعد ان هز رأسه عدة مرات : « عرس وعرّسوا ، وهالحين وشنهو وراهم بعد ؟ عرس ثاني ؟ » .

وعاودت الموسيقى ازيزها في اذني شمران ، قال في نفسه « لعن الله والديكم يا اولاد الحرام ما عندكم غير الطن . . طن ؟ » .

وسرح في افكاره ، استعاد وقائع الأيام الماضية ، وفجأة تذكر خريبط ، قال في نفسه : « كل العوج من الثور الكبير ، وذاك الغيم جاب هذا المطر». ومرت صور موران في ذهنه مثل شريط من النار ، كيف كانت وكيف هي الآن . كان الناس يتعبون من اجل انتزاع القرش، كانوا يركضون ، يسافرون من مكان الى آخر ، وكانوا لا يملون من المساومة . « الآن ، كل شي تغير ، الفلوس تجي على البارد المستريح ، بس الواحد يكون منافق ويبّوس

الاكتاف واللحى ، وبه حيل ويشيل » لم تعد الفلوس تعني شيئاً لذيذاً او هاماً ، ولم تعد تعني منزلة او امكانية ، انها مجرد تراكم لا يعرف الى ماذا سيؤدي والى اين سيقود .

وفجأة يخرج من ذكرياته :

ـ ايها الشعب الكريم . . انتظروا اخباراً هامة !

ـ اه منكم يا اولاد الحرام مثلكم مثل حفّار القبور ، وهو يسري يقول : يا فتاح يا كريم ؛ ابوكم وابو اخباركم .

هكذا قال لنفسه بصوت عالٍ ثم اضاف : « ورّوحتوا علينا احسن ما عندكم ، برنامج البادية ، لكن عسى كيدكم يرتد عليكم » .

وبدأ من جديد ، مع هدير الموسيقى الحاد ، يردد في نفسه : « اخبار هامة ، اخبار هامة » وهو يستعرض في ذهنه ما يمكن ان يعتبر اخباراً هامة ، لم يتصور شيئاً محدداً او ممكناً ، قال وهو يبتسم « الذي يجيني بخبرهم اذبح له خروف واحبّه من عينه » .

كان اول الواصلين ابنه نجم :

ـ سمعت يا وليدي ؟ يقولون بالراديو انتظروا اخباراً هامة . .

ـ الدبابات يا بويه تملا السوق .

ـ دبابات ؟

ـ دبابات وجيش وكل بلايا الله .

ـ وعسى انها فرجت، يا وليدي؟

ـ ما اظنها ، يا بويه ، وقلت اصل البيت قبل ما تنحاس وتتلاص .

ووصل بدر . كان بادي الخوف ، اقرب الى الارتباك ، وقال ان الراديو الكبير الـ RCA الذي عنده ، ومن اذاعات كثيرة ، من لندن وصوت اميركا ، سمع ان احداثاً خطيرة وقعت في موران ؛ وانه كان يريد ان يواصل سماعه ، لكن الجنود طلبوا منه ان يغلق دكانه فوراً وان يغادر .

ما كاد شمران يسمع هذه الاخبار حتى صرخ :

ـ ام نمر . . يا ام نمر . . ترى ان طاح شيخ القوم طفيت نارهم !

والتفت الى ابنه نجم وسأله :

ـ ها يا وليدي علينا او حوالينا ؟

ـ ما يندرى يا بويه !

والتفت بدر الى الراديو ، من محطة الى اخرى ، لعله يكون اول من يسمع لينقل الى الآخرين ، وابوه الذي بدا مهتماً يتابع ويصغي ، كان مهتماً ببرنامج البادية ، لعلهم يذيعونه ، رغم التأخر ، أما نجم فقد غرق في غرفته ، يجمع كتباً ويحرق اوراقاً ، ويتنقل من مكان الى آخر في البيت ، دون ان يلتفت الى صوت بدر الذي كان مشغولاً بمد الاسلاك الكهربائية لينقل الراديو الكبير إلى السطح ، وكان يصرخ ويطلب من ابيه المساعدة .

نمر كان آخر القادمين ، جاء بعد ان أُغلق مقهى زيدان ، وما كان ليفعل ذلك لولا تلك السيارات التي دارت في السوق تعلن منع التجول ، وتطلب من الناس ان يلتزموا بيوتهم فوراً ، وتهدد كل مخالف بتعرضه لاطلاق النار . كان نمر منفعلاً غاضباً كما لم يكن هكذا في حياته ، لانه لا يريد ان يسمع الاخبار مثل اي انسان آخر ، يريد ان يراها ، ان يشهدها لحظة وقوعها ، خاصة وانه انتقل الى عدة اماكن ليرى الدبابات ، كما احصاها بنفسه حول قصر الغدير وقصور الخالدية ، أما قصر السعد فلم يسمح لاحد الاقتراب منه . كان قلقاً مشوشاً ، ومما زاد قلقه ان الضابط غنيم السهيل ، الذي رابط بدباباته الثلاث في ميدان السلطان خزعل ، ابلغه وهو يبتسم « ان كل شي انتهى ، واننا سيطرنا على جميع المرافق والنقاط الحساسة » وحين اراد ان يستوضح منه ، ان يعرف اكثر ، رد عليه : « اصبر والصباح رباح » وانشغل مع جنوده ، ورفض ان يتكلم اكثر من ذلك .

كان نمر لا يعرف كيف يهدأ او ينتظر ، كما لا يستطيع ان يترك الآخرين يهدأون. «يا جماعة خلوا ببالكم : كل إنسان، وافعاله . . واليوم يوم الحساب» وتمر في ذهنه الصور والاطياف «لا شفاعة لاحد ، ولا لحية مشطة ، وتعالوا

نتحاسب : هذي . . ما هي صوركم ؟ وهذا الكلام ما هو كـلامكم ؟ كنتم تسبّحون وتمجّدون ، وكنتم تتصورون الناس مثل الغنم ، وان الدنيا باقية لكم للابد » ويضحك بتشفٍ ، وحين يسأله ابوه عما رأى وما سمع يهتـاج وتختلط الصور مع الاحلام :

ـ غنيم قال لي : كـل شي خلـص ، وانا بعيني شفت ، ما تركت مكان الا وشفته . . .

يصمت قليلاً، تتغير لهجته :

ـ وباكر الدم للركب .

ـ دم من يا وليدي ؟

ـ دم الخونة والجواسيس واللقامين والمنافقـين واولاد الزواني ، وكـل عدو للشعب . .

ـ يكفى موران ، يا وليدي ، اللي صار فيها .

ـ بعد ما صار شيء يا بويه ، وباكر تشوف !

ـ اللي صار يا ابن الحلال يكفينا وزود .

ـ غداً تطلع السجلات ، تطلع الجرايد والمجلات وتتعلق المشانق .

ـ فأل الشيطان ولا فالك ، يا وليدي .

ـ لا تخف يا بويه ، لقد جاء وقت الحساب .

ـ خلك من هذه السوالف ، والحساب عند رب العالمين .

كان شمران حزيناً اقرب الى اليأس ، لا يريد دماء او حساباً ، لانه لا يثق بكل ما يراه حوله ، أما هذا الذي يحدثه عن المشانق والجرائد فانه يضيف الى حزنه حزناً ، ويجعل يأسه مرضاً لا شفاء منه . ونمر الذي يتحرك مثل بندول ، ويتطلع حواليـه فتتراءى لـه الوجـوه والمشاهـد فيضحك ويهـز قبضته ورأسـه ويتوعد ، وتخرج من فمه همهمات اقرب الى التهديد ، هـذه الحركـات كانت تثير شمران اكثر مما تطمئنه ، وتستفزه اكثر مما تريحه ، قال لنمر غاضباً :

ـ يا ابن الحلال امسك الارض لحين ما نشوف دربنا ، ونشوف اللي لنا واللي علينا .

ـ كل شيء خلص يا بويه ، ومن حلق غنّيم لاذني ، وما هي قيل عن قال .

ـ والسلطان واولاد خريبط ؟

ـ صاروا اثراً بعد عين !

عصر الخميس ذاته اتصل حماد بالحكيم . كان اتصالاً مرتبكاً قصيراً ، وقد اقتصر على امر محدد : « اكلمك من القصر ، يا ابو غزوان ، ولي العهد الامير فنر يطلب منك ان تبقى في البيت وراح نتصل بك مرة ثانية » .

والحكيم الذي كان في حالة نفسية متوترة ، اقرب الى الحزن ، وقد توقع وتمنى ان يكون اصدقاؤه قريبين منه ، احس لاول وهلة بالراحة وهو يسمع صوت حماد ، لكنه بعد قليل احس بالقلق . كان يود لو طالت المكالمة ، او لو تخللتها اشارات اخرى اكثر وضوحاً . ثم ان حماد لم يتعود ان يحدثه بهذه الطريقة ، قال الحكيم في نفسه : « لا بد ان يكون الامير فنر الى جانبه ، ولذلك خجل ، لم يكن مرتاحاً او على سجيته لكي يتحدث ويطيل » ولاحظ أيضاً ان الصيغة لا تعجبه ، ماذا يعني « ان ولي العهد يطلب ؟ هل يقصد ان سموه سيقوم بزيارة للتهنئة ؟ كان من السهل ان يُقال هذا الشيء بصيغة افضل ، بصيغة حضارية ، لكنهم بدو ، لا يقدرون ولا يعرفون اصول التصرف » .

بعد قليل فكر الحكيم ان يتصل بحماد ، لكي يستفسر منه « لان هذه هي المرة الاولى ، يا ابو راشد ، التي يزورني الامير فنر ، ولازم نبيض الوجه بهذه الزيارة » ، لكن اين حماد الآن ؟ انه يضيع ، بعد لحظات من وصوله الى اي مكان ، يختفي تماماً . يتذكره حين كان يصل الى قصر الغدير او قصور الخالدية ، ما يكاد يغادر غرفته حتى تختفي آثاره . الآن لا يعرف من اي القصور اتصل به .

كان عبد المولى مضطرباً ومتحفظاً أكثر من حماد، اكد للحكيم ان رئيسه غير موجود ، ولا يعرف اين ، او متى يعود ، وحين اكد له الحكيم انه اتصل به قبل ساعة من القصر ، نفى عبد المولى معرفته ، وصمت . ولما سأله من جديد كيف يمكن العثور عليه او الاتصال به اكد له ان ذلك مستحيل تماماً ، وصمت . أما حين صرخ الحكيم بحدة طالباً البحث عنه ، فقد رد عبد المولى :

ـ اذا اتصل بي يا ابو غزوان سابلغه ضرورة الاتصال بك ! .

الحكيم حائر مضطرب : من الشرفة الداخلية ، في محاولة لتأكيد اهميته او عدم اهتمامه . حيث ينتقل من مقعد إلى آخر، أوينظر إلى الأشجار أو إلى السماء، ثم فوراً، وخلال دقائق، إلى الشرفة الأمامية، يرقب المدخل والكراج وغرفة الحراسة، ويتنصت الى الشارع، ثم عودة أخرى الى داخل البيت، ينظر إلى التلفون بحقد. يريده أن يرن لكن سكون البيت يزيد هذه الآلة جموداً أقرب إلى الموت.

ويحار الحكيم اكثر . ماذا يفعل ؟ هل يبقى جامداً هكذا ؟ لو ان وداد الى جانبه لكان أكثر ذكاء واكثر شجاعة ، ولساعدته ايضاً في ان يفعل شيئاً بدل هذا الانتقال الابله بين شرفة وشرفة، بين مقعد وآخر!

قال لنفسه بنوع من الغيظ « طول عمرهم هكذا : مثل السلاحف ، يختبئون وراء الصمت والفوضى لكي يخفوا عجزهم ولؤمهم » وتراءت له صورة الامير فنر « المثال الحي والقوي للسلحفاة الصحراوية : ساكن ، غامض ودائم الصمت لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، حتى السلطان لا يفهمه». وفكر ان يخرج من البيت ، ان يغادره الى اي مكان « اذا كان لهم مزاجهم فانا لي مزاجي ايضاً ، ثم لم اعد ولداً » .

وخلال اقل من ساعة اتصل مجدداً بعبد المولى :

ـ ها ، يا ابني ، وصل معلمك ؟ اتصل ؟

ـ ابداً يا ابو غزوان .

ـ وانت اتصلت ؟ فتشت عنه ؟

ـ بحثت عنه في كل مكان لكن ما وجدته .

ـ والحل ؟

ـ الرأي رأيك يا حكيم !

ـ طيب ، حاول يا ابني وبلغني بالنتائج .

ـ امرك يا ابو غزوان !

« هذا الحماد كان لازم يبقى مثل القملة المفروكة . كان لازم يبقى تحت الجزمة ، بمجرد ان تركته ، مديت له الحبل ، افلت ؛ ما عاد راسه يحمله ، صار مثل الثور ، وهذه المرة على من ؟ عليّ، لكن بسيطة !» .

وفكر الحكيم ان ينسى ذلك كله : « انا بالاساس مرهق ولازم ابقى في البيت ، واللي يجي اهلا وسهلا » . وحاول ان يتمدد ويستريح ، لكن فجأة تذكر مطيع : « الواحد ما له الا اقرباؤه » واتصل بمطيع . في البيت غير موجود . « خرج بعد اتصال تلفوني » في المكتب « غير موجود طلب الى القصر » وحاول بكل الوسائل ان يعرف اين هو او من طلبه فلم يظفر الا بمعلومات زادته تشويشاً . قال له سكرتير مطيع « بدأ بكتابة الافتتاحية ، وحوالي السادسة اتصلوا به من القصر فذهب ، ولا نعرف اي شيء آخر يا حكيم » .

واتصل بنادية :

ـ انا عايز حماد يا نادية ولازم اتصل به ، وين ممكن يكون ؟

ـ علمي علمك ، يا عمو .

ـ ما قال ما حكى وين هو ؟

ـ ابداً يا عمو ، مثل عادته دائماً !

ـ طيب يا نادية اذا اتصل خليه يتصل بي فوراً .

ـ حاضر ، يا عمو !

« لن اسمح لاحد ، في المستقبل ، ان يتعامل معي بهذه الطريقة ، او ان يتكلم بصيغة البرقيات . يجب ان تكون المسائل واضحة، واضحة تماماً » .

وانتقل مرات ومرات بين الشرفة الداخلية والشرفة الخارجية ، وفي كل مرة يقترب من التلفون يتطلع اليه بحقد ، أما اذا ابتعد فكانت حواسه كلها تتركز باذنيه ، لعله يسمع رنينه .

تنكسر الشمس ، تميل نحو الغروب . تهب نسمة طرية ، يحس الحكيم انه الآن اكثر رغبة لان ينسى ، لان يبتعد عن هذا الهاجس « . . . وكنا في ايام سابقة نخط كم كلمة في الخرطوش ، طلقنا هذه العادة ، ولله الحمد ؛ أما النظرية فقد نامت نومة اهل الكهف » وفكر ان يكتب شيئاً عن الأيام الماضية « كانت اياماً كبيرة » وهذا تعبيره بالذات الذي ردده عدة مرات امام مطيع ، ولم يتأخر مطيع لكي يستعمله عنواناً لاحدى الافتتاحيات . واستبعد فكرة الكتابة ، وجد انه في وضع نفسي متوتر « الكتابة والانفعال عدوان ، على الانسان ان يكتب بعقل واعصاب باردة ، والا اصبح اقرب الى الشعراء » واجّل هذه الفكرة « كل شيء بوقته حلو » .

البيت فارغ وموحش. «لماذا تركتهم يذهبون». يتنقل بين غرفة واخرى . يتطلع الى الاثاث والجدران ، كل شيء يذّكر بالذين رحلوا . يحس انهم بعيدون ، بعيدون جداً . لماذا تأخر؟ لماذا لم يسافر معهم ؟ هكذا سأل نفسه بنوع من المرارة . وفكر ان يكتب رسالة الى غزوان . المشاعر التي يعيشها الآن موحية وغنية ، ولذلك يمكن ان يكتب له رسالة مؤثرة !

تطلع من الشرفة الأمامية ، رأى ابا عبد الله يحمل ابريق الشاي ويتجه الى طرف الحديقة . « دائماً الى نفس المحراب » فقرب اشجار النخيل تعود ابو عبد الله ان يقضي ساعاتٍ كل يوم . كان يتمدد هناك ولا يفعل شيئاً سوى سماع الراديو . «من يوم ما وصلت هذه العفاريت ، الترانسزستورات ، وهم عابدينها بدل الله . دائماً على اذانهم ، ولو قدروا كان وضعوها تحت جلودهم » . كاد ان ينادي عليه ، ان يتحدث معه ، انه بحاجة لانسان ، لكنه استبعد الفكرة « الواحد منهم عقله افرغ من قلب ام موسى » . واذا كان

الحكيم قد اعتمد في ثقافته على المصادر والامهات ، او كمايقول لنفسه « ذهبت اليها في مظانها » فانه يعتبر الراديو وسيلة مبتذلة للثقافة ، وتذكر القصص التي انتشرت في حران قبل سنين حول الامير خالد المشاري والراديو ، فابتسم وهو يتابع خطوات ابي عبد الله المحـاذرة.

بين السابعة والثامنة بدأت تتناهى الى سمعه اصوات بعيدة . قال لنفسه « موران . . ويوم الخميس » وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف : « وربيع » .

وهـو يتنصت ، وكان يقف عـلى الشرفـة الامـاميـة ، رأى ابـا عبـد الله مهرولاً ، والراديو على اذنه . كانت نـظراته والتفاتاتـه متسائلة . تـطلع الى الحكيم بطريقة غريبـة ، قال الحكيم في نفسه « مهبول واخذته سحبة عتابا » انحنى قليلاً على الشرفة وسأل مداعباً :

ـ ها ، يا ابو عبد الله ، موال او عتابا ؟

تطلع اليه من تحت وهز رأسه نفياً . سأله من جديد برخاوة :

ـ لازم يكون شروقي ؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا ابو غزوان !

ـ احك لنا شو سامع ؟

ـ يقولون اخبار هامة .

ورفع ابو عبد الله صوت الـراديو الى اقصى مـا يستطيـع عندمـا انقطعت الموسيقى وتوقع ان تعاد اذاعة البلاغ الذي ما انفك يذاع بين فترة واخرى. لما سمع الحكيم انتفضت حواسه كلها واعتـراه الارتباك . « اخبـار هامـة ؟ ماذا يمكن ان تـكـون ؟ وهو . . ايسمـع الاخبار من الـراديـو ؟ ايكـون آخـر من يعرف ؟ » .

ومن جديد بدأ بالتلفون : حماد لم يتصل ولا يعرف اين هو ، كما ابلغه عبد المولى . أما مطيع فلا يزال في القصر ولا يعـرف متى يعود . واتصـل بالامـير ميزر ، لكن لا احد يرد على التلفون. أما حين اتصل بقصر الغدير فقد انتظر طويلاً قبل ان يتلقى جواباً. كان الجواب قبل ان يسأل:«اتصلوا يوم السبت » .

واتصل بنادية من جديد . قالت ان حماد لم يتصل ولا تعرف اين هو او متى يعود . قال لها ، وبدا مرتبكاً :

ـ ما قال لك شيء يا عمو ؟

ـ ابدا !

ـ وانتِ ما سمعت شي يا نادية ؟

ـ مثل شو يا عمو ؟

ـ يعني هيك . . هيك .

ـ ما فهمت يا عمو .

ـ طيب ، طيب يا نادية ، انا موجود في البيت ، فاذا اتصل او رجع خليه يتصل بي .

ـ حاضر يا عمو ، تصبح على خير !

ودارت الدنيا بالحكيم : « هل يحتمل ان تكون الطائرة سقطت بالسلطان ولم يسمع بذلك ؟ هل تعمدوا ان يخفوا عنه الخبر لكي ينقلوه اليه على مراحل ، والى ان يهيأ نفسياً ؟ ولكن هل يتم ذلك عن طريق الراديو وان يكون هو مثل جميع الناس؟» وتراءى له أن وداد وسلمى والسلطان وجميع الذين كانوا على الطائرة اصبحوا رماداً وتناثرت جثثهم على مساحات كبيرة من الارض او ربما سقطوا في البحر . ضرب طرف الطاولة فاهتزت واهتز الراديو فوقها . قال لنفسه بنوع من التحدي « ماذا لو ذهبت الى القصر ؟ » واحس بالاهانة ، كيف يمكن ان ينسوه او ان يؤجلوا دعوته ؟ حماد من هناك اتصل به ، ووعد ان يتصل مرة اخرى ، لكن شيئاً ما شغله . حتى مطيع دُعي للقصر ، وهو هناك منذ ساعات فهل يعقل ان ينسوه او ان يتعمدوا عدم دعوته ؟ والامير فنر ، هل هناك علاقة بين زيارته المتوقعة بين لحظة واخرى والاخبار الهامة ؟ والسلطان . . هل تم الاتفاق معه على كل شيء ؟

وحاول ان يتصور كل انواع الاخبار المهمة الممكنة : تصور زيادة رواتب الموظفين ، وتصور زيادة القروض التي تعطى لبناء المساكن ، وسلف الزواج ،

وشطّ به الخيال وتصور احتمال اعلان زواج الامير فنر ، خاصة وان اليوم هو الخميس ، وتصور ان تكون هناك مفاجأة هيئت له ، وقد تم الاتفاق عليها مع السلطان ، على ان تعلن بعد سفره ، كأن يُسّمى وزيراً او ان يعهد اليه بمهام جديدة . ولا يعرف لماذا فكر ان تمنح مجموعة من الاوسمة الى عدد من الشخصيات المهمة ، و « ان الجماعة الآن في القصر يتباحثون حول الوسام الذي يجب ان يعطى للدكتور صبحي المحملجي ، تقديراً لخدماته لسلطنة موران . . وطبيعي ليس من المناسب بحث هذا الامر بحضوري » .

كل خاطر يمرّ كالشهاب في ذهنه ، لا يتوقف ولا يتكرر ، كما انه لا يملك اي دليل لنفيه او لتأييده . انه حائر الى أقصى حد ، حائر وموزع ، ولا يعرف كيف يتصرف . ومما يزيد في حيرته ايضاً انه لا يستطيع ان يتحرك « قد يأتون كلهم دفعة واحدة ، وعلى رأسهم الامير ، وقد تجري حفلة تقليد الاوسمة هنا ، في قصر الخير ، زيادة في التقدير ، وقد يطلب مني الامير ان اقوم نيابة عنه بتقليد بعض الاوسمة » ولام نفسه انه سمح لرضوان بمغادرة موران بعد ظهر ذلك اليوم لحضور زفاف احد اقربائه قرب الرحبة . لو كان رضوان الى جانبه لكلفه ببعض المهمات ، أما سواق القصر فانه لا يرتاح اليهم . كان من السهل على رضوان ان ينبش حماد او مطيع وان يأتي بهما اينما كانوا . يعرف كيف يصلهم ، والجميع يعرفونه . « أما هذا الأهبل (يعني أبو عبدالله) فلا يمكن ان يكلف بشربة ماء ، ولولا انه بهذا الشكل لما أمنت ان يبقى داخل البيت ! » .

وفي كل مرة تعاد اذاعة البلاغ حول الاخبار الهامة تزداد حيرة الحكيم وتتضاعف ، كما يزداد تردده في الاتصال باحد للاستفسار منه .

حماد لم يتصل وكذلك مطيع . نادية لم تتصل . وفكر ان يتصل بسعيد او رضائي ، ومرّ بذهنه طيف بدري المدلل ، ويتذكر اللحظة الأخيرة عند الطائرة ، قال له ابو مصباح وهو يبتسم :

ـ لا يكون لك فكر ، يا أبو غزوان . انا مع الجماعة في النهار . . وفي الليل !

الكلمة الأخيرة لم تعجب الحكيم ، لكن لم يكن مستعداً للرد عليها ، خاصة في ذاك الوقت . وفكر ان يركب الكاديلاك السوداء ويسوقها بنفسه ، وان يذهب بجولة في موران ، وان يمر على رئاسة جهاز الأمن والسلامة ، سيجد حماد او احد معاونيه ، وهناك لا بد ان يعرف كل شيء ، لكن هذا الخاطر لم يغره كثيراً « سواقتي من فترة ، وفي الليل شيش بيش » .

بعد انتظار وتردد قرر ان يتصل مرة اخرى بحماد . عبد المولى لم يكن موجوداً ، كان مكانه شخص آخر ، وحين سأله الحكيم عن اسمه وعن صفته ، رد عليه بخشونة : « صديق » ولم يضف كلمة واحدة . وحين طلب منه الحكيم ان يبلغ عبد المولى او حماد انه اتصل اكتفى بكلمة واحدة ايضاً : « زين » .

أما حين اتصل بمكتب مطيع فكان الجواب انه لا يزال في القصر ، وحين سأل عن اخبار العالم اكتفى مدير المكتب بان قال :

ـ الاخبار عندكم يا ابو غزوان !

وضحك .

لا يدري الحكيم متى انقطع خطه التلفوني ، فبين التاسعة والتاسعة والنصف ، وبعد تفكير عميق وتردد وانتظار قرر الاتصال بقصر السعد، وان يتحدث مع ولي العهد مباشرة ، خاصة وان أبا عبد الله الذي تشبه عيناه عيني قط ، بدا خائفاً مرعوباً حين دخل على الحكيم وابلغه ان دبابة تقف بالقرب من القصر ، وان الجنود نهروه عندما حاول ان يستوضح منهم ، وامروه ان يدخل بيته فوراً والا فسوف تطلق عليه النار .

* * *

بعدالكثير من الحركة والانتظار والقلق ، صدر في العاشرة البلاغ التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

« ايها الشعب الكريم

« بعدما آلت اوضاع البلاد الى الحالة المؤسفة الراهنة ، والتي تمثلت

بالاسراف والاهمال والعجز والابتعاد عن الطريق السوي ، وبعدما استعرض اصحاب السمو ابناء المغفور له السلطان خريبط هـذه الاوضاع ، فقـد قرروا بالاجماع تنحية السلطان خزعل وتسمية الامير فنر سلطاناً لموران » .

لـدقائق بـدا نمر عـاجزاً عن فهم الكلمـات التي سمعها ، كـان مرتبكـاً مذهولاً ، وقد زادت في ارتباكه تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه ابيه . وبعد ما كرّر المذيع قراءة البيان عدة مرات قال شمران :

ـ دائماً . . العجلة من الشيطان !

قال نمر وكأنه يحدث نفسه :

ـ لا بد وان يكون هناك خطأ ما !

وقبـل ان تنتصف تلك الليلة كـان قـد القي القبض عـلى اولاد شمـران الثلاثة ، أما صالح ، الذي تعود ان ينام مع الخيل ، فلم يسألوا عنه ولم يهتموا بـامره ، او ربمـا قبضوا عليـه دون ان يعرف أحد . ورغـم ان شمـران ثـار وشتم ، وحاول ان يلجأ الى العنف ليمنع اعتقالهم ، فان الاولاد الثلاثة كانوا من رباطة الجأش ، وحتى تفهم الاسباب ، ما جعلهم يمنعون اي شيء اسوأ .

صحيـح ان شمران لم يستـطع ان ينام لحـظة واحدة . وظـل يتنقل بين السطح وباب الدار ، الا ان فكره مع تقدم الليل ثم اقتراب الفجر ، اصبح اكـثر صفاء ، اذ زايله الانفعـال وبدأ ينـظر الى الامـور نـظرة مختلفـة ، قـال لنفسه : «كلها كم يوم ويّردون» أما زوجته التي نامت ، او تظاهرت بالنوم ، فقد نهضت ، مثل عادتها ، عند الفجر ، لتعد الخبز ، ولتبـدأ يوماً جـديداً . وحين سألته ان كان الاولاد قد عادوا ام لا ، فقد رد وهو يحاول الابتسام :

ـ لا تخافي ، يا ام نمر ، يرّدون ، اذا ما هو اليوم اللي عقبه !

أما تلك الليلة ، والصباح الذي تلاها ، وحتى الساعة الثانيـة عشرة من يوم الجمعة ، فلا يتذكر الحكيم كيف احتملها وظل حياً ، فقـد تناوب عليـه الخوف والبكاء والمرض ، وسمع اصواتاً ورأى اشباحاً ، او هكذا خيل اليه ، بحيث كان متأكـداً انه سيموت قبل ان تشـرق الشمس . أما سـاطور اللحم

الذي وضعه الى جانبه فلم يدر ابو عبد الله اكان سلاحاً للدفاع عن النفس او اداة ليقتل بها نفسه ، وعندما نحّى الساطور ، وحاول ابعاده صرخ فيه الحكيم صرخة افزعته ، بحيث وقع منه كأس النعنع الذي صنعه للحكيم لكي يخفف من حرارته ولكي يهدئه .

عند ظهر الجمعة جاءه معاون حماد، ابلغه بكثير من الهدوء ان يستعد للسفر ، بناء لاوامر من القصر ، وان امامه ساعة واحدة لكي يكون في المطار . .

لا يستطيع الحكيم ان يتذكر جميع التفاصيل . سمع ما قاله معاون حماد بكثير من الرزانة ، لكن دون انتباه ، ولم يفهم سوى كلمة واحدة : المغادرة . قال له اشياء اخرى لكنه نسيها كلها . ربما قال له ساحل العاج او جزر القمر، أو ربما قال له كوريا أو موريا، ويتذكر أنه سمع مالطا، أيضاً، المهم يجب ان يكون في المطار خلال ساعة واحدة ، وقبل منع التجول .

وضع الحكيم في حقيبة صغيرة الاقلام كلها واختار الدفاتر السبعة، وفكر لو يأخذ القفطان الاسود ، لكنه تردد ثم صرف النظر .

ثلاثة من رجال الأمن رافقوا الحكيم الى المطار . حين مروا قرب جامع السلطان خزعل قال احدهم :

ـ بعد اليوم موران مابها لا حرامية ولا طبول ، واللي ما انقص رأسه هالحين انقص لسانه .

ارتجف الحكيم ، نظر الى الجهة الثانية لكي لا يرى الحشد ، ولا ماذا يجري . أما بعد ان ركب الطائرة ، وبعد ان جلب له المضيف كأس الماء الذي طلبه فقد تناوله بيد مرتجفة ولأول مرة يشعر أن الماء له طعم لذيذ، ألذ من أية مرة سابقة .

سمح بالتجول اربع ساعات يوم الجمعة ، من العاشرة حتى الثانية .

لبس شمران ثيابه واراد ان ينزل الى مقهى زيدان ، لكن احد رجال حماد ، وكان مرابطاً عند الباب ، ابلغه ان حده المسجد ، واسلم له ان لا يتعداه . واذا كان شمران قد نسي شتيمة في الليلة الفائتة فلم ينس ظهيرة الجمعة . لم يكتف بالشتائم ، استعمل يديه الاثنتين وساقه اليمنى في التعبير ايضاً ، وطلب من الرجل ان يبلغ حماد كل كلمة سمعها ، وان يضيف اليها ايضاً ما يشاء من الشتائم ؛ والرجل الذي بدا خائفاً او محرجاً قال كلمة اقنعت شمران وجعلته يهدأ قليلاً ، قال له في لحظة صمت ، بعد الانفعال الجامح :

ـ يا ابو نمر ، افهم كل اللي تقوله ، بس انا عبد مأمور !

هز شمران رأسه بلوعة وكتم غيظه . بدا له ان معركته ستكون صغيرة وتافهة ان اقتصرت على الرجل الذي امامه ، يريد رأساً ليحاربه ، يريد حماد او من هو اكبر منه ؛ واذا لم يكن اليوم ففي يوم آخر . تطلع في اكثر من ناحية وكأنه بهذه النظرات يصرّف غضبه ، يدفعه بعيداً . فجأة . وبلهجة ابوية ، وان لم تخل من السخرية ، سأل الرجل :

ـ واذا شمران راد ينزل للسوق ينزل او يبقى حريمة في البيت ؟

رد الرجل بارتباك :

ـ يا عمي شمران ، يا ابو نمر ، الدنيا اليوم تغيرت ، والاحسن ان الواحد ما يعرض نفسه للتهلكة !

ـ وكل الله ، يا وليدي ، ولا تخف .

زيدان الذي فتح مقهاه ولم يفتحه ، خلال ساعات التجول ، اذ ترك الباب مواربأ ونصف مفتوح ، كان يريد ان يرى الناس ، ان يسمع اخبارهم ، وكان شديد الخوف ان يكون بعض اصدقائه ، خاصة صالح ونمر ، وربما شمران ، قد تعرض للاذى ، أما وهو يرى شمران داخلاً المقهى فقد هجم عليه وعانقه بحرارة وكأنه لم يره منذ وقت طويل ، سأله عن صالح وسأله عن نمر ، رد شمران وهو يبتسم :

ـ اولاد شمران الثلاثة ضيوف ابن المطوع ، قال لهم انتم ضيوفنا فضافوه !

وهز رأسه عدة مرات ثم اضاف :

ـ كم يوم ويردون !

وبعد قليل ، لكن بحزم :

ـ شباب ويحملون ، ياكلون الصخر . .

وتغيرت لهجته تماماً :

ـ خوفي ، يا ابو جاسر ، على صالح ، شيبة ، وما يحمل . . .

وتغيرت لهجته مرة اخرى ، بدت اقرب الى التآمر :

ـ واذا ابن المطوع ما ظفر به ليلة امس لازم ندبره ، ولازم يغيب عن العين كم يوم ، لانه مثل ما قالوا جماعتنا : احفظ راسك اذا تغيرت الدول !

ـ الحق اللي تقوله يا ابو نمر . . .

وبعد قليل :

ـ وعندي مخزن ، يا ابو نمر ، مثل جب يوسف ، العفاريت تضيع فيه ، فاذا دخله ابن الرشدان موران كلها تدوره وما تلقاه .

في هذا الجو ، واثناء دخول بعض الناس ليسألوا او ليعرفوا ، جاء من قال ان صالح الرشدان أُخذ من بيته قبل ان يؤخذ اي انسان آخر. قال شمران بألم :

- راح يطّلعوا فيه الاول والتالي ، يا ابو جاسر .

وزفر ثم اضاف :

- لكن الموت مع الناس رحمة !

- وكل الله ، يا ابو نمر ، لان موران ما تتغير ، والنفس تظل نفس ، وينأخذ بثارها ولو بعد أربعين سنة .

- كل شي تغير بموران يا ابن الحلال ، وحماد اكثر واحد تغير .

- بس موران ما تتغير .

- نشوف !

ورغم ان شمران قد سمع الاذان فانه لم يتحرك . كانت تشغله امور اخرى ، كان يفكر ان يمر على بيت صالح ، ان يأخذ بعض الاشياء وان يترك لهم بعض المال ، وكاد ينهض حين رأى زيدان مشغولاً ، لكنه اجّل ذلك الى ان تنتهي الصلاة ، وفكر ان يكون زيدان معه لكي يشعر اولاد صالح ان لهم اعماماً كثيرين . قال لزيدان الذي كان يستفسر من احد « البلابل » عما حصل :

- ورانا يا زيدان زيارة اللي ما ماتوا !

وحين تطلع اليه زيدان مستغرباً عبارته ومتسائلاً ، تابع شمران :

- اولاد صالح برقابنا يا مبارك ، ولازم نمرّ بهم .

وبكثير من الحرص صرف زيدان « البلبل » ، وطلب منه ان يمر في اليوم التالي ، لان لديه الآن اشغالاً هامة . . « وتعرف . . بعد ساعة يبدأ منع التجول» .

فجأة ، مثل انطلاق رصاصة بطريق الخطأ ، انفجر الاطفال والصبية امام مقهى زيدان ، وكأنهم بشكل غريزي عرفوا الصلة ، وبكلمات متداخلة متلعثمة قالوا ان شيئاً هاماً وخطيراً ، يعني المقهى وناس المقهى ، يجري قرب المسجد .

احس شمران من الكلمات المبعثرة ، من النظرات الخائفة ، ان الأمر يعنيه قبل ان يعني اي انسان آخر ، ودون انتظار او سؤال ، اندفع . وزيدان الذي اندفع وراءه ، تاركاً باب المقهى مفتوحاً ، تداخلت أفكاره واختلطت : « نمر بن شمران ؟ اخوته ؟ احد آخر ؟ » .

كانت الصلاة قد انتهت في جامع السلطان فنر ، هكذا سمّاه امام المسجد ، بدلاً من مسجد السلطان خزعل . وكانت حلقة الناس التي تحيط بالساحة من كل الجوانب ، تتراجع وتتسرب بعد ان شهد الكثيرون تنفيذ الحد « باللصوص » الذين قطعت ايديهم . وشمران الذي كان يتراكض ويتطلع بالوجوه لم يكن يعرف هل يبحث عن احد ام انه مجرد حب الاستطلاع ، ومع ذلك كان يمتلىء غيظاً وحقداً .

قال كل من كان في ساحة السلطان خزعل ، ورأى شمران هائجاً مثل جمل ، ان يَمَامَ المسجد لم يكن يقل عن شمران هياجاً ، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماماً ، كما لم يفعل من قبل ، ويصفق باجنحته وتصدر منه اصوات وحدها كانت ، وصوت شمران ، تملأ الساحة . وفي لحظة معينة ، عندما انتزع شمران غترته وعقاله ، واخذ يلوح بهما ، وكأنه يهزج او يهدد ، كان اليمام فوق رأسه يشاركه ، كان يسفّ ويحلّق ، أما حين اخترق شمران الناس مثل سهم ، وأفسح له الكثيرون الطريق لاشعورياً ، ووصل الى وسط الساحة ، والتقى بصالح ، فقد صرخ صرخة ملأت الاسماع :

ـ ديار الظالمين تاليها الخراب . . وحنا واياهم والزمان طويل .

كان صالح يلبس عباءة شتوية تغمره كله وتزيد عليه ، ولم يكن يظهر منه سوى وجه مقدود مثل خشب النخيل ؛ كانت عيناه تملآن هذا الوجه ، أما عندما هجم عليه شمران وغمر وجهه في صدره ، في عباءته ، وتطلع اليه ، فقد التمعت العينان المشرقتان الكبيرتان الحازمتان، وترافقت التماعة العينين بهزات عديدة من الرأس ، وقالت كل شيء ، وحين سأله شمران ، بكلمات متلعثمة ، هل حدث شيء ، هز صالح رأسه نفياً . ولما تطلع اليه من جديد ليتأكد ، بدا في عباءته ، قوياً معافى اكثر من اية فترة سابقة .

في الليل ، وزيدان يحاول ان يتغلب على الصمت الثقيل الذي ران على الرجال المحيطين بصالح ، والذين اصروا أن يكونوا الى جانبه في ذلك اليوم ، اذ تحدث زيدان في امور كثيرة ، فقد اكد انه سيكون فخوراً وسعيداً اذا عاونه صالح في عمل المقهى ، رد صالح ، وكانه يخاطب شمران بالذات :

ـ ومثل جعفر الطيار ، يا ابو نمر ، اذا راحت اليمنى الثانية متينة وتدق زين !

رد شمران بيأس :

ـ اذا عمّت المصيبة هانت ، يا صالح .

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه :

ـ اول الغضب جنون وآخره ندم ، ونعيش ونشوف وبعدها نسولف ، او اللي يجون عقبنا يسولفون !

قبل أن ينقضي الصيف اعيد تشكيل الحكومة، اصبح حماد وزيراً للداخلية ومالك الفريح وزيراً للمال، أما مطيع فقد اصبح مستشاراً للاعلام في القصر. وفي بداية الخريف اقيمت غرفة للصناعة، وانتخب رضائي رئيساً لها، أما الغامدي فقد استمر في غرفة التجارة، وجاء راتب الفتال نائباً للرئيس. وغزوان جاء الى موران ثلاث مرات خلال هذه الفترة، وبدا لكل من رآه انساناً مختلفاً عن المرة السابقة، وقد التقى السلطان في كل المرات التي جاء فيها لكن لم يشر في الصحف الى ذلك، كما انه ألغى عدداً من مواعيده، او الزيارات التي كان ينوي ان يقوم بها في آخر لحظة، لضيق الوقت!

وقبل ان ينقضي الخريف اطلق سراح بعض الذين اعتقلوا، وكان بين هؤلاء بدر. أما نمر ونجم فقد بدا ان اقامتهما ستطول، وهذا ما اكده بدر لابيه ايضاً، ولذلك وطّن شمران نفسه الا ينتظر والا يتوقع. عاد الى مقهى زيدان، وعاد الى نفس الوضع الذي كان فيه من قبل. وصالح الذي وافق على ان يعمل في المقهى، بعد عدة اسابيع من الالحاح والرجاء، عاد انساناً مختلفاً: الشتيمة جزء من العمل، ومن يعترض يمد اليه يده: دليلاً قوياً حاسماً على انه يجوز له ما لا يجوز لغيره. والذين عرفوا صالح وتعودوا عليه من قبل، لا يتساءلون ولا يترددون في تأييد ما يقول، اما الذين جاءوا حديثاً الى مقهى زيدان، او «البلابل» فقد كانوا ينظرون بدهشة وتساؤل عن «هذا الذي لا يخاف وما عنده لحية مشطة». وزيدان الذي يشعر بالحرج، ويحاول

ان يحمي صالح في نفس الوقت ، كان ينّوع اجاباته حين يُسأل عن هذا الذي يقال او يسمع في المقهى ، والذي تناقله الآخـرون ايضاً : « صـالح من ذاك اليوم صار مثل ميزان الجزر ، اختل ، بايع ومخلّص وما يلزم ان الواحد يسمع كلامه » أما الذين يـرفضون أن يصدقوا مثل هذا الادعـاء ، وكانت لهم صلة بالجهاز ايضاً، فكان يقول لهم محذراً «خذوا بالكم، يا جماعة الخير، ترى صالح واصل ، واصل لفوق فوق ، ويـريد يختبـركم ويورطكم ، والاحسن لكم : لاشفنا ولا سمعنا ، وهذه نصيحة اخ لاخ ! » .

وصالح الذي لا يترك صغيرة او كبيرة ، لا يقوى على البقاء في المقهى ، ان يظل مربوطاً او محبوساً ، خاصة اذا لم يجيء شمران. كان يترك المقهى الى الدكاكين المجاورة ، وبعض الاحيان لا يتردد في ان يـذهب بعيداً . وزيـدان الذي يحس ان ابتعاده افضل من وجوده لا يعترف ولا يريـد تبريـراً للبعد او الغياب ،.فقط يريده الا يتورط اكثروألا يحصل له اكـثر مما حصـل . وصالـح الذي يسمع مايقوله زيدان لشمران حول سلوكه ، يعلق ساخراً :

ـ يا جماعة الخير . مثل ايام السوق ، اتركوا صالح يقول اللي ما تقـدرون عليه .

ويـوافق شمران بهـزات رأسه ، بـل ويعتبر ان مـوقف صالـح في منتهى الصواب . يلتفت الى زيدان ويعلوصوته :

ـ يا ابو جاسر : سألوا فرعون من هو اللي فرعنك ؟ قال : ما لقيت احداً يردني ؛ فاذا ظلينا مثل الغنم ترى يا كلونا وما يوفرونا .

وبعد قليل وهو يزفر :

ـ واذا خفنا كلنا خـل واحد ينّفس عن الـلي في قلوبنا ،خله يحكي ، خله يقول .

وظلت مـوران تدور . فـاذا سئل شمـران عن ابنائـه ، ان خـرجوا من السجن ام لا كان يجيب حسب الجـو ، ان كان الجو حاراً يجيب :

ـ بجبـل سمعان ، وسلطان ذيـك الديرة يقـول لهـم انتم ضيوفنـا ويلزم تظلون ؛ وانتم تعرفون الضيف اسير المعزّب .

أما حين بدأ الخريف ثم جاء بعده الشتاءفكان يجيب :

ـ تراهم بالغور الصافي ، وهناك دفا وعفا!

وبعد قليل وبحزن قاس :

ـ ويرجعون !

* * *

كان يمكن لشمران ان يواصل انتظاره وترفعه ، اذ بعد ان امتنع عن زيارة ابنيه ، خلافاً لما فعل الكثيرون ، بعد ظهر كل جمعة ، ومنع زوجته ، معتبراً ذلك لا يليق بأي منهما، وكلف بدر بزيارتهما وتأمين ما يحتاجان إليه، إلا أن تلك الجمعة ، في نهاية الشتاء ، وبعد زيارة قصيرة للسجن ، لم يسمح لبدر خلالها بادخال الملابس والأكل ، وقد رأى كيف تورم وجه نجم وازرق في عدة مواضع نتيجة الضرب والتعذيب ، ونقل بدر لأبيه ما رأى ، كتم شمران غيظه ولم يتكلم ، أما في اليوم التالي ، في المقهى ، وحين رأى شداد داخلاً ، فقد قال بغيظ اقرب الى السخرية :

ـ الملك لله يا ابو غانم، ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم !

كان يريد ان يبلغ حماد رسالة عن طريق عمه ، وحين هز شداد رأسه وابتسم ، وبعد ان تبادل التحيات مع شمران والآخرين ، قال كأنه يرد على الكلام الذي سمعه :

ـ زيارة فاتحة يا ابو نمر ، قصيّرة وتنقضي !

ـ تراها طالت يا ابو غانم .

ـ تقضي ، ولا تخف يا ابو نمر .

ـ الخوف مات بقلوبنا يا ابن الحلال ، لكن ما عاد بنا صبار !

وهز شمران رأسه عدة مرات ، وكأنه يفكر او يتذكر ، ثم هدر صوته :

ـ تذكر جماعتنا ، يا ابو غانم ، بالسوق ، شلون قالوا وشلون سولفوا .

تنحنح وتابع :

ـ قـالـوا انـه في نهايـة الـزمـان مـا تلقى الا اولاد الحـرام ، والسفلة ، والاوباش ، والنهـابـين ، وحفاري القبـور . وما تشـوف الا السفاحـين والقوادين والسماسرة ، وينبع من جوا القاع اللئام واصحاب القراطيس السودا والخصيان والمدندشين بالنياشين وحامـلي الاختام واصحـاب الشفاعـة وكتاب السلاطين . وقبلهم تشوف المنجمين وفتـاحي الفال والـلي يرّقصـون الحيايـا ويحلبون العصافير ، وهذون وغيرهم ما لهم شغل الا يطيبون ويطبطبون عـلى الاكتفاف ويبوسون اللحى . . ويقولون : عنز ولو طارت .

وهز رأسه دلالة المرارة وتابع بنبرة جديدة :

ـ اي نعم . . وفي نهاية الزمـان يملا الارض الايتـام والارامل والمجـانين والحشاشين والدراويش والهاربـين من الظلم ، وتمتـلىء الشوارع بـالجوعـانين والمظلومين ، وتصير البلاد من اولها لتاليها سجن كبير فيصبـح الداخـل مفقود والخارج مولود ، لكنها ما تدوم .

. . . رفع صالح يده المقطوعة بفخر وقرّبها من وجه شداد، وقال بسخرية :

ـ تشوف عينك ، يا ابو غانم ، هـذا من كرم الاجـاويد الـلي يسولفـك عنهم ابو نمر .

تنحنح شمران وخرج صوته حاداً اقرب الى النزق :

ـ وتعرف يا ابو غانم . . في نهاية الزمان ما يتميز بين الابيض والاسـود ، بين الحلال والحرام ، ويكثر في ذاك الزمان الانبياء الكذابين واللـي يحملون الخرق والاعلام . . ويظهر الاعور الدجال .

. . . واللي يتولون الامر، اللي يحكمون ويرسمون، في نهاية الزمان، يا ابو غانم ، يصيرون تنابل وما يعود بقلوبهم شفقة او رحمة ، ويظنون انهم معمرين مثل نوح عليه السلام ، ويطلقون ازلامهم يقتلون وينهبون ، لكن اذا جاءت النازلة أنكر الابن أباه والعبد مولاه، وسلحوا على أرواحهم وبكوا فزعاً ولعنوا الأقربين والأبعدين وقالوا ليتنا كنا نسياً منسياً!

قال شداد المطوع ليطيب خاطره :

ـ وكل الله يا ابو نمر ، وانشاء الله ما يصير الا الخير .

تابع شمران وكأنه لم يسمع :

ـ وهذا اللي تشوفه عيونك يا ابو غانم نهاية الزمان ، وان غداً لناظره قريب !

قال زيدان من مكان بعيد :

ـ وبين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال .

وبعد الكثير من الالحاح استطاع شداد ان يقنع شمران بمرافقته لكي يقوما معاً بزيارة الى حماد، وهذه الزيارة كفيلة بالافراج عن نمر ونجم. وشمران الذي بـدا رافضاً ثم متردداً لم يستطع ان يقاوم طويلاً ، خاصة حين تدخل زيدان واصدقاء آخرون ، قال شداد ليؤكد هذه الموافقة :

ـ نتقهوى ونأخذ اولادنا ونمشي .

* * *

فوجىء شمران بالصمت الذي يخيم على الوزارة ، ظنها أول الامر خالية ، اشبه بمقبرة ، لكن وهو يرى بعض الرجال في الممرات ، يخرجون ويدخلون ، فقد تراءى له انهم مجموعة من الخرسان او السائرين في نومهم . تطلع اليهم وتطلع الى شداد ، أما حين وصلوا الى غرفة عبد المولى ، بعد ان مروا عبر عدة غرف ، فقد رحب بهما الرجل كما يرحب اللصوص بعضهم ببعض ان التقوا ليلاً قبل بدء العمل: كان يتكلم بصوت لا يكاد يسمع، وكان يرد باستمرار على تلفونات لا يُعرف متى رنت او كيف ، فاذا انتهى لا يكف عن إعادة ترتيب الأوراق. لام شمران نفسه كثيراً أنه جاء، وشعر بالاشمئزاز وما يشبه الرهبة ، لكن صخب شداد وطريقته في التصرف جعلته ينسى ولا يقيم وزناً لكل ما يرى .

بدا حماد ودوداً ومتحفظاً حين دخلا عليه ، وظل وراء مكتبه وانشغل اكثر من مرة بالرد على التلفون . حين اصبح مستعداً لسماعهما قال له عمه بمداعبة خشنة :

ـ يا وّل يا حماد هذي موران وهذون ناسها ؛ واشار الى شمران وتابع :

والدم مايصير ماي .

ابتسم حماد ولم يجب ، تابع شداد :

ـ قم حب راس عمك شمران وقل له سامحني .

رد شمران :

ـ اذا ردت تضحك علي الرجال بوس لحاها !

وتغيرت لهجته وهو يضيف :

ـ اللي صار بينا يا ابو غانم ما ينّسىٰ .

والتفت الى حماد وتابع :

ـ ما دمنا جينا انا وعمك شداد نريد نذبحها عـلى قبلة ، اذا كان الاولاد مذنبين فذنبهم على جنبهم ، شباب ويتحملون ، واذا كانوا ابرياء فكل شيء له نهاية .

ضحك حماد بصخب في محاولة لان يتغلب عـلى الحرج ، وبعـد ان هدأ وخيم الصمت تنحنح ثم قال دون أن يرفع عينيه :

ـ القضية بالنسبة لنمر سهلة ، اذا اعـطانا تعهـد ان يبلع لسانـه ، ان لا يقول كلمة واحدة ، ويترك الحكومة وسوالفها . . يطلع . . .

وصمت فترة لكي يختبر رد فعل شمران او ليعرف جوابه ، فلما لم يجب ، تابع بلهجة مختلفة :

ـ أما سالفة نجم فسالفة ثانية .

ولم ينتظر ، سحب من درج مكتبه ملفاً كبيراً وبدأ يقلبه وهو يهز رأسه ، وبعد ان خيم الصمت فترة غير قصيرة ، قال شداد :

ـ اتركنا من القراطيس وبحّر بي زين يا حماد .

رفع حماد اليه وجهاً صلباً ومنتظراً ، تابع :

ـ اللي قالوا لك يكذبون يا حماد ، ونجم ما مثله .

رد حماد بحدة :

ـ يا عم . . نجم وجماعته يريدون دمنا ، وهـذا الكلام مـا هو قيـل عن قال ، انا باذني سامعه ، واذا كنا مستعدين ان نتسامح مع نمر ، ونقول عفا الله عما مضى ، اذا سكت وتأدب ، فسالفة نجم شيء ثاني !

تـطلع الى شمران وابتسـامة متسـائلة تمـلأ وجهـه . ثم التفت الى عمـه وسأل :

ـ شنهو قولك يا عم؟!

قال شمران وهو يقف :

ـ مشينا يا ابو غانم .

وخطا . أما شداد فقد قال وهو ينهض :

ـ يا وّل يا حماد ترى الدنيا ما هي يوم ولا اثنين ، وخاف تندم .

قال شمران وقد اقترب من الباب :

ـ كل واحد له حق يصله، وخلي نمر يوّنس اخوه يا حماد . . ونشوف !

واستمرت موران تسمع وتتوقع وتنتظر !

انتهت

كانون الثاني ١٩٨٥

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت صدر الجزء الأول من ثلاثية «مدن الملح» هذه بعنوان (التيه).

وهذا هو الجزء الثاني وعنوانه (الأخدود).

وقريبا يصدر الجزء الثالث بإذن الله وعنوانه (تقاسيم الليل والنهار).

الناشر

دار نعمة للطباعة
الرملة البيضاء تلفون: ٨٠٢٢٤٦ بيروت ـ لبنان

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر
صدر للمؤلف :

- حين تركنا الجسر
- شرق المتوسط
- سباق المسافات الطويلة
- عالم بلا خرائط
- الاشجار واغتيال مرزوق
- مدن الملح (التيه)
- مدن الملح (الأخدود)
- قصة حب مجوسية

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية
ضياء العزاوي

رواية

مدن الملح - الأخدود

«... هكذا كانت موران عبر مئات السنين. صحيح أنها كبرت واتسعت في بعض الفترات، ثم تراجعت وصغرت في فترات أخرى، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة».

«... أما الذين حكموا موران وما حولها فكانوا يخافون هذه المدينة أكثر مما يحبونها، وكانوا دائماً يتوقعون أن تنشق الأرض فجأة وتأتي على كل شيء، وهذا التوقع الذي ملأ الحكام منذ أن وُجدت موران، وإن لم يدركوا له سبباً واعياً، ملأهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً: أن يعيشوا ليومهم، أن لا ينتظروا الغد، لأن الغد، أغلب الأحيان، لا يأتي. هذه الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى [illegible] جعلت موران دائمة التوقع، تنتظر ولا تَمل من الانتظار، و[illegible] عيون الناس لا تفارق قصر السلطان، أياً كان هذا السلطان».



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت